المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

القومية العرقية

وسقوط الإمبراطوريات

أوروبا الوسطى، وروسيا، والشرق الأوسط

(1917 - 1923)

تأليف: أفيل روشفالد

ترجمة وتقديم: عاطف معتمد

عزت زيان

1891

القومية هي القضية الأساس التي انشغل بها هذا الكتاب، وهي ظاهرة انشغل بها كثير من الباحثين والقراء، خاصة منذ انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكك دول البلقان وانتقال دول شرق أوربا ووسطها من المعسكر الاشتراكي إلى غريمه الرأسمالي.

ورغم الجهود الكبيرة التي قُدمت في سبيل دراسة القومية فإنها لا تزال ملتبسة المفاهيم ومتداخلة الأبعاد؛ إذ هي رهينة بأحداث سياسية وثقافية واجتماعية تجعل من الصعب دراستها بوصفها ظاهرة منعزلة، فضلا عن تباين الأطياف القومية، من ناعمة متسامحة إلى مستبدة تعشق الإبادة الجماعية والتطهير العرقي وسفك الدماء.

لا يتوقف الكتاب عند مغامرة استرجاع أحداث مر عليها قرن من الزمن، بل هو يغامر أكثر فيوقف مهمته على دراسة عشر سنوات فقط، من مستهل الحرب العالمية الأولى (1914) إلى تكوين الاتحاد السوفيتي (1923). غير أن ما جرى في هذا العقد يحمل من التفاصيل والتشابك ما يرشحه لعمل موسوعي ضخم يذهب بالقارئ إلى غياهب التفاصيل ويحوّل الدراسة إلى سجل تاريخي يصعب معه تلمس العبر والدروس. وقد كافح مؤلف الكتاب - ونجح في كثير من الأحيان - في أن ينجو بنفسه من الوقوع في شرك الكتابة الموسوعية لتلك السنوات العشر.

تصميم الغلاف: محمد البرماوي

القومية العرقية وسقوط الإمبراطوريات

أوروبا الوسطى، وروسيا، والشرق الأوسط

(1917-1923)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1891
- القومية العرقية وسقوط الإمبراطوريات: أوروبا الوسطى، وروسيا، والشرق الأوسط
- أفيل روشفالد
- عاطف معتمد، وعزت زيان
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

Ethnic Nationalism and the Fall of Empires:
Central Europe, the Middle East and Russia, 1914-1923
by: Aviel Roshwald

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

القومية العرقية وسقوط الإمبراطوريات

أوروبا الوسطى، وروسيا، والشرق الأوسط

(1917-1923)

تأليف: أفيل روشفالد

ترجمة وتقديم

عاطف معتمد　　　　عزت زيان

2012

روشفالد، أفيل.

القومية العرقية وسقوط الإمبراطوريات: أوروبا الوسطى، روســيــا، والشــرق الأوسط (١٩٢٣ ـ ١٩١٧)/ تاليف: أفيل. روشفالد، ترجمة وتقديم: عـاطف مـعـتم، عـزت زيان ـ القـاهرة : الهـيـئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.

٤٦٠ ص ؛ ٢٤ سم. ـ (سلسلة المركز القومى للترجمة)

تدمك ١ ٠١٢ ٢٠٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القومية.

٢ ـ أوروبا ـ تاريخ.

أ ـ معتم، عاطف. (مترجم ومقدم)

ب ـ زيان، عزت. (مترجم ومقدم مشارك)

ج ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٢١/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 207- 012 - 1

ديوى ٣٢٠,٥٤

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

فهرس الخرائط

مقدمة الترجمة

يغامر الكتاب الذى بين أيدينا بالدخول إلى تجربة محفوفة بالمخاطر، فمنذ البداية يحيلنا عنوانه إلى أحداث وشخصيات مر عليها قرن من الزمان، تلك الفترة التى سبقت وعاصرت وتلت الحرب العظمى المعروفة بالحرب العالمية الأولى. ومع دخولنا العقد الثانى من القرن الحادى والعشرين، وفى ظل وقائع آنية متلاطمة تبدو العودة إلى أحداث عتيقة وملابسات بالية وشخصيات طواها النسيان ترفا ثقافيا لا وقت له.

غير أن القراءة المتأنية لهذا الكتاب تكشف عن جهد أكاديمى دءوب، وصبر على تتبع الأحداث وغزل خيوطها، وتشويق يستحضر الماضى ويجسده، كأنه وقع قبل يوم أو بعض يوم.

القومية هى القضية الأساس التى تشغل بال مؤلفنا فى هذا الكتاب، وهى ظاهرة انشغل بها كثير من الباحثين والقراء، خاصة منذ انهيار الاتحاد السوفيتى وتفكك دول البلقان وانتقال دول شرق ووسط أوربا من المعسكر الاشتراكى إلى غريمه الرأسمالى.

ورغم الجهود الكبيرة التى قُدمت فى سبيل دراسة القومية إلا أنها ما تزال ملتبسة المفاهيم ومتداخلة الأبعاد، إذ هى رهينة بأحداث سياسية وثقافية واجتماعية تجعل من الصعب دراستها كظاهرة منعزلة، فضلا عن تباين الأطياف القومية، من ناعمة متسامحة إلى مستبدة تعشق الإبادة الجماعية والتطهير العرقى وسفك الدماء.

ومما يزيد القضية تعقيدا أن القومية لا تتخذ لونا واحدا عبر العقود والقرون، بل هى تطور من نفسها وتستحيل إلى أشكال جديدة بحسب المتغيرات السياسية والعسكرية، وبحسب حجم المفاجآت التى تحملها التغيرات الراديكالية على المسرح الدولى، ناهيك عن وقوعها أحيانا دمية فى يد القوى الخارجية التى تبارك خطواتها وترعى مسعاها بينما تستخدمها لخدمة أهداف إمبريالية بعيدة المدى.

وتدين بعض أشكال القومية فى وجودها إلى صدمة المفاجأة وصدفة الظرف السياسى، فحين تتكون دولة قومية فى أجواء مضطربة واستثنائية من حروب عالمية أو إقليمية، فإن مراحل نموها الطبيعية - من الصبا والشباب إلى النضج والكمال - تختزل فى فترة قصيرة متعجلة، ومن شأن ذلك أن يخلق منها كائنا مشوّها ويصبغ سياساتها بكثير من النزق والرعونة.

المفاهيم

تعرَّف الأمة بأنها مجموع العناصر المشتركة من اللغة والجنس والدين والتاريخ والوحدة الجغرافية التى تميزها عما يجاورها من أمم. وحينما تترجم هذه المشتركات فى بناء سياسى له طموحات وتنافسات مع الأمم المجاورة، يتحول مفهوم الأمة (Nation) إلى الأممية أو القومية (Nationalism) بمعنى الانتقال من جسم ساكن إلى قوة متحركة متمددة. وتقف الأمة (Nation) فى موقع وسط بين المستوى الأدنى الذى تمثله القبائل والعشائر الذى قد يرقى إلى مستوى العرق فتؤلف الأعراق أمة، والمستوى الأعلى الذى تمثله الحضارة والتى تتألف من عدة أمم، فالحضارة الإسلامية تجاوزت أممًا فى قارات العالم القديم، والحضارة الأوربية احتضنت عبر تاريخها عشرات الأمم.

وللقومية أنواع، أكثرها هدوءا القومية المدنية التى لا تتعاطف مع التوجهات العرقية أو الدينية، وتنظر بمساواة إلى مختلف شرائح المواطنين فى ظل حقوق المواطنة. وأقربها للخطر القومية العضوية التى تستمد فيها الدولة شرعيتها من انتمائها العضوى لجنس بعينه وتهدف إلى مثالية السيادة والوحدة والتفوق. وتعتبر القومية المتدينة (Religious Nationalism) أخطر أنواع القوميات، وهى

حركة يمينية تزاوج بين التعصب الدينى والاستعلاء القومى، وتكمن خطورتها فى تحولها فى كثير من الحالات إلى حركة عنصرية تستهدف الأقليات الدينية والعرقية وبصفة خاصة حين تتحول إلى حركة مسلحة.

ولابد من الإقرار بأن ظهور القوميات المتدينة يأتى انعكاسا لعوامل متعددة أهمها: أزمة الهوية، والصراع مع علمانية الدولة، ومقارنة أوضاع الأغلبية بالامتيازات التى قد تحصل عليها الأقليات، والغزو الفكرى الخارجى، وطموحات مناطق الأطراف فى صراعها مع المركز، والمشروعات الانفصالية عن وحدة الدولة. وقد ساهم فى تشجيع كل الحركات السابقة التحولات المحورية فى حياة الشعوب كالثورة الصناعية وتقدم وسائل الاتصال وانتشار التعليم.

من جانبه يميز المؤلف بين نوعين رئيسين: القومية المدنية والقومية العرقية. ويقصد بالنوع الأول: تأكيد الشعب هويته الجماعية وحقه فى السيادة الإقليمية بناء على مجموعة مشتركة من القيم وعلى الولاء لدولة محددة المعالم. أما القومية العرقية فتشير إلى هوية جماعية تدور حول أسطورة أصل عضوى (بيولوجى) مشترك يعطى شرعية لا حدود لها للسيطرة الجغرافية.

على هذا النحو يميز الباحثون أحيانا بين نوعين من القومية، الأول هو قومية التوحيد الوطنى (Risorgimento) وهى كلمة إيطالية تعنى النهضة من جديد، فى دلالة على إعادة تجميع وحدات وأقاليم من دولة كانت موحدة يوما ما (على نحو ما تمت عملية توحيد شبه الجزيرة الإيطالية فى القرن 19). أما النوع الثانى فهو القومية التوسعية (Integral Nationalism) التى تعنى التوسع العسكرى على حساب أراض ومقاطعات ودول مجاورة تذرعا بالأصل العضوى أو الانتماء العرقى لدولة فتية وجدت لديها من القوة العسكرية ما شجعها على تبنى هذا النهج.

وفى كل الحالات تمر الحركة القومية بثلاث مراحل: النضج الفكرى، واستحضار مُثل بطولية (وأحيانا أسطورية) ثم حشد والتفاف جماهيرى. قد تنجح هذه المراحل الثلاث فى ظهور دولة قومية، أو على الأقل تضع الأسس اللازمة لقيام تلك الدولة. المفاجئ فى الأمر أن الدولة الوليدة قد لا تستمر فى احتضان الأيديولوجية القومية بحكم تداخل الظروف وتعدد المؤثرات وحلول الوسط التى قد تتبعها السياسات المحلية والدولية، وهنا يجد القوميون أنفسهم

فى موقع منعزل ومهمش لا يتناسب أبدا مع الطريق الطويل الذى قطعوه لتحقيق حلم دولتهم. ومما يزيد الصورة تعقيدا أن هذه الدول القومية الجديدة قد تضطهد القوميات والأعراق الأصغر شأنا داخل حدود الدولة وتذيقها ذات الكأس الذى تجرعته هى نفسها من قبل.

أبطال الرواية

لا يتوقف الكتاب عند مغامرة استرجاع أحداث مر عليها قرن من الزمن فحسب، بل هو يغامر أكثر فيوقف مهمته على دراسة عشر سنوات فقط، من مستهل الحرب العالمية الأولى (1914) إلى تكوين الاتحاد السوفيتى (1923). غير أن ما جرى فى هذا العقد التاريخى يحمل من التفاصيل والتشابك ما يرشحه لعمل موسوعى ضخم يذهب بالقارئ إلى غياهب التفاصيل ويحوّل الدراسة إلى سجل تاريخى يصعب معه تلمس العبر والدروس. وقد كافح مؤلف الكتاب - ونجح فى كثير من الأحيان - فى أن ينجو بنفسه من الوقوع فى شرك الكتابة الموسوعية لتلك السنوات العشر.

تربص المؤلف بثلاث إمبراطوريات كانت تحتل أكبر رقعة جغرافية فى قارات العالم القديم (أوربا وآسيا وأفريقيا) وهى الإمبراطورية الروسية (المنسوبة إلى أسرة رومانوف) والإمبراطورية النمساوية المجرية (المنسوبة إلى أسرة الهابسبرج) والإمبراطورية العثمانية (المنسوبة إلى مؤسسها عثمان الأول).

صحيح أن هذه الرقاع الجغرافية شاسعة ومتباينة الأمم والأعراق، غير أن الكتاب أوقف اهتمامه على الحركات القومية التى جاهدت لتحافظ على هويتها أمام سلطة الحكم الإمبريالى التى أخضعتها قسرا لنفوذه وسلطانه، وما أكثرها تنوعا وتعددا.

فعلى مسرح إمبراطورية الهابسبرج كانت هناك حركات قومية بولندية وتشيكية وسلوفاكية ومجرية وصربية وبوسنية وكرواتية وسلوفينية ويهودية. وعلى مسرح القيصرية الروسية جاهدت قوميات أخرى فى القوقاز الشمالى (شيشانية وداغستانية وشركسية) والقوقاز الجنوبى (أذر وجورجيون وأرمن) وقوميات تركستانية (فيما يعرف اليوم بآسيا الوسطى) وفى جبال الأورال (القومية التترية)

وفى أوربا الشرقية (أوكرانيون ويهود وليتوانيون). وفى الساحة العثمانية كانت خريطة القوميات العرقية الساعية إلى بلورة هويتها لا تقل تعقيدا، وضمت إلى جوار الترك طوائف قومية ودينية من عرب وكرد وأرمن وصرب وألبان وموارنة ودروز وعلويين ويهود.

وكان بعض من هذه القوميات يخضع لواحدة من الإمبراطريات لعدة قرون متعاقبة ثم تنقله الحروب والمعارك إلى رحمة إمبراطورية أخرى، على نحو ما تنقّل البلقان بين الهابسبرج والعثمانيين، وتنقّل القوقاز الجنوبى بين الإمبراطوريتين العثمانية والروسية، وتنقّل شرق أوربا بين روسيا والهابسبرج.

وبالإضافة إلى حملات القمع والإخضاع والردع التى اتبعتها القوات المركزية فى الإمبراطوريات الثلاث، عانت الحركات القومية لأشكال ناعمة من التذويب وابتلاع الهوية، فيما عرف بسياسة الترويس أو الروّسنة (صبع القوميات بالصبغة الروسية) والتتريك (صبغ القوميات بالصبغة التركية) والتمجير أو المجيّرة (فرض الطابع المجرى على القوميات الخاضعة لسلطة الهابسبرج).

وحين كانت الحرب تشتعل وتندفع الجيوش إلى ساحات المعارك وخطوط الجبهات كانت السلطات المركزية فى الإمبراطوريات الثلاث تنتبه أخيرًا إلى خطورة تفكك الجبهة الداخلية بانتفاضة القوميات الخاضعة قسرا، ومن هنا انهالت كثير من العروض الترغيبية على القوميات واعدة إياها بحكم ذاتى أو استقلال جزئى، وهى وعود اضطر إليها الحكام الإمبرياليون عن جبن وضعف لا عن قسط وشهامة. وفى ظل أجواء من التجنيد الإجبارى للقوميات شهدت جبهات القتال عمليات استسلام جماعى للقوات المعادية بل و"فرار إلى العدو" الذى كان فى بعض الأحيان أقرب فى العرق والدين من الأسياد القدامى، على نحو ما وجد الصرب أنفسهم أقرب للروس، ووجد المسلمون فى القوقاز الروسى أنفسهم أقرب للعثمانيين.

مسرح الأحداث

لا يبدأ هذا الكتاب من نقطة الصفر، بل يتجه مباشرة إلى قضيته المحورية المتعلقة بواقع الأقليات وتطورها خلال الفترة التى عاصرت وتلت الحرب العالمية الأولى فى الإمبراطوريات الثلاث. ولذا يبدو مفيدا لو أعطينا فى هذه المقدمة

لمحة تقديمية عن التطور التاريخى وأبعاد المسرح الجغرافى الذى ستدور حوله مناقشات هذا الكتاب.

إمبراطورية الهابسبرج

يشار إلى هذه الإمبراطورية ابتداء بـ «البيت النمساوى - House of Austria» وهو أحد أكثر البيوت الملكية أهمية فى التاريخ الأوربى، وينظر إليها كمصدر لكل الملوك الذين تم انتخابهم (شكليا) وحملوا اسم ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة وذلك خلال الفترة من 1438م و 1740م، كما كان هذا البيت أيضا مصدرا لحكام النمسا والإمبراطوريات الإسبانية وغيرها من الدول.

ويعود أصل هذه الأسرة إلى قلعة شيدها الكونت رادبوت (Radbot) فى 1920م وذلك قرب زيورخ (فى سويسرا اليوم). ونظرا لوقوعها على قمة جبلية عالية فقد سميت «هابيتش برج - Habitchtsburg» أى "القلعة العالية"، ثم تم تحوير الاسم لاحقا إلى "هابسبرج". وإذا كانت حدود الإمارة قد بدأت صغيرة فى الكانتونات السويسرية خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر تحت ملكية أبناء الكونت رادبوت، فإن الهابسبرج بعد أن فقدت هذه الأراضى السويسرية تمكنت فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر. وفى فترة عهد «الكونت رودلف - Rudolf» (1273-1291)م من أن تكسب أراض جديدة فى النمسا.

وتعتبر نقطة التحول الجيوسياسية فى اتساع ونمو الهابسبرج ذلك الحدث المفاجئ الذى وقع فى عام 1273م. ففى تلك السنة، وحين كان الأمراء الجرمان يختارون ملكا من بينهم، اتخذوا خطوة غير متوقعة واختاروا الكونت رودلف أمير الهابسبرج ليصبح ملكا عليهم، اعتمادا على الأصل الجرمانى المشترك بينهم وبينه، ورغبة فى الاستعانة بقوته العسكرية فى مواجهة تهديد المملكة السلافية فى بوهيميا (تشيكيا اليوم). وكان الأمراء الجرمان قد أفزعهم ضم ملك بوهيميا «أوتاكار الثانى - Otakar II» للأراضى النمساوية معتبرين ذلك أكبر تهديد للرقعة الجغرافية السياسية لألمانيا فى أوربا.

وقد تمكن رودلف من غزو النمسا وطرد ملك بوهيميا، وضم إلى أراضى الهابسبرج كل الأراضى النمساوية ومقاطعة تيرول الجنوبية (فى شمال إيطاليا اليوم) وما تبع ذلك من سيطرة إستراتيجية على الممرات التجارية الحيوية عبر جبال الألب.

لكن المفارقة أنه قبيل وفاة رودلف كانت الأراضى الأصلية فى سويسرا قد فقدت من الهابسبرج بعد معركتين حاسمتين أظهر فيها الفلاحون السويسريون أنهم مقاتلون أذكياء اخترعوا أسلحة جديدة كالخطاطيف التى كانت تنتزع فرسان الهابسبرج من أعلى صهوة جيادهم وتطرحهم أرضا. قنع الهابسبرج بخسارة سويسرا واتخذوا من النمسا مقرا جديدا لملكتهم، رغم أن "القلعة العالية" قد ضاعت مع الممتلكات المفقودة فى سويسرا.

بقيت أسرة الهابسبرج محتفظة بالنمسا فى وقت تأكد فيه ضياع سويسرا نهائيا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر كاد حكم الهابسبرج أن يتلاشى بسبب الانقسامات الداخلية، وهى الفرصة التى وجدها ملك المجر «ماتياس كورفينوس - Matthias Corvinus» سانحة لغزو النمسا واتخاذ فيينا عاصمة لملكته المتحدة «المجر والنمسا» فى 1485م. غير أن أسرة الهابسبرج سرعان ما استعادت مكانتها بعد موت ماتياس فى 1490م واستردت النمسا من جديد.

ويبدو أن أمراء الهابسبرج أدركوا أن الحرب ليست الوسيلة الناجحة لتعظيم ممتلكاتهم، فاعتمدوا الزواج والمصاهرة بدلا عن ذلك. وخلال عملية التزاوج والمصاهرة تمكنت هذه الأسرة من أن تضم لرقعتها الوراثية مناطق شاسعة وأعراقًا وقوميات متباينة شملت بورجاندى (شرق الوسط الفرنسى) وإسبانيا، وبوهيميا (تشيكيا) وهنغاريا (المجر) فضلا عن أقاليم ومقاطعات أخرى فى البلقان.

وفى القرن السادس عشر انفصل البيت الوراثى إلى الهابسبرج الإسبانى كجذع رئيسى للأسرة، والهابسبرج النمساوى كفرع لهذه الشجرة. ثم تلاشى البيت الهابسبرجى الإسبانى فى القرن الثامن عشر بعد انتهاء الفرع الإسبانى منه وحلول أسرة البوربون محله. أما الهابسبرج النمساوى فقد انتهى فى 1780،

بموت الإمبراطورة ماريا تريزا، وحلول بيت الهابسبرج . اللورين محله منذ ذلك العام.

وعادة ما يشار إلى هذه الإمبراطورية منذ عام (1804-1867) باسم «الإمبراطورية النمساوية»، بينما تعرف خلال الفترة الممتدة من 1867، وحتى سقوطها فى 1918، باسم «الإمبراطورية النمساوية المجرية».

الإمبراطورية الروسية

ظهر الروس كقوة محلية مع نهاية القرن العاشر الميلادى، كمجموعة من القبائل تسيطر على طرق التجارة الممتدة من بحر البلطيق فى الشمال والبحر الأسود فى الجنوب. ففى تلك الفترة ظهر اتحاد القبائل الروسية فيما عرف باسم روسيا الفرنجية (Varangians Russia) وعظم شأنها بعد تحالف عقدوه مع الإمبراطورية البيزنطية. وبعد نحو قرن من الزمن تبنى الأمير فلاديمير، حاكم إمارة روسيا كييف (فى أوكرانيا اليوم) المسيحية دينا وتم تعميده فى 988م.

منذ نهاية القرن العاشر الميلادى وقفت روسيا بديانة مسيحية أرثوذكسية فى مواجهة تتر الفولجا المسلمين المتحالفين عقائديا مع الدولة العباسية فى المشرق الإسلامى. فى المقابل كانت المسيحية الكاثوليكية فى كل من بولندا والمجر والدويلات الجرمانية، وفى الجنوب كانت مملكة الخزر اليهودية تترامى بين بحر قزوين فى الشرق والبحر الأسود فى الغرب.

ومنذ ذلك التاريخ تأثرت روسيا بالمفهوم البيزنطى القائم على إقامة "مملكة يسوعية" فصبغت طموحتها السياسية بالبعد الدينى المستمد من دعم الكنيسة الأرثوذكسية، التى اعتبرت الحروب والتوسعات الجغرافية للإمبراطور بمثابة خطوات على طريق إمبراطورية الرب التى ستسقط أمامها كل الدول والممالك.

وخلال الفترة من نهاية القرن التاسع وبداية القرن الحادى عشر تمكن أبناء الأمير فلاديمير من بسط سيطرتهم على المناطق المحيطة بالعاصمة كييف قبل أن تسقط هذه الإمارة الوليدة فى أيدى المغول بين عامى 1228 و 1462.

ويعود الفضل إلى أمير موسكو إيفان الثالث، أو إيفان العظيم، (1462-1505م) فى تحقيق الاستقلال عن المغول. وبدأ فى عام 1480م طريقه لتوحيد باقى الإمارات الروسية. ومعه تبدأ روسيا رحلة جديدة من تاريخها تعرف بروسيا الموسكوفية، ويعرف تاريخ روسيا منذ ذلك العهد بالتاريخ القيصرى.

بعد وفاة إيفان العظيم، أكمل فاسيلى الثالث (1505-1533م) ثم إيفان الرابع المعروف بإيفان الرهيب (1533-1584م) أكبر عملية توسع جغرافى شهدها التاريخ الروسى منذ ميلاد الدولة الروسية. وتمكن كلاهما من ضم مساحات شاسعة وتوسعات فى كل أرجاء القارتين الآسيوية والأوربية.

تبدأ روسيا القيصرية مع حكم ميخائيل الأول فى عام 1613، حقبة آل رومانوف وهى المرحلة التى يهتم بها الكتاب الذى نقدم هنا لترجمته. وقد استمر حكم آل رومانوف ثلاثة قرون متصلة من (1613-1917).

وخلال القرون من السادس عشر إلى الثامن عشر خضعت عشرات القوميات قسرا للحكم القيصرى، بداية بمناطق بين البحرين (الأسود وقزوين) وصولا إلى الأعراق القوقازية الإسلامية والمسيحية. وفى القرن 18 انضمت أعراق وقوميات جديدة إلى «سجن الأمم» الكبير فى القيصرية الروسية حين تم الاستيلاء على ليتوانيا وبولندا ومولدوفا، فضلا عن ضم كل من فنلندة، ومساحة ضخمة من وسط آسيا مثلتها منطقة التركستان الإسلامية وكازاخستان. بل توغل التوسع الروسى فى هذا القرن عبر سيبيريا ليصل إلى آلاسكا والشرق الأقصى وسخالين وجزر كوريل.

وللحصول على واجهات بحرية، أشعلت روسيا حروب بحر البلطيق لإقامة مدينة سان بطرسبرج فى مطلع القرن 18، كما اندفعت نحو البحر المتوسط عبر حروبها مع تركيا للسيطرة على البحر الأسود، بل إنها تقدمت إلى البحار الداخلية فغزت شمال فارس فى النصف الأول من القرن 18 (1722 م) ونجحت فى تحويل بحر قزوين إلى بحيرة روسية. كما تمكنت من إقامة واحد من أهم موانئها فى التاريخ وهو ميناء فلاديفاستوك (المفتوح للملاحة طوال العام) على المحيط الهادئ باحتلال أراض إلى الشرق من نهر آمور، وهى منطقة بالغة الأهمية الجيوبولتيكية اقتطعتها من الصين فى عام 1860.

على هذا النحو ضمت القيصرية الروسية أراضى شاسعة وإثنيات وقوميات متعددة فى رقع جغرافية. ويبدو أن التعدد الإثنى الكبير الذى شهدته الدولة الروسية فى خلال مراحل بنائها عبر القرون لم يكن يعطى الفرصة لصياغة بناء الدولة على أساس قومى، إلا فيما يمكن تسميته بمحاباة السلطة لسكان المركز (الإثنية السلافية الوطنية) على حساب سكان الأطراف (الغرباء على أطراف الدولة). بل إن الروس أنفسهم قد عانوا خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين من شرخ قومى تسبب فيه اختلال الميزان الاجتماعى والاقتصادى - فى ظل نظام إقطاعى ساد أغلب القرن التاسع عشر - بين فلاحين فقراء ونخبة من النبلاء المستغربين المتأثرين بالثقافة الألمانية والفرنسية.

وحين ولجت روسيا إلى القرن العشرين كانت قد صنعت أكبر إمبراطورية بلغتها موسكو فى تاريخها، فقد اتصلت حدودها من مشارف اليابان والصين حتى تخوم الإمبراطوريات الأوربية حين تماست مع ألمانيا والنمسا - المجر ورومانيا، وامتدت شمالا من الدائرة القطبية بلا منافس حتى اصطدمت فى الجنوب بالإمبراطورية العثمانية.

الإمبراطورية العثمانية

تنسب هذه الإمبراطورية إلى مؤسسها «عثمان الأول» وتعرف فى التاريخ التركى باسم «الدولة العلية العثمانية» وامتدت عبر أكثر من ستة قرون متصلة، من 1299 إلى 1923 وإذا كانت الإمبراطورية الروسية قد غطت أوربا وآسيا، واكتفت الهابسبرج بالتأثير فى القارة الأوربية فإن الدولة "العلية" امتدت على قارات العالم القديم الثلاث، من القوقاز والأناضول إلى العراق والشام والحجاز فى قارة آسيا ومن البحر الأسود وعبر البلقان إلى المجر والنمسا فى القارة الأوربية، أما فى إفريقيا فقد استعمرت الساحل الشمالى الممتد من مصر وحتى المغرب العربى، فضلا عن سواحل البحر الأحمر.

وقبل أن يعرف التاريخ اسما لهذه الإمبراطورية كانت الدولة السلجوقية تسيطر على مناطق شاسعة من إيران وحتى الأناضول. وحين صعدت قوة الأتراك العثمانيين كانت الساحة الجغرافية لتمددهم هى الأراضى الواقعة تحت سيطرة

السلاجقة، خاصة فى آسيا الصغرى، فى تلك المنطقة التى عرفت باسم سلطنة سلاجقة الروم (من أرمينيا فى الشرق إلى بيزنطة فى الغرب) وذلك بحلول عام 1300م.

لم تكن هناك آنذاك قوة عثمانية موحدة بل عشرات الإمارات الصغيرة التى يحمل كل زعيم منها لقب "غازى" والتى نجحت فى ضم الأناضول على حساب الإمبراطورية البيزنطية الضعيفة. وقد نجح عثمان الأول، أحد هؤلاء الأمراء «الغزاة» فى توحيد تلك الإمارات وتوسعة رقعتها وتدعيم سلطتها.

وخلال قرن من وفاة عثمان الأول توسع الأتراك فى شرق المتوسط والبلقان واستولوا على المدينة الإستراتيجية المهمة «سالونيك» على الضفة الأخرى من مضيق البسفور، وذلك فى 1387م.

ويحتفظ تاريخ الإمبراطورية العثمانية، وبصفة خاصة فى علاقته بأوربا والصراع الإسلامى المسيحى، بتاريخ حاسم فى عام 1389حين وقعت معركة كوسوفو (قوصوه) والتى أنهت قوة الصرب فى البلقان لصالح العثمانيين.

وبعدها بقليل انتصر العثمانيون أيضا فى معركة «نيكوبوليس . Nicopolis» فى 1396 فى الأراضى البلغارية، والتى كانت أيضا إحدى المعارك الحاسمة فى العلاقة بين وحدة الغرب المسيحى الذى جيّش آخر حملات الصليبية قوة لإيقاف الزحف العثمانى. كما أعطت هذه المعركة مجالا واسعا لتمدد الرقعة الجغرافية للإمبراطورية العثمانية فى البلقان وجنوب شرق أوربا والإجهاز على ما تبقى من أراضى الإمبراطورية البيزنطية.

وبعد فترة من الفوضى الداخلية والحروب الأهلية للصراع على عرش السلطان تمكن محمد الثانى (الفاتح) من ضبط الدولة والجيش وأحكم قبضته على القسطنطينية فى 1453 . وخلال ثلاثة عقود تلت شن العثمانيون حملة للسيطرة على روما وإخضاع شبه الجزيرة الإيطالية، وإن لم يحققوا نجاحا فى ذلك وتراجعوا عن تلك الخطوة بموت محمد الفاتح فى 1481م.

ويمكن اعتبار فترة حكم محمد الفاتح بداية أكبر مشروع للتوسع الجيوسياسى للإمبراطورية العثمانية سواء فى البر أو البحر، حيث حقق الأسطول العثمانى

حماية بحرية لطرق التجارة ودعم الحملات العسكرية. واستمر الخط التوسعى بوصول سلاطين أشداء من طراز سليم الأول (1512-1520) الذى هزم الشاه إسماعيل الصفوى، ملك الدولة الفارسية الصفوية، وفتح مصر، واخترق المجال البحرى للبحر الأحمر بتوجيه قطع من الأسطول العثمانى إليه مما خلق حالة من التنافس البحرى بين العثمانيين والبرتغال.

ثم أكمل سليمان القانونى (1520-1566) الخريطة التى مد من رقعتها سلفه، فاستولى على العاصمة الصربية بلجراد فى 1521، وأخضع المملكة الهنغارية كاملة فى 1526. لم يكد سليم القانونى يخضع الأراضى الهنغارية حتى شن حملته الأشهر عالميا بحصار فيينا فى 1529، عاصمة الإمبراطورية النمساوية المجرية، ولم تنجح محاولاته فأعاد الكرة مرة أخرى فى 1532، وانكسرت قواته من جديد. ورغم أن العثمانيين توقفوا عند أسوار فيينا فإنهم انتزعوا من إمبراطورية الهابسبرج آنذاك أجزاء إستراتيجية فى المجر وترانسلفانيا ووااليتشيا ومولدوفا.

وعلى جبهة المشرق العربى استمر العثمانيون فى تقدمهم فاستولوا على بغداد من سيطرة الفرس فى 1535، وتحكموا فى أرض ما بين النهرين وضمنوا لأسطولهم البحرى ملاحة حرة فى الخليج العربى. وفى جبهة المغرب العربى كان الملاح العثمانى «خير الدين باشا بربروسا» (الذى يراه العثمانيون بطلا مغوارا وسيدا للبحار ويصنفه الأوربيون قرصانا وحشيًا) يُحكم السيادة العثمانية على الشطر الغربى من البحر المتوسط. وحققت الإمبراطورية العثمانية نقلة إستراتيجية بتحالفها مع عدد من القوى الأوربية فى فترات متتابعة مثل فرنسا والمملكة المتحدة وهولندا وإيطاليا.

واستمر الحضور العسكرى العثمانى قويا حتى خسارتهم فى معركة فيينا 1683 والتى تعتبر علامة فارقة تميز بداية التراجع العثمانى فى أوربا أمام تحالف القوى الأوربية التى توحدت فيها ألمانيا والهابسبرج وبولندا معا. وكان الأسطول العثمانى قد مُنى قبل ذلك ببعض الهزائم فى البحر المتوسط. وبدأت مخاطر الاختلال التقنى بين العثمانيين وأعدائهم الأوربيين تظهر جليا فى القرن السابع عشر فى ظل التحديث العسكرى التقنى الذى تفوق على نظيره العثمانى

الذى بدا وكأنه يستهل مرحلة خطرة من الاسترخاء والركود اعتمدت الدفاع والتقهقر بدلا من الهجوم والتقدم.

ومنذ خسارة معركة فيينا فى الربع الأخير من القرن السابع عشر بدأت تركيا تخسر المقاطعات والأراضى على جميع الجبهات سواء فى المجر والبلقان لصالح أوربا، أو فى القوقاز لصالح روسيا، أو فى العالم العربى لصالح الاستعمار الأوربى، حتى إذا جاء منتصف القرن التاسع عشر أطلق الأوربيون على تلك الإمبراطورية اسم "الرجل المريض"، فتشجعت كثير من المقاطعات فى البلقان واليونان على الاستقلال الفعلى عن السيادة العثمانية. وخلال ذلك اضطرت القوميات والأعراق والأقليات الدينية التى كانت متحالفة سابقا مع العثمانيين إلى هجرة أراضيها أمام حالات الانتقام التى شنها أعداء العثمانيين فى كل من روسيا والهابسبرج والبلقان فتدفق على الأراضى الأساسية من تركيا مئات الآلاف من التتر والشركس ومسلمى البلقان.

وكان صعود الحركات القومية ، ومن بينها حركة القومية العربية، عاملا أساسا فى التفكك الذى أصاب الإمبراطورية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهى الفترة التى يعتنى بها الكتاب الذى بين أيدينا.

منهج الكتاب وخطته

يتبنى المؤلف نهجا تاريخيا فى دراسته، جعل فيه الزمن هو الأساس وتنقل فى الفصول عبر الجغرافيا والأمكنة، الأمر الذى أدى إلى تكرار ظهور الأقاليم الجغرافية فى أكثر من فصل بنفس العنوان. فبعد أن يمهد المؤلف لدراسته فى الفصل الأول يعالج فى الفصل الثانى قضية البعد التاريخى للفكر القومى مقسما فصله إلى ثلاثة مباحث يتناول كل مبحث منها التطور السياسى وموقف الأعراق والقوميات من السلطة المركزية فى كل إمبراطورية من الإمبراطوريات الثلاث. وفى الفصل الثالث، يعالج الكتاب دور طبقة الإنتليجنسيا (أهل الفكر والرأى والنخبة المثقفة) فى صياغة المشروعات القومية للأعراق فى الإمبراطوريات الثلاث، فيبدأ بقوميات أوربا الشرقية والوسطى (بولندا الخاضعة لروسيا وتشيكوسلوفاكيا الخاضعة للهابسبرج) ثم إلى يوغسلافيا الخاضعة للهابسبرج

ويختم الفصل بحالة قوميات الإمبراطورية الروسية (فنلندة وأوكرانيا وأرمينيا وجورجيا والتتر والتركستان واليهود) ويختتم هذا الفصل بالعلاقة بين القومية التركية والقومية العربية.

ويتكرر هذا النهج فى الفصل الخامس الذى يعالج موقف الأعراق والقوميات وقت اشتعال الحرب فيراجع المؤلف تصرفات القوميات على خطوط الجبهات فى إمبراطورية الهابسبرج خاصة فى البلقان وتشيكوسلوفاكيا ومنها إلى حالة الأعراق والقوميات الروسية التى دخلت فى صراع مباشر مع البلاشفة فى كل من بيلاروسيا (روسيا البيضاء) وأوكرانيا وقازان (فى إقليم الفولجا - الأورال) وكازاخستان وأذربيجان. ويختتم هذا الفصل بموقف القومية التركية وقت الحرب من الأقليات وكارثة المذابح التى وقعت بحق الأرمن وأودت بحياة ما بين نصف مليون إلى مليون نسمة، فضلا عن قمع القومية العربية.

ينتقل الفصل الخامس إلى الدور الذى لعبه القادة القوميون فى المنفى لمساعدة بنى جلدتهم الواقعين تحت سطوة الإمبراطوريات الثلاث، فضلا عن النشاط القومى فى نطاق الاحتلال العسكرى، خاصة نطاقات الاحتلال الألمانى فى أوربا الشرقية. ويعالج الفصل موضوعا جديدا فى بابه وهو؛ فيالق المتطوعين التى تكونت إما فى المنفى زمن الحرب أو فى نطاقات الاحتلال العسكرى والأدوار المهمة لهذه الفيالق فى شن هجمات ارتدادية على مستعمريهم السابقين.

ويعد الفصلان - السادس والسابع - من أهم فصول هذا الكتاب، إذ يعالج الفصل السادس التداعيات التى ترتبت على انهيار الإمبراطوريات الثلاث سواء فى صورة انهيار نظم إمبريالية أو حروب أهلية أو صياغة وتشكيل دول جديدة، فضلا عن موقف الأعراق والقوميات من هذه الأحداث الجسام. ويقدم الفصل السابع بدوره قراءة فاحصة لموقف النخب الجديدة بعد تكوين الدول القومية معرجا على الأقاليم محل الاهتمام فى كل من البلقان والمشرق العربى وأوربا الشرقية والقوقاز. ويأتى الفصل الثامن ليقدم كلمة الختام ويستخلص العبر والدروس.

المترجمان

«هل يمكن فصل الهوية عن المسئولية؟
كيف والأولى تعبير مباشر عن الثانية؟»

الزعيم التشيكي فاتسلاف هافيل

شكر وتقدير

لم يكن لهذا الكتاب أن يرى النور لولا تشجيع ودعم وتوجيه عديد من الأصدقاء والزملاء. وأشعر بامتنان عميق لمن قرأوا وعلقوا على المخطوطات الأولى للكتاب أو على أجزاء منها، وبصفة خاصة كل من جابور أجستون، تومازو أستاريتا، ستيفين بيللر، ديفيد جولد فرانك، ماك جريجور نوكس، جون ماك نيل، ستفين ماركس، جيرى موللر، ريتشارد ستيتس، فضلا عن محكمين لا أعرف أسماءهم عهدت دار روتليدج لهم بمراجعة هذا الكتاب. كما أننى أشعر بالتقدير للمراجعات والتعليقات التى جاءتنى من الجامعة الكاثوليكية، سيمنار الكلية بقسم التاريخ، على المسوّدة الأولى من هذا الكتاب. كما أشكر هيثر ماك كالوم وفيكتوريا بيترس، المختصين بتحرير مؤلفات التاريخ فى دار روتليدج، لما قدماه من دعم صبور وتشجيع مستمر لإتمام هذه المهمة. ولست فى حاجة للقول بأن أية أخطاء قد تأتى فى هذا الكتاب إنما جاءت عن تقصير منى بالدرجة الأولى.

ويطيب لى أن أشكر أيضا جامعة جورج تاون، التى زوّدتنى بدعم سخى لإتمام هذا المشروع، خاصة ما منحتنى إياه من فترات تفرغ علمى، ومنح مالية خلال برنامج التخرج الصيفى، فضلا عما لقيته من دعم العديد من زملائى.

كما أننى مدين لزوجتى العزيزة، ألين موير، وابنيها جوزيف ومارتن هوود، لما أحاطونى به من بهجة وحب وروح مشجعة ساعدتنى على الخوض بين الصعاب والمحن التى وقفت أمام إتمام النسخة الأخيرة من هذا الكتاب.

وأدين أيضا بالفضل لوالدى، موردخاى ومريم روشفالد، لاهتمامهما الدائم بمصير هذا الكتاب طوال فترات عملى به، فضلا عن بثهما روح التشجيع كى

أحتفظ بإيمان دائم بأهمية إكمال هذا الكتاب. وأعتقد أن أمى كان من المفترض أن تكون أكثر الفرحين بخروج هذا الكتاب للنور، ولهذا أهدى هذا الكتاب لذكراها.

أفيل روشفالد

واشنطن العاصمة

أبريل 2000

الفصل الأول

تمهيد

تعتبر القومية وفكرة الدولة القومية من بين أكثر الظواهر انتشارًا فى عصرنا، ومع هذا فإنهما من أقل الظواهر فهما ووضوحًا، بسبب التشابك مع المؤسسات الاجتماعية والثقافية، والاقتصادية، والسياسية، والدبلوماسية المعاصرة، كما أن لهما جذورا عميقة فى علم النفس السياسى، ولهما تأثير بالغ على تشكيل الهوية الإنسانية، والسلوك الاجتماعى السياسى، لدرجة يستحيل معها تقريبًا دراسة أى منهما كشىء مستقل بذاته أو فصل القومية عن العناصر المتعددة التى تتفاعل معها، أو التى تشكل جزءًا منها. فهل القومية أيديولوجية أم ظاهرة أنثروبولوجية؟ وهل هى من بنات الديمقراطية الليبرالية أم بطبيعتها لا تعرف التسامح وتكرس الاستبداد؟ ثم هل هى معلم من الحداثة أم أنها ظاهرة ضد حداثية؟[1] ومع أن هذه الأسئلة محفزة وبناءة، لكننا نفتقر إلى إجابات واضحة عنها؛ لأن أيًا من هذه الأسئلة تحتمل إجابات بالنفى والإيجاب، بحسب السياق التاريخى ومظاهر وأشكال القومية التى يحتفظ بها ذهن المرء.

ولا يتناول الكتاب الذى بين أيدينا القومية مفترضا اتساقها مع أى إطار تحليلى أو فئة نمطية بسيطة، لكنه يهتم باستكشاف كيفية تطور القومية عبر الزمن، وكيف يعاد تعريف وتبديل توجهاتها الأيديولوجية ومظاهرها المؤسسية بفعل القوى التاريخية. وبالأحرى فإننا نركز فى كتابنا هذا على تمييز الخط النقدى الفاصل فى تطور عدد مهم من القوميات المعاصرة، ونقصد تلك الحالة التى تفككت فيها إمبراطوريات متعددة القوميات إلى دول مستقلة، مستمدة شرعيتها المحلية والدولية من مبدأ حق تقرير المصير القومى.

وتوضح الدراسات السابقة ذات النهج التفصيلى المعمق المعتنى بقضية أحادية (المونوجرافات) والتى عالجت حالات بعينها من الحركات القومية، كيف أن الملابسات التاريخية والشخصيات الفردية والخصوصيات الثقافية والسمات الجيوبوليتيكية تلعب أدوارها فى تشكيل الهويات القومية والدول القومية. وتميل مثل هذه الدراسات إلى التركيز على أحداث محورية ينظر إليها باعتبارها ذات تأثير جوهرى طويل الأمد يترك ظلاله على التطور اللاحق الذى تشهده فى أشكال الوعى القومى والثقافة السياسية والبنى المؤسسية التى تتعرض لها الجماعات العرقية لشعوب الأغلبية وللأقليات على السواء.

وفى المقابل، استغرق كثير من الدراسات السابقة عن القومية فى تحليل الأثر التكوينى الذى تعرضت له القومية جراء القوى التاريخية الكلية ذات النزعة غير الشخصية. ومن أهم هذه القوى، التقدم الصناعى ونمو الدولة وانتشار التعليم والاتصال الجماهيرى. وقد أدت مثل هذه المناهج إلى رؤى ثاقبة على مستوى عال جدًا من التعميم، لكنها بقيت مع ذلك محدودة بطبيعتها أخذا فى الاعتبار نزوعها إلى التعاطى مع تطور القومية كما لو أن هذا التطور كان يسير بإيقاع متزايد ومستقر نسبيًا، وكما لو أن مظهره الكامل (وهو مفهوم مثالى مثير للمشاكل فى حد ذاته) يعتمد على اكتمال تغيرات مادية معينة تحدث تحولا فى الأعمال الداخلية للمجتمع وتنتج أشكالاً قومية للهوية السياسية. وعلى سبيل المثال، فإن الدراسة الشهيرة التى قدمها «ميروسلاف هروتش. Miroslav Hroch» عن قومية الأمم الصغيرة فى أوربا تقدم تقسيمًا تطوريًا نموذجيًا. فى هذا التقسيم يمثل ظهور الوعى القومى الكامل ذروة اكتمال عملية من ثلاث مراحل من النضج الفكرى والإثارة البطولية والحشد الجماهيرى، وهى المراحل التى ترتبط بتسلسل زمنى دقيق للنمو الرأسمالى والتصنيع. أما الحالات التى تحيد عن هذا النموذج المعرفى فقد تنتج قوميات قزمية، بل قد تغيب معها أية هوية قومية واضحة، وهى فرصة بدونها لا يمكن استعادة هذا الوعى القومى من جديد[2].

ولست أجادل فى الدور العميق الذى تلعبه القوى التاريخية فى تشكيل الوعى القومى والدولة القومية الحديثة، كما لا أرفض بعض النماذج المعرفية لتطور القومية، وإن كنت أتعامل معها بقدر من الحذر. فحين يستعين الباحث بهذه

المناهج التى تركز بصورة غير تناسبية على دور القوى التاريخية قد يقع فى شرك الحتمية التاريخية، ويجد نفسه إلى حد ما قريبا من العقلية الغائية التى تهيمن على العديد من الأيديولوجيات القومية. وفى أسطورة القومية، تحقق الهوية القومية ظهورها الكامل عندما تنجح حركة، لم تكن بدايتها قد تعدت مجموعة صغيرة من النشطاء، فى حشد الجماهير حول مفهوم مشترك واحد للقومية. وحين تحقق الدولة استقلالها فإن ذلك يعد قمة عملية التكوين، أو على الأقل خطوة حاسمة فى طريق تحققها. ومع ذلك، وكما تبرهن الأحداث الأخيرة فى أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى، فإن حيل السيادة السياسية غالبًا ما تصل إلى أيدى القوميين فجأة وبصورة غير متوقعة فى ظل ظروف استثنائية قصيرة الأجل، تنتج عن أزمة إقليمية أو عالمية، أكثر منها عن تطورات داخلية بحتة. وإذا لم يتم على عجل اهتبال فرصة تكوين كيان سياسى مستقل فإن ذلك قد لا يتكرر لأجيال متتالية. غير أن تحقيق الاستقلال السياسى فى ظل مثل هذه الظروف لا يمكن اعتباره جزءًا من مسار حتمى للتاريخ، ولا يمكن اعتبار الأشكال المؤسسية والإقليمية المحددة التى يأخذها الاستقلال نتيجة حتمية لعملية تراكمية من التطور الاجتماعى والسياسى.

وبعبارة أخرى، فإن البداية المفاجئة للاستقلال غالبًا ما تأتى نتيجة عوامل خارجية قصيرة الأجل، فبمجرد أن تتكون دولة قومية ذات سيادة فى ظل مثل هذه الظروف، فإنها سرعان ما قد تواجه انقسامات داخلية حادة حول كيفية توزيع الثروة والسلطة وحول اختيار القيم السياسية التى بوسعها تحريك الحكومة والمجتمع. وفى أعقاب «التحرير» قد تجد النخبة القومية الليبرالية نفسها فجأة مهمشة فى نظام سياسى لا يتقبل جمهوره العريض أفكارها. وحين يقع تحول مفاجئ فى أدوار القادة القوميين من مقاومة سلطة الدول الإمبريالية إلى ممارسة السلطة على دول قومية، فقد يفضى ذلك التحوّل إلى تناقضات عميقة بين بلاغة الخطابة الأيديولوجية والممارسات السياسية العملية. وفى خضم أجواء التحول قد تحاول النخب الاجتماعية السياسية القديمة مغازلة الأطروحات والرموز القومية من أجل إضفاء الشرعية على إمساكها بالسلطة. وفى هذه الظروف قد يتوقف فجأة تدفق الموارد والسلع والخدمات بسبب مد

حدود جديدة بين الأقاليم التى كانت تمثل أسواقًا متكاملة من قبل، الأمر الذى بوسعه أن يخلق مشاكل اقتصادية تفاقم من التوترات السياسية بين الدول حديثة التكوين. أما المجموعات العرقية التى تجد نفسها فجأة وقد تقلصت مكانتها إلى مجرد مجتمعات أقليات، فقد تقوم بردة فعل عكسية بتكوين حركات انفصالية مناهضة. واختصارًا، فقد تترك الظروف الخاصة بتكوين دولة قومية تأثيرها الجوهرى على التطور اللاحق لتلك الدولة، بما قد يغلق مسارات التطور المحتملة أمام الحركات القومية، ويخلق مجالاً راديكاليًا جديدًا لبلورة الهويات القومية، وهذه نقطة تعتبرها معظم الدراسات التاريخية أمرًا مسلمًا به، وتتجاهلها معظم الأعمال النظرية(3).

ويسعى الكتاب الذى بين أيدينا إلى سد الفجوة التحليلية بين الكتابات المونوجرافية والنظرية من جانب والتطبيقية من جانب آخر، وذلك بتبنى منهج مقارن للأحداث التحولية التى شكلت الحركات والكيانات القومية فى شرق أوربا الوسطى، وأوراسيا التى سيطرت عليها روسيا، والشرق الأوسط، خلال تلك الفترة الوجيزة الممتدة من اندلاع الحرب العالمية الأولى فى 1914م، مرورًا بالتصديق على «معاهدة لوزان . Treaty of Lausann » ووصولا إلى تاريخ تكوين الاتحاد الإثنى لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية USSR فى 1923م(4). فقد أدى سقوط الإمبراطوريات الثلاث متعددة القوميات (الهابسبرج، ورومانوف، والإمبراطورية العثمانية) قبيل نهاية الحرب فضلا عن الظروف التى رافقت ظهور الدول التى ورثت تلك الإمبراطوريات، إلى ظهور أنماط تطور لا تزال تشكل الهويات القومية فى هذه الأقاليم مع بداية الألفية الثالثة(5).

ورغم النقد الذى سجلته على بعض النماذج المعرفية التطورية التى تأسست عليها نظرية القومية، يجب أن أعترف بأننى لم أكن قادرًا على العمل بدونها. وتأتى البنية التنظيمية لهذا الكتاب انطلاقا من أن معظم الحركات القومية تبدأ كاتجاهات فكرية، وتتطور إلى منظمات سياسية تحاول توسيع قاعدتها الجماهيرية من خلال الدعاية والإثارة، وفى بعض الحالات تنجح فى البقاء وتؤسس دولاً قومية مستقلة. غير أن خصوصية الحالات المعروضة هنا تتمثل فى أن الحرب العالمية الأولى اختزلت بعض مراحل تطورها فى فترة زمنية قصيرة

جداً. حيث قدمت الحرب فرصًا نادرة، وفرضت ضغوطًا هائلة ساعدت على تفجير فكرة تقرير المصير القومى وترجمتها إلى واقع مفاجئ فى عدد كبير من المجتمعات. وإذا أردنا الدقة، فإن الأوضاع الثقافية والاقتصادية والسياسية فى تلك الأقاليم المختلفة كانت متنوعة للغاية، وأن الشىء الوحيد المشترك بين هذه الحالات، هو أن انتقالها إلى نظم سياسية تقوم على فكرة تقرير المصير القومى كان مفاجئًا، ولم يكن ناتجا عن عملية متواصلة متسقة الإيقاع، وأن تلك الأوضاع حدثت فى إطار ظرف خارجى مشترك تجسد فى حرب عالمية بدلت من شكل السياسة العالمية. وبالتالى يركز كل فصل من فصول هذا الكتاب على مرحلة تطورية تجمع بين هذه الحالات المتنوعة، ويولى فى نفس الوقت عنايته بالاختلافات فى البيئات المادية والثقافية لتلك الحالات، بالإضافة إلى اعتنائه بدرجة كبيرة بالتباين فى ردود أفعال الحركات القومية على المستوى الاجتماعى والسياسى على بعض الضغوط المفاجئة والمعضلات المشتركة التى واجهت شعوب تلك الأقاليم.

وحين شرعت فى إعداد هذا الكتاب، لم أكن أقصد أن أكون موسوعيًا فى التغطية. فالمدى الجغرافى الذى يغطيه هذا الموضوع هائل، ويستحيل أن يحظى بتغطية شاملة ولا أن تحصل كل واحدة من مئات المجموعات العرقية التى تحتل أرجاء الإمبراطوريات الثلاث على إشارة عابرة ولو بشكل شرفى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن أية محاولة لمنح قدر متساوٍ من الاهتمام لكل إقليم وكل شعب كانت لتحد من قدرتى على استكشاف ومقارنة الحالات الفردية بما يناسبها من العمق التحليلى ولو فى حده الأدنى. ومن ثم، فقد نظمت الفصول بحيث تتألف بنية كل فصل من مراجعة سردية مختصرة للتطورات التى شهدها كل نطاق إمبريالى، ثم يقتصر تركيز الفصل بعد ذلك على حالات مختارة يمكن أن تساعد فى تعزيز الأفكار العامة للكتاب. ففى شرق أوربا الوسطى مثلاً، يمنح الكتاب اهتمامًا خاصًا لبولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا والكيانات السياسية السابقة عليها قبل 1918م؛ لأن هذه الحالات تظهر بجلاء طبيعة النزاع الذى حكم العلاقة بين المفاهيم غير العرقية والمفاهيم العرقية القومية للدولة، وهى مفاهيم تتعامل معها كل الحركات والكيانات فى الإقليم، وفى كل الإمبراطوريات الثلاث، خلال وبُعيد انهيارها.

وبصفة عامة، أولينا عناية أساسية هنا بالقوميات الخاضعة للإمبراطوريات الثلاث - أى تلك الشعوب التى كانت لغاتها وأديانها وهوياتها التاريخية والثقافية تميزها عن ثقافات الإمبراطورية المسيطرة (الثقافات الألمانية والمجرية التى سادت فى إمبراطورية الهابسبرج، والروسية التى سيطرت على إمبراطورية رومانوف، والتركية التى هيمنت على الإمبراطورية العثمانية). فقد نزعت القوميات التى خضعت للإمبراطوريات الثلاث إلى البحث عن شكل أو آخر من أشكال الحكم الذاتى أو الاستقلال داخل حدود إقليمية جديدة. وبنفس الطريقة فإننا لا نستطيع تجاهل الحركات السياسية التى نشأت بين القوميات المسيطرة مثل الوحدة (الجامعة) التركية، أو الوحدة السلافية الروسية. فقد كان لهذه الحركات تأثير كبير على الشعوب الخاضعة، أو بالأحرى تجسد تأثيرها فى تعريف المجموعات الأخرى كشعوب خاضعة.

وأخيرًا، فإنه بينما كنت أحاول أن أمنح اهتمامًا متساويًا للإمبراطوريات الثلاث، سيبدو فى بعض الأماكن أن بعض الإمبراطوريات حظيت باهتمام ومعالجة أكثر من غيرها. ويرجع هذا جزئيًا إلى أنه ليس كل موضوع أو قضية أو جانب تطورى يفرض نفسه فى إقليم بنفس القوة أو الوضوح التى يبدو عليها فى إقليم آخر. ويعكس هذا أيضًا حقيقة أن الكتابات المونوجرافية عن أية فترة - خاصة لسنوات الحرب ذاتها - لا تكون شاملة فى بعض المناطق (كما فى حالة العالم العربى والإمبراطورية الروسية، 1914م - 1917م) مقارنة بالمناطق الأخرى.

ويقودنى هذا إلى تنازل آخر: فإننى لا أدعى هنا أننى أكشف النقاب عن أية معلومات أصلية أو أكتشف مجموعة عرقية أو حركة قومية جديدة، فهذا الكتاب عبارة عن توليفة تاريخية، ويتمثل إسهامه، على نحو ما آمل، فى تكوين منظور مقارن لمعالجة القضايا محل الاهتمام. فبناء على مراجع من الدرجة الثانية، وليس مصادر أرشيفية، حاولت أن أجمع هذه العدد الكبير من الحالات تحت مظلة تحليلية مشتركة وذلك من خلال التركيز على عدد من القضايا المتداخلة والمتشابكة التى تواجهها عادة معظم الحركات القومية.

وتتمثل واحدة من مشكلات الدراسة فى كيفية دمج الجماهير فى الحركات التى عادة ما تكونها وتقودها النخبة الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية. وهذا

يثير التساؤل الكبير عن كيفية تفاعل استجابة الجماهير للأيديولوجيات التى تروج لها النخبة من أجل بلورة (أو بالأحرى تجزئة) الهويات القومية.

وهناك قضية شائكة أخرى تتضمن ذلك التوتر بين أصل الدولة القومية الحديثة ككيان أيديولوجى ومؤسسى أوربى غربى أو أوربى أطلسى، فضلا عن غموض الدور الذى يفترض أن تلعبه هذه الدولة كمجسد لملامح الأصالة وحارس للثقافة الخاصة بكل قومية. فمن ناحية، وضعت الحركات القومية حول العالم نفسها فى القوالب السياسية الغربية، وتطلعت لقيادة دولها على الطريق إلى التحديث، ومن ناحية أخرى، حبست هذه الحركات نفسها فى زاوية استخدام الدولة القومية كأداة لترسيخ تراث لشعوبها وحماية هذه الشعوب من تآكل هوياتها التاريخية. وكان التوفيق بين هذين الدورين المتناقضين ظاهريًا يمثل مشكلة لعديد من الحركات التى نناقشها فى هذا الكتاب.

ويدفعنا هذا إلى التمييز بين الأشكال المدنية والعرقية للقومية. فهذه الأشكال عبارة عن فئات نمطية استخدمتها كثير من الكتابات المعاصرة(6). حيث يشير مصطلح القومية المدنية إلى تأكيد الشعب لهويته الجماعية وحقه فى السيادة السياسية الإقليمية القائمة على تمسكه بمجموعة مشتركة من القيم السياسية، وعلى ولائه المشترك لدولة محددة المعالم الإقليمية، قائمة بالفعل أو ينتظر قيامها. وتعود الجذور التاريخية لمصطلح الدولة القومية المدنية إلى المرحلة التى تطورت فيها دول أوربا الغربية مثل بريطانيا أو فرنسا، والتى ظهرت فيها فى العصور قبل الحديثة نظم ملكية مركزية قوية نسبيًا، مكونة قوالب سياسية ثقافية راسخة، وتشكلت فيها هويات قومية كبيرة، تحت تأثير أنواع من القوى خلقت مناخا من التجانس فى التنمية الاقتصادية، والتكامل التجارى، والبناء البيروقراطى للدولة، ونمو التعليم العام، وتطور الإعلام المطبوع، والسياسة الانتخابية، والاتصال الجماهيرى(7). ومن حيث المبدأ، فإنه نظرًا لأن القومية المدنية تشمل كل من يختار المشاركة فى الثقافة السياسية المشتركة، بغض النظر عن لغته الأم، نجد أن معظم الكُتاب يربطونها بقيم التسامح الليبرالية واحترام حقوق الإنسان(8).

أما القومية العرقية فمصطلح يشير استخدامه إلى التأكيد على الهوية الجماعية التى تدور حول أسطورة أصل عضوى (بيولوجى) مشترك. وهو امتداد لمبدأ القرابة بالمجتمع الكبير. يترتب عليه الادعاء بالسيادة الإقليمية. ويمكن أن يشير هذا المصطلح أيضًا إلى أية حركة تركز على خصائص ثقافية موضوعية مشتركة (لغوية، دينية، فولكلورية، أو أية توليفة مما سبق) كأساس للقومية السياسية. وقد نشأت القومية العرقية الحديثة بين النخب الفكرية فى وسط وشرق أوربا فى القرن التاسع عشر، تلك النخب التى عانت من حالة الاغتراب فى الدول الإمبريالية (أو فى المناطق القومية الفرعية، كما فى ألمانيا وإيطاليا) والتى تأخرت عن ركب التحديث السياسى والاقتصادى الذى سارت فيه أوربا الغربية. كما أن هذه الإمبراطوريات الثلاث لم تكن لديها الاستطاعة أو الرغبة فى استيعاب تطلعات النخب الجديدة فى الوصول إلى السلطة السياسية. ففى الإمبراطوريات متعددة الأعراق، يتنوع السكان ثقافيًا ولغويًا لدرجة أن أى تأكيد على التصور الحديث للسيادة الشعبية (فى مقابل الملكية) يمكن أن يطلق قوى تفكيك لا قوى تكامل (ولكن ألمانيا وإيطاليا المجزأتين تمثلان عكس هذا النمط). ونظرًا لأن القومية العرقية مفتونة بفكرة الوحدة العضوية للأمة، المتجذرة فى أصل مشترك يعبر عن نفسه بعدة أشكال ثقافية، فإن هذا النوع من القومية ينظر إليه كبيئة حاضنة لظهور أشكال حكم متعصبة شوفينية واستبدادية.

وقد منحت نفسى فى هذا الكتاب حرية استخدام هذه المصطلحات للإشارة إلى مجموعة من الحركات والأفكار السياسية. وأود أن يكون واضحًا أن تطبيق مصطلحات العلوم الاجتماعية الحديثة على حركات أوائل القرن العشرين ينطوى على مفارقة تاريخية. وأرجو أن يكون ذلك مقبولاً طالما أنه يقدم إطارًا مرجعيًا مشتركًا للمقارنة بين ثقافات سياسية متنوعة. وإن كنت أؤكد هنا رغبتى فى تجنب التصنيف المبسط المخل الذى ينظر إلى شعب *بأسره* على أنه ينتمى إما إلى المعسكر القومى العرقى أو المعسكر القومى المدنى. فلدى شعور بأنه يمكن طرح تساؤلات أكثر جدية عن طبيعة وتطور الأيديولوجيات القومية، إذا نظرنا إلى العناصر العرقية والمدنية على أنهما تعايشا معا بصعوبة وتنافسا معا فى كل حالة من حالات بناء الهوية القومية(9). وفى الحقيقة فإن أحد أعظم تحديات

الليبرالية السياسية يكمن فى العثور على طريق للتوفيق بين مبدأ المساواة المدنية والمميز العرقى الثقافى للهوية الجماعية[10]. وكما سيتضح لاحقًا، فإن اهتمامى بهذه المشكلة، وإحباطى بسبب صعوبة حلها، يعطى معظم المناقشة اللاحقة حدا معياريًا مميزًا. وأنا لا أعتذر عن هذا، إذ إن التكلفة الإنسانية للقومية العرقية ونتيجتها المنطقية واضحة تمامًا فى يومنا هذا، وذلك مثل عبث ادعاء أنه بوسعنا تعريف الهوية المدنية من خلال مصطلحات محايدة ثقافيًا، إذ إن الاهتمام المجرد بتاريخ هذه المشكلة يعنى عدم الاهتمام بها مطلقًا.

وهناك ملاحظة أخرى تتعلق بالمصطلحات: فسوف أستخدم فى هذا الكتاب مصطلح «مجموعة عرقية ـ Ethnic Group» و «قومية ـ Nationality» بصورة تبادلية للإشارة إلى سكان لديهم خصائص ثقافية مشتركة ويعتبرون أنفسهم ذوى أصل مشترك، أو تجمعهم تجربة تاريخية مشتركة. وسوف يشير مصطلح «الأمة Nation» إلى أية مجموعة تفكر فى هويتها المشتركة (مهما كان تعريفها) كأساس للمطالبة ببعض أشكال تقرير المصير الجماعى السياسى الإقليمى، وسأستخدمه أيضا للإشارة إلى أى شعب تمثله مجموعة تعلن هذه المطالب نيابة عنه. وتشير «القومية ـ Nationalism» إلى أية أيديولوجية تقوم على صياغة مثل هذه المطالب، التى تعتبر إطارًا لعمل سياسى يسعى إلى ترجمة تلك المطالب. وتشير «الدولة القومية ـ Nation-state» إلى النظام الذى يؤسس شرعيته على تحقيق مطالب تمثيل هوية أمة ذات سيادة (مهما كانت هذه المطالب مثيرة للجدل). ومن المتوقع أن يكون هناك مجالٌ كبير للتداخل بين مختلف هذه الأفكار والمفاهيم[11].

الهوامش

(١) بالنسبة للعلاقة بين القومية والليبرالية، انظر:

- Liah Greenfeld, Nationalism: Five Roads to Modernity (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992).
- Yael Tamir, Liberal Nationalism (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993).

وبالنسبة للأعمال التى تستكشف القومية كأحد جوانب أو وظائف الحداثة السياسية والثقافية والاقتصادية الاجتماعية، انظر:

Karl Deutsch, Nationalism and Social Communication. An Inquiry into the Foundations of Nationality (Cambridge, MA: The MIT Press, 1966).

- Ernest Gellner, Nations and Nationalism (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1983).
- Eric Hobsbawm, Nations and Nationalism since 1780: Programme, Myth, Reality (Cambridge: Cambridge University Press, 1990).
- Eric Hobsbawm and Terence Ranger, eds, The Invention of Tradition (Cambridge: Cambridge University Press, 1983).
- John Breuilly, Nationalism and the State (Manchester: Manchester University Press, 1982).
- Benedict Anderson, Imagined Communities (rev. edn, London and New York: Verso, 1991; 1983).

وبالنسبة لنقد حديث لتفسير الحداثة للقومية، انظر:

- Adrian Hastings, The Construction of Nationhood: Ethnicity, Religion and Nationalism (Cambridge: Cambridge University Press, 1997).

وقد استكشف آنتونى سميث جذور ما قبل الحداثة للقومية الحديثة، بالإضافة إلى دور القومية العرقية كقوة تعكس الصراع بين، وتوفق بين، الجوانب الموضوعية والاستبعادية للتحديث، وردود الأفعال الرومانسية الجديدة ضدها.

- Anthony Smith, The Ethnic Origins of nations (Oxford: Blackwell, 1986),
- ...., Nationalism in the Twentieth Century (New York: New York University Press, 1979), chap. 7. On Nationalism as a backlash against the bureaucratic state,
- Isaiah Berlin, "The Bent Twig: On the Rise of Nationalism," in dem, The Crooked Timber of Humanity (New York: Vintage, 1992), 238-261.

(2) Miroslav Hroch, Hocial Preconditions of National Revival in Europe: A Comparative Analysis of the Social Composition of Patriotic Groups among the Smaller European Nations (New York: Cambridge University Press, 1985).

(3) بالنسبة للحاجة إلى دمج دور المصادفة التاريخية والحدث التاريخى فى الدراسة النظرية للقومية، انظر:

- Rogers Brubaker, Nationalism Reframed: Nationhood and the National Question in the New Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), chap. 1: "Nation as Form, Category, Event".

(4) بالنسبة للحاجة إلى تطوير منظورات مقارنة عن القومية، انظر:

- Peter Stearns, "Nationalism: An Invitation to Comparative Analysis, "Journal of World History, vol. 8, no. 1 (1997), 57-74.

(5) Seamus Dunn and T.G. Fraser, eds, The First World War and Contemporary Ethnic Conflict (London: Routledge, 1996).

(6) Greenfeld, Nationalism.

- Rogers Brubaker, Citizenship and Nationhood in France and Germany (Cambridge: Harvard University Press, 1992).

- George Schöpflin, "Nationalism, Politics and the European Experience," Sur vey, 28 (4) (Winter 1984), 67-86.

- ...., "Nationalism and Ethnicity in Europe, East and West." in Charles Kupchan, ed., Nationalism and Nationalities in the New Europe (Ithaca: Cornell University Press, 1995).

بالنسبة للتصنيف المبكر والفروق التاريخية بين أشكال القومية الليبرالة وغير الليبرالية، انظر:

- Carlton Hayes, The Historical Evolution of Modern Nationalism (New York: R.R. Smith, 1931),

- Hans Kohn, The Idea of Nationalism: A Study in its Origins and Background (New York: Macmillan, 1994), chaps 6-8,

- ...., The A e of Nationalism: The First Era of Global History (New York: Harper & Ro . 1962, part 1; Nationalism: A Report by Study Group of Members of the Roy l Institute of International Affairs (London: Frank Cass, 1963; 1 st edn, 1939), chaps 2-4.

(7) Charles Tilly, "Reflections on the History of European State-Making," in Charles Tilly, ed., The Formation of National States in Western Europe (Princeton: NJ: Princeton University Press, 1975).

(8) يوجد بيان تقليدى لهذه النظرية فى محاضرة إيرنست رينان فى السوربون فى 1882
والتى ترجمها مارتن توم، وأعيدت طباعتها فى: "What is a Nation"?

- Geoff Eley and Ronald Grigor Suny eds, Becoming National: A Reader (New York: Oxford University Press, 1996).

- وبالنسبة لمراجعة نقدية لدور الجمهورية الفرنسية الثالثة فى تحقيق التجانس الثقافى لفرنسا الريفية، انظر:

- Eugen Weber, Peasants into Frenchmen: The Modernization of Rural France, 1870-1914 (Stanford: CA: Stanford University Press, 1976), esp. 112-114.

(9) يوضح كارين باركى هذه النقطة أيضا فى: "Thinking about Consequences of Empire".

- Karen Barkey and Mark von Hagen, eds, After Empire – Multiethnic Societies and Nation Building: The Soviet Union and the Russian, Ottoman, and Habsburg Empires (Boulder, CO: Westview Press, 1997).

- Rasma Karklins, Ethnopolitics and Transition to Democracy: The Collapse of the USSR and Latvia (Washington, DC: Woodrow Wilson Center Press and Baltimore, MD: Hopkins University Press, 1994), 44-47.

(10) وهو ما تمت مناقشته فى الفصل الثامن من هذا الكتاب) Tamir, Liberal Nationalism.

(11) لا توجد أية تعريفات معيارية تماما لأى من هذه المصطلحات. ولمناقشة هذه المشكلات الاصطلاحية، انظر:

- Walker Connor, Ethnonationalism: The Quest for Understanding (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), chap. 4,

- Greenfeld, Nationalism, 3-14,

- Aira Kemiläinèn, "The Idea of Nationalism." Scandinavian Journal of History, vol. 9. no. 1 (1984). 31-64.

الفصل الثانى

مقدمة تاريخية فى العرقية والإمبراطورية

يركز الكتاب الذى بين أيدينا على تطور الحركات القومية فى ثلاث إمبراطوريات متعددة القوميات تفككت بسبب الحرب العالمية الأولى، وهى الإمبراطورية النمساوية المجرية، والإمبراطورية الروسية، والإمبراطورية العثمانية. وقد تشكلت هذه الكيانات السياسية الهائلة من خلال عملية تدريجية من ضم الأراضى وغزو عسكرى متوالٍ على مدار مئات السنين. وبحلول عام ١٩١٤م، كان كل منها يواصل حكمًا بدأته قبل عدة قرون أسرة ملكية واحدة، وبنفس الطريقة سمح كل من هذه الأنظمة فى النهاية، (أو اضطر للقبول) بتكوين برلمانات منتخبة، وهى مؤسسات يمثل مجرد وجودها تعارضًا جوهريًا مع مبدأ السلطة الملكية.

وكان ظهور السياسات الانتخابية واحدًا من أهم علامات عملية التغير الاقتصادى والاجتماعى والسياسى التى غمرت هذه المجتمعات، إذ واجهت النظم الإمبريالية آفاق التحديث بتضارب واضح. فمن ناحية، حاولت تشجيع التنمية الصناعية والتجارية، وتقدم التعليم، والابتكار التقنى، والإصلاح الإدارى من أجل اللحاق بالتراكم المثير للثروة المادية، والقوة العسكرية التى حققتها الدول الصناعية الكبرى فى العالم (لبريطانيا، ألمانيا، فرنسا، الولايات المتحدة). ومن ناحية أخرى، حددت هذه التغيرات سلطة المؤسسات القائمة وزعزعت استقرار الترتيب الهرمى للمجتمع. وبدرجات متفاوتة، شهدت الإمبراطوريات الثلاث قوة وتداعيات عملية التحديث وذلك حين تعرضت الاقتصادات الريفية - التى كانت معزولة حتى ذلك الوقت - لتقلبات أسواق السلع العالمية، فضلا عن تغيرات جوهرية أخرى تعلقت بالعزلة الاجتماعية والجغرافية للشعوب المهمشة اقتصاديًا،

وظهور نخب اجتماعية نشطة ومتلهفة للمشاركة فى السلطة، فضلا عن نمو المدن، وبلورة طبقة عاملة حضرية، وظهور الحركات الشعبية، وتوالى التعرض للأفكار والقيم الغربية. وكانت هذه التغيرات - حتى فى بشائرها الوليدة - ترتطم بقوة بالتقاليد المستقرة وأنماط التفكير السائدة. وكان من الصعب على الإمبراطوريات الثلاث أن تجد طريقًا لجنى ثمار التحديث دون أن تضع شرعيتها موضع تساؤل.

ويتجسد أحد أكثر ملامح الحداثة السياسية انتشارًا فى أن الدولة تمثل الهوية الشعبية. غير أن مثل هذا التصور كان غير متوافق مع النظم الملكية الاستبدادية فى الإمبراطوريات الثلاث. ومع ذلك، أدركت هذه النظم بأن القدرة على حشد كامل طاقات المجتمع كانت تمثل الاختبار الحقيقى لقوة الدولة الحديثة. وكانت معضلة هذه الإمبراطوريات تكمن فى كيفية مواجهة هذا التحدى بدون تقويض المبادئ الملكية الوراثية التى شكلت أساس شرعيتها السياسية. وأدى التركيب متعدد الأعراق لهذه الإمبراطوريات الثلاث إلى مزيد من تعقيد هذه المشكلة، ذلك لأن أية دعوة إلى إثارة المشاعر البطولية لدى الجماهير كانت تتضمن بالضرورة استدعاء الدعوة إلى الهوية العرقية الثقافية. ومع ذلك كان إطلاق مثل هذه المشاعر بين أى جزء من تلك المجتمعات شديدة التنوع يهدد باغتراب بقية الأجزاء الأخرى[1].

وإذا كان استغلال السياسات العرقية انطوى على مخاطر هائلة، فإن تجاهلها كان مستحيلاً أيضًا، إذ إن بعض الجوانب الفنية الأساسية فى عملية التحديث، مثل توحيد لغات التعليم والإدارة، أصبحت تمثل قضايا سياسية قابلة للانفجار: لأن الأقليات العرقية كانت تخشى تهميش لغاتها أو لهجاتها، ناهيك عن احتمال تقلص فرصها فى التقدم فى النظام الجديد[2].

وكانت التنمية الاقتصادية والاندماج الكامل فى الأسواق العالمية يؤديان إلى حدوث آثار متباينة للغاية على هذه المجتمعات متعددة الأعراق، ذلك أن أعضاء بعض القوميات (مثل اليونانيين، والأرمن فى الإمبراطورية العثمانية) كانوا فى وضع أفضل يمنحهم قدرا من المزايا، بينما كانت مجموعات عرقية أخرى مهمشة اقتصاديًا، ولا شك أن التوترات العرقية كانت النتيجة المتوقعة لذلك الخلل. ويبدو

أن الأفكار القومية تربط نفسها بكل حركة اجتماعية وسياسية متخيلة. وحتى الاشتراكية حققت أقصى إمكاناتها كقوة حاشدة عندما تضمنت أفكارًا قومية. ولكن السياسات الارتجالية غير المتسقة التى اتبعتها النظم الإمبريالية فاقمت من التوتر بين الأعراق، وأثارت المشاعر الانفصالية بين الشعوب الخاضعة لتلك النظم. وعلاوة على ما سبق، فإن التقارب الجغرافى للإمبراطوريات الثلاث، مع وجود علاقات عدائية فيما بينها، قدم لحكوماتها فرصًا مغرية لإثارة المشاكل العرقية عبر حدود بعضها البعض.

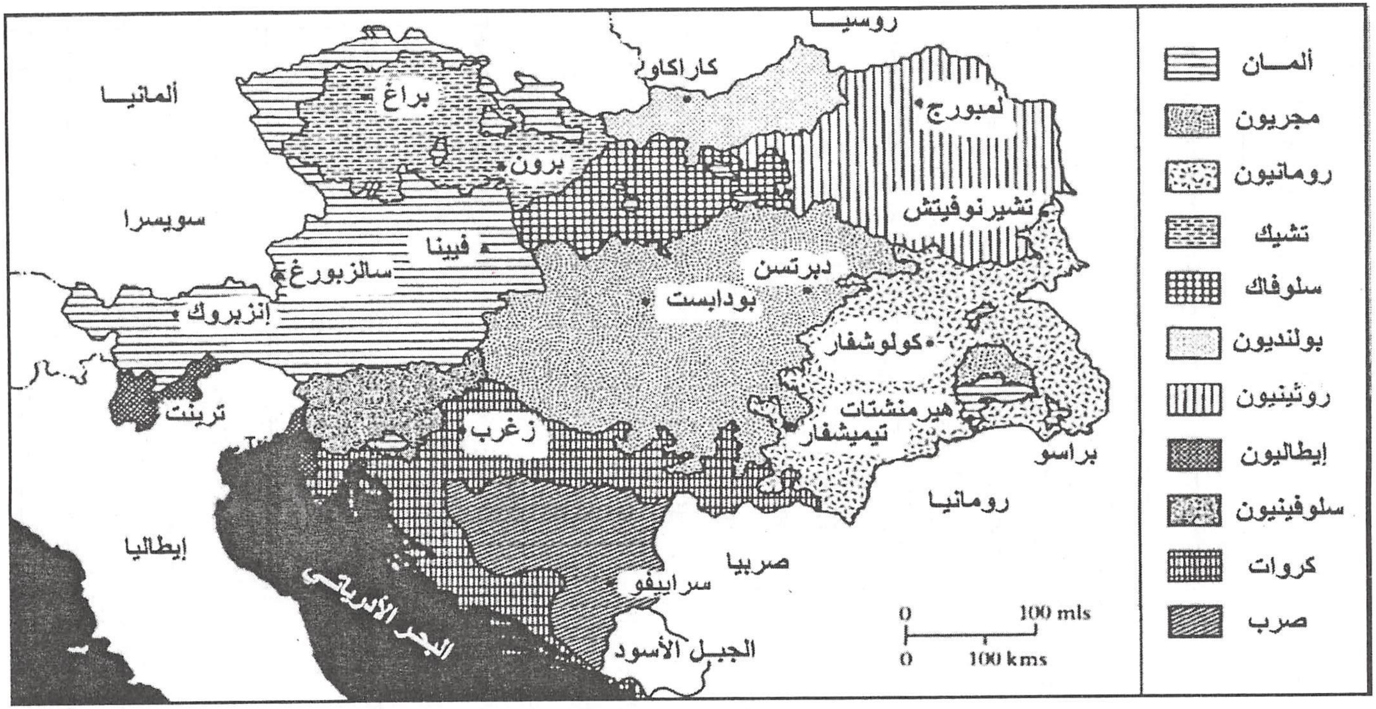
وتتشابه الإمبراطوريات الثلاث مع بعضها فى ملامح بارزة، من حيث التركيب السكانى متعدد الأعراق، والمشاكل والتحديات اللاحقة التى واجهتها الأنظمة الحاكمة. لكن كانت هناك مع هذا اختلافات مهمة فى طبيعة العلاقات العرقية داخل كل دولة، وفى السياسات التى اتبعتها كل حكومة. ولذلك يعتبر تقديم مراجعة مختصرة لتطور السياسات العرقية فى كل إمبراطورية أمرًا واجبًا.

الإمبراطورية النمساوية المجرية

كانت هذه الإمبراطورية أكثر الإمبراطوريات الثلاث اعتمادًا على مبدأ الأسرة الحاكمة فى شرعيتها، ولم تكن هناك مجموعة عرقية واحدة تشكل أغلبية مطلقة فى سكانها، وكان العرق الألمانى. الذى مثل إحدى القوميتين الرئيستين. يشكل فى هذه الإمبراطورية أقلية بين مجموع السكان الألمان فى أوربا، والذين كان معظمهم قد اندمج فى الدولة القومية الألمانية التى وحدها بسمارك فى 1871م. ولذلك كان يستحيل التفكير فى مملكة الهابسبرج كتعبير سياسى عن أية هوية عرقية بعينها أو تقليد قومى محدد. وكان يبدو لكثير من مراقبى المشهد السياسى النمساوى المجرى، أنه إذا قدر لهذه الإمبراطورية أن تحقق انتقالاً ناجحًا إلى الحداثة السياسية، فإنها يجب أن تفعل ذلك كنموذج للتسامح العرقى، والتجانس المدنى المتسامى، بما يقود بقية أوربا لتجاوز مأزق الانزلاق إلى الأنشطة المسلحة للحركات القومية. وفى ضوء المصير المأساوى الذى لحق بالشعوب المكونة لهذه الإمبراطورية بعد انهيارها، أصبح الكثيرون ينظرون بحنين إليها باعتبارها تجربة نبيلة متعددة القوميات، ولكنها فشلت بطريقة ما. لكن فى الحقيقة لم تكن هناك مثل هذه التجربة، بل كانت هناك سلسلة من السياسات

الخرقاء غير المخططة، وحلول الوسط غير الحاسمة من جانب أسرة حاكمة يائسة، ساعدت على تفاقم الإحباط والعداء لدى وبين القوميات الخاضعة لها[3].

لقد نشأت هذه الإمبراطورية كخليط من إمارات وممالك يربطها معًا اتحاد شخصى تحت حكم أسرة الهابسبرج، التى اعتمدت قاعدة سلطتها على مجموعة من الأراضى الموروثة فى جنوب شرق ألمانيا تعرف بالنمسا[4]، وحمل حكامها لقب الإمبراطور الرومانى المقدس بصورة متصلة، مع انقطاع واحد قصير. وفى (1526-1527) دخلت مملكتا بوهيميا (قلب جمهورية التشيك) والمجر. وألحقت بهما كرواتيا منذ القرن الثانى عشر. فى اتحاد ملكى مع أراضى الهابسبرج. وطوال القرون التالية، دخلت هذه الإمبراطورية فى مواجهة مع الأتراك العثمانيين، الذين شمل توسعهم الإمبريالى كل شبه جزيرة البلقان، ومعظم أراضى المجر. وفى الواقع، فقد ساعد التهديد التركى على قيام اتحاد الممالك تحت عرش أسرة الهابسبرج. وبعد أن فشل الحصار العثمانى لفيينا فى ١٦٨٣م، بدأ العثمانيون فى التراجع أمام توسيع الهابسبرج لأراضيهم. أمَّا فى الشمال، فإن تقسيم بولندا فى أواخر القرن الثامن عشر بين بروسيا وروسيا ومملكة الهابسبرج جعل الأخيرة تسيطر على جاليسيا، وهى المقاطعة الجنوبية من بولندا[5].



خريطة (١) القوميات فى إمبراطورية الهابسبرج

المصدر:

- Alan Sked, The Decline and Fall of the Habsburge Empire, (C) Longman Groupe UK Limited 1989, - Reprinted by permission of Pearson Education Limited.

وقد اكتشفت الهابسبرج صعوبة ضم أقاليمها معًا فى دولة متحدة ذات قوانين ومؤسسات موحدة نسبيًا، ذلك أنه كلما كانت الإمبراطورية تحقق تقدمًا فى هذا الاتجاه، كلما زادت الكراهية بين رعاياها، حيث ضاعت جهودها فى تحقيق مركزية سلطة الدولة بسبب المكانة التاريخية التى تتمتع بها بوهيميا والمجر كدولتين متميزتين. ففى معركة الجبل الأبيض (1920م)، هزمت النخبة الأرستقراطية فى بوهيميا وفشلت مساعيها لاستغلال البروتستانتية كوسيلة لمواجهة سلطة الهابسبرج. لكن الطبقة الأرستقراطية المجرية، التى ثارت أيضًا، تفاوضت على تسوية سلمية مبكرة ضمنت العفو لها وتركت مؤسساتها المشتركة تعمل بأمان.

ومع أواخر القرن الثامن عشر، حظيت أسرة الهابسبرج باعتراف دولى لحق الوراثة الموحدة داخل أقاليمها المختلفة. وفى 1804م أعلن ملك الهابسبرج أن أملاكه مجتمعة معًا تمثل إمبراطورية وراثية، وهو ما كان بمثابة كيان جغرافى أكبر من الدول التاريخية التى كونت أجزاءها[6] ولكن خلال القرن التاسع عشر تكاتف التأكيد التقليدى على حقوق الدول التاريخية مع العقيدة الجديدة للقومية الليبرالية واشتركا معا فى تحدى المؤسسات الاستبدادية بصفة عامة، وتحدى شرعية الهابسبرج بصفة خاصة. وقد أخذت ثورات (1848، 1849) شكل حركات التمرد القومية فى العديد من مقاطعات المملكة، ومنها بوهيميا والمجر.

وبالرغم من أن الهابسبرج سحقت الحركات الانفصالية بوحشية، فإن محاولة النظام مواصلة انتصاره باتباع برنامج نشط للمركزية منيت بالفشل. فهزيمة النظام فى حربه ضد تحالف بيدمونت - سردينيا (إيطاليا) وفرنسا فى 1866م (وهى الهزيمة التى عبدت الطريق أمام الوحدة القومية الإيطالية)، فضلا عما لقيه هذا النظام من ذل وانكسار فى حربه أمام بروسيا فى 1866م (والتى أدت لاحقا إلى الوحدة القومية الألمانية) ترك آثاره جلية فى اهتزاز دولة الهابسبرج. واستغلت النخبة المجرية الموقف للتفاوض على تسوية تاريخية «مساواة Ausgleich» فى 1867م. حيث قبض المجريون ثمنا كبيرا مقابل استمرار ولائهم لأسرة الهابسبرج، تمثل فى الحكم الذاتى الكامل لمملكة المجر فى كل الجوانب، باستثناء الشئون العسكرية والخارجية. ولم يكن الاتحاد الشخصى تحت حكم

أسرة الهابسبرج موضوع نقاش، ولكن النمسا (وهو التعبير الذى استخدم بعد ذلك للإشارة إلى الأراضى التى ظلت تحت الحكم المباشر لفيينا فقط) والمجر كان يجب الاعتراف بهما ككيانين سياسيين منفصلين ومتساويين تحت الرعاية المشتركة للإمبراطور الملك. وهكذا تعدل لقب حاكم الهابسبرج ليعكس الفرق بين مكانته كإمبراطور للنمسا وملك للمجر[7]. وتأكد التقسيم السياسى والإدارى للدولة بتأسيس برلمانيين منفصلين، نمساوى ومجرى[8] فيما أصبح «ملكية دستورية مزدوجة». وفى بعض الجوانب، يمكن القول: إن الكيان الإمبراطورى ككل لم يعد أكبر من مجموع أجزائه. وحده بقى الجيش آخر المؤسسات الاتحادية الكبرى فى نظام آخذ فى الانهيار[9].

لقد كانت «المساواة ـ Ausglich» نصرًا عظيمًا للقومية المجرية (العرق الهنجارى). ولكنها لم تمثل الانتصار العام لمبدأ تقرير المصير القومى فى إمبراطورية الهابسبرج. فالطبقة الأرستقراطية صاحبة الأراضى ـ والمهنيون الحضريون ذوو الأصول النخبوية ـ الذين شكلوا الطبقة الحاكمة المجرية المطالبة بالحكم الذاتى سوغوا مطالبهم بالحكم الذاتى بالرجوع إلى الحقوق التاريخية لمملكتهم. وظلت الأسس الاجتماعية السياسية للحكم المجرى محافظة للغاية، وكان التصويت قاصرًا على النخبة الثرية، وهو ما كان له أثر سلبى على القوة الانتخابية للأقليات العرقية التى شكلت حوالى نصف سكان المجر. وبصفة عامة، تعاطى قادة المجر مسألة القوميات بمعيار مزدوج، حيث اعتبروا حق المجريين فى تقرير المصير داخل الحدود التاريخية للمجر مقدسًا إلى أبعد حد، بينما أنكروا على المجموعات العرقية الأخرى (مثل الرومانيين والصرب والسلوفاك) تطلعاتها ولم يروا فيها سوى مجموعة من الفلاحين الأدنى منزلة وثقافة يجب ألا تتجاوز تطلعاتها الذوبان فى الأمة المجرية. ولم يكن هناك أى تساؤل عن استقلالها السياسى، بل إن الوعود بالاستقلال الثقافى حل محلها سياسات قمعية تهدف إلى مجيّرة (إضفاء الطابع المجرى) نظام التعليم من قمته إلى مرحلة التعليم الابتدائى، وذلك حتى فى مناطق متميزة لغويًا مثل سلوفاكيا.

وكان إقليم كرواتيا ـ سلافونيا الاستثناء الوحيد فى هذه السياسة، فقد اعترف المجريون بمكانته التاريخية كمملكة مستقلة، قبل أن يتم ضمه بصفة

دائمة إلى التاج المجرى فى اتفاقية 1868م (الناجودبا - The Nagodba). وحتى فى هذه الحالة، كان الحكم الذاتى الممنوح لكرواتيا - سلافونيا محدوداً للغاية، ولا يشبه أبداً الاستقلال الكبير الذى حصلت عليه المجر من فيينا العام السابق[10].

وهكذا ، وبناء على مبدأ «المساواة - Ausgleich»، فإن الطبقة الحاكمة المجرية لم تقنع بالحصول على حريات واسعة من سلطة فيينا فحسب، بل إنها اكتسبت القوة (لإنكار) الحريات السياسية والثقافية للأقليات العرقية فى المجر ذاتها. وقد عارض المجريون بشدة أية خطط لتفويض السلطة للمجموعات العرقية فى النمسا، وذلك خشية وضع سابقة خطيرة لنظرائهم فى المجر. ولذلك فإن التوافق التاريخى لأسرة الهابسبرج مع بودابست شكل عقبة دائمة فى طريق أى إصلاح منهجى آخر فى الإدارة الإمبريالية. وعلى أية حال، فقد كانت النزاعات بين القوميات فى النصف النمساوى من الإمبراطورية تتزايد تفاقماً بمرور الوقت، بينما استمرت سلطات الهابسبرج من جانبها فى إطلاق إشارات مرتبكة للمجموعات المختلفة بدون اتخاذ أى موقف حاسم فى أية قضية.

وكان المتحدثون بالألمانية فى النمسا يشكلون العنصر السائد فى الإدارة والجيش، وكان هناك أعضاء كثيرون من النخبة السياسية ذوى خلفية عرقية غير ألمانية، ولكنهم تبنوا اللغة والثقافة الألمانية كثمن للدخول فى الدوائر الحاكمة. ومع ذلك كان أعضاء مجموعات عرقية أخرى يفوقون الألمان بمعدل اثنين إلى واحد فى النصف الغربى من الإمبراطورية. ففى جاليتشيا التى كانت تتمتع بقدر من الاستقلال الإدارى، كان البولنديون يشكلون النخبة السياسية والبيروقراطية المحلية، ومع ذلك كان الفلاحون الأوكرانيون[11] فى شرق جاليتشيا يمثلون أكبر مجموعة عرقية، بينما كان البولنديون واليهود هم سكان المدن الكبرى فى المقام الأول. وكانت بوكوفينا Bukovina، التى تقع جنوب شرق جاليتشيا، تتمتع بأكثر السكان تنوعاً فى الإمبراطورية، فقد كانت تضم الأوكرانيين واليهود والرومانيين والألمان وغيرهم، ولم يكن أى منها يمثل أغلبية واضحة. وامتدت فى القطاع الشمالى الغربى من الإمبراطورية مقاطعتا بوهيميا ومورافيا (موطن التشيك). وكان هناك أيضاً أقلية بارزة من الألمان الذين يتمركزون على الأطراف الجبلية لبوهيميا (الإقليم الذى أصبح يسمى لاحقاً شوتنلاند - Sudetenland) وكانت

المنطقة «السلافية الجنوبية» تقع فى جنوب شرق النمسا الناطقة بالألمانية ـ وهى الإمارات التى يقطنها السلوفينيون والكروات والصرب والمسلمون الناطقون بالصربية والكرواتية، بالإضافة إلى خليط من القوميات الأخرى (كالألمان فى ستيريا ـ Steria» السلوفينية جزئيًا، والإيطاليين على ساحل دالماشيا)[12]. وأخيرًا، كانت تيرول الجنوبية تضم خليطا من الألمان والإيطاليين.

وقد كانت صعوبات فرض السيطرة على هذا الخليط الإثنوجرافى تتفاقم بسبب المطالبات والتوقعات المتناقضة للمجموعات العرقية المختلفة، وارتفاع درجة التداخل الإقليمى فيما بينها، إذ كان أعضاء طبقة ملاك الأراضى البولندية (النبلاء ـ Szlacbta) فى جاليتشيا يعتبرون أنفسهم الحكام الأصليين للإمارة بفضل دورهم التاريخى كنخبة حاكمة للاتحاد البولندى الليتوانى. وكان الأوكرانيون ينازعونهم السيطرة على هذه الإمارة. ومن جانبها أصرت النخبة الاجتماعية والسياسية التشيكية على أن أرضها التاريخية ـ مملكة بوهيميا ـ يجب أن تحصل على الاستقلال الذاتى على نحو ما حصلت المجر. غير أن منح فيينا أى امتياز للتشيك كان سيثير موجة من الاحتجاجات من قبل الأقلية العرقية الألمانية الكبيرة فى بوهيميا. وبصفة عامة، كانت النخبة الناطقة بالألمانية فى النمسا ـ والتى شملت العديد من الأعضاء المستوعبين من قوميات أخرى ـ مقتنعة بأن لغتها كانت الوسيط المتميز للثقافة العليا والحضارة فى وسط أوربا. وفى الواقع، كان الليبراليون النمساويون الألمان فى مقدمة أولئك الذين شجبوا تأكيد الحقوق اللغوية غير الألمانية فى إدارات المقاطعات واعتبروها معوقا للتقدم. وقد ساهمت الوحدة الألمانية اليمينية، التى كانت فى صعود منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، فى زيادة استقطاب العلاقات بين الأعراق[13].

على هذا النحو واجهت أسرة الهابسبرج أكثر المشكلات العرقية تعقيدا، بل إن هذه المشاكل صارت قاتلة فى النهاية خاصة فى قضية السلاف الجنوبيين الناطقين بالصربية والكرواتية[14] التى سيطرت على التقسيم الإدارى بين النمسا والمجر، بل وتخطت حدود الإمبراطورية أيضًا. فقد كانت هناك خمس إمارات متميزة فى إمبراطورية الهابسبرج يقطنها الصرب، أو الكروات، أو الاثنان معًا. وكان الصرب يشكلون معظم سكان إمارة «فويفودينا ـ Illyrianists» الواقعة فى

جنوب غرب المجر، أما دالماشيا وأستريا (Istria) التى يقطنها الكروات فقد وقعت تحت السيادة القانونية للنمسا. وكما رأينا فإن المجر سيطرت على إمارة كرواتيا وسلافونيا المستقلة اسميًا لحبما تضمه من أقلية صربية كبيرة). وأخيرًا، كانت البوسنة والهرسك ـ التى كان سكانها خليطًا عرقيًا من الصرب والكروات والمسلمين الناطقين بالصربية والكرواتية ـ خاضعة لإدارة مشتركة بين فيينا (النمسا) وبودابست (المجر).

ولم يكن مشروع تكوين هوية قومية فى أى مكان فى أوربا يكتنفه مثل هذا القدر من الغموض مثلما كان بين السلاف الجنوبيين. إذ كان الصرب والكروات منقسمين بسبب ارتباطهم بتقاليد دولة تاريخية متميزة، وكنيستين مختلفتين (كاثوليكية صربية وأرثوذكسية) وأبجديتين متباينتين (سيريلية ولاتينية)، ومع ذلك يتكلم الصرب والكروات نفس اللغة، وهى ذاتها اللغة التى يتكلمها مسلمو البوسنة[15].

وكانت النتيجة عبارة عن مجموعة من المشروعات القومية، بعضها متناقض وبعضها متكامل. وكان هناك أيضا من القوميين الصرب من زعموا أن هناك أمة سلافية جنوبية (يوجو ـ سلافية) أكبر من مجموع أجزائها العرقية تشمل الناطقين بالصربية ـ الكرواتية، بالإضافة إلى المقدونيين ذوى القرابة اللغوية والجغرافية فى الجنوب، والسلوفينيين فى الشمال. وقد ظهرت هذه الفكرة أولاً فى أعمال الدارسين والمفكرين الكروات، من بداية إلى أواسط القرن التاسع عشر، ممن أطلقوا على أنفسهم اسم «إليريان ـ Illyrianists» وكرسوا أنفسهم لتكوين روابط ثقافية بين الصرب والكروات على افتراض ما يجمعهم من تاريخ وأصل مشترك. وبين منتصف ونهاية القرن التاسع عشر، كانت محاولة بناء جسور ثقافية بين السلافيين الجنوبيين تتم بواسطة «جوزيف شتروسماين ـ Anti Stracevic» (1823م ـ 1896م)، ذلك الأسقف الكرواتى السلافونى الذى أسس «الأكاديمية اليوغسلافية للآداب والعلوم» فى زغرب فى 1867م، والذى حاول أيضًا تشجيع التعاون السياسى بين الصرب والكروات داخل مملكة الهابسبرج.

ولكن هذا التصور التعاونى للعلاقات الصربية الكرواتية واجه تحدى آنتى ستراكيفيتش ـ Anti Stracevic» (1823م ـ 1896م) مؤسس «حزب الحق» (لدولة

كرواتيا). حيث رد على المشروعات السياسية لصربيا الكبرى التى ذاعت فى عصره بالدعوة لتفعيل قومية كرواتية مستقلة، وأصر على أن الحقوق السياسية الكرواتية كانت تكمن فى الشرعية التاريخية للمملكة الكرواتية، وأن الشعب الكرواتى ورثها بصورة جماعية من النبلاء الذين أسسوا الدولة فى أوائل العصور الوسطى. وذهب «حزب الحق» إلى أن كل الأراضى السلافية الجنوبية تشكل جزءًا من هذه المملكة التاريخية، وأن الشعوب التى تدعى أنها صربية أو مسلمة كانت فى الأصل كرواتية، ولكنها فقدت ارتباطها بهويتها الحقيقية تحت تأثير الغزو الخارجى والنفوذ الأجنبى. ورد عدد من القوميين الصرب بالقول إن الكروات والمسلمين ليسوا فى الأصل سوى مجموعة من الصرب، ضلوا طريقهم ويعانون اليوم من وعى زائف.

وكان الصرب فى كرواتيا - سلافونيا يتطلعون خارج حدود إمبراطورية الهابسبرج لتكوين مملكة صربيا المستقلة كإطار مرجعى لهويتهم السياسية. وتزايدت احتمالات الصراع بين الإمبراطورية النمساوية المجرية وصربيا بسبب ضم الإمبراطورية رسميًا فى 1908م لمقاطعة البوسنة والهرسك وذلك بعد ثلاثين عامًا من الاحتلال (الفعلى) الذى اقتطعها من نفوذ الإمبراطورية العثمانية. وقد أثار هذا العمل موجة من الانتقادات اللاذعة من جانب الحكومة الصربية، التى طالبت بدورها بضم تلك المقاطعة. وفى السنوات التالية، شنت السلطات الصربية حملة من الشحن الدعائى بين الشباب ذوى العرق الصربى فى البوسنة، بينما جند الضباط القوميون فى الاستخبارات الحربية الصربية شبابًا بوسنيين (ذوى عرق صربى) للقيام بأعمال إرهابية ضد الهابسبرج، وقد بلغ ذلك ذروته فى اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند وزوجته فى سراييفو على يد صربى بوسنى فى 1914م.

وبينما تشكل العديد من البرامج القومية التى أشرنا إليها سلفًا حسب تفسيرات النخب العرقية للسوابق القانونية والتاريخية، كان هناك أيضًا عنصر شعبى/ديموقراطى قوى فى السياسة العرقية للإمبراطورية النمساوية المجرية مع نهاية القرن. وكان مفهوم حقوق الدولة التاريخية يرتبط منذ زمن طويل بفكرة أن الطبقة المالكة للأرض تشكل الأمة. ولم تعترف النخب للطبقات الدنيا بأية قدرة

على تطوير الوعى السياسى، وبالطبع فإنهم استبعدوا أن تكون لهم هوية واحدة مع سكان المناطق الزراعية الفلاحية. ولكن تجربة الثورة الفرنسية منحت قوة متزايدة لفكرة أن الشعوب، وليس الدول، تمثل المستودع الحقيقى للحقوق السياسية. وكانت طبقة الإنتلجينسيا من أهل الفكر - المثقفون والمهنيون المتعلمون المهتمون فعلاً بالقضايا الثقافية والفكرية - يراهنون على دور الشعوب بحماس شديد. وكانت تلك الأفكار تستخدم فى تحدى المؤسسات السلطوية والهياكل القانونية التى تقف عقبة فى طريق التغيير السياسى والإصلاح الاقتصادى. وكانت مثل هذه الأفكار قادرة أيضا على تقديم إطار مرجعى للهوية الجماعية لأعضاء الطبقة الوسطى الصاعدة ممن لم يتوافقوا مع أى من التقسيمات الجماعية التقليدية فى المجتمع. ومنذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، بدأ المثقفون فى العديد من القوميات فى الانشغال ببرامج الدراسات التاريخية والبحوث الإثنوجرافية وإحياء الآداب، وصناعة الأساطير، وذلك من خلال جهد واعٍ ذاتيًا لبناء جسور بين الثقافات الرفيعة والشعبية، وتكوين إطار للوعى القومى الموحد الذى يتخطى الحدود المشتركة والاختلافات الطبقية. وقد أظهرت تجربة ثورات 1848م - عندما نجحت التقسيمات الطبقية فى تقويض نجاح الصراعات القومية التى تقودها النخب أو البرجوازية[16] - أهمية تعبئة الجماهير كشرط ضرورى لنجاح أى تحد للوضع القائم. وقد تأثر العديد من الحركات القومية فى إمبراطورية الهابسبرج بكتابات وأعمال المفكرين «الشعبيين - Narodniki» الروس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الذين أبدوا إعجابهم بالحياة الريفية كمستودع للقيم القومية الحقيقية. وتبلورت النتيجة فى تزايد اتجاه المثقفين القوميين أمثال آنتى ستاركفيتش، بل إن اهتمام النخب الاجتماعية السياسية المستقرة، مثل الطبقات الحاكمة المجرية والبولندية، تزايد نحو دمج الخطاب التقليدى لحقوق الدولة التاريخية مع الخطاب الحديث للسيادة الشعبية وتقرير المصير القومى[17].

صحيح أن حشد الدعاوى التاريخية مع الطموحات الشعبية بوسعه أن يقدم أداة دعائية قوية، إلا أنه ينطوى على بعض التناقضات الواضحة. فإذا كانت الهوية الشعبية عنصرًا جوهريًا فى تحديد الحقوق القومية، فإن الجماعات

العرقية المنفصلة التى تقع داخل الحدود التاريخية لأية مقاطعة (مثل الألمان فى بوهيميا، أو الأوكرانيين فى جاليتشيا الشرقية) يجب أن تكون لها حقوق سياسية جماعية فى حد ذاتها. ومع ذلك، كان معظم القوميين غير راغبين فى التخلى عن إطار حق الدولة التاريخية؛ وذلك لأنه يؤدى إلى تبرير الدعاوى الإقليمية التى قد تبدو متطرفة إذا كانت الإرادة الشعبية والهوية العرقية يمثلان المعيارين الوحيدين المسموح بهما. فقد كان القادة التشيك، ممن طالبوا باستقلال بوهيميا ومورافيا، يرفضون التخلى عن كل الدعاوى المنادية بالمناطق التى يقطنها ألمان والتى تشكل جزءًا من مملكة بوهيميا التاريخية. وكان البولنديون يعتبرون جاليتشيا جزءًا من تراثهم ويقاومون أى نشاط أوكرانى يتحدى سيطرتهم السياسية على تلك المنطقة. وواجه ألمان النمسا مأزقًا محيرًا للغاية؛ لأن تقليد دولتهم كان إمبرياليًا فعليًا، وليس قوميًا بطبعه، وكان حق تقرير المصير لألمان النمسا يتطلب الانفصال عن إمبراطورية الهابسبرج، والاندماج فى ألمانيا المتحدة فى الشمال، كما كانت تنادى الوحدة الألمانية الراديكالية فى الواقع[18]. ومع ذلك، صوت معظم ألمان النمسا للأحزاب التى أيدت بالإجماع التكامل الإقليمى للإمبراطورية، بينما طالبت فى النصف الغربى من المملكة المزدوجة بسياسات تزيد الطابع المؤسسى لهيمنة اللغة والثقافة الألمانية[19] .

لقد أدت محاولة الأمم «التاريخية»[20] للحصول على كعكتها، والتهامها أيضًا، إلى دفع أعضاء الجماعات العرقية الأخرى إلى «صحوات» ثقافية وبرامج قومية ذاتية، فمع غياب الأرستقراطيات الداخلية، ومع تكون شعوبها غالبًا من فلاحين أميين يتحدثون مجموعة من اللهجات، دخل العديد من هذه المجموعات العرقية القرن التاسع عشر بدون لغة كتابة موحدة. وقد لعبت مجموعة من الدارسين الجامعيين أدوارًا حيوية فى اختيار لهجة واحدة دون غيرها، كأساس لتوحيد اللغة. وهكذا نجد فى منتصف القرن التاسع عشر أن لودوفيت شتور - Ludowit Stru» نجح فى إقرار لهجة سلوفاكيا الوسطى كأساس للغة السلوفاكية المعيارية، وقد دعم هذا تميز اللغة السلوفاكية التى كان يصعب تمييز لهجتها الغربية عن التشيكية المعيارية[21]. ونظرًا لأن مثل هذه الحركات كانت مدفوعة بشدة للخروج بدعاوى تاريخية مقنعة للاستقلال الذاتى الثقافى، أو الحكم الذاتى، فإنها ركزت

بشدة على الأفكار الشعبية، خاصة على رومانسية الثقافة الريفية. وكان هذا الاتجاه يمثل سمة مميزة لقادة الفكر القومى السلوفاكى والسلوفينيين والأوكرانيين وغيرهم[22].

وكان لظهور التحديث فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين آثار إيجابية وسلبية على المجتمع النمساوى المجرى. فكان يبدو أنه ينير الطريق إلى توحيد الهويات القومية، بينما كان فى نفس الوقت يعمق الانقسامات بين القوميات المختلفة، حيث جذب التصنيع والتحضر الفلاحين المبعدين إلى المدن، وشجع نمو الطبقات الوسطى، وقلل الاختلافات بين القادمين من الأقاليم المختلفة والذين يتحدثون لهجات متباينة. وساعد كل من نظم الاتصال والمواصلات المتطورة، وارتفاع معدل التعليم، ونمو الصحافة، على تحفيز هذه العملية. ومع ذلك، لم يتقدم التحديث بصورة متساوية فى أنحاء الإمبراطورية، وكانت له آثار شديدة التباين على الأقاليم المختلفة فى المملكة المزدوجة، والمجموعات العرقية، والطبقات الاجتماعية، مما أدى إلى تفاقم مشاعر العداء فيما بينها.

وكان هذا النمط واضحًا بجلاء الحالات العديدة التى كانت ترتبط فيها المكانة الاجتماعية الاقتصادية بالانتماء العرقى. فبينما ألغيت الآثار الأخيرة للعبودية خلال ثورات ١٨٤٨م، تركت التنمية الاقتصادية والتنظيم الإدارى الشعوب الخاضعة تشعر بأنها معرضة أكثر من ذى قبل لنزوات أسيادهم التقليديين، حيث كان التقدم المستمر فى الزراعة التجارية مربحًا لملاك الأراضى البولنديين والمجريين الذين استطاعوا تحمل تكاليف تطوير اقتصاديات النطاق، ولكنه ترك صغار الملاك والفلاحين المستأجرين الأوكرانيين والسلوفاك متضررين بشدة.

ومع نمو بيروقراطية الدولة التى شغل مناصبها الناطقون بلغة واحدة زاد اغتراب الذين اعتبروا هذه اللغة أجنبية عليهم، وتفتحت مسارات جديدة للحراك الاجتماعى لأعلى أمام الذين تعلموا فى الثقافات المهيمنة. وبالتالى عانت الطبقات المتعلمة من القوميات الخاضعة من التمييز بسبب هذا النظام، وكانت مدفوعة بقوة للمطالبة بالاستقلال الثقافى والإدارى لمجموعاتها العرقية. واستوعب معلمو المدارس وكهنة الأبرشيات أفكار قادة الفكر القوميين، وساعدوا

بدورهم فى نشرها بين الجماهير[23]. ومن بين الشعوب السلافية فى الإمبراطورية، تبرز حركة سوكول «الصقر ـ Sokol» التى تأسست فى ستينيات القرن التاسع عشر على أيدى القوميين التشيك، وأصبحت تضم مؤسسات مشابهة أخرى بين الشعوب السلافية الأخرى فى إمبراطورية الهابسبرج. وقد استخدمت هذه الحركة التمارين الرياضية ليس فقط كوسيلة لغرس الروح القومية للتضامن المنظم وبث قوة الشباب بل وللتعبير عن هذه الروح أيضا[24].

ونلاحظ أن المجموعات العرقية التى تمتعت بالنجاح الاقتصادى، لم تصبح راضية بصورة تلقائية عن وضعها فى الإمبراطورية. بل على العكس، كان نمو البرجوازية المتعلمة والطبقة العاملة الواعية سياسيًا يؤدى غالبًا إلى زيادة توقعات الحكم الذاتى ـ وهى التوقعات التى لم ولن تتقبلها الدولة. وعلى سبيل المثال، أصبحت بوهيميا الإقليم الأكثر تصنيعًا فى الإمبراطورية[25]، وتمتعت الطبقات الوسطى وقادة الفكر التشيكيون بإحساس متزايد بالازدهار والثقة بالنفس. غير أن وجود مجتمع ألمانى عرقى كبير فى بوهيميا منع فيينا من تفويض السلطة للإقليم؛ لأن ذلك كان سيمنح السيطرة الإدارية للتشيك على حساب الألمان، وهو ما كان سيعارضه الألمان بشدة.

وهكذا أدت الجهود المختلفة لتقسيم الكعكة أو التلاعب بالقضية إلى شعور الطرفين بالمرارة تجاه سلطات الهابسبرج، وزيادة العداوة تجاه بعضهما عن ذى قبل. وبحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، أصبحت اضطرابات المناطق الحضرية وصدامات الشوارع بين التشيك والألمان الظاهرة الأكثر حضورا فى التفاعل السياسى، بل إن مبنى البرلمان (Reichsrat) كان ساحة لصدامات عنيفة بين النواب التشيك ونظرائهم الألمان[26].

وكان الارتباط بين التحديث وبلورة الهويات القومية المتنوعة ملحوظًا فى الإمبراطورية النمساوية المجرية، لدرجة أن الديمقراطيين الاشتراكيين النمساويين ـ الذين شكلوا الحزب الماركسى الرئيسى بالإمبراطورية ـ كانوا مضطرين للاعتراف بقوة الهوية القومية، كعامل مستقل له تأثير هائل على سلوك الجماهير العاملة. وقد ناقش الديمقراطيون الاشتراكيون فى مؤتمرهم فى برنو Brünn (Borno) فى ١٨٩٩م، تحرك بعثة السلاف الجنوبيين من أجل

الاستقلال الذاتى داخل الإمبراطورية كأسلوب لحل مشكلات القوميات فيها. وبالرغم من أن المؤتمر كان يرغب فقط فى التصديق على صيغة معدلة من المقترح، تطورت فكرة الاستقلال الثقافى ووضعت فى إطار نظرى على أيدى اثنين من القادة الأيديولوجيين للحزب، وهما «كارل رينيه . Karl Renner»، و «أوتو بوير . Otto Pauer» حيث توصل هذان الرجلان إلى النتيجة المروعة (للماركسيين) وهى أن نمو البروليتاريا الصناعية الحديثة سيساهم فى تماسك الهويات القومية، بدلاً من أن يبددها. فالسكان الفلاحون الذين يشكلون المستودعات الديموجرافية للبروليتاريا، كانوا يعيشون فى مجتمعات ريفية معزولة نسبيًا ذات لهجات وتقاليد خاصة وتطلعات فكرية ضيقة. وطالما كانت هذه الأوضاع سائدة، فإن الإحساس العام بالوعى القومى يظل مقصورًا على الطبقات الحاكمة والنخبة المتعلمة. ولكن التصنيع والتحضر كانا يحطمان الحواجز التى تقف فى طريق التكامل الثقافى. ففى ظل تأثير التعليم العام، ونمو الإعلام المطبوع، وزيادة حراك العمالة، بدأت تظهر الهويات القومية المتجانسة القائمة على المجتمعات الكبيرة ذات الثقافة. وطالما كانت الرأسمالية مستمرة، فإن الصراع الطبقى سيقف فى طريق التكامل القومى الكامل، ولكن الاشتراكية ستحقق التكامل الاجتماعى الرأسى الكامل، وبهذا يتحقق التبلور النهائى للمجتمعات القومية الموحدة[27].

ولذلك تطلب نجاح الاشتراكيين الوصول إلى طريقة للتوفيق بين دعوتهم الماركسية إلى المركزية الاقتصادية والسياسية وحق المجموعات العرقية المختلفة فى التعبير الذاتى الثقافى. وقد صيغت معادلة الاستقلال الذاتى داخل الإمبراطورية لتحقيق ذلك تمامًا. فكل مواطن فى الإمبراطورية الإصلاحية، بغض النظر عن محل إقامته، كان سيسجل عضوا فى جماعة قومية معينة. وتقوم كل قومية بانتخاب مجلس تمثيلى تدفع إليه جزءًا من ضرائبها ويكون منوطا به تمويل وإدارة المؤسسات الثقافية والتعليمية للمجموعات السكانية التى يمثلها فى أرجاء الإمبراطورية. وفى حالة وجود أقلية مؤلفة من عرقيات مشتركة تقطن فى منطقة ما، وتكون اللغة السائدة فيها غريبة عليهم، فبوسع هذه الأقلية توحيد نفسها والاعتماد على ميزانية مجتمعها القومى المحلى لتمويل ما يتبعها من

مدارس ودور أيتام ومتاحف ومؤسسات قانونية محلية. وهكذا فإن التقسيم التقليدى للدولة إلى وحدات إدارية إقليمية كان من المنتظر استكماله بتكوين مؤسسات ثقافية قومية تتمتع بالاستقلال الذاتى داخل الدولة. وبالتالى فإن هذا الشكل من التعبير عن الهوية القومية لن يقف فى طريق التكامل الاقتصادى والسياسى بين القوميات، والذى ينادى به المبدأ الماركسى، بل على العكس، سيؤدى إلى تسهيل تحقيقه. إذ إنه سيتم تجريد العرقية من الطموحات السياسية، بمعنى أن كل المواطنين سيخضعون لنفس القوانين وسيكونون أحراراً فى الإقامة حيثما يريدون، مع تمتعهم بخيار تأسيس مؤسسات ثقافية مستقلة بغض النظر عما إذا كانوا يمثلون أقلية أو أغلبية من السكان فى أية مقاطعة. وسوف يتدفق كل من العمل ورأس المال بحرية، وسوف يتعاون أعضاء الطبقة العاملة مع بعضهم بصورة ودية، ويتمتعون بمعرفة أنهم يستطيعون التعبير بحرية عن ممارسة هوياتهم القومية أينما عاشوا[28]. وبينما يهاجم الماركسيون المتشددون هذا الاستقلال الذاتى داخل الإمبراطورية على أنه خطة ستفكك البروليتاريا وجدت الأفكار التى طرحت فى مؤتمر برنو، والتى طورها رينيه وبوير، جمهوراً مهتماً للغاية بين الجماعات الاشتراكية فى الأراضى الحدودية غير الروسية فى الإمبراطورية القيصرية[29].

وبالرغم من الاعتناق المستنير للتنوع متعدد الثقافات، فإن القادة والأيديولوجيين والألمان واليهود، المتمسكين باللغة الألمانية فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى النمساوى[30]، لم يتخلوا أبداً عن افتراضهم أن اللغة والثقافة الألمانية ستسود فعلاً كوسيط عام للاتصال والتكامل. ويكمن فى معظم كتاباتهم اعتقاد بأن الألمانية هى لغة حضارة أوربا الوسطى وعقليتها الإدارية ومسار تنويرها الثقافى، وأن الشعوب السلافية تعمل على مستوى ثقافى أدنى، وأن التطور الاشتراكى وانتشار الثقافة الألمانية سيسيران جنباً إلى جنب فى الأجل الطويل.

لقد فشلت تجربة الهابسبرج مع التوجه الدستورى فى تهدئة التوترات العرقية فى الإمبراطورية. ففى 1907م، تقرر الأخذ بنظام الاقتراع العام للذكور فى النمسا، ولكن كان يبدو أن النظام الانتخابى الديمقراطى يؤدى إلى تفاقم الاستقطاب بين المجموعات العرقية، فكل الأحزاب السياسية كانت تقوم على

الولاء العرقى والإقليمى، سواء اعترفت بذلك أم لا. وكانت الأحزاب الممثلة فى مجلس النواب (Reichsrat) تنظم نفسها فى تكتلات عرقية، مثل النوادى التشيكية والبولندية. وحتى فى المعسكر الاشتراكى، وهو أكبر كتلة فى المجلس، لم يكن ممكنا تجاوز التوترات العرقية؛ لأن الأعضاء التشيك فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى النمساوى انفصلوا ليكونوا حزبا خاصا بهم فى 1911م. ولكن التعاون الوثيق كان يحدث أحيانًا بين التكتلات العرقية فى المجلس، مثل التشيك والسلاف الجنوبيين، ولكن هذه التحالفات لم تكن عادة فعالة سوى فى مواجهة المبادرات المهددة التى كان يقترحها النواب الألمان. وكان يبدو مستحيلاً أن تتكون أغلبية برلمانية عاملة يمكن أن تنفذ جدول أعمال تشريعيًا إيجابيًا للنمسا ككل. وهكذا ترك مأزق العملية الديمقراطية سلطات الهابسبرج بلا خيار سوى الحكم بالمراسيم التشريعية على النصف الغربى من الإمبراطورية الممزقة. ومن المفارقات التى شهدتها المجر أن محاولة الحكومة المجرية فى 1905، انتزاع المزيد من السلطات من فيينا قد منيت بالفشل بسبب التهديد بمرسوم إمبراطورى يفرض الاقتراع العام للذكور فى النصف الشرقى من الإمبراطورية (والذى كان سيعطى التصويت لغير المجريين الذين كانوا يشكلون نصف سكان المجر). وفى التحليل النهائى، نجد أن بنية الإمبراطورية جعلت حياتها لا تنفصل عن حياة مؤسساتها السلطوية الملكية. حيث استخدمت أسرة الهابسبرج المبادئ الدستورية والديمقراطية بصورة انتقائية، كأدوات للتلاعب بالمجموعات العرقية ضد بعضها فى مناورة تقليدية من سياسة فرق تسد.

لكن فى المقابل سيكون من التضليل القول بأن إمبراطورية الهابسبرج فى 1941م، كانت على شفا التفكك التام، فقد كانت الحركات القومية التى تنادى بالاستقلال التام لشعوبها قليلة، وكان ارتباط معظمها ضعيفا بالجماهير التى زعمت أنها تمثلها، فضلا عن أن أسرة الهابسبرج فى مناورات السياسات العرقية كانت ماكرة تكتيكيًا، وإن كانت بلهاء إستراتيجيًا. ومع ذلك، فإنه مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، بدأت قواعد اللعبة تتغير بدرجة أسرع من قدرة أسرة الهابسبرج على التكيف معها[31].

الإمبراطورية الروسية

لقد تفوقت الإمبراطورية الروسية حتى على دولة الهابسبرج فى التنوع الهائل لتركيبها العرقى. حيث كانت الخريطة الإثنوجرافية لروسيا بمثابة لوحة تضم العشرات من القوميات الكبرى والمئات من القوميات الصغرى. فكانت جبال القوقاز وحدها موطنًا للكثير من الشعوب المختلفة التى تتكلم بلغات تنتمى إلى ثلاث عائلات لغوية متميزة على الأقل. وكان الإسلام منتشرًا فى التركستان وسهول آسيا الوسطى (الكازاخ) وبين كثير من القوقازيين، وكانت البوذية منتشرة بين جماعات مثل «البورياتـ Buryats» فى الشرق الأقصى، إضافة إلى معتقدات روحانية (ترى أن لكل ما فى الكون روحًا) بين بعض الشعوب السيبيرية الصغيرة.

ولكن هذا التنوع المريك كانت تقابله حقيقة أن أقل قليلاً من نصف سكان الإمبراطورية (43٪ فى 1897م) كان يتكون من الروس، وهى المجموعة العرقية الأساسية التى انحدرت منها النخبة الحاكمة. وكان هذا مغايرا لنسبة الألمان فى سكان إمبراطورية الهابسبرج، والتى لم تكن تزيد على 23٪ تقريبًا[32]. وكانت الإمبراطورية القيصرية تمثل الإطار الوحيد الممكن للتعبير السياسى عن القومية الروسية، وهو موقف يختلف كثيرًا عن موقف النمسا كإمبراطورية يسيطر عليها العرق الألمانى وتقع على الحدود الجغرافية لدولة قومية ألمانية ملكية موحدة حديثًا. وهكذا كانت الإمبراطورية الروسية الدولة الوحيدة التى يقطنها الروس فى العالم، وقد تزايد ميل هذه الدولة لربط نفسها بالقومية الروسية طوال العقود التى سبقت الحرب العالمية الأولى. ومع ذلك كان النظام القيصرى طوال معظم تاريخه يتبنى موقفًا متناقضًا تجاه مفهوم الدولة القومية الروسية، وحتى أيامها الأخيرة كانت الطريقة التى تعمل بها الإمبراطورية تعكس طبيعتها متعددة الأعراق[33].

وقد نتجت الإمبراطورية الروسية عن عملية تدريجية من ضم الأراضى، استمرت طوال خمسة قرون، إذ كان قلبها الجغرافى الأصلى يتمثل فى الإمارة الموسكوفية التى فرضت سيطرتها على معظم المناطق الناطقة بالروسية بحلول القرن السادس عشر، وتوسعت بعد ذلك باستمرار لتضم مناطق غير روسية. وبداية من غزو «إيفان الرهيبـ Ivan the Terrible» لمملكة قازان التترية فى

1552م، ثم غزوها ثانية بعد ظهور أسرة رومانوف فى القرن السابع عشر، وسعت روسيا حدودها فى سلسلة لا نهائية من الحروب الشاملة والصراعات الجانبية التى كانت مدفوعة بتوليفة من الاعتبارات الأمنية والمصالح الاقتصادية والإحساس بالرسالة الدينية لروسيا كوريثة متوقعة لدور الإمبراطورية البيزنطية للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية. ومن منتصف القرن التاسع عشر إلى نهايته، سيطرت روسيا على مساحة من الأراضى امتدت من فنلندا فى الشمال، إلى بولندا فى الغرب، ومن القوقاز الجنوبى وآسيا الوسطى فى الجنوب، إلى ساحل المحيط الهادئ فى الشرق الأقصى.

وعلى خلاف إمبراطورية الهابسبرج، تشكلت الإمبراطورية الروسية فى المقام الأول عن الغزو العسكرى وليس الزواج الملكى، ولذلك فإنه منذ البداية كان القياصرة والطبقة الحاكمة قادرين على معاملة أقاليمهم كأجزاء من دولة واحدة شبه مركزية، وليس مجرد كيان غريب تجمع معًا بالاتحاد الشخصى[34]. وكان حكام روسيا يعتبرونها دولة وراثية - أى أن أراضيها وشعوبها وممتلكاتها كانت من الناحية النظرية عبارة عن ممتلكات تنتقل من كل قيصر أو قيصرة إلى الوريث أو الوريثة[35].

ومع هذا، واجه مفهوم الدولة الوراثية تحديا ملموسا وتراجع إلى حد ما بسبب أفكار التنوير فى القرن الثامن عشر التى نادت بحكم القانون، والأفكار القومية فى القرن التاسع عشر التى قدمت تحديا لفكرة أن الأرض ميراث للشعب الروسى. ومع ذلك، فإنه بالرغم من أن فكرة الدولة الوراثية مليئة بالتمويه والخداع، فضلا عن عناصر تركيبية أخرى، إلا أنها ظلت بمثابة قوة الصهر فى السياسة القيصرية حتى نهاية النظام فى 1917م. وتم استغلال القومية الروسية (المرتبطة بالأرثوذكسية الروسية) فى تعزيز الهيمنة السياسية القيصرية ودعم تماسك الدولة، ولكنها لم تنجح أبدًا فى أن تصبح (سبب وجود) الدولة. ومن المؤكد أن القياصرة افترضوا دوما أن المناطق التى تسكنها أعراق غير روسية فى أرجاء الإمبراطورية تمثل جزءً لا ينفصل من مجالهم الحيوى، لا تختلف فى أهميتها عن أراضى النواة الأصلية للإمارة الموسكوفية القديمة. وكانت عملية« الروّسنة - Russification» (إضفاء الطابع الروسى) أحد الطرق

الواضحة لمحاولة دمج هذه المناطق فى المجال القيصرى، ولكن أفكار الحق الملكى والامتيازات الأرستقراطية - التى ظلت فى قلب الثقافة السياسية للنخبة الحاكمة - لم تكن تتفق تمامًا مع القومية الروسية. وفى التحليل النهائى، لم يكن النظام القيصرى راغبًا فى قبول التنوع الثقافى ولا تحديد هويته كتجسيد للإرادة الشعبية الروسية[36].

وبالطبع كانت ممارسة السلطة على هذه المناطق الشاسعة والشعوب المختلفة تتطلب تفاوضًا (فعليًا) وتوافقات تكتيكية مع المجموعات الاجتماعية المختلفة. وغالبًا ما كانت الحكومة الروسية - فى علاقاتها مع المجموعات العرقية التى وقعت تحت سيطرتها - ترغب فى تقديم تنازلات برجماتية لتسهيل مهمة اندماج المناطق المكتسبة حديثًا فى الدولة. وعلى سبيل المثال، ظل مسلمو آسيا الوسطى يستثنون من التجنيد الإجبارى حتى 1916م. واندمجت النخب العرقية غير الروسية التى تحولت إلى الأرثوذكسية الروسية (أو التى كانت أرثوذكسية روسية من البداية) فى الأرستقراطية الروسية. ولكن حتى عندما كانت النخب الاجتماعية فى الشعوب المقهورة ترفض هذا التحول، كان يسمح لها غالبًا بالاحتفاظ ببعض امتيازاتها وسلطاتها التقليدية، وذلك من أجل كسب ولائهم للقيصر. وعندما كانت الاعتبارات العملية التى من هذا النوع تتعارض مع النشاط التنصيرى للكنيسة، كانت تلك الاعتبارات تحظى بالأولوية بصفة عامة. وهكذا نجد أنه بعد محاولة بطرس الأكبر فى أوائل القرن الثامن عشر لتحويل نبلاء التتر من الإسلام إلى الأرثوذكسية المسيحية، بالتهديد بتجريدهم من مكانتهم الأرستقراطية، قامت القيصرة يكاترينا العظمى بإبطال هذه السياسة بعد ذلك بعدة عقود؛ لأنها أدركت أن ذلك لم يساعد سوى فى إثارة عداء طبقة اجتماعية هامة بدلاً من دمجها فى الثقافة الرسمية للدولة. أما فى الحالات التى كان يمكن فيها مواصلة النشاط التنصيرى بدون إثارة مقاومة خطيرة (كما فى سيبيريا بين الشعوب التى تعتنق معتقدات روحانية) فقد كان ذلك يتم باتساق أكبر[37].

ومن الجدير بالذكر أيضًا أن الروس ككل لم يكونوا أكثر المجموعات العرقية تعليمًا وثراءً فى الإمبراطورية. فبالرغم من أن الروس كانوا مسيطرين فى فيالق الجيش والنخبة البيروقراطية، فإن معظمهم كانوا فلاحين فقراء غير متعلمين،

وكان نصفهم عبارة عن أقنان لم ينعموا بالتحرر قبل عام 1861م، واستمروا بعد ذلك مكبلين بقوانين تقيد حرية حركتهم. ورغم أن الروسية لغتهم الأم لم يمنحهم ذلك أية ميزة عن الفلاحين الذين يتحدثون الإستونية أو الأوكرانية أو الجورجية. وبينما كان العديد من الأقنان الروس ينتمون إلى ملاك أراض غير روس، إلا أن التتر لم يصبحوا أقنانا لدى أعضاء طبقة النبلاء الروس. وبصفة عامة، ربما كانت أوضاع الفلاحين الروس أسوأ من أوضاع أقرانهم غير الروس داخل الإمبراطورية.

وكانت المجموعات العرقية الأفضل تعليمًا والأنجح اقتصاديًا توجد فى الأجزاء الغربية والشمالية الغربية من الإمبراطورية. ففى هذه المناطق كان هناك غالبًا ارتباط بين العرق والطبقة، وهى الظاهرة التى تزايدت بسبب ميل الدولة إلى اختيار النخب الاجتماعية. وهكذا فإن النخبة الألمانية التى كانت تحكم جزءًا من أراضى البلطيق منذ غزو الإقليم على أيدى الفرسان التيوتون (Teutonic Knights) فى العصور الوسطى - حافظت على سيطرتها على الحياة الريفية اللاتفيية والإستونية، كما فعلت طبقة ملاك الأراضى فى المملكة البولندية السابقة مع الفلاحين الأجراء الأوكرانيين والبيلاروس. وعبر سنوات عدة (حتى بداية حملة الروسنة التى فرضتها الدولة فى أواخر القرن التاسع عشر) كانت لدى كثير من هذه الطبقات الحاكمة الإقليمية حرية مواصلة سياسات الاستيعاب الثقافى (مثل فرض الطابع الألمانى أو البولندى) على المجموعات العرقية الأمية الخاضعة لسيطرتها. وهنا أيضًا - فى إمارات البلطيق وأجزاء من بولندا - كان التصنيع فى أواخر القرن التاسع عشر يتطور بسرعة (مع موسكو وسان بطرسبرج، وإن لم يكن بنفس المستوى فى معظم المقاطعات ذات الأعراق غير الروسية).

وبالرغم من أن الروس كانوا يسيطرون على المستويات العليا فى الحكومة، فإن المتعلمين غير الروس (كالألمان والبولنديين) شغلوا وظائف هامة فى الإدارة المحلية والمركزية للدولة. ولعب أعضاء قوميات الشتات (كالأرمن واليهود والتتر وكثير من الألمان) أدوارًا حيوية فى بناء واستمرار الشبكات التجارية والمالية التى أنعشت الاقتصاد. أى أن الإمبراطورية الروسية فى معظم تاريخها كانت تعمل بفعالية

كدولة متعددة القوميات، حيث كانت الطبقة العليا المحدودة من ذوى العرق الروسى تسيطر على السلطة السياسية والعسكرية، بينما كان عدد من القوميات الأخرى يحقق مستويات عامة أعلى فى الحياة والتعليم، ويشغلون مناصب اقتصادية وإدارية حيوية[38]. وكانت الدولة الروسية تعتبر وحدة إقليمية/إدارية / ملكية مشتملة على العديد من القوميات المختلفة وتحتويها ككل. وبطريقة ما كان الشعب الناطق بالروسية مجرد أحد الشعوب الخاضعة، بل إن هذا الفرق يظهر حتى لغوياً، وذلك بأسلوب يضيع فى الترجمة: إذ إن كلمة «Rossiiskii ـ روساوى» كانت تمثل الصفة التى تطلق على سكان الإمبراطورية ككل، فى حين أن كلمة «Russkii ـ روسى» كانت تستخدم عند الإشارة تحديداً إلى الشعب، أو الثقافة، أو اللغة الروسية[39].

وظل الأمر كذلك حتى القرن التاسع عشر عندما بدأ الاتجاه نحو دمج المعنيين السابقين (روساوى وروسى) كجزء من سياسة متسقة. حيث كانت سياسة الروسنة ـ بدرجات متفاوتة من الحماس ـ خلال الجزء الأخير من القرن، جزءاً من محاولة لفرض الشرعية وتعزيز السيطرة الاجتماعية الثقافية للحكم الاستبدادى القيصرى خلال فترة تغير اجتماعى واقتصادى سريع. وتطلعت هذه الحملة لتحديث وتعزيز بيروقراطية الدولة بفرض لغة موحدة للإدارة فى أرجاء إمبراطورية مترامية الأطراف[40]. ووهبت هذه الحملة نفسها كإجراء قمعى وإجهاضى ضد الجماعات العرقية المتمردة (خاصة البولنديين الذين تم سحق تمردهم فى 1863م). وفى نفس الوقت، فإن الوحدة السلافية ـ والتى تعنى فكرة أن كل الشعوب السلافية يجب أن تتحد تحت رعاية دولة روسيا العظمى ـ مارست تأثيرها على دوائر المثقفين وبعض أجزاء من المؤسسات الدبلوماسية والعسكرية، وكانت آثارها ملحوظة بصفة خاصة فى سياسة روسيا العدوانية تجاه البلقان فى سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر[41].

وحرىٌّ بنا أن ندرك أن السياسات اللغوية للنظام لم تكن موحدة، ولم تكن تطبق بصورة متسقة فى كل الأزمنة والأمكنة. فحتى فى الولايات الغربية ـ خاصة الأقاليم السلافية الشرقية التى صارت مجالاً للصراع بين المؤثرات البولندية والروسية ـ كانت سياسة الروسنة تتم لفترة بحماسة رسالية. وكانت محاولات

المثقفين الأوكرانيين والبيلاروس لإحياء أو تنمية ثقافات عليا تعتمد على لغاتهم الأصلية تعتبر - خطأ - جزءًا من مؤامرة بولندية لسحب الفلاحين المحليين واقتلاعهم من جذورهم الروسية المفترضة[42]. وبالتالى حظرت الإمبراطورية الروسية التعليم والنشر باللغتين الأوكرانية والبيلاروسية، وفى 1839م، فرض حظر مماثل على الكنيسة المتحدة «اليونيتية - Uniate Church» لبيلاروسيا وأوكرانيا الغربية، وكل هذا بهدف دمج الشعوب السلافية فى هذه الأقاليم ضمن التيار الرئيسى لروسيا العظمى.

وفى المجموعات العرقية التى كانت لغاتها أكثر ارتباطًا بثقافة عليا مستقرة، تم اتباع سياسة الروسنة بصورة متقطعة وغير متسقة. ففى بولندا، تم التخلى فعليًا عن محاولات فرض الروسية كلغة تدريس فى النظام المدرسى بسبب المقاومة المطردة، بالرغم من أن التعليم العالى فى بولندا ظل حكرًا على اللغة الروسية حتى الحرب العالمية الأولى. وفى أجزاء من البلطيق، التى تمثلها اليوم لاتفيا وإستونيا، كانت الأرستقراطية الألمانية المحلية ، مالكة الأراضى ، تعتبر نخبة موالية لعبت دورًا مفيدًا فى إدارة الإقليم والحفاظ على النظام الاجتماعى وسلطة الدولة (على الرغم من الاهتمام المتزايد الذى لقيه انتشار القومية الألمانية، خاصة بين سكان الحضر الألمان غير الأرستقراطيين فى الإقليم). وفى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، أدى الطموح المتزايد للنظام القيصرى لبسط سيطرته المباشرة فى كل الأقاليم إلى فرض اللغة الروسية كلغة إدارية وتشريعية وتعليمية رسمية فى مقاطعات البلطيق، وإضعاف السيطرة المحلية الألمانية العرقية بتشجيع الحراك الاجتماعى الصاعد بين الفلاحين فى إستونيا ولاتفيا. ولكن الاضطرابات الريفية العنيفة التى اندلعت فى الإقليم خلال ثورة 1905م، حفزت الحكومة الروسية على التحول إلى التحالف التقليدى مع البارونات الألمان فى البلطيق. وفى فنلندا، كان ولاء النخبة السويدية للقيصر موضع شك، ولكن بدلاً من محاولة روسنة هذا الإقليم شبه المستقل، شجع النظام تطوير اللغة الفنلندية كلغة تعليمية ورسمية لمواجهة النفوذ السويدى. ومع نهاية القرن، كان الوعى القومى الفنلندى ذاته متقدمًا، وبالتالى قام نيقولاى الثانى[43]، بتقييد العديد من سلطات المجلس التشريعى الفنلندى «الدييت - Finnish Deit».

وكانت قوميات عديدة غير قابلة للاستيعاب بطبيعتها، أو حتى غير مرغوبة. ولكن بدلاً من أن يحاول النظام دمجها فى المجتمع الروسى، قامت الدولة بتهميشها بشكل مؤسسى، ولم تبذل جهودًا لروسنة الشعوب المسلمة فى آسيا الوسطى، والتى كانت أراضيها المحتلة حديثًا مطمعًا أمام استيطان السكان الفلاحين الذين يمثلون فائضًا على الأرض السلافية. أما الشراكسة المتمردون من غرب القوقاز فطردتهم روسيا بغطرسة وأجبروا على الهروب إلى الإمبراطورية العثمانية. أما اليهود . الذين مروا بفترة قصيرة من تخفيف القيود فى ستينيات القرن التاسع عشر . فقد خضعوا لتجدد القهر فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، وتركوا بلا حماية فى مواجهة قتل جماعى عنيف[44].

وتعكس هذه السياسات المعقدة وغير المتسقة حجم المعضلات التى واجهها النظام آملا أن يجمع بين المجتمع والحكومة فى إمبراطورية متعددة الأعراق كجزء من النظام الموحد عضويًا تحت رعاية نظام حكم استبدادى قاس. واعتبرت بعض الجماعات السلافية والأرثوذكسية الشرقية بمثابة أجزاء مكملة للأمة الموحدة، وأعضاء بالغى الأهمية يجب أن يكونوا أكثر ارتباطًا بالجسد الروسى العظيم. بينما اعتبرت جماعات سكانية أخرى شعوبًا غريبة وعناصر غير نظيفة لحفى تصور النقاوة الاجتماعية الذى كان منتشرًا فى الخطاب السياسى الأوربى فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين)[45]، ومن ثم كانت هدفًا للاضطهاد والاستغلال والتهميش. ولم تحصل هذه التناقضات على قدر كاف من الوعى والتدبر من قبل الدوائر الحاكمة التى مضت فى محاولات متعثرة من التحديث السياسى.

وقد حققت حملة الروسنة قدرًا من النجاح فى مجالات معينة (خاصة بين شعوب بيلاورسيا وشرق أوكرانيا). وبصفة عامة، أدت الأساليب المتصلبة للنظام إلى اغتراب الجماعات العرقية غير الروسية وساعدت على قيام النخب بتشكيل الحركات القومية. وبنفس الطريقة، فإن تطور الوعى القومى الروسى المتميز لم يساير بالضرورة تزايد التأييد الشعبى للنظام القيصرى، والذى تحول إلى حركة معادية لحكومة أثبتت سياساتها غير المتسقة وسلوكها الخاطئ أنها لا تتوافق مع أية مصلحة قومية للشعب الروسى. وخلال الحرب العالمية الأولى رفض النظام

القيصرى تشجيع الإسهامات الذاتية من المنظمات المدنية والهيئات الإقليمية فى المجهود الحربى. وكان ذلك انعكاسا لتناقض النظام القيصرى تجاه فكرة القومية الروسية عن المساواة الديمقراطية المنتظرة، وكانت الشكوك المزعجة حول الولاءات الحقيقية للقيصر تتفاقم بسبب تعيين «بوريس شتورمر . Boris Stürmer» فى منصب رئاسة مجلس الوزراء فى منتصف الحرب. كان شتورمر رجعيا مشكوك فى موالاته للألمان، وقد عرف عنه مناصرته لمحادثات السلام المباشرة. وجاء تعيين شتورمر فى ظل ظروف مثيرة رافقت ذلك النفوذ غير المبرر الذى مارسه الكاهن السيبيرى الغامض «جريجورى راسبوتين . Grigorii Rasputin» على قيصرة الإمبراطورية. وأثناء الانتكاسات العسكرية المخزية والاضطرابات الاقتصادية فى الحرب العالمية الأولى اندلعت ثورة مارس ١٩١٧م، وساهم فيها اتساع الهوة التى فصلت الشعور القومى الروسى عن النظام القيصرى[46].

لقد كانت المشروعات السياسية المستقبلية، والتوجهات الثقافية، وأنماط التعبئة الاجتماعية بين المجموعات العرقية فى الإمبراطورية الروسية بالغة التنوع. غير أن بعض الأنماط الكبرى كانت تبدو مألوفة تمامًا لمراقبى المشهد الهابسبرجى، حيث كان هناك تناقض واضح بين القوميات التى كان نبلاؤها يعتبرون أنفسهم حراسًا لتقاليد الدولة التاريخية والمجموعات العرقية التى تتكون أساسًا من فلاحين فقراء ليس لديهم إحساس جماعى قوى بالارتباط بالتاريخ السياسى. وبمرور الزمن، أصبح هذا التناقض ضعيفًا نوعًا ما؛ وذلك لأن قادة الأمم (التاريخية) تحولوا إلى صف الجماهير طلبًا للمساندة، بينما نزعت النخبة المثقفة التى ظهرت بين الشعوب غير (التاريخية) إلى تعويض صعوبة حشد الفلاحين غير المتعلمين بالانغماس فى توهمات عاطفية عن تواريخ قومية مجيدة من صنع خيالاتهم.

وكانت القومية البولندية التى أعلنت عن نفسها فى حركات التمرد غير المجدية فى 1830م و1863 تخضع لقيادة الطبقة الأرستقراطية، بالرغم من أن فشل حركات التمرد وضع موضع التساؤل كلا من حكمة التمرد المسلح وجدوى قيادة الطبقة الأرستقراطية. فخلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، نزع

قادة الفكر والطبقة الأرستقراطية والطبقة الوسطى المتنامية فى بولندا إلى تجنب المغامرات العاطفية، وركزوا على التنمية الاقتصادية والتقدم المادى كأهم وسائل للتقدم القومى. وأصبحت مدن مثل وارسو، ولودز Lodz، مراكز صناعية كبرى، وأدى تطور المجتمع الحضرى مع نهاية القرن إلى تكوين حركات قومية بولندية ذات قواعد جماهيرية.

أما بالنسبة للشعوب الزراعية، مثل الأوكرانيين والليتوانيين والبيلاروس، فقد كان تطور الوعى القومى أمرًا بطيئًا وغير مؤكد. إذ كان القوميون الأوكرانيون يعتبرون أنفسهم أصحاب شرعية دولة الهيتمانية القوزاقية[47] . Coassack Hetmanate». وربط الليتوانيون أنفسهم بدوقية «ليتوانيا الكبرى . Grand Duchy of Lithuania فى العصور الوسطى[48]. وكانت مثل هذه المحاولات لغرس الوعى القومى فى تقاليد الدولة التاريخية تعتمد على أسس مبالغ فيها من الحماسة، تعويضا عما كانوا يفتقدونه من القدرة على الإقناع العملى. وقد اعترفت الحكومة القيصرية باستقلال ذاتى شكلى لبولندا فى 1863م، مع احتفاظ الطبقة الحاكمة البولندية القديمة بمكانتها البارزة، وإن كانت المظاهر الفعلية للهيتمانية القوزاقية والدوقية الكبرى قد اختفت من زمن بعيد[49]. أما الزمرة القليلة من المثقفين البيلاروس الذين ألزموا أنفسهم بتأكيد هوية قومية وثقافية متميزة لوطنهم فقد تعرضوا لضغوط شديدة للحيلولة دون استحضار تاريخ سياسى متميز لشعبهم[50].

ومن المفارقات فى هذا الصدد أن حملة النظام القيصرى ضد الهيمنة الثقافية البولندية فى أوكرانيا وبيلاروسيا وليتوانيا هى بالتحديد التى أطلقت جهود قادة الفكر المحليين فى هذه الأقاليم لتطوير لغات أدبية ونظم تعليمية تعتمد على التراث الشعبى المشترك. وأدى الحظر اللاحق الذى فرضته السلطات الروسية على النشر والتعليم بهذه اللغات إلى نتائج متضاربة، فمن ناحية عرقل هذا الحظر من انتشار الوعى القومى بين الجماهير، لكنه فى ذات الوقت دفع بالنشطاء القوميين إلى اتجاهات ثورية. وفى حالة الأوكرانيين والليتوانيين، عملت الجيوب العرقية عبر الحدود (فى جاليتشيا النمساوية، وبروسيا الشرقية الألمانية) كمراكز انتشار للمواد المكتوبة باللغات القومية التى كان يتم تهريبها إلى

روسيا. وكانت السلطات النمساوية والألمانية على استعداد تام لتشجيع النزاعات بين الشعوب الخاضعة للإمبراطورية الروسية.

وكان هناك تلاعب بمختلف أشكال هذه الأفكار فى كل أرجاء الإمبراطورية الروسية. وشهدت اللغة الأدبية الإستونية واللاتفية تطورا بفضل جهود علماء رواد من بين النخبة الألمانية - البلطيقية المحلية، والذين اهتموا إثنوجرافيا باللغات المحلية، على نحو ما فعل المثقفون السويديون مع اللغة الفنلندية.

وتضافرت «الثقافة اللوثرية - Lutheran Culture» لهذه الأقاليم مع نمو الأنماط الزراعية للملكيات الحرة وهو ما حقق معدلات تعليم مرتفعة نسبيًا فى القرن التاسع عشر، ووفر تربة خصبة لغرس بذور الثقافات القومية[51]. ففيما بين اللاتفيين والإستونيين كانت العواطف القومية موجهة فى المقام الأول ضد السيطرة الاجتماعية والسياسية المستمرة للبارونات البلطيق الألمان[52].

وفيما بين اليهود، أدت خيبة الأمل من تراجع إصلاحات منتصف القرن التاسع عشر، واليأس بسبب إطلاق العنان لحوادث القتل الجماعى ضد مجتمعاتهم من 1881م فصاعدًا، إلى درجة عالية من النشاط السياسى، السرى والعلنى. ومن بين العدد الكبير من الحركات التى شهدتها المجتمعات اليهودية قرب نهاية القرن ظهور حركة «بند - Bund» (وهى الكلمة التى تشير إلى «الرابطة» فى اللغة اليدية).

كانت حركة «الاتحاد» حركة ماركسية منتشرة بين العمال اليهود فى البلدات الصناعية البولندية. واستخدمت الحركة اللغة اليدية - Yiddich» - لغة الجماهير - كوسيط مفضل للاتصال، وادّعت الحق المطلق فى تمثيل مصالح الطبقة العاملة اليهودية فى إطار الحركة الاشتراكية الروسية.

أما الصهاينة فقد اعتمدوا من جانبهم العبرية لغة أصلية عملوا على نشرها استعدادًا للهجرة الجماعية لموطن اليهود فى فلسطين. وكانت السلطات الروسية تميل أحيانًا إلى التسامح مع أنشطة الصهاينة، طالما أنها تشجع على رحيل اليهود من الإمبراطورية الروسية، بالرغم من أن منظماتهم ظلت غير قانونية رسميًا. وكان هؤلاء «الاتحاديون» يعتبرون أكثر خطورة؛ لأنهم كانوا يحاولون تدعيم ثقافة

الطبقة العاملة اليهودية المستقلة داخل روسيا، بينما كانوا يتعاونون مع الاشتراكيين الآخرين فى سعى مشترك للإطاحة بالنظام[53].

وفى القوقاز الجنوبى كان الأرمن يتميزون بإحساس قوى بالتاريخ والمصير الجماعى والهوية المتميزة المحفوظة فى تقاليد كنيستهم القديمة[54]، والتى يقويها الإحساس بالتضامن مع الأرمن عبر حدود الإمبراطورية العثمانية. وبالرغم من أنه لم تكن لديهم طبقة نبلاء (باستثناء طبقة ملاك الأراضى فى إقليم ناجورنو كاراباخ . Narogrno Katabakh) فإنهم كانوا عنصرًا متميزًا فى النخبة التجارية والصناعية المنتشرة فى المدن الكبرى، من «باطوم . Batum» على البحر الأسود إلى باكو على بحر قزوين. وأدى تطور صناعة النفط فى باكو إلى ظهور طبقة عاملة أرمينية نشطة سياسيًا وكبيرة نسبيًا، ولكن فعالية هذه المجموعة العرقية المنتشرة نسبيًا وظهورها الواضح فى المراكز الحضرية للإقليم جلب عليها عداوة المجموعات العرقية الأخرى بالمنطقة، مثل الجورجيين والأذربيجانيين، الذين لم يكونوا مؤهلين ، بحكم خلفيتهم الريفية الزراعية، للتنافس بفعالية فى خضم الاقتصاد سريع التصنيع[55].

وكان السكان المسلمون فى الإمبراطورية يشكلون مزيجًا ثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا معقدًا لم ينظم نفسه فى فئات واضحة من الهوية والقومية العرقية. فمن حيث المبدأ، يعتبر المجتمع الإسلامى متجاوزا (روحيًا وسياسيًا) لتقسيمات الطبقة والعرق والجغرافيا . ومن حيث الواقع، شكلت مجموعة كبيرة من التجارب التاريخية والتوجهات الثقافية والقضايا الإقليمية هويات المسلمين فى الإمبراطورية القيصرية. وكما رأينا، فإن الصراع مع الأرمن المسيحيين فى القوقاز الجنوبى لعب دورًا حاسمًا فى تطور الوعى السياسى الأذربيجانى، وكانت الشعوب المسلمة فى جبال القوقاز تتحدث بعدد كبير من اللغات المريكة، وكان تقسيمها الجغرافى يتزايد بسبب سياسات عداوة العشيرة والدم. ومع ذلك كان يجمعهم الاستياء المشترك من السيطرة السياسية القيصرية (التى فرضت عليهم بعد إجبار الإمبراطورية العثمانية على الانسحاب من الإقليم فى ١٧٧٤م) فضلا عن اشتراكهم فى كراهية المستوطنين الروس. وفى منتصف القرن التاسع عشر، انتقل نموذج المجتمع الإسلامى والأخلاقيات التضامنية للأخوة الصوفية بنجاح

إلى سياسة المقاومة على يد القائد «الإمام شامل - Imam Shamil»، الذى استطاع أن يبنى صفًا منيعًا من المقاتلين الشيشان والداغستانيين فى انتفاضة ثورية لمقاومة الروس فى صراع استمر لسنوات عديدة(56).

وكان معظم مسلمى آسيا الوسطى مندمجين رسميًا فى الإمبراطورية الروسية على مدار القرن التاسع عشر واحتفظت خانات بخارى وخيوة بسيادتها الرسمية فعلاً كمحميتين روسيتين حتى بعد الثورة البلشفية. ولكن الاستيلاء على هذه الأقاليم لاحقًا، والذى توافق زمنيًا مع موجة التوسع الإمبريالى الأوربى فيما وراء البحار فى القرن التاسع عشر، ساعد على تأكيد الطبيعة الاستعمارية للمناطق الجديدة. أما فى جنوب إقليم التركستان الخصب، فقد فرضت زراعة القطن كمحصول نقدى على الفلاحين المحليين. وكان تمويل الإنتاج وشراء المحصول يتمان عن طريق مصالح تجارية روسية احتكارية على أساس استغلالى مطلق، مما أدى إلى ظهور طبقة متزايدة باستمرار من الفلاحين المعدمين، بينما حققت طبقة صغيرة من الوسطاء المحليين أرباحًا كبيرة.

وأدت البنية شديدة الطبقية لهذه المجتمعات، والنظرة الضيقة نسبيًا للطبقة الحاكمة، إلى جعلها ميدانا رحبا لتكتيكات (فرق تسد). إذ كانت السلطات الروسية تختار النخبة الاجتماعية السياسية التقليدية بسهولة، خاصة فى حالة بخارى المركز الثقافى ذى الأهمية الدينية المرموقة، والتى اعتمد حاكمها فعليًا على المساعدة الروسية لفرض سيطرته على الأقاليم الشيعية الشرقية المتمردة فى إمارته. وكانت طبقة رجال الدين (العلماء) ترغب عادة فى تشجيع الانقياد السياسى بين العامة، طالما أن سلطتها الاجتماعية الخاصة وسيطرتها على المؤسسات التعليمية والهبات الدينية (الأوقاف) غير معرضة للتهديد. ولكن حقيقة أن اللغة العربية هى اللغة الدينية الوحيدة للمسلمين، وأن اللغة الفارسية كانت الوسيط المفضل للتعبير الأدبى والاتصال الرسمى بين نخب آسيا الوسطى، مع استخدام مجموعة من اللهجات التركية المستخدمة فى الخطاب اليومى للجماهير، جعلت من الصعب على النشطاء السياسيين المحتملين وضع أطر ثقافية وجغرافية محددة بدقة للهوية القومية، أو حتى الاتفاق على قواعد مشتركة لنشر الأفكار. وكانت ثورات الفلاحين فى آسيا الوسطى، والتى كانت

تندلع من آن لآخر خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، تمثل أمورًا عارضة لا تلقى مساندة الطبقات المستقرة أو المتعلمة، وكانت السلطات العسكرية الروسية لا تجد صعوبة فى القضاء عليها.

وأخيرًا، عاش تتر إقليم الفولجا (الذين يتحدثون لهجة تركية) بالقرب من الروس لعدة قرون، وكانوا خاضعين للحكم الروسى منذ غزو إيفان الرهيب لقازان فى 1552م. وعلى المستوى الثقافى والاقتصادى، كان التتر يمثلون المجموعة المسلمة التى تكيفت بنجاح مع حكم القياصرة، بل إن نخبتهم التجارية والصناعية لعبت دورًا ملموسًا للغاية فى جهود تحديث الإمبراطورية. وسهل امتلاك النخبة التترية لناصية اللغة والثقافة الروسية طريق الاتصال المباشر بأحدث التيارات الفكرية التى كانت تهز الدوائر الفكرية الروسية. إذ إن تأثير الشعوبية الروسية والوحدة السلافية حفز المثقفين التتر على التفكير بطرق جديدة فى هويتهم الخاصة وعلاقتهم بالشعوب المسلمة والتركية الأخرى، داخل الإمبراطورية الروسية وخارجها أيضًا. ومع نهاية القرن كان المفكرون التتر ومنشوراتهم يلعبون دورًا بارزًا فى نشر الأفكار الاشتراكية السياسية الجديدة بين طبقة قادة الفكر الوليدة فى أذربيجان وآسيا الوسطى - وحتى فى الإمبراطورية العثمانية (انظر الفصل الثالث).

وقد ساعدت ثورة 1905م والفترة الليبرالية القصيرة التى جاءت فى أعقابها على تكثيف التبلور الأيديولوجى ورفع الوعى السياسى بين الروس وغير الروس على السواء. ولفترة مؤقتة أدى رفع الحظر على المطبوعات إلى انتعاش منشورات كل الأطياف السياسية وبكل اللغات فى أرجاء الإمبراطورية. وقدم تكوين البرلمان (الدوما) منبرًا للحوار العام وفرصة للتزاوج المثمر للأفكار بين النخب الاجتماعية والثقافية فى مختلف المجموعات العرقية والإقليمية. بل إن إعادة فرض الرقابة والقيود على حقوق التصويت - التى حدثت بعد ذلك سريعًا - لم تستطع إعادة كل هذه القوى إلى أماكنها. ومع ذلك يجب أن نؤكد على أن معظم النخب القومية فى الإمبراطورية الروسية لم تكن تتطلع بجدية للانفصال السياسى التام، إذ كان الحديث عن الاستقلال الثقافى وإعادة تشكيل الدول على أسس اتحادية يمثل القاعدة. بل إنه بينما كانت الحركات الشعبية تظهر بوضوح بين أكثر الشعوب

تحضرًا وتصنيعًا فى الإمبراطورية مثل البولنديين، كانت القومية السياسية فى معظم الأقاليم لا تزال قاصرة على الدوائر الفكرية الضيقة نسبيًا حتى 1914م.

وبينما كان النظام القيصرى ينظر بارتياب إلى التطلعات الاستقلالية أو الانفصالية للمجموعات العرقية داخل حدوده، لم يتردد فى إذكاء الحركات القومية فى المناطق التى تؤثر على مصالح القوى المنافسة. إذ أقامت عناصر الوحدة السلافية المحافظة بين طبقة المفكرين الأوكرانيين فى جاليتشيا روابط وثيقة مع المسئولين المتعاطفين على الجانب الروسى من الحدود، كما فعلت مجموعات مماثلة بين القوميات السلافية الأخرى داخل إمبراطورية الهابسبرج.

والأهم من هذا، أنه خلال السنوات الأخيرة السابقة على اندلاع الحرب، كان السياسيون والضباط التحرريون الوحدويون فى صربيا مقتنعين بأنهم يتمتعون بمساندة ضمنية من روسيا فى حملتهم الدعائية والإرهابية المستمرة الموجهة ضد السلطات النمساوية المجرية فى البوسنة. وبالطبع فإن الرصاصات التى أطلقت فى سراييفو فى يونيو 1914م، أطاحت فى النهاية بكل من النظام القيصرى ومملكة الهابسبرج أيضًا[57].

الإمبراطورية العثمانية

يمكن القول: إن الإمبراطورية العثمانية كانت تحكمها أكثر النخب تنوعًا، وذلك بالمقارنة بالإمبراطورية الروسية والهابسبرج. فبينما كانت أسرة رومانوف تغازل القومية الروسية والوحدة السلافية، وبينما كان إمبراطور الهابسبرج نمساويًا ألمانيًا فى ثقافته، فإن الأسرة الحاكمة العثمانية والنخبة الإدارية قبل 1908م، لا يمكن أن توصف بأنها تركية إلا بصورة غامضة وغير دقيقة. فالأسرة العثمانية (التى سميت على اسم مؤسسها عثمان الأول، 1280-1320م) ترجع أصولها إلى عشيرة من البدو المحاربين الترك الذين تفوقوا عسكريا فى القرن الثالث عشر على الإمبراطورية البيزنطية، الأمر الذى رفع شأنهم وحل بهم محل الأتراك السلاجقة وجعل منهم القوة الإسلامية الكبرى فى الأناضول. وتقدم العثمانيون للاستيلاء على البلقان فى القرن الخامس عشر و تمكنوا فى 1453م من إسقاط القسطنطينية[58] آخر معاقل الإمبراطورية البيزنطية، وسيطروا على الشرق

الأوسط فى القرن السادس عشر. وبحلول ذلك التاريخ استبدل العثمانيون مركز جاذبية نظامهم فى الحكم من صهوة الجواد إلى سدة العرش، حيث اعتمد سلاطين الإمبراطورية العثمانية على الممارسات الإدارية البيزنطية، واعتنقوا الإسلام على المذهب السنى. بدلاً من الطقوس الغامضة السائدة بين الفرسان الترك. كدين رسمى للدولة. وتشكلت ثقافتهم السياسية بشرعية الحضارة الإسلامية التقليدية. ودخلت آلاف الكلمات العربية والفارسية فى الحديث الشفهى والكتابة العثمانية، وكانت اللغة العثمانية التى ظهرت وسيطا للثقافة العليا الإمبريالية خليطًا من المفردات والأشكال النحوية والأساليب التى لم تكن ضمن لغة دارجة لأية مجموعة عرقية محددة لحبالرغم من أن بنيتها الأصلية ظلت تركية بصورة واضحة)[59].

وكما هى الحال بالنسبة لإمبراطورية الهابسبرج والإمبراطورية الروسية، كانت الإمبراطورية العثمانية تحوى خليطا متنوعا من المجموعات العرقية والدينية، حتى بعد فقدان السيطرة على معظم مناطقها المتبقية فى البلقان فى (1912 - 1913م). إذ كان المسلمون السنة، الذين يشكلون غالبية سكان الإمبراطورية، يشملون معظم الناطقين بالتركية[60] فى غرب ووسط الأناضول، وفى الإقليم البلقانى المتبقى للإمبراطورية حول إسطنبول وإدرنة Ederna ، أدريانبول Adrianople، والكثير من أكراد شرق الأناضول وشمال سوريا، وبلاد ما بين النهرين، ومعظم العرب فى الأقاليم الجنوبية من النطاقات الجغرافية السابقة. وفيما بين الشعوب المسلمة السنية وعلى مقربة منها عاشت مذاهب منشقة وغير مسلمة، مثل العلويين فى شمال غرب سوريا، والشيعة فى جنوب العراق، فضلا عن الأرثوذكس اليونانيين، والكاثوليك اليونانيين، والمسيحيين الموارنة فى سوريا وفلسطين، وجبل لبنان، والأرمن المتركزين فى شمال الأناضول، وذوى الأصول العرقية اليونانية على ساحل الأناضول الغربى، والمجتمعات اليهودية فى الأناضول وما بين النهرين وفلسطين.

وكما كان الحال فى المثال الروسى، بل وبدرجة أكبر، لا يمكن القول إن الإمبراطورية العثمانية كانت تمنح امتيازات مادية للمجموعة العرقية التى ينتمى إليها نظام الحكم. فالأقاليم الناطقة بالتركية كانت تدفع ضرائب أكثر من غيرها،

وبينما كانت النخبة الإدارية والعسكرية للإمبراطورية تشمل عددًا غير متناسب من الأتراك، إلا أنها كانت تضم أيضًا أعضاء كثيرين من القوميات الأخرى. إذ كان المبدأ الشرعي الأساسي للدولة العثمانية يتمثل في ادعائها بأنها ممثلة وحامية وحدة مجتمع المسلمين السنة أو (الأمة) الإسلامية في العالم. وكانت شروط الارتقاء في الجهاز الحكومي تتمثل في أن يكون الفرد ذكرًا مسلمًا سنيًا يراعي الروابط الاجتماعية السليمة، ويندمج في الثقافة العثمانية، بغض النظر عن انتمائه لأية مجموعة عرقية. وفي نفس الوقت، لعب أعضاء المجتمعات غير الإسلامية - مثل اليونانيين والأرمن واليهود - أدوارًا مهمة في تطور البنية التحتية التجارية والمالية للدولة[61].

وبالرغم من أن سلطة السلطان كانت مطلقة من حيث المبدأ، فإنه ومنذ أوائل القرن التاسع عشر كان يعتمد كثيرًا على مساندة الأرستقراطية شبه الإقطاعية من مالكي الأراضي، وعلماء الدين، والجنود «الأرقاء» المستقلين المعروفين بالإنكشارية (الذين أصبحوا منشغلين بفنون الانقلاب أكثر من اعتنائهم بالانتصار في ساحة الحرب)، ومع عدم وجود بيروقراطية إمبريالية محترفة، كان يسمح للعديد من الإمارات المتطرفة موقعا، كما في الشرق الأوسط العربي، بقدر كبير من الاستقلال الذاتي طالما أن النخبة الحاكمة كانت مستعدة وقادرة على جمع العوائد وتجنيد الرجال نيابة عن السلطان.

وكان ينظر إلى المسيحيين واليهود في الإمبراطورية كمشركين، وإن تم الاعتراف بهم «كأهل كتاب» (تمييزًا لهم عن الوثنيين)، وقد جعلهم وضعهم لفترة طويلة «كذميين» بمثابة أعضاء بمجتمعات أدنى تشريعيًا، ولكنها محمية وتخضع لشروط والتزامات قانونية خاصة (مثل المدفوعات الضريبية)، بالرغم من أن المواطنة الكاملة منحت رسميًا لغير المسلمين في 1839م. وكانت الطوائف الدينية غير الإسلامية المختلفة يجمعها نظام «الملل» المؤلف من مجتمعات منظمة ذاتيًا، بحيث يكون الانتماء ضمن هذه الطوائف إلى المؤسسة الدينية، وليس الموقع الإقليمي. وكانت السلطات الدينية لأية «ملة» تمارس قيادة طائفتها على المستوى المحلي، وكانت السلطة العثمانية تمارس عملها عادة من خلال من هذه السلطات[62]. وعمل هذا الترتيب بكفاءة كنظام لاختيار ممثلين عن الفئات فضلا

عن فاعليته فى الحكم والسيطرة، حيث كان قادة «الملل» المختلفة مسئولين عن الالتزامات الضريبية وحصص التجنيد الإلزامى الخاصة بمجتمعاتهم. ومع ذلك، فإنه بحلول القرن التاسع عشر أصبحت البنية المؤسسية للسلطة فى الإمبراطورية - والتى كانت «الملل» ظاهرة بارزة فيها - علامة على ضعفها وعدم فعاليتها مقارنة بالسياسات الأوربية العصرية.

وفى الواقع، كانت الإمبراطورية العثمانية - التى كانت مصدر رعب لأوربا - تتراجع تدريجيًا من حيث القوة النسبية لعدة قرون. فبينما مرت معظم مناطق أوربا بثورات اقتصادية وتقنية وإدارية وسياسية، يشار إليها عادة بالتحديث، كان يبدو أن الإمبراطورية العثمانية تتدهور أمام انتشار الفساد والإصلاحات الشكلية. وكان انهيارها النهائى يعتبر حتميًا لدى معظم المراقبين الأوربيين، وكان هذا التوقع منتظرًا بدرجات متفاوتة من التلهف والقلق لدى القوى العظمى الشرهة، إذ كان كل منهما مهتمًا بتعظيم نفوذه السياسى والاقتصادى فى الشرق الأوسط على حساب الحد من نفوذ منافسيه. وبالرغم من أن هذا الصراع منح العثمانيين فرصة لمنع سيطرة أية قوة منفردة، بالتلاعب بالمنافسين الإمبرياليين بعضهم ببعض، فإن العلاقة بين الإمبراطورية العثمانية والدول الأوربية الكبرى كانت غير متوازنة بصورة واضحة. وقد كرست ما تسمى «الامتيازات الأجنبية» عدم المساواة فى القانون بالنص على وضع قانونى استثنائى - يصل إلى الحصانة الدبلوماسية - لكل الأوربيين المسافرين أو الذين يقومون بأعمال فى الأقاليم السلطانية بدون أية إشارة إلى المعاملة بالمثل. وبحلول القرن التاسع عشر، كان الاستغلال والانتهاك المتزايد للامتيازات الأجنبية يمثلان انتهاكا شديدا للأفكار الأوربية المعاصرة عن الطبيعة المقدسة لسيادة الدولة.

وقد أدت المكانة المتدنية والاضطهاد المتكرر للمجتمعات المسيحية فى الإمبراطورية العثمانية إلى لفت انتباه الرأى العام الأوربى، وقدم فرصة للتدخل الأوربى فى شئون الدولة العثمانية. وكان الروس بصفة خاصة يحاولون باستمرار تقديم أنفسهم كحماة للمجتمعات الأرثوذكسية الشرقية بالإمبراطورية، وكانت خطط الإصلاح - التى حاولت المؤتمرات الدبلوماسية الأوربية بانتظام فرضها على الإمبراطورية العثمانية - تميل إلى المطالبة بدعم استقلال «الملل»، بل ومنح

الحكم الذاتى الإقليمى لكل ملة على حدة. وخلال القرن التاسع عشر، أدى هذا المنهج إلى التفكك التدريجى للسيطرة العثمانية على أقاليم البلقان، مثل صربيا وبلغاريا، حيث كان أعضاء «الملل» المسيحية الأرثوذكسية يشكلون غالبية السكان. ومن بين الشروط المتفق عليها فى مؤتمر برلين ١٨٧٨م، ضمان «قوة عظمى» للإصلاح الإدارى فى المقاطعات الست التى يقطنها الأرمن فى شمال شرق الأناضول (عبر الحدود مع روسيا). وبالرغم من عدم تطبيق ذلك، فإن هذا الوعد الذى لم ينفذ كان بمثابة مبدأ قانونى لجأت باسمه المنظمات القومية الأرمينية إلى الحكومات والرأى العام الأوربى طلبا للمساندة، وخرجت التوترات المتعلقة بالمسألة الأرمينية بصورة متزايدة عن السيطرة منذ تسعينيات القرن التاسع عشر؛ لأن النشطاء الأرمن نفذوا عمليات شبه عسكرية وإرهابية ضخمة ضد الحكومة العثمانية، بينما شجع نظام السلطان، أو تغاضى عن، المذابح الجماعية لمجتمعات الأرمن فى كل من قلب إسطنبول وشرق الأناضول (63).

وعندما فقدت الدولة العثمانية المزيد من الأراضى فى البلقان، وكانت السلطة الاسمية للسلطان فى شمال أفريقيا تتعرض للإهانة العلنية على أيدى القوى الإمبريالية الأوربية، كافح العثمانيون لفرض سيطرتهم على ما تبقى من إمبراطوريتهم التى تداعت قوتها. وبداية من ١٨٣٩م، بدأوا سلسلة من الإصلاحات التى يشار إليها مجتمعة «بالتنظيمات الخيرية . Tanzimat i Hayriye» وقد أدى هذا الجهد التحديثى إلى تكوين بيروقراطية حكومية كبيرة، وفيالق ضباط محترفين، والإشراف المباشر على الإمارات عن طريق البيروقراطية الجديدة، والتسجيل المنظم لملكية الأرض عبر الإمبراطورية من أجل زيادة كفاءة جمع العوائد، واتجاه مبدئى للابتعاد عن «الشريعة» الإسلامية لصالح نظام قضائى أكثر علمانية. وكان الدبلوماسيون وكبار الإداريين إما يرسلون إلى أوربا الغربية للتعليم، أو كانوا يدربون فى مؤسسات جديدة للتعليم العالى والمهنى أقيمت فى إسطنبول، ومن أهم هذه المؤسسات «الأكاديمية الطبية الملكية» و«أكاديمية الخدمة المدنية» (المُلكية Mulkiye)، وأكاديمية الحرب (الحربية).

ومع ذلك، لم تصل هذه الإصلاحات إلى النتيجة المرجوة فى جوانب عديدة، حيث أثارت توقعات لم تستطع تحقيقها. وفى الواقع، كان من أهم الآثار الجانبية

لهذه «التنظيمات» تكوين نخب مهنية جديدة شبه غربية، كانت تتطلع لمواصلة الإصلاحات حتى تحقق نتائجها المنطقية، ولكنها أصيبت بالإحباط نتيجة عدم قدرة أو عدم رغبة النظام فى تخطى العقبات الاجتماعية والثقافية والمؤسسية العديدة التى وقفت فى طريق إكمال إعادة تشكيل الدولة العثمانية. ويمكن تلخيص تناقض النظام تجاه عملية التحديث من خلال رد فعل السلطان عبد الحميد على «المسألة الشرقية» فى 1875م - ١٨٧٨م). ففى مواجهة حركات التمرد ضد السلطة العثمانية فى البلقان، ومحاولة فرض القوى الأوربية للإصلاحات على الإمبراطورية العثمانية، أصدر السلطان دستورًا يمنح المساواة أمام القانون لكل الرعايا بغض النظر عن عقيدتهم، ويكون برلمانًا منتخبًا، ولكنه فى أقل من عام (فى 1877م) علق «الدستور» وعاد إلى الحكم الاستبدادى. وطوال العقود الثلاثة التالية، كانت «المطالبة» باستعادة دستور 1876م، تجسد صيحة العمل المشترك لدى عدد كبير من الخصوم السياسيين، وكان الكثير منهم من خريجى المؤسسات التعليمية الجديدة بالإمبراطورية، وأعضاء فى نخبها الاجتماعية السياسية الجديدة.

أما التنمية الاقتصادية التى كان يفترض أن هذه الإصلاحات ستحققها فقد اتسمت ببطء بالغ ولم تكن متساوية فى تأثيرها الاجتماعى. وبينما أدت مبادرات المستثمرين الأجانب إلى تنفيذ مشروعات عالية الربحية، مثل إنشاء سكة حديد «برلين - بغداد»، إلا أن البنية التحتية العامة للاقتصاد ظلت على حالها فيما قبل الصناعة، وقد أفاد غزو المنتجات المصنعة الغربية لأسواق الشرق الأوسط مجموعات صغيرة من الوسطاء، إلا أنه قوض حياة الحرفيين المحليين. وكان معظم الوسطاء المحليين الناجحين فى التجارة الدولية والصفقات المالية من أعضاء الأقليات المسيحية، الذين كان توجههم الثقافى الغربى (والذى تزايد بسبب التعليم فى المدارس ذات الإدارة الفرنسية التى أقيمت فى أنحاء الشرق الأوسط خلال القرن التاسع عشر «وعلاقات الشتات» فى حالة اليونانيين والأرمن) جعلهم مرشحين بقوة لهذه الأدوار. وبرز عدد من الأسر اليهودية فى هذا المجال على هذا الأساس. وبالطبع فإن هذا النمط زاد كراهية المسلمين للأقليات التى عاشت بينهم، وتزايدت التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية داخل

المجتمعات الإسلامية بسبب برنامج تسجيل ملكية الأراضى الذى تم فى سياق (التنظيمات الخيرية). وكان الأثرياء من الملاك والتجار المسلمين يسيطرون على الجهات التنفيذية المحلية المسئولة عن إصدار الصكوك، بينما كانت الطبقات الأدنى تفتقر إلى التعليم والموارد المالية المطلوبة لإثبات دعاواهم. وتمثلت النتيجة فى ظهور نمط من تجريد الفلاحين الفقراء، الذين اضطروا إلى أن يصبحوا مزارعين أجراء أو عمالاً معدمين، بينما فرضت النخبة المالكة سيطرتها الاقتصادية، واستخدمت قوتها المالية لشراء المناصب العامة، مما قوى من قبضتها على الفروع الإقليمية لبيروقراطية متوسعة فى أرجاء الدولة(64).

وبالنسبة للشعوب غير الإسلامية بالإمبراطورية، كانت التنظيمات محملة بالمضامين المتناقضة والمحيرة. فمن ناحية، امتدت جهود النظام لإضعاف سلطة علماء الدين إلى بعض الأقليات الدينية مما أدى إلى تكوين جهات مجتمعية أكثر علمانية وأكبر فى تمثيلها النيابى، الأمر الذى زاد من الطابع المؤسسى للاستقلال الذاتى «للملل». ومن ناحية أخرى، كان يبدو أن الهدف طويل الأجل للتنظيمات يتمثل فى تكوين أمة متكاملة وموحدة، والتوزيع العادل لسلطة الدولة على الأقاليم والسكان حسب المفاهيم الأوربية الحديثة للسيادة السياسية. ويمكن أن يكون ذلك سيفًا ذا حدين، إذ يحقق المساواة النظرية للمجموعات العرقية الدينية المضطهدة، فى حين يخضعها فى الواقع بصورة مباشرة لسلطة حكومة وحشية ومتسلطة غالبًا. وبصفة عامة، فإن الطبيعة غير السوية لجهود الإصلاح أدت إلى قلق وعدم تأكد كبيرين بشأن الوضع المستقبلى «للملل»، وساهمت بوضوح فى الاضطرابات بين السكان الأرمن خصوصًا.

وأخيرًا، يجب أن نذكر أنه خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، كان السلاطين العثمانيون يركزون من جديد على إدعائهم بأنهم ورثة الخلافة الإسلامية التقليدية. حيث يمسك السلطان كخليفة بكل من السلطتين الروحية والسياسية، ليس داخل الإمبراطورية فحسب، بل وعلى كل أفراد «الأمة» خارج حدودها أيضًا. وقد اتضح دور السلطان كخليفة فى دعاية الوحدة الإسلامية التى انتشرت حتى آسيا الوسطى الروسية. وبتركيز الانتباه على دورهم كخلفاء، كان السلاطين يؤكدون على الصلة الوثيقة بين الوحدة الروحية «للأمة» والتكامل

السياسى للإمبراطورية، ومحاولة تكوين إطار أيديولوجى لعودة الدولة إلى «القوة العظمى». ولكن موضوع الوحدة الإسلامية جاء عكس روح التحديث الخاصة «بالتنظيمات»، وقوض الأهداف التكاملية السياسية لجهود الإصلاح، بالإضافة إلى لفت الانتباه إلى الوضع الشاذ للرعايا غير المسلمين. أى أنه يمكن بطريقة ما اعتبار حملة الدعاية للوحدة الإسلامية العثمانية مشابهة لجهود القياصرة لربط أنفسهم بفكرة القومية الروسية والوحدة السلافية. ففى الحالتين كانت النظم الإمبريالية تبحث عن طرق لفرض سيطرة عاطفية ونفسية أقوى على رعاياها، ولكن بالدعوة إلى هوية مجتمع واحد (أو مجموعة من المجتمعات) التى تخاطر بتغريب كل شخص آخر.

وفى الواقع، شهد القرن التاسع عشر ظهور إحساس قوى بالهوية القومية، أو الهويات الممهدة للفكر القومى (Proto-Nationalist) بين عدد من الشعوب المسيحية بالإمبراطورية. إذ إن التقليد المسيحى الأرثوذكسى الخاص بالطقوس المحلية، والذى تزايد بسبب السابقة المؤسسية لنظام «الملل»، أدى إلى تكوين أطر دينية لصناعة الأمة، حيث قام فرع وراء الآخر من الكنيسة الأرثوذكسية فى البلقان (الأرثوذكس الصرب والأرثوذكس البلغار وغيرهم) بادعاء الاستقلال الذاتى فى إطار الأرثوذكسية الشرقية. وفى الواقع، نجد أن الارتباط الوثيق بين العرقية والدين قد ساهم فى اشتعال وصلابة قوميات البلقان. ومن الطريف أن نذكر أن التحويل الإجبارى للديانة كان الطريقة المفضلة «لدمج» شعوب المناطق المكتسبة حديثًا خلال حروب البلقان فى (1912م - 1913م[65]).

ولم يكن الإسلام السنى - كدين رسمى للإمبراطورية - يرتبط بنيويًا بأية هوية إقليمية أو عرقية معينة، مما صعب على دعاة القومية بين الشعوب الإسلامية مهمة توفيق آرائهم مع المبادئ الدينية[66]. وأدى الإحساس بالإذلال الناتج عن التدهور النسبى للإمبراطورية العثمانية، بالإضافة إلى الإحباط الناتج عن فشل الحكومة فى التطبيق الفعال لمبادرات الإصلاح، إلى نمو حركة إصلاحية مسلحة بين النخبة الإدارية والعسكرية بالإمبراطورية عرفت باسم «لجنة الاتحاد والترقى - Committee of Union and Progress»، والتى تعرف أيضًا باسم حركة «تركيا الفتاة - Yong Yurks». وكما سنرى فى الفصل التالى، فإن تطور هذه الحركة

أظهر التوتر بين العالمية الإسلامية والخصوصية العرقية التى بدأت تظهر بين المفكرين الإسلاميين خلال السنوات الأخيرة قبل الحرب العالمية الأولى.

الخاتمة

عند مناقشة التحديات الهائلة والتعقيدات الشائكة التى كان يجب على كل من الإمبراطوريات الثلاث متعددة القوميات أن تواجهها، يصعب الفرار من تكوين انطباع بأنها كانت تنحدر بسرعة كبيرة نحو التفكك والانهيار الكامل. ولذلك يجب أن نشير إلى أن كل هذه الأنظمة الثلاثة كانت لا تزال على قدر من الأهمية حتى 1914م، بل إن مقاومتها فى وجه حالة الحرب الشاملة حتى 1917م أو 1918م كانت ملحوظة. فقبل الحرب لم تكن معظم المنظمات القومية فى الإمبراطوريات الثلاث تسعى صراحة للاستقلال الكامل، بل كانت تركز على دعم الخطط المختلفة لحكم ذاتى ثقافى وسياسى وإصلاح اجتماعى.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه قبل 1914م، لم يكن واضحًا ما هى الأشكال السياسية التى ستحل محل الإمبراطوريات لو وصلت إلى نقطة الانهيار الكامل. فالكثير من الحركات القومية المذكورة هنا كانت لا تزال فى مراحل تطورها الأولى حتى 1914م. بل إنه حتى بين تلك الحركات التى كانت توصف بأنها شعبية، كانت هناك انقسامات داخلية عميقة حول التكتيكات والاستراتيجيات، وتحديد الأهداف طويلة الأجل. وجاءت الحرب لتلعب دورًا حاسمًا فى تشكيل تطور الحركات القومية، وذلك من خلال الكشف المفاجئ والسريع عن كل من وحشية وهشاشة الدول الإمبريالية، وإنزال الغضب على ملايين الناس الذين ظلوا حتى ذلك الوقت على هامش الحياة السياسية، والذين اكتشفوا الآن أنهم لا يستطيعون الفرار من تلك السياسات. ووفرت الحرب فرصا استثنائية لبزوغ شخصيات قيادية ما كان يمكن لها أن تظهر لولا ذلك الظرف. ورغم هذا، تركت الحرب آثارها على كافة المجالات بأشكال متباينة بين الطبقات الفكرية والقطاعات الاجتماعية المختلفة فى كل «أمة». فبينما وفرت الحرب فرصة مفاجئة لولادة دول جديدة، فإنها لم تمنح مواطنيها بصورة تلقائية هويات جماعية متجانسة أو مجموعة موحدة من التوقعات الاجتماعية السياسية. ففى معظم الحالات، اقتصرت على تكوين خداع مؤقت بالوحدة القومية، وكان ذلك

بمثابة مكمن الخطر الحقيقى. ومع ذلك، وقبل أن نستطيع استكشاف أثر الحرب على الحركات القومية، يجب أن نلقى نظرة فاحصة على الدوافع الفكرية التى حركت أصحاب الفكر القومى الذين كونوا أو سيطروا على هذه الحركات عشية الحرب.

الهوامش

(1) انظر التحليل المقارن المفيد الذى قام به:

- Dominic Lieven, "The Russian Empire and the Soviet Union as Imperial Politics." Journal of Contemporary History, vol. 30, no. 4 (October 1995), 607-636.

- وانظر أيضا المعالجة القديمة فى:

- Hugh Seton-Watson, Nations and States: An Enquiry into the Origins of Nations and the Politics of Nationalism (Boulder, CO: Westview, 1997), chap. 4.

(2) Ernest Gellner, Nations and Nationalism (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1983), 62.

(3) Steven Beller, Frances Joseph (London: Longman, 1996).

(4) الكلمة الألمانية للنمسا هى «أوستريتش. Österreich» وتعنى «المجال الشرقى» (من الإمبراطورية الرومانية المقدسة).

(5) Robert A. Kann, A History of the Habsburg Empire, 1526-1918 (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1974), chaps 1-3 and pp. (156-170).

(6) Kann, Habsburg, (218-221).

(7) من أجل الملاءمة، سأستمر فى استخدام التعبيرين «إمبراطورية الهابسبرج. Habsburg empire والإمبراطورية النمساوية المجرية. Austria-Hungary» بصورة تبادلية.

(8) تم تكوين مجلس نيابى موحد فى ظل امتياز فبراير. 1861وفى أعقاب انقسامه فى 1867 كانت لجنة مؤلفة من مفوضين من المجلسين تلتقى بانتظام لإقرار المخصصات المشتركة للشئون العسكرية والخارجية.

(9) المعلومات المتعلقة بتطورات القرن التاسع عشر فى إمبراطورية الهابسبرج مستمدة من:

- Kann, Habsburg, 332-342.

- Robert A. Kann, The Multinational Empire: Nationalism and National Reform in the Habsburg Monarchy (New York: Colombia University Press, 1950), vol. 1, chap. 4,

- Alan Sked, The Decline and Fall of the Habsburg Empire, 1815-1918 (London: Longman, 1989), chap. 5,

- Samuel R. Williamson, Jr, Austria-Hungary and the Origins of the First World War (New York: St. Martin's Press, 1991), chap. 2.

Ivo Banac, The National Question in Yugoslavia (Ithaca, NY: St. Martin Press, (10) 1984), 91-93.

(11) كان الأوكرانيون المنتمون إلى جاليتشيا وبوكوفينا يسمون «الروتينيون . Ruthenians» وسوف أستخدم مصطلح «الأوكرانيين» للإشارة إليهم، لأنه كان يستحيل تمييزهم لغويا عن الأوكرانيين فى الإمبراطورية الروسية، ونظرا أيضا لأن الجيل الأحدث من قادتهم كانوا يؤيدون إقامة الروابط القومية مع الأوكرانيين فى روسيا. وكان أوكرانيو جاليتشيا يتبعون الكنيسة اليونيتية (الكاثوليكية شرقية الطقوس)، وذلك على خلاف أقرانهم الأرثوذكس المنتشرين عبر الحدود الروسية.

Sked, Decline, 213. (12)

Beller, Francis Joseph, 140-189 and passim. (13)

- Sked, Decline, (218-234).
- Carl E. Schorske, Fin-de-Siècle Vienna: Politics and Culture (New York: Vintage, 1981), (120-133).

- بالنسبة إلى نقد الملكية الأبوية للهابسبورج والمنطوية على مفارقات تاريخية، وضحالة التعليم المدنى النمساوى، والشوفينية الثقافية العرقية للتعليم المدنى المجرى، والتعصب والتطرف الكامن لقوميات الأقليات فى الإمبراطورية، انظر:

Oscar Jaszi, The Dissolution of the Habsburg Monarchy (Chicago, IL: University – of Chicago Press, 1961; 1929, parts IV_VII.

(14) كان السلوفينيون يدخلون بصورة متزايدة فى تصنيف سلاف الجنوب.

(15) تعتمد هذه المناقشة على:

- Banac, The National Question, 76-80, 85-91, 110-111, 209-214.
- John Lampe, Yugoslavia as History: Twice There Was a Country (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), (43-46).
- Dimitrije Djordjevic, "The Idea of Yugoslav Unity in the Nineteenth Century," in Dimitrije Djordjevi, ed., The Creation of Yugoslavia, 1914-1918 (Santa Barbara, CA and Oxford: Clio Press, 1980), 3,
- Kann, Habsburg, (384-405).
- Hugh and Christopher Seton-Watson, The Making of a New Europe: R.W. Seton-Watson and the Last Years of Austria-Hungary (Swatle, WA: University of Washington Press, 1981), 58-59.

(16) يعود أوضح مثال على هذه الظاهرة إلى 1846، عندما تم قمع ثورة قومية بولندية بقيادة النبلاء فى جاليتشيا بواسطة القرويين البولنديين الذين ذبحوا أسيادهم المكروهين باسم إمبراطور الهابسبرج.

- Lewis Namier, 1848: Revolution of the Intellectuals (Oxford: Oxford University Press, 1992, reprint of text in Proceedings of the British Academy, Volume 30, 1946), 12-17.

(17) تتمثل إحدى مفارقات برامج الإحياء القومى فى أن الطليعة المثقفة فى هذه البرامج كانوا يشعرون براحة أكبر عند القراءة والكتابة بلغة الإمبراطورية المسيطرة، مقارنة بالتواصل بلغاتهم القومية. وهكذا فإن المؤرخ فرانتسيك بالاكى (Frantisk Palachy)، وهو أحد مهندسى الإحياء القومى التشيكى فى القرن التاسع عشر، قدم كتاباته الأولى بالألمانية.

- Jonathan Sperber, The European Revolutions, 1848-1851 (Cambridge: Cambridge University Press, 1994) 97.

(18) Schorske, Vienna, 120-133.

(19) Kann, Multinational, vol. 1, chap. 3.

(20) كان هذا هو المصطلح المستخدم لتمييز أولئك الذين كانوا يعتبرون ورثة تقاليد الدولة التاريخية

- Kann, Multinational, vol. 1, chap. 2.

(21) Robert B. Pynsent, Questions of Identity: Czech and Slovak Ideas of Nationality and Personality (Budapest, London, and New York: Central European University Press, 1994), 152-169.

(22) كانت الكنيسة اليونيتية بمثابة نقطة ارتكاز للقومية الأوكرانية فى جاليتشيا الشرقية، عندما بدأت تيارات القومية الشعبية الأوكرانية الروسية تتدفق عبر الحدود فى العقود الأخيرة قبل الحرب العالمية الأولى.

(23) Gellner, Nations and Nationalism, 62.

- Miroslav Hroch, Social Preconditions of National Revival in Europe: A Comparative Analysis of the Social Composition of Patriot Groups among the Smaller European Nations (trans. from the Czech by Ben Fowkes, (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), chap. 13 and pp. (193-147).

(24) John EN. Bradley, Czech Nationalism in the Nineteenth Century (Boulder, CO: East European Monographs, 1984), 24, 35, 53-54,

- Hans Kohn, Pan-Slavism: Its History and Ideology (Notre Dame: University of Notre Dame Press, 1953), 184,

- Paul Vysny, Neo-Slavism and the Czechs: 1898-1914 (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), (23-26).

- كان النموذج المثالى لحركة الصقر (سوكول . Sokol) يتمثل فى المنظمات الرياضية القومية الألمانية التابعة لتيرنفاتر جان Turnvater Jahn فى أوائل القرن التاسع عشر.

(25) ساهمت احتياطيات الفحم الكبيرة فى بوهيميا فى تحولها إلى مركز القوة الصناعية للنمسا فى أواخر القرن التاسع عشر.

- David F. Good, The Economic Rise of the Habsburg Empire, 1750-191 (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1984), 129-134.

(26) Bradley, Czech Nationalism, (33-37).

- Kann, Habsburg, (439-441).

- Kann, Multinational, vol. 1, 205.

(27) تعتمد هذه المناقشة للماركسية النمساوية على:

- Otto Bauer, Die Nationalitätenfrage und die Sozialdemokratie (Vienna: I. Brand, 1907), 23-95.

- Bauer and Renner, in Tom Bottomore and Patrick Goode, trans. and eds, Austro-Marxism ((Oxford: Oxford University Press, 1978), 102-117.

- Mark E. Blum, The Austro-Marxists, 1890-1918 (Lexington, KY: The University Press of Kentucky, 1985), chaps, 3 and 5.

- Kann, Multinational, vol. 2, chap. 20.

(28) Bauer, Die Nationalitätenfrage, 282-316.

- Bottomore and Good, Austro-Marxism, 102-107.

- Richard Pipes, The Formation of the Soviet Union (Cambridge: MA: Harvard University Press, 1964), 24-26.

(29) انظر الفصل الثالث.

(30) كان بوير Bauer يهوديا مستوعبا، وكان رينيه Renner ألمانيا فى أصله العرقى.

(31) Kann, Multinational, vol. 1, chap. 5 and vol. 2, chap 23.

- Sked, Decline, 208-234.

(32) Lieven, "The Russian Empire," 623.

(33) Andreas Kappeler, Rusland als Vielvölkerreich: Entstehung, Geschichte, Zerfall (Munich: C.H. Beck, 1993).

ويقدم المرجع السابق معالجة دقيقة لذلك الموضوع، واعتمدنا فى هذا الجزء كثيرا على ذلك العمل.

(34) Lieven, "The Russian Empire," 624-625.

- وهناك استثناءات لهذا النمط، مثل الاستقلال الذاتى للهيتمانية القوزاقية Cossack Het-manate طبقا لشروط اتفاقية تضع الأوكرانيين تحت حماية القيصر فى القرن السابع عشر، والتميز الدستورى لتقسيم روسيا لبولندا، أو الاستقلال الذاتى الفنلندى عقب انتزاعها من السويد فى (1808-1809) ولكن هذه الاستثناءات لم يسمح لها بالاستمرار طويلا.

- Hans Rogger, Russia in the Age of Modernisation and Revolution, 1881-1917 (London: Longman, 1933), chap.9.

(35) Richard Pipes, Russia under the Old Regime (2nd edn; New York:Macmillan, 1992), chaps 2-4.

(36) Ibid., chap. 5.

- Kappeler, Russland, chap. 4.

- Theodore R. Weeks, Nation and State in Late Imperial Russia: Nationalism and Russification on the Western Frontier, 1863-1914 (DeKalb, IL: Northern Illinois University Press, 19960, 194-196.

(37) Kappler, Russland, 29-36.

- ويقول مارك رايفان (Marc Raeff) إن اختيار النخب المحلية وضمها إلى النبلاء الروس كانت طريقة غير مباشرة للروسنة، انظر:

- "Uniformity, Diversity, and the Imperial Administration,".

- "In the Imperial Manner," in.

- Marc Raeff, Political Ideas and Institutions in Imperial Russia (Boulder, CO: Westview Press, 1994).

(38) للاطلاع على مثال معاكس. اضطهاد اليهود. انظر:

- John Doyle Klier, Imperial Russia's Jewish Question, 1855-1881 (Cambridge: Cambridge University Press, 1995).

- Hans Rogger, Jewish Policies and Right-Wing Politics in Imperial Russia (London: Macmillan, 1986).

(39) Lieven, "The Russian Empire," p. 629, no. 7.

(40) Kappeler, Russland, chap. 7.

(41) Michael Boro Petrovich, The Emergence of Russian Panslavism, 1856-1870, (New York: Colombia University Press, 1956), 254-269.

- Kohn, Pan-Slavism, (137-175).

- Fadner, SJ. (The Society of Jesus – The Jesuit order), Seventy Years of Pan-Slavism in Russia: Karazin to Danilevskii, 1800-1870 (Haarlem, The Netherlands: Georgetown University Press, 1962), 293-301, 314-349.

(42) Weeks, Nation, 8.

- Nicholas P. Vakar, Belorussia: The Making of a Nation (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1956), (68-70).

- Kappeler, Russland, 189.

- Geoffrey Hosking, Russia: People and Empire, 1552-1917 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997), part 4, chap. 3.

(43) Hosking, Russia, 377, 380-385.

(44) Kappeler, Russland, chap. 7.

وبالنسبة لاتجاهات الحكومة الروسية تجاه المذابح المنظمة، انظر:

- Rogger, Jewish, chap. 4.

- I. Michael Aronson, "The Anti-Jewish Pogroms in Russia in 1881," in .

- John D. Klier and Shlomo Lambroza, eds, Pogroms: Anti-Jewish Violence in. Modern Russian History (Cambridge: Cambridge University Press, 1992).

(45) تعتبر هذه العقلية أكثر ارتباطا بالحقبة السوفيتية، ولكن بيتر هولكيوست وجد مظاهر قوية لها فى مذكرات وتقارير المخططين العسكريين القياصرة فى القرن التاسع عشر، انظر:

- Peter Holquist, "Conduct Merciless Mass Terror": Decossackization on the Don. 1919, "Cahiers du Monde Russe et Sovietique, vol. 38, nos 1-2 (1997), 127-162.

(46) Sir Bernard Pares, The Fall of the Russian Monarchy (New York: Knopf, 1939), 307-309.

- Allan K. Wildman, The End of the Russian Imperial Army, vol. 1: The Old Army and the Soldiers' Revolt (March-April 1917) (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1980), (110-113).

- Leiven, "The Russian Empire," 613.

- Hubertus Jahn, Patriotic Culture in Russia during World War I (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1995), 171-177.

– اندلعت ثورة فبراير الروسية خلال شهر مارس حسب التقويم الجريجورى (الغربى) الذى تشير إليه كل التواريخ الواردة فى هذا الكتاب.

(47) كان التقليد القوزاقى رومانسيا ومجسدا فى تعبير نموذجى عن الحرية الإنسانية قدمه شاعر منتصف القرن التاسع عشر تاراس شيفتشينكو Taras Shevchenko - 1814) 1861)، الذى بلغ منزلة الشاعر القومى ولعب دورا جوهريا فى رفع لغة القرويين الأوكرانيين إلى مستوى الوسيط القادر على التعبير الأدبى.

- John Reshetar, The Ukranian Revolution, 1917-1920: A Study in Nationalism (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1952), 5-6.

(48) أدت الدوقية العظمى لاتحاد ليتوانيا مع بولندا (ترجع إلى 1386م وتأكد تماسكها فى 1569م) إلى إضفاء الطابع البولندى على نخبتها السياسية الاجتماعية، وكان الطابع البيلاروسى هو الوسيط السابق للتعبير الثقافى الراقى.

- Ronald Grigor Suny, The Revenge of the Past: Nationalism, Revolution and the Collapse of the Soviet Union (Stanford, CA: Stanford University Press, 1993), 32-33.

(49) Reshetar, Ukranian, 146.

(50) Vakar, Belorussia, chap. 6.

(51) وكذلك أدى منح الاستقلال الذاتى لفنلندا إلى وضع أساس هوية سياسية متميزة.

(52) Kappeler, Russland, 183-191.

(53) Henry J. Tobias, The Jewish Bund in Russia: From its Origins to 1905 (Stanford, CA: Stanford University Press, 1972), 251-252.

(54) تحول الأرمن إلى المسيحية فى القرن الرابع الميلادى.

- Ronald Grigor Suny, Looking Toward Ararat: Armenia in Modern History (Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press, 1993), 8.

(55) Ibid., chap. 2.

Ronald Grigor Suny, The Making of the Georgian Nation (2nd edn, Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press, 1994), 139-143.

(56) تعتمد هذه المناقشة للسكان المسلمين فى روسيا على:

- Kappeler, Russland, (149-168).

- Hélène Carrère d'Encausse, Islam and the Russian Empire: Reform and Revolution in Central Asia (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1988), chaps. 2-4.

- Steven Marks, Road to Power: The Trans-Siberian Railroad and the Colonization of Asian Russia, 1850-1917 (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991), 162.

Z.A.B., The Break-up of the Habsburg Empire, 1914-1918: A Study in Social (57)
and National Revolution (London: Oxford University Press, 1961), chap. 1.

- James Joll, The Origins of the First World War (2nd edn, London: Longman, 1992), 110-111.
- L.C.F. Turner, Origins of the First World War (New York: Norton, 19700, 80-81.

(58) أصبحت القسطنطينية تعرف فى العالم الإسلامى باسطنبول ـ وهذا تحريف لنطق العبارة اليونانية (eis ten polin) والتى تعنى «إلى المدينة». واستمرت الإشارة إلى المدينة باسم "Konstantiniyye" على العملات وفى الوثائق الرسمية.

(59) تعتمد هذه المناقشة للإمبراطورية العثمانية على:

- Stanford Shaw" History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Volume I: Empire of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire, 1280-1808 (Cambridge: Cambridge University Press, 1976), chaps. 2-5.
- Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Volume 2: Reform, Revolution, and Republic: The Rise of Modern Turkey, 1808-1975 (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), 55-133, 157-158, 174-187, and 255-259.
- Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey (London: Oxford University Press, 1961), chaps 1-2.
- Erik J. Zürcher, Turkey: A Modern History (London: I.B. Tauris, 1993), chaps 1, 5, 7-8.

(60) كانت العلاقة بين العرقية والدين مائعة جدا فى أواخر الإمبراطورية العثمانية. ففى بعض الحالات، كانت إثارة الوعى القومى العرقى تفصل بين المجتمعات الدينية (خاصة ما يتعلق بالإسلام السنى). وفى حالات أخرى، كان القوميون يتطلعون إلى تخطى الاختلافات الدينية. بل إن الهوية الدينية ذاتها تعرضت لأن تصبح هوية عرقية.

Lieven, "The Russian Empire", 613-613. (61)

(62) ربما كان نظام «الملل» بمثابة نموذج سلس لمفهوم الماركسيين النمساويين فى الاستقلال الذاتى الداخلى الخارج عن نطاق التشريع الوطنى (كوضع السفراء)، (الذى ناقشناه سلفا).

Ronald Grigor Suny, Looking Toward Ararat, 98-106. (63)

- Manoug Somakian, Empires in Conflict: Armenia and the Great Powes 1895-1920 (London: I.B. Tauris, 1995), 15-31.

Philip Khoury, Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of (64)
Damascus1880-1920 (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), chaps. 1-2.

- Shaw and Shaw, History of the Ottoman Empire, vol. 2, 221-245.

George F. Kennan, The Other Balkan Wars: A 1913 Carnegie Endoment Inquiry (65) in Retrospect with a New Introduction and Reflections on the Present Conflict (Washington, DC: Carnegie Foundation for International Peace, 1993), 155-157.

(66) يتضح ذلك بجلاء فى حالة المسلمين الناطقين بالكرواتية الصربية الذين ظلوا فى البوسنة بعد انسحاب العثمانيين من تلك المقاطعة فى 1878، حيث كان العديد من المسلمين، عند الحاجة إلى تمييز أنفسهم بهوية قومية، يعتبرون أنفسهم صربيا أو كرواتا.

- Banac, The National Question, 58-59, 66-67, 362-366.

الفصل الثالث

على مشارف الحرب

أهل الفكر طليعة القومية

مع مستهل الحرب العالمية الأولى، كانت آفاق حق تقرير المصير القومى للشعوب الخاضعة للإمبراطوريات الثلاث تبدو بعيدة المنال. فبالرغم من مواجهة تحديات داخلية وخارجية عسرة ، كانت هذه الإمبراطوريات لا تزال متماسكة، بل إنها كانت تبدو قوية فى جوانب عديدة. فقد وسعت إمبراطورية الهابسبرج أراضيها بضم مقاطعة البوسنة والهرسك رسميًا فى 1908م (بعد أن كانت تمارس سيطرة فعلية عليها منذ 1878م) ومن جانبها كانت الإمبراطورية العثمانية تمارس إصلاحًا سياسيًا طموحًا وجهدًا إداريًا تحديثيًا، برعاية أعضاء حركة «تركيا الفتاة» الذين أحكموا قبضتهم على السلطة عقب هزائم دولتهم فى شمال أفريقيا والبلقان، الأمر الذى قلص من الثقة التى كانت تحظى بها النخب المنافسة. وبالنسبة لروسيا فقد كان الإذلال الذى لقيته على أيدى اليابان فى حرب (1904م - 1905م) سببا فى زيادة تطلع النخبة الحاكمة إلى سرعة التصنيع والتحديث العسكرى، مع تراجع طموحاتها الخارجية فى الشرق الأقصى والانكفاء على تعقيدات الاوضاع السياسية فى البلقان.

وفى عام 1914 بدت الحركات القومية التى سعت إلى تحدى العمالقة الإمبرياليين كما لو كانت كائنات قزمية، من حيث تاريخها التنظيمى. بل إن بعضها شعر بارتباطه فكريًا وعاطفيًا بأحداث مر عليها قرن أو أكثر من الاضطرابات المتقطعة وعمليات المقاومة الاستشهادية التى كانت تقع بشكل دورى. صحيح أنه وقعت ثورات بولندية ضد الحكم القيصرى فى 1830م و1863م، وصحيح أيضا أن ضربات من التصدع أصابت إمبراطورية الهابسبرج بسبب الاضطرابات القومية خلال ثورات (1848م - 1849م)، إلا أنه مع ذلك لم

يكن هناك اتصال عضوى قوى بين قيادة حركات التمرد السابقة والتجمعات السياسية القومية التى ظهرت على الساحة السياسية قرب نهاية القرن التاسع عشر. وبينما حقق بعض الحركات القومية تأييدا شعبيًا واسعًا خلال السنوات القليلة التى مرت على تأسيسها، ظل بعضها الآخر مجرد تكوينات نخبوية بحتة، وخضعت الغالبية العظمى منها لقيادة الطبقة المثقفة والرواد المفكرين من المهنيين المتعلمين الذين كانوا على اتصال مباشر بأفكار المثقفين ويتطلعون إلى تطبيقها. وفى حالات عديدة، كان هؤلاء هم الذين يشعرون بالاغتراب، والتعرض للتمييز، ومحدودية فرصهم فى الحراك لأعلى، وذلك بسبب نمو القومية الرسمية التى ترعاها الدولة (مثل: القومية المجرية أو الروسية). وكان قادة الفكر يمثلون القطاع الاجتماعى الأكثر وعيًا وانبهارًا بالنموذج الغربى للدولة القومية كأداة للتقدم السياسى والقوة الجماعية[1]. وتأكيدًا لذلك، فإن المشاعر القوية المتعلقة بالهوية القومية العرقية كانت قد أثارت الجماهير الأقل تعليمًا أيضًا، ولكن قادة الفكر هم الذين تزعموا محاولة صياغة وترجمة المشاعر الجماعية وتطلعوا إلى تشكيلها. وفى ظل ذلك كان هذا النوع من المشاركة الذاتية الفكرية يمثل خطرا ضد الإمبراطورية عبر عن نفسه بوضوح أثناء الحرب العالمية الأولى وفيما بعدها، كما سنرى فى الفصول التالية.

وكانت المعضلة المشتركة التى واجهت هذه الطلائع القومية تكمن فى كيفية التوفيق بين ترسيخ الخصوصية العرقية ومحاكاة النماذج الأجنبية من ناحية، والسعى نحو الأصالة الثقافية واعتناق القيم العالمية من ناحية ثانية. وخلال السعى للعثور على أرضية مشتركة بين هذه الدوافع المتناقضة، كانت تلك الحركات تميل إلى تبنى تعريفات فضفاضة لتحديد ما يشكل الأمة ومن ينتمى إليها. وكانت هذه المفاهيم التوسعية للهوية القومية ترتبط بدرجة وثيقة بالتجارب الشخصية والحاجات العاطفية للمهنيين الحضريين المتعلمين والمثقفين الذين لم تعد حياتهم مرتبطة بالنسيج الاجتماعى الثقافى شديد التماسك فى المجتمعات القروية التى تمثل فيها الأبرشية المركز. كانت هذه النخب تتطلع إلى الإحساس بالرابطة المجتمعية المشتركة أخلاقيًا، والتى تحقق تكاملاً لا تعارضًا مع أنماط حياتهم وتطلعاتهم شبه الكونية. فمن خلال تعريف الأمة بأوسع المصطلحات

الممكنة، ظهرت الحاجة إلى طليعة مثلهم متعلمة واعية سياسيًا لتقوم بدور رائد فى تحقيق تكامل المجتمعات غير المتجانسة فى كلٍ متماسك. وكان العديد من أعضاء النخب القومية يعتبرون أنفسهم وسطاء ثقافيين يستطيعون أن يستمدوا القوة والإلهام من التقاليد الشعبية لشعوبهم، مع تقديم مبادئ التنوير العالمية إلى الجماهير وقيادتها لنشر العدالة الاجتماعية والسياسية. وكان حق تقرير المصير القومى - سواء فى شكل استقلال ذاتى أو استقلال مطلق - غالبًا ما يرتبط بتصور التجانس والتعاون بين الأمم، فى علاقة تشبه علاقة الأفراد ببعضهم فى النهج الديمقراطى.

وبينما لعب نشطاء الديمقراطية الليبرالية والليبرالية الاجتماعية أدوارًا بالغة الوضوح فى تشكيل الأيديولوجيات القومية، فإنهم لم يفعلوا ذلك دائمًا بدون تحديات. ففى عدد من الحالات، كانت آراؤهم تتعرض لهجوم منافسيهم اليمينيين الذين كانوا يعتبرون الأمة كائنًا شبه عضوى ويدعون أن القرابة العرقية هى الأساس الشرعى الوحيد للمجتمع السياسى والمصدر السليم الوحيد للقيم السياسية. وكانت هذه الصياغات للقومية متحولة ومتوسعة أيضًا، ولكن على أسس أكثر يسارية. فبدلاً من التركيز على التكامل السياسى لمجتمعات متعددة حول مجموعة مشتركة من القيم المدنية والمشروعات الثقافية، نصح بعض القوميين اليمينيين بتنقية الأمة من الأقليات التى لا يمكن استيعابها. وعند التطلع للخارج، رفضوا العالمية الديمقراطية وتبنوا بدلاً منها تصورات عدوانية للتوسع الإقليمى.

وبشكل أو بآخر، تبنى ذلك التقسيم المجتمعى العديد من المفكرين القوميين فى أوربا والشرق الأوسط. وطالما كانت الإمبراطوريات متعددة القوميات متماسكة، فإن مضامين هذا التعدد القومى تبقى نظرية غالبًا - بالرغم من أن أحداثًا مثل مسألة دريفوس (Dreyfus Affair) فى فرنسا مع نهاية القرن - أظهرت كيف أن الصدام بين القومية الليبرالية والقومية التكاملية[2] بالغ الأهمية فى التطور السياسى للدولة القومية المستقرة. وقد أدى انهيار الإمبراطوريات فى 1917م - 1918م، وما تلاه من انتصار مبدأ حق تقرير المصير القومى إلى أن

أصبح سؤال «ما الذى يشكل الهوية القومية» مسألة حياة أو موت بالنسبة للملايين من شعوب تلك المنطقة.

المشروعات القومية المتناقضة فى شرق أوربا الوسطى

بولندا

لعل الحالة البولندية تمثل أفضل مثال على الحركة القومية المنقسمة بين التصورات الشمولية والضيقة. فمنذ السنوات الأولى من القرن العشرين، ظهر تياران متميزان داخل الاتجاه العام للسياسة القومية البولندية، وقد ظهر كلاهما فى الجزء الروسى من بولندا، والذى يمثل القلب السكانى والثقافى لذلك البلد المجزأ، وإن كان لهما أتباع - أو على الأقل اتصال وثيق بنظرائهم المشابهين - فى جاليتشيا الخاضعة للنمسا وفى الجزء الألمانى من بولندا. ففى تلك المناطق قاد «جوزيف بلسودسكى - Jozef Pilsudski» الجناح القومى من الحزب الاشتراكى البولندى، الذى تبنى مفهومًا شاملاً للهوية القومية البولندية، بناءً على التعريف الإقليمى/السياسى للمواطنة. فى المقابل نادت الحركة الديمقراطية القومية بزعامة «رومان دموفسكى - Roman Dmowski» بنوع غير متسامح تمامًا من «القومية التكاملية - Integral National» التى تعرّف رفاهية الأمة بأنها القيمة الأخلاقية والسياسية العليا، وتعرّف الأمة من خلال مصطلحات بيولوجية زائفة. وكانت معاداة السامية صفة أساسية لأيديولوجية ومنهج عمل الديمقراطيين القوميين، وبينما لعبت أحزاب وحركات سياسية أخرى عديدة (مثل المحافظين فى جاليتشيا وأحزاب الفلاحين الجديدة) أدوارًا هامة فى السياسة البولندية طوال هذه الفترة، إلا أننا سنركز فى هذا الجزء على شخصيتى بلسودسكى ودموفسكى؛ وذلك لأن التنافس بينهما - وبين الأفكار التى يمثلانها - سيطرا على الساحة السياسية البولندية حتى وفاة بلسودسكى فى ١٩٣٥م(3).

لقد كان جوزيف بلسودسكى (1876م - 1935م) يمثل مزيجًا غريبًا من أرستقراطى متحفظ ومتآمر راديكالى، وسياسى يسارى ومستبد أبوى. حيث ولد وترعرع فى الإقليم المحيط بمدينة «فيلنوس - Vilnius» (ليتوانيا حاليًا)، التى كان سكانها خليطًا من البولنديين واليهود والليتوانيين، وكان ينحدر من أصل

أرستقراطى ليتوانى من جهة أبيه ومن أصل بولندى من جهة أمه، (كما كان أخوه منضمًا إلى لجنة قومية ليتوانية فى سويسرا خلال الحرب العالمية الأولى، وذلك فى وقت كان فيه الليتوانيون والبولنديون تحت الاحتلال الألمانى يتنازعون على المسار المستقبلى لفيلنوس)(4). ونظرًا لمعاناته من نوبات الاكتئاب الحاد والشك فى نفسه، يبدو أن بلسودسكى لم يهتم كثيرًا بدراسته الرسمية فى مدينتى فيلنوس وخاركوف (Kharkov)، وأنه وجد راحته وعزاءه فى مجموعات القراءة السرية والأنشطة التآمرية. وقد شكلت الفلسفة الوضعية والمادية (كومت ـ Comte، بوشنر ـ Büchner) المصدر الرئيس للغذاء الفكرى للشباب فى محيطه، بينما كانت الأنشطة الإرهابية للمنظمة السرية الشعوبية الروسية (المعروفة باسم «إرادة الشعب ـ Narobnaya Volya») تمثل المصدر الرئيسى للإلهام السياسى.

وأدت مشاركة بلسودسكى فى جمعية سرية مقرها فيلنوس ترتبط بمنظمة (إرادة الشعب) إلى محاكمته والحكم عليه بخمس سنوات فى منفى سيبيرى فى أعقاب محاولة تلك المنظمة الفاشلة الهجوم على القيصر الكسندر الثالث فى 1887م(5). ومع تعرضه للأفكار الماركسية خلال عامه الأخير فى فيلنوس(6)، تزايد ارتباطه بالاشتراكية بسبب العلاقات الوثيقة التى طورها مع عدد من النشطاء اليساريين الذين كان فى صحبتهم فى قريته فى المنفى. وعقب عودته إلى بولندا فى 1892م فى سن الرابعة والعشرين، انجذب بسرعة إلى الحزب الاشتراكى البولندى (PPS) المكون حديثًا، وصعد بسرعة إلى موقع متميز داخل اللجنة المركزية للمنظمة الوليدة.

وكان الحزب الاشتراكى البولندى واحدًا من حزبين اشتراكيين بولنديين ظهرا إلى الوجود خلال هذه الفترة، وكان منافسه (الحزب الديمقراطى الاشتراكى لمملكة بولندا وليتوانيا SDKPIL) تديره من الخارج المنفية «روزا لوكسمبورج ـ Rosa Luxemburg». حيث كان هذا المنافس يلتزم بشدة بمبدأ العالمية البروليتارية، ويعتبر أى شكل من القومية انسحابًا من الصراع الطبقى، وكانت قيادته تصر على أنه فى الإمكان حماية مصالح العمال البولنديين بصورة أفضل فى إطار تقرير المصير القومى البولندى. وكما رأى بلسودسكى، كانت شعوب الحدود الغربية للإمبراطورية الروسية أكثر تطورًا اقتصاديًا، وثقافيًا، ولديها

طبقة عاملة أكثر وعيًا سياسيًا مقارنة بالقلب الروسى، ولذلك كانت أكثر استعدادًا للثورة من بقية الإمبراطورية[7].

لقد كان هذا تبريرًا ماركسيًا لبرنامج قومى، فقد كانت جاذبية الاشتراكية بالنسبة إلى بلسودسكى تتمثل فى إمكاناتها كأداة لتعبئة الجماهير البولندية العاملة نيابة عن الحركة الانفصالية. ونظرا لخلفيته الأرستقراطية، فقد شعر بارتباط وثيق بالتقليد العاطفى للمقاومة المسلحة للاحتلال الأجنبى. ولكنه أدرك أيضًا بأن اضطرابات 1830م و1863م فشلت بسبب نقص المساندة الشعبية والظروف الدولية السيئة. إذا كان يتمنى إحياء التقليد البطولى البولندى الذى عانى آنذاك من سبات طويل. أراد بلسودسكى أن يدمج ذلك التقليد فى الأساليب الحديثة لتعبئة الجماهير مع تنشيطها بقدر من «السياسة الواقعية - Realpolitik». ونظرًا لتركيزها على الدور الحيوى للطليعة الفكرية/السياسية فى تعبئة وقيادة الجماهير، وميلها للتكتيكات التآمرية، مارست الاشتراكية الثورية تأثيرًا قويًا على بلسودسكى، وكذلك فإن المكانة التى حققها داخل الحزب الاشتراكى البولندى (بسبب انضمامه إليه فى وقت كان يتكون فيه من حوالى ٢٠ عضوًا فقط) أشبعت رغبته القوية فى أن يصبح زعيما وقائدا.

وكان تصوره للهوية القومية البولندية وثيق الصلة بالتقليد التاريخى للدولة البولندية الحديثة المبكرة، التى كانت تسيطر عليها اللغة والثقافة البولندية، ولكن طبقتها الحاكمة كانت عبارة عن مجموعة ذات خلفية متعددة الأعراق، وكان يأمل فى إدماج معظم الجسد الهامد لأقاليم «الكومنولث» فى الدولة البولندية المستقبلية بتشكيلها كاتحاد متعدد القوميات بقيادة بولندا. ويبدو أنه فكر فى الهوية القومية فى ضوء الثقافة واللغة والتقليد التاريخى والقيم السياسية، وليس من خلال المصطلحات العرقية الضيقة. وكان محصنًا نسبيًا ضد معاداة السامية التى كانت منتشرة فى المجتمع البولندى. ومع ذلك لم يكن هذا الاتجاه المتسامح والشامل منسقًا فى برنامج سياسى واضح ومتسق، وكان يصعب تحديد الشكل المؤسسى للاتحاد متعدد القوميات الذى يمكن أن يقبل به الحزب الاشتراكى البولندى.

ويقوم مفهوم بلسودسكى للكفاح الثورى على مزاوجة العناصر العاطفية والواقعية القديمة والحديثة فى شخصيته السياسية الغامضة نوعًا ما. فبينما كان متلهفًا لاستخدام التحريض والدعاية لدعم الإحساس القوى بالوعى السياسى والقومى بين الجماهير الحضرية فى بولندا سريعة التصنيع، احتفظ بنزعة قوية نحو الأساليب التآمرية، حتى عندما تحول الحزب الاشتراكى البولندى إلى حركة شعبية ذات قاعدة عريضة. وكان يخصص معظم جهوده خلال السنوات الأولى من القرن العشرين لتكوين تنظيم نخبة شبه عسكرية مدربة تحت قيادته شخصيا. وكان مطلوبا من هذه القوة الضاربة ـ التى أصبحت تعرف بمنظمة الكفاح (Combat Organization) ـ أن تكون فى وضع استعداد حين يصبح الوقت مناسبًا لشن عمل مسلح ضد الدولة الروسية القمعية. وكان منتظرا أيضا أن يعمل الحزب الاشتراكى البولندى وحركة النقابات العمالية المتصاعدة المرتبطة به كأدوات لحشد المساندة الشعبية لمثل هذه الأعمال، وكقواعد تجنيد لجيش تحرير لديه دافع كبير. وكان منتظرا أن يأخذ الكفاح النهائى صورة حرب استقلال بمساندة شعبية، وليس ثورة اجتماعية.

وقد كانت توليفة حق تقرير المصير القومى وتكريس مصالح الطبقة العاملة جذابة، فمع نهاية ثورة 1905م، ظهر الحزب الاشتراكى البولندى كأكبر حزب اشتراكى فى بولندا الروسية (ضم 55000 عضو بالإضافة إلى 37000 عضو من نقابات العمال الموالية). ولكن نمو هذا الحزب سبب توترات داخلية فشل فى احتوائها فى النهاية. فبالنسبة للكثيرين من المثقفين الشباب الذين تدرجوا فى مناصب الحزب خلال هذه السنوات، كان الاتجاه السياسى لدى بلسودسكى يبدو لهم مثل العودة إلى اضطرابات (1830م، 1863م) التى قادتها النخبة ووصفت بأنها مجيدة، وإن كانت غير مجدية. وكان الجناح اليسارى فى الحزب مقتنعًا بأن المدخل إلى النجاح يكمن فى تنسيق جهود الحركات الاشتراكية عبر الإمبراطورية الروسية بهدف الإطاحة بالنظام القيصرى، وليس الاستعداد لمواجهة الجيش الروسى فى ميدان المعركة على أساس الصراع العسكرى قديم الطراز.

وأدت هذه النزاعات الأيديولوجية والتكتيكية إلى انقسام فى الحركة فى أعقاب ثورة 1950م، فى روسيا، حيث شكل الحزب الاشتراكى البولندى جناحا

يساريا انضم إلى الحزب الديمقراطى الاشتراكى لمملكة بولندا وليتوانيا بعد الحرب العالمية الأولى مكونا الحزب الشيوعى البولندى. وقد تشكلت «العصبة الثورية للحزب» من خلال الحرس القديم لبلسودسكى، الذى كان ثلاثة آلاف عضو منه يمثلون «منظمة الكفاح».

ومع تراجع كفاحها المسلح إلى سلسلة من السرقات المثيرة (ومنها سرقة قطار البريد فى 1908م، والتى شارك فيها بلسودسكى شخصيًا، وكانت حصيلتها 200 ألف روبل) وجدت المنظمة نفسها تحت الضغط الشديد للسلطات الروسية التى اخترقت صفوفها وأوقعت بها واعتقلت العديد من أعضائها. ويبدو أن بلسودسكى ذاته تراجع إلى الإعجاب الذاتى المرير بالمقاومة لأجل المقاومة، وهذه محاكاة ساخرة لا تتسق مع روحه الأرستقراطية. ففى خطاب كتبه عشية غارة القطار فى 1908م، كتب ما يلى:

«إننى أحارب وأموت لمجرد أننى لا أستطيع الحياة فى هذا المستنقع، الذى آلت إليه حياتنا، إنها «مهانة» (تحتها خط فى نسخة الخطاب). فهل تسمعوننى؟ إنها مهانة لى كإنسان حر كريم، فدعوا الآخرين يعبثون بالأزهار المتفتحة، أو بالاشتراكية، أو بالبولندية، أو بأى شىء آخر فى هذا المستنقع، ولكننى لا أستطيع. وهذه ليست نزعة عاطفية ولا مماطلة، ولا طريقًا إلى تطوير اجتماعى أو أى شىء آخر، إنها الكرامة الإنسانية العادية، فأنا أرغب فى الانتصار، وبدون الحرب والحرب الشرسة من أجل ذلك، فإننى لست أكثر من دابة من دواب الحمل، يضربونها بعصا غليظة أو سوط حارق»[8].

وعندما أجبر بلسودسكى على الانسحاب من بولندا الروسية، وجد هو وبضع مئات من مقاتليه ملجأ فى جاليتشيا فى 1909م. وهنا نظرت الاستخبارات الحربية النمساوية بترحيب إلى محاولته المتجددة لتكوين وحدات متطوعين تكون مستعدة للزحف ضد الروس فى حالة وقوع حرب بين «القوى العظمى». ولكنه بينما كان يتطلع إلى مساندة (قوى المركز) ضد الروس، سخر منافسه دموفسكى من تكتيكاته التنظيمية ورؤيته الدبلوماسية باعتبارهما ناتجين عن خداع الذات العاطفى، وأصر دموفسكى على أن الديمقراطيين القوميين كانوا الحركة الوحيدة

القادرة على توحيد الشعب البولندى وقيادته إلى الحكم الذاتى من خلال مواصلة سياسة الواقعية الصلبة.

ولد رومان دموفسكى (1864م ـ 1939م) قرب مدينة وارسو لأسرة ذات خلفية حرفية تنتمى إلى أدنى الطبقة الوسطى. والتحق بالجامعة الروسية فى وارسو، وحصل على درجة متقدمة فى الأحياء فى 1892م. وخلال سنوات الجامعة، انضم إلى منظمة قومية جديدة صغيرة، ولكنه سيطر عليها سريعًا وحولها إلى العصب المركزى لحركة سياسية أوسع تعرف بـ «الديمقراطية القومية» (تعرف حسب النطق البولندى باسم إنديتسيا ـ Endecja).

وعند تطوير أيديولوجية هذه الحركة، أخذ دموفسكى عناصر من الشعوبية الروسية، والوضعية العلمية، والتكتيكات التنظيمية الاشتراكية، وخلطها فى مركب قومى جديد له توجه يمينى. ولكنه رفض المبدأ الاشتراكى للصراع الطبقى، باعتباره ضارًا بالمصلحة القومية. وكان يوبخ المحافظين البولنديين على عدم رغبتهم فى تحدى «الوضع السياسى القائم» وعلى تركيز عقلياتهم الفردية على التصنيع والتقدم المادى وإهمال التطور السياسى والثقافى للأمة. ومع ذلك كان يهاجم أيضًا تقليد المقاومة المسلحة البولندية للسلطة القيصرية، معتبرًا الاضطرابات السابقة مجرد استعراضات بلهاء للشجاعة الأرستقراطية التى جلبت الكوارث على البلاد مرة تلو الأخرى.

وكانت أهم الملامح المميزة لأيديولوجية دموفسكى تتمثل فى رفضه الصريح والمزدرى لجوانب عديدة من الشرعية التاريخية البولندية، وقبوله بحماسة معاداة السامية باعتبارها جزءًا مكملاً لبرنامجه السياسى. ومطالبته بالتفاوض والتوافق مع الحكومة الروسية بدلاً من المواجهة المباشرة، كوسيلة مضمونة للحصول على شكل ما من أشكال تقرير المصير القومى.

وكان يرى أن الماضى المجيد المفترض «للكومنولث البولندى الليتوانى» قدم درسًا موضوعيًا فى كيفية «عدم» تنظيم دولة ومجتمع، إذ إن (أهل الفكر szlachta) الذين سيطروا على بولندا الحديثة مبكرًا ساهموا، من خلال روح الفردية الفاسدة والأنانية، فى تقويض المصالح الجماعية للأمة وتحطيم الدولة. إذ إن عدم وجود حكومة مركزية قوية جعل بولندا معرضة بشدة لمكائد القوى

الأخرى، وتركها عاجزة عن الدفاع عن نفسها فى مواجهة جيرانها الذين قسموها. وأدى اعتماد (أهل الفكر) على اليهود للقيام بالدور التجارى والمالى للطبقة الوسطى إلى منع تكوين برجوازية بولندية أصيلة حتى القرن التاسع عشر. وأصر دموفسكى على الاعتقاد بأن استمرار وجود أقلية يهودية كبيرة فى بولندا يمثل عقبة أمام تحديث المجتمع البولندى.

أما بالنسبة للبعد الدولى للمشكلة البولندية، فقد كان دموفسكى يرى أن الإمكانات التوسعية والاستيعابية للدولة الألمانية الصناعية القوية تفرض خطرًا كبيرًا على الآفاق بعيدة المدى لبولندا، مقارنة بالانتهاكات العشوائية غير المتسقة للنظام القيصرى. فقد كان يأمل على المدى البعيد أن يرى بولندا دستورية تتمتع بالحكم الذاتى وتتوسع إلى الأراضى الناطقة بالبولندية فى ألمانيا، فى سياق التحالف مع روسيا. وترتب على هذه الرؤية أن دموفسكى ادعى أيضًا أنه من مصلحة البولنديين التنازل عن مطالبتهم بالمناطق الشرقية من الكومنولث الميت، وذلك لتحقيق توافق طويل الأجل مع روسيا، ولأن معظم السكان هناك كانوا غير بولنديين. أى أن ضمان درجة من التجانس العرقى النسبى للدولة البولندية المستقبلية كان أكثر أهمية فى نظره من استعادة كل شبر من الأرض يمكن أن تربط بها بولندا حقًا تاريخيًا.

وبينما كانت الدوائر القائدة بالحركة تحت سيطرة أعضاء من قادة الفكر، كان دموفسكى يتطلع إلى أن يضم كل الطبقات الاجتماعية البولندية الكبرى فى حركته. حيث ظهرت منظمات شعبية منفصلة للفلاحين، والعمال، وطلاب الجامعات. وكان مبدأ الصراع الطبقى مرفوضًا، لصالح الروح الجماعية التى تؤكد على الحاجة إلى التعاون والتوفيق بين العمال ورجال الصناعة، والفلاحين وملاك الأراضى، وذلك باسم الوحدة القومية. وكان هناك أيضًا تيار قوى يعادى إكليريكية الحركة «صبغ الحركة بمبادئ كنسية سياسية» خاصة افتتان الحركة بأيديولوجية كنسية فى رؤيتها لعالم واقعى يضع الأمة فوق كل ولاء منافس. وبمرور السنين، نجحت المنظمات الشعبية المرتبطة بالحركة فى جذب أتباع كثيرين وساعدت على حشد التأييد الانتخابى للحزب فى انتخابات المجلس التشريعى «الدوما ـ Duma» فى روسيا القيصرية، بينما استمرت قيادة الحركة

فى العمل كنخبة شبه تآمرية حاكت من أعلى الخطوط الرئيسة لأنشطة المنظمات التابعة لها.

وهكذا مثل منهج دموفسكى توليفة محيرة من النخبوية والشعوبية. ففى جوانب عديدة، كان أكثر حداثة وتقدمًا فى تكتيكاته السياسية من بلسودسكى الذى كان يفضل دوما تحقيق أهدافه (بمفاجآت) استعراضية وليس بالعمل التنظيمى الصبور، فضلا عن ترحيبه بالتآمر مع شبكة صغيرة من المخلصين الموالين بدلا من تنسيق أنشطة حركة شعبية.

وكان دموفسكى يرغب فى الاعتراف ببطولة بلسودسكى، ولكنه كان يستنكر العناصر العاطفية فى نظرته العامة، وسخر منه لاختياره الحركة الاشتراكية كوسيلة لتحقيق أهدافه القومية.

وقد اعتقد دموفسكى، مثل الكثيرين من القوميين الليبراليين، أن أهل الفكر يجب أن يقوموا بدور الطليعة التى سترفع الوعى الثقافى والسياسى للجماهير، ولكن فهمه لما يمثل التنوير السياسى كان مختلفا تماما، فقد كان يرى أن الأمر يتمثل فى إقناع البولنديين بالتخلص من الروح الفردية المفرطة، التى زرعتها فيهم النخبة الأرستقراطية القديمة، وتعلم وضع المصلحة الجماعية للأمة فوق الاهتمامات الفردية. وكان تبرير دموفسكى لهذا المنهج يمثل نقلاً بسيطًا للأفكار الحيوية إلى عالم السياسية: إذ يجب اعتبار الأمة كائنًا حيًا له هوية واحدة يتعذر اختزالها، وله غريزة حياة طبيعية (وإن كانت ساكنة أحيانًا)، ويجب ألا تتحدد قواعد سلوكها تجاه الشعوب الأخرى على أساس قواعد الأخلاق العامة، بل على أساس شريعة الغاب، ويمكن إعداد تحالفات إستراتيجية (مع روسيا مثلاً) على أساس المصالح المشتركة، ولكن العواطف والأخلاق ليس لها مكان فى تحديد العلاقات بين الشعوب. ومن هنا كان موقفه من اليهود الذين كانوا يشكلون حوالى 10% من السكان فى مناطق الكومنولث البولندى الليتوانى، وحوالى 30% من السكان فى العديد من بلدات ومدن تلك المناطق. وكان دموفسكى يعتبر اليهود ابتلاء أجنبيًا يجب طرده حتى يستطيع الكيان القومى البولندى الحياة. ويمكن استيعاب نسبة صغيرة منهم فى الأمة من خلال الاستيعاب الثقافى، ولكن يجب طرد الغالبية العظمى منهم من مواقعهم الاقتصادية والاجتماعية، ثم إزالتهم من

الوجود فى بولندا فى النهاية. أما اعتبارات حقوق الإنسان ومبادئ التسامح فهى تمثل رفاهية تستطيع القوى العظمى المستقرة مثل بريطانيا وفرنسا توفيرها. ولكن إذا كانت بولندا تريد التقدم فى مصاف الأمم الحديثة، فيجب عدم شغلها بهذه التفاصيل الجانبية.

وكان دموفسكى يرى أن هذا المنهج يمثل إحلال الأسلوب العلمى محل الحنين التاريخى للوطن (لعنة بولندا) كأساس للعمل السياسى، إلا أن نظرته العالمية هذه كانت فى جوهرها غير سليمة. إذ أن تطبيق التصورات البيولوجية على السياسة قد يضيف جمالاً إلى المناقشات النظرية، ولكن تطبيق هذه التشبيهات حرفيًا، وتشكيل السياسات بناءً عليها، يمثل خداعا للذات وليس انتصارًا للعقل. وبالتحديد فإن مفهومه للتكامل القومى واختياره للتكتيكات السياسية يؤديان إلى تغذية الانقسام وليس تشجيع الوحدة. ونظرًا لتصميمه على تحويل منظمته إلى حركة قومية شاملة، فقد انطلق فى تدمير منافسيه المحتملين ممن نازعوه الحصول على التأييد الشعبى، إذ حاولت منظمة نقابات العمال «الوطنية الديمقراطية» الرئيسة تقويض مساندة الطبقة العاملة لموجة الإضرابات التى شنها الحزب الاشتراكى البولندى فى (1905م . 1906م)، ولم تقتصر نتيجة ذلك على المواجهات العنيفة بين الأعضاء العاديين فى الاتحادات المتنافسة، بل إنه كان مصحوبًا بحملة اغتيالات منظمة شنها نشطاء دموفسكى ضد قادة الاتحادات التجارية الاشتراكية فى محاولة للقضاء على منظماتهم. فقد كان دموفسكى مستعدًا للدخول فى حرب أهلية محدودة (تكلف حوالى 1000 فرد) باسم الوحدة القومية.

وفيما يتعلق باليهود، فإنه لم يشعر بالالتزام بأقل مظاهر التسامح، إذ كانت معاداة السامية جانبًا أساسيًا وصريحًا فى البرنامج السياسى لحركته. وبداية من 1912م، طبق دموفسكى معتقداته فى الواقع بتنظيم مقاطعة اقتصادية ضد متاجر وأنشطة اليهود، وكانت الفكرة تتمثل فى أن هذا سيعمل كنوع من الحماية العرقية التى يمكن أن توفر فرصة للطبقات الوسطى البولندية لتحل محل منافسيها اليهود. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان العمل المشترك ضد «الغرباء»

يمثل طريقة للبولنديين من كل الطبقات والأقاليم للتعرف على مصالحهم المشتركة والتعبير عن روح الوحدة القومية.

وبالرغم من أن دموفسكى استمد معظم تأييده من الطبقات الوسطى الأدنى، فإن جهوده لتشكيل تحالف طبقى أوسع لم تضع كلها هباءً ، فقد انضم آلاف الفلاحين والعمال إلى المنظمات الأساسية للحركة(9)، وكان دموفسكى يحظى لدى الكثيرين من أعضاء قادة الفكر بالاحترام، كرجل لديه رؤية سياسية واضحة ومحكمة. ولكن تكتيكاته المتعلقة بالتعبئة الجماهيرية والانتهازية الدبلوماسية لم تحقق لبولندا الاستقلال الذاتى الذى كان يتمناه من روسيا، إلا أنه نجح بوضوح فى تهميش المحافظين القدامى الذين انتهى بعضهم إلى تقديم المساندة لحركته. ونجح أيضًا فى تأمين الإسهامات المالية من الصناعيين وملاك الأراضى الذين اعتمدوا عليه لاستغلال نفوذه لاحتواء الدوافع الراديكالية لدى الطبقة العاملة والفلاحين الذين استحسنوا شجاعته فى مواجهة الاشتراكيين. وأدى الانقسام داخل صفوف الحزب الاشتراكى البولندى إلى جعل «الديمقراطيين القوميين» أكبر حركة شعبية منظمة فى بولندا الروسية، بالإضافة إلى منظمات قوية فى الأجزاء النمساوية والألمانية أيضًا. ومع ذلك، منحت الحرب العالمية الأولى بلسودسكى فرصة للعودة بصورة استعراضية مفاجئة، وتشكل معظم التاريخ السياسى للجمهورية البولندية فيما بين الحربين بالصراع بين المعسكرين السياسيين التابعين لكل من بلسودسكى ودموفسكى.

التشيك والسلوفاك

كانت المرحلة المتقدمة من التنمية الصناعية والحياة الجماعية الثرية للأراضى التشيكية، مع التسامح النسبى لإمبراطورية الهابسبرج، تشجع على تكوين ثقافة سياسية أقل استقطابًا وتقلبًا مما كان فى بولندا الروسية. كان المحور الأساس للقيم الجماعية مشتركًا، بصورة أو بأخرى، بين كل الحركات الكبرى داخل المعسكر القومى التشيكى. ومع ذلك كانت القومية التشيكية، بسبب بعض الاختلافات المهمة فى الاهتمام والتوجه، هى التى تشبه الاستقطاب الأقوى فى الحركات القومية الأخرى فى أوربا الشرقية. ويمكن أن نرى هذا بوضوح فى التناقض بين الأيديولوجيات القومية لدى «تشيكيا الفتاة ـ Young Czechs»

بقيادة «كاريل كرامر ـ Karel Kramer» و «الحزب الواقعى ـ Realist Party» بقيادة توماس «توماش مساريك ـ Tomas Masaryk». ومن بين الأحزاب المختلفة التى كان اهتمامها الرئيسى والصريح ينصب على تأكيد الحقوق القومية «التشيكية» كان حزب «تشيكيا الفتاة» من أهمها وأبرزها، حيث كان يتشكل أساسًا من البرجوازية الصناعية التشيكية الجديدة التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وفى 1874م انشق «تشيكيا الفتاة» عن الحزب القومى الأساسى السابق ـ الذى أصبح يعرف منذ ذلك الوقت بحزب «تشيكيا اليافعة ـ Old Czechs» كان البرنامج السياسى لحزب «تشيكيا اليافعة» مشبعًا بقيم نخبة بوهيميا ملاك الأراضى التقليديين، وكان يكافح لتأكيد القوى التاريخية للمجلس التشريعى البوهيمى (مجلس الدييت Diet) لذى يسيطر عليه النبلاء وقادة الفكر، ويتبنى صورة سلبية لمقاومة المبادرات المرتبطة بمركزية الدولة النمساوية (مثل مقاطعة مجلس النواب النمساوى ـ Reichsrat)(10).

وقد مثلت «تشيكيا الفتاة» صورة أكثر حداثة من الأيديولوجية القومية التى أدخلت عناصر الفكر الليبرالى، ولكنها لم تصل إلى حد اعتناق العالمية الديمقراطية ذات التوجه الغربى، إذ حافظت على الالتزام بمبدأ حق الدولة التاريخى لبوهيميا كأساس لمطالبهم الاستقلالية، مع ادعاء أن مقاطعة مورافيا المتميزة تاريخيًا، والتى غالبيتها من التشيك، يجب أن تندمج فى بوهيميا فى إقليم تشيكى يتمتع بالحكم الذاتى. ولأن «تشيكيا اليافعة» كانت رافضة لفكرة مقاطعة البرلمان النمساوى، فإن أنصار هذه الحركة استغلوا ذلك البرلمان فى طرح آرائهم، ومع ذلك ظلوا متناقضين نوعًا ما تجاه آفاق الاقتراع العام، حيث خسروا انتخابيًا كحزب للطبقة الوسطى الحضرية.

ورغم أن «تشيكيا الفتاة» أنكرت رسميًا معاداتها للسامية، فإن لم تكن فوق مستوى الشبهات من حيث أشكال التحيز التى شاعت فى صحفهم وخطبهم العامة. ولأن يهود بـ ميميا يميلون إلى اللغة والثقافة الألمانية فقد وقع هؤلاء اليهود موضع شك فـ عيون «تشيكيا الفتاة». وكانت المشروعات التجارية اليهودية مصدرًا آخر للمنافسة المعاكسة للبرجوازية التشيكية التى كانت تكافح «بنجاح نوعًا ما» لتحدى السيطرة طويلة الأجل للنخبة الناطقة بالألمانية.

ومن ناحية أخرى، كان حزب «تشيكيا الفتاة» غير جاد نسبيا فى موقفه من روسيا القيصرية، إذ كان الحزب يجاهد لإقامة علاقات ثقافية وسياسية معها، على أساس الفكرة العاطفية المتمثلة فى أن التراث السلافى المشترك بين التشيك والروس يتخطى الاختلافات الثقافية والدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الهائلة بين المجتمعين. فقد حاول قائد «تشيكيا الفتاة» ـ كاريل كرامر (1860م ـ 1937م) ـ منح تعبير دقيق لفكرة الوحدة السلافية بتنظيم حركة «السلافية الجدد» خلال العقد الأخير قبل الحرب العالمية الأولى. وكان ذلك بمثابة محاولة لتشجيع التعاون الثقافى والاقتصادى بين كل الشعوب السلافية على أساس المساواة. وعقدت عدة مؤتمرات دولية تحت رعاية هذه الحركة، وانضم إليها لفترة بعض الشخصيات القومية البارزة من أوربا الشرقية، ومنهم رومان دموفسكى من الديمقراطيين القوميين البولنديين. ولكن روابط الدم والروح المشتركة التى كان يفترض أنها تربط كل السلاف أثبتت أنها غير كافية للوقوف فى وجه الأحقاد والتوترات السياسية بين البولنديين والروس، والليبراليين والرجعيين، وغيرهم(11).

وكان توماس مساريك (1850م ـ 1937م) من أهم نقاد «السلافية الجديدة ـ Neo-Slavism» و«تشيكيا الفتاة» لاتباعهما منهجا غير متوازن يمزج بين الشوفينية والليبرالية، والعاطفية والانتهازية. وبعد أن تعاون مساريك مبدئيًا مع كرامر تحت مظلة «حزب تشيكيا الفتاة»، انفصل عنه وكون حزبه الصغير ـ حزب الواقعيين ـ فى ١٩٠٠م. وبالرغم من أن «الواقعيين» لم يفوزوا بأكثر من بضعة مقاعد فى البرلمان، إلا أن هذا كان كافيا لمنح مساريك منبرًا فريدا لنشر نموذجه المتميز فى القومية الليبرالية. وقد كانت نظرة مساريك السياسية إلى التشيك تعكس اعتقاده بأن الأمم تستطيع أن تعمل كوسيط بين الأفراد والإنسانية بصفة عامة، واستنتج أن الأمة التشيكية تحديدًا لعبت دورًا تاريخيًا مهمًا فى صياغة مفاهيم القيم الإنسانية العالمية. وقد نظر مساريك إلى «جان هوس ـ Jan Hus» ـ الشهيد والمصلح الدينى التشيكى فى أوائل القرن الخامس عشر ـ على أنه شخصية محورية فى تاريخ الحضارة الغربية، حيث ساعد على إرساء أسس «التنوير الأوربى» الحديث. ورأى مساريك أن الحركة القومية التشيكية كانت فى

جوهرها إحياء روحيًا الذى كان ضاربا بجذوره فى التراث الدينى لـ «جان هوس». وحذر من النظر إلى القومية التشيكية باعتبارها غاية فى حد ذاتها؛ لأن لها دورا مكملاً تلعبه فى تقدم الإنسانية عبر التاريخ لتحقيق نظام يقوم على العقل والتسامح والمسئولية الاجتماعية. واقتنع مساريك بأن التشيك يمثلون أمة صغيرة، ولكنها كانت نقية روحيًا، فهى «شعب مختار» وأمة صاحبة رسالة أخلاقية إلى العالم. وحتى 1914م، كان مساريك يناهض فكرة الحقوق التاريخية للدولة، ويركز على مبدأ تقرير المصير العرقى الثقافى، كأهم أساس أخلاقى للمطالب السياسية للتشيك. وكانت اللغة والثقافة والتجربة التاريخية والقيم المشتركة بمثابة العناصر المكونة لمجتمع مدنى يتمتع بالحكم الذاتى. وبنفس المنطق، فإنه إذا انزلق التشيك لإغراء المغالاة فى الوطنية، وعدم التسامح، فإنه من واجب نخبها الفكرية والسياسية ألا تنساق لمثل هذه المشاعر. على نحو ما فعلت دوما «تشيكيا الفتاة». ولكن يجب تقييدها وتهذيبها. وهكذا كانت المبادئ الديمقراطية مقيدة بالنخبوية الثقافية فى التصور السياسى لدى مساريك، والذى يمكن وصفه بأنه خليط عجيب من إصلاح هوس، وفلسفة أفلاطون، واستحضار نبوة «العهد القديم»، والمنطقية العلمية. وكان المقصود بشعار «الواقعية» الذى طبقه على فلسفته السياسية إظهار أهمية تطوير خطط مستقبلية دقيقة للتقدم الاجتماعى الاقتصادى والإحياء الثقافى للشعب التشيكى[12].

وقد كان موقف مساريك من المسألة السلوفاكية يرتبط ارتباطًا وثيقًا بنخبته الديمقراطية وبفهمه للعلاقة بين الهوية العرقية الثقافية والمجتمع المدنى. إذ أصبح مفتونًا بفكرة أن التشيك والسلوفاك كانا مرتبطين ببعض ارتباطًا وثيقًا ثقافيًا ولغويًا، لدرجة أنهما يستطيعان، بل ويجب عليهما، الاندماج فى أمة تشيكوسلوفاكية واحدة. وهذا يماثل النظرة الشائعة بين أهل الفكر القومى التشيكى بأن التشيك الأكثر ازدهارًا وتصنيعًا والأنشط ثقافيًا، يمكن أن يمثلوا مصدر إلهام ومساعدة للسلوفاك الأكثر تخلفًا أثناء كفاحهم للحفاظ على هويتهم فى وجه سياسات الاستيعاب القمعية المجرية.

وقد وجه مساريك وأتباعه انتقادهم إلى الحكومة المجرية، بل وإلى المؤسسة الثقافية والفكرية السلوفاكية التى أدارت «الحزب القومى السلوفاكى». إذ كانت هذه النخبة المحافظة داعمة للوحدة السلافية ومناصرة للروس، وليست ذات توجه غربى فى تطلعها السياسى. ولم تبذل الشخصيات الأدبية التى سيطرت على هذه الدائرة مجهودًا يذكر لغرس التأييد الشعبى بين جماهير الفلاحين، بالرغم من أن بعض الروائيين أظهروا ولاءً كاذبًا لأهمية صنع وحدة مشتركة بين أهل الفكر والطبقة العليا وعامة الشعب[13]. وكان مساريك وأتباعه يرون أن النخبة الثقافية السلوفاكية العامة أصبحت مصدرًا للركود، وليس قوة للتقدم والتنوير، مع نهاية القرن.

وقد ساعد التأثير الفكرى لمساريك على سرعة بلورة نخبة سلوفاكية بديلة ، صغيرة لكنها نشطة. وكونت محاضراته فى السياسة والثقافة فى جامعة «تشارلز فرديناند» أتباعًا مخلصين يضمون طلابًا من قوميات سلافية من إمبراطورية الهابسبرج تشمل السلوفينيين والكروات والصرب، بالإضافة إلى السلوفاك. وبالنسبة للأعضاء الأصغر سنًا فى أهل الفكر السلوفاك، قدمت المؤسسات الثقافية والتعليمية فى براغ أكثر الوسائل المتاحة للهرب من الاستيعاب اللغوى المجرى. واعتنق عدد منهم «واقعية» مساريك كنموذج حركى لإنعاش أمتهم السلوفاكية. وأدت الاستجابة الحماسية لهؤلاء الهلاسيين[14] ـ Hlasists . كما كانوا يعرفون ـ إلى دفع مساريك للاقتناع بأن التشيك يتحملون مسئولية خاصة «نحو» إخوانهم السلوفاك.

ويمكن أن يكون مفهوم مساريك للعلاقة بين التشيك والسلوفاك تعميمًا مستمدًا من تجربته الشخصية، فهناك خيط مشترك عبر ذكريات طفولته يتمثل فى طبيعته القلقة لإحساسه المبكر بالهوية. فقد نشأ فى منطقة حدودية ريفية فى مورافيا، ويعود أصله إلى خليط من السلوفاك والتشيك الألمان، وبالتالى فإن وعيه القومى السياسى والفكرى كسلوفاكى تطور عن هوية عرقية لغوية غير واضحة المعالم. وكان لهذا أثره فى تحديد ذاته بصورة متبلورة فكريًا كتشيكى (وهذا تفسير مثير لمعنى أن يكون المرء تشيكيًا). وعندما ننظر إلى حياته المبكرة، يسهل أن نرى كيف أنه يمكن أن نستنتج أن السلوفاك بصفة عامة كانوا ببساطة

الفرع الأقل حظًا وتعليمًا من الأسرة القومية التشيكوسلوفاكية، وأن نشر الثقافة التشيكية يمكن أن يساعد على رفع السلوفاك إلى مستوى أعلى من الوعى الأخلاقى والفكرى والقومى. وكذلك فإن دعم الرسالة الحضارية للتشيك تجاه السلوفاك يمكن أن يكون طريقًا لتأكيد إيمانه بأن القومية يجب أن تكون أكثر من مجرد عبادة جماعية للذات. فبدلاً من التخبط فى احتفاء لا نهائى بعرقيتهم الخاصة، يستطيع التشيك التركيز على تحمل مسئوليتهم تجاه إخوانهم «المتخلفين».

ويتضح من السرد السابق أن نمط قومية مساريك لا يمكن وصفه حسب الفئات بين مدنى وعرقى، حيث تتمثل صفته الأساسية فى محاولته تكوين مركب من العنصرين، ويصر على أن الليبرالية المستنيرة تمثل العنصر المحدد للثقافة القومية التشيكية. وهكذا نجد أن القيم السياسية والثقافية للتشيك وضعتهم بلا جدال فى معسكر الأمم الديمقراطية الغربية، حتى إذا كانت لغتهم وأصولهم «العرقية» تربطهم بالروس المستبدين. ولكن هذا لا يعنى أنه كان يرى أن العرقية غير مناسبة للهوية التشيكية، بل رأى أن الأقلية الألمانية فى بوهيميا لا يمكن استيعابها فى الأمة التشيكية. ولم يفكر أبدًا فى كيفية توفيق هذه الحقيقة مع القيم المدنية، وكان يشعر بالراحة أكثر مع اليهود الذين يؤكدون صراحة على إحساسهم المميز بالهوية القومية، مقارنة بمن يحاولون الاندماج فى الثقافة التشيكية. وأخيرًا، فإنه فى حالة العلاقات التشيكية مع السلوفاك، كانت القرابة العرقية اللغوية تمثل اعتبارًا هامًا لديه، فهى وسيط اتصال مباشر يسمح لأهل الفكر التشيك من نقل القيم التقدمية الغربية إلى الجماهير السلوفاكية غير المستنيرة[15]. واختصارًا، فقد كان مساريك يكافح ذلك التوتر المزمن بين حبه لأمته فى حد ذاتها، والتزامه بالمثل الإنسانية الأوسع، وكان صراعه مع هذه المشكلة تحديدًا هو الذى ميزه عن الأعضاء المؤسسين لـ «تشيكيا الفتاة»، والذين كانوا أشد ميلاً لتقديس القومية واعتبارها القيمة التى تعلو فوق كل اعتبار.

حلم الوحدة اليوغسلافية

نظرًا لإقامة مساريك لعلاقة وثيقة مع أعضاء النخب السياسية والفكرية لسلافى الجنوبى، لم يكن مصادفة أن تظهر أوجه تشابه بين الثقافات السياسية

للحركات القومية التشيكوسلوفاكية واليوغسلافية، فكما كان مساريك يرى أن توحيد التشيك والسلوفاك سيحقق دورًا تاريخيًا تقدميًا لكل منها، كذلك كان بعض المفكرين الكروات يعتبرون التعاون مع الأقلية الصربية العرقية فى كرواتيا طريقًا لربط الكيانات العرقية بتطوير الوعى المدنى الأوسع(16).

وكانت العقود السابقة على الحرب العالمية الأولى فترة تكوين أيديولوجى مكثف وإعادة تنظيم سياسى هائل فى أراضى السلاف الجنوبية، إذ إن السياسات القمعية للمجيّرة (فرض الطابع المجرى) التى مارسها «خوين هدرفارى Khuen-Hedervay ـ» خلال فترة حكمه التى استمرت عشرين سنة كحاكم لكرواتيا (1883م ـ 1903م) أدت إلى انقسام داخل «حزب الحق» عقب موت مؤسسه «ستاركفيتش ـ Starcevic» فى 1896م. وكان أحد قسميه بقيادة «يوسيب فرانك ـ Josip Frank» (1844م ـ 1911م) ذلك اليهودى المتحول المؤيد للمبدأ الكاثوليكى المحافظ عن حق الدولة التاريخى (State-Right). وقد تميز حزب فرانك «حزب الحق الخالص ـ Pure Right» (الذى يشار إلى اعضائه عادة بالفرانكيين Frankists) بتبنى موقف غير متسامح وعدوانى تجاه الأقلية الصربية فى كرواتيا، التى غازلتها الحكومة المجرية طمعا فى عزل المعارضة الكرواتية، التى كان ارتباطها بمملكة صربيا المجاورة أقوى من ولائها لدولة كرواتيا. وكانت الهجمات الكلامية المنشورة ضد الصرب ـ الذين كانوا يصورون على أنهم طابور خامس داخل الأمة الكرواتية ـ تستخدم بصورة غوغائية لحشد التأييد الشخصى «لحزب الحق الخالص». وفى نفس الوقت، تخلى فرانك عن موقف ستاركفيتش الذى يبدو غير واقعى ومناهض لهابسبرج ومناصر للاستقلال، محاولاً بدلاً من ذلك حشد التأييد فى فيينا لفكرة تحول «المملكة المزدوجة» إلى نظام «ثلاثى» يمكن أن تتمتع فيه كرواتيا ذات الحكم الذاتى بنفس المكانة مثل النمسا والمجر.

أما الطرف المنافس الذى سمى نفسه «حزب الحق الكرواتى»، فقد سعى جاهدًا للتعاون السياسى مع الأحزاب ذات الأصل العرقى، على أمل أن وجود جبهة سلافية جنوبية موحدة سيكون أكثر فعالية فى الحصول على امتيازات إما من بودابست أو فيينا. وجاءت إعادة التوجه السياسى هذه فى سياق تحول فكرى لدى جزء من أهل الفكر الكروات بعيدًا عن مبدأ حق الدولة.

ولعبت تعاليم وكتابات توماس مزاريك دورًا بارزًا فى تشكيل بعض الأيديولوجيات البديلة التى انتشرت بين أهل الفكر الكروات خلال تلك السنوات. وكان مؤسس «الحزب الشعبى للفلاحين الكروات . People Peasant Party»، «ستيبان راديتش . Sthepan Radic» مفكرًا شابًا ولد لأسرة ريفية وانتقل للدراسة تحت رعايةٍ مساريك فى براغ. وكان راديتش يحاول تطبيق مبادئ مساريك (الواقعية) على الظرف الاجتماعى السياسى الكرواتى، واعتبر مبدأ حق الدولة أمرًا قديمًا، وأنه فكرة نخبوية فشلت فى تلبية الحاجات المادية الملحة وعلاج الحرمان الروحى لجماهير الفلاحين. وكان يرى أن تقرير المصير الشعبى، وليس السوابق التاريخية للعصور الوسطى، هو الذى يمثل الأساس الشرعى الوحيد للمطالبة بالحكم الذاتى. ولكن حتى قبل أن يبدأ أى حديث جدى عن صياغة أجندة قومية ديموقراطية، يجب تلبية حاجات الفلاحين الاقتصادية والاجتماعية الأكثر إلحاحًا. أما الخضوع التقليدى لملاك الأراضى ورجال الدين فيجب أن يفسح الطريق لإحساس جديد بالاعتماد سياسيًا على النفس متزامنا مع الاتجاه للفعل الجماعى. ومن واجب المثقفين إلزام أنفسهم بغرس هذه الصفات بين الشعب الريفى الكرواتى، حيث يّولد الكفاح من أجل الحقوق الاقتصادية وعيًا سياسيًا، يؤدى فى النهاية إلى تكوين تعبير شعبى حقيقى عن الهوية القومية الكرواتية[17].

وترددت أصداء إرساء مساريك للقومية على أسس ديمقراطية، وليس على دعاوى تاريخية، بقوة كبيرة بين مفكرى دالماشيا الحضريين، وكان هناك جانب عملى تكتيكى لهذا التوجه: فهذا الإقليم الساحلى الذى يغلب الكروات على سكانه، لم يكن لعدة قرون مرتبطا تشريعيًا بالدولة القديمة كرواتياتم سلافونيا، وكانت فيينا ، وليست بودابست، هى التى تحكم هذا الإقليم مباشرة.

ولذلك كان مبدأ تقرير المصير القومى . وليس مبدأ حق الدولة . هو الأكثر انطباقًا على دالماشيا كأساس لتغيير وضع الإقليم وتوحيده مع كرواتيا . سلافوينيا . وكان هناك أيضًا نزوع ثقافى نحو القومية الليبرالية، إذ كان للمراكز الحضرية الواقعة على ساحل دالماشيا تقليد يمتد لقرون من الفخر المدنى، وكانت «دوبروفنيك . Dubrovinik» مركزًا تجاريًا حيويًا من القرن الخامس عشر إلى

القرن السابع عشر، وحافظت على وضعها كدولة مدنية مستقلة (تحت السيادة العثمانية عمليًا) حتى 1806م، وأثرت شرعية دوبروفنيك كجمهورية حرة، بالإضافة إلى التأثير الثقافى للأقلية الإيطالية المحلية، على نظرة النخب الحضرية الكرواتية فيها، وشجعت على تقبلهم الليبرالية الغربية. فكانوا يعتبرون أنفسهم قاعدة أمامية للتنوير فى البلقان، وأرستقراطية طبيعية لها دور خاص تلعبه فى تشجيع التقدم الاقتصادى والثقافى والسياسى فى الإقليم.

وكان المهنيون والمفكرون الحضريون فى دالماشيا ينظرون إلى اليوغسلافية كنموذج سياسى وثقافى يمكن أن يساعد الكروات الكاثوليك والصرب الأرثوذكس معًا على تجاوز التفتيت الإدارى للإقليم والعمل على تحقيق الهدف المشترك للديمقراطية والتحديث. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه فى ظل التداخل بين المجتمعات الصربية والكرواتية فى أنحاء الأراضى السلافية الجنوبية التى تحكمها الهابسبرج، ستكتسب المطالبة بحكم ذاتى شعبى المصداقية والتأييد إذا طرحت كمشروع كرواتى صربى مشترك.

وفيما بين الصرب فى كرواتيا، ظهر جيل جديد من القادة. تأثر بعضهم أيضًا بتعاليم مساريك. ممن انبهروا بالمظاهرات الشعبية فى المدن الكرواتية، والتى أدت إلى خلع خوين هيدرفارى فى 1903م، وبدأوا يتساءلون عن حكمة اتباع مجتمعهم للإستراتيجية التقليدية لمقاطعة المجلس التشريعى الكرواتى، ومغازلة بودابست مقابل الرعاية والحماية المجرية للهوية الدينية والثقافية الصربية داخل كرواتيا. ومن ثم فإن النشاط الجماهيرى وتكوين تحالف شعبى يتخطى الانقسام الصربى الكرواتى يمكن أن يكون وسيلة فعالة لجذب انتباه، وربما تعاون، بودابست، وتحقيق حكم ذاتى أكبر لكرواتيا التى تحظى فيها الحقوق الجماعية الصربية باحترام المجتمع الكرواتى الديمقراطى. وفى تلك الأثناء، حدث فى مملكة صربيا انقلاب دموى فى 1903م، أطاح بأسرة «أوبرينوفيتش - Obrenovic» وجاء «بكارادوردفيتش - Karadjordjevic»، ووصلت إلى السلطة فى بلجراد حكومة تحررية وحدوية عنيفة مناهضة للنمسا. وتطلع النظام الجديد بشراهة إلى البوسنة والهرسك التى تديرها الهابسبرج، وشجعت هذه الحكومة التعاون الكرواتى الصربى ضد المملكة.

وبناء على هذه الخلفية، وعلى مبادرة مفكرين حضريين من دالماشيا ـ مثل «أنتى ترومبيتش ـ Trumbic» (1864م ـ 1938م) و «فرانو سوبيلو ـ Frano Supilo» (1870 ـ 1917م) ـ تكون التحالف الكرواتى الصربى (HSK) فى 1905م، وذلك فى صورة كتلة شملت مبدئيًا كل الأحزاب الرئيسة ذات الأصل العرقى الصربى، ومعظم التجمعات الكرواتية المعتدلة، ولكن الفرانكيين و«الحزب الشعبى للفلاحين الكروات» بقيادة راديتش ظلا خارج التحالف. ومن خلال اتجاهه الديمقراطى الجديد، انتقل هذا التحالف إلى مقدمة الحياة السياسية فى كل من كرواتيا ودالماشيا. وفى الحقيقة، كان هذا الجهد التعاونى بين قادة الكروات والصرب يميز التجربة الأولى فى التعاون السياسى المنظم بين الكروات عبر حدود دالماشيا ـ كرواتيا. وكان يبدو أن تطور الوعى القومى الكرواتى وتمتين الروابط الصربية الكرواتية يسيران جنبًا إلى جنب.

وعلى مشارف الحرب العالمية الأولى، ظل موقف النخب الفكرية والسياسية الكرواتية تجاه الصرب متناقضًا للغاية. فمن ناحية، اعتبر الكروات أنفسهم أكثر تقدمًا وتعليمًا، ومتقدمين اقتصاديًا، ومن ثم أكثر أوربية من الصرب. ومن المؤكد أن القادة الكروات فى التحالف الكرواتى الصربى لم يشجعوا على دمج الأمتين الكرواتية والصربية، ولكنهم كانوا يشجعون فقط تعاونا وثيقا فى إطار أقاليم الهابسبرج. ومن ناحية أخرى، كان هناك افتتان واسع المدى بالتقليد الصربى للاستقلال المسلح وتاريخ المقاومة المسلحة الصربية ضد الأتراك. وفى الواقع، كان العديد من حركات الشباب (ومنها حركة الشباب الفرانكيين ـ كرواتيا الفتاة)، التى انتشرت فى أنحاء الأراضى التى يقطنها الكروات خلال السنوات الأخيرة قبل الحرب العالمية الأولى، يميل إلى اعتبار الصرب أصل السلاف الجنوبيين الحقيقيين، ورجال الفضائل الفطرية وقوة الإرادة التى لا تلين، والذين لم تلوثهم القيم العقيمة والأفكار السطحية فى ثقافة أوربا الوسطى.

وخلال السنوات السابقة لاندلاع الحرب العالمية الأولى زاد إحباط النخب الكرواتية بسبب ضم الإمبراطورية النمساوية المجرية فى 1908م، للبوسنة والهرسك (التى لم تكن أقاليمها التى يسكنها الكروات مندمجة إداريًا مع الأقاليم الكرواتية الأخرى) والجهود الخرقاء لقمع القومية السلافية الجنوبية. ومع ذلك

ظلت آفاق التعاون السياسى بين الكروات والصرب داخل إمبراطورية الهابسبرج بعيدة المدى، فى الوقت الذى ظل فيه التعاون بين كروات الهابسبرج ومملكة صربيا تحيطه غيوم الشك والريبة[18].

العرض المفصل للأحداث

بحلول 1914م كان قد حدث تشعب أيديولوجى بدرجات متفاوتة داخل المعسكرات القومية فى كل مجتمعات شرق أوربا الوسطى. فعلى أحد طرفى النقيض، كان هناك الذين تبنوا التصور الغربى التقدمى للديمقراطية الاجتماعية أو الليبرالية، على أنه الإطار السليم الوحيد للتعبير عن الهوية القومية. ومن الواضح أن «الواقعيين» أتباع مزاريك، والهلاسيين السلوفاكيين، ومؤسسو التحالف الكرواتى الصربى فى كرواتيا، كانوا ينتمون إلى هذه المجموعة. وكانت كل هذه الأحزاب تركز على المبدأ الديمقراطى لتقرير المصير الشعبى، وليس المنهج النخبوى القديم والمحافظ اجتماعيًا لحق الدولة التاريخى، كأساس للمطالبة بالاستقلال الذاتى القومى فى إطار مملكة الهابسبرج الإصلاحية. ولكن يصعب تصنيف بلسودسكى نوعًا ما، وذلك بسبب نمطه فى الانتهازية الأيديولوجية، وخياله المتعلق بالدولة البولندية الميتة، وشرعيتها القائمة على قومية الطبقة الحاكمة. ولكن تقليد الدولة هذا تحديدًا أصبح يرتبط على نطاق واسع (صوابا أو خطأ) بالتقدم نحو نظام دستورى متسامح ثقافيًا وليبراليا سياسيًا . وهو التقدم الذى توقف بسبب تقطيع أوصال الدولة فى أواخر القرن الثامن عشر.

وفى جميع هذه الحالات، كان هناك تركيز قوى على التعاون أو التكامل أو الاتحاد الفيدرالى بين الأعراق، كمدخل للنجاح السياسى وتطور الثقافة السياسية الديمقراطية التقدمية. ومن الواضح أن هذه الأفكار كانت متأثرة بالتجربة السياسية للإمبراطوريات متعددة القوميات، حيث كانت السلطات المركزية تعتمد كثيرًا على أساليب «فرق تسد» للحفاظ على الوضع القائم. وكان تكوين علاقات التعاون بين القوميات يمثل طريقًا واضحًا لتحدى تلك الأساليب، وكان لا بد أن يعتمد هذا التعاون على عناصر التشابه اللغوى والتجربة التاريخية المشتركة، التى يفترض أنها تجعل من التشيك والسلوفاك، والصرب والكروات،

والبولنديين والأوكرانيين أو البيلاروس، شركاء طبيعيين. وفى نفس الوقت كانت شراكات بناء الأمم بين الأعراق تعتبر بمثابة مشروعات تحولية، ستتخطى حدود الوعى الشعبى المستوعب ذاتيًا، وتساعد على الربط بين القومية والتحديث والتحرير الاجتماعى السياسى.

وتراوحت حركات يمين الوسط، التى عارضت هذه الأفكار، فى طبيعتها وتوجهها السياسى، من الشعوبية العرقية المتاجرة بالكراهية لدى الديمقراطيين القوميين فى بولندا والفرانكيين الكروات، إلى الخليط غير المتوازن لتشيكيا الفتاة من الليبرالية البرجوازية والرومانسية المناصرة للروس، إلى النخبوية المناصرة للسلافية لدى المؤسسة الفكرية السلوفاكية. وكما هى الحال لدى نظرائها الأكثر ليبرالية، ركز الكثير من هذه الحركات على أهمية تطوير تعاون عرقى بين الشعوب السلافية، غير أن هذه الحركات كانت أكثر اعتمادا على الإحساس بالقرابة الأصلية والأصل الروحى السلافى المشترك، وليس على غرس برامج سياسية دقيقة تعتمد على أهداف تقدمية ذات صياغة واضحة، فلدى هذه الحركات الهوية العرقية والتراث السلافى والمنتظر منها أن تشكل القيم السياسية، وليس العكس.

الشعوبية والاشتراكية والقومية فى الإمبراطورية الروسية

كانت روسيا-فى نظر الأيديولوجيات القومية فى شرق أوربا الوسطى مصدرا لكل سلوك الفضائل والنقائض، والأدوار التاريخية العالمية والخصائص الرجعية، وكانت هذه النظرة مرتبطة بالمشروعات القومية لمناهج الحركات وتطلعاتها المتناقضة فيما بينها، بل وبعدم تأكد روسيا من تحديد هويتها. فالإمبراطورية الروسية كانت مجتمعًا فى حالة تقلب، ولم تكن هناك قومية داخلها ، ولم يكن الروس أنفسهم، بمنأى عن أزمة تعيين مكونات جوهر القومية.

وبالرغم من التعقيد الشديد للحياة السياسية الروسية خلال العقد السابق للحرب العالمية الأولى، يمكن أن نرى الفرق المبدئى بين الأشكال الليبرالية والتكاملية للقومية التى اتضحت فى الأمثلة السابقة هنا أيضًا.

فعلى أقصى يمين الطيف السياسى، كانت أحزاب - مثل «اتحاد الشعب الروسى» وهى أحزاب مهدت لظهور للفاشية - تعرض نفسها كمدافعة عن المبادئ

الثلاثية لـ «الأرثوذكسية، والأتوقراطية، والقومية». وهذا شعار رجعى كان أول من دعا إليه وزير تعليم القيصر نيقولاى الأول فى 1833م[19]، وكانت هذه الأحزاب ترفض الدستورية البرلمانية باعتبارها دخيلا وافدا من الغرب على روح الأمة الروسية، إذ كان تقليد مناصرة السلاف فى القرن التاسع عشر يقوم على التمسك بصورة رومانسية للقيصر والكنيسة الأرثوذكسية الروسية باعتبارهما المصدرين الشرعيين الوحيدين للسلطة السياسية والروحية فى روسيا. أما فيما يتعلق بالأقليات العرقية، فإما أنهم كانوا من الروس الذين يجب إعادتهم إلى الحظيرة القومية الدينية من خلال التخلص من الكنائس غير الأرثوذكسية وعن طريق الاستيعاب اللغوى (وقد انطبق هذا على البيلاروس والأوكرانيين) أو أنهم كانوا يمثلون كيانات غريبة فى الجسد الروسى، من الأفضل تجاهلهم أو تهميشهم أو قمعهم، بناءً على موقفهم الجماعى تجاه الدولة الروسية ومصالح الشعب الروسى[20].

وعلى يسار الوسط، كان الحزب الديمقراطى الدستورى «كاديتس ـ Kadets» يأمل أن تكون ثورة 1905م، بداية عملية تؤدى إلى ظهور مجتمع مدنى تقدمى يقوم على الديمقراطية البرلمانية والسيادة الشعبية. ففى دولة متعددة الأعراق مثل روسيا، يعتبر من الضرورى أيضًا أن تشارك الأقليات العرقية بفعالية فى عملية التنمية المدنية. وكان هذا يعنى إلغاء التشريعات التمييزية والقمعية ضد بعض المجموعات مثل اليهود، وكان يجب أن يتضمن أيضًا منح الاستقلال الذاتى الثقافى، والحكم الذاتى الإقليمى فى بعض الحالات (خاصة بولندا وفنلندا) للقوميات غير الروسية. إذ أن ذلك كان سيخفف التوترات العرقية ويشجع كل مجموعة على النظر إلى روسيا كبيئة سياسية آمنة، يمكن داخلها الحفاظ على الكرامة الجماعية من خلال غرس هويتها والتعبير العلنى عنها بلا معوقات، وذلك أيضًا مع المشاركة على قدم المساواة فى حياة المجتمع ككل. وكان هذا البرنامج يتضمن افتراض أن اللغة الروسية ستظل اللغة السائدة للثقافة العليا، وأن سياسة التسامح تجاه الأقليات ستحفز عملية طبيعية من التكامل الاجتماعى والاستيعاب الثقافى تماثل العملية التى أفضت إلى ظهور الدول القومية الحديثة فى أوربا الغربية[21].

وكان هذا النهج المتفائل . ما لم يتم التفكير فيه بحرص . تجاه مسألة القومية متفقا مع نهج أكبر حركة شعبية يسارية فى روسيا، وهى الحزب الثورى الاشتراكى (SRs). وبينما كانت رؤية هذا الحزب للإصلاح الاجتماعى الراديكالى تعتمد على تصور رومانسى للظاهرة العرقية الثقافية الروسية . الكوميون (Commune) القروى . إلا أن الحزب كان مقتنعا بأن السعى المشترك نحو العدالة الاجتماعية سيخلق رابطًا وثيقًا بين كل شعوب روسيا بمجرد الإطاحة بالنظام الروسى القمعى. بل إن ذلك الحزب تخطى حزب (كاديتس) باعتناق مبدأ الاستقلال الذاتى السياسى بالإضافة إلى الاستقلال الذاتى الثقافى لكل المجموعات العرقية الكبرى، وليس البولنديون والفنلنديون فقط. فقد كانت الفكرة هنا أن منح الحكم الذاتى للشعوب غير الروسية سينهى إحساسها بالإذلال ويخفف التوترات العرقية، ويزيد قوة العلاقات المدنية التى تتجاوز العرقية.

وكان «حزب العمال الديمقراطى الاجتماعى الروسى» (RSDWP)، والذى يعرف أيضًا بالديمقراطيين الاجتماعيين، أو (SPS) الذى انقسم إلى جناحى المناشفة والبلاشفة، يتبنى فهمًا دوليًا ماركسيًا أكثر صرامة بشأن قضية الصراع الطبقى. ومن هذا المنظور، كانت القومية مجرد خدعة تسحب الطبقات العاملة عن مصالحها الثورية المشتركة. ومن خلال إدانة سياسات «الروسنة» كان الديمقراطيون الاجتماعيون واثقين من أنه فى المجتمع الاشتراكى ستختفى فى المستقبل الاختلافات القومية فى الوعى البروليتارى المشترك. ومع ذلك، فإنه نظرًا لأن العنصر الشوفينى فى السياسة القيصرية كان يؤدى إلى اغتراب القوميات غير الروسية، كان لمغازلة مبدأ تقرير المصير القومى إمكانات ثورية قصيرة الأجل. وكان البلاشفة يحاولون استغلال هذه الحقيقة لتحقيق أغراضهم الخاصة، مما كان له آثار بعيدة المدى (ولو غير مقصودة) على تطور السياسات العرقية فى الإقليم، وسنعود لهذه القصة فى فصول لاحقة.

لقد كانت الشعوب غير الروسية فى الإمبراطورية كثيرة جدًا ومتباينة لدرجة أن هذه المراجعة العامة لا تتناول سوى مجموعة من الحالات التى توضح المدى الأيديولوجى للحركات القومية فيما بينها. (تناول الجزء السابق من هذا الفصل

حالة بولندا التى تعتبر مناسبة تمامًا للمقارنة والمقابلة مع التشيك والسلاف الجنوبيين طوال الفترة التى يغطيها هذا الكتاب).

وقد تطورت الأنماط السائدة للفكر والعمل السياسى بين مفكرى الأقليات الواعية سياسيًا بطرق تعكس التطور بين الطبقات الروسية العليا المعارضة، وكانت الشعوبية اليسارية الروسية (نارودنيتشستفا ـ Narodnichestvo) نموذجًا مؤثرًا. وقام الشعوبيون الروس (ناردونيكى ـ NAROSIKI) فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بمقاومة النظام القيصرى باسم القروية الفلاحية التى صوروها على أنها مستودع الأصالة الثقافية، وجعلوها نموذجًا يرث التقليد الأصيل للحياة المجتمعية والعدالة الاجتماعية. وكانت الشعوبية الروسية نموذجًا أيديولوجيًا جذابًا وطيعًا للغاية للناشطين من أية قومية، ممن يحاولون ربط مثل التقدم الاجتماعى والسياسى بالإحساس بالتميز والأصالة الثقافية الضاربة فى تراثهم، والذين كانوا يحاولون أن يوصلوا المفاهيم العامة للهوية القومية والديمقراطية السياسية لجماهير الفلاحين المتدينة والمحافظة اجتماعيًا.

وبالرغم من إحياء التقاليد الشعبية المتميزة وغرس الهويات العرقية المستقلة، كانت الأجنحة الشعوبية اليسارية من القومية تتبنى أيضًا فكرة تشجيع التعاون السياسى بين الشعوب المختلفة للإمبراطورية. فقد كانت تشترك فى عدائها المشترك لكل من بنية الدولة والهرمية الاجتماعية، وهما المسببان الرئيسان لجرائم اضطهاد واغتراب الجماهير. فإذا تمت إعادة تشكيل النظام الاجتماعى السياسى بما يعكس الروح الحقيقية للجماهير، سيسود التجانس طبيعيًا بين القوميات المختلفة. وكانت فكرة قيام اتحاد شعوبى يحل محل المؤسسات الاستبدادية للإمبراطورية بالغة الجاذبية لغير الروس الذين تعلموا فى الجامعات الروسية، وتعرضوا للأفكار الثورية[22]. وكان العديد من مشروعاتهم القومية يعكس بحثا دؤوبا عن سبيل لتوفيق وتركيب عالميتهم الفكرية واستيعاب الثقافة الروسية مع غرسهم للتميز العرقى الثقافى.

وهكذا فإن القوميين الأوكرانيين كانوا يعتبرون الدولة الروسية، وليس الشعب الروسى، بمثابة البطل الساذج (منذ القرن السابع عشر) فى قصص البطولات التاريخية لأمتهم. وكانت هناك جمعية انشغلت بالإحياء الثقافى للشعب الأوكرانى

أطلقت على نفسها اسم «جمعية القديسين كيريل وميثوديوس . Cyril and Methodius». واستلهمت عن قصد شرعية هذين المنصرّين اللذين جاءا بالمسيحية إلى كل الشعوب السلافية الأرثوذكسية، بدلاً من اختيار اسم شخصية تاريخية أوكرانية معينة[23]. وفى السنوات الأخيرة، قدم اللاجئ الناشط «ميخائيلو دراهومانيف . Mykhilo Hrushevsky» (1814م . 1895م) برنامجًا دستوريًا لتحقيق الاستقلال الذاتى السياسى والثقافى للأوكرانيين فى إطار الاتحاد الديمقراطى للشعوب السلافية[24].

وكان «ميخائيلو هروشفسكى . Mykhailo Hrushevsky» (1866م . 1934م) أبرز من صاغ الرؤية الليبرالية التقدمية للقومية الأوكرانية، وهو باحث وخبير فى الشئون العامة حافظ على صلاته مع رفاقه فى الإمبراطورية الروسية من ملجئه كشاغل للكرسى الأول فى التاريخ الأوكرانى فى جامعة «لفوف . Lwow» فى جاليتشيا (والذى قاد الجمهورية الأوكرانية قصيرة العمر فى 1917م . 1918م)، واعتنق هروشفسكى التقليد الاتحادى الشعوبى، بينما كان يحذر من ضعف زملائه القوميين أمام برامج الوحدة اليوغسلافية القائمة على الشوفينية العرقية، أو الرومانسية الساذجة، بدلاً من المبادئ الديمقراطية والمصلحة الذاتية المستنيرة[25]. وكان يعارض «السلافية الجديدة» بشدة، إذ كان يخشى من أن هذا الشكل الجديد القائم على الليبرالية والمساواة المزعومة للوحدة اليوغسلافية سيعود بالضرر على السياسة الرجعية الروسية، ويشكل أساسًا للتعاون البولندى الروسى على حساب الأوكرانيين (ولا يبدو أن المشاركة المبدئية لرومان دموفسكى فى الحركة كانت بشير خير لمصداقيتها الليبرالية). وكان هروشفسكى مثل مساريك يرفض التقديس المطلق للقرابة العرقية، وينادى بدلاً منها بالتحالفات بناءً على المصالح والقيم المشتركة. وبالتحديد، فإنه كان ينادى بالتبادل الثقافى الأوكرانى والتعاون الثقافى مع البيلاروس والليتوانيين، وهى الأمم الزراعية ذات الخلفية الريفية التى تجمعها بالأوكرانيين فى تجربة مشتركة من تعرضها للاستغلال الاقتصادى، والقهر السياسى، والامتصاص الثقافى الإجبارى على أيدى النخب البولندية والروسية[26].

وقد تمسك أكثر التيارات الأيديولوجية المؤثرة بين النشطاء السياسيين الأرمن بالشعوبية كإطار لصياغة التطلعات القومية. وكان الاتحاد الثورى الأرمينى «والمعروف باسم الطاشناك ـ Dashnaks» مفتونًا بشدة بأخلاقيات التضحية بالذات والأساليب العنيفة المتهورة للجيل الثانى من الشعوبيين الروس، من أولئك المنظرين الإرهابيين فى منظمة (إرادة الشعب). ولم يوجه الطاشناك الذى تأسس فى 1890م أنشطته شبه العسكرية نحو الدولة القيصرية فى البداية، إذ كانت الإمبراطورية العثمانية، حيث يعيش معظم الأرمن، تمثل هدفهم الأول، واتخذ الطاشناك أرمينيا الروسية قاعدة لشن حملة اغتيالات ضد المسئولين العثمانيين، وعمليات العصابات الإرهابية الاستعراضية المصممة لشد انتباه القوى الأوربية لمأساة الشعب الأرمينى. وكان الهدف المعلن للاتحاد يتمثل فى الإصلاح الإدارى والاستقلال الذاتى للإمارات الست فى شمال شرق الأناضول (كما كانت المطالب فى مؤتمر برلين 1878م)، ولكن عندما هددت السلطات الروسية الحياة الثقافية المستقلة للأرمن فى 1903م، بغرض السيطرة على ممتلكات الكنيسة الأرمينية والمؤسسات التعليمية (كجزء من المجهود العام لفرض الطابع الروسى وزيادة مركزية السيطرة على المناطق الحدودية للإمبراطورية) بدأ الطاشناك يصب غضبه على المسئولين فى القيصرية الروسية، واغتال عدة مئات منهم فى السنتين التاليتين. وكان الأثر النهائى للسياسة الروسية الخرقاء يتمثل فى خروج آلاف من المتظاهرين الأرمن إلى شوارع مدن القوقاز الجنوبى، وتمكين أعضاء الطاشناك من وضع أنفسهم على رأس حركة شعبية[27]. وأدى اندلاع الصدامات العنيفة بين الأرمن والمسلمين الأتراك (الأذربيجان) فى باكو خلال ثورة 1905، إلى زيادة حشد التأييد الشعبى لهذا الاتحاد الثورى (الطاشناك). وفى نفس الوقت، تحرك الحزب نحو إدخال المبادئ الاشتراكية رسميًا (1907م) فى منبره، وحصل على السماح بالمشاركة فى المؤتمر «الاشتراكى الدولى الثانى»، إذ كان يأمل فى استغلاله كمنبر دولى لعرض مظالمه القومية[28].

ومع اندماج الحركات الفكرية الروسية فى الأحزاب السياسية الحديثة قرب نهاية القرن، ظهر الثوريون الاشتراكيون (SRs) ـ ورثة التقاليد الشعوبية والإرهابية ـ كأشد أنصار الاستقلال الذاتى السياسى لقوميات الإمبراطورية.

وبالإضافة إلى الجاذبية الكامنة فى الأيديولوجية الشعوبية، أدى هذا إلى كسب الثوريين الاشتراكيين تأييد العديد من الأحزاب بين الأقليات العرقية (مثل الطاشناك). وكذلك انتشرت أحزاب جديدة ترتبط رسميًا بالثوريين الاشتراكيين بين جماعات مثل اليهود (حزب العمال الاشتراكى اليهودىSERP) والأوكرانيين (لم يتأسس الحزب الثورى الاشتراكى الأوكرانى حتى 1917م، ولكنه حقق انتشارًا جماهيريًا سريعًا بالإضافة إلى مساندة وقيادة هروشيفسكى)[29].

وحظيت الأشكال الماركسية من الاشتراكية بانتشار هائل بين قطاعات النخب المعارضة والطبقة العاملة الصناعية فى العديد من الأقاليم فى الإمبراطورية الروسية خلال العقدين الأخيرين قبل ثورة 1917م. (وفى الواقع، قام العديد من الأحزاب الشعوبية اليسارية المذكورة سلفًا بإدخال عناصر ماركسية فى برامجها وخطابها السياسى). ومن حيث المبدأ، كان لا يفترض أن يشغل الماركسيون أنفسهم بقضايا الهوية القومية. وفى الواقع، انضم كثير من الماركسيين غير الروس إما إلى الجناح البلشفى أو المنشفى من «الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى». ومع ذلك، فضل آخرون الحفاظ على نوع ما من الهوية الجماعية داخل الحركة الماركسية، وطغت المنظمات الماركسية على تلك المنظمات القائمة على أسس عرقية، وكانت مهتمة بنشر الأفكار الاشتراكية بين أعضاء قوميتها. وفى ظل هذه الظروف، كان يستحيل فصل قضايا الصراع الطبقى والعدالة الاجتماعية عن الاستقلال الذاتى الثقافى وتقرير المصير القومى.

وكما اتضح فى الفصل السابق، فإن معظم المدن الصناعية بالإمبراطورية كانت تقع فى المناطق الحدودية الغربية غير الروسية، ولذلك لم تكن مفاجأة أن الأحزاب الماركسية كانت تتمتع بمساندة أكبر بين البروليتاريا الصناعية البولندية واليهودية فى هذه الأقاليم، مقارنة بالقلب الروسى الأقل تقدمًا (باستثناء موسكو وسان بطرسبرج). قد ناقشنا الحالة البولندية مبكرًا فى هذا الفصل، وبالنسبة للحركات اليهودية بسارية، فقد أدخلت الصهيونية العمالية المنهج الماركسى فى تبرير برنامجها القومى الصريح الذى يهدف إلى تكوين مجتمع بروليتارى جماعى يهودى ناطق بالعبرية فى فلسطين[30]. وقد واجه هذا الموقف تحدى «التحالف العام للعمال اليهود («الرابطة . Bund» التى تأسست فى 1897م) ذلك التحالف

الذى أصر على أن مصير الجماهير اليهودية يعتمد على نتيجة الكفاح الثورى داخل الإمبراطورية الروسية ككل. وفى الحقيقة، لعبت الرابطة دورًا فى تأسيس «حزب العمال الديمقراطى الاشتراكى الروسى RSDWP». بينما رفضت الرابطة فكرة «القومية» فى حد ذاتها وأصرت على أنه فى حرب الطبقات لابد للبروليتاريا اليهودية أن تحتل مكانها بجوار نظيرتها الروسية وغيرها من البروليتاريات غير اليهودية، إلا أنها أدركت سريعًا أن اللغة «اليديشية» كانت وسيلة أكثر فعالية للتواصل مع اليهود مقارنة بالروسية. وأدى قرار تبنى (اليديشية) لغة رئيسة للدعاية والإثارة إلى ابتعاد الرابطة عن الدوافع الاستيعابية لسنواتها الأولى، وأصبحت المطالبة بالاستقلال الذاتى الثقافى لليهود (بمعنى غرس الثقافة العلمانية اليديشية، بدلا من الثقافة الدينية أو الصهيونية) فى روسيا الاشتراكية أحد البنود الرئيسة فى منبرها السياسى. ومع ذلك، باءت بالفشل محاولة الرابطة اليهودية الحصول على اعتراف من القيادة «الديمقراطية الاشتراكية» بأنها منظمة مستقلة ذاتيا تماما تمثل البروليتاريا اليهودية، مما أدى إلى انسحاب «الرابطة» من الحزب فى 1903م[31].

ومن المثير للغرابة أن الماركسية تعمقت سريعا فى جورجيا، التى كان سكانها فلاحين أساسًا (كان بعضهم بدأ البحث عن عمل صناعى فى المدن) ونبلاء ريفيين متخلفين اقتصاديًا نوعًا ما. فهنا نجد أن العداء المشترك للبرجوازية التجارية الأرمينية التى برزت فى الإقليم قد ساهمت فى تقبل الماركسية. وسرعان ما قام الفرع المحلى من التنظيم المنشفى، بقيادة جورجيين متعلمين من طبقة النبلاء، بفرض نفسه باعتباره التنظيم الجماهيرى السائد خلال السنوات الأولى من القرن العشرين. وبينما أظهر المناشفة الجورجيون التزامهم الشديد بمثل الدولية الاشتراكية، كان منبرهم الأيديولوجى وطبيعة إغرائهم الشعبى يعكسان أجندتهم السياسية العرقية[32]. وكما يقول« رونالد صنى - Ronald Suny (ساخرًا)، «فى نهجهم الماركسى كان لدى الجورجيين أيديولوجية غير قومية أشهروها سلاحا فى وجه أعدائهم المختلفين عرقيا: المسئولين الروس، والبرجوازيين الأرمن»[33].

وهكذا انتشرت توليفات مختلفة من الأفكار الشعوبية والماركسية والقومية لدى النهج السياسى للمفكرين الرواد بالأقليات العرقية فى الإمبراطورية الروسية. وبينما أثارت الاختلافات المنهجية الأحزاب المختلفة (مثل: الصهيونيين والاتحاديين) ضد بعضها فى صراعات فكرية عنيفة، إلا أنه يمكن القول: إن إحدى القضايا الجوهرية التى كانت كل هذه المجموعات تصارعها تتمثل فى كيفية التوفيق بين الخاص والعام، وكيف تجمع بين الهوية الثقافية العرقية والتضامن الدولى. فقد انضم بعض النشطاء السياسيين غير الروس ببساطة إلى الأحزاب السياسية الروسية، مثل الديمقراطيين الاشتراكيين والثوريين الاشتراكيين والديمقراطيين الدستوريين. ولكن آخرين كثر أدركوا أنه حتى إذا كان الهدف النهائى لنشاطهم السياسى دوليًا فى نطاقه، إلا أنهم سيفشلون فى حشد أتباعهم ما لم يلمسوا أوتار مشاعرهم. وفيما وراء ذلك، كان العديد من النشطاء متلهفين لربط أنفسهم بثقافة شعبية «أصيلة» كجزء من تمردهم ضد سيطرة الثقافة العليا التى تفرضها الدولة، وضد الجوانب الثقافية للتحديث الاقتصادى والسياسى.

وكان يبدو أن توليفة الاشتراكية والقومية تقدم أفضل حل متماسك لهذا التوتر، فمن خلال تحقيق العدالة الاقتصادية والسياسية الحقيقية بين البشر، ستحقق الثورة الاشتراكية أيضًا العدالة بين المجموعات العرقية (وكانت هذه حجة مقنعة فى الأقاليم العديدة التى كانت تتوافق فيها الاختلافات الطبقية مع الاختلافات العرقية). وبنفس المنطق، فإن تأكيد المصالح والحقوق الخاصة للمجموعة العرقية (المستغلة والمقهورة) يمكن أن يساعد فى دعم قضية الثورة الاشتراكية للإمبراطورية ككل. وكما جاء فى حالة القوميين الديمقراطيين الليبراليين التشيك والسلوفاك والسلاف الجنوبيين، كان القوميون اليساريون فى المناطق الحدودية الروسية يعتبرون القومية مشروعًا تحويليًا يستند إلى أفكار مختارة من الثقافات الخاصة بمجموعاتهم العرقية وتجاربها التاريخية فى سياق بناء وضع اجتماعى وسياسى جديد تمامًا يجسد الأفكار العالمية للحداثة والعدالة.

وأدى هذا إلى توفير مناخ شديد التقبل للموقف الماركسى النمساوى من مسألة القوميات، إذ كانت أفكارهم[34] تستقبل بحفاوة لدى العديد من القوميين اليساريين فى الدولة القيصرية كإطار نظرى ومنهجى منتظم لوضعهم الخاص، وكأساس لتوضيح كيف يجب أن تكون العلاقات بين المجموعات العرقية فى الدولة الاشتراكية مستقبلاً. وكان قادة الرابطة، الذين أصيبوا بالإحباط بسبب رفض حزب العمال الديمقراطى الاشتراكى الروسى لمطالبهم، مبهورين بمفهوم الاستقلال الذاتى الثقافى فى داخل البلاد، والذى كان يمثل حلاً جيداً لمشكلة شعوب الشتات اليهودية. وفى الحقيقة، كانت ترجمة الرابطة للأعمال الماركسية النمساوية إلى الروسية سبيلا لتسهيل نشر هذه الأفكار بين عدد كبير من الحركات الاشتراكية القومية فى الإمبراطورية الروسية. وبحلول 1907م، أعلن عدد من الأحزاب - التى تتراوح من الطاشناك الأرمن إلى هرومادا الاشتراكيين البيلاروس Hromada - أنفسهم فى صف الجمع ما بين الاستقلال الذاتى الثقافى داخل البلاد والاتحاد الإقليمى مع روسيا الاشتراكية مستقبلاً. وهكذا فإن المجموعات العرقية المركزة جغرافيًا ستكون فى وضع يتمتع بتقرير المصير الإدارى، فى حين أن القوميات المشتتة والأفراد المنقولين سيكونون أحرارًا فى إدارة مؤسسات ثقافية وتعليمية خاصة بهم تمولها الدولة حيثما كانوا موجودين بأعداد تكفى لتكوين مجتمع منهم. وهكذا فإن الاعتراف بشرعية الهوية العرقية سيشجع التسامح المتبادل، ويساعد على تماسك الدولة الاشتراكية متعددة القوميات. وكلما زادت قنوات التعبير عن الذات ثقافيًا وعرقيًا، كلما شعرت القوميات المختلفة بالارتياح تجاه التعاون مع بعضها. ولكن هذا التفكير أثار هجمات أيديولوجية شرسة من جانب البلاشفة الذين تشدقوا بمبدأ تقرير المصير القومى، ولكنهم رفضوا فكرة أن بوسع الحركة الاشتراكية تغذية الانقسامات الثقافية بين البروليتاريا. ومع ذلك شعر البلاشفة فى الواقع أنفسهم ملتزمين بتطوير موقف أكثر غموضًا (أو خداعًا) من القضية[35].

وكان المفكرون الرواد من مسلمى الإمبراطورية الروسية يقفون عند ملتقى المؤثرات الثقافية التى تشع من الشرق الأوسط ومن روسيا. وكانت الحركة الإسلامية الحديثة التى فرضت نفسها كقوة فكرية كبرى فى مصر بقيادة

مفكرين وعلماء أمثال جمال الدين الأفغانى (1839م - 1897م) الفارسى المولد، وتلميذه المصرى محمد عبده (1849م - 1905م) مصدر إلهام للمفكرين التتر. حيث شجعت الحداثة الإسلامية التبنى الاختيارى للأفكار والأساليب الغربية كجزء من جهد أكبر لإحياء الحضارة الإسلامية. وكان المحدثون يقولون إن العالم الإسلامى كان فى حالة تدهور واضح، ولا يرجع ذلك إلى عيوب كامنة فى نظامه الإيمانى، ولكنه إلى ابتعاده عن جوهر روح وقيم الإسلام. فالرسالة الأصلية للرسول، والتى كونت أساس الحضارة المشعة، طمستها بمرور الزمن طبقة تلو طبقة من التفسيرات الخاطئة والأوامر الاستبدادية (التى تصدرها السلطات الدينية بناءً على تعليمات الحكام الفاسدين، وليس على أساس المبادئ الإسلامية) والعادات الخرافية. وهذا يفسر الإحساس بالركود فى الإمبراطورية العثمانية، وعدم قدرتها على الاستجابة بفعالية للتحدى الغربى. وعلى هذا النحو، حان الوقت للمسلمين للتخلص من تلك التراكمات المريكة والعودة إلى الروح الأصلية للإسلام، إذ كان الازدهار العظيم للإسلام خلال عصره التقليدى مصدرًا أساسيًا لإلهام الأوربيين الذين كانوا متخلفين عندئذ، والذين يدينون فى معرفتهم بالعلوم والرياضيات وغيرها إلى العالم الإسلامى. ومن خلال تبنى بعض العناصر التقنية والتنظيمية من المجتمع الغربى الحديث، سيستطيع العالم الإسلامى إعادة اكتشاف أسسه الخاصة؛ لأن بهاء الإسلام يكمن فى ربطه المحكم بين العقل والإيمان[36].

وعبرت الحداثة الإسلامية عن نفسها بين المفكرين المسلمين فى الإمبراطورية الروسية من خلال الحركة «التجديدية - Jadidism». وكان رواد هذه الحركة يعتبرون أنفسهم يقودون الطريق إلى التجديد الروحى والمادى للشعوب الإسلامية الروسية. وكان اهتمامهم الرئيس ينصب على إصلاح التعليم، وكان منهجهم فى التعليم - والمعروف باسم «أصول التجديد - Usul-jadid» - يبتعد عن الدراسة الضيقة للمدارس الإسلامية التقليدية، ويدخل المناهج الحديثة التى تشمل العلوم وكيفية تعليم الطلاب على التفكير بطريقة نقدية. ومن الواضح أن هذه الأفكار هددت بتقويض مكانة وسلطة المؤسسة التعليمية الكلاسيكية ورجال الدين التقليديين. وفى داخل الإمبراطورية الروسية كان يسمح لمدارس المجددين

بالتطور بحرية، أما فى بخارى - الإمارة المستقلة عمليا والتى كانت العاصمة الثقافية للتركستان - فقد احتفظ حاكمها بسلطته على المؤسسة الإسلامية التقليدية، مما أجبر مدارس المجددين على العمل بصورة شبه سرية[37].

وبصفة عامة، كان المجددون ينحدرون من عائلات ثرية تحصل على دخلها من التجارة، وكانت تمثل برجوازية صاعدة، وأصبح تتر الفولجا والقرم - بحكم اتصالهم الطويل وألفتهم بالثقافة والتعليم الروسيين - الطليعة الفكرية لحركة المجددين، حيث طعموها بأفكار تعكس تأثير الوحدة السلافية والشعوبية. وظهرت أول صحيفة إسلامية فى روسيا فى ثمانينيات القرن التاسع عشر على يد إسماعيل بك كسبرالى «جسبرنسكى - Gasprinsky» (1851م - 1914م)، وهو تترى من القرم، حيث لعبت دورًا جوهريًا فى تطور حركة التجديد: وكانت الغالبية العظمى من الدوريات والمنشورات الأخرى المرتبطة بالمجددين مكتوبة بلغة تجمع بين اللغة التترية القرمية المعدلة، والتركية العثمانية ذلك المركب التركى الذى تم تشجيعه كلغة مشتركة بين كل الشعوب الإسلامية فى الإمبراطورية. وقد أدى هذا تيسير وصول الكلمة المكتوبة إلى الجماهير الإسلامية فى روسيا، والتى كان معظمها يتحدث لغات تركية ويجد صعوبة فى إجادة الفارسية أو العربية، وهما اللغتان السائدتان فى الثقافة العليا التقليدية[38]. وساعد ذلك على انتشار شعور حقيقى وعميق بمعنى المجتمع بين الشعوب الإسلامية المجزأة اجتماعيًا وجغرافيًا فى روسيا القيصرية. وهكذا اجتمعت عناصر الوحدة التركية الجامعة مع الوحدة الإسلامية الجامعة فى حركة فكرية واسعة النطاق كانت تحاول قيادة الإحياء الاجتماعى والتجديد الثقافى، وتتحدى سلطة المؤسسة الإسلامية التقليدية، ولكنها كانت غير واضحة بشأن أهدافها السياسية طويلة الأجل.

وساعدت ثورة 1905م، وما تلاها على زيادة انتشار أفكار المجددين وتسييس المشروعات المستقبلية للحركة. وانضم النواب المسلمون فى مجلس الدوما إلى حركة تجكاديتسرتج وأطلقوا مطالبات معتدلة بتشريع الاستقلال الذاتى الإقليمى عبر الإمبراطورية. ولم تتمكن الإجراءات السياسية الصارمة منذ 1907 فصاعدًا، ولا القيود المرتبطة بها على حقوق التصويت، من إيقاف التغيرات التى أثارتها تجربة السنتين الماضيتين. وكان يمكن أن تظل الغالبية العظمى من

الشعوب الإسلامية بدون علم ومتشككة فى الأفكار السياسية الجديدة، ولكن المفكرين الرواد كانوا مصممين على القيام بدور الطليعة الاجتماعية الثقافية الملتزمة بتنوير الشعوب وتغيير المجتمع.

وفى تركستان - حيث قضت القيود الانتخابية على إمكانية التمثيل الإقليمى فى مجلس الدوما - بدأ المجددون المحليون فى التفكير فى الاستقلال السياسى بصورة متزايدة باعتباره الحل الوحيد المقبول لمشكلتهم. ومع ذلك ظلت التفسيرات العرقية الضيقة للهوية غير جذابة تماماً، وذلك لاعتبار أن المدخل الوحيد إلى النجاح يتمثل فى الوحدة. وكان معظم المفكرين المسلمين الروس يبحثون عن تعريف شامل للهوية القومية التى يمكن أن تقدم إطاراً للعمل السياسى المنسق بين عدد كبير من المجموعات العرقية والطبقات الاجتماعية. وتزايدت الفكرة المتنامية القائلة بأن وحدة الجامعة التركية يمكن أن توفر مثل هذا الإطار، وذلك بسبب أحداث 1908م، التى شهدتها الإمبراطورية العثمانية. فكما سنرى، كان أعضاء (تركيا الفتاة) الذين استولوا على السلطة فى إسطنبول فى تلك السنة متأثرين بشدة بمجموعة من اللاجئين المسلمين من روسيا.

النخب الاجتماعية والمفكرون القوميون فى الإمبراطورية العثمانية

من العثمانية إلى القومية التركية

كان الشرق الأوسط آخر إقليم تظهر فيه القومية السياسية الحديثة، وذلك من بين كافة الأقاليم التى تناولناها فى هذا الكتاب. ومع ذلك، فإنه كما فى حالة التغيير الصناعى والتقنى، غالبًا ما كانت التحولات الأيديولوجية تحدث بأقصى سرعة وعنف فى المجتمعات التى تشعر نخبها بأن لديها الكثير لتلحق به. فبينما كانت البيئة الثقافية والمؤسسات السياسية والأوضاع الاجتماعية الاقتصادية فى الشرق الأوسط متميزة فى العديد من الجوانب، واجهت الحركات القومية فى هذا الإقليم معضلات تشبه كثيراً تلك التى واجهتها مثيلاتها فى أوربا الوسطى والشرقية.

ففى 1908م، وإثر انقلاب عسكرى صعد فيه إلى السلطة فى إسطنبول مجموعة من الضباط والإداريين والمفكرين فيما عرف باسم «تركيا الفتاة -

«Yong Turks» (أو لجنة الاتحاد والترقى - Committee of Union and Progress). وفى السنوات التالية، عززت تركيا الفتاة موقفها تدريجيًا، حيث عزلت السلطان عبد الحميد الثانى ونصبت بدلاً منه محمد الخامس الأكثر انقيادًا، وذلك فى أعقاب محاولة انقلاب مضاد محافظ فى 1909م، واستخدام القوة المسلحة فى الإطاحة بتحالف معارض، وانتهى الأمر بتركيز السلطة المطلقة فى أيديهم فى 1913م[39]. وهكذا أثارت ثورة «تركيا الفتاة» المرحلة الأكثر حركة وفوضى فى التاريخ الزاهر لكفاح العثمانيين مع الإصلاح والتحديث الذى بدأ مع «التنظيمات الخيرية»[40]. وبالرغم من أن هزيمة العثمانيين فى الحرب العالمية الأولى وضعت حدًا لحركة «تركيا الفتاة» فى حد ذاتها، فإن تصور كمال أتاتورك بعد الحرب القومية التركية كان يضرب بعمق فى أفكار وممارسات عناصر معينة فى نظام «لجنة الاتحاد والترقى»[41].

ومع ذلك، يجب أن نؤكد على أن لجنة الاتحاد والترقى لم تكن من حيث الأصل منظمة تركية ذات نهج قومى صريح. فقد بدأت هذه اللجنة تاريخها فى 1889م، بمجموعة من المفكرين الساخطين وكبار الإداريين الذين اطلعوا على الأفكار الغربية من خلال نظام التعليم العالى العثمانى الإصلاحى، والذين كانوا مستاءين بسبب عدم قدرة، أو عدم رغبة، النظام فى العمل بمقتضى هذه الأفكار وتطبيق التحديث على أساس منتظم وشامل. حيث نظموا أنفسهم سرًا داخل الإمبراطورية العثمانية، وعملوا علانية من المنفى فى مدن مثل جنيف وباريس، واعتبروا أنفسهم النخبة الفكرية التى كانت رسالتها تتمثل فى الوصول إلى السلطة (سواء بالإقناع أو بالقوة) والسيطرة على البيروقراطية العثمانية واستخدامها لعلاج مشاكل المجتمع والدولة وفق القوانين العلمية والمبادئ العقلية.

وبالرغم من أن بعض منشورات اللجنة كانت تتلاعب بأفكار رابطة الوحدة الإسلامية،فإن معظم أعضاء «تركيا الفتاة» اعتبروا ذلك حيلة شرعية فى الصراع على التأييد الشعبى، وليس انعكاسًا حقيقيًا لنظرتهم الشاملة. أما فى كتاباتهم وحواراتهم الخاصة، فقد كشف الكثير منهم عن أنفسهم كمفكرين علمانيين مناضلين واعترف بعضهم صراحة بأفكار إلحادية، وكانت أشكال الوضعية والمادية «العلمية» المفهومة بصورة ضيقة (التى كانت شائعة من منتصف إلى

أواخر القرن التاسع عشر فى أوربا) بمثابة القوى المحركة للتطور الفكرى لهذه الحركة[42]. وكان المطلب الأساسى لتركيا الفتاة يتمثل فى استعادة دستور 1876م المعلق، والذى كان لفترة قصيرة يمثل شكلاً برلمانيًا للحكم فى الإمبراطورية. وتوضح أحدث البحوث أن هذا الموقف لم ينشأ عن الالتزام بالديمقراطية، إذ أن الكثيرين من أعضاء تركيا الفتاة كانوا يعتنقون نظرة «جوستاف لوبون . Gustare Le Bon» الساخرة من الجماهير، على أنهم غوغاء جهلة بلا هدف، ويجب أن تقوم نخبة قوية بقيادتهم[43]. وكانت دستورية هذه اللجنة تمثل منبرًا سياسيًا يستطيع قادتها من خلاله تحقيق هدفهم المتمثل فى تحويل النظام العثمانى إلى نظام عالى الجدارة، حيث تكون القدرة على الحكم والالتزام بالإصلاح . وليس الولاء للسلطان . بمثابة المعايير الحقيقية للنجاح، وبالتالى يتولون مقاليد السلطة فيها. وهذا لا يعنى القول إنهم كانوا غير مخلصين تمامًا لقيام حكومة برلمانية، بل كانوا يعتبرون الحكومة البرلمانية أداة للحد من سلطة السلطان، وتغيير المجتمع من أعلى، وليس وسيلة للتعبير عن رأى الشعب.

وكانت العضوية الأصلية فى اللجنة تعكس التركيب متعدد الأعراق للنخبة الإدارية بالدولة العثمانية. فقبل أن تصل إلى السلطة، كانت شخصياتها القيادية تشمل إلى جانب الأتراك كلاً من الألبان والعرب. ونظرًا لأنهم كانوا خريجى المؤسسات التعليمية الرائدة فى إسطنبول، فقد استطاعوا التنافس على الكفاح المشترك لاستعادة الدستور وتكوين حكومة استحقاق. وكان هذا المنبر واسعًا لدرجة أنه كان هناك مجال للقوميين الراديكاليين الأرمن من «حزب الطاشناك». ولكن ما هى المضامين العملية للإصلاح السياسى الراديكالى، هل هى مركزية الحكم أم الحكم الذاتى الإقليمى، وهل هى هدفت إلى صياغة هوية قومية وحدوية أم غرس التنوع الثقافى العرقى؟ فهذه هى الأسئلة التى وقفت فى طريق قيادة تلك اللجنة حتى قبل وصولها إلى السلطة.

وكانت الشخصيات القائدة فى اللجنة مقتنعة بأن تحويل الإمبراطورية إلى دولة حديثة قوية يتطلب بلورة الإحساس الشامل بالبطولة بين الجماهير، والارتباط بمؤسسات الحكم. وكان الشعار المرتبط بهذه الفكرة هو «العثمانية». وهذا مصطلح غامض يشير إلى غرس هوية سياسية جماعية تقوم على المساواة

المدنية بين شعوب الإمبراطورية. ولكن كيفية تكوين أساس ثقافى محايد عرقيًا ودينيًا لهذه الهوية ظلت أمرًا غير واضح، فقد اتضح سريعًا أن «العثمانية» مصطلح متخم بالمعانى والدلالات.

وانعكس هذا فى الحوار العنيف بصورة متزايدة حول البنية المستقبلية للدولة، والمجال الذى ستسمح به للاستقلال الذاتى الثقافى والحكم الذاتى الإقليمى. وبالنسبة لمعظم قادة ومؤيدى اللجنة، فإن نظام الملل كان يعتبر بمثابة فوضى عارمة يجب إصلاحه جذريًا، أو التخلص منه كليًا فى الدولة العثمانية الحديثة. ولكن ما الذى سيحل محله؟ وإذا كانت الملل ستندمج فى الأمة الموحدة، فهل سيتضمن ذلك الاستيعاب القهرى للأقليات العرقية الدينية فى الأغلبية المسلمة؟ وكانت هذه الرؤية غير مقبولة لدى مؤيدى اللجنة من ذوى الأصول العرقية الأرمنية واليونانية. ومن ناحية أخرى، فإذا كانت الأقليات (المجتمعة) المركزة جغرافيًا مثل الأرمن ستحصل على الاستقلال الذاتى الإقليمى، ألن يؤدى ذلك إلى تلاعب القوى الأجنبية الراغبة فى التدخل وتفكيك الإمبراطورية؟

وقد ظهرت هذه القضايا على السطح فى 1902م، عندما بذلت الجهود لتكوين جبهة معارضة واسعة لنظام السلطان، حيث جاءت المبادرة من الأمير صباح الدين، وهو عضو ساخط من أسرة السلطان انضم إلى اللجنة فى المنفى قبل ذلك بثلاث سنوات. وكان صباح الدين يبحث عن التعاون النشط مع الوطنيين الأرمن لاعتقاده بأنهم يستطيعون المساعدة على جذب القوى الأوروبية إلى التدخل العسكرى الذى يمكن أن يساعد على خلع السلطان ووضع اللجنة فى السلطة. ولتحقيق هذا الغرض، ولتهميش القادة المنافسين داخل اللجنة، عقد صباح الدين ومؤيدوه فى المنظمة «المؤتمر الأول للمعارضة العثمانية» فى باريس كمنبر للتفاوض على تكوين منبر سياسى مشترك بين القوى المعارضة التى تنتمى إلى كل المجموعات العرقية الكبرى فى الإمبراطورية العثمانية. ومع تقدم هذه المباحثات، هاجم عدد من أعضاء «تركيا الفتاة» - بقيادة أحمد رضا - الفكرة القائلة بأن التدخل الأجنبى كان وسيلة مقبولة للتعجيل بالتغيير فى الإمبراطورية العثمانية، وبالتحديد فإنهم عارضوا فكرة التفاوض مع الطاشناك كمنظمة منفصلة وكما يقول أحمد رضا:

«إن الأرمن حسب كلامهم هم - يريدون التوصل إلى اتفاق معنا للإطاحة بالنظام الحالى، ويمكن التوصل إلى مثل هذا الاتفاق بين دول ذات سيادة، ولكنى لا أستطيع تصوره بين مواطنى نفس الدولة الذين يعيشون فى مناطق مختلفة من الإمبراطورية»[44].

وعندما قبل جناح صباح الدين فى النهاية لغة تقترح وضعًا خاصًا للإمارات الأرمينية، احتج أحمد رضا وأنصاره على الاتفاق وانشقوا عن الجمعية، وتوقفت منظمة «تركيا الفتاة» لفترة، ثم أعاد أحمد رضا نشاطها بعد سنوات قليلة[45].

وكان كل هذا يشير إلى أن استعادة الدستور ستخلق مشاكل أكثر من تلك التى ستحلها، ما لم يتم استيعاب القوميات المختلفة فى الإمبراطورية فى ثقافة قومية رئيسة. فبالنسبة للأعضاء الأتراك فى اللجنة، كانت الهوية التركية تمثل المرشح الواضح الوحيد لهذا الدور، وبدلاً من محاولة تكوين دولة حديثة على أساس المفاهيم المجردة للمساواة المدنية والعلوم الغربية، كان من المنتظر أن تعتمد حركة «تركيا الفتاة» على أكثر العناصر إلهامًا فى التراث التاريخى للشعب التركى. وفى الواقع، شعر عدد متزايد من القادة ذوى العرق التركى فى قلب اللجنة بأن المفاهيم القديمة «للأمة»[46]، و«الملة»، يجب ألا تستبعد دفعة واحدة. فهذه المفاهيم تحتوى عناصر قيمة يمكن تعديلها ووضعها فى معادلة اجتماعية سياسية جديدة تجمع ما بين التضامن الاجتماعى للإسلام ولغة وثقافة الشعوب الناطقة بالتركية[47].

ومن متناقضات الإمبراطورية العثمانية أن الأقليات المسيحية تمتعت بالاعتراف الرسمى كمجتمعات ثقافية عرقية مستقلة ذاتيًا، وذلك بفضل نظام الملل، فى حين أن الجماهير الناطقة بالتركية لا تتمتع بمثل هذا الإطار المتميز لغرس الهوية السياسية والتضامن المجتمعى. وكما يقول «ضياء جوك آلب - Zia Gökalp» الذى ظهر كمفكر بارز فى تركيا الفتاة (ثم لعب بعد ذلك دورًا مماثلاً فى نظام مصطفى كمال أتاتورك)، فإنه يجب الاعتراف بالأتراك كممثلين لـ «الملة» فى حد ذاتهم - وليس مجرد «ملة» - فهم يمثلون فى الحقيقة الملة التى يجب أن تجسد الدولة هويتها ومصالحها. و«الملة» تعنى الأمة[48] فى مفردات القومية التركية. على هذا النحو تصبح القومية بمثابة الدين الجديد الذى يجمع

الأمة والدولة معًا. ففى ظل النظام القديم، كان المجتمع مقسمًا إلى ترتيب هرمى صارم (بناء على رابطة النسب وليس الجدارة والاستحقاق) وبسبب الفجوة الكبيرة بين الثقافة العليا القائمة على أسس عربية وفارسية غريبة من ناحية وثقافة عامة الناس من ناحية ثانية. أما فى الإمبراطورية الإصلاحية، كان من المنتظر من النخبة الفكرية الجديدة أن تكوّن ثقافة رسمية تقوم على أساس لغة وتقاليد الجماهير (وبالتحديد على اللهجة الشائعة فى إسطنبول) وهذا بدوره يعطى تلك النخبة سلطة تحمل المسئولية كقوة قائدة فى المجتمع، ويجعلها الطليعة التى تعبر آراؤها وقراراتها عن المصالح الأساسية للأمة ككل[49].

ويعتبر العديد من أطر مفاهيم جوك آلب مستمداً من أعمال دوركايم وعدد من المفكرين السياسيين الألمان (خاصة تونيس ـ Tönnies). فبينما كان يصر على المعايير اللغوية الثقافية، وليس العرقية، لتعريف الهوية القومية، كان هذا النمط من القومية يعكس الجماعية «الشعبية ـ volkisch» الألمانية. وكان شعاره «نحو الشعب ـ Halka Doğru» مأخوذًا من الحركة الشعوبية الروسية فى ستينيات القرن التاسع عشر. ولكن شعاره كان يمثل صورة سلطوية من الشعوبية: فالقيادة السياسية لا يمكن أن تكون ذات شرعية ما لم تستمد إلهامها من ثقافة الجماهير. ولكنها يجب أن تكون قوية فى ممارسة سلطتها، ويجب أن تستخدم تلك السلطة فى جلب الحضارة للناس (أى التعليم والتقنية والابتكارات المادية المختلفة من الغرب). أما التعددية والفردية فهى مجرد نزوات تهدد التكامل العضوى للأمة. وكان الصراع الطبقى لا يتوافق مع هدف الوحدة القومية، وكان من المنتظر أن الأشكال الحديثة من روابط الطوائف الحرفية بالإضافة إلى رعاية الدولة للمحتاجين ستساعد على الوقاية من تهديد الاشتراكية.

وكان فكر جوك آلب الذى يجمع بين الشعوبية الثقافية والنخبوية السياسية والبرامج الاقتصادية المؤسسية، يتشابه كثيرًا مع فكر رومان دموفسكى. ففى الواقع كانت الوضعية والمادية «العلمية» بمثابة القوى المحفزة فى التطور الفكرى «لتركيا الفتاة» و«الديمقراطيين القوميين البولنديين» على السواء. إذ كانت النتيجة فى الحالتين عبارة عن فلسفة سياسية عقلانية زائفة سخرت لتبرير الاتجاه الاستبدادى فى ممارسة السلطة وإضفاء الشرعية على المفهوم العضوى

للأمة[50] ولذلك فإنه ليس مدهشًا أن تزايد عدم التسامح تجاه الأقليات كان يبدو متوافقًا مع تطور القومية التركية. وكان جوك آلب يلهو لفترة بفكرة منح العرب المسلمين مكانة متساوية فى إمبراطورية عثمانية يعترف بها كمملكة مزدوجة على نموذج الهابسبرج. وأصر على أن أى فرد يعتنق اللغة والثقافة التركية يجب أن يقبل كتركى، بغض النظر عن خلفيته العرقية (كان جوك آلب نفسه من ينحدر جزئيا من أصل كردى، وكان يفكر لفترة فى فكرة تشجيع القومية الكردية قبل التحول إلى النموذج التركى بدلاً منها). ومضى جوك آلب مصرا على أن الأرمن واليونان كانوا جماعات غريبة، أدى نجاحها الاقتصادى إلى عرقلة تطور الطبقة الوسطى التركية، والتى جعلتها هويتها المسيحية غير قابلة للاستيعاب على عكس الأكراد، ومن ثم فليس لهم حقوق سياسية حقيقية كمجتمعات، وأن بقاءهم داخل الأمة التركية يأتى على مضض.

وظهر تيار أيديولوجى آخر كقوة متنامية داخل لجنة الاتحاد والترقى فى السنوات الأولى من القرن العشرين، وهو رابطة الوحدة التركية، وكان القوميون فى هذه الوحدة يعرفون الهوية التركية بمصطلحات إثنية/سلالية صريحة[51]. حيث أشاروا إلى الصلات اللغوية بين أتراك الإمبراطورية العثمانية والشعوب التركية فى التركستان الشرقية الخاضعة للصين (والتى تعرف اليوم باسم شينغيانغ) والتركستان الغربية الخاضعة لروسيا (والتى تعرف اليوم بآسيا الوسطى). وأصروا على أنهم جميعًا ينحدرون من نفس الأصل، ولذلك يجب أن يندمجوا فى دولة تركية موحدة تشمل الجميع. وكانت الوحدة السياسية على هذا النطاق الواسع تمثل مصير الأتراك، ومن خلالها فقط يستطيعون إعادة ربط أنفسهم بتاريخهم المبكر وتحقيق كامل أحلامهم كأمة. أما الأقاليم غير التركية من الإمبراطورية العثمانية، بما فيها الأراضى العربية، فيجب التخلص منها أثناء هذه العملية. ويعتبر ذلك ثمنًا مقبولاً لتحقيق حلم الوحدة التركية[52]. أما ما كان ينقص أنصار الوحدة التركية من الإحساس السياسى العام، أو التجربة التاريخية، فقد عوضوه بتذوقهم للخيال الرومانسى، على نحو ما ذهب أحد أشهر شعرائهم فى قصيدة عن الأخلاقيات التركية المشتركة قائلا: «مرحى يا شعب الأتراك» يا أبناء الحديد والنارنج يا أصحاب الألف وطن، يا أصحاب الألف تاج!» [53].

وقد ساهم التتر المنفيون من روسيا فى بلورة هذا النمط التحررى الوحدوى الراديكالى من الوحدة القومية والذى مارس تأثيرًا كبيرًا على حركة «تركيا الفتاة» من الفترة السابقة على 1908م وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وكما رأينا، فإن تكوين ونشر لغة تركية مشتركة كان واحدًا من المشروعات الأساسية لحركة المجددين، وكان لهذا المشروع الثقافى انعكاسات سياسية واضحة. فبالنسبة للمفكرين التتر والأتراك الآخرين، الذين فروا من رقابة وقمع النظام القيصرى، لم تكن اسطنبول مجرد مكان للجوء (وفى الواقع، فإنه قبل ثورة 1908م، كان نظام السلطان ينظر إليهم بنفس القدر من الحذر مثلما نظرت إليهم الحكومة القيصرية[54]. وكانت الإمبراطورية العثمانية أيضًا منصة انطلاق كامنة للكفاح من أجل الحرية نيابة عن مسلمى روسيا.

وهكذا فإن الوحدة التركية كانت بمثابة استجابة عملية لرابطة وحدة السلاف العدوانية فى النظام القيصرى، وكانت أية حركة قومية تقصر تطلعاتها على السكان الأتراك فى الإمبراطورية العثمانية لا تشغل بال هؤلاء الرجال؛ لأنهم يجب أن يجددوا الهوية القومية بطريقة تشمل الشعوب التركية فى الإمبراطورية القيصرية. وكان هذا يتضمن مفهومًا إثنيًا - سلاليًا للأمة يجعل من الصعب الاشتمال على العرب أو الأكراد، فضلاً عن الأرمن أو اليونانيين. ففى صفحات منشوراتهم بعد 1908م، وفى الجمعيات الثقافية والتعليمية التى أسسوها تحت رعاية نظام اللجنة المكون حديثًا، كان نشطاء الوحدة التركية المولودون فى روسيا - مثل يوسف أقتشورا، أغا أوغلو، حسين زاده على - يكافحون لنشر أفكارهم، مع دق أكبر عدد ممكن من المسامير فى نعش العثمانية. فبالنسبة لهم، ليس هناك معنى للأمة سوى تجسيد الهوية العرقية، وأن فكرة الثقافة المدنية المتكونة فى إطار دولة متعددة الأعراق مجرد تضليل ينطوى على مفارقة تاريخية ويقف فى طريق مصير الوحدة التركية. ففى الواقع، كان من المتوقع أن تنهار الإمبراطورية العثمانية تمامًا، ولكن مصير المستقبل كان لا يزال ينتظر الأتراك[55].

وبعد أن قام أحمد رضا بإعادة تكوين لجنة الاتحاد والترقى تحت قيادته، ركز جهود المنظمة على ضمان تأييد الضباط الأتراك فى القوات المسلحة، حيث أدى انقلاب عسكرى نفذه الضباط فى سالونيك إلى وصول تركيا الفتاة إلى السلطة

فى 1908م، مما سمح لهم بتدعيم سيطرتهم السياسية فى السنوات التالية[56]. ويبدو أن ضباط الجيش الذين سيطروا على الحركة سريعًا كانوا مطلعين على التعريفات غير الأصلية للقومية، والتى لا تترك مجالاً للأفكار المشوشة عن الهوية المدنية والحوار بين الأعراق. وأدى تأثير الضباط الألمان فى الأكاديميات العسكرية العثمانية إلى زيادة التفكير فى الجيش على أنه «مدرسة الأمة»، واعتبار الأمة بمثابة كائن عضوى يعرف من خلال ثقافة وحيدة، وليس من مجموعة من المجتمعات المختلفة التى تربطها القيم السياسية المشتركة[57].

وخلال سنواتهم الأولى فى السلطة، ظهرت جوانب معينة من الرؤية العثمانية فى المبادرات التشريعية لأعضاء «تركيا الفتاة»، حيث صدرت القوانين التى أقرت علمانية النظام القضائى (بالرغم من أن قانون الأحوال الشخصية لم يكن علمانيًا تمامًا) ودعمت حقوق المرأة فى الزواج، وحاولت بطرق أخرى تحويل الإمبراطورية العثمانية إلى «دولة قانون» يمكن أن تثير الإحساس بالولاء والالتزام لدى الرعايا الذين تحولوا إلى مواطنين[58].

ومع ذلك، كانت الوسائل التى اتبعها أعضاء «تركيا الفتاة» لتشجيع ذلك التحول مثقلة بعدم الاتساق والتناقضات، فكان يبدو أن استعادة دستور 1876م، الذى طال تعليقه سيلد فجر عصر ديموقراطى ليبرالى، يكتمل بإجراء انتخابات برلمانية فى أنحاء الإمبراطورية، وضمان حرية التعبير (لم يتم إلغاء الامتيازات الأجنبية حتى أكتوبر 1914م). وتركزت السلطة الحقيقية فى أيدى ثلة من القادة المدنيين وضباط الجيش الذين فرضوا إجراءات أكثر صرامة لقمع الآراء المعارضة ومظاهر السخط الشعبى. أما مطالب الأرمن بالاستقلال الذاتى، فقد أعقبتها سلسلة من المذابح التى ألقيت مسئوليتها رسميًا على العناصر الرجعية التى كان يبدو أن سلطات «تركيا الفتاة» أغمضت العين عن كبحها فى أحسن الظروف[59]. وبينما استمرت اللجنة فى طرح نفسها علانية كطليعة سياسية لشعوب الإمبراطورية ككل، وليس الأتراك فحسب، أكدت الدراسات الحديثة التى أجراها «شكرى هانى أوغلو . Sukru Hanioglu» و«إيريك زورشر . Erik Zurcher»، وغيرهما، أن الكثيرين من النخب غير التركية كانوا متشككين فى ذلك الوقت فى أن المجالس الداخلية للجنة كان يسيطر عليها شخصيات تعتنق

الأجندات القومية التركية الضيقة، التى عرضناها سابقًا. وأدى اندلاع حروب البلقان فى 1912م إلى زيادة قوة عناصر الوحدة التركية والعناصر القومية العرقية القوية أصلاً داخل القيادة، واكتسبت هذه الآلية مزيدًا من العزم خلال الحرب العالمية الأولى[60].

من العثمانية إلى القومية العربية

كانت محاولة «لجنة الاتحاد والترقى» تحديث الدولة على أسس النماذج السياسية والإدارية الأوربية، مصحوبة بحماس الصفوة الاجتماعية المتعلمة فى دمشق وبغداد والمراكز الحضرية الكبرى الأخرى فى المناطق الناطقة بالعربية بالإمبراطورية. وكان يسود هذه النخب شخصيات حضرية صاحبة أراض، أى أنهم كانوا رجالاً يستمدون دخولهم الكبيرة من الحيازات الأرضية الريفية الهائلة، ولكنهم يعيشون فى المدن ويستغلون استقلالهم المالى فى مواصلة التعليم فى مؤسسات التعليم العالى التركية، ثم يعودون لشغل مواقع إدارية مرموقة، ومربحة، فى مناطقهم الأصلية. وكان كثير منهم يشاركون فى أنشطة اللجنة، بل وشغلوا مواقع قيادية خلال تسعينيات القرن التاسع عشر. وبحلول 1908م، كان العرب مستبعدين بصورة منهجية من أية مواقع للسلطة فى اللجنة، وذلك لأن قادتها كانوا يسخرون سرًا من العرب؛ لأنهم أدنى ثقافيًا من الشعب التركى[61]. ومع ذلك كان يبدو أن دوافع إصلاح تركيا الفتاة تحمل أمل فتح مجالات جديدة للحراك لأعلى للنبلاء الحضريين العرب. وكان يبدو أن النظام العثمانى الطبقى الجامد بدأ يتفتح، وأن هذا بوسعه إفادة نخب الإمارات المختلفة. ولكن يبدو أنهم اعتقدوا ذلك فحسب، فلم يستغرق الأمر طويلاً حتى انكشف الخداع، لأنه بمجرد أن وصل أعضاء «تركيا الفتاة» إلى السلطة، شرعوا فى برنامج للمركزية شدد القبضة الإدارية لإسطنبول على الولايات والإمارات، بدون منح نبلاء هذه المناطق أية زيادة مناسبة فى الوصول للسلطة المركزية. بل كانت هنـ ك مؤشرات على شن حملة للتتريك (إضفاء الطابع التركى) بما يذكر بجهو الرّوسنة فى المناطق الحدودية فى روسيا القيصرية. أما الأعضاء العرب فى البرلمان العثمانى الذين أعلنوا انتقادهم لتلك السياسات، فقد وجدوا أنفسهم مضطهدين ومنعوا من إدارة حملات فعالة لإعادة انتخابهم.

وكانت الاستجابات فى العالم العربى تتصف بالغموض وعدم اليقين، إذ كانت القومية العربية لا تزال فى مهدها فى أوائل القرن العشرين. وقبل الحرب العالمية الأولى، لم يكن معظم النبلاء والمفكرين العرب يفكرون فى تحطيم الإمبراطورية العثمانية. وبينما كان بعضهم يفكر منذ خمسينيات القرن التاسع عشر من آن لآخر فى احتمال تكوين دولة مستقلة فى «سوريا العظمى»، يبدو أنهم كانوا يفعلون ذلك لا عن انجذاب حقيقى لفكرة الاستقلال السياسى، بل عن إحساس بأن الإمبراطورية العثمانية تبدو كسفينة غارقة، وأنها معرضة لنهب القوى الأوروبية[62]. فمن الواضح أن سياسات لجنة الاتحاد والترقى فى السلطة أثارت ردود أفعال معادية للتركية على نطاق واسع بين النخب الاجتماعية والثقافية والسياسية العربية. ولكن ردود الأفعال هذه أخذت أشكالاً مختلفة، فكان عدد من الحكام الإقليميين ـ مثل سيد طالب فى البصرة (فى جنوب ما بين النهرين)، أو الشريف حسين فى الحجاز ـ مستعدين للتفكير فى إمكانية عقد تحالفات أجنبية أو تبنى أيديولوجيات معارضة من أجل مقاومة اعتداء إسطنبول على سلطاتهم المحلية. ولكن هذه السلوكيات كانت تتفق أساسًا مع الأنماط التقليدية للتوترات بين المركز والهامش فى الإمبراطورية، ولا يمكن القول إنها كانت تعكس حساسية قومية حديثة[63].

ويمكن القول إنه كان ثمة شعور قومى واضح أعلن عن نفسه بين أعضاء النخب التجارية والفكرية فى المدن الكبرى متعددة الأعراق مثل بيروت، وبين الأعضاء الصغار فى مجتمع نبلاء ملاك الأراضى والبيروقراطيين فى الهلال الخصيب، وبين الضباط العرب الذين كان قادتهم الأتراك يتخطونهم فى الترقيات ويعينونهم فى مناصب غير مرغوبة. ولذلك قام بعض هذه العناصر الساخطة فى سوريا وما بين النهرين بتنظيم أنفسهم على نمط لجنة الاتحاد والترقى، وكونوا جم يات سرية مثل «الفتاة» (اختصار «جمعية الأمة العربية الفتاة»)، و«العهد»[64] ينما كانوا يروجون لأفكارهم علانية من خلال الأحزاب السياسية مثل «حزب اللامركزية الإدارية العثمانية» الذى كان يتخذ من القاهرة مقرا له. ومع ذلك نجد أنه حتى بين هؤلاء النشطاء الذين لم يزد عددهم على 100 قبل 1914[65]، كانت غالبيتهم لا تطالب بالاستقلال السياسى الكامل

للعرب. فقد كانت أنشطتهم موجهة أساسًا لمواجهة زيادة المركزية التى تتبعها «تركيا الفتاة»، والتى كانت تهدد بتقويض السلطة المحلية والإقليمية التى اعتادت عليها النخب العربية. ومن خلال غرس الإحساس بالفخر بالأهمية التاريخية وأصالة اللغة والحضارة العربية، كانوا يحاولون تشجيع النهضة الثقافية العربية المصحوبة بقدر أكبر من الحكم الذاتى فى إطار الإمبراطورية العثمانية الإصلاحية اللامركزية. وكانت المكانة المتساوية والحكم الذاتى الإقليمى للعرب داخل الإمبراطورية العثمانية الديموقراطية مطلب المشاركين فى «المؤتمر القومى العربى» الذى عقد ضد رغبة لجنة تركيا الفتاة فى باريس فى يونيو 1913م، أما الذين كانوا يطالبون بالاستقلال السياسى التام للعرب، خلال السنوات السابقة على 1914م، فقد كانوا أقلية معزولة[66].

وبينما كان واضحًا أن هناك عددًا من التوجهات الفكرية والأجندات السياسية المطروحة فى هذه المنظمات، كانت التيارات الرئيسة داخلها تستمد إلهامها من الحركة الفكرية التى يشير إليها الدارسون المحدثون بـ «حركة القومية العربى»[67]. فقد كان عمر هذه الحركة عدة عقود قبل 1914م، وكانت فى حد ذاتها نتيجة للحداثة الإسلامية التى ناقشناها مبكرًا فى هذا الفصل. وكانت حركة القومية العربية منقسمة إلى عدد من التيارات التى اختلفت حول قضايا مثل كيفية تحديد العلاقة بين الهوية العربية والإسلام، ولكن كان يجمعها إيمان مشترك بضرورة إحياء الوعى والثقافة العربية كشرط لنجاح الشرق الأوسط ككل يريد مقاومة انتهاكات الغرب. واتفاقًا مع الفكر الإسلامى الحديث، كان القوميون العرب يميلون إلى اعتبار الحرية السياسية (للنخبة المتعلمة على الأقل) والالتزام بالدستور ليست سوى مبادئ أصيلة فى التقاليد العربية والإسلامية الراسخة التى انتهكها السلاطين العثمانيون على مر القرون[68].

وكان رشيد رضا المولود فى سوريا (1865م - 1935م) واحدًا من أبرز هؤلاء المفكرين العرب، وكان ينشر آراءه من خلال مجلته «المنار» من القاهرة[69]. ونظرًا لأنه كان أحد تلامذة محمد عبده، فقد ذهب إلى أنه نظرًا لأن اللغة العربية كانت لغة القرآن، وأن العرب هم الذين حملوا الإسلام للعالم، فإن إحياء الثقافة القومية العربية يمثل شرطًا ضروريًا لإحياء الحضارة الإسلامية ككل. فما يصلح

للعرب سيصلح لكل المسلمين، بغض النظر عن القومية؛ لأن الهوية العربية كانت ترتبط مباشرة بالقيم العالمية الإسلامية، وكان هذا يتعارض بوضوح تام مع ما كان يعتبره رضا القومية الحصرية الضيقة «لتركيا الفتاة».

وفى الواقع، كان رضا قاسيًا فى نقده للعنصر العرقى القومى، أو السلالى (الجنسى) فى أيديولوجية تركيا الفتاة، ويلومهم على بلادتهم وجهلهم، وأشار إلى أن الأتراك سيتعرضون لأكبر الخسائر فى لعبة السياسات العرقية؛ لأن المبدأ العرقى سيقصر مجال سلطتهم الشرعية على الأناضول، ولأن القوى الأوربية لن تسمح لهم بتعويض أنفسهم بتحقيق خيالات الوحدة التركية فى آسيا الوسطى[70]. وكان يرى أن القومية التركية مجرد صورة حديثة من التضامن القبلى ـ العصبية ـ التى أدت إلى ظهور الدولة العثمانية التركية أساسًا.

وخلافًا للنموذج المعرفى التقليدى لابن خلدون، يقول رضا إن العصبية لا يمكن أن تكون اللُحمة الاجتماعية أو القاعدة الأساس لسلطة مجتمع متمدن، وبينما ذهب ابن خلدون إلى أن العصبية كانت ضرورية لتماسك سلطة النخبة الحاكمة فى الدولة الإسلامية، أصر رضا على أن العصبية منافية لأخلاقيات الإسلام، حيث تكمن العظمة التاريخية للعرب فى حقيقة أنهم أرسوا دينًا يستطيع تجميع الناس من مختلف الأجناس فى ظل حكم الشريعة العادل[71].

ولكن المضامين السياسية لهذه النظرية ظلت غامضة، فبالرغم من أن الاهتمام الرئيس لرضا كان ينصب على كيفية إحياء الحضارة الإسلامية، كان إصراره على أهمية العرب فى هذا الإحياء يمكن أن يعرضه لتفسيرات قومية. وفى الحقيقة فإن اعتقاده بأن العرب هم مؤسسو الحضارة الإسلامية، وأنهم يمثلون الأمل الوحيد لإحيائها، كان يعرضه لخطورة الوقوع فى نفس نوع الشوفينية العرقية التى انتقدها فى "تركيا الفتاة". وبنفس المنطق فإن ما كان يمكن أن نطلق عليه القومية الثقافية لرضا كان مقيدًا باهتمامه الحقيقى بالمصير الكلى للعالم الإسلامى[72].

وكانت الانعكاسات المؤسسية لفكره غامضة أيضًا، ففى تصور رضا للدولة الإسلامية المثالية، كان يرى أن السلطة السياسية على قضايا حيوية مثل انتخاب الخليفة يجب أن تكون فى أيدى نخبة متعلمة ومحترمة تمثل مصالح المجتمع

ككل. فهل كان هذا وصفة للدستورية البرلمانية، أم لحكم النخبة المحافظة؟ ففى السنوات اللاحقة، عندما كانت بعض أفكاره المبكرة تتكيف وتندرج فى أيديولوجيات جمهورية وقومية علمانية، تراجع رضا إلى الأصولية الإسلامية. ولكن بحلول 1922م، كان يكتب رسائل يمكن تفسيرها على أنها محاولات لربط الوعى القومى العربى والقيم الإسلامية بالدعوة إلى نظام يجمع بين حكومة ممثلة وتطبيق حكم الشريعة، والذى يحمل على الأقل بعض التشابه مع النظام الدستورى الليبرالى على النمط الغربى[73].

وكانت هذه الأفكار ـ بالإضافة إلى نموذج حركة تركيا الفتاة، ومثال القومية الانفصالية فى البلقان، وتأثير القيم والمؤسسات الغربية ـ هى التى شكلت الخلفية الفكرية والأيديولوجية لأنشطة الجمعيات السياسية العربية التى انبثقت خلال السنوات القليلة السابقة على اندلاع الحرب العالمية الأولى. وكانت إحدى المقدمات المشتركة بين معظم التيارات السياسية العربية تتمثل فى فكرة أن الهوية العربية تضرب بجذورها فى تاريخ الإسلام، والعكس بالعكس. (فى السنوات اللاحقة، ذهب بعض القوميين العرب المسيحيين إلى أن لديهم وصلاً ـ بالمعنى غير الدينى الفضفاض ـ بتراث الحضارة الإسلامية)[74]. ففى هذا الشكل المبكر كانت فكرة القومية العربية تثير صورة مجتمع ثقافى وتاريخى شامل يستطيع التوافق مع الأقليات الداخلية ويحافظ على الارتباط السياسى العضوى مع الأتراك، وذلك إذا منحه الأتراك الاحترام والمكانة التى يستحقها. فمن حيث المبدأ، يمكن غرس الهوية العربية فى إطار إمبراطورية عثمانية لا مركزية، تعمل كمحفز لإحياء مجتمع الشرق الأوسط ككل. فإذا أدى ضعف «تركيا الفتاة» إلى انهيار الإمبراطورية، سيستطيع العرب الاعتماد على إحساسهم بالقيم المشتركة والمصير الواحد لحماية أنفسهم. وهكذا يتبقى لنا أن نرى ما إذا كانت القيم الفكرية الرفيعة التى شكلت فكرة القومية العربية يمكن أن تنجح فى اختبار السلطة بصورة أفضل مما حققته الجوانب الليبرالية فى أيديولوجية «تركيا الفتاة».

تتمثل النقطة الواضحة من المناقشة السابقة فى أن هذه الحركات القومية لا يمكن فهمها بمعزل عن بعضها، فقد نشأت داخل إمبراطوريات متعددة الأعراق وتشترك فى مشاكل متشابهة وحدود مشتركة، وكانت هناك اتصالات مستمرة وتأثيرات متبادلة بين القادة والمفكرين فى العديد من هذه الحركات. فقد أثرت أفكار مساريك مباشرة على نظرات بعض المفكرين البارزين السلوفاك والكروات. وكانت الأحزاب الاشتراكية والشعوبية النمساوية المجرية والروسية تدخل فى حوارات مباشرة حول مسألة القوميات. وشكلت الحركة السلافية الجديدة إطارًا قصير الأجل للاتصال والجدال بين مجموعة من القوميين السلاف. وكانت مؤثرات الوحدة السلافية اليمينية والشعوبية الروسية اليسارية تتقارب مع مؤثرات الحداثة الإسلامية لإنتاج حركة المجددين بين المفكرين المسلمين فى روسيا، والذين أثارتهم أخبار ثورة "تركيا الفتاة" فى 1908م. وقام المفكرون التتر الذين هربوا من القمع القيصرى بجلب أفكار رابطة الوحدة التركية إلى الإمبراطورية العثمانية، حيث مارسوا تأثيرًا كبيرًا داخل "لجنة الاتحاد والترقى".

وقد ظهر عدد من الأنماط المشتركة بين مجموعة الحركات التى تناولناها فى هذا الفصل. إذ كانت التيارات الفكرية السائدة داخل كل هذه الحركات تعتبر نفسها بمثابة قوى تقدمية ستقود أممها إلى الحداثة بالاعتماد على أكثر الجوانب قيمة فى تراثها التاريخى. وقد اعتنق البعض الليبرالية الغربية، بينما عارض آخرون المادية الغربية بالقيم الروحية والمجتمعية المفترضة فى ثقافاتهم. ولكنهم كانوا جميعًا مصممين على رفع شعوبهم إلى مستوى المعايير الأوربية فى التماسك السياسى والنجاح المادى، وذلك بدمجها مع الوعى والإحساس بالفخر بتراثها الخاص المتميز[75].

وهكذا كان يجب على كل من هذه المشروعات القومية أن تصارع التوتر الداخلى بين إحياء الماضى والسعى لمستقبل أفضل، وبين تقديس «الأنا» وتقليد «الآخر» وبين مثالية الصفات الحقيقية للأمة والالتزام بتحويلها إلى شىء أفضل - أو المساعدة على استغلال إمكاناتها كاملة، كما يفضل القوميون هذه الصياغة. ويظهر هذا التوتر فى الميل الملحوظ إلى تعريف الهوية القومية من خلال

مصطلحات فضفاضة تتخطى الحدود القائمة، سواء كانت سياسية أم ثقافية أم حتى لغوية. فقد أصر مساريك على أن التشيك والسلوفاك كانا جزءًا من الشعب التشيكوسلوفاكى، وصاغ جزء من المفكرين الكروات والصرب برنامجًا يوغسلافيًا. واعتنقت «تركيا الفتاة» مبادئ رابطة الوحدة التركية غير الواقعية. ودمج العديد من القوميين الاشتراكيين الخصوصية العرقية مع عالمية البروليتاريا (أو طبقات الفلاحين)، وتطلعوا إلى تكوين اتحادات كبيرة من أمم مستقلة. وكانت المضامين السياسية والأخلاقية لهذه البرامج تشمل كل ألوان الطيف من الاستبعاد العنصرى إلى التعددية الليبرالية. ولكن ما كان يجمعها معا اندماجها فى أجندات نهضوية تدعى أنها كامنة فى الجوهر الفريد للأمة. وكان التحقيق الكامل والتعبير عن الهوية القومية يمثل هدفًا ينتظر تحقيقه، فالأمة ليست معبودا أزليا، بقدر ما هى عملية تكوين. وبالطبع كان المفكرون هم الذين يقودون الجماهير إلى تحقيق مصائرهم القومية.

وعلى المستوى الشخصى، كانت هذه المركبات الطموح من الهوية القومية، تعبر غالبًا عن كفاح المفكرين القوميين للتوفيق بين نظرتهم العالمية ـ أو حتى الكونية ـ نسبيًا، وسعيهم للإحساس بالأصالة. ومن المثير أن نعرف كم عدد الشخصيات التى كانت تنتمى إلى أصول عرقية مختلطة، أو التى عانت من الإحساس بالتهميش الثقافى، أو الاجتماعى. إذ كان مساريك سلوفاكيا جزئيًا، واعتبر بلسودسكى نفسه وريث التقاليد البولندية الليتوانية، وكانت لدى جوك آلب خلفية كردية فى عائلته. وكان الاسم المفترض لكاتب قومى تركى بارز آخر «تيكين آلب Tekin Alp» بديلاً لاسم حقيقى غير متوقع نوعًا ما «موسى كوهين Moïse Cohen»[76] فبالنسبة لهؤلاء الناس، كان تفصيل الرؤى التحولية للقومية يمثل طريقة للمشاركة الفعالة فى تكوين المجتمعات التى يمكن أن ينتموا إليها.

وبينما كانت الدوافع التحولية مشتركة بين كل القوميين، كان الكثير من المفكرين القوميين منقسمين بشدة حول كيفية موازنة وتكامل الأبعاد المدنية والعرقية فى الهوية الجماعية، إذ كان "الواقعيون" أنصار مساريك، والنشطاء اليوغسلاف، وأعضاء الحزب الاشتراكى البولندى، والجناح الليبرالى من لجنة الاتحاد والترقى، وغيرهم، يركزون على القيم السياسية المشتركة كخصائص

أساسية للمجتمع القومى. ونظرت قيادة هذه الحركات إلى ثقافة ولغة مجموعتها العرقية (التشيك، الكروات، البولنديين، والأتراك) كوسيط لنشر القيم التقدمية العالمية بين سكان المجموعة العرقية ذاتها، وبين القوميات المرتبطة بها ثقافيًا ولغويًا و/أو تاريخيًا (السلوفاك، الصرب، الأوكرانيين، الأكراد، والعرب، على التوالى). وكان واضعو هذه البرامج يميلون إلى التغاضى عن المضامين التمييزية أو الإمبريالية الثقافية لفلسفاتهم المتسامحة والعادلة ظاهريًا.

وغالبًا ما كانت هذه البرامج السياسية تواجه تحديات بديلة من صيغ مختلفة من الهوية القومية التى تركز صراحة وبوضح على أولوية الروابط العرقية على القيم المدنية. إذ كان أعضاء "تشيكيا الفتاة" أتباع كرامر، وحزب الحق الخالص الكرواتى، والإندتسيا البولندى، والقوميون الأتراك وأنصار رابطة الوحدة التركية، وغيرهم، يتصورون تكوين مجتمعات سياسية تمثل قيمها وهياكلها ومؤسساتها تعبيرًا مباشرًا عن الطبيعة الخاصة بشعبها، والتى تلعب فيها الهوية المدنية دور التعبير العام عن القرابة العرقية. وكان قادة هذه الحركات صريحين عادة بشأن نزعتهم العرقية ويعربون عن عدم تسامحهم تجاه الأقليات. وفى نفس الوقت كانوا مخادعين فى تصويرهم لأنفسهم على أنهم المتحدثون باسم روح وتقاليد وتاريخ شعوبهم. ولم تكن برامج هؤلاء المفكرين أقل تحويلاً (بل ربما أكثر) من برامج خصومهم، وكان ميل بعضهم إلى الوحدة القومية تعبيرًا عن تطلعهم إلى إعادة تشكيل جذرى للعقليات والمجتمعات القائمة.

وقد رحبت النخب الفكرية التى غذت هذه التطلعات المتناقضة باندلاع الحرب فى 1914م، باعتبارها فرصة لتحويل الأقوال إلى أفعال، وتحقيق رؤاهم الأيديولوجية. ولكن الحرب فعلت أكثر من مجرد التأثير على مصير هذه النخب وتطور أفكارهم، فقد حولت وغيرت من ملامح مجتمعات بأكملها. ويركز الفصل التالى على تطور الهويات القومية فى ظل التأثير المباشر للحرب الشاملة.

الهوامش

(1) كانت بريطانيا وفرنسا وألمانيا تمثل النماذج الأكثر تأثيرا. وبعد الحرب الروسية اليابانية فى 1904-1905، أصبحت اليابان موضع اهتمام القوميين فى وسط آسيا وتركيا، بالإضافة إلى اهتمام القومى البولندى رومان دموفسكى.

(2) يشير مصطلح «القومية المتكاملة .nationalism» إلى شكل شوفينى يمينى من القومية التى تعتبر المصلحة الذاتية للأمة بمثابة قيمة مطلقة تخضع لها كل الاعتبارات العرقية والقيم الأخلاقية الأخرى (أو التى تتشكل على أساسها).

(3) تعتمد هذه المناقشة للسياسة البولندية قبل الحرب على الأعمال التالية:

Andrzej Garlicki, Jozef Pilsudski, 1867-1935 (ed., trans., and abridged by John-Coutouvidis, Aldershot: Scolar Press, 1995).

- R.F. Leslie, Antony Polonsky, Jan M. Ciechanowski, and Z.A. Pelczynski, The History of Poland since 1863 (Cambridge: Cambridge University Press, 1980).
- Robert E. Blobaum, Rewolucja, Russian Poland, 1904-1907 (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1995).
- Piotr S. Wandycz, "Poland's Place in Europe in the Concepts of Pilsudski and Dmowski," East European Politics and Societies, vol. 4, no. 3 (1990), 451-468.
- Adam Bromke, Poland's Politics: Idealism vs. Realism (Cambridge, MA Harvard University Press, 1967).
- Alvin Marcus Fountain II, Roman Dmowski: Party, Tactics, Ide.
- Alvin Marcus Fountain II, Roman Dmowski: Party, Tactics, Ideology 1895-1907 (Boulder, co; East European Monographs, 1980).
- Roman Dmowski, Problems of Central and Eastern Europe (London: privately printed, July 1917).
- Wiktor Sukiennicki, East Central Europe during World War I: From Foreign Domination to National Independence (2 vols, Boulder, CO: East European Monographs, 1984), chap. 6.
- Magdalena Opalski and Israel Bartal, Poles and Jews. A Failed Brotherhood (Hanover, NH: University Press of New England, 1992), 105.

(4) Gerd Linde, Die Deutsche Politik in Litauen im Ersten Weltkrieg (Wiesbaden: Ott Harrassowitz, 1965), 73.

(5) كان الأخ الأكبر لبيلسودسكى، برونيسلاف Bronislav، الذى كان طالبا فى سان بطرسبرج، قد حكم عليه بخمسة عشر عاما من الأشغال الشاقة لمشاركته فى مؤامرة 1887 أما الأخ الأكبر للينين، «ألكساندر أوليانوف ـ Alexander Ulianov» فقد أعدم لضلوعه فى محاولة الاغتيال.

- Garlicki, Pilsudski, chap. 1.

(6) Jozeph Pilsudski , Joseph Pilsudski: The memories of a Polish Revolutionary and Soldier, trans. and ed. D.R. Gillie (London: Faber & Faber, 1931), 16.

(7) انظر مقال بيلسودسكى بعنوان "روسيا "الذى ظهر فى:

- Robotnik ("The Worker," PPS party organ) in 1895, as quoted in:
- Garlicki, Pilsudski, 22.

(8) خطاب من بيلسودسكى إلى فيليكس بيرم كما جاء فى:

- Garlicki, Pilsudski, 59.

(9) استفادت الإندتسيا Endecja من انخداع العمال بجهود الإضراب الاشتراكى التى فشلت فى الحصول على امتيازات هامة من الحكومة أو رجال الصناعة. وكانت اتحادات العمال «الديمقراطية القومية» تعارض استغلال العلاقات الصناعية للإندتسيا فى تحسين أوضاع أعضائها عن طريق التفاوض القانونى.

Blobaum, Revolucja, 194-195.

(10) Stanley, Winters, The Young Czech Party (1874-1914): An Appraisal," The Slavic Review, vol. 28 (1969), 426-444.

(11) Joseph Kalvoda, The Genesis of Czechoslovakia (Boulder, CO: East European Monographs, 1986), 13-17.

- Paul Vysny, New Slavism and the Czech: 1898-1914 (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), chap 3-7.
- J.F.N. Bradley, "Czech Pan-Slavism before the First World War," The Slavonic and East European Review, vol. 40 (1961-1962), 184-205 (esp. 193-197).
- Caspar Ferenczi, "Nationalismus und Neoslavismus in Russland vor dem Ersten Weltkrieg," Forschungen zur osteuropäischen Geschichte, vol. 34 (1984) 7-127.

(12) H. Gordon Skilling, T.G., Masaryk: Against the Current, 1882-1914 (University Park, PA: The Pennsylvania State University Press, 1994), 6-7, 35-37, 101-103, and chap. 3.

- Robert Pynsent, Questions of Identity: Czech and Slovak Ideas of Nationality and Personality (Budapest: Central European University Press, 19940, 180-182.

- Kalvoda, Genesis of Czechoslovakia, 17-32.
- Roman Szporluk, The Political Thought of Thomas G. Masaryk (Boulder, CO: East European Monographs, 1981), chap. 4.

. وللاطلاع على نقد محاولة مساريك دمج الأفكار العامة والثقافية العرقية، والهجوم على النزعة النخبوية فى تفكيره، انظر:

- Eva Schmidt-Hartmann, "The Fallacy of Realism: Some Problems of Masaryk's Approach to Czech Aspirations," in.
- Stanley B. Winters, ed., T.G. Masaryk (1850- 1937), vol. 1 (New York: St. Martin's Press, 1990).

- خلا الجدل السياسى الذى دار حول مدى مصداقية بعض الأشعار الملحمية التشيكية المنسوبة للعصور الوسطى، فإن مساريك أنكر أصالة مخطوطات تلك الأشعار واعتبرها من تزييفات القرن التاسع عشر، انظر:

- Karel Capek, Talks with T.G. Masaryk, trans. Dora Round and ed.Michael Henry Heim 9North Haven, CT: Catbird Press, 1995), 120, 133, 141-144, 251.
- Skilling, Masaryk, 4-6.

- وبالنسبة لعلاقته مع اليهود وحملته العامة نيابة عن المتهمين فى الجريمة الدموية المعادية للسامية مع نهاية القرن، انظر:

- Steven Beller, "The Hilsner Affair: Nationalism, Anti-Semitism and the individual in the Habsburg Monarchy at the Turn of the Century".
- Michael E. Riff, "The Ambiguity of Masaryk's Attitudes on the "Jewish Question"," in.
- Robert B. Pynsent, ed., T.G. Masaryk (1850-1937), vol. 2, Thinker and Critic (London: Macmillan, 1989).
- Skilling, Masaryk, 81-86.

(13) تعتمد هذه المناقشة للقومية السلوفاكية وعلاقتها بمساريك على:

- Peter Petro, A History of Slovak Literature (Montreal: McGill-Queen's University Press, 1995), 94-104.
- Thomas D. Marzik, "The Slovakophile Relationship to T.G. Masaryk and Karel Kalal prior to 1914," in.
- Winters, Masaryk.
- Skilling, Masaryk, 73-75.

Szporluk, Political Thought, 19-24, 139.

- Capek, Talks, 52, 57, 169, 171.

(14) جاءت تسمية «الهلاسيين - Hlasists» من اسم بارجة الأميرال هلاس Hlas (وتعني «الصوت»).

(15) من الطبيعي أن فكرة إدماج الريف السلوفاكي في التصور التشيكي كانت تثير مشاعر مريرة من جانب الكثير من السلوفاك خلال سنوات ما بين الحربين.

(16) اعتمدنا كثيرا في مناقشة قومية سلاف الجنوب على:

- Ivo Banac, The National Question in Yugoslavia: Origins, History, Politics (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1984), 94-99.
- Nicholas, J. Miller, Between Nation and State: Serbian Politics in Croatia before the First World War (Pittsburgh, PA: University of Pittsburgh Press, 1997), 30-33, 40-52.
- Hugh and Christopher Seton-Watson, The Making of a New Europe: R.W. Seton-Watson and the Last Years of Austria-Hungary (Seattle, WA: University of Washington Press, 1981), chap. 3.
- Hugh and Christopher Seton-Watson, Ljubo Boban, Mirjana Gross, Bogdan Krizman, and Dragovan ·epiç, eds. R.W. Seton-Watson and the Yugoslavs: Correspondence, 1906-1941. Vol. I: 1906-1918 (London: British Academy, 1976), "Introduction" (pp. 12-13).
- Barbara Jelavich, History of the Balkans, Vol. I: Eighteenth and Nineteenth Centuries (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), 98-99.
- John R. Lampe, Yugoslavia as History: Twice There Was a Country (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 77-79.
- Ivo Banac, "Ministration and Desecration: The Place of Dubrovnik in Modern Croat Nationl Ideology and Political Culture," in.
- Ivo Banac, John G. Ackerman, and Roman Szporluk, eds, Nation and Ideology: Essays in Honor of Wayne S. Vucinich (Boulder, CO: East European Monographs, 1981).

(17) وكذلك يتضح مدى تأثير الفكر السياسي عند راديتش بالشعبية الروسية.

(18) Miller, Between Nation and State, 137-140, 154-155, 159.

- Milorad Ekmecic, "Serbian War Aims," in.
- Dimitrije Djordjeviç, ed., The Creation of Yugoslavia 1914-1918 (Santa Barbara, CA and Oxford, England: Clip Press, 1980), 26-27.
- Hugh and Christopher Seton-Watson, Making of a New Europe, 68-70.

- Banac, The National Question, 99-104.
- Robert Seton-Watson to Ivo Lupis Vukiç (17 October 1909).
- Smodlaka to Seton-Watson (2 May 1912).
- Lupis Vukic to Seton-Watson (15 November 1912).
- Seton-Watson to Lupis Vukic (27 November 1912) in.
- Huge and Christopher Seton-Watson, Seton-Watson and the Yugoslav, 50-54, 109, 117-120.

- وقد باءت بالفشل المحاولات المختلفة للغويين والكتاب الصرب والكروات البارزين من أجل الاتفاق على أبجدية أو لهجة فرعية مشتركة كأساس للغة أدبية يوغوسلافية موحدة.

- Banac, The National Question, 209-214.
- Dimitrije Djordjeviyc, "The Idea of Yugoslav Unity," in idem, ed., Creation, note 11.

(19) Geoffrey Hosking, Russia: People and Empire, 1552-1917 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997), 146-147.

(20) Theodore R. Weeks, Nation and State in late Imperial Russia: Nationalism and Russification on the Western Frontier, 1863-1914 (DeKalb, IL: Northern Illinois University Press, 1996), 30-40, chap. 9 and passim.

- Ferenczi, "Nationalismus und Neoslavismus," 39-40.

- بالنسبة لليمين الروسى ومعاداته للسامية وعلاقته "ببروتوكولات حكماء صهيون "سيئة السمعة، انظر:

- Steven G. Marks, The Russian Century (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2001), chap. 5.

(21) تعتمد هذه المناقشة لمواقف الأحزاب المعتدلة واليسارية من مسألة القوميات على:

- Richard Pipes, The Formation of the Soviet Union: Communist and Nationalism, 1917-1923 (Cambridge, MA: Harvard University Press,1964), 29-41,
- Weeks, Nation, 21-30).

- وبالنسبة لأطروحة «السياسة العملية - Realpolitisch» لدى «بيتر ستروف - Peter Strove» وهو أحد المفكرين الليبراليين البارزين الروس فى مسألة القوميات، انظر:

Ferenczi, "Nationalismus und Neoslavismus," 16026.

- Richard Pipes, Struve: Liberal on the Right, 1905-1944 (Cambridge, MA: Harvard University Press,1980), 88-94.

- Hosking, Russia, 446-448.

- Weeks, Nation, 27-29.

Cf. Mark von Hagen, "Writing the History of Russia as Empire: The (22) perspective of Federalism," in Catherine Evtuhov, Boris Gasparov, Alexander Ospovat, and Mark von Hagen, eds, Kazan, Moscow, Petersburg: Multiple Faces of the Russian Empire (Moscow: OGI, 1997).

(23) كان الشاعر القومى «تاراس شيفتشينكو ـ Taras Shevchenko» من بين مؤسسى هذه الجمعية التى حلتها السلطات القيصرية عقب تأسيسها مباشرة فى 1846، ولكنها تركت بصماتها على الحركات الأوكرانية اللاحقة.

John Reshetar, The Ukrainian Revolution, 1917-1920: A Study in Nationalism (24) (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1952), 6-9.

- Thomas M. Prymak, "Mykhailo Hrushevsky: The Politics of National Culture" (Toronto: University of Toronto Press, 1987), 7-8, 27.

- Ivan Rudnytsky, "The Fourth Universal and its Ideological Antecedents," in Taras Hunczak, ed., The Ukraine, 1917-1921: A Study in Revolution (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1977), 188-204.

- Hélène Carrère d'Encausse, The Great Challenge: Nationalities and the Bolshevik State, 1917-1930 (New York and London: Holmes & Meier, 1992), 19-22.

- وقد تطرق الكسندر هيرزين ?Alexander Herzen الأب الفكرى للشعوبية الروسية، لفكرة إعادة تنظيم الإمبراطورية الروسية كاتحاد ديمقراطى بين الأمم، انظر فى ذلك:

Adam Ulam, In the Name of People: Prophets and Conspirators in Prerevolutionary Russia (New York: Viking Press, 1977), chap. 2.

- Frank Fander, S.J. (Society of Jesus – The Jesuit order), Seventy Years of Pan-Slavism in Russia: Karazin to Danilevskii, 1800-1870 (Haarlem, The Netherlans: Georgetown University Press, 1962), 170-1820.

(25) بالنسبة لحركة «روتينيا اليافعة ـ Old Ruthenian» المناهضة لهابسبورج والتى تضم الأوكرانيين المحافظين المناصرين لروسيا فى جاليتشيا، انظر:

- Zbynek Zeman, The Break-up of the Habsburg Empire, 1914-1918 (London: Oxford University Press, 1961), chap. 1.

Prymak, Hrushevsky, 98-102. (26)

(27) تم إلغاء مصادرات الممتلكات خلال ثورة 1905.

- Richard G. Hovannisian, Armenia on the Road to Independence, 1918 (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1969), 17-21.

(28) Ibid., 21-22.

- Ronald Grigor Suny, Looking Toward Ararat: Armenia in Modern History (Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press, 1993), chaps 4-5.

- Anahide Ter Minassian, "Nationalism and Socialism in the Armenian Revolutionary Movement (1887-1912)," in.

- Ronald Grigor Suny, ed., Transcaucasia, Nationalism and Social Change: Essays in the History of Armenia, Azerbaijan, and Georgia (rev. edn, Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1996, 1983).

ـ كان المنافس الرئيس لحزب «الطاشناك . Dashnaks» يتمثل فى حزب الهنشاك Hnchak (بمعنى «الناقوس» وقد سمى كذلك على شرف الصحيفة الشهيرة التى أسسها «ألكسندر . هيرزين . Alexander Herzen» والذى اعتنق أيضا خليطا من الاشتراكية والشعبية والقومية، ولكن مع تركيز أكثر قليلا على المكون الاشتراكى. ولكن الانقسامات الداخلية فى الحزب خلال أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر جعلت الطاشناك يحتكرون فعليا الحركة القومية الأرمينية.

(29) Pipes, Formation, chap. 1, pp. 55-56.

- Hovannisian, Armenia on the Road to independence, 16-17.

(30) قدم الصهيونى الماركسى «بير بوروشوف . Ber Borochov» العرض التقليدى لهذه الحجة، حيث ادعى أن معاداة السامية منعت اليهود من تطوير بنية طبقية "عادية "فى الشتات، وأن تأسيسهم لمجتمع جديد فى فلسطين يمثل الطريقة الوحيدة لإصلاح هذا الخلل.

Ber Borochov, excerpt from "Our Platform," in Arthur Gertzberg, ed., The Zionist Idea (New York: The Jewish Publication Society of Armenia, 1959), 360-366.

(31) Henry J. Tobias, The Jewish Bund in Russia: From Its Origins to 1905 (Stanford, CA: Stanford University Press, 1972), chap. 7, pp. 127-130, 136-138, chaps 13 and 16, pp. 248-254, and passim.

(32) Ronald Grigor Suny, The Making of the Georgian Nation (2nd edn, Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press, 1994), chap. 7.

(33) Ibid., p. 145.

(34) See Chapter 2, pp. 16-18.

(35) Pipes, Formation, 27-28.

- d'Encausse, The Great Challenge, 22-25.

(36) Albert Hourani, Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939 (Cambridge: Cambridge University Press, 1983, edn), chaps 5-7.

- John L. Esposito, Islam and Politics (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1991), 46-52.

- Hisham Sharabi, Arab Intellectuals and the West: The Formative Years, 1875-1914 (Baltimore, MD and London: The John Hopkins Press, 1970.

ـ كانت هناك فلسفة إسلامية حديثة مشابهة فصّلها المفكر الإسلامى الهندى أحمد خان (1817-1898)، الذى كانت كتاباته المهرية تقرأ بشغف من جانب الطبقة الفكرية المسلمة الوليدة فى آسيا الوسطى الخاضعة للروس.

- Esposito, Islam and Politics, 52-56.

- Gail Minault, The Khilafat Movement: Religious Symbolism and Political Mobilization in India (New York: Colombia University Press(, 6-8, 14-24.

- Hélène Carrère d'Encausse, Islam and the Russian Empire; Reform and Revolution in Central Asia (trans. Quintin Hoare, Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1988), 56-58.

(37) Pipes, Formation, 13-15.

- d'Encausse, Islam and the Russian Empire, chap. 5.

- Jacob M. Landau, Pan-Turkism: From Irredentism to Cooperation (Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press, 1995), 9-12.

- Tadeusz Swietochoswki, Russian Azerbaijan, 1905-1920: The Shaping of National Identity in a Muslim Community (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), 31-33.

(38) فى بعض المدن التركستانية، مثل بخارى وسمرقند، استخدمت الفارسية كلغة منطوقة على نطاق واسع.

Edward Allworth, The Modern Uzbeks: From the Fourteenth Century to the Present: A Cultural History (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1990), 38.

(39) Erik Zürcher, Turkey: A Modern History (London I.B. Tauris, 1993), 100104,

- Hasan Kayali, Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism, and Islamism in the Ottoman Empire, 1908-1918 (Berkeley, CA: University of California Press, 1997), 72-74, 130-134.

(40) راجع الفصل الثانى.

(41) كان أتاتورك على خلاف شخصى مع قادة لجنة الاتحاد والترقى، وقدم نفسه كبديل راديكالى لهم، ولكن البحوث التاريخية الحديثة توضح بجلاء أن معظم سياساته يمكن فهمها باعتبارها مفاهيم مختارة من تركيا الفتاة، تمكنت من الوصووصلت إلى نتائجها المنطقية.

- Zürcher, Turkey, 180-181.

(42) اشتق اسم «لجنة الاتحاد والترقى Committee of Union and Progress» من شعار أوجست كونت «النظام والتقدم order and progress».

- M. Sükrü Hanioglu, The Young Turks in Opposition (New York: Oxford University Press, 1995), 74.

- وتعتمد هذه المناقشة لسياسات لجنة الاتحاد والترقى قبل 1908، على العمل السابق الرائد.

(43) Gustave Le Bon, The Crowd: A Study of the Popular Mind (London: T.F. Unwin, 1896).

(44) Hanioglu, Young Turks, 194.

(45) Zürcher, Turkey, 92-93.Hanioglu, Young Turks, 194.

(46) من أجل تحقيق الاتساق ,سأستخدم الصياغة العربية (الأصلية) لهذا المصطلح طوال الكتاب. فى حين أن الصياغة التركية له هى ümmet.

(47) Uriel Heyd, Foundations of Turkish Nationalism: The Life an Teaching of Ziya Gökalp (London: Luzac & Company and the Harvill Press, 1950), 55.

- Hanioglu, Young Turks, chap. 9.

(48) يرجع استخدام المصطلح «ملة millet» للإشارة إلى المفهوم الغربى للأمة فى منتصف القرن التاسع عشر إلى «نامك كمال Namik Kemal» وهو شخصية مرموقة بين الجيل الأول من المنشقين السياسيين المحدثين فى الإمبراطورية، ممن كونوا حركة «العثمانيون الشبان Young Ottomans».

- Zürcher, Turkey, 71-72.

(49) Heyd, Foundations of Turkish Nationalism, part II, pp. 55-70; chap. 5; part III, chap. 2.

- Niyazi Berkes, trans. and ed., Turkish Nationalism and Western Civilization: Selected Essays of Ziya Gökalp (New York: Colombia University Press, 1959), 137-138, 259-262.

- Ahmed Emin Yalman, Turkey in the World War (New Haven, CT: Yale University Press, 1930), 190.

(50) من الطريف فى هذا السياق أن نذكر أن دموفسكى كان يتحدث فى اجتماع منظمات قومية نظمه أحمد رضا أثناء مؤتمر سلام لاهاى فى 1899.

- Fountain, Dmowski, 112-113,

- Hanioglu, Young Turks, 128-129.

(51) حظيت فكرة التفوق العرقى الآسيوى بدفعة قوية بسبب الانتصار اليابانى على روسيا فى حرب 1904-1905.

(52) - Hanioglu, Young Turks, 210

(53) من شعر محمد أمين يورداكول Mehmet Emin Yurdakul «أيها الأتراك استيقظوا - Wake up, Oh Turk» وهى الأشعار التى تم جمعها معا فى 1918 وإن كان تأليفها قد تم قبل ذلك ببضع سنوات، كما جاء فى المرجع السابق، ص 32.

(54) المرجع السابق (38، 39).

(55) Masami Arai, Turkish Nationalism in the Young Turk Era (Leiden: Brill, 1992) chap. 4.

(56) Zürcher, Turkey, (93, 94).

(57) Erik Zürcher, The Unionist Factor: The Role of the Committee of Union and Progress in the Turkish National Movement, 1905-1926 (Leiden: Brill, 1984), 49-51,

- Reeva S. Simon, Iraq between the Toe World Wars: The Creation and Implementation of a Nationalist Ideology (New York: Colombia University Press, 1986), chap. 2.

(58) Zürcher, Turkey, (126, 133).

- Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. 2 (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), (305, 309).

-- ولاستكشاف التوتر بين القومية التركية العرقية والعثمانية الليبرالية داخل الدوائر الثقافية فى تركيا الفتاة فيما بين 1908 و 1914 انظر:

- Arai, Turkish Nationalism, chaps 1, 3-4 and Conclusion.

(59) Manug J. Somakian, Empires in Conflict: Armenia and the G :at Powers 1895-1920 (London: I.B. Tauris, 1995), 40-44.

- وافقت الحكومة العثمانية مضطرة تحت ضغط القوى العظمى فى فبراير 1914 على خطة إصلاح إدارى بإشراف دولى للإمارات الأرمينية. ولكن هذا الاتفاق لم ينفذ أبدا. المرجع السابق، 63 - 57.

(60) يقول حسن كيالى (فى دراسته عن «العرب وتركيا الفتاة») إن السياسات العامة لتركيا الفتاة ككل لم تكن تعكس أجندة قومية تركية مدركة سلفا، ولكنها كانت تعكس شكلا مركزيا من العثمانية. وبقدر ما دفع هذا نظام لجنة الاتحاد والترقى إلى الدعاية لاستخدام اللغة التركية فى النظم الإدارية والتعليمية فى الأقاليم العربية، وسوء معاملة مصالح محلية معينة، بقدر ما كان رد الفعل حتميا. ولكنه يدعى أن تصوير لجنة الاتحاد والترقى على أنها حركة قومية تركية كان وسيلة دعائية استخدمها الخصوم اللامركزيون (أنصار الاستقلال الذاتى الإقليمى الأكبر) فى العالم العربى. ومع ذلك، تفيد المراجعة التى أجراها باحثون مثل زورشر وهانى أوغلو للمراسلات الخاصة بين زعماء اللجنة أن هناك قدرا كبيرا من الحقيقة فى هذه الدعاية. وعلى أى حال، يصعب تجنب استنتاج أن العثمانية المركزية كانت ستؤدى عمليا إلى القومية التركية.

(61) Hanioglu, Young Turks, 44-49.

-............., "The Young Turks and the Arabs before the Revolution of 1908," in.

- Rashid Khalidi, Lisa Anderson, Muhammad Muslih, and Reeva S. Simon, eds, The Origins of Arab Nationalism (New York: Colombia University Press, 1991).

- Shaw and Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern turkey, vol. 2, 309-310.

(62) Kayali, Arabs and Young Turks, 34, 107.

(63) Ibid., chap. 5 and pp. 106, 132, 140-141, 179-180, 187.

- Hanna Batatu, The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes and of its Communists, Ba'thists and Free Officers (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978), 171-172.

(64) كان من بين أعضاء جمعية "العهد "عدد كبير من صغار ضباط الجيش من العراق، وكان معظمهم ينتمى إلى الطبقتين الوسطى الدنيا.

(65) Eliezer Tauber, The Arab Movements in World War I (London: Frank Cass, 1993), 113.

(66) Philip Khoury, Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 1860-1920 (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), chap. 3.

- Ernest Dawn, "The Origins of Arab Nationalism".
- Rashid Khalidi, "Ottomanism and Arabism in Syria before 1914: A Reassessment," in Khalidi et al., Origins of Arab Nationalism.
- Sharabi, Aran Intellectuals, 121-128.
- Bassam Tibi, Arab Nationalism: Between Islam and the Nation-State (3rd edn, New York: St. Martin's Press, 1997), 109-114.
- Hourani, Arabic Thought, 280-285.
- Zeine N. Zeine, Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism (Beirut: Khayat's, 1958), chap. 5.
- Kayali, Arabs and Young Turks, chap. 4 and pp. 69-70, 174-181.

(67) خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، كان هناك أيضا كتاب مسيحيون من لبنان وسوريا ممن اعتنقوا تصورا علمانيا للقومية السورية والعربية كإطار تستطيع فيه الأقليات الدينية أن تأخذ مكانها على قدم المساواة مع الأغلبية المسلمة السنية فى الشرق الأوسط العربى.

- George Antonius, The Arab Awakening (New York: Paragon Books, 1979; 1st edn, London, 1938), 45-60.
- Hourani, Arabic Thought, 273-279.
- Tibi, Arab Nationalism, 96-105.
- ولكن تأثيرهم على تطور اللغة العربية والقومية العربية لم يعد متصورا على أنه كان كبيرا كما يرى جورج أنطونيوس فى كتابه واسع التأثير المنشور فى 1938 (المشار إليه سابقا). وللاطلاع على تحليل عميق لعمل أنطونيوس كتجربة فى الجغرافيا التاريخية القومية والدعاية وصناعة الأساطير، انظر:
- William L. Cleveland, "The Arab Nationalism of George Antonius Reconsidered," in James Jankowski and Israel Gershoni eds, Rethinking Nationalism in the Arab Middle East (New York: Colombia University Press, 1997).
- Albert Hourani, "The Arab Awakening Forty Years After," in Albert Hourani, The Emergence of the Modern Middle East (Berkeley, CA: University of California press, 1981).

(68) C. Ernest Dawn, From Ottomanism to Arabism: Essay on the Origins of Arab nationalism (Urbana, IL: University of Illinois press, 1973), 143-147.

(69) كانت مصر تحت السيطرة البريطانية منذ 1882، وبالتالى كانت بعيدة عن متناول السلطات العثمانية.

(70) Rashid Rida, "Al-'Arab wa al-Turk" (The Arabs and the Turks), al- Manar (Cairo), vol. 12 (1909) as reprinted in Yusuf Husayn Ibish and Yusuf Quzma Khuri, eds, Maqalat al-Shaykh Rashid Rida al-siyasiyyah (The political essays of Sheikh Rashid Rida), vol. 2 (Beirut: Dar Ibn Arabi, 1994), 648-649.

(71) Ibid., 642.

- Malcolm H. Kerr, Islamic Reform: The Political and Legal Theories of Muhammad 'Abduh and Rashid Rida (Berkeley, CA: University of California Press, 19660, 166-175.
- Hourani, Arabic Thought, 303-306.

(72) قام مُبعد سورى آخر فى القاهرة، عبد الرحمن الكواكبى (1849-1903) بتطوير المضامين القومية لأفكار رضا خطوة للأمام بالدعوة علانية لنقل الخلافة إلى العرب. انظر:

Dawn, From Ottomanism to Arabism, 84-85, 138-143.
- Hourani, Arabic Thought, chaps 6, 9.
- Sharabi, Arab Intellectuals, 102-104.
- Sylvia Haim, "Intorno alle origini della teoria del panarabismo," Oriente Moderno, vol. 35, no. 7 (July 1956), 409-421.
- Sylvia Haim, ed., Arab Nationalism: An Anthology (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1962), 16-29.

- قالت سيلفيا حاييم: إن فكرة الكواكبى عن الخلافة العربية قد تكون عكست تأثير كتابات المستعرب البريطانى «ويلفريد بلونت - Wilfrid Blunt» وليست فكرة أصيلة. وقد أثار هذا بعض المؤرخين العرب ممن اعتبروها داعية للصهيونية. انظر مثلا:

Jan Dayah, Sihafat al-Kawakibi (The Journalism of al-Kwakibi) (Beirut: - Mu'assasat Fikr lil-Abhath wa-al-Nashr, 1984), 117-135.

(73) Kerr, Islamic Reform, 153-166, 219-223.

(74) Hourani, Arabic Thought, 309-311.

(75) انظر مناقشة لياه جرينفلد المستفيضة لهذه الظاهرة التى أعلنت عن نفسها فى روسيا وألمانيا.

Liah Greenfeld, Nationalism: Five Roads to Modernity (Cambridge, MA: - Harvard University Press, 1992), chaps 3-4).

(76) Landau, Pan-Turkism, 34. Zürcher, Turkey, 136.

الفصل الرابع

تصفية الأشكال الإمبريالية

1914م - 1918م

كانت الحرب العالمية الأولى حربًا شاملة على نطاق غير مسبوق، ولم تستطع أية شريحة من سكان الإمبراطوريات متعددة الأعراق الإفلات من تأثيرها. ومع تقهقرها وتقدمها غطت الجبهات العسكرية فى أوربا الشرقية مساحات شاسعة بالتدمير والمذابح والاغتصاب والسلب والنهب، وكأنها نار فى الهشيم. وفى العديد من أقاليم أوربا الشرقية والشرق الأوسط التى لم يكن سيف الحرب مسلطًا على رقابها بشكل مباشر، أخذت سلطة الإدارة الإمبريالية أبعادًا جديدة، لأن المؤسسات العسكرية سطت على سلطة الإدارة المدنية أو حلت محلها. وأدى التجنيد الإجبارى للجماهير، وصدمة المعركة وعصبية القتال، ومقتل وإصابة الأحباء، ومصادرة الممتلكات، والقصور والعجز فى معظم السلع الأساسية، وسحب النساء إلى قوة العمل، والغزو الأجنبى والاحتلال العسكرى، وتدفق اللاجئين دخولاً وخروجًا، بهذه الطرق وغيرها، إلى تأثير مباشر وعنيف على معظم قطاعات المجتمع. وهكذا أدت صدمة تجربة الحرب إلى جعل الناس من أقل الطبقات تعليمًا وأبعد الأقاليم يدركون أن حياتهم اليومية كانت مرتبطة بالسياسة بطرق لم يتخيلوها من قبل(1).

ولكن القول إن الجميع قد تأثر بالحرب، لا يعنى القول إن طبيعة التجربة أو أنماط الاستجابات التى أثارتها كانت متشابهة فى جميع الأرجاء، إذ إن تأثير الحرب على عقليات وهويات الشعوب تغير كثيرًا عبر الزمن، واختلف كثيرًا عبر الأقاليم والثقافات والمجموعات العمرية والنوعية والطبقية، فضلاً عن الاختلافات بين مقاتلى الجبهة الأمامية والمدنيين. فبعد الانطلاق المبدئى للحماسة الجماهيرية والتضامن البطولى بين سكان الحضر فى كل الدول

المحاربة الكبرى فى الأيام والأسابيع الأولى من الصراع، بدأت التجارب والرؤى وردود الأفعال تفترق بدرجات أكبر حدة.

وتمثّل أحد أنماط هذا الافتراق فى عزل رعايا القوميات السائدة عن النخب السياسية الإمبريالية داخل الإمبراطوريات متعددة الأعراق. حيث أدى الإحساس بأن هذه الحرب المستنزفة غير المنتهية نشبت بسبب مصالح النخب السياسية إلى إثارة إحساس جماعى بالاغتراب بين شعوب ورعايا الإمبراطوريات، هذا بالإضافة إلى الاعتقاد المتزايد بأن عبء الحرب لم يكن موزعا توزيعا عادلاً بين المجموعتين. ففى حالات كثيرة، كان هذا الإدراك يعزز أساطير الفداء القومى ويوقظ توقعات يسوعية بالخلاص الجماعى.

وفى نفس الوقت يجب أن نؤكد على أن أثر الحرب على المجموعات العرقية المختلفة كان بعيدًا عن التجانس. فبحلول 1918م، كانت لغة الخطابة وتصورات التحرر القومى قد أصبحت وسيلة شائعة للتعبير عن المشاعر والتطلعات السياسية عبر طيف اجتماعى واسع لدى العديد من هذه الشعوب. ومع ذلك فإنه بدلاً من صك سياسة مشتركة، أصبحت القومية تأخذ شكل تعدد الطوائف التى كانت قيمتها التبادلية موضع تساؤل. فماذا كانت حقيقة المضامين السياسية والاقتصادية لحركات لتقرير المصير القومى؟ وما هى المجموعات التى تستحق أعلى مصداقية لتحقيقها؟ ومن كان الأكثر تأهيلاً للاستفادة منها؟ فهذه كانت تساؤلات بلا إجابة، وكان لهذه التساؤلات آثار انقسامية حادة، وذلك لأن لغة القومية أثارت توقعات عالية للتضامن الاجتماعى والخلاص الجماعى. وكانت الإجابات عن هذه الأسئلة، وحتى طبيعة القضايا المثارة، تختلف من مجموعة لأخرى. ففى داخل أية قومية معينة، كان هناك جنود فى الجيوش الإمبراطورية، ومتطوعون فى الكتائب الوطنية يعملون تحت إمرة «العدو»، ومدنيون من الطبقة الوسطى، وأشخاص مبعدون، وعمال صناعة، وفلاحون، وقادة سياسيون استمروا فى إعلان الولاء للنظم الإمبراطورية حتى فى الحرب، وسياسيون قوميون منفيون كرسوا جهودهم لتفكيك الإمبراطوريات، بالإضافة إلى الكثير من الفئات الأخرى صاحبة العمل والتجربة. ولذلك أصبحت المشروعات المستقبلية السياسية

والاجتماعية التى يجب التوفيق بينها فى إطار «الوحدة القومية» بعد 1918م جد متباينة.

ويركز هذا الفصل على مجموعة من الحالات لاستكشاف مدى الآثار التى أحدثتها الحرب على مفاهيم الهوية بين أعضاء القوميات التابعة[2] (فى الأطر المقيدة للإمبراطوريات متعددة القوميات. وسيولى الفصل التالى عنايته بالمجالات الجديدة للنشاط والوعى القومى أثناء الحرب، والواقعة خارج نطاق الأطر الإمبريالية المستقرة.

جبهة الحرب، إمبراطورية الهابسبرج

كان اندلاع الحرب فى إمبراطورية الهابسبرج فرصة لإثبات الولاء المطلق من جانب القادة السياسيين فى جاليتشيا، وكرواتيا، وسلوفينيا، وبوهيميا، وغيرها. وفى الواقع، كان هناك أمل فى أن إظهار الولاء الشديد وقت الحرب للتاج سوف يحقق عائدًا فى صورة فرص أكبر للحكم الذاتى بعد الحرب. ولكن حقيقة أنه كانت هناك حاجة لإظهار الولاء للملك توضح فى حد ذاتها الثقافة السياسية البالية لدولة الهابسبرج، بالإضافة إلى عدم تماسكها.

وأدت الأضرار الجسيمة على الجبهة الروسية بالإضافة إلى الخسائر الاقتصادية الهائلة فى المجهود الحربى إلى الحد من ولاء القوميات المسيطرة والخاضعة معًا. وقدمت الإمبراطورية النمساوية المجرية مشهدا متناقضا لدولة ملكية تخوض حربًا شاملة، ولكن متطلبات استمرار هذه الحرب لا تستطيع تلبيتها سوى دولة تستطيع إلهام شعبها بالإحساس بأن مصيرها القومى معرض للخطر فى هذا الصراع. وفى حالة إمبراطورية الهابسبرج، ربما كانت هذه الفكرة غامضة بالنسبة للمجريين، ولكن نظرًا لأن الصراع كشف إحساسهم بالمصير القومى المتميز، فقد زاد اغترابهم عن الصرح الإمبريالى الذى ظلت قاعدته فى فيينا. وفى الواقع، فقد منعت الحكومة المجرية توريد الحبوب عن النصف النمساوى من المملكة، بينما اتهمت جيش الهابسبرج بتبديد أرواح المجريين بأعداد غير تناسبية على جبهات القتال[3]. وبالنسبة للألمان النمساويين، فإن تقوية المشاعر القومية التى مروا بها أدت إلى تفاقم صراعهم مع التشيك والمجريين، بل إنها زادت التوتر بين نموذج الوحدة الألمانية والولاء لدولة

الهابسبرج. ففى النهاية كانت برلين مركز جذب أقوى كثيرًا للمشاعر القومية للألمان مقارنة بفيينا.

وبالنسبة للعديد من المجموعات العرقية الأخرى، كانت المشاعر القومية ترتبط مباشرة بالتعاطف مع قضية «الحلفاء». فقد كان هناك أناس كثيرون من كل القوميات يشعرون بالإحساس بالولاء الشخصى للبطريرك الكهل، القيصر فرانز جوزيف الذى حكم الإمبراطورية بأسرها من (1848م - 1916م). وربما كانوا يقدرون الدولة النمساوية المجرية كمصدر للاستقرار وحكم القانون، وكان البولنديون واليهود فى جاليتشيا يتطلعون إلى فيينا لحمايتهم مما كانوا يعتبرونه الجماعات البربرية للجيش الروسى، ولكن النظام الذى كان معزولا عن أى مفهوم للهوية القومية كان غير قادر على إطلاق شرارة الحماسة الجماعية التى تساعد السكان على تحمل الحرمان والمتطلبات القاسية للحرب الشاملة.

وكلف «هجوم بروسيلوف . Brusilov» الروسى فى صيف 1916م، الجيش النمساوى المجرى 570 ألف رجل (كان أكثر من نصفهم أسرى حرب) قبل أن يجبر تدخل الجيش الألمانى الروس على التقهقر فى حالة فوضى. وأصبحت الملكية المزدوجة أكثر تبعية من ذى قبل لبرلين فى مواصلتها للمجهود الحربى؛ لأنها أذعنت لتكوين قيادة عسكرية مشتركة كانت السيطرة فيها للألمان(4). وفى نوفمبر 1916م، أثار الإعلان المشترك من الهابسبرج والألمان إقامة المملكة البولندية على إقليم مقتطع من روسيا الآمال بين سلاف إمبراطورية الهابسبرج فى انضمام بولندا المستقلة ذاتيًا إلى دولة الهابسبرج التى ستتحول إلى اتحاد عرقى. ولكن هذه الآمال تبددت لأن الكيان البولندى الجديد تحول إلى مجرد واجهة لسيطرة الألمان. وأخيرًا، فإن موت فرانز جوزيف (فى نوفمبر 1916م أيضًا) بعد 68 سنة فى الحكم، أزاح من الساحة شخصية كانت تجسد تصورات الشرعية الملكية والأبوية المبجلة التى كانت ضرورية للوطنية النمساوية المجرية(5).

واعترف الإمبراطور الجديد، كارل الأول، بأن الدولة التى آلت إليه كانت فى وضع هش لا يستطيع مقاومة ضغوط الحرب، فقدم عروضًا للقوميات السلافية بزيادة إمكانية تفويض السلطة إليهم. وعاد البرلمان للانعقاد فى مايو 1917م، بعد

توقف لثلاث سنوات. واستخدم كارل الأول أيضًا قنوات خاصة لاستكشاف إمكانية التفاوض على سلام منفصل مع «الحلفاء».

وعندما أدى الانفتاح العلنى المبكر إلى حل لغز اتصالاته الدبلوماسية السرية فى ربيع 1918م، وجد كارل الأول نفسه أكثر عرضة لمطالب وضغوط حلفائه الألمان الغاضبين. ومع تضاؤل أفق إبعاد إمبراطورية الهابسبرج عن المجهود الحربى، شعرت قوات الحلفاء بأنها لن تخسر شيئًا بتشجيع تفككها، وبدأت تتبنى علانية فكرة الاستقلال السياسى الكامل لقومياتها[6]. وعلى الجبهة الداخلية، أصبح البرلمان الذى عاد للانعقاد منبرًا للمواجهة بين التشيك والألمان، وليس مسرحًا للتوفيق بينهما. وهكذا وجدت دولة الهابسبرج الهشة، والمستقطبة بصورة متزايدة، نفسها غير قادرة على الحصول على مزايا إضافية من هزيمة ألمانيا لروسيا فى 1917م، لأن انتشار التمرد والفرار الجماعى أصابا جيشها. وفى أكتوبر 1918، عندما أصبح انتصار الحلفاء على الجبهة الغربية وشيكًا، كان عرض الحكم الذاتى الذى قدمه كارل الأول لقوميات النصف النمساوى من الإمبراطورية يعتبر علامة ضعف لا شهامة. واستجاب قادة الشعوب الخاضعة فى المملكة بإعلان الاستقلال السياسى (أو موالاة الدول القومية المجاورة مشتركة العرقية)، تاركين النمسا والمجر كدول مهزومة معزولة فى وسط الخريطة السياسية المتحولة لأوربا الوسطى.

ولكن إلى أى حد، وبأى الطرق كان هذا التدهور التدريجى ثم الانهيار المفاجئ التام لدولة النمسا - المجر يرتبط بالقوميات الجماهيرية بين شعوبها؟ يستطيع المرء على الأقل أن يؤكد أن المملكة فشلت فى الحفاظ على ولاء قطاعات هامة بين نخبها وجماهيرها الإقليمية، وتركت المجال مفتوحًا لمجموعات صغيرة، ولكنها قوية، من القادة الانفصاليين. ولكن هل يمكن أن نتمادى ونقول إن الحرب شجعت على نمو العداء ضد الإمبريالية بين الجمهور العام، مما شجع على تطور المشاعر القومية التى كانت لا تتسق مع استمرار وجود مملكة الهابسبرج؟ وتعتبر الإجابة عن هذا السؤال محيرة؛ لأن المصادر المادية المناسبة متفرقة نسبيًا، إذ يوجد فى متناولنا مجلدات من كتابات وخطب قادة ومفكرين سياسيين، بينما كان معظم الناس الآخرين أقل اهتمامًا بتسجيل توجهاتهم وعقلياتهم المتغيرة. ومع ذلك، فإنه

من خلال تجميع خطابات الجنود من الجبهة، والسجلات العسكرية، والتقارير الصحفية المعاصرة، وتقارير الشرطة عن التجمعات العامة، وسجلات أعمال المحاكم، ومن خلال الاستنتاجات المعقولة من أعمال ومطالب المضربين والمتمردين والفارين والمتظاهرين، والمقاومين، والقادة السياسيين المحليين، استطاع المؤرخون صياغة فرضيات عملية حول تغيرات الوعى السياسى التى شهدتها الطبقات والأقاليم خلال سنوات الحرب.

ولقد لعبت العرقية فى معظم الحالات دورًا فاعلا فى التأثير على تجربة زمن الحرب، فى حين أن الحرب شكلت بدورها بناء الهويات القومية. ومع ذلك، كانت أنماط تطور الوعى الاجتماعى والسياسى بعيدة عن التشابه، فبالتركيز على ثلاثة مجالات متميزة ومنفصلة من النشاط - جيش الهابسبرج، والجبهة الداخلية التشيكية، والجبهة الداخلية السلافية الجنوبية - يمكن أن نرسم صورة لمدى الاستجابات للحرب بين أعضاء القوميات الخاضعة للإمبراطورية.

ولاءات خط الجبهة

كان جيش النمسا - المجر، الذى يعتبر واحدًا من آخر المؤسسات الإمبريالية للمملكة المزدوجة بعد 1867م، يتمتع بأهمية تفوق توفير الأمن والدفاع عن الدولة، إذ كان رمزًا عامًا قويًا للوحدة الإمبريالية، وأداة للتكامل بين الأعراق[7]. ولذلك كانت قدرته على الحفاظ على التماسك الداخلى ضرورية جدًا عندما قبلت إمبراطورية الهابسبرج تحدى الحرب الشاملة. وبنفس المنطق، فإن أية ضغوط طاردة داخل صفوفه يمكن أن تكون لها آثار مضاعفة تتخطى المجال العسكرى إلى المجال السياسى[8].

لقد كان أداء الجيش مدهشًا فى الحرب، بالرغم من القيود الهائلة التى كانت عليه حسب معظم التقارير، وهذا يعنى القول إن طول مدة عمل هذا الجيش كمؤسسة كان أمرًا ملحوظًا، أخذا فى الاعتبار طبيعته متعددة العرقيات، بالإضافة إلى حالة انخفاض تجهيزه النسبى[9]. فبالرغم من عدم قدرته على تحقيق نصر حاسم على أية جبهة بدون مساعدة مباشرة من ألمانيا، فإنه كان قادرًا على اجتياز بعض الاعتداءات العقابية فى القطاع الإيطالى، والحفاظ على

دفاع فعال هناك حتى سبتمبر 1918م. وكانت فرق الضباط أكثر عناصر هذا الجيش تماسكًا ، إذ كانت هذه الفرق واحدة من أكثر المؤسسات الباقية فى المملكة حيادًا من ناحية العرقية، فبالرغم من أن أكثر من نصف الذين اختاروا أن يصبحوا ضباطًا محترفين كانوا من الألمان العرقيين، فإن الترقيات كانت تتحدد على أساس الجدارة، وليس القومية(10). وعادة ما كان هؤلاء الضباط أبناء عاملين مدنيين تنقلوا وأسرهم من إقليم لآخر فى أرجاء الإمبراطورية، مع تعيينهم فى إمارات مختلفة طوال مسار حياتهم الوظيفية. وقد منعت هذه الخلفية النمطية للحراك الجغرافى خلال الطفولة، بالإضافة إلى روح التعليم العسكرى، معظم الضباط من الوقوع فى شرك تحديد الهوية على أساس عرقى، والذى كان ينخر فى أسس المملكة فى السنوات التى أدت إلى الحرب وخلالها أيضًا. وكان الولاء المطلق لدى الضابط العادى موجهًا إلى فوجه وإلى الملك الإمبراطور، الذى قطع له عهدًا شخصيًا بالولاء(11).

أما فيما بين المجندين العاديين، فقد كان الإحساس بالهوية الجماعية أضعف كثيرًا. وكان جنود الهابسبرج، ومعظمهم فلاحون، يمكن الاعتماد عليهم فى إطاعة الأوامر، والحفاظ على القانون والنظام المحلى: حيث كانوا يرسلون بعيدًا عن إماراتهم بصورة منتظمة كجزء من منهج واع لحل مشكلة القوميات عن طريق سياسة «فرق تسد». وكان يبدو أن الكثيرين منهم يشعرون بالولاء للملك الإمبراطور، ولكن عندما تصل الأمور إلى ويلات الحرب، فإن أداءهم غالبًا ما يكون رديئًا ومعنوياتهم ضعيفة. ولم تظهر أية درجة من الحماسة للقتال بين الجماهير الموحدة إلا على الجبهة الإيطالية، وذلك لأن دخول إيطاليا (الحليف السابق) فى الصراع إلى جانب "الحلفاء" كان يعتبر طعنة فى ظهر المملكة، واستغلت الدعاية النمساوية خطط إيطاليا لضم أراض سلافية جنوبية بين الكروات والسلوفينيين بنجاح(12).

وكان أداء ومعنويات الجنود العاديين سيئًا جدًا، وذلك بسبب حقيقة أن معظم الجنود الذين دخلوا الحرب فى 1914م، كانوا قد قتلوا أو أصيبوا أو أسروا فى أول سنتين منها. فبحلول 1916م، حل محل شباب 1914م مجندون جدد وتشكيلات احتياطية تم استدعاؤها على عجل لإشباع نهم آلة الحرب الشرهة.

وهكذا لم تستطع هذه القوات المتداعية، التى لم يتم إعدادها بصورة كافية، وكانت تفتقر إلى الثياب والطعام، أن تغير من حقيقة أن الجيش الروسى كان أكثر انهيارًا. وكان الانتصار النمساوى. المجرى على الإيطاليين فى «معركة كابوريتو . Battle of Caporetto» فى سبتمبر 1917م آخر إنجاز لجيش الهابسبرج، وبعدها كان انهياره سريعًا.

ويتضح الإحساس المتزايد بحنق الجنود العاديين على الاستبداد الهابسبرجى المتغطرس، وتزايد نفاد صبرهم تجاه المتطلبات القاسية للنظام العسكرى، من خلال الرواية الهزلية للمؤلف التشيكى «يروسلاف هاسيك . Jaroslave Hasek» بعنوان «الجندى الصالح سفيك . Svejk» حيث يقضى بطل القصة التشيكى المزيف الحرب متسللاً عبر كل مهرب بيروقراطى ممكن، ومستغلاً كل فرصة ممكنة للتهرب من واجباته وتجنب القتال، مع الحفاظ طوال الوقت على مظهر البساطة البريئة[13]. وفى الواقع، كان الكثيرون ممن حاربوا بالزى النمساوى يفعلون ذلك غير متحمسين. وفى إبريل 1915، صدمت السلطات النمساوية من استسلام معظم فوج المشاه الثامن والعشرين البالغ عددهم 2000 جندى تقريبًا، من بوهيميا، للروس، وذلك فى ظروف تشير إلى الفرار إلى العدو. وكان هذا الفوج، الذى كان الكثيرون من جنوده عمالاً صناعيين مرتبطين بالحزب الاشتراكى القومى الموالى للروس، واحدًا من تشكيلين كانا قد احتجا بشدة على إرسالهم للحرب ضد زملائهم السلاف عند انطلاقهم من براغ قبل ذلك بسبعة أشهر. إذ إن التزام هذا الفوج بالمجهود الحربى لم يتزايد بسبب خبرته أثناء وجوده فى المجر، حيث أكد الاتجاه المعادى للسكان المجريين المحليين الشعور بأن النمسا . المجر، وليس روسيا، هى العدو الحقيقى للشعب التشيكى[14].

وفيما بين السلاف الجنوبيين فى الخدمة العسكرية فى الهابسبرج، كانت القوات الصربية تميل إلى الفرار أو اللجوء إلى العدو (خاصة على الجبهات الصربية والروسية)[15]، وكلما طالت الحرب، كلما تضاعفت هذه الأحداث بين السلوفينيين والكروات أيضًا. ولكن الوحدات التى كانت فى المؤخرة كانت الأكثر ميلاً لتحدى السلطات . حيث ساهم عدم النشاط النسبى فى انخفاض المعنويات، وساعد الاتصال بالسكان المدنيين على زيادة حساسية القوات للتغيرات فى المناخ

السياسى. وكانت وحدات الاحتياط، التى تكونت أساسًا من رجال مستبعدين من الخدمة فى الخطوط الأمامية بسبب خلفيتهم كطلاب جامعات أو قساوسة، أو مدرسين، بمثابة أرض خصبة لغرس الأفكار الثورية والقومية. كما التحق أفراد غير لائقين أو المشاغبين بهذه الوحدات وغيرها من وحدات المؤخرة، مما ساهم فى ضعف النظام وزيادة نزعات التمرد لدى هذه التشكيلات. وخلال أوائل 1918م، اندلعت حركات التمرد التى قادها البحارة السلاف الجنوبيون فى أنحاء الأسطول النمساوى المجرى الذى ظل عاطلاً قبالة ساحل دالماشيا. وبالرغم من قمع هذه الحركات، فإنه تبعتها سلسلة من الحركات بين وحدات المشاة السلافية الجنوبية المتمركزة فى كرواتيا. سلوفينيا، وألمانيا، والبوسنة، وهى الوحدات التى كانت تضم عشرات الآلاف من أسرى الحرب السابقين المفرج عنهم حديثًا من الأسر فى روسيا، حيث شهدوا التحول الثورى للجيش والمجتمع. وساعد انخفاض كميات الطعام فى إثارة هذه الأعمال، ولكنها غالبا ما كانت تأخذ شكلاً سياسيًا واضحًا. وكانت مخططات التمرد تعكس خليطًا من التطلعات القومية والاجتماعية الثورية: حيث كانت الشعارات المؤيدة للبلاشفة تتردد فى صيحات مثل: «عاشت يوغسلافيا» أو «تحيا سلوفينيا».

ورغم أنه كان بوسع الهابسبرج قمع حركات التمرد الفردية فى المؤخرة بالقوة، فإنه بحلول أكتوبر 1918م - فى أعقاب هجوم فاشل شنته الهابسبرج على نهر «بييف - Piave» فى يونيو - كانت حتى القوات على الجبهة الإيطالية قد فقدت كل الرغبة فى القتال من أجل قضية خاسرة. وكذلك قامت الوحدات المجرية بترك خنادقها كما فعل الجنود السلاف. وعندما أصبح الانهيار النهائى لمملكة الهابسبرج واضحًا، تفككت آخر حصون الولاء الملكى - فيالق الضباط - فى النهاية أيضًا؛ لأن معظم الضباط وضعوا أنفسهم تحت تصرف اللجان القومية التى كانت تنتشر فى أقاليمهم المحلية[16].

ولكن ما الذى تقوله لنا الرواية السابقة عن دور القومية فى جيش النمسا - المجر؟ بالطبع لا يمكن اعتبار رفض الجنود للموت فى المعارك، أو الضياع فى الثكنات فى حد ذاته دليلاً على القومية الانفصالية. فقد واجهت القيادة الفرنسية تمردًا على نطاق واسع على الجبهة الغربية فى 1917م، ولم تكن القوات

الروسية العرقية فى جيش القيصر أكثر رغبة فى القتال من قوات القوميات الأخرى[17]. فقد فرض زلزال «الحرب العظمى» آثاره على قدرات وتماسك ونظام كل الجيوش. وبالعكس، فإن الحكمة المقبولة لدى المؤرخين العسكريين تتمثل فى أن الإحساس بالزمالة الحميمة داخل الوحدة العسكرية يعتبر أكثر أهمية من الوطنية فى الحفاظ على المعنويات والنظام فى ظل الضغوط الشديدة للحرب. فعند مواجهة زيادة احتمال الموت المرعب، تصبح «روح الجماعة» والاتصال المباشر بين المحاربين بعدًا أكثر أهمية فى تجربتهم من أى ارتباط آخر مع أى «مجتمع متخيل»[18].

ولكن الشىء المضلل فى هذا التعميم يتمثل فى أنه يتجاهل العلاقة المحتملة بين هذين الإطارين المرجعيين. فمن الواضح أن الوطنية ليست شرطًا كافيًا لإقرار النظام بين القوات، ولكن طبيعة ولاءاتها السياسية يمكن أن تلعب دورًا حيويًا فى تحديد الهدف المشترك الذى توجه إليه «روحها الجماعية». فقد طغى الاستياء العام من الدولة والجيش النمساوى - المجرى على روح الجماعة لدى الوحدات العسكرية، وذلك مثل فيلق المشاة الثامن والعشرين التشيكى الذى استسلم بسهولة للروس فى إبريل 1915م. ويمكن القول: إن التماسك الداخلى لمثل هذه التشكيلات لم يتعرض للانهيار التام، ولكن سلوكها الجماعى تعرض لإعادة التشكيل بسبب الوعى القومى[19]. فقد انهار النظام هنا، ولكن الفروض الوطنية الأساسية ظلت سليمة، حيث تركزت مطالب هؤلاء الجنود على الاهتمامات المباشرة مثل عدم كفاية الإجازات من خطوط الجبهة، والسلوك العنيف من جانب الضباط، وعدم صلاحية الطعام، وغير ذلك. وكانت مطالباتهم بإجراء محادثات سلام مباشرة تعتبر أنه من المسلم به أن عودة «الألزاس - اللورين Alsace-Loraine» إلى فرنسا يجب أن تكون جزء من التسوية النهائية. ولم يكن يبدو أن المبرر الأخلاقى العام للمجهود الحربى الفرنسى كان موضع نقاش واسع، ومن المؤكد أنه لم يكن هناك فرار جماعى إلى العدو[20].

وهكذا يتضح أنه كان هناك قدر كبير من الارتباط بين الوعى العرقى الثقافى ومعدلات الفرار المتفاوتة فى جيش الهابسبرج. فقد كان جنود القومية السلافية يفرون بمعدلات أعلى من الألمان أو المجريين (بالرغم من أنه فى الشهور الأخيرة

من الحرب كانت معدلات الفرار تتصاعد بسرعة بين هاتين المجموعتين أيضًا)، وكانت القوات السلافية أكثر ميلاً للفرار على الجبهتين الروسية والصربية منها على الجبهة الإيطالية. وبالعكس، فإن القوات العناصر الإيطالية (من ساحل دالماشيا وتيرول الجنوبية الخاضعة للحكم النمساوى) فرت بأعداد كبيرة غير تناسبية على الجبهة الإيطالية[21]. وتشير هذه الأنماط إلى أن الإحساس بالارتباط العرقى مع العدو يقوّض ولاء بعض الجنود للإمبراطورية. ويمكن التخمين أنه بالنسبة لكل جندى خاطر بمبادرة الفرار، كان هناك عدة جنود آخرين لم تسنح لهم فرصة القيام بذلك، ولكنهم كانوا مع ذلك يرفضون إجبارهم على التورط فى قتال مميت مع أقرانهم الذين لا يعتبرونهم أعداء[22].

وكان الاستياء من المسألة النمساوية المجرية منتشرًا بين الجنود الذين انتهى بهم الأمر كسجناء فى روسيا. ففى صيف 1918م، وبعد أشهر قليلة من توقيع معاهدات السلام مع «قوى المركز» فى «برست ـ ليتوفسك Brest-Litovs » بدأ البلاشفة فى إطلاق مئات الآلاف من أسرى الحرب من الألمان والهابسبرج. وبمجرد أن عاد هؤلاء الرجال إلى ديارهم، وجد الكثيرون منهم أنفسهم مدفوعين مرة أخرى إلى ارتداء الزى العسكرى والذهاب إلى جبهات جديدة. وكان ذلك سببا فى تسييسهم، إذ لم يكن هناك شىء آخر يستوعبهم. فبعد الاحتجاز فى المعسكرات ومعاناة الحرمان الشديد لسنوات كان هؤلاء الرجال غير مستعدين للرجوع كوقود للمدافع عقب عودتهم التى طال انتظارها إلى أراضى أوطانهم.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن وجودهم فى روسيا أثناء الاضطراب الثورى فى (1917م ـ 1918م)[23] جعلهم أكثر ميلاً إلى مناقشة مسألة السلطة والوعى بإمكانية استخدام العمل الشعبى لتحدى الوضع القائم. ولعب أسرى الحرب السابقون أدوارًا رائدة فى إثارة العصيان والتمرد فى الجيش النمساوى ـ المجرى، خلال صيف وخريف 1918م، وساهموا فى إضعاف القانون والنظام فى بعض الأقاليم، بل إن فرق المتطوعين الرئيسة للفيالق القومية التشيكية والسلافية الجنوبية، جاءت من بين صفوف أسرى الحرب فى روسيا (انظر الفصل الخامس)[24].

واختصاراً، فإن أداء الجيش فى الحرب يلخص أوجه القوة والضعف لإمبراطورية الهابسبرج. فخلال معظم فترات الحرب، كان أغلب القوات ترى فى وجود الإمبراطورية - والالتزام بالدفاع عنها - أمرًا مسلمًا به. إلا أنه باستثناء الجبهة الإيطالية، لم يكن أعضاء القوميات الخاضعة يشعرون بأنهم عندما يقومون بأداء واجبهم تجاه الملك الإمبراطور فإنهم كانوا يحمون أية مصالح حيوية لشعوبهم فى نفس الوقت. وفى الواقع، فإن الحكم العسكرى لم يبذل أى مجهود لغرس مثل هذه المشاعر فى القوات[25]. إذ كان تماسك جيش الهابسبرج يدور دائمًا حول الولاء لشخص الملك، وكانت الهوية العرقية والانتماء الإقليمى من الأشياء التى يجب نسيانها عندما يلتحق المرء بالجيش. وقد ثبت أن جهود اللحظة الأخيرة - التى بدأتها فى مارس 1918م، (الاستخبارات المضادة لتنظيم التعليم الوطنى Valterlandischer Unterrucht) للقوات - كانت فاشلة تمامًا بسبب اعتمادها المفرط على المحاضرات والمنشورات التعليمية، وكانت تقليدية بصورة مؤسفة لتركيزها الجامد على قيمة دولة الهابسبرج والطبيعة الخيرة المحبة للسلام لحاكمها. وكانت المذكرات التى توزع على الجنود الذين أرهقتهم الحرب وذاقوا مرارتها تشمل عبارات قوية مثل: «لا يستحق الاحترام والحب سوى ملك عادل، وليس هناك سوى التلاحم الحزبى الذى بوسعه ضمان حصول كل فرد على نصيب عادل من الحقوق والخيرات»[26].

ولكن مثل هذا النوع من الحملات الدعائية لم يؤد سوى إلى زيادة إحساس الجنود البسطاء بالاغتراب. وفى الواقع، كانت السلطات المجرية - التى حاولت غرس الإحساس بالحماسة القومية بين القوات المجرية - تعارض صراحة هذا الجهد المتأخر جدًا لإحياء ولائهم الملكى غير القومى؛ أى أن المبدأ الموحد لجيش الهابسبرج أصبح بمثابة مفارقة تاريخية، وأدت محاولة اللحظة الأخيرة التى قام بها الملك الإمبراطور كارل الأول فى نهاية أكتوبر 1918م - للدخول فى مساومة جديدة مع القومية ا جرية بإعفاء القوات المجرية من قسم الولاء الشخصى له - إلى زيادة انضمام الج ود المجريين للتيار متعدد العرقيات من الفارين من خطوط الجبهة. وفى الساعة الأخيرة لإمبراطورية الهابسبرج، كانت كل قومياتها متفقة فى تصميمها على التخلى عنها[27].

وفى التحليل النهائى، نجد أن التركيب متعدد القوميات لجيش الهابسبرج لم يكن السبب الرئيس لفشله العسكرى، فقد كانت هناك عناصر محددة أخرى مثل التركيب القروى للقوات المسلحة، وعدم ملاءمة إمكانات النقل والإمداد، وعدم قدرة اقتصاد الهابسبرج على مواصلة مجهود الحرب الشاملة، والانهيار النهائى للحليف الألمانى. ولكن الإفساد وإضعاف المعنويات الذى ارتبط بهذا المجهود الحربى، والتلاعب فى ظل تلك الظروف بفكرة الولاء الشخصى لشخص الملك، وفشل سلطات الهابسبرج فى تكوين إطار بديل للدافع الجماعى، كل هذا ساعد على تقويض الولاء للإمبراطورية بين القوات. هذا إذا ما افترضنا أن الهوية العرقية قد ظهرت فقط كإطار مرجعى للجنود المتمردين والفارين. وبعبارة أخرى، لم تتسبب الهويات العرقية بحد ذاتها فى هزيمة الهابسبرج، ولكن منهج الهزيمة أدى إلى تفكك الجيش على أسس قومية عرقية. وبدون استمرار تماسك الجيش كرمز يفرض الوحدة الإمبريالية، لم يكن هناك أى شىء آخر يحقق تماسك الدولة النمساوية المجرية معًا. وقد أدت السنوات الأخيرة من الصراع إلى تطورات جوهرية على الجبهة الداخلية أيضًا، وذلك كما توضح الحالتان التاليتان.

الجبهة الداخلية التشيكية

بالرغم من أن التحدى التشيكى العلنى لسلطة الهابسبرج لعب دورًا مهمًا فى تفكك الإمبراطورية ككل، فإن الروح القومية لم تظهر نفسها على أساس متسق ومنسق قبل (1917م، 1918م). فخلال السنتين والنصف سنة الأولى من الحرب، كان نشاط الأحزاب السياسية التشيكية الرئيسة يفتقر إلى الكثافة المركزة لنشاط مساريك السياسى فى المنفى (انظر الفصل الخامس). وتمتع عدد من القادة الذين بقوا فى براغ بآمال التحرير على يد روسيا أو بآمال الانهيار الداخلى للإمبراطورية النمساوية المجرية. ومع وضع هذا فى الحسبان، أجرى «كاريل كرامر - Karel Kramár» و«فاتسلاف كلوفيتش - Vaclav Klofac» - زعيما حزب «تشيكيا الفتاة»، والحزب الاشتراكى القومى[28] المتعاطفان مع روسيا - اتصالا سريا مع الحكومة الروسية، بينما كان رئيس «الحزب الزراعى» «أنتونين شفيلا - Antonin Svehla» واصل سياسة المسار المزدوج من خلال الحفاظ على

الاتصال بالقوميين الراديكاليين فى المنفى، وفى الداخل، مع العمل داخل الإطار الشرعى للسياسة النمساوية فى نفس الوقت. إذ كانت المخاطرة بكل شىء فى تحد صريح لسلطة الهابسبرج تبدو اقتراحا طائشا حتى بالنسبة لهذه الشخصيات. أما الآخرون، مثل قادة الأحزاب الكاثوليكية، فإما أنهم حافظوا على إحساس نشط بالولاء للمملكة، أو تطوروا معتادين على العمل داخل النظام، وكانوا يرفضون التخلى عن رضاهم الذاتى. وبصفة عامة، بقى الأمل معقودا على احتمال الحصول على حكم ذاتى للأراضى التاريخية التشيكية فى إطار إمبراطورية الهابسبرج الإصلاحية. وقبل رحيله عن البلاد قام «إدوارد بينيس Edvard Benes» زميل مساريك، بتكوين لجنة سرية من القوميين الراديكاليين عرفت باسم «مافى ـ Maffie» وإن لم يظهر تأثيرها قبل 1917م[29].

وخلال السنة الأولى من الحرب، أدى سجن كرامر، وكلوفيتش ـ وغيرهما من القوميين المتهمين بالتخريب والاتصال مع العدو، وفرض الحكم العسكرى الوحشى على أجزاء من المقاطعات التشيكية فى بوهيميا ومورافيا اللتين كانتا مجاورتين لجاليتشيا ـ إلى الشك فى إمكانية الحوار البناء مع فيينا. ومن ناحية أخرى، أدى سجن أكثر قادة الأحزاب السياسية الرئيسة قدرة على المواجهة إلى ترك مسرح السياسة التشيكية خاليا أمام الشخصيات الراغبة فى التوافق. ولذلك فإنه حتى 1917م، ظلت هذه الأحزاب فى تعاملها مع السلطات حذرة، إن لم تكن جبانة ورفضت الالتفات إلى دعوات المنفيين للمواجهة والمقاومة.

ويبدو أن إعلان الإمبراطور كارل الأول فى نوفمبر 1916م، أن مجلس النواب سينعقد فى مايو من السنة التالية، بالإضافة إلى عفوه عن السجناء السياسيين، عزز موقف القادة التشيك الذين أصروا على الحفاظ على فتح قنوات الاتصال مع الحكومة. وكان يبدو أن حياة جديدة بعثت فى "مذهب الفعالية" التشيكية ـ وهو المصطلح الذى استخدم لوصف العمل بفعالية داخل النظام لتحقيق إصلاح جذرى. ولم يكن التهديد الرئيس للمصالح التشيكية قادمًا من مملكة الهابسبرج ذاتها، بل من كتلة الأحزاب ذات الأصل العرقى الألمانى، حيث تجرأ هؤلاء القوميون الألمان النمساويون[30]. بسبب اندلاع الحرب وتوقف مسرحية التنوع العرقى (البرلمان) ـ للضغط من أجل السيطرة السياسية واللغوية العرقية المباشرة

على النصف الغربى من المملكة. ولكن عودة مجلس النواب إلى الانعقاد جعلت الأحزاب التشيكية تستغل الفرصة لاستعادة التوازن السياسى، ووضع حد لمؤامرات الكتلة الألمانية النمساوية من وراء الستار. وكان هذا هو الإيمان، الذى تمسك به العديد من القادة التشيك، بالتكامل الأصيل لمؤسسات الهابسبرج غير القومية.

ومن أجل تكوين معارضة برلمانية صلبة لمبادرات الألمان النمساويين، نظمت الأحزاب السياسية التشيكية الرئيسة نفسها فى «الاتحاد التشيكى» بالإضافة إلى "اللجنة القومية التشيكية" (والتى أصبحت فى يوليو 1918م تسمى «اللجنة القومية التشيكوسلوفاكية»). وكون الحزبان الاشتراكيان الرئيسان «الديمقراطيون الاشتراكيون» و«الاشتراكيون القوميون» . مجلسهما المشترك من أجل طرح مصالح الطبقة العاملة، ولكن بدون مناقشة السلطة العامة «للجنة القومية»، التى كانا مشاركين فيها. وحقق «الاتحاد التشيكى» تنسيقًا وثيقًا فى التكتيكات البرلمانية مع كتلة «السلاف الجنوبيين».

وبالتركيز على التعاون مع الحكومة الإمبريالية بدلاً من منازعتها سلطتها، أربك «الاتحاد التشيكى» توماس مساريك برفضه العلنى اعتناق "الحلفاء" فى يناير 1917م، لتحرير تشيكوسلوفاكيا القومى كهدف للحرب. ومع ذلك، نجد أنه بحلول أواخر مايو، فى أعقاب ثورة مارس فى روسيا ودخول الولايات المتحدة الحرب فى إبريل، حدث تغير جذرى فى موقف «الاتحاد التشيكى». إذ كان البيان الذى ألقاه «الاتحاد» فى الجلسة الافتتاحية للبرلمان قريبًا جدًا من الموقف المؤيد للاستقلال الذى فضله القوميون المنفيون (انظر الفصل الخامس). حيث طالب بحق الحكم الذاتى لكل من التشيك والسلوفاك داخل إطار سياسى واحد، وبذلك أشار إلى الحقوق التاريخية لبوهيميا ومورافيا، بل وإلى المبدأ الثورى لتقرير المصير القومى للشعبين التشيكى والسلوفاكى. وكانت مغازلة فكرة تحقيق هذا الهدف من خلال إعادة تنظيم دولة الهابسبرج لا تزال قائمة، إلا أن الانتقال إلى العقلية الانفصالية كان واضحًا تمامًا. وفى يناير 1918م، أصدر «الاتحاد التشيكى» بيانا أكثر جرأة يفضل التطبيق العام لمبدأ تقرير المصير القومى، وذلك

بدون الإشارة مطلقًا إلى استمرار وجود الدولة النمساوية المجرية، وقد أشعلت هذه المبادرات التشيكية لهيب الانفصالية لدى السلاف الجنوبيين بالتالى.

ومع جنوح الدولة النمساوية المجرية إلى المزيد من الاعتماد على ألمانيا، ومع الضغوط العسكرية والاقتصادية المتفاقمة، انهارت مصداقية سياسة "الفعالية" القديمة تمامًا. حيث وصم قادة الأحزاب «الفعاليون» بأنهم مجرد عملاء، وطردوا من مواقع السلطة. وتزايد نفوذ «المافى» (ومن خلالها تزايد نفوذ المنفيين مساريك وبينيس) عبر الطيف السياسى التشيكى، بل إن «الحزب الديمقراطى الاجتماعى التشيكى» طرد قائده «بوهومير سميرال . Bohumir Smeral» مبكرًا فى سبتمبر 1917م. إذ كان سميرال الشخص الدولى المتحمس يعتنق باستمرار فكرة أن الاشتراكية لن تكون لها آفاق حقيقية فى الإقليم إذا تفكك الكيان الاقتصادى الكبير للنمسا ـ المجر إلى دول قومية مستقلة. حيث طرده القوميون الراديكاليون الذين رفضوا البرنامج الماركسى النمساوى القديم للاستقلال الذاتى الثقافى للقوميات، والذين حشدوا قواهم مع الأحزاب «البورجوازية» فى حملة تقرير المصير القومى الكامل. أما سميرال فقد واصل مسيرته ليصبح واحدًا من مؤسسى الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى. وبحلول أكتوبر 1918م، ومع انهيار سلطة الدولة على جميع الجوانب، تولت «اللجنة القومية التشيكوسلوفاكية» بصورة سلمية المسئوليات الإدارية فى بوهيميا ومورافيا وأعلنت استقلال الدولة.

وعلى هذا النحو مضى التسلسل الزمنى الأساسى للأحداث السياسية التى أدت إلى تكوين تشيكوسلوفاكيا، ولكن السؤال المهم هو: كيف كانت هذه العملية ترتبط بتأثير الحرب على الجمهور التشيكى الأوسع؟

فى 1914م، لم يكن ثمة ما يوضح أن الجمهور التشيكى كان أكثر رغبة فى تحقيق الاستقلال السياسى القومى من قادته السياسيين. إذ كان تحقيق استقلال ذاتى أكبر فى إطار مملكة الهابسبرج المتحدة يمثل أقرب شىء إلى الهدف المجمع عليه. وكان تأييده منتشرًا عبر القطاعات الاجتماعية والتقسيمات الإقليمية التشيكية. ولكن قبول المنفعة المحتملة من مملكة الهابسبرج الإصلاحية كان شيئًا، بينما كان الموت فى سبيل الإمبراطورية النمساوية المجرية غير الإصلاحية فى حرب ضد الرفاق السلاف من صربيا وروسيا يعتبر شيئًا آخر. إذ كانت تقارير

حاكم بوهيميا فى سبتمبر 1914م، تحوى روايات عن مجندين سكارى فى براغ يترنحون مستعرضين الأعلام القومية التشيكية ويلّوحون براية حمراء، ويتساءلون عن سبب إرسالهم لقتال الروس، بينما تحثهم حشود متعاطفة على ألا يطلقوا الرصاص على إخوانهم السلاف[31].

ولكن هذه الثورات المبكرة للغضب سرعان ما تم قمعها؛ لأن سلطات الهابسبرج علقت الحريات المدنية فى أرجاء الإمبراطورية، وألقت القبض على القادة القوميين، واستعادت مظاهر النظام والانضباط على الجبهة الداخلية. ومع ذلك أثرت الخسائر الاقتصادية الناجمة عن الحرب الشاملة على معنويات الشعوب بمرور السنين. فمع المعاناة الشديدة من الحصار البريطانى ضد "قوى المركز" وجدت مملكة الهابسبرج نفسها فى وضع يصعب عليها توفير الطعام والوقود الكافى لسكانها المدنيين، وكانت احتياجات الجيش تأتى أولاً، وكانت المواد الأساسية كالخبز والفحم فى حالة تقشف. وكانت بوهيميا المحرك الاقتصادى للإمبراطورية، إذ كانت تحوى أكثر من 70% من صناعتها الثقيلة (تشمل مجمع إنتاج الأسلحة الكبير «سكودا . Skoda» فى بلزن . Plzen) إلا أنه بحلول صيف 1918م، كانت الحكومة قادرة على تزويد المقيمين فى هذا الإقليم الحيوى بحوالى 45% فقط من تموين الخبز الضئيل أصلاً والبالغ 165 جرامًا فقط فى اليوم.

وقد قام «بيتر هاناك . Péter Hanák» بدراسة تطور الرأى العام وقت الحرب بين القوميات الخاضعة لإمبراطورية الهابسبرج، حيث اعتمد عمله على آلاف الخطابات التى جمعتها الرقابة البريدية طوال فترة الصراع. وتوصل هاناك إلى أن صعوبات الحرب أكدت النظرة الثنائية للمجتمع لدى الطبقات الدنيا، على أنه ينقسم إلى أغنياء وفقراء، وإلى سلطات متعنتة ورعايا بائسين. فالأغنياء يستطيعون تحمل تكلفة شراء السلعة النادرة من السوق السوداء، وتجنب الخدمة العسكرية واستغلال نفوذهم. وفى الحالات العديدة التى كانت تتوافق فيها الفوارق الطبقية والعرقية مع بعضها، كانت كراهية الأغنياء والأقوياء تعنى بالتعريف كراهية المجموعة العرقية الأخرى. مما يزيد شعور المجموعة المقهورة بوطأة التمييز العرقى.

وفى حالة التشيك، لم تكن الطبقية والعرقية متساويتين فى الامتداد زمانًا ومكانًا؛ لأنهم كانوا فى الأساس فى حالة «شعوب الفلاحين» مثل «الروتينيين - Ruthenians» (الأوكرانيين اليونيتين - Uniate فى جاليتشيا) أو السلوفاك. وكانت هناك طبقات وسطى وطبقات وسطى عليا متطورة تمامًا، وطبقة عاملة صناعية تشيكية كبيرة ومنظمة جيدًا، وطبقة قروية تشيكية متقدمة اقتصاديًا وثرية نسبيًا. ولذلك فإنه لا يمكن التسليم فى هذه الحالة بأن الوعى المرتفع بالهويتين الاقتصادية والاجتماعية، والقومية سيقويان بعضهما تحت تأثير الحرب. فقد كان هناك احتمال للصراع بين هذين الشكلين من الهوية، فعندما دفعتهم صعوبات الحرب إلى المزيد من المشاركة فى العمل السياسى، كان على الجماهير التشيكية أن تقرر ما إذا كان الهدف الرئيس من هذه المشاركة مواجهة الطبقات الثرية بصفة عامة، بغض النظر عن العرقية، أم مواجهة حكامهم غير التشيك.

وحظيت الولاءات القومية بالأولوية على الصراع الطبقى بين التشيك، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أنماط ومفاهيم توزيع السلطة بين المجموعات العرقية فى الإمبراطورية. فمثلاً، تفاقمت مرارة السكان من نقص الطعام الحاد الذى وصفناه سلفًا بسبب استمرار تصدير الحبوب من الأراضى التشيكية إلى ألمانيا طوال معظم فترة الحرب، وبسبب استمرار الشائعات بأن النصف المجرى من المملكة المزدوجة كان يرفض مشاركة منتجاته الزراعية الوفيرة مع النصف الغربى من الإمبراطورية[32]. وهذا يوضح الاعتماد الخارجى لتاج الهابسبرج على ألمانيا وضعفها الداخلى فى مواجهة المجريين. إذ كان من الواضح تمامًا أن نجاة الهابسبرج من هذا الصراع المميت تعتمد على انتصار ألمانيا، وأن مثل هذا الانتصار كان سيجعل ألمانيا المهيمن الوحيد على أوربا بصفة عامة، وشرق أوربا الوسطى بصفة خاصة. وأدى هذا إلى زيادة جرأة أحزاب الوحدة الألمانية فى البرلمان النمساوى المجرى (Reichstrat) فى مطالبتها بالسيطرة السياسية المحلية، بينما كانت الحكومة المجرية تتطلع إلى حرية أكبر فى حسم شئونها الخاصة - وإهمال مصالح السلوفاك والكروات وغيرهم - فى ظل تاج الهابسبرج الضعيف. وكان المستقبل السياسى للشعوب السلافية بالإمبراطورية سيبدو

مظلمًا لوتمكنت قوات «قوى المركز» من السيطرة عليه. وهكذا أدت الصعوبات المادية التى عانتها الجماهير التشيكية يوميًا إلى تكوين بعد سياسى واضح جدًا فى أذهانهم، وذلك لأنها أدت إلى زيادة قوة المفهوم الموجود سلفًا والمتمثل فى أن السلاف فى إمبراطورية الهابسبرج كانوا يتعرضون باستمرار لقهر واستغلال الألمان والمجريين، وكان عدم كفاية الطعام لا يعتبر نتيجة للحرب بصفة عامة، بل كان يعتبر نتيجة خاصة لعدم المساواة بين أعراق الدولة النمساوية المجرية.

ومنذ البداية أخذ تسييس المشاعر الاقتصادية التشيكية طابعًا قوميًا، وليس اجتماعيًا ثوريًا، إذ إن مظاهرات الخبز وأعمال السلب والنهب، التى كانت تندلع دوريًا فى المدن التشيكية، لم تكن تستهدف كل المتاجر أو كل الناس الذين كانوا يعتبرون أثرياء بدون تمييز. فقد كانت موجهة أساسًا إلى التجار وأصحاب المحلات الألمان واليهود (كان يهود براغ أقرب إلى الألمان، منهم إلى التشيك، من حيث اللغة والثقافة)، وكانت الإضرابات التى عمت المراكز الصناعية فى بوهيميا تميل إلى الارتباط بمطالب تقرير المصير القومى، مثل ارتباطها بدعوات الثورة الاجتماعية على الأقل. وبعد كل ذلك، لم تكن السلطات التى قادت المجتمع إلى هذه الكارثة تنتمى إلى قادة الطبقات الوسطى أو العليا التشيكية، بل كانت قادمة أساسًا من نخب الألمان والمجريين. فقد جعلت الحرب الضعف النسبى للتشيك داخل نظام الهابسبرج يبدو أكثر وضوحًا من ذى قبل، وكانت الأمة ككل تعتبر مقهورة من الغرباء، ولذلك كانت مشاعر كراهية الكارثة الاقتصادية موجهة نحو تزايد الإحساس بالوعى القومى.

وتزايدت قوة هذا الاتجاه بسبب المؤسسة الثقافية التشيكية التى تبنت موقفًا جريئًا معاديًا للهابسبرج بصورة مطردة خلال آخر سنتين من الحرب، عندما ساهم التحرر فى ظل الإمبراطور كارل الأول فى فتح الطريق أمام الحركات الجريئة نسبيًا. ففى مايو 1917م، وقع 222 كاتبًا إعلانًا صاغه «ياروسلاف كافابل. Jaroslav Kvapil» المدير الفنى للمسرح القومى فى براغ، يطالب بالاستعادة الكاملة للحريات الدستورية فى إمبراطورية الهابسبرج. حيث ساعد ذلك على فرض ضغوط على القيادة السياسية التشيكية (المندرجة فى «الاتحاد التشيكى») لمراجعة الموقف الموالى الجبان الذى تبنته فى بداية السنة (انظر

أعلاه). وفى مايو من السنة التالية، كان العيد الخامس عشر لتأسيس «المسرح القومى» مناسبة لاحتفال ثقافى حضره العديد من المفوضين من الأقاليم السلافية فى الإمبراطورية، وكانت خطبهم الرنانة تناقش استمرار شرعية حكم الهابسبرج.

وكانت الصورة التى ظهرت تتمثل فى حدوث تقارب كبير بين التيارات الاجتماعية والثقافية والفكرية، فى مسار ديمقراطى قومى مشترك اكتسب قوة كبيرة بسرعة خلال السنة والنصف الأخيرة من الحرب، مما أرغم قادة الأحزاب السياسية على مسايرته أو مواجهة التهميش.

وكان التناقض بين القومية التشيكية والراديكالية السياسية الاجتماعية النمساوية الألمانية خلال الحرب واضحًا تمامًا. حيث شهد يناير 1918 اندلاع حركة إضراب شاسعة فى فيينا ومدن ألمانية نمساوية أخرى، انتشرت بعد ذلك إلى المجر أيضًا. فمن الواضح أن العمال المضربين كانوا متأثرين بنموذج الثورة البلشفية، حيث كونوا فى بعض الحالات سوفيتات Soviets (مجالس شعبية) على النموذج الروسى، وأعلنوا سخطهم من خلال الصراع الطبقى والحاجة إلى ثورة اجتماعية. ولذلك ذهبوا أنه من خلال الإطاحة بالنظام الاقتصادى الاجتماعى والسياسى القائم، يمكن أن تنتهى الحرب على جميع الجبهات بسرعة. وقد تطلب قمع هذه الإضرابات نشر سبع وحدات قتالية من الهابسبرج[33].

وكان هناك اهتمام كبير بهذه الحركة بين الطبقة العاملة التشيكية، وأعرب الحزب الديمقراطى الاجتماعى التشيكى رسميًا عن تعاطفه وتأييده لها، ولكن التشيك لم يقدموا الكثير من الناحية الفعلية. حيث تم تنظيم إضراب تعاطف ليوم واحد فى المصانع التشيكية قبل نهاية يناير. وفى ذلك الوقت كانت السلطات قد استعادت السيطرة تمامًا على الموقف فى النمسا. ولم ينضم العمال التشيك إلى الإضراب بمجرد بدايته إلا فى الضواحى الصناعية لبرنو Brno، عاصمة مورافيا. إذ كان من الواضح أن قيادة الديمقراطيين الاجتماعيين التشيك اتخذت قرارًا بتجنب الصدام مع أحزاب الطبقة الوسطى التشيكية، والبقاء متفرجة متعاطفة، بدلاً من أن تصبح مشاركة نشطة فى السعى نحو إشعال ثورة اجتماعية فى الإمبراطورية كلها. فقد كان تركيب قيادة الديمقراطيين الاجتماعيين فى حد

ذاته يعكس الكراهية الشعبية والضغوط العامة التى أدت إلى إزاحة الشخصية الدولية الملتزمة التى يمثلها سميرال من رئاسة الحزب فى سبتمبر 1917م، واستيلاء القوميين داخل الحركة على السلطة.

ولكن لماذا أصبحت الهوية القومية نقطة مرجعية مهمة للتشيك من الطبقات العاملة والوسطى؟ لقد كان من ضمن الثنائيات السياسية الاجتماعية، التى أشار إليها هاناك فى تحليله لمفاهيم الطبقة الوسطى، ثنائيات الأغنياء والفقراء، وملاك الأراضى والفلاحين، والرأسماليين وعمال البروليتاريا، ولكن أهم ثنائية فى عقول الجماهير كانت تتحدد بالتفاوت فى السلطة، وليس فى الثروة المادية فى حد ذاتها، أى أن الصعوبات المادية المرتبطة بالحرب لم تولد الصراع الطبقى تلقائيًا. ولكنها أكدت التمييز الشعبى بين من يملكون السلطة ومن لا يملكونها.

وفى حالة الطبقات الدنيا من الشعب التشيكى المتفاوت اقتصاديًا واجتماعيًا، كان المفهوم السائد يتمثل فى أن الألمان كمجموعة يتمتعون بالسلطة، فى حين أن التشيك كمجتمع لا يتمتعون بها. وكان واضحًا تمامًا أن البورجوازية التشيكية لم تكن هى التى جرت البلاد إلى الحرب (حتى إذا كان بعض الصناعيين التشيك قد حققوا مكاسب من العقود العسكرية) أو شحن الحبوب إلى ألمانيا، فقد كانت دولة الهابسبرج هى التى فرضت هذه القرارات قسرًا على التشيك من جميع الطبقات. وذلك لأن شعور التشيك من جميع الطبقات بأنهم كانوا ضحايا استغلال الهابسبرج وألمانيا زاد الإحساس بالمجتمع القومى الذى كان يتطور بسرعة قبل الحرب. والأهم من ذلك أنه قوض الإيمان بأن حقوق الأمة يمكن ضمانها فى إطار مملكة الهابسبرج. وبحلول 1918م، كان يبدو واضحًا لمعظم التشيك أن أى نوع من الإصلاح الاجتماعى لن يتحقق إلا بعد حل المشكلة الأساسية للاستغلال الإمبريالى.

أراضى سلاف الجنوب

هناك صعوبة أكبر فى تقديم تقرير متماسك أو حتى متسلسل لتطور الوعى القومى خلال الحرب بين سلاف الجنوب فى إمبراطورية الهابسبرج، إذ إن التداخل الكبير بين التوزيعات الإقليمية المختلفة للصرب والكروات والمسلمين

يعقد الجهود الرامية إلى تحديد الهويات القومية فى الإقليم، فضلا عن الانقسامات العميقة داخل المجموعات العرقية بين الثقافات الحضرية والريفية (خاصة بين الكروات) وبين العناصر الليبرالية العلمانية والدينية الكنسية. وأدت ضغوط حالة الحرب إلى تعقيد الأمور بدرجة أكبر، وذلك عندما تطلعت السلطات المدنية وجيش الهابسبرج إلى فرض السيطرة على الأقاليم المجاورة للجبهة الصربية، واتبعت أجندات متعارضة. وبالتحديد فإن هذا النمط من الفوضى والتشتت هو الذى بلور المبدأ المنظم للرواية التالية: من الممكن أن الأطراف التاريخية المعاصرة كانت فى حالة من الارتباك كذلك الارتباك الذى يواجهه المؤرخون المعاصرون حيال استخلاص العبر من الظروف السياسية سريعة التغير والعواطف الشعبية كثيرة التقلب. فقد كثفت الحرب المشاعر القومية بين شعوب سلاف الجنوب، بينما عقدت مسألة إلى أين تتجه هذه المشاعر، وما الذى يمثل أفضل الأطر الثقافية والسياسية لتقرير المصير القومى.

وأدى اندلاع الحرب إلى تصدع النشاط السياسى المعارض فى أرجاء أقاليم سلاف الجنوب فى الإمبراطورية، وكانت السلطات المدنية تحتفظ بالسيطرة التشريعية على كرواتيا التى تحكمها المجر. ولكن جيش الهابسبرج اعتبر الإقليم منطقة حربية وأطلق العنان لفرض «إجراءات أمنية» بلا رادع، حيث واجه مئات من الصرب المدنيين الموت، وأُبعد الكثير منهم، على أساس تهم غامضة أو ملفقة بالتجسس. وبالطبع كان بعض الصرب يشاركون فى شبكات التخريب، بل إن الصرب المحليين فى إحدى المناطق الحدودية رحبوا بالجيش الصربى بحرارة خلال اجتياحه الوجيز للإقليم. ولكن جيش الهابسبرج وضع السكان الصرب جميعًا موضع شك، واستغل فرصة سلطاته الاستثنائية وقت الحرب لإطلاق حملة إرهاب مصممة للقضاء على أية إمكانية لعمل سياسى جماعى من قبل الأقلية ذات الأصل العرقى الصربى[34]. وتفاقم الموقف بسبب الحركة الارتدادية المناهضة للصرب بين الكثير من الكروات الذين نسوا حماسهم المؤيد للصرب فى السنوات القليلة السابقة (انظر الفصل الثالث) وانخرطوا فى احتجاجات وأعمال عنف فى شوارع زغرب (وفى دوبروفنيك وسراييفو) فى أعقاب اغتيال الوريث الشرعى لمملكة الهابسبرج فرانز فردناند وزوجته فى سراييفو فى يوليو 1914م.

وبشكل حماسى شجع القوميون الكروات من حزب فرانك الحملة العنيفة للجيش ضد الأقلية الصربية، وصرح جناحهم الحزبى (الكروات ـ Havaska) بأن «الصرب عبارة عن ثعابين سامة لا يمكن أن تكون بمأمن منها إلا بعد أن تسحق رؤوسها». وكان أبرز النشطاء اليوغسلاف فى «التحالف الكرواتى الصربى» (HSK) الذى كان لا يزال يمثل أكبر تجمع فى البرلمان الكرواتى (السابور Sabor) ـ إما فى المنفى فعلاً فى الدول الحليفة، أو استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى هناك (انظر الفصل الخامس). وكان ذلك التحالف تحت قيادة «سفيتوزار بريبيشفيتش ـ Svetozar Pribicevic» (1875 ـ 1936م) قائد جناحه الصربى، الذى غير اتجاهه مؤخرًا نحو الدفاع الانتهازى عن المصلحة الجماعية للصرب من خلال التعاون مع حكومة المجر[35]. ومع انهمار الدعاية الحكومية الخبيثة المناهضة للصرب، أعلن التحالف الكرواتى الصربى المذعور ولاءه لدولة الهابسبرج والتزامه الشديد بقضية النصر العسكرى على الصرب وروسيا، بينما كان يبحث بيأس عن حماية السلطات المدنية فى بودابست من سلب ونهب جيش الهابسبرج[36]. وفى دالماشيا التى كانت تحكمها النمسا، ظهر التأييد العام لليوغسلافية أكثر ثباتًا، ولكن حتى هنا كان يمكن القول إن ذلك التأييد كان حاضرا فقط بين الطبقات الوسطى الحضرية المتعلمة التى كان عداؤها للكنيسة وتوجهها التجارى يجعلانها غريبة عن الفلاحين المحليين[37].

وفى البوسنة ـ التى كان مجتمعها الصربى الكبير يمثل أرضًا خصبة لحركة الشباب القوميين المؤيدة للصرب (البوسنة الفتاة ـ Mlada Bosna) فى سنوات ما قبل 1914م ـ تم فرض القانون العسكرى بضراوة عقب اندلاع الحرب. ووضع آلاف من النشطاء المشكوك فيهم فى معسكرات الاعتقال، وكان صرب البوسنة يعاملون كأعداء من جانب قوات الهابسبرج بقيادة الجنرال الكرواتى «ساركوتيتش Sarkotic» وكانت المحاكم العسكرية العاجلة تمثل القاعدة، حيث تم إعدام مئات المتهمين بالتجسس أو التخريب بدون تحقق من التهم. وكجزء من سياسة «فرق تسد» المقصودة، نظمت سلطات الهابسبرج مسلمى البوسنة والكروات فى ميلشيا ـ (قوات دفاع) Schuzkorps ـ مكلفة بقمع وإجهاض نشاط حرب العصابات الصربية. وأدت أساليب قوات الدفاع الوحشية ـ التى كانت تصل إلى حد المذابح

العشوائية - إلى صب مزيد من الزيت على نار العداوة القديمة بين المسلمين والصرب فى البوسنة، وتفاقم العداء بين الكروات والصرب[38].

ولكن المقاطعات التى كان يقطنها السلوفينيون كانت بعيدة عن الجبهة، وبالتالى نجت من التدخلات الإدارية للجيش، ولكن السلطات المدنية النمساوية أثبتت أنها أكثر قسوة فى قمعها للمطبوعات والمسرح الكرواتى. وفى الواقع، كانت ثقافة السلوفينيين مقهورة جدًا خلال السنتين الأوليين من الحرب. إذ كانت الصحف والمجلات المرتبطة بالجناح الدينى المحافظ المخلص الموالى لهابسبرج فى السياسة والثقافة السلوفينية تحظى بحرية التعبير عن آرائها، بينما تعرضت لرقابة شديدة الصحافة الليبرالية التى تولت قضية «اليوغسلافية الثلاثية - Triune Yougoslavism» (الدعوة إلى تكوين كيان سلافى جنوبى يتمتع بالحكم الذاتى كعنصر ثالث مكون لمملكة الهابسبرج المعدل تشكيلها، بحيث تصبح يوجسلافيا العمود الثالث إلى جانب النمسا والمجر فى تلك المملكة). وكذلك كانت الحياة المسرحية السلوفينية ومظاهرها الليبرالية مقيدة بشدة، بينما ملأت الثقافية الناطقة بالألمانية الفراغ الناتج عن ذلك جزئيًا فى مسارح العاصمة ليوبلانا (مسرح لايباخ - Laibach). ولا شك أن هذه السياسات لم تشجع على دفء العلاقات بين المجتمعات الألمانية والسلوفينية فى ليوبلانا، ولم تمنح السلوفينيين إحساسًا بأنهم يمكنهم الاستفادة من انتصار الهابسبرج فى الحرب[39].

وأدت الإجراءات القمعية المفروضة على الأقاليم السلافية الجنوبية فى النهاية إلى آثار عكسية على المشاعر العامة من منظور الهابسبرج. وفى الوقت الذى خفف فيه الإمبراطور - الملك كارل الأول الرقابة والقهر السياسى فى أواخر 1916م، أوائل 1917م، كان النموذج اليوغسلافى قد عاد للظهور وحقق تأييدًا أقوى من ذى قبل بين سكان الحضر فى كرواتيا وسلوفينيا. ولم تقتصر الصحف الليبرالية على تجديد دعوتها إلى التعاون السياسى والثقافى بين الصرب والكروات والسلوفينيين فى الإمبراطورية، بل إن قادة - مثل السلوفينى آنتون كوروسيك Antone Korosec - من الأحزاب الدينية المحافظة ضموا أصواتهم إلى الأصوات اليوغسلافية، مثلما فعل القساوسة السلوفينيون فى صلوات يوم الأحد.

ولكن الشيء الجديد بالذكر هنا فيما يتعلق بهذا التغير هو أنه بينما كان السياسيون المحافظون الكروات والسلوفينيون فى السنوات السابقة يؤيدون فكرة الاستقلال السلوفيني ـ الكرواتي، نجد أنهم قد انضموا إلى اليوغسلاف الليبراليين فى ضم الصرب صراحة إلى المعادلة (بالرغم من عقيدتهم الأرثوذكسية الشرقية وتعاطفهم المشكوك فيه مع المملكة الصربية). وهنا لعبت مبادرة جيل جديد من رجال الدين ـ الأكثر انفتاحًا على التغير، والأكثر توافقًا مع الرياح المتغيرة لمشاعر فترة الحرب ـ دورًا مهمًا فى تشجيع هذا الاتجاه الجديد.

وعلى مدار 1917م ـ 1918م، أصبحت الأعمال الأدبية والمنتجات المسرحية الكرواتية والسلوفينية أكثر جرأة فى طرح الأفكار اليوغسلافية، حيث قامت أوبرا بعنوان «قناع الساحرة ـ The Witch Veil» عرضت لأول مرة فى زغرب فى 1917م، بالجمع بين الأساليب المسرحية الحديثة وبنية فاجنر المسرحية وعناصر من الموسيقى الكلاسيكية اليوجسلافية فى عرضها لقصة شعبية صربية بطولية. وشهدت نفس الفترة أيضًا تأسيس مجلات أدبية موجهة خصيصًا لتشجيع الوعى والمركب الثقافى اليوغسلافى مثل مجلة «أدب الجنوب ـ Knjizevni Jug» فى زغرب (والتى نشرت لأول مرة فى يناير 1918م) والتى ركزت على الدعوة إلى تقديم الإسهامات بكل الوسائط اللغوية السلافية الجنوبية الثلاث (السيريلية، والأشكال المكتوبة باللاتينية من الصربية الكرواتية، والسلوفينية). ففى فبراير 1918م، حاولت صحيفة تصدر من زغرب الترتيب لاحتفال عام بالعيد المئوى لمولد «بيتر بريرادوفيتش ـ Petar Preradovic» أحد أشهر شعراء الإحياء القومى الإليرانى. وعندما تم حظر الاحتفال، تحدى الجمهور السلطات من خلال ردود أفعال ارتجالية، حيث أغلقوا المتاجر طوال اليوم، ورفعوا الأعلام الصربية والكرواتية والسلوفينية، وأعربوا عن سخطهم بجوار قبر الشاعر.

وبالرغم من كل هذه التأكيدات الجريئة المبهجة للقومية الليبرالية، لم يفلح التضامن اليوغسلافى فى كسب أصداء قوية من الريف الكرواتى، حيث كانت الطبقات التجارية والمهنية الحضرية، تعتبر من المتحايلين على القانون والمتهربين الذين استطاعوا تجنب التجنيد الإجبارى، واستفادوا من تجارة السوق السوداء وتضاعف أسعار السلع. بينما فقد الفلاحون قوتهم العاملة بسبب التجنيد

الإجبارى، وفقدوا ماشيتهم بسبب مصادرة المؤن أثناء الحرب، وفقدوا دخولهم بسبب ارتفاع معدلات الريع أو الضرائب. وقد تفجرت هذه الأوضاع السيئة فى صورة اضطرابات اجتماعية عنيفة فى صيف وخريف 1918م، حيث انضم الهاربون من الجيش فى الريف الكرواتى - والذين تضخمت أعدادهم بسبب تدفق أسرى الحرب الكروات المفرج عنهم أخيرًا من الأسر الروسى، وغير الراغبين فى العودة إلى أتون الحرب - إلى الفلاحين الكروات المحرومين فى حملة متصاعدة من اللصوصية الاجتماعية. وكانت هذه القوات تعرف باسم «الكوادر الخضراء - Green Cadres» ووصلت أعدادها إلى عشرات الآلاف فى خريف 1918م. حيث وجهت غضبها ضد ملاك الأراضى وممثلى سلطة الدولة، ودمرت السجلات الوثائقية المستخدمة فى جميع الريع والضرائب، وخلال ذروة التمرد فى أكتوبر - نوفمبر 1918م، شنت غارات على المدن فى أرجاء كرواتيا - سلافونيا[40].

لقد كانت تلك حربًا طبقية فى المقام الأول، ولم تكن تعبيرًا عن مشاعر قومية. أما فى سياق الأحداث العسكرية والسياسية لسنة 1918م، كان أثرها خطيرا على تطور السياسات القومية فى الإقليم. ففى الواقع، لعبت العرقية دورًا مباشرًا فى تشكيل الأطر المرجعية السياسية للاضطرابات الريفية: إذ كان الفلاحون الكروات يفضلون إعلان جمهورية كرواتية مستقلة قائمة على المساواة الاجتماعية، أو حتى البقاء تحت حكم الهابسبرج، وليس الاندماج مع صربيا. وعلى العكس، كان الكثيرون من الأقلية القروية الصربية فى كرواتيا - التى أخضعها جيش الهابسبرج لمعاملة قاسية جدًا طوال السنوات الأربع السابقة - ينتظرون بلهفة التحرير على أيدى القوات الصربية التى كانت فى سبتمبر 1918م تشق طريقها شمالاً من رأس جسر الحلفاء المتوسع فى سالونيك[41]. ولعبت الانقسامات العرقية دورًا فى تشكيل أنماط العنف أيضًا. ففى العديد من الغارات على المدن، كانت «الكوادر الخضراء» تصب نار غضبها على قوات الشرطة والعاملين المدنيين الذين كانوا يقابلونهم، ونهبت عددًا من المؤسسات التجارية. ومع ذلك كانت المحال المملوكة لليهود أكثر عرضة للسلب والحرق المنظم مقارنة بالمستودعات غير اليهودية. وفى بعض الحالات، كان يتم تمييز المحال المملوكة للصرب لتلقى معاملة قاسية أيضًا (على الرغم من أنه فى حالات عديدة كان

الفلاحون الصرب والكروات يشاركون بقدر مماثل فى الهجمات العامة على الطبقات الثرية والبيروقراطية المحلية). وكان الفلاحون الصرب بصفة عامة أكثر تحمسًا لفكرة الاتحاد اليوغسلافى (والتى كانوا يعتبرونها إرساء مباشرا لمملكة صربية فى الإقليم)، مقارنة بالكروات، مما ساهم فى حدوث توتر وعنف داخل المجتمع. واشتعل القتال بين الصرب والمسلمين فى البوسنة فى الأقاليم الحدودية الكرواتية أيضًا. ومع انهيار دولة الهابسبرج فى أكتوبر - نوفمبر 1918م، تحولت السلطات المحلية المذعورة فى شرق كرواتيا (سلافونيا) إلى أسرى الحرب الصرب المحررين (أى أفراد القوات المسلحة الصربية التى سقطت فى أسر الهابسبرج) لحمايتها من الفلاحين الكروات المغيرين[42].

وكانت أنشطة الكوادر الخضراء حلقة هامة فى سلسلة الأحداث التى أدت إلى الاتحاد السريع لكرواتيا وسلوفينيا مع مملكة صربيا فى أعقاب الحرب مباشرة. ومع تلاشى سلطة الهابسبرج العسكرية والسياسية فى أكتوبر 1918م، وصل الحماس لفكرة اتحاد سلاف الجنوب (اليوجسلاف) إلى ذروته فى المراكز الحضرية للإقليم، ففى 6 أكتوبر من ذلك العام، كونت الأحزاب السياسية الكرواتية والصربية والسلوفينية الكبرى هيئة نيابية مقرها زغرب سميت "المجلس القومى للسلوفينيين والكروات والصرب". وفى 29 أكتوبر أعلن البرلمان الكرواتى استقلال كرواتيا (شاملة دالماشيا)، وأعلن فى نفس الوقت اندماجها فى دولة السلوفينيين والكروات والصرب على أراضى الهابسبرج (السابقة)، تحت سلطة «المجلس القومى». وقد كان هذا الحماس لوحدة اليوغسلاف فى تلك المرحلة سببًا فى قيام الحزب الفرانكى المناهض للصرب بحل نفسه (ولكنه سيعود للظهور سريعًا).

وفى خضم تلك الأحداث، كان النشطاء اليوغسلاف المنفيين (الذين انتظموا فى «اللجنة القومية اليوغسلافية») يحاولون التفاوض مع الحكومة الصربية على شروط اتحاد صربيا وأراضى السلاف الجنوبيين فى الهابسبرج. وهى الشروط التى كانت ستحقق اقتسام السلطة والترتيبات الاتحادية بين القوميات الثلاث الكبرى (انظر الفصل الخامس).

وفى ظل الحاجة إلى التصرف بحكمة فى وجه المطالب الإقليمية لإيطاليا والتحركات العسكرية فى إستريا ودالماشيا، تضافرت مجموعة من العوامل لتفرض على «المجلس القومى» فى زغرب تخطى «اللجنة القومية اليوغسلافية» وقبول اندماج غير مشروط لأراضى سلاف جنوب الهابسبرج مع صربيا بحلول الأول من ديسمبر 1918 ولكن أحد العوامل الحاسمة التى أدت إلى هذا التطور تجسدت فى الرعب الذى زرعته «الكوادر الخضراء» فى قلوب الطبقة الوسطى الكرواتية، والتى خشيت من انتشار العنف إلى مدن الإقليم. فمع خروج قوات الهابسبرج من الساحة، ومع عدم قدرتها على الحفاظ على النظام، تطلعت النخبة السياسية الكرواتية إلى جيش دولة صربيا المستعادة باعتباره أقرب مصدر للخلاص من تهديد الثورة الاجتماعية وما اعتبرته بمثابة بلشفية قروية. وفى 5 نوفمبر، أصدر «المجلس القومى» المتعجل نداءً إلى القوات الصربية للذهاب لاستعادة النظام. وهكذا التأمت صربيا، وبحلول منتصف نوفمبر، كانت معظم الأقاليم تنعم بهدوء قسرى. وكانت القوات الصربية تحتل معظم كرواتيا (من بين أقاليم الهابسبرج السابقة الأخرى). وفى المفاوضات السياسية المتعجلة التى كانت سارية، سيطر الجناح الصربى من التحالف الصربى الكرواتى على مداولات «المجلس القومى» بينما شعر القادة الكروات بعدم استعدادهم للمقاومة[43]. وهذا هو سبب السهولة التى ضمنت بها بلجراد الاتفاق على اتحاد سلاف جنوب الهابسبرج مع الصرب فى ظل الأسرة الملكية الصربية، مع المغازلة الغامضة لحماية الحقوق الجماعية لغير الصرب داخل الكيان الجديد. لقد كانت مفارقة تاريخية مريرة؛ لأن شروط تأسيس دولة يوغسلافيا الموحدة تحددت بسبب التفكك الكرواتى الداخلى وانتهازية النظام الصربى، وليس بسبب القوة الشاملة لتضامن الصرب، والكروات، والسلوفينيين.

العرض المفصل للأحداث

تشير دراسة بيتر هاناك للرأى العام فى الهابسبرج خلال الحرب إلى أن الصراع أيقظ العديد من المشاعر السياسية بين أعضاء القوميات الخاضعة. إذ تحول الفتور السياسى العام والإحساس السلبى بالمعاناة خلال السنتين الأوليين من الصراع، إلى مشاركة أكثر فعالية وانتشارًا منذ أوائل 1917م فى النشاط

السياسى الاجتماعى الراديكالى. وعملت أحداث خارجية جوهرية على إثارة مخاوف وتوقعات جديدة خلال الفترة الأخيرة: كان أهمها وفاة فرانز جوزيف فى نوفمبر 1916م، والإطاحة بالقيصر فى مارس 1917م، وإعلان أمريكا الحرب فى الشهر التالى، والثورة البلشفية فى نوفمبر 1917م، وسلام القوى المركزية مع روسيا فى برست ـ لتوفسك فى مارس 1918م. واختلف إدراك الفرص والمخاطر التى ولدتها هذه الأحداث عبر الطبقات الاجتماعية، حيث بدأت الطبقة الوسطى تركز على احتمال تحقيق الاستقلال القومى إذا فاز الحلفاء فى الحرب مع دخول أمريكا إلى جانبهم، ولكنها كانت تخشى احتمال الثورة الاجتماعية بسبب الأحداث فى روسيا. فمنذ أواخر 1917م، حتى أوائل 1918م، كان الكثير من الفلاحين والعمال والنساء العاملات، وغيرهم من مكونات الطبقات الدنيا، يبدون اهتمامًا إيجابيًا قويًا باحتمال حدوث ثورة اجتماعية يمكن أن تحقق نهاية مبكرة للصراع على كل الجبهات.

ولكن الأفعال تتحدث بصوت أعلى من الكلمات فى النهاية، إذ إن تعاطف الطبقة الدنيا مع القضايا الثورية لم يحقق إزالة الحدود العرقية تلقائيًا، ومن هنا كان فشل حركة إضراب الألمان النمساويين والمجريين فى يناير 1918م فى كسب التأييد النشط بين أغلبية البروليتاريا الصناعية التشيكية: إذ كان الرأى العام بين أعضاء كل الطبقات التشيكية يتبلور إلى حد كبير حول الإحساس المشترك بأنهم ضحايا استغلال غيرهم. وكانت الطبقة العاملة لا تزال تتطلع إلى التغيير الاجتماعى، ولكن معظم أفرادها كانوا يعتقدون أن التغيير لن يتحقق إلا فى إطار تقرير المصير القومى. حيث أقنع فشل حركة الإضراب الكثيرين من أعضاء الطبقة الدنيا فى الأقليات العرقية فى كل أرجاء مملكة الهابسبرج بأن آفاق الثورة الاجتماعية ضعيفة، مما جعل الاستقلال القومى يمثل السيناريو الأقرب توقعا لتحقيق نوع من التغير للأفضل[44].

وبينما وقفت الحدود العرقية فى طريق الدولية الاشتراكية، إلا أنها لم تشجع بالضرورة على الوحدة داخل القوميات المختلفة. حيث كانت درجة الوعى الاجتماعى السائد لدى أية مجموعة عرقية تعتمد على مجموعة من العوامل. ويعتبر التناقض بين التشيك والكروات واضحًا فى هذا المجال، إذ قدم الصراع

السياسى الطويل والصدام الثقافى والتنافس الاقتصادى مع الألمان فى بوهيميا عدواً مشتركًا لكل من العمال والبورجوازية والفلاحين التشيك على السواء. حيث ولدت اتجاهات فترة الحرب فى السياسة الخارجية والسياسية الداخلية للنمسا انطباعًا بين التشيك من جميع الطبقات بأن دولة الهابسبرج ذاتها كانت تتحول إلى مجرد أداة للمصالح الألمانية، ولذلك فإن هذا النظام لا يمكن إصلاحه، ومن ثم فإن الاستقلال القومى يمكن أن يكون الوسيلة الوحيدة لضمان المصالح التشيكية. بل إن التضامن القومى التشيكى تخطى حدود الإطار الحضرى إلى الريف، وذلك نتيجة ارتفاع درجة التكامل نسبيًا بين الاقتصادات والمجتمعات الحضرية والريفية فى بوهيميا (كان هذا النمط أقل تطوراً فى مورافيا). وأخيراً، لم يكن أفق اندماج محتمل مع سلوفاكيا (انظر الفصل الخامس) يمثل مصدراً كبيرًا للانقسام بين التشيك، وذلك لأن التداخل السكانى هنا كان قليلاً نسبيًا . وبالتالى كان التوتر القائم محدودًا . بين المجموعتين. ولم تكن لدى السلوفاك مؤسسة سياسية مستقرة خاصة بهم يمكنها أن تهدد بالسيطرة على الاتحاد مستقبلاً.

وفيما بين الكروات، فيبدو أن الحرب اقتصرت على زيادة حالة التشكك والقلق بشأن طبيعة الهوية القومية، وتفاقم التوترات على محاور عرقية اجتماعية متعددة. فهل كان يجب على الكروات التوجه إلى فيينا لحمايتهم من بودابست، أم إلى السلطات المجرية لتنقذهم من السلطات الحربية التعسفية لجيش الهابسبرج؟ وهل كان الصرب شركاء طبيعيين وثقافيين وسياسيين للكروات، أم أنهم كانوا أعداء للكاثوليكية وسينتهكون حقوق ومشاعر الكروات فى حالة اندماج الكروات فى المملكة الصربية؟ فقد كانت المشاعر المتعلقة بهذه القضايا تتأرجح للأمام والخلف عبر الزمن، وتقسم الكروات على أسس فكرية وطبقية وإقليمية. ففى أغسطس 1914م، كانت المدن الكرواتية مسرحًا للاضطرابات المعادية للصرب. وعلى مدار سنوات الحرب، كان الرأى العام فى المراكز الحضرية الكرواتية يدور حول نموذج يوغسلافى أعيد تنشيطه بصورة غامضة. ولكن الفلاحين الكروات لم تكن لديهم معرفة ولا تعاطف مع هذا التصور. وبحلول الشهور الأخيرة من السنة، كان الفلاحون الكروات المقهورون يصبون جام غضبهم

على أصحاب المتاجر الصربية وعلى الطبقات الكرواتية الثرية معًا. وبالنسبة للنخب الحضرية الكرواتية المذعورة، كان الاندماج فى صربيا بصورة متعجلة وسيئة لا يمثل تحقيق نموذج قومى مشترك على نطاق واسع، بقدر ما كان يمثل مهربًا سريعًا من طبقتهم الدنيا الريفية المعادية.

وهكذا لعبت الهوية العرقية دورًا قويًا فى تشكيل سلوك الجماهير فى أرجاء إمبراطورية النمساوية المجرية خلال المراحل الأخيرة من الحرب. وساهمت الحرب بدورها فى تسييس العرقية، ولكن تثبيت الحدود الثقافية والإقليمية بين القوميات، وتحديد العلاقة بين العرقية والقومية، كانت قضايا شائكة قوّضت الوحدة التى كان يفترض أن تحققها القومية. وهناك ألغاز مماثلة تعلن عن نفسها فى الإمبراطوريتين الأخريين متعددتى الأعراق خلال هذه الفترة.

البعد العرقى للحرب والثورة فى روسيا

تمت الإطاحة بالنظام القيصرى فى مارس 1917م[45]، على خلفية مستوى مفزع من سوء إدارة المجهود الحربى من قبل حكومة لم تكن قادرة نفسيًا وتنظيميًا على التعبئة الفعالة للموارد البشرية والطبيعية للبلاد. حيث تحول هجوم «بروسيلوف ـ Brusilov» فى 1916م، إلى هزيمة فوضوية عندما ضغطت القوات الألمانية بشدة على الجيش الروسى الذى كانت بنيته التحتية اللوجستية ومعنوياته تنهار تمامًا. وظلت «الحكومة المؤقتة» التى حلت محل القيصر ملتزمة بشدة بقضية الحلفاء، ولكن محاولتها إحياء المجهود الحربى الروسى أدت إلى الإطاحة بها على أيدى البلاشفة، الذين استولوا على السلطة فى انقلاب عسكرى فى نوفمبر 1917م.

وقد فشلت الجهود الدعائية وقت الحرب فى روسيا القيصرية فى تكوين إطار دائم للتضامن البطولى الذى يوحد المجتمع والدولة. إذ إن الموجة الأولية من الإيمان المتفائل بالقيصر والشعب والأرض، والذى انتشر بسرعة بين القطاعات الحضرية والمتعلمة فى المجتمع الروسى فى أغسطس 1914م، سرعان ما تحول إلى سلسلة متعاقبة من الأمواج المتكسرة وتيارات خطيرة تحت السطح. فقد فقدت الصورة الملكية بريقها بسرعة، ولم تعد نقطة مرجعية بطولية لدى الشعب،

حيث اختفت عمليًا خلال أشهر من وسائل الإعلام الثقافية العليا والشعبية معًا، ولكنها استمرت فقط فى المنشورات المملة للجهات الدعائية الرسمية. وعندما انهار النظام، كان قد نجح فى دفع كل طبقات المجتمع إلى الشعور باغتراب تام. بل إن أكثر الأعضاء تعليمًا فى الطبقة الليبرالية داهمهم شك لا أساس له فى أن القيصر والمقربين منه كانوا يتواطؤون فعلاً مع العدو، ولكن إذا اتفق معظم الروس على أن «النظام القديم» لم يجسد هوية الأمة، لن يكون هناك إجماع على ما يجسدها[46].

وبينما فاقمت الحرب من أزمة الهوية الروسية، إلا أنها عجلت بتبلور الهويات القومية - أو على الأقل قوت الإحساس الجماعى بالاغتراب عن الأشياء الروسية - بين عدد من أقليات الإمبراطورية. وكانت أكثر المجموعات تأثرًا تلك التى كانت السلطات العسكرية والإدارية الروسية تصفها بالولاء المزدوج. فكان المواطنون ذوو العرق الألمانى هدفًا واضحًا لمثل هذه الاتهامات، وكان الأوكرانيون المنتمون إلى الكنيسة اليونيتية موضع شك بمواصلة روابطهم المشبوهة مع إخوانهم فى جاليتشيا التى تحكمها النمسا. بينما كان الاحتلال الروسى القصير فى (1914م، 1915م) يرتبط بدوره بقمع المنشورات باللغة الأوكرانية وتضييق الخناق على رجال الكنيسة اليونيتية، مما زاد عداء كل من الشعب الأوكرانى المحلى والقوات الأوكرانية داخل جيش الاحتلال الروسى[47]. وكان يفترض أن تتعاطف الشعوب التركية فى آسيا الوسطى مع القضية العثمانية. وكان اليهود موضع اتهامات كبيرة بالخيانة والتآمر مع العدو، واستهدفتهم السلطات العسكرية للترحيل الجماعى من الأقاليم الحدودية الغربية، بينما حظرت الحكومة فعليًا نشر مواد باللغة العبرية[48]. وهذه التصورات الاختزالية للشعوب والتى قامت عليها السياسات القمعية أو التمييزية - والتى انتشرت من خلال الدعاية الرسمية وغير الرسمية - تمتعت بخاصية تحقيق ذاتها. فعندما تجبر الشعوب على الاختباء فى أوكار عرقية باعتبارها مهددًا خطيرًا لرفاهية روسيا، فإنها تتلهف تلقائيًا "للتحرر" على أيدى العدو، وتصبح أكثر ميلاً إلى النظر إلى نفسها من خلال منظور عرقى أحادى البعد[49].

وهكذا لعبت العرقية دورًا مهمًا فى تحديد طبيعة مشاركة غير الروس فى المجهود الحربى، وفى تشكيل سلوكهم كجنود. إذ كان العديد من القوميات فى صربيا والقوقاز ووسط آسيا وفنلندا معفاة من الخدمة العسكرية[50]. وكما سنرى فيما يلى، فقد أثار انتهاك الحكومة للإعفاء من الخدمة العسكرية فى آسيا الوسطى إلى إثارة قلاقل مدنية فى الإقليم. أما فى فنلندا، فقد احترمت الحكومة الروسية الإعفاء من التجنيد، ولكن تدفق الجنود والبحارة وقت الحرب من الجيش الروسى، وتدفق العمال من جميع أنحاء الإمبراطورية لبناء التحصينات الساحلية الفنلندية، أثار المشاعر العنصرية والخوف المرضى من الأغراب لدى الشعب الفنلندى وزاد كراهية الحكم الروسى، وتضافر ذلك مع المصاعب الاقتصادية المرتبطة بالحرب[51].

أما بالنسبة للمجندين من القوميات غير الروسية، والذين خضعوا للخدمة العسكرية، فكان الهروب من صفوف الجيش فى معظم الحالات أكثر انتشارًا منه بين القوات القروية الروسية غير المتأثرة. وبالعكس، فإنه فى الحالات التى كان فيها احتمال الغزو الأجنبى له مضامين سيئة محددة لمجموعة عرقية معينة، كان التزام جنودها بالمجهود الحربى أعلى من المعتاد. إذ كان هذا حال وحدات المتطوعين الأرمن المنتشرة فى القوقاز، حيث شجعتهم معرفتهم بعادة الجيش العثمانى بذبح المجتمعات الأرمنية على الحفاظ على المقاومة العسكرية المستميتة حتى بعد انهيار الجبهة ككل بوقت طويل. وبالمثل، شكل اللاتفيون قوة رماة متطوعين خاصة للمساعدة فى الدفاع عن أراضيهم ضد الألمان؛ وذلك لأن انتصار الألمان كان سيمكن ألمان البلطيق من ممارسة سيطرة محلية أكثر استغلالاً مما كانت تتمتع به من قبل[52].

وتتمثل الفكرة المشتركة بين هذه الاتجاهات والتجارب البائسة فى أنها تظهر كيف قوت الحرب دور القومية فى تحديد الولاءات والهويات وتكوين الأطر للعمل الجماعى (يمكن أن تتحول هذه الأطر بسرعة إلى مجالات للصراع المدنى، ولكنها لم تكن أقل أهمية لذلك). فقد أصبحت كل هذه الأنماط أكثر وضوحًا عندما تشظى الإطار المرجعى الإمبريالى الروسى الشامل فى 1917م.

القومية والانفصالية فى ظل الحكومة الانتقالية

فتحت الثورة الروسية فى مارس 1917م الباب على مصارعه لسيل جارف من المطالب والطموحات الاجتماعية والسياسية المتناقضة التى مزقت أوصال الدولة ذات، وألقت بها فى النهاية فى دوامة الحرب الأهلية. ومع انهيار الآلة العسكرية الروسية خلال 1917م، أصبح التمييز بين الحياة العسكرية والقطاع المدنى، وبين الشئون العسكرية والسياسية المحلية أكثر غموضًا. حيث شكل الجنود فى الميدان مجالس سوفيتية تطالب بإصلاحات عادلة داخل الجيش، بينما أقاموا علاقات وثيقة مع الأحزاب اليسارية النشطة فى سوفيتات العمال فى بتروجراد(53) وموسكو. وأثار شعار «لينين الأرض والسلام» أصداء قوية بين الجنود الفلاحين الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من مجندى الجيش، ولعبت العناصر البلشفية فى الجيش دورًا مهمًا فى تحدى سلطات قادة الجيش والحكومة الانتقالية أيضًا(54). وقام عشرات الآلاف من الجنود "بالتصويت بأقدامهم" (بحسب نصيحة لينين) وذلك بالهروب من وحداتهم والعودة إلى ديارهم، حيث أضافوا عنصرًا إضافيًا من السخط العنيف إلى المرجل الذى كان يغلى بالصراع السياسى الاجتماعى. وأصبح الكثيرون من الجنود غير الروس الذين تركوا صفوف الجيش (والذين فعلوا ذلك بنسبة أعلى من الجنود الروس) يشاركون بفاعلية فى الصراعات العرقية والنضال من أجل التحرر القومى الذى اجتاح الأراضى الحدودية للإمبراطورية السابقة، عندما أفسحت الحرب ضد الألمان الطريق لنشوب حرب أهلية(55).

وأثار تشكيل الحكومة الانتقالية توقعات الإصلاح الاجتماعى والسياسى على كل مستويات المجتمع وفى كل إقليم من البلاد، وانهالت القرارات والتصريحات والإعلانات من كل اتجاه. وكان علاج المظالم القديمة من كل شكل متوقعًا بصبر نافد، وكان يسيطر على مجالس الوزراء المختلفة فى الفترة من مارس - نوفمبر 1917م، تحالفات يقودها إما «الديمقراطيون الليبراليون» أنصار الديمقراطية الدستورية (كاديتس) أو «الثوريون الاشتراكيون اليمينيون» أو كلاهما. وكانت سوفيتات العمال الكبيرة فى بتروجراد وموسكو - التى يسيطر عليها مجموعة من الأحزاب الاشتراكية التى تشمل كلاً من «الثوريين الاشتراكيين اليمينيين»

واليساريين والمناشفة والبلاشفة ـ متعاونة مبدئيًا مع الحكومة الانتقالية. ولكنها تحولت سريعًا إلى المواجهة معها؛ وذلك لأن إصرارها على مواصلة روسيا للحرب أدى إلى نفور الطبقات الدنيا وزيادة سلطة البلاشفة.

وكانت معظم الأحزاب والحركات تتحدث بلغة ثورية مشتركة عن الحقوق الديمقراطية والحرية السياسية، ولكن الكلمات والشعارات المتشابهة يمكن أن تأخذ معانى مختلفة جدًا، بناء على تصور من صاغها والسياق الذى صيغت فيه. فبالنسبة للاشتراكيين الراديكاليين، كان تحقيق الديمقراطية السياسية يتوقف على تحرير العمال والفلاحين من الاستغلال الاقتصادى، وأصبحت المجالس السوفيتية المصدر الأكثر شرعية لإرادة الشعب، مقارنة بالحكومة الانتقالية.

وكذلك كان معنى العبارة الشائعة «تقرير المصير القومى» موضع جدال، وكان التحول الديمقراطى والاعتراف بالسيادة الشعبية مسايرين لبعض أشكال الحكم الذاتى للشعوب المختلفة. وتحت ضغط سوفيت بتروجراد، بررت الحكومة الانتقالية استمرار التزامها بالمجهود الحربى على أساس أن روسيا تحارب من أجل نظام أوربى جديد يقوم على المبدأ الديمقراطى لحق تقرير المصير القومى(56). بل كان نفس المفهوم يستخدم أيضًا كمبدأ محدد لإعادة الهيكلة المتوقعة للدولة الروسية ذاتها. ولكن هل كانت هذه العبارة تعنى الاستقلال الذاتى المحلى لكل المجموعات العرقية، أم أنها تقتصر فقط على المجموعات التى لها سابقة تاريخية فى مثل هذه الميزة؟ وهل يتضمن هذا حق الانسحاب من الدولة الروسية كلية؟

وكانت الحكومة الانتقالية تتطلع إلى كسب شرعية واسعة بين شعوب الإمبراطورية، ولكنها كانت فى نفس الوقت تخشى من رؤية مبدأ تقرير المصير القومى يصل إلى نهايته المنطقية، والذى سيعنى تجزئة الدولة الإمبراطورية. وكان هذا النوع من الازدواجية يميز اتجاهات ما قبل الحرب لدى الحزبين اللذين كانا يسيطران على الحكومة الانتقالية. وكان الكاديتس مشهورين بتفضيل الاستقلال الذاتى الثقافى لكل القوميات، وإعادة الاستقلال الذاتى الإدارى/السياسى، إلى فنلندا وبولندا. وكانوا يعارضون الاتحاد الفيدرالى للدولة الروسية ككل، على أساس أن هذا سيعقد التوترات العرقية، بدلاً من أن يحلها.

وتبنى المنبر الرسمى للثوريين الاشتراكيين أوسع تطبيق ممكن لمبدأ الفيدرالية على العلاقات بين القوميات المختلفة، ولكن الحزب كان مشتتًا بسبب الاختلافات الداخلية على المدى الذى يمكن أن يصل إليه تطبيق هذه السياسة بدون حدوث تفكك اقتصادى أو الإضرار بالوعى الطبقى[57].

وعندما وصلت الحكومة الانتقالية إلى السلطة، استبعدت كل التشريعات التى تتحيز ضد الأقليات العرقية والدينية، وأقرت المساواة المدنية الكاملة كأساس للنظام القانونى. وأعلنت أيضًا اعترافها بحق الشعب الفنلندى فى «الاستقلال السياسى الداخلى». وأصدرت إعلانًا يعترف بحق بولندا فى الحكم الذاتى[58]. وكان الموقف الرسمى لبتروجراد من حركات الاستقلال الذاتى يرى أن فكرة إعادة تنظيم روسيا كاتحاد ديمقراطى بين القوميات. كما اقترح مؤتمر الشعوب غير الروسية فى الإمبراطورية الروسية، والذى عقد فى كييف فى سبتمبر. فكرة جيدة من حيث المبدأ، ولكن الحكومة الانتقالية افتقدت السلطة لتطبيق هذه السياسية. واضطرت كل مبادرة مهمة أن تنتظر انتخاب «المجلس الدستورى». وكان القادة القوميون يعتبرون هذا الموقف مراوغة قانونية كبيرة تخفى شوفينية «روسيا العظمى» لدى القيادة الجديد للبلاد. وكما لو كانت بتروجراد تريد أن تؤكد أنها لا تستطيع الانفصال عن الماضى، فقد أثبتت عدم رغبتها أو عدم قدرتها على التفاوض على حل وسط حتى مع قادة البرلمان الفنلندى (Sejm) المشكل حديثًا، بل إنها قامت بحل المجلس.

وكما كان الحال فى علاقتها بالسوفيتات، وفى التزامها بالمجهود الحربى، كذلك كانت الحكومة الانتقالية فى سياسة القوميات غير قادرة على مسايرة التوقعات التحررية المتزايدة. فكلما كانت تقاوم مطالب اللامركزية المباشرة وفيدرالية الحكومة، كلما أبعدت مؤيديها السابقين بين الطبقات الحاكمة والقيادات القومية للشعوب غير الروسية. وكانت الطبقات الدنيا من كل مجموعة عرقية تشعر بالمرارة بسبب إصرار الحكومة على استمرار المجهود الحربى المستنزف الذى كان يبدو بلا جدوى وبلا هدف. وبحلول نوفمبر، عندما استولى البلاشفة على السلطة بانقلاب محبك التنظيم، لم تعد الحكومة الانتقالية تتمتع بالتأييد الشعبى فى المراكز الحضرية الروسية، أو الريف، أو الهامش غير

الروسى. وكذلك فإن علاقتهم المحبطة مع سلطات بتروجراد دفعت بعض القوميين إلى التساؤل عما إذا كانت القيم والمؤسسات البرلمانية الديمقراطية الليبرالية كانت تتوافق فعلاً مع المشروعات القومية المستقبلية كما كانوا يعتقدون (انظر الفصل السادس).

الأسس الاجتماعية الثقافية للاضطراب العرقى

يبدو أن السجلات الرسمية للجمعيات والمجالس القومية التى أصدرت قرارات، وأعلنت بيانات خلال 1917 تشير إلى أن كل أقلية عرقية فى البلاد كانت متحدة فى تصميمها الفريد على تحقيق الحكم الذاتى، إما فى اتحاد فيدرالى، أو من خلال الانفصال المباشر. ولكن الحقيقة تتمثل فى أن بعض هذه الوثائق نتجت عن اجتماعات مقصودة لا تمثل سوى نفسها، وخاصة فى حالة بيلاروسيا، حيث قام «حزب هرومادا» القومى بتنظيم "المؤتمر القومى" الذى حاول تأسيس جمهورية مستقلة فى ديسمبر 1917م، ولكن لم تظهر أصداء التأييد لموقفه بين الفلاحين الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان. فقد كانت جماعة المثقفين الناقمين التى اتخذت هذا الموقف المثير فى مشروع بناء الأمة عبارة عن أعضاء مجتمع حضرى بيلاروسى صغير أقل كثيرا عن عدد البولنديين واليهود حتى فى منسك، عاصمة الجمهورية الجديدة (بيلاروسيا). وفى الواقع، نجد فى انتخابات «المجلس التأسيسى» (التى أجريت على مدار أسبوعين فى نوفمبر - ديسمبر 1917م)، أن البلاشفة حصلوا على أكثر من 60% من الأصوات فى بيلاروسيا، مما يشير إلى أن شعار لينين "الأرض والسلام" كان أكثر جاذبية للفلاح البيلاروسى البسيط من «تقرير المصير القومى»[59]. وكان السبب الوحيد الذى منح أهمية لإعلان هرومادا عن الدولة المستقلة يتمثل فى التقدم العسكرى الألمانى نحو بيلاروسيا فى فبراير 1918م، وبناء عليه تبنت القيادة العليا الألمانية فكرة الدولة المستقلة فى بيلاروسيا اسميًا كغطاء مناسب لفرض الحكم الألمانى[60]. ووفر الغزو الألمانى أيضًا الفرصة لإعلان استقلال لاتفيا.

ومع ذلك، استطاع العديد من الحركات القومية التى كانت نشطة فى هذه الفترة إثارة استجابة إيجابية بين الجماهير التى كانت تتحدث باسمها. وأدى

الدمار الاقتصادى فى كل أرجاء البلاد، وتفتت المؤسسات السياسية فى البلاد، إلى الإطاحة بالعديد من المجتمعات وإجبارها على الدفاع عن نفسها وسط كابوس رهيب.

ونظرًا لتبخر كل أشكال حكم القانون فى الهواء، تحول الناس إلى طلب العون من الشبكات الاجتماعية القائمة على الهويات الثقافية والمصالح المادية المشتركة. وبالتالى تزايدت جاذبية الخيالات السياسية المثالية القائمة على الانفصال العرقى والثورة الاجتماعية. وفى الواقع، يقول «رونالد صنى» إن الحركات السياسية كانت أكثر نجاحًا فى تحقيق التأييد الكبير بين الجماهير[61] فى الحالات التى أمكن فيها ربط الأجندات القومية بالاستياء الاقتصادى الاجتماعى.

وبالنظر إلى حالات قليلة من مئات المجموعات العرقية فى الإمبراطورية الروسية، نستطيع التوصل إلى إحساس بالدافع القوى الذى أعطته أحداث تلك الفترة لانتشار الأفكار القومية بين الطبقات الشعبية فى العديد من القوميات، وكذلك حالات عدم الثقة والصراعات التى نشبت أثناء محاولة الناس من مختلف الطبقات الاجتماعية والأقاليم كتحديد يجمعهم كأمة. ويوضح المثال الأوكرانى غموض وتقلب العلاقة بين الطبقة الصاعدة والهويات القومية. وتوضح مراجعة الفعالية السياسية بين المسلمين الروس المعضلات والتناقضات المتضمنة فى تعريف الحدود الجغرافية للأمة. وقد عقدت الأحزاب القومية الكبرى مجلسًا قوميًا (مجلس الرادا - Rada) فى كييف فى أوكرانيا[62]. بعد سقوط القيصر، وانتخب المجلس بالإجماع ميخائيلو هروشفسكى رئيسًا له، وأعلن تأييده للحكومة الانتقالية، وعرض مطالبه بالحكم الذاتى الأوكرانى. واستجابت بتروجراد بطريقة مزدوجة. حيث عبرت عن احترامها للحقوق الديمقراطية للشعب الأوكرانى، بينما أصرت على حقها فى تعيين الإداريين والمسئولين فى المقاطعات الأوكرانية، بدلاً من تفويض تلك السلطة إلى "المجلس". وفى يونيو - يوليو، قامت بتروجراد بتراجع تكتيكى، حيث اعترفت «بالمجلس» كقناة لانتقال سلطة الحكومة المركزية. وبعد فترة، حاول خلالها «المجلس» التعاون مع الحكومة الانتقالية على أساس هذا التفاهم الغامض، اتضح أن تفسيرى بتروجراد وكييف للاتفاق لا

يتفقان أبدًا. وتفاقمت التوترات المتصاعدة فى نوفمبر 1917م، حتى قدم "المجلس" مساندته للبلاشفة فى طرد الوحدات العسكرية الموالية للحكومة الانتقالية من بعض المدن الأوكرانية الكبرى، واتبع ذلك مباشرة إعلان الجمهورية الشعبية الأوكرانية[63].

وكان تطور العلاقة بين بتروجراد وأوكرانيا يتأثر كثيرًا بضغوط السياسة الشعبية الأوكرانية خلال هذه الفترة. حيث تعارضت النبرة المعتدلة للمطالب المبدئية للمجلس مع تيارات الراديكالية الاجتماعية والسياسية التى كانت تجتاح الريف الأوكرانى فى 1917م. وأصبحت المطالبة الشعبية بالتغيير الاقتصادى ترتبط بالمطالبة بموقف أقوى فى قضية تقرير المصير القومى، وساهمت هذه الحركة الشعبية فى تقوية موقف "المجلس" وذلك مثل تكتيكات المراوغة الواضحة للحكومة الانتقالية الروسية.

وكان المحفزان الرئيسان للراديكالية القومية فى الريف الأوكرانى يتمثلان فى تجربة المجندين فى الحرب، والكراهية العامة لأنماط ملكية الأرض الشائعة. إذ أخرجت الخدمة الإجبارية فى الجيش الفلاحين من النطاق الضيق لوجودهم الريفى، وعرضتهم للاتصال الوثيق - غير المريح - مع أعضاء من مجموعات عرقية غير مألوفة، ومع أقرانهم من مختلف أنحاء أوكرانيا. وأدى هذا إلى زيادة وعيهم بالجوانب المشتركة مع زملائهم المجندين الذين يتحدثون نفس اللغة، مقارنة بغيرهم الذين كانت عاداتهم ولغاتهم غريبة وغير مألوفة بالنسبة لهم، حيث عززت وحشية الحرب من بلورة الانتماءات العرقية. ولم تكن العداوة تنصب كثيرًا على العدو الألمانى أو النمساوى المجرى المحدد رسميًا، مثلما كانت على القوات التى يسيطر عليها الروس، والتى كانت ترسل المجندين إلى الموت. وبمجرد أن وصلت كلمة "ثورة مارس" إلى الجبهة، بدأ الجنود الأوكرانيون - الذين كانوا ينظمون أنفسهم على نمط التشكيلات العسكرية البولندية التى كانت تتشكل بمباركة بتروجراد فى ذلك الوقت - فى تكوين منظمات تتطلع "للمجلس" لقيادتها، وتنادى بتكوين وحدات مسلحة أوكرانية منفصلة. (وحدثت عملية مشابهة بين جنود العديد من القوميات غير الروسية الأخرى). ونظم الجنود فى كييف «المؤتمرات العسكرية الأوكرانية» التى انعقدت فى مايو، ثم فى يونيه وأكتوبر،

وذلك فى مخالفة لأوامر بتروجراد. فكانت هذه الاجتماعات العنيفة مقدمة لصياغة المطالب الراديكالية بالاستقلال السياسى الكامل، بغض النظر عن الترددات القانونية للحكومة الانتقالية.

أما فيما بين الفلاحين الأوكرانيين، فقد أثارت الاضطرابات السياسية فى 1917م توقعات كبيرة بالخلاص من الاستغلال والحرمان الاقتصادى. وأخذ ذلك شكلاً واضحًا فى المطالبة بإعادة توزيع الأراضى مباشرة، وبأخذها من الطبقة الحاكمة البولندية والروسية وتوزيعها على الفلاحين الأوكرانيين[64].

وفى صيف 1917م، لم تنجح محاولات «المجلس» للتفاوض على توافق سياسى مع بتروجراد فى جذب اهتمام الفلاحين الذين كانوا متلهفين لتحقيق تصورهم للعدالة الاجتماعية فى المجال الزراعى، وهو التصور الذى كان مرتبطًا بالمطالبة بالحكم الذاتى. وكان هناك اعتراف واسع بأن برنامج إصلاح الأراضى المطبق على أساس عموم روسيا كلها يمكن أن يتضمن توزيع بعض الأراضى الأوكرانية على «المهاجرين» القادمين من مناطق أخرى من البلاد. وكذلك كان نظام الحيازة الجماعى الشائع بين الفلاحين الروس غريبًا على الكثيرين من الفلاحين الأوكرانيين، الذين كانوا أكثر اعتيادًا على الملكية الخاصة. ولذلك فإنه بالنسبة للمنظمات الفلاحين الأوكرانية، كان تحقيق الاستقلال الذاتى السياسى يمثل شرطًا مسبقًا لتطبيق برنامج إصلاح زراعى ناجح حسب شروطها الخاصة. ولكن مع مرور الشهور بدون ظهور تحرك واضح، إما نحو إعادة توزيع الأراضى، أو نحو تحقيق الاستقلال الأوكرانى الكامل، فقد انخفض تأييد الفلاحين للمجلس بصورة جادة. وقد عبر مشهد الإحباط هذا عن نفسه فى «مؤتمرات عام الفلاحين الأوكرانيين» فى 1917، فى صورة مطالب واضحة بالحكم الذاتى الأوكرانى، والانفصال التام عن الحكومة الانتقالية عند الضرورة.

وحققت الأحزاب الأوكرانية - التى كانت قادرة على ربط الأجندة القومية بالمظالم الاقتصادية الاجتماعية لسكان الريف تأييدًا كبيرًا بين الجماهير. إذ كان «المجلس» خاضعًا أساسًا لتحالف المثقفين الديمقراطيين الليبراليين الذين يسمون أنفسهم "جمعية التقدميين الأوكرانيين" (واختصارها بالأوكرانية TUP)، وكان هروشفسكى على اتصال وثيق بهذه الجمعية. وبالرغم من أن الجمعية كانت

تطالب باستقلال أوكرانيا، فإن قادتها كانوا ملتزمين أيضًا بالعمل والتعاون مع القوى الديمقراطية الليبرالية فى روسيا. وبانقضاء عدة أشهر، وجدت الجمعية" نفسها معزولة فى مجلس «الرادا» الذى كانت تعقيداته السياسية أكثر راديكالية فى ظل الضغوط المتصاعدة من الفلاحين والجنود. ولذلك تركت «الجمعية» سريعًا المجال لتحالف يسوده «الديمقراطيون الاجتماعيون الأوكرانيون» (Ukranian Social Democrates USDs) الذين كانوا يمثلون عنصرًا مسيطرًا خلال فترة المفاوضات مع بتروجراد. ولكن هذا "التحالف" أصبح فجأة يعارض القومية الأوكرانية على الأسس المنهجية الماركسية، وكان يحاول تخفيف موقفه فى ضوء الحماس الشعبى لفكرة الحكم الذاتى. ومع ذلك تسبب فشلهم فى تحقيق اتفاق واضح مع سلطات بتروجراد على استقلال أوكرانيا، بالإضافة إلى رفضهم القيام بعمل أحادى خارج الإطار التفاوضى، إلى زيادة قوة «الثوريين الاشتراكيين الأوكرانيين». (Ukranian Social Revolutionaries USRs) حيث شن «الثوريون» هجوما على «الديمقراطيين» بسبب اهتماماتهم القانونية، وأصروا على أن التأميم وإعادة توزيع الأراضى فى إطار أوكرانيا المستقلة يجب أن يبدأ مباشرة، بغض النظر عن التوصل إلى اتفاق مسبق مع الحكومة الانتقالية. وحقق هذا المنبر تأييدًا واسعًا للثوريين فى الانتخابات المحلية، وأقنع انطلاق الحماس الشعبى «للثوريين» هروشفسكى بالانضمام قائدا لهم، حيث فسر هروشفسكى لحلفائه السابقين المصدومين فى «الجمعية» موقف «الثوريين» الراديكالى بأنه يعكس رغبة الشعب، وأن تجاهل أو مقاومة هذه الرغبة يعنى السباحة ضد تيار التاريخ، وانتهاك المبادئ الشعبية التى قامت عليها فكرة الحركة القومية الأوكرانية. وفى الواقع، لم يستطع مجلس الرادا أن يفرض سلطته فى معظم الريف، حيث كانت وحدات «القوزاك الحمر. Rouge Cossack» والميليشيات القروية المحلية، تهاجم الطبقة الحاكمة وتستولى على الأراضى، وذلك فى سياق تزايد فراغ السلطة. وكلما تراجعت السيطرة التى يمارسها المجلس، كلما زادت رغبة قيادته فى تبنى إجراءات متطرفة يمكن أن تجمع له أتباعًا موالين بين الجماهير. ولكن الضغط المتزايد من مؤتمرات الفلاحين والجنود، ومبادرات «الثوريين الاشتراكيين الأوكرانيين» دفعت «المجلس» نحو المواجهة المفتوحة مع الحكومة الانتقالية، وكانت مساندة «المجلس» للقوى البلشفية فى كييف فى

نوفمبر نتيجة تحالف تكتيكى محكم مصمم لإنهاء سلطة بتروجراد فى الإقليم إلى غير رجعة، وذلك لتسهيل تحقيق الاستقلال السياسى لأوكرانيا. وكان بوسع المشاعر المؤيدة للاستقلال بين الفلاحين أن تفعل الكثير بشغفها ببرنامج الإصلاح الزراعى الذى لن تقتسم مكاسبه مع الغرباء، مقارنة بالأيديولوجية القومية للنخبة الفكرية. ومع ذلك، لعب التأييد الجماهيرى للانفصال السياسى دورًا مهمًا فى التطورات التى أدت إلى إعلان «المجلس» للجمهورية الشعبية الأوكرانية[65].

واستجاب ممثلو الشعوب الإسلامية فى روسيا على "ثورة مارس" بتنظيم «مؤتمرات كل المسلمين الروس»، والتى انعقدت فى موسكو وقازان خلال صيف 1917م، وبتكوين «المجلس القومى الإسلامى» المكون من خمسة وعشرين عضوًا ومقره موسكو (يعرف باسم مجلس شورى الأمة . Milli Shura، ويشار إليه اختصارًا بالشورى Shura) من أجل رعاية مصالح المسلمين فى روسيا. وللأسف، فقد ثبت أنه من الصعب جدًا التوصل إلى اتفاق على طبيعة تلك المصالح، فلم يقتصر الأمر على وجود توترات بين رجال الدين المحافظين والمجددين، ولكن الفرصة المفاجئة للعمل السياسى كشفت عن وجود انقسامات عميقة بين العناصر الإصلاحية ذاتها. وكان تتر الفولجا الذين سيطروا على «المؤتمرات» يمثلون شعبًا عاش طويلاً مع الروس لقرون، واستطاع بنجاح أن ينحت لنفسه مكانًا اجتماعيًا واقتصاديًا لائقًا فى الإمبراطورية الروسية، وذلك بتطوير طبقة وسطى تجارية كبيرة ومنظمة. وكان الإصلاحيون منهم أكثر علمانية من حيث التوجه وأكثر تمرسًا من حيث السياسة البرلمانية والأساليب الإدارية الحديثة. وكان معظمهم يعتنق البرامج السياسية «الثورية الاشتراكية» أو مبادئ المناشفة، بينما كان معظم النخب الإسلامية التقدمية الأخرى مرتبطًا بحزب "كاديتس". ونظرًا لأن تتر الفولجا عاشوا وسط الروس، ولأن مصالحهم التجارية كانت ممتدة فى أنحاء الإمبراطورية، فإن قادتهم فضلوا تأييد مبدأ الاستقلال الذاتى الثقافى داخل الأقاليم.

ونظرًا لأن نواب آسيا الوسطى والقوقاز كانوا قادمين من مناطق متخلفة اقتصاديًا، حيث كان التدفق السريع للمستعمرين الروس يمثل تهديدًا مباشرًا

لمعيشتهم وأنماط حياتهم، كان الاستقلال الإقليمى يبدو أكثر ملاءمة لاحتياجاتهم. بل إن فكرة الاستقلال الذاتى داخل الأقاليم أثارت رؤى جديدة لتشكيل جهة إدارية مركزية تكون مسئولة عن شئون المسلمين فى روسيا، وهذا هو نوع المؤسسة التى كان تتر الفولجا يستطيعون السيطرة عليه.

وحاولت «المؤتمرات الإسلامية» تخطى هذه الصراعات بإصدار قرارات لصالح الاستقلال الذاتى الثقافى داخل الأقاليم لكل المسلمين فى البلاد، بالإضافة إلى الاستقلال الذاتى الإقليمى للشعوب الإسلامية المختلفة. ولكن هذا الحل الوسط لم يعمل على تشجيع التعاون الفعلى، حيث سمحت المواهب الخطابية والتنظيمية الكبيرة للتتر بالسيطرة على «الشورى» واستمروا فى دعم فكرة الاستقلال الذاتى داخل الأقاليم، بينما رفض الكثيرون من القوميين فى آسيا الوسطى وأذربيجان سلطة «الشورى» وكونوا مجالسهم الخاصة فى أقاليمهم. وفى تلك الأثناء، أدى رفض الحكومة الانتقالية إلزام نفسها بأى شكل من الاستقلال الذاتى إلى خيبة أمل جميع المجموعات الإسلامية، وزيادة تقويض سلطة «المجلس القومى الإسلامى»، ولم يستمر «المجلس القومى الإسلامى» الذى انعقد فى «أوفا - Ufa» فى نوفمبر 1917م، لأكثر من شهرين. فمع تفكك الدولة الروسية ذاتها، وضع الانتشار الجغرافى للشعوب الإسلامية نهاية لأى مظهر من مظاهر العمل المنسق فيما بينها[66].

وأدت هذه الظروف إلى دفع الهويات الإقليمية والعرقية إلى الواجهة السياسية فى العديد من الأراضى الإسلامية فى روسيا. وبالرغم من أن أفكار وحدة الجامعة الإسلامية ووحدة الجامعة التركية استمرت تلعب دورًا مهمًا، فإن التأييد الشعبى كان أكثر التفافًا حول قضايا اقتصادية مباشرة ترتبط بالصراعات العرقية المحلية. ويقدم الكازاخ مثالاً واضحًا على ذلك، حيث لعبوا دورًا جوهريًا فى الثورة الكبرى الأولى وقت الحرب فى 1916م، وذلك بسبب إلغاء الإعفاء التقليدى من التجنيد الذى كان يتمتع به مسلمو آسيا الوسطى فى 1916م، عندما أعلن النظام القيصرى - الذى كان يحتاج للقوى العاملة - ضرورة أن يشكل الرجال القادرون بدنيا فرق عمل تخدم خلف الخطوط الأمامية. فأثار ذلك التمرد فى المدن والمناطق الزراعية فى تركستان، وسجل رعاة المنحدرات

الكازاخ أشرس مقاومة لهذه السياسة. وكانت الدولة القيصرية طوال عقود تسلب أراضى الكازاخ لصالح المستعمرين الزراعيين الروس، مما قلص من المراعى المتاحة لماشية الكازاخ، وصادر حرية حركة البدو. وكان أمر التجنيد يعتبر الأخير فى سلسلة من الهجمات العدوانية على تقاليد حياة الكازاخ. ولكن الجيش الروس استخدم منتهى القسوة لقمع الاضطرابات القائمة. وبعد ذلك قام المستوطنون الروس بشن اعتداءات أكثر وحشية على حقوق رعى الكازاخ، ولم يتورعوا عن ذبح كل من يقف فى طريقهم[67].

ولعب قادة القبائل التقليديون ورجال الدين المسلمون أدوارًا هامة فى قيادة وتشجيع حركات التمرد، فى حين أن ثلة من القوميين العلمانيين الكازاخ (المرتبطين بالكاديتس) الذين كانوا يديرون صحيفة «قازاق . Qazaq» كانوا يؤيدون أمر التجنيد كوسيلة لكسب امتيازات من الحكومة الروسية. ومع ذلك، كان ابتعادهم عن المشاعر الشعبية قصيرًا، لأن فشل التمرد بدد مصداقية قيادة الكازاخ التقليدية، وخلق الفشل اللاحق للحكومة القيصرية بيئة سياسية جديدة لصالح المثقفين العلمانيين الذين كانوا قادرين على المشاركة فى المسار الثورى فى 1917م. وتولت المجموعة المحيطة بمجلس تحرير صحيفة قازاق التعبير عن خيبة الأمل من «مؤتمرات كل المسلمين» والإحباط من تحفظ الحكومة الانتقالية فى مسألة القوميات. وانتهت سلسلة من المؤتمرات السياسية للكازاخ نظمتها مجموعة صحيفة قازاق فى نوفمبر 1917م (بعد سقوط الحكومة الانتقالية مباشرة) إلى إعلان مجلس حكم كازاخى مستقل، عرف باسم «آلاش أوردا . Alash Orda»[68].

وكان القوميون الكازاخ يعتبرون المصالح الاقتصادية والهوية العرقية متشابكة بطريقة معقدة؛ لأن الوجود الرعوى الذى يمثل أساس الحياة الاقتصادية لشعب الكازاخ كان يعتبر أيضًا عنصرًا مهمًا فى هويتهم الثقافية العرقية. وكان انتشار المستعمرين الروس وأعباء الدولة الروسية يهددان بتحطيم طريقة حياة كل هذا الشعب. وكان غرس لغة وثقافة الكازاخ عنصرًا مهمًا فى تكوين إرادة الشعب فى المقاومة. وعمل كتّاب صحيفة قازاق على إبراز أهمية استخدام لغة الكازاخ بدلاً من لغة التتر كوسيط للاتصال، وحاولوا أيضًا ربط علمانيتهم بالهوية العرقية

الكازاخية من خلال التلاعب بحقيقة أن التحول إلى الإسلام جاء متأخرًا بالنسبة لمعظم الكازاخ. ففى الواقع، بدأ دخول الكازاخ فى الإسلام فى القرن الثامن عشر على أيدى دعاة تتر الفولجا بتشجيع من كاترين (يكاترينا) العظمى، التى كانت تأمل فى أن يؤدى الدخول فى الإسلام إلى تقليد بدو المنحدرات العنيدين لإخوانهم التتر المسالمين والمتحضرين، أى أنهم بهذا المعنى حاولوا تصوير الإسلام كتراث ثقافى للإمبراطورية الروسية [69].

وكان قادة آلاش أوردا يرون أن العلمانية والتحديث يمكن أن يؤديا إلى قوة الثقافة القومية: إذ يمكن استخدام نظام تعليمى تقدمى لتعليم الكازاخ كيفية قراءة وكتابة لغتهم الخاصة، وكيفية استخدام أساليب أكثر كفاءة لتربية الماشية. وهذا يمكن أن يسهل التكيف مع الأوضاع الاقتصادية الحديثة فى إطار يعتمد على عناصر من نمط الحياة البدوى التقليدى الكازاخى. وكان التأثير الرجعى (للشريعة) الإسلامية يفسح الطريق لنظام قانونى تقدمى يستمد شرعيته من (العادات) القبلية، ويسمح بتحرير النساء من الممارسات المقيدة للإسلام لهن بالمساهمة بكامل طاقاتهن فى بناء الأمة.

وفى أذربيجان كان «حزب المساواة ـ Musavat Party» يحظى بتأييد واسع بين المسلمين المحليين خلال الفترة (1917م ـ 1920م)، وذلك بترويج برنامج حزبى غامض، وإن كان جذابا ، يخلط بين الإصلاحية الاشتراكية الماركسية والقومية غير المحددة الموجهة ضد السيطرة الإمبريالية الروسية، وخاصة ضد سيطرة طبقات التجار والعمال من الأرمن والروس فى مدينة باكو النفطية وتأثيرها على الحياة الاقتصادية والسياسية الإقليمية. وكان زعيم «حزب المساواة» فى مقدمة المعارضين لبرنامج الاستقلال الذاتى داخل أقاليم المسلمين الروس، الذى كان يتبناه التتر، وكان يؤيد الفيدرالية المباشرة فى «المؤتمر الإسلامى» فى مايو 1917م. ولم يكن هناك عامل واضح بوسعه تشكيل إطار للهوية القومية لمسلمى أذربيجان. حيث كان هناك جدال لعدة عقود بين أنصار تبنى لغة كتابة موحدة تقوم على اللهجات المحلية ومؤيدى لغة تركية مشتركة تمثل لغة وحدة الجامعة التركية التى اقترحها إسماعيل كسبرالى (جاسبرنسكى ـ Gasprinsky) (انظر الفصل الثالث)، وكان لدى بعض قادة «المساواة» تاريخ من التواصل النشط مع

وحدة الجامعة التركية ونزوع نحو اسطنبول، وكان الحزب يرحب بحرارة بتقدم القوات العثمانية فى الإقليم فى 1918م. ولكن التجربة الفعلية لاحتلال الجيش العثمانى أدت إلى الابتعاد القاطع «للمساواة» عن «وحدة الجامعة التركية» وتحوله الواضح نحو القومية الأذرية الصريحة[70].

وهكذا تسببت الحرب وفوضى الثورة فى زعزعة مصداقية القادة التقليديين، وتقويض الأطر المرجعية الجيوبوليتيكية لدى كل من رابطة الوحدة التركية ومجددى الوحدة الإسلامية. وفى حالة الكازاخ، امتلأ الفراغ السياسى بمجموعة صغيرة من المثقفين المرتبطين بقومية عرقية كازاخية محددة. بينما تحول «حزب المساواة» إلى اتجاه مماثل فى أذربيجان، وسادت الولاءات العرقية أو الإقليمية على الهياكل الأوسع للهوية القومية فى أماكن أخرى أيضًا. فقد اجتمع مجددو تركستان فى «خوقند» لإعلان تكوين «حكومة تركستانية مستقلة» فى نوفمبر ـ ديسمبر 1917م، ولكن خيوة وبخارى ـ العاصمة الثقافية لتركستان ـ ظلتا تحت سيطرة أميريها. وبالرغم من أن خان (أمير) بخارى كان يرغب فى تكوين تحالف تكتيكى ضد البلاشفة مع حكومة خوقند، إلا أنه قاوم محاولات «مجددى» بخارى لممارسة نفوذ فى مجال نفوذه، ووجد أنه من الأسهل أن يقنع جمهور الحضر بأن هؤلاء المثقفين العلمانيين كانوا مرتدين وأكثر قربًا للأشرار الروس[71].

وبصفة عامة، لعبت الهوية الإسلامية دورًا مهمًا فى عزل الشعوب التركية والإسلامية الأخرى عن المستوطنين والإداريين الروس، ولكنها لم تكن أساسًا كافيًا للقيام بعمل منسق على المستوى الروسى، فى ظل غياب بنية تحتية تنظيمية متماسكة، وانهيار الدولة الروسية ذاتها كمنبر موحد للنشاط. وكانت القضايا المحلية ـ ومن ثم الهويات الإقليمية أو الثقافية العرقية الضيقة ـ هى التى تشكل أفضل سياق للعمل السياسى فى المناطق المسلمة من الإمبراطورية، كما حدث فى العديد من الأقاليم غير الإسلامية.

ولكن ما الاستنتاجات العامة التى يمكن التوصل إليها من هذا الطيف الواسع من الاستجابات التى أثارتها أحداث 1917م من قوميات روسيا؟ يقول رونالد جريجور صنى: إن الهويات الطبقية والعرقية لا يمكن فهمها بمعزل عن بعضها فى سياق الثورة الروسية[72]. فكلتاهما كان عبارة عن أشكال مائعة ومؤقتة

لتعريف الذات، وكانتا فى حالة إعادة تشكيل مستمر بسبب التطورات الثقافية والاجتماعية الجارية، والتى كان لها تأثير حاسم على تطور كل منهما. وفى حالة الأرمن الذين واجهوا احتمالاً كبيرًا للإبادة المادية على أيدى الجيش العثمانى الزاحف فى 1918م، توحدت كل الطبقات الاجتماعية تحت لواء «الطاشناك»، وهى منظمة ثورية اشتراكية مزعومة تعمل فى الواقع كحركة تحرر قومى للأرمن من جميع الطبقات. وفى حالة لاتفيا وبيلاروسيا، كانت المجموعات التى تتكون من الفلاحين المعدمين تعتبر نهاية الحرب وإعادة توزيع الأراضى أولوية قصوى، تتفوق على أهمية ذلك الضوء الخافت للوعى القومى. وفى انتخابات «المجلس التأسيسى» فى نوفمبر 1917م، انعكس هذا الموقف فى مساندتهم المطلقة للبلاشفة، بدلاً من أحزابهم القومية. وكان تكوين لاتفيا المستقلة نتاجًا ثانويًا عن غزو الجيش الألمانى للإقليم فى 1918م، وليس ناتج حماسة شعبية متقدة للتحرر القومى.

ويذهب صنى إلى أن معظم أشكال الهوية الجماعية تقع فيما بين طرفى طيف الأمة - الطبقة. وبناء على هذا فإن جماهير الفلاحين الأوكرانيين كانت منجذبة إلى الخطاب والتصور القومى للثوريين الاشتراكيين الأوكرانيين؛ لأنهم ربطوا المظالم المادية للهوية العرقية بأسلوب لقى صدى لدى الشعب. وكان شعار إعادة الأراضى الأوكرانية إلى الشعب الأوكرانى له معنى قوى مزدوج ، إذ كان يثير كلا من قضية علاقة الفلاحين بالأراضى الزراعية، وعلاقة الأمة بالإقليم القومى. وعندما أقامت القوات الألمانية الزاحفة دولة أوكرانية صورية ورجعية اجتماعيًا فى 1918م، تبخر التأييد الشعبى للفكرة القومية. وبالتالى كان البلاشفة قادرين على كسب تأييد شعبى أكبر فى أوكرانيا؛ لأنهم لوحوا بآفاق إعادة توزيع الأراضى. أى أن القومية لم يكن لها معنى لدى الجماهير فى حد ذاتها. ولكنها كانت مجرد وسيلة للتعبير عن هوية ومصالح الفلاحين الأوكرانيين، أى أن شعار "الفلاحين" استقطب إعجاب الجماهير.

ويشير صنى إلى جورجيا كحالة قدمت فيها الهوية العرقية المشتركة إطارًا لتطور وعى اشتراكى على نطاق واسع، وكان كل من الفلاحين والطبقة الحاكمة الجورجية يرفضون التأثير الذى تمارسه الطبقات الصناعية والتجارية الأرمنية

فى المدن على اقتصادهم الريفى. وكانت النخبة الفكرية الجورجية (التى يرجع أصول بعضها إلى الطبقة الحاكمة) منجذبة إلى الخطاب الماركسى الذى يهاجم دور البورجوازية، ومن ثم وضعت إطارًا فكريًا متكاملاً لمعارضة النخبة الحضرية الغريبة عرقيا. فكانت النتيجة عبارة عن اندماج غير عادى للدولية الاشتراكية مع الهوية القومية تحت غطاء الفرع الجورجى لحزب المناشفة. وظل المناشفة الجورجيون - الذين حققوا احتكارًا فعليًا للتأييد الشعبى خلال فترة الثورة الروسية والحرب الأهلية، ملتزمين طوال 1917م، بالعمل على التغيير الاجتماعى والسياسى داخل الإطار الإصلاحى العام للدولة الروسية. ولكن مع انهيار الدولة الروسية وسط التقدم المستمر للقوات التركية، لم يكن لديهم خيار سوى التقدم بمفردهم على رأس دولة قومية مستقلة.

ويؤكد منهج صنى على الأساس الثقافى الذاتى للوعى الجماعى. حيث يرفض التعريفات الساكنة والموضوعية لهوية المجموعة، ويدعى أن الطبقة والأمة عبارة عن إطارات متغيرة لفهم الذات، وليست أقسامًا ثابتة فى تصنيف علمى. ولذلك يجب أن يكون هناك صراع بينهما - وغالبًا ما يتحول الوعى الطبقى والهوية العرقية إلى جزءين ملتحمين تحت ضغوط الحرب والثورة. وبنفس الطريقة، فإن الأوضاع المتغيرة (مثل تكوين دول صورية رجعية عن طريق قوات الاحتلال الألمانى) يمكن أن تفكك هذا المركب بدرجة أسرع من تكوينه، مما يبعد الطبقات الدنيا فى المجتمع عن النموذج القومى ويلقيها فى أحضان البلاشفة.

وبينما يمثل نموذج صنى وسيلة ممتازة لتحليل السياسة الجماهيرية خلال الحرب، إلا أنه ينطوى على تناقض كامن. ففى صياغته النظرية التى تعتمد على منهجية ومفردات ما بعد الحداثة، نجد أنه يركز على مركزية الخطاب الجماعى فى تكوين الهويات الشعبية. وقد تصبح الهوية الطبقية نقطة مرجعية سائدة «داخل» المجموعة العرقية، كما بين الفلاحين الأوكرانيين. وهذا يمكن أن يعمل على عرقلة أو تسهيل تماسك الهوية القومية، وذلك حسب مدى فعالية تلاعب القيادة القومية بجماهيرها. ولكن بينما استخدمت الهوية العرقية بنجاح فى تكوين الروابط بين الطبقات المختلفة، نادرًا ما كانت الهوية الطبقية تتخطى التقسيم العرقى. وربما يجب ألاَّ نعتبر التأييد الانتخابى الذى قدمه الفلاحون

البيلاروس للبلاشفة دليلاً على أن لديهم إحساسًا قويًا بالتضامن الطبقى مع العمال والفلاحين فى روسيا كلها؛ لأن ذلك كان سيمثل قفزة عالية غير متوقعة من روابط القرابة المحلية ومجتمع القرية إلى الوعى الدولى المتقدم. ولكن التفسير المقبول يتمثل فى؛ أن رفض البلاشفة لوطنية الدولة الرسمية ووعودهم بالسلام والأرض كانت تخاطب الاهتمامات الشخصية والمحلية المباشرة للفلاحين الأميين، وذلك بين المجموعات العرقية الريفية التى لم يتولد لديها بعد إحساس قوى بالهوية القومية المتميزة. وعندما كانت الطبقة تعمل كإطار لتكوين مجتمع متخيل أكبر من القرية المباشرة، فإنها عادة ما تفعل ذلك «داخل حدود» مجموعة عرقية، وليس عبر الحدود الثقافية واللغوية. وكما يقول صنى نفسه، فقد أثبت البيلاروس فى النهاية أنهم يمثلون واحدة من أسهل المجموعات العرقية استيعابًا بالنسبة للدولة البلشفية؛ لأن خصائصها اللغوية والثقافية (وهل يجرؤ أحد على قول خصائصها العرقية الموضوعية؟) كانت تتشابه كثيرًا مع خصائص الروس[73]. ويمكن أن تكون عوامل مماثلة قد ساهمت فى عدم اتساق ارتباط الفلاحين الأوكرانيين بالقومية الانفصالية.

ولكن حالة لاتفيا تعتبر استثنائية، لأن بلاشفتها كانوا نشطين جدًا، ويمثلون مكونًا مشاركًا فى حركة لينين، وكانوا قادرين على حشد التأييد الشعبى الواسع بين مجموعتهم العرقية لوضعهم الدولى العلنى، وكانت اللغة اللاتفية متميزة جدًا (بل إنها ليست لغة سلافية) وكانت معدلات التعليم بين اللاتفيين من أعلاها فى الإمبراطورية الروسية، مما يشير إلى أنه حتى الفلاحين الفقراء فى هذا الإقليم كانت لديهم رؤى أوسع من نظرائهم البيلاروس. فلم يتحول الرماة المتطوعون اللاتفيون الذين حاربوا الجيش الألمانى الزاحف إلى طليعة قومية، بل أثبتوا تعاطفهم الشديد مع البلاشفة عندما صوتوا بأعداد كبيرة لصالحهم فى انتخابات «المجلس التشريعى»[74] وعمل فوج الرماة اللاتفيين كحرس إمبراطورى" للبلاشفة فى بتروجراد فى أعقاب ثورة نوفمبر[75] فلولا الاحتلال العسكرى الألمانى للاتفيا فى 1918م، كان من المشكوك فيه أن تكون الأحزاب القومية للطبقات الوسطى قادرة على الوصول إلى السلطة.

وقد يكمن جزء من التفسير فى حقيقة أن لاتفيا شهدت التصنيع وتحويل اقتصادها الزراعى إلى النمط التجارى بدرجة أسرع مما حدث فى أى جزء آخر من الإمبراطورية. حيث ساهم هذا فى سرعة ظهور طبقات جديدة ذات مصالح متعارضة: ففى المدن كانت الطبقة العاملة اللاتفية الكبيرة نسبيًا تكره السيطرة الاقتصادية المتزايدة للبورجوازية اللاتفية، بينما كان الريف منقسمًا بين أعداد كبيرة من الفلاحين المعدمين وأقلية واضحة جدًا من الملاك الأثرياء نسبيًا. وكان كل هذه المجموعات تكره السيطرة الاقتصادية والإدارية المستمرة للبارونات الألمان البلطيق. ولكنهم كانوا منقسمين حول من يجب أن يرث أدوات السلطة السياسية بمجرد التعامل مع النخبة الألمانية. وهكذا كانت الماركسية الراديكالية قادرة على تكوين قاعدة شعبية عريضة فى لاتفيا، أكثر من أى جزء آخر فى الإمبراطورية الروسية. ومن هذا الجانب، يشير سلوك قوميى الطبقة الوسطى فى 1917م إلى أنهم لم يخططوا لاقتسام السلطة مع الفلاحين المعدمين أو العمال فى لاتفيا ذات الحكم الذاتى[76].

وأخيرًا، منحت استثنائية نجاح البلشفية فى لاتفيا لبلاشفتها مكانة واضحة جدًا ونفوذًا فى حزب لينين. ولعب تأييد «الديمقراطيين الاجتماعيين اللاتفيين» دورًا مهمًا فى صراعات لينين على السلطة مع البلاشفة. ومنذ صيف 1917م - فى الوقت الذى كان فيه الجيش الروسى يتفكك - كان بلاشفة لاتفيا قادرين على تحقيق التأثير، والحفاظ على النظام والحماسة بصورة غير عادية بين الجنود المتطوعين فى الجيش، بما يجعلهم يرون أنفسهم رأس حربة الثورة الاشتراكية القادمة[77]. وبالنسبة لأعضاء مجموعة عرقية صغيرة مقهورة لفترة طويلة، يعتبر القيام بدور متميز ومنظور فى تسلسل الأحداث التى ستشكل روسيا والعالم أمرًا مبهجًا للغاية، أكثر منه مجزيًا، مقارنة بالتنافس على السلطة مع البورجوازية اللاتفية دخل حدود الدولة القومية الصغيرة. بل إن وضعهم الفريد، والفرصة التى توفرت لهم للقيام بدور تاريخى سياسى بارز لا يتناسب مع حجمهم، زادا من قوة التزام بلاشفة لاتفيا ومؤيديهم بحلم تكوين دولة معترف بها عالميا[78].فمن المؤكد أنه لا يمكن الاستغناء عن الهوية العرقية؛ لأنها عنصر مهم يساهم فى تماسك وتحفيز الجنود اللاتفيين. ولكن الدور الذى اختاروا أن يلعبوه كمجموعة

قاموا بتنفيذه على الساحة الكبيرة للسياسة الثورية الروسية وليس فى ظل الانفصالية اللاتفية.

وأدى فشل «الحكومة الانتقالية» فى العمل الجاد لحل قضية القوميات إلى اكتساب المزيد من الأعداء، وعجل من انهيارها. واستطاع النظام البلشفى الذى حل محلها أن يثبت أنه أكثر جدية، ولكن ليس بالأسلوب الذى كانت تأمله الحركات القومية والانفصالية الروسية. وكما سنرى فى الفصل السادس، فقد تداخل الصراع العرقى مع الصراع الطبقى والصراع الأيديولوجى فى الحرب الأهلية الدائرة، مما دفع البلاشفة إلى صياغة معالجة جديدة لمشكلة الهوية القومية فى دولة اشتراكية.

عبء الحرب فى الشرق الأوسط

عندما نتناول الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العظمى، يجب أن نضع فى حسباننا مجموعة من الملامح العامة التى تميزها عن الحالتين النمساوية المجرية والروسية. حيث تتمثل إحداها فى أن أحداث 1914م، لم تكن حدًا فاصلاً فى التاريخ العثمانى، كما فعلت فى الإمبراطوريتين الأخريين. وذلك لأن العثمانيين كانوا متورطين فى ثلاثة حروب طوال السنوات الثلاثة السابقة. فمع الخسائر الإقليمية الكبيرة (فى ليبيا والبلقان) المرتبطة باثنتين من هذه الحروب، والاضطراب المستمر بسبب ثورة «تركيا الفتاة»، كانت الدولة العثمانية وسط تحول سياسى وفكرى كبير وقت دخولها الحرب العظمى فى صف «قوى المركز» فى نوفمبر 1914م، إذ إن هذه السنة كانت بداية مرحلة جديدة فى عملية التحول، وليست انطلاقة عشوائية من تجربة سابقة.

ثانيًا: حافظت «تركيا الفتاة» على تماسك الدولة حتى نهاية الصراع، ولكن التماسك مصطلح نسبى، فطوال الحرب كان حكام الولايات المختلفة يمارسون قدرًا كبيرًا من الاستقلالية فى تحقيق أجنداتهم السياسية ومصالحهم الشخصية[79]. ولكن لم يحدث انهيار مفاجئ للإمبراطورية، أو تفكك كبير فى ولاياتها (باستثناء الحجاز الذى كان يخضع لإسطنبول صوريا، انظر الفصل الخامس)، فخلال السنوات الأولى من الصراع، كان الجيش العثمانى يتلقى

ضربات قاسية من القوات البريطانية، ولكن الدولة العثمانية ظلت متماسكة داخل الإطار الذى استطاع الجيش السيطرة عليه. وكان هذا يرجع جزئيًا إلى التحولات الإقليمية والسياسية السابقة المشار إليها سلفًا، فقد كان العثمانيون قد فقدوا سلفًا الولايات الطامعة فى الاستقلال فى البلقان فى (1912م - 1913م)، وكانت الأقاليم الباقية تسكنها غالبية مسلمة، ومن ثم كانت أكثر قبولاً لاستمرار حكم الخليفة - السلطان (الذى حافظ على موقعه الشكلى طوال فترة «تركيا الفتاة»).

وبنفس الطريقة، كانت الحرب حافزًا قويًا على تكثيف اتجاهات التحول السابقة وبداية اتجاهات جديدة؛ وذلك لأن حقيقة أن الوحدة الإسلامية كانت تقدم أيديولوجية تكامل لا تفكك فى أقاليم ما بعد 1913م، من الإمبراطورية، لم تتبدد مع دخول حكام تركيا الفتاة فى الصراع فى 1914م. وحتى عندما اتبعوا ذلك الخط الدعائى قبل الثورى، كانوا يقومون بغرس القومية التركية، وهى القومية التى أصبحت الآن مجردة من أسسها الليبرالية السابقة، وصارت توسعية وشوفينية دون مداراة لأهدافها. أما فيما بين السكان العرب فى المشرق وبلاد ما بين النهرين، فقد ظلت الأغلبية ساكنة، بينما تورطت أقلية نشطة صغيرة فى الأحداث التى شكلت لاحقًا أساس أسطورة قومية الوحدة العربية.

البعد الثورى فى القومية التركية

كانت ثورة 1908م، التى جاءت "بتركيا الفتاة" إلى السلطة مجرد الحلقة الأولى فى سلسلة من الأحداث الكبرى التى غيرت الشكل الإقليمى والسياسى للإمبراطورية جذريًا. فمن 1908م إلى 1913م، كانت "اللجنة المركزية" للجنة الاتحاد والترقى تحكم بصورة غير مباشرة، كجهة مراقبة سرية على سياسات الحكومة بدون أية مسئولية عامة. واستجابت "تركيا الفتاة" لتصاعد الانتقاد فى البرلمان بالترتيب لحله فى 1912م، واستخدام تكتيكات عنيفة ووحشية لضمان انتخاب حكومة أكثر انصياعًا. حيث أجبرت قادة حركات المعارضة على الاختفاء أو الإبعاد. وفى 1913م، اضطرت لجنة الاتحاد والترقى أمام تجدد المعارضة والنكبات العسكرية والخسائر الإقليمية فى حروب البلقان إلى إحكام السيطرة

المباشرة على مقاليد الحكم، بتكوين مجلس يديره أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا[80].

وقامت هذه الحكومة الثلاثية بإدارة دخول الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى بالرهان على انتصار الجانب الألمانى، وذلك على أمل تعويض الخسائر الأخيرة، بإعادة غزو أراضى مصر والقوقاز الجنوبى فى الأقاليم التى فقدتها لصالح البريطانيين والروس فى السنوات السابقة. وحاولت "تركيا الفتاة" كسب التأييد الشعبى لسياساتها من خلال حملات دعائية متعددة تخاطب مختلف قطاعات الشعب، ولم تكن هذه الحملات متسقة مع بعضها بالضرورة، وكان بعضها أكثر توضيحًا للتوجهات الفكرية للنخبة الحاكمة من البعض الآخر. وبالتحديد، يبدو أن العناصر القومية التركية التى قامت بالدعاية وقت الحرب قد عكست الأجندات السياسية لزعماء لجنة الاتحاد والترقى، الذين اعتبروا الحرب فرصة لتعويض بعض الخسائر الإقليمية فى السنوات الأخيرة، بل ولتحقيق الأحلام الطموح بوحدة الجامعة التركية.

أما فكرة العثمانية، التى استمرت لجنة الاتحاد والترقى فى مغازلتها لفترة طويلة حتى بعد التخلى عنها واقعيا، فقد أصبحت مستبعدة الآن تمامًا، بالرغم من أنها كانت مفهومًا مهمًا لدى عدد من المثقفين الليبراليين، إلا أنها كانت غير قادرة على إثارة المشاعر الجماهيرية لمواصلة المجهود الحربى الكبير. ومن ناحية أخرى، أصبحت رابطة الوحدة الإسلامية، التى كان يروج لها "النظام القديم" للسلطان عبد الحميد، تستغل بصورة انتهازية من جانب "تركيا الفتاة" العلمانية كوسيلة لتحقيق المساندة للحرب بين الجماهير الإسلامية من كل القوميات. وبناء على تعليمات الحكومة، أصدرت السلطات الدينية الإسلامية بيانًا، وضع السلطان اسمه عليه أيضًا (باعتباره خليفة المسلمين) اعتبر دخول العثمانيين الحرب جهادا ضد الملحدين. وكان هذا يهدف إلى توحيد الترك والأكراد والعرب فى جهادهم ضد "الحلف الثلاثى"، بل خاطبت الوثيقة أيضًا الشعوب الإسلامية فى الإمبراطوريات البريطانية والروسية والفرنسية، تناشدهم للنهوض بالسلاح ضد مضطهديهم[81].

وكانت الفكرة المستقلة للقومية التركية، والوحدة التركية - التى اعتنقتها أجهزة الدعاية وقت الحرب فى الأناضول - ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالقناعات الفكرية والممارسات الإدارية السياسية للجنة الاتحاد والترقى فى السلطة[82]. وكانت الحرب بمثابة فرصة ومحفز لتجربة الأشكال النائية من القومية العرقية، وأدى مسار الحملات العسكرية العثمانية طوال سنوات الحرب إلى تعزيز الاعتقاد بأن الوحدة التركية تفتح "نافذة" للإمبراطورية على المستقبل؛ لأن الأراضى العربية كانت تضيع لصالح بريطانيا - بينما بدى تفكك الإمبراطورية الروسية كما لو كان سيوفر فرصة ذهبية لتوسع تركيا نحو الشمال.

واشتعل الاهتمام المتزايد للجنة الاتحاد والترقى بالقومية التركية بسبب حروب البلقان فى (1912م، 1913م)، ووقع الهجوم المشترك من صربيا والجبل الأسود واليونان وبلغاريا على الممتلكات العثمانية المتبقية فى البلقان. بينما كان الإيطاليون يكملون غزوهم لليبيا التى اكتسحوها فى 1911م. وبدلاً من التبشير بفجر عهد جديد من التقدم، يبدو أن ثورية تركيا الفتاة فتحت شهية الدول الأوربية المتلهفة لاقتناص فرصة الارتباك الداخلى فى اسطنبول، رافضة رؤية لجنة الاتحاد والترقى تفرض سيطرتها على الولايات المتطرفة جغرافيا من الإمبراطورية. وتمكن العثمانيون بفعل تكتيكات التحالف فى البلقان من استعادة السيطرة على مقاطعة أدريانبول (أدرنة) فى حرب البلقان الثانية (1913م)، ولكن ألبانيا ومقدونيا وتراقيا (Thrace) ضاعت تمامًا.

ويبدو أن حروب البلقان قدمت درسًا موضوعيًا فى قوة الوطنية، حيث كانت معظم الأقاليم التى فقدت خلال الحرب تسكنها شعوب غير تركية، أدت دوافعها القومية إلى تقويض السيطرة العثمانية على هذه الأقاليم. وحتى الألبان المسلمين فى معظمهم قاموا بتمرد فى 1910، فى وجه السياسات المركزية لتركيا الفتاة. ومن ناحية أخرى، نفذت بعض أنجح عمليات الجيش التركى على يد مجموعة صغيرة جدًا من الضباط الأتراك تحت قيادة أنور باشا. وكان العديد منهم قد تطوع سابقًا لقيادة عمليات حرب العصابات ضد الإيطاليين فى شمال أفريقيا، وكان نجاح عمليات هؤلاء "المتطوعين" ضد البلغار يعتمد على المساندة النشطة من الشعوب المحلية الناطقة بالتركية فى أدرنة وأجزاء من تراقيا[83].

وأدت هذه التجارب إلى زيادة الإحساس بأن الهوية العرقية كانت عنصرًا هامًا فى تحديد الولاء الشعبى، وأن مستقبل الإمبراطورية العثمانية يعتمد كثيرًا على قدرة "تركيا الفتاة" على إيقاظ العواطف القومية لدى الشعب التركى. وكذلك أدى تتابع التهديدات العسكرية الخارجية والأزمات السياسية الداخلية إلى تعظيم أثر ونفوذ المتطوعين القوميين الأتراك الراديكاليين. حيث كان يبدو دورهم المتزايد كذراع قوى للجنة الاتحاد والترقى لا يمكن الاستغناء عنه، وهكذا فإنه ليس من قبيل المصادفة أن فترة حروب البلقان كانت تمثل بداية رعاية وتشجيع لجنة الاتحاد والترقى للدعاية العلنية للوحدة التركية. حيث بدأت لجنة الاتحاد والترقى، خاصة فى (1912م ـ 1913م)، فى تشجيع تطور مؤسسة الوحدة التركية المكونة حديثًا باسم (الملاذ التركى ـ Türk Ocagi) (Turkish Hearth). وبقيادة مثقفى الوحدة التركية البارزين ـ مثل يوسف أقتشورا، وأغا أوغلو أحمد ـ أسست "الملاذ التركى" فروعا لها فى مدن عديدة، حيث نظمت أنشطة اقتصادية لتشجيع نمو هوية وحدة تركية بين الطبقات المتعلمة.

وعجل دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى بنمو التيارات القومية التركية التى تتمتع بمساندة علنية من الحكومة. وتوسعت العضوية فى منظمات الوحدة التركية (بحلول 1918م، وصل عدد أعضاء فرع إسطنبول التابع لـ «الملاذ التركى» إلى أكثر من 2500 عضو، بينهم نساء). وتزايدت أنشطتها الدعائية (من خلال مجموعة من الوسائل مثل المحاضرات والمسرحيات والأفلام). وقد اتضح هذا الاتجاه منذ 1916م فصاعدًا، مع الآلام المترتبة على فشل رابطة الوحدة الإسلامية فى توجيه مسلمى العالم، فى حين أن النصر التركى الحاسم على القوات البريطانية فى «غاليبولى ـ Gallipoli» (كانت قوة الاستطلاع التابعة للحلفاء قد انسحبت فى ديسمبر 1915م) قد أشعلت الحماسة الشعبية بين سكان الحضر الأتراك[84].

وخلال السنة الأخيرة من الحرب، جعلت المكاسب البريطانية فى بلاد ما بين النهرين والتقدم المستمر نحو فلسطين وسوريا، انهيار روسيا فى الشمال على مرمى البصر. حيث كان قادة مثل أنور باشا ـ الذى كان وزيرا للحرب من (1914م ـ 1918م) ـ يتطلعون إلى غزو القوقاز والتركستان كهدف كبير يمكنه تعويض

الإمبراطورية عن خسارة الأراضى العربية، بل ويسمح بإعادة تشكيل نفسها كدولة عظمى للوحدة التركية. ولعب متطوعو أنور باشا دورًا نشطًا كعملاء بمحاولتهم إثارة التمرد بين الشعوب ذات الأصل العرقى التركى فى روسيا، وبين المجموعات التركية والإسلامية الأخرى حتى فى إيران وأفغانستان والهند التى تحكمها بريطانيا[85].

وتمادى أنور باشا حتى نقل وحدات من جبهات الشرق الأوسط المنهارة فى (1917م، 1918م) لكى يضغط على القوقاز الجنوبى، حيث نظم "حزب المساواة" فى أذربيجان تعاونًا نشطًا مع القوى العثمانية. وهكذا لم تكن الوحدة التركية مجرد وسيلة دعائية، بل كانت أيديولوجية سياسية سيطرت على تعريف لجنة الاتحاد والترقى لمصلحة الدولة خلال السنوات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية. واستمر أنور باشا فى مواصلة حلمه بالوحدة التركية بعد الحرب، متوليًا قيادة الجماعات المسلحة المناهضة للبلاشفة (المعروفة باسم البسماتشى - Basmachis) فى تركستان، قبل أن يلقى حتفه فى نهاية مؤلمة فى 1922م[86].

وبينما أصبح النموذج المتكلف للوحدة التركية يسيطر على النظرة الخارجية لقادة لجنة الاتحاد والترقى وقت الحرب، شهدت هذه السنوات أيضًا مبادرات سياسية محلية لبناء الأمة التركية.

وكان التشريع الصادر فى 1916م، بمثابة اعتداء جديد على المجال التشريعى المحدود أصلاً للمحاكم الشرعية الإسلامية، حيث جمع السلطة المدنية فى أيدى الدولة. ودحض الخط الدعائى للوحدة الإسلامية الذى كان قد تم التخلى عنه تمامًا فى ذلك الوقت[87]. أما فى المجال الاقتصادى، فقد وجدت حكومات كل القوى المحاربة الكبرى فى الحرب العظمى أنه من الضرورى أن تقوم بتدخلات غير مسبوقة مصممة (بدرجات متفاوتة من النجاح) لإدارة الموارد، وتوزيع المواد الخام على الصناعات الأساسية، وترشيد المؤن، وضبط التضخم. وفى الحالة العثمانية، كانت هذه الجهود تأتى تحت عنوان طموحات قومية تريد إحكام السيطرة التركية على اقتصاد الأناضول، حيث ألغيت الامتيازات الأجنبية البغيضة (انظر الفصل الثانى) بمجرد اندلاع الحرب فى أوربا، وأعقبت ذلك أثناء الحرب مبادرات هدفت إلى إشراف الدولة على الاقتصاد على أسس اشتراكية

أولية. وكانت سيطرة الدولة تستخدم بدورها فى محاولة دعم القوة الاقتصادية والمبادرة التنظيمية والمهارات التقنية لذوى العرق التركى، وصممت نظمًا متباينة للتعريفة الجمركية لرعاية الصناعات المحلية الوليدة فى قطاعات صناعية مختارة، واستثمرت الدولة رأس المال فى تكوين مصارف ومؤسسات جديدة يديرها الأتراك، بينما شجعت المؤسسات التى يملكها ذوو العرق التركى من أسسوا تعاونيات صناعية وتجارية وشركات مساهمة، وأرسلت عمال مصانع وفلاحين أتراك إلى ألمانيا لتعلم أساليب الصناعة والزراعة الحديثة. وكان ذلك بمثابة «اشتراكية دولة» مصممة لدعم تطور نظام اقتصادى قوى يسيطر عليه الأتراك بقيادة فنيين ترك وبورجوازية تركية، تحل محل الطبقات التجارية الأرمنية واليونانية التى سيطرت طويلاً على القطاعات التجارية والتحويلية فى الاقتصاد، والتى استفادت من نظام «الامتيازات الأجنبية». على هذا النحو سار تحرير تركيا من الاعتداءات الأجنبية جنبًا إلى جنب مع تخليصها من النفوذ الداخلى للمجموعات العرقية «الدخيلة»[88].

ولكن التطبيق الفعلى لهذه السياسات كان ارتجاليًا وغير متسق، بل إنه كان فى العديد من الجوانب يعرقل قدرة الإمبراطورية على تحمل ضغوط الصراع المستمر، حيث أدى التدخل الحكومى فى قطاعات اقتصادية مهمة مثل تجارة الحبوب إلى توفير فرص للتربح الجشع لأفراد لهم صلة بالدوائر الداخلية للجنة الاتحاد والترقى. وأدى إثارة العنف الجماهيرى ضد التجار اليونانيين والأرمن إلى فرار الآلاف منهم، ومن ثم تهديد الشبكات التجارية والتمويلية الأساسية. أما الأتراك الذين تم تشجيعهم على الاستيلاء على الممتلكات المهجورة واحتلال مجالاتها الاقتصادية فلم يستطيعوا تحويل أنفسهم إلى بورجوازية تنظيمية بين عشية وضحاها. وأدت الصراعات بين السلطات المدنية والعسكرية، وسياسات المحسوبية، والاستهانة بالسلطة المركزية من الحكام المحليين، إلى تشويه صورة الاقتصاد الموجه. وأدت مطالب الجيش التى لا تنتهى من القوى العاملة ومن المؤن إلى إرباك مواسم الحصاد، واستنزاف الاقتصاد الزراعى، وتخزين الحبوب للمضاربة، وهو ما تمخض عن حرمان ومجاعة مرغبة فى الأناضول - التى فقدت حوالى 20% من سكانها - كما فعلت فى أماكن أخرى من الإمبراطورية، مما قوّض الأساس المادى للمجهود الحربى فى النهاية.

وأدت هذه الصعوبات الجمة إلى تكثيف سعى النظام إلى آليات أيديولوجية يمكن أن تساعد على استمرار الالتزام الشعبى بالحرب، فكانت الوحدة التركية سلاحًا ذا حدين فى هذا المجال؛ لأنها بينما قدمت مبررًا قويًا لحشد الطاقات ضد الروس، إلا أنها تعرضت للهجوم أيضًا طالما أنها تشير إلى أن أتراك الأناضول المطحونين يجب أن يتشاركوا فى مواردهم مع إخوانهم الذين سيتم تحريرهم قريبًا فى آسيا الوسطى وعبر القوقاز. وبالتالى تطور خط دعائى جديد يمتدح الفضائل الفريدة والتضحيات البطولية التى لا تبارى لأتراك الأناضول. وفى ضوء الضغوط الهائلة التى كان يفرضها التجنيد الإجبارى على الريف التركى، أسست لجنة الاتحاد والترقى منظمة تدعى «نحو الشعب Halka Dogru» تغزلت فى نمط الحياة الريفية باعتباره المظهر النموذجى للسمة القومية التركية، وذلك بأسلوب يذكر بالتقليد الشعوبى الروسى. ومع ذلك، نجد فى الواقع أن المشاركة وحضور الأنشطة التى كانت ترعاها هذه المنظمة كانت قد اقتصرت على سكان الحضر المتعلمين، فقد كان مؤسسو هذه المنظمة يستطيعون التحدث بحماسة "عن" الجماهير القروية، ولكنهم مثل الشعوبيين الروس قبلهم، وجدوا صعوبة فى التواصل "مع" هذه الجماهير[89].

وكان غسل أدمغة الجماهير بهوية ثقافية وسياسية جديدة بناء على توليفات فكرية غير مألوفة يمثل هدفًا مضللاً. وكان يبدو أن التكامل السلبى من خلال التلاعب بالتوترات العرقية يمكن أن يحقق نتائج مباشرة أكبر، وذلك بتوجيه التوترات والمشاعر الاجتماعية إلى صعوبات الحرب وبعيدًا عن الحكومة. وخلال الحرب أصبحت التضحية المنهجية بالأقليات أساسًا سائدًا فى نظام "تركيا الفتاة". ويبدو أن «المتطوعين» التابعين لأنور باشا كانوا مسئولين عن بعض أسوأ الأحداث. فبعد حروب البلقان مباشرة، تم تنظيم "المتطوعين" فى وحدة عمليات سرية تسمى «المنظمة الخاصة»، والتى كانت تخضع للأوامر الشخصية لأنور باشا. وكانت هذه المنظمة - التى كان يسيطر ذوو العرق التركى على وحداتها الأساسية، مع وجود قوات تابعة إقليمية مستمدة من السكان الأكراد فى شرق الأناضول والبدو فى العراق - تعمل كوحدة عمليات قذرة لأنور باشا خلال الحرب العالمية الأولى. حيث نفذت عمليات خاطفة وحرب عصابات ضد البريطانيين فى

مصر والعراق، بينما تورطت فى اغتيالات سياسية وتطهير عرقى فى الجبهة الداخلية. ولم تقتصر المنظمة على إثارة الاضطرابات ضد الطبقات التجارية الأرمنية واليونانية فى المراكز الحضرية بالأناضول، بل يعتقد أنها لعبت أيضًا دورًا هامًا فى تنظيم إبادة جماعية حربية للسكان الأرمن بالأناضول[90].

وأدى اندلاع الحرب مع روسيا إلى وضع الأرمن فى وضع خطر مباشرة؛ لأنهم كانوا منتشرين على الحدود مع الإمبراطورية القيصرية، حيث شكل الأرمن على الجانب الروسى من الحدود قوات متطوعين خاصة لمحاربة الجيش العثمانى من أجل تحقيق تقرير المصير القومى الأرمنى. وبالرغم من التعبير عن الولاء والالتزام بالمجهود الحربى العثمانى من جانب القادة الرسميين لمجتمع الأرمن العثمانيين، كان من الواضح أن الدوائر الداخلية فى لجنة الاتحاد والترقى اعتبرت وجود سكان معادين على الخطوط الأمامية خطرًا محتملاً. وفى ربيع 1915م، اندلعت اضطرابات أرمنية فى إمارة «فان . Van» وبالرغم من أن النشطاء القوميين كانوا يحاولون إثارة العصيان، فإنه يبدو أن الثورة ذاتها جاءت استجابة لفظائع ارتكبت ضد الأرمن كانت قد حدثت من قبل. وعلى أى حال، فإن الطبيعة المتسقة لاستجابة لجنة الاتحاد والترقى تشير إلى أنه كانت هناك خطة عمل معدة سلفًا لاضطرابات فان، فقد تم ترحيل الأرمن من كل شرق الأناضول (وليس من الإمارات الشمالية فحسب) بأعداد غفيرة إلى صحراء سوريا فى ظل ظروف كانت كفيلة بإحداث خسائر فادحة فى الأرواح. وتم تحريض الجنود الفلاحين الأكراد والقوات التابعة للمنظمة الخاصة على ذبح المبعدين على طول طريقهم، وكانت النتيجة إزالة الأرمن تمامًا تقريبًا من موطنهم التقليدى، ويبلغ عدد الذين لقوا حتفهم ما بين 600 ألف إلى 800 ألف، بل ويمكن أن يزيد الرقم على مليون نسمة[91].

ويجب ألا ننظر ببساطة إلى فظاعة 1915م، على أنها إفراط مرتبط بالتطبيق الأخرق للإجراءات الأمنية الارتجالية وقت الحرب. فهناك أدلة قوية غير مباشرة تشير إلى أن شخصيات بارزة داخل الدوائر الحاكمة فى لجنة الاتحاد والترقى كانت مسئولة عن تحويل الترحيل إلى إبادة جماعية. ويمكن أن تكون أنشطة الراديكاليين الأرمن فى الأناضول السبب فى إجراءات النظام، ولكن النطاق

الجغرافي «للترحيل» ونطاق عمليات القتل يشير إلى أنها كانت تمثل جزءًا من تجربة شريرة فى الهندسة السياسية الاجتماعية الهادفة إلى تحويل المركب السكانى فى الأناضول بما يتفق مع أفكار الوحدة التركية الراديكالية. فبالنسبة لقيادة "تركيا الفتاة"، كان وجود عدد كبير من السكان الأرمن داخل الإمبراطورية يمثل فرصة دائمة لتدخل القوى العظمى فى الشئون الداخلية للإمبراطورية العثمانية. والأهم من ذلك، أن الأرمن كانوا يعتبرون عنصرًا غير قابل للاستيعاب ويقف فى وجه التكامل القومى، ويمثل حاجزًا غير مرغوب بين أتراك الأناضول والشعوب التركية فى القوقاز. ويمكن أن تكون السلطات قد أقنعت نفسها بأن الترحيل والمذابح كانا ضروريين لمواصلة الحرب بنجاح، ولكن يمكن أيضًا أن تكون قد اعتبرت المجهود الحربى فرصة ذهبية لمواصلة منهج الإبادة الجماعية لتحقيق التجانس القومى الذى لا يمكن التفكير فيه وقت السلم(92).

وكان الكثير من السياسات القومية التى اتبعتها لجنة الاتحاد والترقى كارثية للغاية بالنسبة للمجهود الحربى للإمبراطورية. ولكنها وضعت أساس ما قام به مصطفى كمال (أتاتورك) لاحقًا من إحياء القومية التركية، حيث دمرت القومية الاقتصادية "لتركيا الفتاة" شبكات تجارية يونانية وأرمنية، ووفرت فرصًا للتربح السريع لعدد صغير من التجار الأتراك ذوى الصلات القوية، بينما تركت بقية الشعب يعانى. ومع ذلك كونت هذه السياسات البوتقة الأساسية «لاشتراكية الدولة» وتربية بورجوازية تركية عرقية أصبحت العلامة المميزة للسياسة الاقتصادية للجمهورية التركية بعد الحرب. فقد كانت الوحدة التركية سرابًا أيديولوجيًا صرف أنظار نخبة الإمبراطورية عن الواقع المؤلم للهزيمة العسكرية فى الشرق الأوسط، وأغشى أعينها عن الكارثة الاقتصادية على الجبهة الداخلية. ولكن القومية التركية الأناضولية استندت إلى أساس قوى من الحماسة الوطنية الأصيلة بين سكان الحضر، خاصة فى أعقاب هزيمة بريطانيا فى غاليبولى. وكذلك رافق الحرب انتشار النوادى والمنظمات التى كرست نفسها لمختلف أشكال القومية التركية وهو ما ساهم فى تكوين شبكة مؤسسية قدمت إطارا تنظيمًا لمقاومة قوات احتلال «الحلفاء» عقب هزيمة الإمبراطورية وفرار قادة تركيا الفتاة. وبالرغم من أن أتاتورك تبرأ من ميراث لجنة الاتحاد والترقى

فى أعقاب هزيمة العثمانيين، وقدم نفسه على أنه أبو الأمة التركية التى تشهد ميلادا جديدا، هناك الآن اعتراف على نطاق واسع بأن معظم البنية التحتية الفكرية والمؤسسية للأمة التركية تكونت نتيجة سياسات لجنة الاتحاد والترقى وقت الحرب[93].إذ إن ما تجسد آنذاك كان استرجاعًا للماضى من خلال إعادة تكوين الدولة نفسها كأمة، مع تحطيم الإمبراطورية أثناء هذه العملية، وهو ما خلق فرصة للدولة التى ورثت هذا النظام لبلورة رؤيتها ولو بشكل جزئى.

وكان أحد التناقضات الجوهرية التى واجهت تركيا الفتاة فى سعيها لبناء الأمة يتمثل فى أنه حتى المراحل الأخيرة من الحرب كان العرب يسكنون فى نصف أقاليم الإمبراطورية. وبالرغم من أن المناطق العربية ضاعت فى الحرب مع البريطانيين، وليس بسبب الانفصال نتيجة تمرد، ليس هناك شك فى أن أوضاع حكم "تركيا الفتاة" وقت الحرب أبعدت قطاعات كبيرة من المجتمعات العربية. والأهم من ذلك، على المدى الطويل، أن انتهاكات زمن الحرب وفرت المكونات الأساسية لتكوين أسطورة الاستشهاد والمقاومة العربية التى شكلت الإطار الشرعى للقومية العربية فى السنوات اللاحقة.

قمع التمرد فى الأراضى العربية

يصعب تقييم أثر الحرب على الوعى الجماهيرى بين العرب، فهناك كتابات حديثة عن الثقافة السياسية الجماهيرية فى سوريا وفلسطين ولبنان والعراق فى أعقاب الصراع، ولكن لا توجد مواد كافية عن سنوات الحرب ذاتها. فقد فرض المجهود الحربى العثمانى تكاليف باهظة على سكان الشرق الأوسط العربى، كما حدث لبقية سكان الإمبراطورية. وأدى تضافر التجنيد الإجبارى والضرائب الباهظة، وانتزاع المؤن بوحشية، وحصار "الحلفاء"، إلى انتشار الدمار الاقتصادى الذى تفاقم بسبب قيام ملاك الأراضى بتخزين الحبوب للمضاربة. وانتشرت المجاعات والأمراض فى المشرق (سوريا ولبنان حاليًا) مما تسبب فى موت مئات الآلاف من البشر. وكانت الأوضاع المادية بالغة الصعوبة أيضا فى بلاد ما بين النهرين (العراق) ، حيث دخلت قواته بقيادة الأتراك فى حملة عسكرية منهكة لإيقاف زحف الجيش البريطانى الهندى، وتزايد اتجاه ما قبل الحرب نحو المركزية وإضفاء الطابع التركى على إدارة الإمبراطورية بسرعة: حيث قام جمال

باشا ـ وزير البحرية العثمانية وعضو المجلس الثلاثى لتركيا الفتاة الذى أدار الإمبراطورية ـ بتولى القيادة الشخصية للأقاليم التى تكون سوريا ولبنان وفلسطين والأردن حاليًا، بل عين رفاقه فى مناصب كانت تشغلها شخصيات محلية لفترة طويلة[94].

وساهم العبء الثقيل للمجهود الحربى العثمانى فى اندلاع الثورات الشعبية المتفرقة، خاصة بين أعضاء الطبقة الدنيا من المسلمين الشيعة فى أماكن مثل إقليم بعلبك فى لبنان الحالية ومدينة النجف فى العراق. وبالرغم من أن أعضاء الجمعيات السرية القومية ساعدوا فى قيادة بعض هذه الثورات، فإنها ظلت أمورًا محلية معزولة يقمعها الجيش العثمانى بسهولة (خلال التقدم العسكرى للجنرال أللنْبى نحو سوريا فى 1918م، بدأت الاضطرابات المسلحة تندلع على نطاق أوسع خلف الخطوط التركية). ولم ينجح أى نوع من البنية التحتية الواسعة جغرافيًا للتنسيق المنهجى للأنشطة المناهضة للعثمانيين، بما يتخطى المجال المحدود للسياسة المحلية، إذا ما استثنينا أعضاء النخبة الحضرية الساخطة. وكانت الجمعيات السرية ـ كالفتاة والعهد ـ منطلق تلك المؤامرات.

وأدت كثافة انتهاكات لجنة الاتحاد والترقى للسلطة وقت الحرب إلى تعميق الإحساس بالمرارة بين أعضاء الأسر العربية العريقة، خاصة أبناء الجيل الجديد، ممن فقدوا فرص الحراك لأعلى، والتى كان آباؤهم يتمتعون بها قبل سنوات قليلة فحسب. ولم تعد فرص شغل المناصب العامة متاحة لهم؛ لأن لجنة الاتحاد والترقى فرضت سيطرتها البيروقراطية المباشرة على الإقليم، كما وضع جمال باشا نظاما للتعيين يقوم على المحسوبية.

وهكذا ربط أعضاء جمعيتى الفتاة والعهد شعورهم الشخصى بالذل والإحباط بالفكرة الأوسع المتمثلة فى أن المجتمع العربى ككل ـ الذين كانوا هم قادته الطبيعيين ـ يتعرض للقهر. وكان انتصار العثمانيين فى الحرب ـ من زوايتهم ـ سيزيد الأمور سوءًا؛ لأنه سيقوى قبضة تركيا الفتاة على الإمبراطورية، وسيضيق آفاق الإصلاح السياسى. وهكذا فإن فكرة وجوب استقلال العرب تمامًا عن الإمبراطورية العثمانية ـ أو تكوينها لاتحاد دول ـ قد اكتسبت تأييدًا بين دوائر

الجمعيات السرية الصغيرة، والتى ارتفعت عضويتها وقت الحرب من بضع عشرات إلى نحو 200 جمعية.

وحاول قادة الجمعيات السرية العربية - مثلهم فى ذلك مثل مؤسسى حركة "تركيا الفتاة" قبلهم - توسيع دائرة تأييدهم باجتذاب ضباط الجيش إلى حركتهم، وكانت الاتصالات تتم مع الضباط العرب فى الجيش العثمانى، بالإضافة إلى زعماء البدو على أمل إثارة ثورة ضد العثمانيين من داخل صفوف الجيش، وبين المجموعات القبلية. وكان من المنتظر أن تتم زيادة فرص نجاح تلك الثورة، إذا أمكن تنسيقها بعمليات عسكرية بريطانية. وفى سياق هذه الخطط أقسم فيصل ابن شريف مكة سرًا كعضو فى جمعية العهد فى 1915م، وذلك خلال أولى زيارتيه وقت الحرب لدمشق. وكان هذا بمثابة بداية مرحلة ثورة الحجاز، كما سنرى فى الفصل التالى.

ومع ذلك، وجه كمال باشا فى سوريا ضربات استباقية ضد الحركة القومية بشنق عشرات من القوميين من المشتبه فيهم فى بيروت ودمشق، غالبًا بتهم التآمر مع العدو، بناءً على اتصالاتهم قبل الحرب بدبلوماسيين فرنسيين وبريطانيين. وقام أيضًا بخطوة احترازية تمثلت فى نقل عدد من وحدات الجيش العربية المشكوك فى ولائها بعيدًا عن سوريا. وحتى مع عدم اتخاذ مثل هذه التدابير، لم يكن هناك احتمال لوجود أى أفق لنجاح أى تمرد مسلح فى سوريا؛ وذلك لأن ضباط الجيش المتصلين بالقوميين كانوا مجرد نسبة ضئيلة فى الجيش السورى العثمانى. وكانت السرية الشديدة لمنظمات مثل «الفتاة» تحد من قدرتهم على الإثارة الجماهيرية أو الدعاية على نطاق شعبى. وفى داخل المجتمع الإسلامى السنى السائد، كانت الدعوة العثمانية الرسمية إلى التضامن الإسلامى ضد البريطانيين تلقى صدى قويًا على الأقل مثل فكرة وحدة المصير القومى العربى.

وعلى الرغم من أن قمع جمال باشا كثف المشاعر المعادية للأتراك فى العالم العربى، ووفر مادة لتطور التضحية القومية التى روجت لها الأنظمة القومية العربية فى أعقاب هزيمة الإمبراطورية العثمانية، فإن معظم الشخصيات العربية البارزة ظلت على ولائها للإمبراطورية العثمانية حتى النهاية. ويعد ساطع

الحصرى مثالا جليا على ذلك. فقد ولد الحصرى فى اليمن لأبوين سوريين فى 1882م، حيث تخرج فى «المُلكية» (أرفع الكلية الإدارية العثمانية) وكانت لغته التركية العثمانية تبدو أكثر فصاحة من العربية، قبل أن يصبح منظرًا قوميًا بارزًا للوحدة العربية فى سنوات ما بين الحربين (انظر الفصل السابع). ومع ذلك، كان قبل الحرب العالمية الأولى قد ذاع صيته كمدافع عنيد عن العثمانية الليبرالية متعددة الأعراق، وشن الحصرى هجوما على ضياء جوك آلب لتبنيه مفهوما عضويا ضيقا للقومية التركية. وخلال الحرب العالمية الأولى، شغل الحصرى منصب وزير التعليم فى سوريا، وعلى الرغم من أنه كان بوسعه عقد اتصال مع أعضاء «الفتاة»، فإنه لا يوجد دليل على تأييده أنشطتهم، وكذلك فإن ياسين الهاشمى الذى أصبح شخصية رائدة خلال حكم فيصل القصير لسوريا، ثم فى النظام العراقى، عمل بإخلاص كقائد عسكرى عثمانى حتى الانهيار النهائى للإمبراطورية.

وتجنب الصحفى «كُرد على»، الذى كان نشطًا فى الدوائر القومية العربية قبل الحرب، أية إشارة لعدم الولاء تجاه اسطنبول خلال الحرب، وشدد فى مذكراته على أنه لم يبلغ أبدًا عن أى من زملائه القوميين أثناء مقابلاته الودود العديدة مع جمال باشا، وأنه حاول أن يتشفع لهؤلاء النشطاء الذين حكم عليهم بالإعدام[95]. وفيما بين الشخصيات الحضرية فى العراق، كان هناك تأييد أقل للانفصال الكامل عن إسطنبول، مقارنة بموقف النخبة السورية[96].

ولكن على الرغم من أن السلطة العثمانية فى الأراضى العربية تعرضت للهزيمة على أيدى القوات البريطانية المسلحة، وليس بسبب ثورة داخلية، فإن أحداث فترة الحرب ساعدت على إطلاق مرحلة القومية العربية بعد الحرب. وحتى بالرغم من أن الدور الذى لعبته المنظمات القومية العربية فى هزيمة الإمبراطورية العثمانية كان ضئيلاً، فإنها قدمت النواة الفكرية والتنظيمية، التى نمت حولها حركة قومية أكثر قوة فى أعقاب تقسيم الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب إلى مناطق انتداب لعصبة الأمم تديرها بريطانيا وفرنسا. وربما يكون الأهم من ذلك أن الحرب وفرت فرص تكوين أساطير قوية عن المقاومة الوطنية، وأصبحت المشانق التى نصبها جمال باشا للناشطين السياسيين نقطة محورية

كبرى فى سيّر الأبطال القوميين. ولكن كما سنرى فى الفصل التالى، كانت المرحلة الجوهرية فى الدراما القومية تحتلها القيادة السياسية والعسكرية «للثورة العربية»، والتى لم تكن نقطة انطلاقها تقع فى المراكز الحضرية فى الهلال الخصيب، ولكنها كانت فى هامش الإمبراطورية العثمانية، فى إقليم الحجاز المنعزل.

الخاتمة

لم تترك الحرب طبقة اجتماعية ولا مجموعة عرقية فى إمبراطورية الهابسبرج، وإمبراطورية رومانوف الروسية والإمبراطورية العثمانية على حالها. وأدى حصدها للأرواح وتدميرها للممتلكات، وتبديدها لأى إحساس باستشراف المستقبل، إلى تعميق المظالم القائمة وتركيز الصراع عبر مجموعة من خطوط الشقاق. وكان الملايين الذين اقتصرت استجاباتهم على اليأس الكامل، أو الذين ركزوا جل وجودهم على متطلبات الحياة اليومية، ليس لهم أثر مباشر على السياسة، بالرغم من أن مجرد سلبيتهم السياسية، أو اغترابهم، كانت لها انعكاسات مهمة فى عالم ما بعد الحرب. ولكن كان هناك كثيرون انخرطوا فى النشاط السياسى المعارض على مستويات متباينة وبأشكال مختلفة، تتراوح من التعبير عن المشاعر المناهضة للحرب أو المناهضة للحكومة فى مراسلاتهم الخاصة، إلى المشاركة فى الحركات السياسية، والمظاهرات العامة والثورات المسلحة. وكان القاسم المشترك بين كل هذه الاستجابات السياسية على الحرب يتمثل فى أنها تعبر عن أمل قوى فى التغيير الجذرى، والتحول الجوهرى للنظام الاجتماعى أو السياسى . أى التحول الواضح الذى يعطى معنى للتضحيات الهائلة للصراع والذى يضمن عدم تكرار هذه الكارثة من جديد.

وفيما بين العديد من الشعوب الخاضعة للإمبراطوريات متعددة الأعراق، كانت فكرة تقرير المصير القومى تحظى بجاذبية واسعة سعيا وراء تحقيق التطلعات الشعبية. ولكن الوحدة الظاهرية للمشاعر القومية، انطوت على محاذير مضللة؛ لأنها احتوت بداخلها على تنوع كبير فى الأجندات الاجتماعية الاقتصادية، والأيديولوجيات السياسية، وتعريفات الهوية. إذ كانت هناك اختلافات كثيرة فى تصورات ما الذى يكوّن الأمة، ومن الذى ينتمى إليها، وأين

يجب أن تقع حدودها الجغرافية والديموجرافية، وما التحولات الاجتماعية التى يجب أن تحدث كجزء من تحريرها. وكانت المشروعات الاتحادية الكبيرة أو تصورات الروابط القومية لدى المفكرين القوميين والطبقات الوسطى الحضرية، غالبًا ما تتصادم مع المفاهيم المحددة إقليميًا وعرقيًا للهوية السياسية بين السكان الفلاحين. وكانت هذه الفجوة ترتبط أحيانًا بالتباين بين اهتمام النخب القومية بممارسة دور محترم للأمة على الساحة العالمية، والاهتمام العام بالقضايا الأكثر تحديدًا للعدالة الاجتماعية، وإعادة توزيع الموارد. وهكذا تحول سكان حضر كرواتيا بشدة نحو اليوغسلافية فى السنتين الأخيرتين من الحرب، بينما كان الفلاحون العنيدون يواصلون أحلام الجمهورية الاشتراكية الكرواتية. وكان القادة القوميون الأوكرانيون يتطلعون لتحقيق الاستقلال الذاتى السياسى كغاية فى حد ذاتها، بينما كان الفلاحون الأوكرانيون يفكرون فى الحكم الذاتى بصورة أكثر عملية كوسيلة لضمان إطار مناسب للإصلاح الزراعى. وحاول الإصلاحيون الليبراليون فى حركة «المجددين» تكوين مؤسسات ثقافية قومية لمسلمى روسيا على أساس الوحدة التركية، وذلك لمواجهة المشاعر المناهضة للتتر والخصوصية العرقية الإقليمية بين ممثلى إمارات آسيا الوسطى وعبر القوقاز. وتطلع أعضاء جمعيتى «الفتاة» و«العهد» إلى تكوين دولة مستقلة واحدة تشمل معظم الإمارات العربية فى الإمبراطورية العثمانية، ولكن الاندلاع المتقطع للعنف الشعبى فى سوريا والعراق ومشاركة البدو البسطاء فى «الثورة العربية» (انظر الفصل التالى) لا يمكن فهمه بمعزل عن الاهتمامات والولاءات المحلية والقبلية. وخلال المراحل الأخيرة من الانهيار والهزيمة العسكرية للإمبراطوريات متعددة العرقيات، كانت المشاعر القومية المتبلورة بسرعة، والتردد وفقدان السلطات السياسية للثقة، والانهيار الإدارى، تقوى بعضها بعضًا فيما أصبح دائرة مفرغة لا مفر منها. وعززت جهود اللحظة الأخيرة لتهدئة المشاعر القومية - مثل عرض القيصر كارل الأول فى أكتوبر 1918م، الاتحاد الفيدرالى لمملكة الهابسبرج، أو وعد الحكومة الانتقالية الروسية بأشكال مختلفة ومبهمة من الاستقلال للأقليات القومية الروسية - من إنعاش الدوافع الانفصالية بتكوين إطارات يمكن التعبير من خلالها عن حده الدوافع، أو برفع سقف التوقعات التى لا يمكن تحقيقها داخل النظام السياسى القائم. وأدى العجز فى السيطرة على مثل هذه القوى إلى إحباط

السلطات المركزية وتخبطها. وفى حالات عديدة كانت هذه النظم المركزية غير راغبة فى استخدام ما تبقى لها من سلطة لاستعادة النظام.

وعندما رحلت الإمبراطوريات متعددة القوميات عن الساحة، أخذت معها الأطر المرجعية الجيوبوليتيكية القديمة التى تطورت بداخلها الهويات القومية. فبالنسبة لبعض المجموعات، كان هذا يعنى إزالة القيود التى خضعت لها، وكانت هذه حال اليوغسلافيين الذين طالبوا إمبراطورية النمسا والمجر بتوحيد إمارات سلافى الجنوب مع صربيا. وفى المقابل، فإن القيادات التى اعتنقت نموذج الاستقلال العرقى داخل إطار فيدرالى متعدد القوميات وجدوا أنفسهم بلا بديل واضح عن الاستقلال السياسى، على نحو ما أثبتت تجربة البلاشفة فى جورجيا والنخب السياسية فى المشرق العربى. وفى كل مكان ترك سقوط البنى الإمبريالية المسيطرة المجال مفتوحًا أمام الصراع العنيف على حدود الهوية القومية.

وإذا كنا قد عالجنا فى هذا الفصل آليات عمل القومية داخل الإمبراطوريات وقت الحرب، فإنه من الحرىّ بنا قبل الانتقال إلى تطورات المشهد بعد سقوط تلك الإمبراطوريات، أن نوجه اهتمامنا إلى المجالات الجديدة للنشاط القومى فيما وراء الحدود الإمبريالية لزمن الحرب، وهى المهمة التى يتصدى لها الفصل المقبل.

الهوامش

(1) للاطلاع على عرض قوى لأثر حالة الحرب فى القرن العشرين على الثقافة الاجتماعية والسياسة الجماهيرية، انظر:

- Arthur Marwick, War and Social Change in the Twentieth Century: A Comparative Study of Britain, France, Germany, Russia and the United States (London: Macmillan, 1974), 11-14 and passim.

(2) فى حالة الإمبراطورية العثمانية، سندرس أيضا تطور القومية التركية خلال الحرب، والتى تصاعدت إلى مرحلة تكوين قومية تركية جديدة فى أعقاب الصراع.

(3) كان يقال إن التوتر أثناء الحرب بين بودابست وفيينا كان أعمق من التوتر بين الشعوب الخاضعة وحكامها.

- Robert Bideleux and Ian Jeffries, A History of Eastern Europe: Crisis and Change (London and New York: Routledge 1998), (399-400).

- Oscar Jazzi, The Dissolution of Habsburg Monarchy (Chicago, IL: Chicago University Press, 1961; 1st edn, 1929), 365.

(4) Günter E. Rothenberg, "The Habsburg Army in the First World War: 1914-1918," in Robert A. Kann, Béla K. Király, and Paula S. Fichtner, eds, The Habuburg Empire in World War I (Boulder, CO: East European Quarterly, 1977), 80-81.

(5) Richard G. Plaschka, "Contradicting Ideologies: Thr Pressure of Ideological Conflicts in the Austro-Hungarian Army of World War I," in Kann et al., The Habsburg Empire in World War I.

(6) Victor S. Mamatey, The United States and East Central Europe, 1914-1918: A Study in Wilsonian Diplomacy and Propaganda (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1957), chap. 5.

- Kenneth J. Calder, Britain and the Origins of the New Europe, 1914-1918 (Cambridge: Cambridge University Press, 1976), chap. 7.

(7) كانت اللغة الألمانية لغة القيادة فى جيش الهابسبرج.

(8) Jazzi, Dissolution, (141-148).

- István Deák, Beyond Nationalism: A Social and Political History of the Habsburg Officer Corps, 1848-1918 (New York: Oxford University Press, 1992), passim.

(9) Rothenberg, "The Habsburg Army in the First World War: (1914-1918)" .

- Jay Luvaas, "A Unique Army: The Common Experience." In Kann et al., The Habsburg Empire in World War I.
- Janos Decsy, "The Habsburg Army on the Treshold of Total War," in Béla Király and Nándor Dreisziger eds, East Central European Society in World War I (Boulder, CO: East European Monographs, 1985), 284-285.

(10) تمثلت الاستثناءات الرئيسة لهذا النمط فى السياسات التمييزية من آن لآخر ضد اليهود ومحاباة المجريين الذين تنافست قيادة الجيش المشتركة مع الحرس القومى المجرى على خدمتهم.

Deák, Beyond Nationalism, chap. 10.

Ibid. (11)

- وتتمثل القصة التقليدية التى تصور استمرار هذه العقلية حتى عصر القومية فى:

- Joseph Roth, Radetzky March (trans. Joachim Neugroschel, Woodstock, NY: Overlook Press, 1995; Berlin: Gustav Kiepenheuer Verlag, 1932).

Leo Valiani, The End of Austria-Hungary (New York: Knopf, 1973), 197-198, (12)

- Richard B. Spence, "Yugoslavs, the Austro-Hungarian Army, and the First World War" (Ph.D. diss., University of California at Santa Barbara, 1981), chap. 4.

Jaroslav Hasek, The Good Soldier ·vejk and his Fortunes in the World War (13) (trans. Cecil Parrot, New York: Thomas Y. Crowell Co., 1974; 1921-1923).

H. Louis Rees, The Czechs during World War I (Boulder, CO: East European (14) Monographs, 1992). 16.

- Zbynek Zeman, The Break-up of the Habsburg Empire, (1914-1918) (London: Oxford University Press, 1961), (51, 52).
- Richard George Plaschka, "Zur Vorgeschichte des Überganges von Einheiten des Infanterieregiments Nr. 28 an der Russischen Front 1915," in Richard George Plaschka, Nationalismus, Staatsgewalt, Widerstand: Aspekte nationaler und sozialer Entwicklung in Ostmittel- und Südosteuropa (Munich: Oldenbourg, 1985).

H. Louis Rees, The Czechs during World War I (Boulder, CO: East European (15) Monographs, 1992). 16.

- Zbynek Zeman, The Break-up of the Habsburg Empire, 1914-1918 (London: Oxford University Press, 1961), (51-52).

- Richard George Plaschka, "Zur Vorgeschichte des Überganges von Einheiten des Infanterieregiments Nr. 28 an der Russischen Front 1915," in Richard George Plaschka, Nationalismus, Staatsgewalt, Widerstand: Aspekte nationaler und sozialer Entwicklung in Ostmittel- und Südosteuropa (Munich: Oldenbourg, 1985).

(16) Spence, "Yugoslavs, the Austro-Hungarian Army," pp. (38-39), chaps (5, 9, 10).

- András Siklfis, "The Internal Situation in the Austro-Hungarian Monarchy in the Spring and Summer of 1918," Etudes historique hongroises, vol. 2 (1985), (288-300).

- Karel Pichlik, "Der militärische Zusammenbruch der Mittelmächte im Jahre 1918," in Richard George and Karlheinz Mack, eds, Die Auflösung des Habsburgerreiches: Zusammenbruch und Neuorientierung im Donauraum (Munich: Oldenbourg, 1970), (254-260).

(17) Allan K. Wildman, The End of the Russian Imperial Army, vol. 1: The Old Army and the Soldiers' Revolt (March-April 1917) (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1980), chaps (3-4).

(18) Luvaas, "A Unique Army." /

(19) كانت سلطات الهابسبرج العسكرية تبلغ عن حدوث اختلاط غير مناسب بين الضباط والجنود فى الفوج 28خلال الفترة السابقة على أدائه المشين فى ميدان المعركة. وكان هذا يعتبر أمرا سيئا بالنسبة للنظام، ولكن من المؤكد أنه لا يمكن اعتباره مؤشرا على ضعف روح الجماعة.

- Plaschka, "Zur Vorgeschichte des Überganges."

(20) Modris Eksteins, Rites of Spring: The Great War and the Birth of the Modern Age (New York: Anchor Books, 1990), 175,

- Leonard V. Smith, Between Mutiny and Obedience: The Case of the French Fifth Infantry Division during World War I (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), passim

- ...., "Remobilizing the Citizen-Soldier through the French Army Mutinies of 1917," in John Horne, ed., State, Society and Mobilization in Europe during the First World War (Cambridge: Cambridge University Press, 1997),

- Stéphane Audoin-Rouzeau Men at War 1914-1918: National Sentiment and French Journalism in France during the First World War (Oxford: Berg, 1995), chaps (5-6).

(21) Nándor F. Dreisziger, "The Dimensions of Total War in East Central Europe, 1914-18," in Király and Dreisziger, eds, East Central European Society, (16-18).

- Spence, "Yugoslavs, the Austro-Hungarian Army," chap. 4,
- Siklos, "Internal Situation," (290-294).

(22) Victor S. Mamatey, "The Czech Wartime Dilemma: The Habsburgs or the Entente?" (note no. 4) in Király and Dreisziger, eds, East Central European Society.

(23) كانت المنظمة البولندية المسلحة تحظى بدعاية كبيرة بين الأحزاب الثورية الروسية المنافسة التى بحثت عن أنصار ومقاتلين لقضاياها.

(24) Zeman, Break-up, (143-144).

- Siklos, "Internal Situation," (294-296).

(25) كان هذا يتعارض بشدة مع جيوش الدول القومية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وبلغاريا ورومانيا، حيث كانت أشكال الترفيه والدعاية على خط الجبهة تعتمد على عناصر من الثقافة الشعبية التى تستخدمها السلطات العسكرية للحفاظ على إحساس القوات بارتباطها بالوطن. وحتى إذا كان العديد من الجنود فى هذه الجيوش يسخرون من القومية الرسمية، فإنهم سيحتفظون بإحساس قوى بأن التمسك بهذا الخط سيجعل العدو بعيدا عن ذويهم وأراضيهم. وكما شرحنا سلفا، فإنه بقدر ما كانت قوات القوميات الخاضعة فى إمبراطورية الهابسبرج على صلة بذويهم وأراضيهم، بقدر ما كان ذلك يزيد فى ميلها إلى الفرار. انظر:

- J.G. Fuller, Troop Morale and Popular Culture in the British and Dominion Armies, 1914-1918 (Oxford: Oxford University Press, 1990)
- Audoin-Rouzeau, Men at War,
- Vejas Gabrielius Liulevicius, "War Land: Peoples, Lands, and National Identity on the Eastern Front in World War I" (Ph.D. diss., University of Pennsylvania, 1994), (188-196).
- Evelina Kelbetcheva, "Between Apology and Denial: Bulgarian Culture during World War I,"
- Maria Bucur, "Romania: War, Occupation, Liberation," in Aviel Roshwald and Richard Stites, eds, European Culture in the Great War: The Arts, Entertainment, and Propaganda, 1914-1918 (Cambridge: Cambridge University Press, 1999).

- وللاطلاع على تقرير روائى عاطفى عن تحول ضابط رومانى من ضابط منتظم فى جيش الهابسبرج إلى قومى متحمس للعرق الرومانى، انظر:

Liviu Rebreanu, Forest of the Hanged (London: Owen, 1967; 1930).

Siklos, "Internal Situation," 300. (26)

Siklos, "Internal Situation," (299-300). (27)

- Spence, "Yugoslavs, the Austro-Hungarian Army," chaps (9, 10).
- Richard Plaschka, "Contradicting Ideologies".
- Mark Cornwall, "Morale and Patriotism in the Austro-Hungarian Army, 1914-1918," in Horne, ed., State, Society and Mobilization, 184-191.

(28) كان الاشتراكيون القوميون التشيك يؤيدون حقوق العمال فى إطار أيديولوجية قومية صريحة وغير ماركسية.

Rees, The Czech during World War I. (29)

- Zeman, Break-up,
- Mamatey, "The Czech Wartime Dilemma".
- Victor S. Mamatey, "The Union of Czech Parties in the Reichsrat, 1916-1918," in Kann et al., The Habsburg Empire in World War I,
- Valiani, The End of Ausria-Hungary.
- Péter Hanák, "Die Volksmeinung während des letzten Kriegs- Péter Hanák, "Die Volksmeinung während des letzten Kriegsjahres in Österreich-Ungarn," in Plaschka and Mack, eds, Die Auflösung des Habsburgerreiches.
- Richard George Plaschka, 'Widerstand 1915 bis 1918 am Modell Pilsen," in Plaschka, Nationalismus, esp. p. 308.
- Claire Notle, "Ambivalent Patriots: Czech Culture in the Great War," in Roshwald and Stites, eds, European Culture.

(30) إننى أستخدم هنا مصطلح المانيا نمساويا لأشير إلى الرعايا الألمان عرقيا فى مملكة الهابسبرج.

(31) يشير زيمان (Zeman Break-up, 51-52) إلى أن هؤلاء الجنود كانوا ينتمون أساسا إلى الطبقة العاملة من المجاورات السكنية التى كانت قلاعا للحزب الاشتراكى القومى المناصر للروس نوعا ما.

Rees, The Czech during World War I, passim. (32)

- ومن جانبها كانت الصحافة المجرية بحلول 1918، تدعى أن المجر كانت تخضع لمصادرات أكثر قسوة مما كان يتعرض له الشق النمساوى من الإمبراطورية، وكان للمسئولين والقوات التشيكية دور غير تناسبى فى فرض هذه الإجراءات.
- Siklos, "Internal Situation," 287.

Zeman, Break-up, (133, 139). (33)

يرى زيمان أن المشاعر الثورية الاجتماعية اكتسبت أرضية بين العمال الألمان النمساويين والمجريين لأنهم كانوا ينتمون إلى مجموعات عرقية تمتعت بالسيطرة فى نظام الهابسبرج، أى أنه لم يكن لديهم إحساس قوى بالاضطهاد القومى الذى كان يمكن أن يأخذ أولوية على المصالح الطبقية، انظر المرجع السابق، ص 146-145).

John Lampe, Yugoslavia as History: Twice There Was a Country (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 106-107. (34)

- Ivo Banac, The National Question in Yugoslavia (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1984), (366, 367).

- Spence, "Yugoslavs, the Austro-Hungarian Army," (69, 72).

- لا شك أن المنهج العسكرى لهابسبرج ساعد على زيادة عداء الصرب للنظام الإمبريالى وارتباطهم بمملكة صربيا. انظر:

- Hanák, "Die Volksmeinung."

Nicholas J. Miller, Between Nation and State: Serbian Politics in Croatia before the First World War (Pittsburgh, PA: University of Pittsburgh Press, 1997), chap. 5. (35)

Banac, The National Question, 125. (36)

- Zeman, Break-up, (57-60).

- Spence, "Yugoslavs, the Austro-Hungarian Army," 62 and chap. 7.

- والاقتباس المنقول عن التحالف الصربى الكرواتى. والاقتباس المنقول عن التحالف الصربى الكرواتى (Hravatska) مأخوذ من المرجع السابق، ص 63.

Seton-Watson to Ivo Lupis-Vukiç (17 October 1909), Seton-Watson to Herbert Fisher (9 October 1916), and Herbert Fisher to Seton-Watson (11 October 1916), in Hugh and Christopher Seton-Watson, Ljubo Boban, Mirjana Gross, Bodgan Krizman, and Dragovan ·epié, eds, R.W. Seton-Watson and the Yugoslav: Correspondence, 1906-1918 (London: British Academy, 1976), 50-54, 275-282. (37)

Wayne S. Vucinich, "Mlada Bosna and the First World War," in Kann et al., The Habsburg Empire in World War I, (38)

- Zeman, Break-up, (59-60).

- Dragan Ziojinovic, "Serbia and Montenegro: The Home Front, 1914-18," in Király and Dreisziger, East Central European Society in World War I,

- Banac, The National Question, (129-132).

- Spence, "Yugoslavs, the Austro-Hungarian Army," 75-80 and chap. 7.

- Ivo Andriç, Bridge on the Drina (trans. Lovett F. Edwards, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1977 edn), chaps (22-23).

- أصبح أندريش الكرواتى المولد نشطا فى حركة (البوسنة الفتاة . Mlada Bosna) قبل الحرب، واعتقلته سلطات الهابسبرج بمجرد بداية الصراع. وفى السنوات اللاحقة انتقل إلى بلغراد وقدم نفسه كصربى.

- Lampe, Yugoslavia as History, 89 and 100.

(39) Andrew Wachtel, "Culture in the South Slavic Lands, 1914-1918," in Roshwald and Stites, eds, European Culture,

- Banac, The National Question, (125-126).

- Cornwall , " Morale and Patriotism," (181-182).

(40) يتمثل المصدر الأساس للمعلومات التى اعتمدت عليها هنا عن «الكوادر الخضراء . Green Cadres» فى:

- Ivo Banac, " "Emperor Karl has become a Comitaji": the Croatian Disturbances of Autumn 1918," The Slavonic and East European Review, vol. 70, no. 2 (April 1992), (248-305).

- Banac, The National Question, (127, 129-131).

- Spence, "Yugoslavs, the Austro-Hungarian Army," chap. 8.

(41) فى أكتوبر . نوفمبر 1918 أرسلت قرى صربية عديدة طلبات إلى "المجلس القومى الكرواتى "المشكل حديثا تطالب بالوحدة المباشرة مع صربيا.

- Banac, The National Question, 129-131.

(42) Richard George Plaschka, "The Army and Internal Conflict in the Austro-Hungarian Empire, 1918," in Király and Dreisziger, East Central European Society,

- Banac, The National Question, (1270140).

- Siklos, "Internal Situation," (286-287).

- Lampe, Yugoslavia as History, 108-111.

(43) كان استيبان راديتش Stjepan Radic زعيم حزب الفلاحين الكرواتى، أحد شخصيات «المجلس القومى» حيث تكلم بحدة ضد الاتحاد غير المشروط مع صربيا، محذرا زملاءه بالقول «من الواضح أنكم لا تهتمون بأن فلاحينا بصفة عامة، والفلاحين الكروات بصفة خاصة، لا يرغبون فى سماع أى شىء آخر ... عن دولة تفرضونها عليهم بالقوة. ...»» مقتبس فى :

- Yim Judah, The Serbs: History, Myth and the Destruction of Yugoslavia (New Haven, CT: Yale University Press, 1997), 105.

(44) Hanák, "Die Volksmeinung," (63-66.)
- Zeman, Break-up, (139, 219).
- E.J. Hobsbawm, Nations and Nationalism since 1870: Programme, Myth, Reality (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), (126-130).

- يذهب هوبسباوم إلى أن السعى إلى الاشتراكية كان دافعا أكثر أهمية وقوة بين الطبقات العاملة من السعى إلى حق تقرير المصير القومى. وقد بدأت القومية تكسب التأييد الشعبى عندما اتضح أن السلام الاشتراكى لم يكن يلوح فى الأفق، على نحو ما اتضح من سحق إضراب يناير، وختام مفاوضات بريست - ليتوفسك (Brest-Litovsk) فى مارس 1918، وكثافة الحرب على الجبهات الغربية. وطالما أن الاشتراكية والقومية ظهرتا كخيارين على نفس القدر من الحيوية، فإن هوبسباوم ذهب مصرا إلى أن الاشتراكية هى التى ولدت الحماسة الأكبر. ولكن يصعب التوفيق بين قوله هذا وفشل العمال التشيك فى الإضراب بأعداد كبيرة فى يناير) 1918مما سهل على السلطات مهمة قمع الإضراب فى النمسا الألمانية والمجر) والضغط الشعبى داخل الحزب الديمقراطى الاجتماعى الذى أدى إلى انضمام الحركة للمعسكر القومى التشيكى فى صيف وخريف) 1917 (انظر أعلاه).

(45) إننى أستخدم التقويم الجريجورى (الغربى) طوال هذا النص. وكان التقويم اليوليوسى القديم المستخدم فى روسيا وقت الثورة متأخرا عن التقويم الغربى بثلاثة عشر يوما.

(46) Hubertus Jahn, Patriotic Culture in Russia during World War I) Ithaca, NY and London: Cornell University Press, 1995), Conclusion and passim.
- Orlando Figes, A People's Tragedy: A History of the Russian Revolution (New York: Viking, 1996), (282-288).

(47) Mark von Hagen, "the Great War and the Mobilization of Ethnicity in the Russian Empire," in Barnett R. Rubin and Jack Snyder, eds, Post Soviet Political Order: Conflict and State Building (London: Routledge, 1998).

(48) Aviel Roshwald, "Jewish Cultural Identity in Eastern and Central Europe during the Great War,' in Roshwald and Stites, European Culture.

(49) Mark von Hagen, "Writing the History of Russia as Empire: The Perspecive of Federalism," in Catherine Evtuhov, Boris Gasparov, Alexander Ospovat, and Mark Von Hagen, eds, Kazan, Moscow, St. Petersburg: Multiple Faces of the Russian Empire (Moscow: OGI, 1997), 400.

(50) Wildman, The End of the Russian Imperial Army, vol. 1, 103.

(51) أثار الاتصال بين العمال الفنلنديين وغير الفنلنديين المشاركين فى بناء التحصينات المخاوف بين الطبقات الوسطى الفنلندية من أن البروليتاريا التابعة لهم ستتأثر بالعقليات الخطيرة والعادات البربرية المرتبطة بالعمال «الأجانب» وساعدت فكرة أن بعض أجزاء

الطبقة العاملة أصبحت ملوثة بالقيم الغربية على تمهيد الطريق لمذابح «الحرس الأحمر Red Guards» الاشتراكى الفنلندى ومؤيديهم خلال «الإرهاب الأبيض. White Terror» الذى شهدته البلاد فى 1918، والذى تم تبريره على أنه عملية تطهير قومى.

- Anthony F. Upton, The Finnish Revolution (Minneapolis, MN: University of Minneapolis Press, 1980), (16-17).

(52) Ronald Grigor Suny, The Revenge of the Past: Nationalism, Revolution and the Collapse of the Soviet Union (Stanford, CA: Stanford University Press, 1993), (74-75).

- Andrejs Plakans, The Latvians: A Short History (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1995), (113-118).

(53) أعيدت تسمية العاصمة الروسية سانت بطرسبرج إلى بتروجراد بعد اندلاع الحرب.

(54) Wildman, The End of the Russian Imperial Army, vol. 2: The Road to Soviet Power and Peace (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987), passim.

(55) Andreas Kappeler, Russland als Vielvölkerreich (Munich: C.H. Beck, 1993), chap. 9.

- Figes, A People's Tragedy, 380.

(56) Arno J. Mayer, Wilson vs. Lenin: Political Origins of the New Diplomacy, 1917-1918 (Cleveland, OH: World Publishing Company, 1964, edn; first published as Political Origins of the New Diplomacy, 1917-1918, New Haven, CT: Yale University Press, 1959), 75 and 83.

(57) Richard Pipes, The Formation of the Soviet Union: Communism and Nationalism, 1917-1923 (rev. edn, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1964; 1954), 29-31, 50-51,

- Figes, A People's Tragedy, 371-372, 376-376.

- Robert Paul Prowder and Alexander F. Kerensky, eds, The Russian Provisional Government, 1917: Documents, vol. 1 (Stanford, CA: Stanford University Press, 1961), 321-323 and (334, 335).

- von Hagen, "Writing the History of Russia as Empire," 398.

- Wiktor Sukiennicki, East Central Europe during World War I: From Foreign Domination to National Independence (Boulder, CO: East European Monographs, 1984), vol. 1, (325-326).

(58) كانت بولندا وفنلندا تعتبران حالتين متميزتين، لأن كلا منهما قدم سابقة قانونية من القرن التاسع عشر نظرا لاستقلالهما الذاتى الإدارى. ويجب أن نذكر أيضا أنه بعد

اندلاع الحرب العظمى، فإنه حتى الحكومة القيصرية كانت تتملق فكرة الاستقلال الذاتى البولندى كسلاح دعاية فى صراعها مع القوى المركزية.

(59) Nicholas P. Vakar, The Making of a Nation: A Case Study (Cambridge, MA: 1956), chap. 7.

- Suny, Revenge, (30-35).

- وعكست النتائج الانتخابية أيضا المشاركة الكبيرة من الجنود فى القطاع البيلاروسى من الجبهة الغربية ,الذين صوتوا بأعداد كبيرة لصالح البلاشفة باعتباره الحزب الذى وعد بتحقيق سلام فورى.

(60) Ibid.

- Pipes, Formation, 73-75 and 151.

(61) Suny, Revenge, passim.

(62) عند الإشارة إلى أقاليم مثل أوكرانيا وبيلاروسيا، فإننى أستخدم المصطلحات الإنجليزية التى كانت مستخدمة فى ذلك الوقت.

(63) John S. Reshetar, The Ukrainian Revolution, 1917-1920: A Study in Nationalism (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1952), chap. 2.

- Thomas M. Prymak, Mykhailo Hrushevsky: The Politics of National Culture (Toronto: University of Toronto Press, 1987), chap. 7.

- Pipes, Formation, (53-73).

- Lew Shankowsky, "Disintegration of the Imperial Russian Army in 1917," The Ukrainian Quarterly. XIII, 4 (December 1957), 314-315.

- Figes, A People's Tragedy, 374.

- كان إعلان البرلمان الأوكرانى (الرادا Rada) استقلال أوكرانيا فى نوفمبر 1917، مقيدا على أساس الوعد بالعمل على تحويل روسيا إلى «اتحاد شعوب حرة ومتساوية». وقد أعلن الاستقلال التام فى يناير 1918 فى أعقاب الهجمات البلشفية.

- Ivan Rudnytsky, "The Fourth Universal and its Ideological Antecedents," in Taras Hunczak, ed., The Ukraine, 1917-1921: A Study in Revolution (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1977).

(64) يجب أن نذكر أن الفلاحين الأفضل حالا - ممن يسمون بالطبقة الوسطى الزراعية - كانوا أحسن تنظيما، وبالتالى كانوا أكثر نشاطا سياسيا من الطبقات الريفية الفقيرة.

(65) Arthur Takach, "In Search of Ukrainian National Identity: 1840-1921," Ethnic and Racial Studies, vol. 19, no. 3 (July 1996), (640-659).

(66) Alexandre Bennigssen and Chantal Quelquejay, Les Mouvements nationaux chez les Musulmans de Russie: Le "Sultangalievisme' au Tatarstan (Paris and The Hauge: Mouton, 1960), (66-69).

- ...., La Presse et le mouvment national chez les Musulmans de Russie avant 1920 ((Paris and The Hauge: Mouton, 1964), 185-188,

- Pipes, Formation, (75-79).

(67) Martha Brill Olcott, The Kazakhs (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1987), chap. 4 and pp. (118-128).

- Edward A. Allworth, The Modern Uzbeks: From the Fourteen Century to the Present, A Cultural History (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1990), 159-160.

- Hélène Carrère d'Encausse, Islam and the Russian Empire: Reform and Revolution in Central Asia (trans. Quintin Hoare, Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1988), 120.

- Pipes, Formation, (81-86).

(68) Olcott, Kazakhs, 101-103, 114-118, and chap. 6.

(69) كان الكازاخ مسلمين اسميا لعدة قرون، صحيح أنهم عرفوا الشريعة الإسلامية، فضلا عن ممارستها، إلا أنها بقيت معرفة سطحية. أما إلى الجنوب، فى تركستان، فقد كانت هناك عداوة منتشرة ضد تتر الفولجا باعتبارهم عملاء للإمبريالية الروسية.

- Allworth, Uzbeks, (190, 191).

(70) Tadeusz Swietochowski, Russian Azerbaijan, 1905-1920: The Shaping of National Identity in a Muslim Community (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), 91-94, 129-135.

- Suny, Revenge, (41-43).

(71) Allworth, Uzbeks, (161-172).

- d'Encausse, Islam and the Russian Empire, chaps 7-8.

(72) Ronald Grigor Suny, "Nationalism and Class in the Russian Revolution. A Comparative Discussion," in Edith Ragovin Frankel, Jonathan Frankel, and Baruch Knei-Paz, eds, Revolution in Russia: Reassessments of 1917 (Cambridge: Cambridge University Press, 1992),

- Suny, Revenge, chaps (1-2).

(73) Suny, Revenge, (16-19, 33).

(74) Plakans, Latvians, (113-118).

- Suny, Revenge, (55-58).

Richard Pipes, The Russian Revolution (New York: Knopf, 1990), 530. (75)

- إن التميز العرقى واللغوى للجنود اللاتفيين وروحهم التضامنية القومية جعلتهم فاعلين بصورة استثنائية عندما فاجأ البلاشفة القوات المعادية فى العاصمة الروسية، إذ كان اللاتفيون متميزين عن عموم السكان ومحصنين ضد تملق الأحزاب المنافسة.

- Andrew Ezergailis, The Latvian Impact on the Bolshevik Revolution. The First Phase: September 1917 to April 1918 (Boulder, CO: East European Monographs, 1983), 281-282 and chap. 9.

Stanley W. Page, The Formation of the Baltic States: A Study of the Effects of (76) Great Power Politics upon the Emergence of Lithuania, Latvia, and Estonia (New York: Howard Fertig, 1970), 17-21 and chap. 5,

- Andrew Ezergailis, The 1917 Revolution in Latvia (Boulder, CO: East European Monographs, 1974), (199-202).

Ezergailis, Latvian Impact, (205- 213). (77)

(78) نظرا لأن البلاشفة اللاتفيين ليسوا من الروس، فكانوا ملكيين أكثر من الملك (حرفيا: أكثر قداسة من بابا الفاتيكان) فى مسألة القومية. لأنهم صاغوا تصورا وحدويا للدولة الاشتراكية المستقبلية لم يترك مجالا كبيرا لحق تقرير المصير القومى.

- Ezergailis, Latvian Impact, 246.

Ahmed Emin Yalman, Turkey in the World War (New Haven, CT: Yale (79) University Press, 1930), (105, 106).

Erik Zürcher, Turkey: A Modern History (London: I.B. Tauris, 1993), (97-116). (80)

- Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey (London: Oxford University Press, 1961), (225-227).

Jacob M. Landau, Pan-Turkism: From Irredentism to Cooperation (Bloomingto (81) and Indianapolis, IN: Indiana University press, 1995), (45-51, 53).

- Yalman, Turkey, (174-177).

- Philip Hendrick Stoddard, "The Ottoman Government and the Arabs, 1911-1918: A Preliminary Study of the Teπkilât-I Mahsusa" (Ph.D. diss., Princeton university, 1963), (68-70).

- لعبت السفارة الألمانية فى إسطنبول دورا نشطا فى طرح فكرة الوحدة الإسلامية على لجنة الاتحاد والترقى كأساس لحملة دعاية مضادة للأحلاف. وكان هذا المنهج من ابتكار مسئول وزارة الخارجية الألمانية «بارون ماكس فون أوبنهايم . Baron Max von Oppenheim» وهو

خبير آثار ودبلوماسى وخبير دعاية، وجاسوس من أصل يهودى، وكانت حفرياته الأثرية فى الشرق الأوسط غطاء لعمليات جمع المعلومات الاستخباراتية.

Donald M. McKale, "Germany and the Arab Question in the First World War," - Middle Eastern Studies, vol. 29, no. 2 (April 1993), 236-253,

- Fritz Fischer, Germany's Aims in the First World War (New York: Norton, 1967; 1961), (123-124).

- واستمر أوبنهايم يعمل فى التجسس فى الشرق الأوسط، والتحريض ضد البريطانيين حتى الثلاثينيات، وحصل على مكانة "آرى شرفى "فى ظل النازية.

- Aviel Roshwald, Estranged Bedfellows: Britain and France in the Middle East during the Second World War (New York: Oxford University Press, 1990), 49.

(82) هذه هى النظرة السائدة فى الدراسات الحديثة (انظر المراجع التى سترد لاحقا). وبالنسبة للرأى المخالف الذى يقلل من شأن القومية التركية داخل لجنة الاتحاد والترقى، انظر:

- Hasan Kayali, Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism, and Islamism in the Ottoman Empire, 1908-1918 (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1997).

(83) Zürcher, Turkey, (114, 134).

- Erik Zürcher, The Unionist Factor: The Role of the Committee of Union and Progress in the Turkish National Movement, 1905-1926 (Leiden: E.J. Brill, 1984), (49-51).

- Lisa Anderson, "Nationalist Sentiment in Libya, " in Rashid Khalidi, Lisa Anderson, Muhammad Muslih, and Reeva S. Simon, eds, The Origins of Arab Nationalism (New York: Colombia University Press, 1991), (229-231).

- Masami Arai, Turkish Nationalism in the Young Turk Era
(Leiden: Brill, 1992), chap. 5.

(84) وكذلك شهدت سنة 1916 (فى 29 أبريل) استسلام الحامية البريطانية المحاصرة فى الكوت بالعراق.

- Martin Gilbert, The World War: A Complete History (New York: Henry Holt, 1994), 211- 214, 228, 241, 244.

(85) كان ضباط المخابرات الألمان يشاركون أيضا فى بعض هذه الأنشطة وما يتصل بها.

- Fischer, Germany's Aims, 126-131.

(86) Landau, Pan-Turkism, (49-56).

- Yalman, Turkey, chap. 16.

ـ وانظر أيضا الفصل السادس من هذا الكتاب.

(87) Yalman, Turkey, 182-186.

(88) تعتمد هذه الدراسة للقومية الاقتصادية التركية على:

- Yalman, Turkey, chaps (9-13).
- Feroz Ahmad, "Vanguard of a Nascent Bourgeoisie: The Social and Economic Policy of the Young Turks 1908-1918," in Osman Okyar and Halil Inalcik, eds, Social and Economic History of Turkey (1071-1920) (Ankara: Meteksan, 1980),
- Feroz Ahmad, The Making of Modern Turkey (London: Routledge, 1993), (40-46).
- Zürcher, The Unionist Factor, (76-77).
- Zürcher, Turkey, (127-131).
- Niyazi, Berkes, The Development of Secularism in Turkey (Montreal: McGill University Press, 1964), 335-337 and (425-427).

- لعب «الكسندر هيلفاند بارفوس - Alexander Helphand Parvus» المثقف اليهودى الماركسى متعدد الوجوه، والعميل الألمانى، والوسيط البلشفى. الألمانى، الذى أقام فى إسطنبول خلال معظم فترة الحرب، دورا مؤثرا فى تطوير لجنة الاتحاد والترقى لنهج اقتصادى قومى على غرار الخطة الحمائية التى قدمها الاقتصادى الشهير فريدريش لست فى القرن التاسع عشر لتصنيع ألمانيا.

- Ahmad, "Vanguard", (336-337).
- Zürcher, Turkey, 130,
- Berkes, Development of Secularism, 335-337 and 425,
- Z.A.B. Zeman and W.B. Scharlau, The Merchant of Revolution: The Life of Alexander Israel Helphand (London: Oxford University Press, 1965), (127-128).

(89) Yalman, Turkey, (197-199).

- Zürcher, Turkey, (129-131, 134-135).

(90) Stoddard, "The Ottoman Government and the Arabs, 1911-1918," 52-59.

- Zürcher, Turkey,(114-115, 121, 130).
- Zürcher, The Unionisr Factor, (76-77, 120-121).

Zürcher, Turkey, (120-121). (91)

- Ronald Grigor Suny, Looking Toward Ararat: Armenia in Modern History (Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press, 1993), 114.

- للاطلاع على صياغة دفاعية مؤيدة للأتراك لهذه الأحداث، انظر:

- Justin McCarthy, The Ottoman Turks: An Introductory History to 1823 (London: Longman, 1997), 365.

Zürcher, Turkey, (120-121). (92)

- Suny, Looking Toward Ararat, 109-115.

- Manoug J. Somakian, Empires in Conflict: Armenia and the Great Powers 1895-1920(London and New York: Tauris, 1995), (70-96).

- Yalman, Turkey, chap. 18.

- بالنسبة للإنكار التام لقيام السلطات العثمانية بتخطيط مثل هذا العنف ضد الأرمن، انظر:

- Stanford J. Shaw and Ezel Kural, Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. 2 (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), (314-317).

Selim Deringil, "The Ottoman Origins of Kemalist Nationalism: Namik Kemal to Mustafa Kemal," European History Quarterly, vol. 23, no. 2 (April 1993), (165-191). (93)

Eliezer Tauber, The Arab Movements in World War I (London and Portland, OR: Frank Cass, 1993), (25-37, 62-80, 113). (94)

- Philip Khoury, Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 1860-1920 (Cambridge: Cambridge University Press,1983), 74,

- Sulayman Musa, Al-Harakah al-Arabiya: sirat al-marhalah al-ula lil-nahdah al-Arabiyah al-hadithah, 1908-1924 (The Arab Movement: The History of the First Stage of the Modern Arab Awakening, 1908-1924) (Beirut: Dar al-Nahar lil-Nashr, 1977), (261-262).

- Stoddard, "The Ottoman Government and the Arabs, 1911-1918," 147,

- C. Ernest Dawn, "The Rise of Arabism in Syria," The Middle East Journal, vol. 16, no. 2 (1992), (145-168).

- Bassab Tibi, Arab Nationalism: A Critical Inquiry (2nd edn, New York: St. Martin's Press, 1990), (118-122).

- William L. Cleveland, The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati' al-Husri (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1971), x-xi and (32-41).

(95) Dawn, "The Rise of Arabism in Syria," 151.

- Muhammad Kurd 'Ali, Memoirs of Muhammad Kurd 'Ali: A Selection (trans. Khalil Totah, Washington, DC: American Council of Learned Societies, 1954), (56-58).

- يقول «كُرد على» أيضا: إن دعوته قبل الحرب للاستقلال الذاتى للعرب لم تكن تمثل عدم ولاء للإمبراطورية العثمانية، المرجع السابق، ص (34-37).

(96) كانت سلطات حكومة الهند (الراج Raj) المسئولة عن حملة بريطانيا فى العراق تعارض جهود نظرائها فى القاهرة لإثارة القومية العربية.

- Briton Cooper Busch, Britain, India, and the Arabs, 1914-1921 (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1971), chaps 2-3 and pp. (202-214).

- Bruce Westrate, The Arab Bureau: British Policy in the Middle East, 1916-1920 (University Park, PA: The Pennsylvania State University Press, 1992), chap. 4.

- Tauber, The Arab Movements, 31.

الفصل الخامس

قوميات الاحتلال والمنفى
1914 م. 1918م

لم تكن مجالات قوة القومية الانفصالية متطابقة مع، أو قاصرة على، حدود الدول الإمبريالية، ولم يتشكل تطور الهويات القوميات العرقية وقت الحرب بالآليات السياسية الداخلية للملكيات متعددة الأعراق فحسب. فالتجارب الناجحة التى مثلت تحديا للسلطات السياسية فى واحدة من الإمبراطوريات قدمت سوابق فعالة للعناصر الساخطة فى الملكيتين الأخريين لكى تحذو حذوها. وقد رأينا سلفًا مدى قوة الانطباع الذى تركته الاضطرابات الثورية فى روسيا على عدد كبير من المجموعات العرقية والطبقات الاجتماعية فى الإمبراطورية النمساوية المجرية. ولم تقتصر الحرب على مجرد تكثيف قوة النموذج، ولكنها جلبت إلى مسرح الأحداث أطرًا مرجعية جيوبوليتيكية، ومجالات عمل جديدة يمكن أن تتم داخلها تجارب قومية وتتمكن خلالها البرامج القومية المهمشة من تطوير وترويج نفسها إلى مستوى غير مسبوق.

ويركز هذا الفصل على ثلاثة مجالات للتجارب القومية والسلوكيات القومية الارتجالية زمن الحرب. ويتمثل أولها فى نطاق الاحتلال العسكرى، خاصة نطاقات الاحتلال الألمانى فى أوربا الشرقية. ويتمثل المجال الثانى فى سياسات المنفى، التى لم تكن بعدًا جديدًا فى حد ذاتها، ولكنها اكتسبت أهمية وتأثيرًا جديدين فى سياق الحرب وما تبعها مباشرة. ويتمثل إطار العمل الثالث فى فيالق المتطوعين التى تكونت إما فى المنفى زمن الحرب أو فى نطاقات الاحتلال. ويقع كل من هذه المجالات خارج الأطر المستقرة للإمبراطوريات متعددة الأعراق، إذ يبدو أن ما كان يحدث طوال معظم فترات الحرب لم يكن له تأثير كبير على تطور مشاكل القوميات فى السياسات الإمبريالية. ولكن مع انهيار الصروح

الإمبريالية فى (1917م - 1918م)، نجد أن عناصر عديدة كانت ذات أهمية هامشية سلفا، بدأت فجأة تحتل مواقع مركزية.

نطاقات الاحتلال

. بولندا وليتوانيا

أدى العدوان الشرقى الناجح الذى قادته ألمانيا فى 1915م، والذى دفع القوات الروسية للوراء على طول جبهة عريضة، تمتد من جاليسيا الشرقية حتى البلطيق، إلى تكوين مجال جديد من الغموض الإدارى والتشكك السياسى فى المناطق الشاسعة من الأراضى التى انتزعت من الإمبراطورية الروسية. وكان معظم بولندا الروسية مقسمًا بين نطاقات احتلال ألمانيا والهابسبرج (مع وجود المقار الرئيسة فى وارسو ولوبلن - Lublin، على التوالى). وكان نطاق الاحتلال الألمانى يديره الجنرال «بيسلر - Baseler» الذى كان يتلقى أوامره من القيصر مباشرة. أما إلى الشمال، فتم تشكيل نطاق سُمى «الشرق الأعلى - / Ober Ost Upper East» اتفقت حدوده تقريبا مع حدود دوقية ليتوانيا الكبرى (Grand Duchy of Lithuania) خلال العصور الوسطى، وضم مراكز حضرية مثل كوناس (Kaunas)وفيلنوس (Vilnius) - ووقع تحت السيادة المباشرة والحصرية للقيادة العليا الألمانية فى الشرق[1].

ودارت علامات استفهام كبيرة حول مصير ومستقبل هذه النطاقات. وعلق المستشار الألمانى بتمان هولفج (Bethmann-Hollweg) آمالا على الاستفادة بالمكاسب الألمانية للتفاوض على سلام مستقل مع روسيا لتوسيع مجال سيطرة ألمانيا لأقصى حد شرقًا، لكنه لم يكن مستعدًا للتراجع إلى حدود ما قبل الحرب، وواجه ضغوطًا قوية من الجنرالين هندنبورج (Hindenburg) ولودندورف (Ludendorff) الذين توليا القيادة العامة للجيوش الألمانية فى أغسطس 1916م. وكانت سلطات الهابسبرج تتلاعب بفكرة دمج بولندا وجاليتشيا فى مملكة بولندية تكون كيانًا مستقلاً تحت تاج الهابسبرج، لكن برلين لم يكن فى نيتها السماح لشريكها المبجل بالاستفادة على نطاق واسع من حملة عسكرية ناجحة تكبد مشاقها الجيش الألمانى. وأسفرت المحادثات بين فيينا وبرلين عن إعلان

مشترك فى نوفمبر 1916م، يقبل بظهور مملكة بولندا "المستقلة" تحت السلطة المؤقتة "لمجلس الدولة المؤقت" الذى عينته السلطات العسكرية الألمانية فى وارسو. أما إلى الشمال، فقد ظل الشرق الأعلى تحت الإدارة المباشرة للقيادة الشرقية الألمانية.

لم تكن لدى السلطات الألمانية خطة مبدئية جيدة الإعداد لاستيعاب هذه الأقاليم المحتلة فى مجال هيمنتها. إذ كانت سياساتها تحمل علامات الارتجال المتعجل والحسابات المتناقضة. لكن الخيط المشترك الذى كان يجمع معا كل النشاط الألمانى فى أوربا الشرقية وقت الحرب تمثل فى مواجهتها لهذا النطاق السكانى متعدد الأعراق ومجابهة كفاحه المستمر، وذلك بالبحث عن وسيلة يمكن لبرلين من خلالها أن تحول مظاهر الوعى العرقى المختلفة إلى مسارات لنشر النفوذ الألمانى. وقد فشلت كل محاولات تحقيق ذلك فى النهاية، ولكن ألمانيا خلال هذه العملية لعبت دورًا أكبر - وإن كان غير مقصود غالبًا - فى تشكيل سياسة قومية فى أوربا الشرقية، مقارنة بما فعله وودرو ويلسون(2).

وشكلت الطموحات البولندية الدائمة لاسترداد السيادة القومية أقوى وأوضح القضايا التى طرحت نفسها أمام الهيمنة الألمانية. فطوال حملتهم العسكرية فى 1915م، كان الألمان يصورون أنفسهم كمحررين سيخلصون بولندا من القبضة الروسية(3). ومن خلال وضع إطار لمملكة بولندا المستقلة فى نوفمبر 1916م، نجحت ألمانيا والهابسبرج لفترة مؤقتة فى تحقيق التعاون السياسى النشط مع جزء معين من النخبة السياسية الاجتماعية البولندية، ومع جوزيف بلسودسكى ورفاقه، الذين عادوا إلى وارسو من منفاهم فى جاليتشيا فى أعقاب الانسحاب الروسى. ويبدو أن توجه بلسودسكى المعادى للروس جعله شريكًا طبيعيًا للألمان فى محاولتهم صياغة تحالف مع القومية البولندية، ووافق على الانضمام إلى «مجلس الدولة الانتقالى».

ومع ذلك، اتضح سريعًا أن برلين ليس فى ذهنها سوى تكوين دولة صورية بولندية تطيع الأوامر الألمانية وتخصص جهودها لحشد الموارد البولندية وقواها العاملة نيابة عن المجهود الحربى الألمانى. وكما سنرى لاحقًا، تغير رد فعل بلسودسكى بسبب ذلك فتحول من التعاون إلى المقاومة، واستقال أخيرًا من

«مجلس الدولة الانتقالى» فى يوليو 1917م، فسجنه الألمان بعد ذلك بقليل. وعندما استقال بقية أعضاء «مجلس الدولة المؤقت» بعد ذلك بشهرين، حاول الألمان إنقاذ مصداقيتهم بتعيين «مجلس وصاية» جديد كسلطة سيادية على بولندا فى خطوة بدت وكأنها تمهد الطريق لإقرار نظام ملكى فى بولندا. ولكن هذا الكيان - الذى كان يسيطر عليه ثلة من الشخصيات الأرستقراطية المحافظة التى كانت لا تزال راغبة فى التعاون مع الألمان - فشل فى كسب أى قدر من التأييد السياسى. ولكن بوجود سابقة مؤسسية لاستقلال بولندا من ناحية، مع إحباط التطلعات القومية من ناحية أخرى، أرسى الألمان الأساس لاستيلاء بلسودسكى بنجاح على السلطة فى نوفمبر 1918م. وعلاوة على ما سبق، فإن الصعوبات الاقتصادية والفشل السياسى الذى حدث تحت القيادة المحافظة «لمجلس الوصاية»، والذى وازن منه التوسع الذى حققته الأنشطة السرية والعلنية زمن الحرب، والذى قامت به كل من جمعيات الإعانة المتبادلة والأحزاب السياسية ذات التوجه الجماهيرى، كل ذلك قد ساعد فى حشد دعم شعبى واسع لمطالب بولندا فى تقرير مصيرها القومى تحت قيادة حكومة ذات صبغة جمهورية.

وفى تلك الأثناء، كانت «القيادة العليا الألمانية فى الشرق» تدير «الشرق الأعلى» باعتباره مشروعًا استعماريًا خاصًا بها، وحلبة سياسية تستطيع أن تجرب فيها التلاعب وإعادة التشكيل للاقتصاد السياسى المحلى والهويات العرقية والقيم الثقافية. وكان نجاح تطبيق السيطرة السياسية والثقافية الألمانية هنا بمثابة نموذج بناء لأى مكان آخر؛ لأن الجيوش الألمانية المنتصرة حملت شعار «الثقافة» لأقصى حد نحو الشرق(4). لم تكن هناك جماعة عرقية واحدة تحقق أغلبية السيطرة على هذا الإقليم، الذى كان يحوى خليطًا مركبًا من الليتوانيين والبولنديين واليهود والبيلاروس وغيرهم. ومع عدم التأكد مبدئيًا من كيفية فرض النظام على هذا التنوع الثقافى العرقى، طور الألمان سريعًا إستراتيجية "فرق تسد" التى لم تكن مصممة لزيادة السيطرة الألمانية فحسب، بل ولتسهيل تحويل الأرض وشعوبها وفقا للتصور الألمانى.

وتمثلت السمة المميزة لهذا المنهج متعدد الأوجه - والمتناقض ذاتيًا فى كثير من الأحيان - فى محاولة بلورة أطر معيارية للثقافات القومية لدى كل المجموعات العرقية بالإقليم. فبدلاً من الاحتفاظ بلغة واحدة كلغة رسمية للشرق الأعلى، شجعت الإدارة العسكرية الألمانية فى كوناس استخدام كل اللغات المنطوقة محليًا. وفى مواجهة تنوع اللهجات فى أى مجتمع، سعى الألمان إلى تشجيع معيار موحد. وعولت ألمانيا على أن تأسيس نظم مدرسية لكل مجموعة عرقية سيسهم فى إعادة تشكيل جماهير الفلاحين التى لم تكن تعرضت كثيرا حتى ذلك الحين لأى شكل من أشكال الثقافة المكتوبة. وكانت القرارات الرسمية تصدر بسبع لغات مختلفة، عن طريق قسم الطباعة التابع للإدارة العسكرية، والذى كانت هيئة مترجميه مسئولة أيضًا عن نشر الصحف باللغات المحلية كوسيلة دعائية لقيادة الشرق الأعلى. وكانت بطاقات الهوية الرسمية تصدر لكل فرد فى الإقليم مطبوعة باللغة المحلية الخاصة بحاملها.

وتمثل الأثر التراكمى - والمقصود - لهذه السياسات فى إضفاء الطابع المؤسسى على الهوية العرقية فى الشرق الأعلى لدرجة لم يسبق لها مثيل. غير أن هذا النهج لم يكن تعبيرًا عن دراسة متروية من قبل القادة العسكريين الألمان لطبيعة الثقافات المتعددة فى الإقليم، بل انطلق من فرضية ألمانية رأت أن فئات الهوية المنظمة بوضوح تشكل مظهرا هامًا من مظاهر المجتمع الحديث، وأن تماسك الأطر المرجعية القومية العرقية سيسهل نشر القيم الاجتماعية والثقافية الألمانية. وعلى نحو ما يحاجج «فى. جى. ليوليفيتسوس - V.G. Liulevicius» فإن سلطات الشرق الأعلى رأت تغيير أنماط استخدام الأرض (عبر الجمع بين المبادئ العلمية فى الزراعة والتصورات الألمانية الخاصة عن ترويض الطبيعة وزراعة الأرض) وإعادة تشكيل الشعوب المحلية فى تلك الأراضى، بمثابة عناصر متكاملة فى مشروع لضم الشرق الأعلى إلى المجال السياسى الثقافى الألمانى. وعولت القيادة الألمانية على أن رسم حدود واضحة بين الهويات العرقية المتداخلة، ومواصلة تطوير ثقافة معيارية (من خلال المنشورات والمعارض الثقافية والأعمال الفنية والإنتاج المسرحى باللغات المحلية) لكل قومية سيؤدى إلى توافق السكان مع الأفكار الألمانية عن الإطار المثالى للمجتمع الحديث. وكان من المنتظر من هذه

العملية أن تجعل كل مجموعة عرقية أكثر تقبلاً للأفكار الألمانية عن عادات العمل المنظم والتنظيم البيروقراطى واحترام السلطة وحكم القانون. وراهنت ألمانيا على أن استخدام اللغات المحلية لنشر هذه الأفكار سيجعلها أكثر ألفةً وقبولاً. وفى نفس الوقت، كان من المنتظر أن تصبح الألمانية لغة إجبارية فى مدارس كل مجموعة عرقية. واختصاراً، كانت هذه السياسة محاولة لتكوين ثقافات قومية من حيث الشكل، ولكنها ألمانية من حيث المضمون[5]. وفى الواقع، كان هناك تشابه كبير بين هذه السياسة والمحاولات السوفيتية التى ستأتى لاحقا وستعمل على تكوين ثقافات "قومية فى الشكل، واشتراكية فى المضمون" لدرجة أن المرء لا يستطيع مقاومة التعجب مما إذا كانت سياسات القومية لدى لينين وستالين (انظر الفصل السادس) كانت متأثرة بهذه السابقة الألمانية، على نحو ما كانت "شيوعية الحرب البلشفية" متأثرة بنموذج اقتصاد الحرب الألمانى[6].

وواجه هذا البرنامج المثالى (أو غير المثالى - Dystopian) للتحديث الثقافى الاجتماعى العديد من العقبات والكبوات، ومنها الجوانب الاستغلالية للسياسات التى اتبعتها الإدارة الألمانية للشرق الأعلى، والتى فرضتها اعتبارات ذرائع وقت الحرب، وسهلتها الفرص الكبيرة لانتهاك السلطة، تلك الانتهاكات الكامنة بطبيعتها فى جنبات نظام الاحتلال العسكرى. فقد تم اقتلاع عشرات الآلاف من أفراد كل المجموعات العرقية من أراضيهم لأداء العمل الإجبارى، تاركين أسرهم بدون وسائل إعاشة. وتركت المصادرات الكبيرة للحبوب والماشية المجتمعات الزراعية مقفرة. وأدت الضوابط البيروقراطية الصارمة المفروضة على السفر الداخلى والنشاط التجارى إلى تفكك اقتصادى وتفاقم الصعاب المادية، بالإضافة إلى خلق بيئة مثالية للسوق السوداء وتهريب السلع، وهى الأنشطة التى تباينت شدتها حسب مستوى فساد الجنود والضباط الألمان[7].

. نضوج القومية الليتوانية

تركت الحوكمة الألمانية المتناقضة مع نفسها آثارها فى تعزيز سياسات عرقية مركزية كإطار للفعل الجمعى والمساندة المتبادلة، غير أن ذلك تم بطرق لم تكن بالضرورة متفقة مع أهداف السياسات القومية الألمانية فى الشرق الأعلى. وعلى هذا النحو نضجت القومية الليتوانية فى ظل محفزات من الاحتلال الألمانى.

فالإدارة العسكرية الألمانية اتبعت أساليب جائرة فى محاولاتها لغرس الوعى الليتوانى، فى الوقت الذى كانت فيه تقصر التعبير عن هذا الوعى على نطاق ضيق من الموضوعات والآراء المقبولة. فمثلاً، كانت تشجع إنشاء مدارس ليتوانية، ثم تفرض مناهج داعية للألمانية عليها. ومن زاوية تنشر صحيفتها الخاصة باللغة الليتوانية، ولكنها فى المقابل ترفض (حتى سبتمبر 1917م) السماح بإصدار صحيفة مستقلة، وحين سمحت بصدورها حاولت تكميمها عبر رقابة صارمة. وأدت هذه السياسات إلى تحفيز أشكال متنوعة من المقاومة، حيث انتشر نظام تعليمى سرى فى أنحاء الريف جنبا إلى جنب مع تعبئة سياسية وأنشطة دعائية نفذها القوميون الليتوانيون تحت غطاء «لجنة مساعدة اللاجئين الليتوانيين» المعترف بها رسميًا. وأدت الأساليب القاسية لمصادرة المؤن والعمل الإجبارى إلى تكوين جمهور متقبل للإثارة القومية بين الفلاحين. وبينما أخذ معظم الاضطرابات الريفية وقت الحرب فى الشرق الأعلى شكل اضطرابات قطاع الطرق، كانت هناك على الأقل حادثة واحدة للمقاومة المسلحة نُسبت إلى النشاط القومى السرى[8].

وفى 1917م، أظهر نشاط القومية الليتوانية إطارا جديدا للعمل. ففى بداية تلك السنة وصلت إلى السلطة فى روسيا حكومة انتقالية، ودخلت الولايات المتحدة الحرب، وكانت هاتان الحكومتان تعتنقان مبدأ تقرير المصير القومى كأساس للتسوية السلمية التى ترفض ضم الأراضى بالقوة. وفى يوليو 1917م، اعتمد البرلمان الألمانى قرارًا يدعو إلى السلام بدون ضم الأراضى بالقوة. ومن ناحية أخرى، عزز التفكك العسكرى الروسى إمكانية توسع القوة العسكرية الألمانية فى الشرق.

وفى هذا السياق السياسى والعسكرى، انطلقت القومية السياسية الليتوانية بفضل سلطات "الشرق الأعلى"، التى وجدت فى مساندتها للقومية الليتوانية وسيلة لإضفاء الشرعية على مشروعها الإمبريالى. وجاء الموقف الألمانى الجديد لمواجهة الدعاية الثورية الروسية المضادة وإظهار الحكم الألمانى متفقا مع حق تقرير المصير القومى، وهدفت هذه الخطوة فى نفس الوقت إلى احتواء البولنديين الساخطين.

وتمثلت النتيجة فى عقد مؤتمر فى فيلنوس فى سبتمبر 1917م، تم فيه انتخاب مجلس نيابى (عرف باسم التاريبا . Taryba) تألف من عشرين عضواً ممثلين عن المجتمع الليتوانى بصفة عامة. ونظراً لتعرض هذا المجلس لضغوط مكثفة من برلين التى أوعزت إليه بالدعوة إلى توحيد ليتوانيا مع ألمانيا، فقد كشف المجلس أن لديه مشروعاته السياسية الخاصة. فمن زاوية كان المجلس يمنح امتيازات تكتيكية للسلطات العسكرية الألمانية، وفى المقابل كان يصر على ضمان قدر أكبر من الاستقلال الذاتى لليتوانيا، مقارنة بما كانت هذه السلطات العسكرية مستعدة لمنحه. وفى فبراير 1918م، واحتجاجاً على استبعاد الليتوانيين من المشاركة فى مفاوضات سلام ألمانيا مع البلاشفة، أعلن المجلس استقلال ليتوانيا، دون أن يخل بالتزامه السابق بالحفاظ على اتحاد عسكرى واقتصادى مع ألمانيا. واستمرت لعبة السياسة المربكة، فمن ناحية كانت السلطات العسكرية الألمانية تنقض بعنف على مظاهر السخط العلنية، بينما كان «المجلس» يحاول تخطى نظام "الشرق الأعلى" باستخدام العلاقات السياسية مع العناصر المتعاطفة داخل "حزب الوسط الكاثوليكى" فى البرلمان الألمانى للحصول على موافقة رسمية من القيصر، ولو مشروطة، باستقلال ليتوانيا فى مارس 1918م. ولم تكن لتلك السياسة نتائج ملموسة على الأرض، طالما ظل الجيش الألمانى مسيطراً. لكن مع انهيار المجهود الحربى الألمانى فى نوفمبر من نفس السنة، بدأ هذا الإطار الهيكلى للحكم الذاتى تتبلور ملامحه، إذ إنه على الرغم من سوء نيّاته، فإن نظام الاحتلال الألمانى ساهم كثيراً فى تماسك الهوية القومية الليتوانية وتكوين إطار مؤسسى لاستقلال الأراضى الليتوانية، وأتى كل ذلك من دون قصد، حين كانت السياسات الألمانية تعمل على تحويل السكان المحليين إلى أهداف يسهل تشكيلها حسب الرؤى الثقافية والسياسية للاستعمار الألمانى.



خريطة (2) معاهدة بريست ـ ليتوفسك والحرب العالمية الأولى فى أوربا الشرقية، 1918:

المصدر: - Richard and Ben Crampton, Atlas of Eastern Europe (London: Routledge, 1996).

- اليهود تحت الاحتلال الألمانى

توضح حالة اليهود أيضًا الأثر التحولى للاحتلال الألمانى على تطور الهويات القومية، بل وتوضح أيضًا كيف تختلف أنماط هذا التأثير. فبينما كانت توجد أقلية يهودية فى كل دولة أوربية، كانت أراضى أوربا الشرقية التى وقعت تحت الاحتلال الألمانى فى 1915م، تمثل جزء من رقعة ممتدة من الأراضى التى تحوى أعلى تركز للسكان اليهود فى القارة. حيث كان اليهود يمثلون حوالى 10% من إجمالى سكان المنطقة، وحوالى 30% إلى 50% من السكان فى البلدات والمدن. وكان التميز الثقافى العرقى لمعظم يهود أوربا الشرقية واضحًا فى كل جوانب وجودهم. الدين واللغة والزى والمهن الحرفية والأحياء السكنية. وكان دور الاحتلال الألمانى واضحا فى توفير الفرص وتوسع الأطر المؤسسية والسياسية والثقافية الحديثة المعبرة عن الهوية اليهودية بتعدد أشكالها وتوجهاتها. وكان هذا هو الوضع أيضا فى "الشرق الأعلى" وفى بولندا الخاضعة للاحتلال الألمانى النمساوى[9].

وفى ظل الاحتلال الألمانى تمتعت الحياة اليهودية فى الإقليم بتخفيف الاضطهاد المنظم الذى عانت منه على يد السلطات الروسية وقت الحرب. فقد تعاملت روسيا مع اليهود كجواسيس مشتبه بهم، وأرسلت عشرات الآلاف منهم من المناطق الحدودية إلى منفى داخلى، وحظرت المراسلات والنشر بالأحرف العبرية، ودمرت العديد من المستوطنات والمجاورات اليهودية خلال تقهقر الجيش الروسى فى 1915م[10]. وكما وعدت الدعاية الألمانية فى (1914م، 1915م) البولنديين بوضع أفضل فى ظل الأيادى الكريمة للقيصر الألمانى، لعبت أيضًا على مسألة الانتهاكات الروسية لكسب تعاطف اليهود مع قضية «قوى المركز»[11]. وارتبط الحكم العسكرى الألمانى بعدد من الانتهاكات، ولكنها أخذت شكل نظام تساوى الفرص فى الاستغلال، والتى لم تعرِّض اليهود تحديدًا لمعاملة أقسى رسميًا مقارنة بغيرهم على الأقل. ونظرًا للتقارب اللغوى بين اليديشية والألمانية، عمل عدد من اليهود كمترجمين، وفى أدوار وظيفية أدنى تحت الاحتلال الألمانى[12].

ولم يقتصر الاحتلال الألمانى على إنهاء الحظر الذى فرضته روسيا فى 1915، على النشر بالعبرية واليديشية، بل قدم أيضا فرصًا غير مسبوقة للابتكار الثقافى، والنشاط السياسى اليهودى. ففى «الشرق الأعلى» اعترفت سياسة الاحتلال الاستثنائية تجاه القومية اليهودية بااليديشية كلغة رسمية لليهود، وشجعتهم على تطوير عدد من المدارس الحديثة الناطقة بالعبرية، بالإضافة إلى مدارس فنية يهودية وعدد من المدارس بالعبرية[13]. وفى بولندا، وفى ظل محاولة ألمانيا مجاملة القوميين البولنديين تم اعتبار الأقلية اليهودية مجموعة دينية لا قومية. ومع ذلك، وفر الاحتلال الألمانى هنا أيضًا فرصًا غير مسبوقة لتطور مؤسسات تعليمية وثقافية يهودية جديدة[14].

وفى المجال السياسى، وسعت الإصلاحات الألمانية للانتخابات المحلية من قاعدة الحقوق الدستورية وفتحت المجال للمشاركة الكاملة للأحزاب اليهودية الاشتراكية والأحزاب الصهيونية، التى كان النظام القيصرى الروسى قد ضيق الخناق عليها. وقد ساهمت التسهيلات السابقة، إضافة إلى الدور الذى لعبته الأحزاب اليهودية فى مساعدة اللاجئين وأعمال الإغاثة، فى خلق فرص أكبر لالتحام هذه الاحزاب بشكل سريع مع الحركات الجماهيرية. وكان نجاح «الحزب الصهيونى العام» فى الوصول إلى الجماهير واضحًا من خلال جمعه 238 ألف توقيع على عريضة 1917م، تأييدًا للمطالبة اليهودية بفلسطين[15]. وكذلك فإن تأسيس أحزاب سياسية أخرى - خاصة «الحزب الأصولى الإسرائيلى - Orthodox Agudat Israel» لعب دورًا مهمًا فى بولندا خلال سنوات الاحتلال الألمانى فى فترة ما بين الحربين[16].

وكان هذا النمط من المبادرات الإدارية الألمانية والاستجابات اليهودية أحد خيوط شبكة كثيفة من التفاعلات الاجتماعية والثقافية والسياسية بين القوات الغازية والشعوب المحتلة. إذ كانت المنظمات اليهودية الألمانية المتنافسة - التى تتراوح توجهاتها الأيديولوجية من الاستيعاب إلى الأصولية الدينية والصهيونية - ترسل بعثات إغاثة، ومجموعات استكشافية واستشارية، ومعلمين إلى يهود الشرق المحتل، مما حفز ودعم من المبادرات المحلية. وفى جهود موازية للنشاط السياسى قام بها بعض البولنديين والنمساويين والبروسيين البارزين، وعدد من الليتوانيين

البروسيين، نيابة عن قضاياهم القومية[17]، ناور اليهود الألمان الحكومة الألمانية وسلطات الاحتلال عبر عدد من المطالب تراوحت بين برامج إضفاء الطابع الألمانى على اليهود الناطقين باليديشية، إلى تأييد الاستقلال الذاتى القومى الثقافى لليهود فى الشرق[18]، وسهل توسط الضباط اليهود الألمان فى قسم صحافة إدارة "الشرق الأعلى" فى تأسيس أول مسرح ييدى كبير حديث فى العاصمة الليتوانية فيلنوس (فرقة فيلنا ـ Vilna Troupe)[19]، ومكن هذا التوسط الفريق المسرحى من التجول فى كل الإقليم الليتوانى البولندى، وتخطى قيود السفر العادية[20].

وكان العديد من المبادرات السابقة مجرد عناصر فى اتجاه عام نحو التكامل الرأسى من جانب الحركات الأيديولوجية المتنافسة، والتى كان كل منها يدعى أنه يجسد جوهر الهوية اليهودية. وأقصد هنا بالتكامل الرأسى الإشارة إلى تكوين وتدعيم النظم المدرسية، والحركات الشبابية، والجهات الإعلامية، وغيرها من المؤسسات الثقافية والإعلامية تحت رعاية الأحزاب السياسية ذات التوجه الجماهيرى. ولا شك فى أن العديد من هذه المبادرات كان بالضرورة هشًا ومحدودًا فى نطاقه فى ظل ظروف الاحتلال زمن الحرب، ولكنها كونت أطرًا مؤسسية حديثة عملت على تقديم حياة ثقافية قومية يهودية متعددة الوجوه فى بولندا فيما بين الحربين.

. التحليل الكلى للأحداث

عمل الاحتلال الألمانى لليتوانيا وبولندا الروسية على توفير حافز جديد لبلورة الهويات القومية العرقية وتدعيم تماسك الصياغات السياسية والمؤسسية الحديثة المعبرة عن الهوية بين الشعوب المتنوعة فى الإقليم. حيث لعبت هذا الدور المحفز بطرق مختلفة مباشرة وغير مباشرة. فبالرغم من أن نظم الاحتلال الألمانى كانت قاسية واستغلالية فى "الشرق الأعلى" وبولندا، فإنها كانت فى بعض الجوانب أقل قمعًا سياسيًا وثقافيًا، مقارنة بالسلطات الروسية. فمن خلال إدخال ما يشبه حكم القانون[21] سهل الألمان نمو أطر وفرص جديدة لأشكال مختلفة من التنظيم الذاتى والتجريب الثقافى.

وقد فرض الجيش الألمانى على رعاياه الجدد فى الشرق الأعلى سياجا ثقافيًا عرقيًا، (كما يقول ليوليفيتسوس ـ Liulevicius) الأمر الذى بلور الهوية الجماعية لفئات عرقية ذات اعتماد متبادل. وبينما كانت هذه السياسات تهدف إلى تشجيع نقل العادات والقيم الألمانية، وتقوية سيطرة ألمانيا على السكان، نجد أن تطبيقها تم بأسلوب عشوائى غير متسق، وقلما كانت تحقق أهدافها. وكان الشكل البيروقراطى للسياسة الثقافية عملية وهبت نفسها لأشكال محكمة من التخريب على نحو ما حدث مع معلمى «الميلامديم ـ Melamdim» معلمى التوراة فى المدارس اليهودية التقليدية)، الذين تم استدعاؤهم إلى مدينة كوناس من البلدات الصغيرة المحيطة لتلقى دورة معتمدة يدرسها معلمون يهود ألمان. فهنا تحول هؤلاء المعلمون الذين انتظموا فى الدورة إلى تجار صغار أساءوا تقديم أنفسهم حين سعوا إلى الحصول من هذه الدورات على بدلات السفر فضلا عما وجدوه فى هذه المدينة الكبيرة من فرصة لتسويق بضائعهم التى أتوا بها من بلداتهم الصغيرة[22]، ويعتبر رفض مجلس ليتوانيا (التاريبا ـ Taryba) الإذعان للسلطات الألمانية مثالاً أكثر وضوحًا على انقلاب التلاعب السياسى العرقى الألمانى على أصحابه. حيث ساعدت العناصر المتعاطفة داخل الإدارة العسكرية الألمانية وفى البرلمان على تحقيق مساحات صغيرة ولكنها هامة من الاستقلال الثقافى للمجتمعات الخاضعة فى الأراضى المحتلة.

وقد اشتعلت فى النهاية نار المقاومة نتيجة السياسات الألمانية فى ليتوانيا وبولندا، تلك السياسات التى زادت الوعى الثقافى العرقى والحكم الذاتى من ناحية، بينما حجبت أى شكل عملى لتقرير المصير القومى من ناحية أخرى، وزعمت أنها موجهة إلى تحسين الأوضاع المحلية، بينما أدت فى الواقع إلى زيادة الصعوبات المادية المتفاقمة أساسًا زمن الحرب. وقد فاقم هذا من حركة المقاومة البدائية، كالهجمات الخاطفة على القوات الألمانية والتى نفذتها عصابات مسلحة من الليتوانيين الهاربين من خدمة العمل الإجبارى[23]، وتطورت لاحقا إلى أنشطة سرية قامت بها منظمات مثل «المنظمة العسكرية البولندية» التابعة لبلسودسكى (سيأتى المزيد عنها لاحقًا).

وقد ساهمت كل العناصر السابقة فى زيادة اهتمام قادة المجتمعات البولندية واليهودية والليتوانية والجهات الإعلامية والجمهور المتعلم وقربتها من الرؤى والأشكال المتوقعة لتقرير المصير القومى فى إطار أوربا الشرقية التى تسيطر عليها ألمانيا. ومع انهيار القوة الألمانية فى 1918م، أصبحت خطب ويلسون البلاغية بمثابة الإطار المرجعى السائد لهذه الحوارات والنزاعات عندما عرضت القوى المتصارعة قضاياها على "مؤتمر سلام باريس". إلا أنه فى سياق الاحتلال الألمانى والنمساوى للإقليم، شد الاهتمام بهذه الأمور انتباه جمهور أوسع من ذى قبل، وتشكل العديد من الآليات المؤسسية والتنظيمية الرئيسة للعمل السياسى والعسكرى والحشد الجماهيرى داخل كل مجتمع عرقى.

. صربيا

أخذ احتلال "قوى المركز" لصربيا نمطًا مختلفًا عن نمط احتلال بولندا ـ ليتوانيا، إذ كانت السياسات الثقافية التى اتبعت هنا قمعية بصورة أكثر وضوحًا ومباشرة، وكانت مصممة إما لفرض الاستيعاب الثقافى على الشعب الصربى، أو للتخلص من أى شكل من أشكال التعبير الثقافى. ومع ذلك تمثل الأثر النهائى فى زيادة إحساس الجماهير الصربية بالهوية السياسية بالتحول مباشرة إلى الأساطير القومية للاستشهاد والمقاومة الجماعية(24).

وكانت مملكة صربيا دولة قومية مستقلة لفترة طويلة قبل 1914م، وكانت مشاركة بصورة مباشرة فى اندلاع الحرب بالطبع. وتستحق صربيا منا اهتماما خاصا، لأن تطور الأجندة السياسية لحكومتها وقت الحرب وتطور الوعى القومى لمجتمعها، كان لهما انعكاسات طويلة الأجل على سلاف الجنوب فى الإمبراطورية النمساوية المجرية.

وعندما نأتى إلى الأداء العسكرى المؤثر للدولة فى حروب البلقان فى (1912م، 1913م)، نلاحظ أن بداية الحرب الأولى وجدت سكان صربيا القرويين أساسًا مشحونين تمامًا بمشاعر قومية قوية. ففى الواقع، نجد أن التقليد الريفى للثأر الدموى كان قد انتقل فعليًا إلى مستوى العلاقات بين الأعراق والدول فيما بين كل دول البلقان. حيث تركت المذابح الوحشية ـ التى كانت تميز تقدم وتقهقر

الجيوش العثمانية واليونانية والرومانية والبلغارية والجبل الأسود فى (1912م، 1913م)، جمرة متقدة للثأر تزداد نارها تحت مرجل سياسات البلقان[25].

وكان المجهود الحربى الصربى فى (1914م، 1915م) ملحوظًا، وذلك بفضل طول المدة التى استغرقها، حيث استطاع تجنب الغزو النمساوى - المجرى لعام كامل. ومع وقوف جيوش الدولة ضد قوات قوة أوربية عظمى (الهابسبرج)، شهدت هذه الفترة تنظيمًا غير مسبوق للموارد القومية وما صاحبه من تسييس السكان، حيث قامت الحكومة بمجهود دعائى لترويج هدفها الحربى الرسمى لتوحيد كل الصرب والكروات والسلوفينيين تحت التاج الصربى. وانتقل مقر الحكومة ذاتها جنوبًا إلى بلدة «نس - Nis» لأن العاصمة بلجراد وقعت تحت القصف المتكرر، واحتلتها الإمبراطورية النمساوية المجرية فى ديسمبر 1914م. وكان الجو فى العاصمة المؤقتة مشحونًا بحماسة قومية شديدة؛ لأن المدينة اكتظت بلاجئى صرب البوسنة وغيرهم من سلاف الجنوب ممن فروا استياء من سلطة الهابسبرج[26].

ولكن دخول بلغاريا الحرب مع وصول تعزيزات القوات الألمانية أدى فى النهاية إلى هزيمة الجيش الصربى بحلول ديسمبر 1913. ومع ذلك، كان هذا فى حد ذاته فرصة لانطلاقة كبيرة للتضامن القومى والفخر الجماعى: فالحكومة الصربية وقيادة الأركان قادت ما تبقى من الجيش الصربى وشقت طريقها عبر الجبال المتجمدة فى ألبانيا ووصلت إلى الساحل الأدرياتى، ورافق العديد من المدنيين من سلاف الجنوب، الخائفين من انتقام الغزاة، هذا الزحف المهلك. ولقى نحو 143 ألف نسمة حتفهم خلال هذا «الخروج» الجماعى، إما بسبب البرد أو الإعياء أو الجوع أو على أيدى أعدائهم من القرويين الألبان. ونجا حوالى 140. 170 ألفًا آخرين تم إنقاذهم بسفن الحلفاء التى نقلت الحكومة الصربية إلى «كورفو - Corfu» (رغم اعتراضات اليونان). وجاءت قوات الحلفاء بالقوات الصربية إلى سالونيك، حيث شاركت فى فتح جبهة جديدة ضد بلغاريا. وأدى رفض الحكومة الصربية الاستسلام «لقوى المركز» وقتال قواتها المسلحة أثناء انسحابها، إلى تقوية أفكار البطولة والاستشهاد كجوانب جوهرية فى التصور الذاتى القومى الصربى.

وكانت الأراضى الصربية مقسمة إلى مناطق احتلال نمساوية - مجرية وبلغارية (فى شمال وجنوب البلاد على التوالى)، بينما انهمك الألمان فى استنزاف اقتصاد البلاد بأسرها. وكانت بلغاريا والنمسا - المجر تهدفان إلى ضم الأراضى الصربية إلى دولتيهما بعد الحرب، واتبعتا السياسات الثقافية التى صيغت لتحقيق هذا الهدف طويل الأجل، مع الانهماك فى نفس الوقت فى المهمة المباشرة لاغتصاب البلاد. فمن ناحية، كانت الحماسة التى تفرض بها السلطات المحتلة أجنداتها الثقافية واللغوية يشير إلى أنها تفهم المشكلة الخطيرة التى يمكن أن تفرضها القومية الجماهيرية. ومن ناحية أخرى كانت أساليب التعامل مع القومية الصربية تعكس التفاؤل الساذج بشأن مدى سهولة التلاعب بالهوية الشعبية وإعادة تشكيلها. وكان البلغار شديدى القسوة فى فرضهم لبرنامج الاستيعاب الثقافى فى منطقة احتلالهم، حيث كانت دعايتهم تدعى أن المقدونيين السلاف، بل والصرب العرقيين، لم يكونوا فى الحقيقة سوى بلغار ضلوا الطريق ونسوا أصولهم العرقية بطريقة ما، وأن كل ما يحتاجونه يتمثل فى قبضة قوية تعيدهم إلى المنابع الأصيلة للغة والثقافة البلغارية. وتم حظر قبول الصرب فى أى وظيفة عامة، واعتبر بيع الكتب الصربية عملا مخالفا للقانون، وحل المسرح البلغارى محل المسرح الصربى فى مدينة نس المحتلة، وتم إحضار المدرسين والكتب البلغارية لتحويل النظام المدرسى إلى أداة للاستيعاب الثقافى. وبدأت حملة لتحويل الأسماء الصربية إلى أسماء بلغارية (فى خطوة ستكون لاحقا سابقة أولى لشن الحرب الثقافية البلغارية الشيوعية ضد أقليتها التركية فى ثمانينيات القرن العشرين).

أما السلطات النمساوية - المجرية، فكانت تبدو أقل يقينًا بشأن ما يجب تحويل الصرب إليه، حيث ركزت بدلاً من ذلك على محاولة التخلص من أى وعى ثقافى عرقى متميز أو مبادرة سياسية لدى الشعب المهزوم. إذ كانت التعليمات الرسمية للحاكم العسكرى النمساوى تتمثل فى «استخدام أقصى قوة وعنف لتلبية احتياجات الحرب والقوات العسكرية، وتدمير كل علامة من علامات التمرد، وممارسة أقصى استغلال ممكن بمنتهى الصلابة»[27]. وتم ترحيل الآلاف من المفكرين الرواد والنشطاء السياسيين من جميع الأطياف إلى معسكرات الاعتقال،

وأغلقت جامعة بلجراد، وحظر استخدام الأبجدية السيريلية التى كانت تميز الصربية عن الكرواتية، وكانت الصحيفة الوحيدة المنشورة باللغة الصربية فى بلجراد المحتلة لا تحوى سوى أخبار الحرب الخاضعة للرقابة، وغدت الحياة الثقافية العامة بالمدينة مجرد عروض لا تنتهى للفرق العسكرية النمساوية.

وبالإضافة إلى تجنيد الشباب الصربى فى القوات المسلحة البلغارية، أدت مصادرة الموارد المادية الحيوية، والانتهاكات العنيفة للسلطة على أيدى جيوشها، والسياسات الثقافية واللغوية للقوى المحتلة، إلى تأكيد الانطباع العام بأن الهدف النهائى كان يتمثل فى إبادة الصرب كأمة. وكان الصراع من أجل الوجود المادى، والكفاح من أجل تقرير المصير الثقافى، يمثلان جوانب مختلفة لنفس معركة الحياة والموت ضد الأعداء الشرسين. وأثناء محاولة محو التعبيرات الثقافية والسياسية عن الهوية القومية الصربية، كان النمساويون المجريون والبلغار يزيدون الإحساس لدى الصرب بأن التعافى من الخراب المادى للحرب لن يتحقق إلا فى سياق تحقيق الاستقلال القومى. وطالما كان التحرر الكامل يمثل هدفًا بعيدًا، كان غرس التراث الثقافى العرقى الصربى سرًا وسيلة مجدية لتحدى العدو، بل إن المحتلين أنفسهم عرّفوا الصراع بنفس هذه المصطلحات.

وساهمت التجربة المريرة تحت الاحتلال فى شعور الصرب بالاستثنائية، وبصورتهم الذاتية كطليعة صلبة لشعوب سلاف الجنوب، وساهم هذا بدوره فى انتشار الافتراض العام بأن الصرب سوف يحققون فخرا مكانيا فى مملكة صربيا وكرواتيا وسلوفينيا، التى ظهرت فى أعقاب الحرب. ولكن هذا الهدف لم يكن مشتركًا بين الشعوب الأخرى المكونة للدولة اليوغسلافية.

وكانت هناك تجارب أخرى عديدة للغزو والاحتلال وقت الحرب، وإن كان المجال هنا لا يتسع لتغطيتها، إذ أن التقدم الألمانى والعثمانى فى الأراضى الروسية فى ظل بنود اتفاقية برست ليتوفسك فى مارس 1918م، كان بالغ التباين ويستعصى على التعميم[28]. وبدأ تقدم الجيوش البريطانية إلى فلسطين وسوريا والعراق مستفتحا لعقود من السيطرة الإمبريالية الإنجليزية الفرنسية فى الشرق الأوسط، والتى كان لها أثر تكوينى على تطور الدول القومية بالإقليم، كما سنرى فى الفصل التالى. ولكن قبل الانتقال من الاحتلال وقت الحرب إلى تحديد

الهوية والحدود بعدها، يجب أن نتناول أثر حركات المنفى على تطور القوميات سواء خلال الحرب أو بعدها.

. سياسات النفى

غالبًا ما كانت تجربة المنفى تمثل خلفية النشاط الدعائى والتآمرى من جانب الثوريين من كل لون، ومنهم القوميون. فقد نظم نابليون الأول فيلقًا من المبعدين البولنديين الذين حاربوا فى صفوف "الجيش العظيم" على أمل مساعدة بلادهم المقسمة لاستعادة وضعها المستقل داخل النظام الأوربى البونابارتى. وخلال منتصف القرن التاسع عشر، نسق «جيوسيبى مازينى . Giuseppe Mazzini» من ملجئه فى لندن أنشطة حماسية، وإن كانت غير فعالة، لمنظمة «إيطاليا الفتاة»، بينما كان يحشد بقدر أكبر من النجاح تأييد المجتمع الراقى البريطانى لقضية الوحدة القومية الإيطالية، وهناك أمثلة أخرى كثيرة من القرن التاسع عشر.

وخلال الحرب العالمية الأولى، أصبح هذا النمط بمثابة النظام اليومى لعدد كبير من النشطاء القوميين. فعندما دخلت القوى العظمى الأوربية صراع الموت والحياة، كانت أراضى كل منها بمثابة قواعد محتملة لعمليات الساخطين من الجانب الآخر. ولم تترفع الإمبراطوريات متعددة القوميات عن محاولات التدمير المتبادل عن طريق مساندة الحركات الانفصالية لبعضها البعض. حيث نظم المهاجرون الأوكرانيون فى جاليتشيا «اتحاد تحرير أوكرانيا الروسية . SVU» فى أغسطس 1914م، والذى حظى بدعم مالى محدود من الحكومتين النمساوية المجرية والألمانية. بل إنه حول مركزه الرئيس إلى برلين، وكان مصرحا لهذا «الاتحاد» الوصول إلى معسكرات أسرى الحرب، حيث أجرى تحريضًا قوميًا بين السجناء الأوكرانيين. واستضافت ألمانيا وإمبراطورية الهابسبرج مؤتمرات قومية وحملات لتوزيع منشورات المهاجرين الفنلنديين والمسلمين وغيرهم من الفارين من الإمبراطورية الروسية. وكذلك هرّبت الحكومة الألمانية الزعيم القومى الأيرلندى «روجر كيسمنت . Roger Casement» (بالإضافة إلى شحنات أسلحة) بغواصة إلى أيرلندا (حيث اندلعت ثورة عيد الفصح فى 1916م). وشجعت العثمانيين على إجراء دعاية لرابطة الوحدة الإسلامية من أجل تخفيف قبضة بريطانيا على مصر والهند (انظر الفصل الرابع)[29]. وحاول الروس من جانبهم تقويض تماسك

النمسا - المجر بإثارة المشاعر القومية لدى التشيك والسلوفاك وسلاف الجنوب، بينما شجعت نشطاء الطاشناك فى الجنوب فى أنشطتهم لإثارة التمرد بين الأرمن عبر حدود الإمبراطورية العثمانية[30]. وحاول العثمانيون بدورهم إثارة المشاعر المناهضة للروس بين الشعوب الإسلامية عبر القوقاز، وتسهيل التواصل بين القوميين الجورجيين[31].

وعملت الدول المحايدة كقواعد لنشاط القوميين المبعدين من أنحاء أوربا الشرقية، حيث عقدوا مؤتمرات وكونوا لجانا ومكاتب استعلامات فى سويسرا والسويد وغيرهما من الدول غير المشاركة فى الحرب. وأصدرت هذه المنظمات كتابات دعائية باللغات الغربية[32]، ونظمت مؤتمرات للقوميات المقهورة، وتفاعلت مع السلك الدبلوماسى الدولى دفاعًا عن قضاياها، بل إنها حاولت التلاعب بالحلفاء وقوى المركز ضد بعضها. وربما كان الأثر المباشر لهذه الجهود ضعيفًا، ولكن بعض هذه اللجان قام بوظيفة مهمة كقنوات اتصال - سرية أو علنية - مع العالم الخارجى (خاصة مع مجتمعات الشتات فى الأمريكتين) ومع النشطاء فى مناطق الحرب والاحتلال[33].

ولا شك فى أن الاختلاف فى المنظور بين الشتات والأرض الأم، وبين القوميين المهاجرين والنشطاء فى الأراضى المحتلة، كان يؤدى أيضًا إلى الاختلاف والتوترات السياسية حول عدد كبير من القضايا. وكان المنفى فى دول الحلفاء يوفر الحوافز والفرص للدعاية للبرامج السياسية الأكثر وطموحًا وثورية، مقارنة بما كان يتوقعه قادة المجتمع فى الوطن الأم، ممن عاشوا تحت حكم إمبريالى أو احتلال عسكرى مستمر[34]، وهكذا أدت الفجوة بين جبهة المنفى والجبهة الداخلية إلى وجود أشكال من التعاون والتوترات جنبا إلى جنب، فى علاقة جدلية احتلت مرحلة جوهرية فى المجال القومى عندما تقاربت هذه المسارات المتباعدة فجأة وقت الحرب فى 1918م.

وكانت أعداد القادة المبعدين قليلة، وكانت تجاربهم وقت الحرب تختلف تمامًا عن تجارب مواطنيهم، ولكن نظرًا لأنهم كانوا يعملون من عواصم الحلفاء، وربطوا أنفسهم بقضية الغرب المنتصر، كان بعضهم فى موقع قوى يمكنه من التأثير على مسار الأحداث فى بلادهم فى أعقاب هزيمة قوى المركز مباشرة. وفى ظل هذا

الدور الكبير جدًا فى تكوين الدول القومية فى 1918م، فإن مساراتهم غير النمطية وقت الحرب، والمنظورات السياسية المتميزة التى ساعدت هذه الخبرات على تشكيلها تستأهل منا اهتماما خاصا.

. المجلس القومى التشيكوسلوفاكى

يعد توماس مساريك مثالا معبرا عن كيفية دفع سياسات المنفى فى دول الحلفاء بشخصية محترمة، ولكنها مفتقدة للسلطة، إلى سدة الحكم. ففى 1914م، توصل مساريك إلى استنتاج مفاده أن الدولة النمساوية المجرية كانت انتكاسية وسلطوية لدرجة غير قابلة للإصلاح، وأدى تحالفها مع ألمانيا بزعامة «ويلهلم» فى الحرب إلى زيادة إحساسه بأن الاستقلال الكامل وليس الاستقلال الذاتى، داخل أوربا الوسطى التى تسيطر عليها ألمانيا، يمثل الشكل المقبول الوحيد لتقرير المصير للأمة التشيكية. وبنفس الطريقة كان يبدو أن الحرب وفرت الاحتمال الحقيقى الأول لانهيار إمبراطورية الهابسبرج. ولهذا السبب غادر مساريك فى ديسمبر 1914م، النمسا ـ المجر إلى سويسرا، حيث بدأ التخطيط لحملة من الخارج للمطالبة باستقلال التشيك. وقبل رحيله من براغ، أسند إلى صديقه المؤتمن إدوارد بينيس مسئولية تنظيم شبكة سرية من النشطاء الملتزمين بالعمل على استقلال التشيك. حيث قام هؤلاء المتآمرون، الذين عرفوا باسم «مافى ـ Maffie» بتجميع قادة من المستوى الثانى الأصغر من قيادات أحزاب عديدة مع مجموعة من المثقفين والشخصيات الثقافية من خارج إطار المنظمات الحزبية. وكانوا بمثابة قناة للاتصالات السرية بين مساريك فى المنفى وبين المتعاطفين معه فى بوهيميا، وقدموا نافذة للتعاون والتنسيق بين هؤلاء السياسيين التشيك الملتزمين وذلك من خلال دفع قيادات أحزابهم إلى مواجهة سلطات الهابسبرج. وعلى سبيل المثال، ساعدت «مافى» فى تنظيم حملة الضغط التى أدت إلى إثارة المنبر السياسى للاتحاد التشيكى خلال (1917م ـ 1918م)، (راجع الفصل الثالث)[35].

وعقب رحيل بينيس ذاته من النمسا ـ المجر فى أواخر 1915م، استقر هو ومساريك فى لندن وباريس على التوالى، حيث واصلا تكوين الاتصالات مع الدوائر السياسية والأكاديمية والصحفية البريطانية والفرنسية. وفى 1916م،

وبعد انضمام قلة من المنفيين الآخرين وممثلى مجتمعات المهاجرين التشيك، بدأوا المرحلة العامة من حملة الاستقلال بتأسيس "المجلس القومى التشيكوسلوفاكى" على أساس تمثيل المصالح القومية للشعبين التشيكى والسلوفاكى. وحاول المجلس إقناع الحلفاء بأن انهيار إمبراطورية الهابسبرج واستقلال الشعوب المكونة لها يمثل الوسيلة المضمونة الوحيدة لكسر القبضة الألمانية والاستبدادية على أوربا الوسطى. وكانت الثقافة السياسية التشيكية بالتحديد تعرض على أنها تمثل بديلاً علمانيًا ديمقراطيًا غربيًا للمؤسسات السلطوية الكاثوليكية لإمبراطورية عاجزة سقطت فعليًا فى براثن ألمانيا العسكرية[36].

وحققت المصداقية القوية لساريك كديمقراطى موال للغرب تعاطفًا كبيرًا فى المؤسسات الثقافية والسياسية البريطانية ثم الأمريكية. ففى الصحيفة الأسبوعية «أوربا الجديدة ـ The New Europe» التى أسسها فى لندن فى 1916م، الباحث «روبرت سيتون ـ واتسون Robert Seton-Watson» والسير هنرى ويكهام ستيد ـ Sir Henry Wickham Steed» وجد مساريك منبرًا لآرائه ونشر مقالاته بانتظام، واعتنق بحماسة قضية الاستقلال السياسى لكل الشعوب السلافية فى إمبراطورية الهابسبرج، وكان الجمهور البريطانى المتعلم يقرأ «أوربا الجديدة»، وكان محرروها على اتصال وثيق بهوايتهول (Whitehall) وفى الحقيقة شكل المشاركون الأكاديميون فى الصحيفة عنصرًا سائدًا بين المتخصصين الإقليميين المعنيين فى "قسم الاستخبارات السياسية بالخارجية" والمسئولين عن إعداد توصيات تتعلق بالتسوية السياسية المقبلة. ولا شك فى أن الصحيفة كانت أداة قوية فى تشكيل السياسة البريطانية تجاه «المجلس القومى التشيكوسلوفاكى» فى (1917م ـ 1918م)[37].

وقامت صحيفة «الأمة التشيكية ـ La Nation Tcheque» التى نشرت فى باريس بدور مماثل فى السياق الفرنسى، وكان مساريك قادرًا أيضًا على كسب تعاطف كبير لقضيته خلال رحلته إلى الولايات المتحدة فى 1917م، من خلال حملاته بين المجتمعات المهاجرة التشيكية والسلوفاكية، بل ومن خلال لقاء أستاذه الرئيس، وودرو ويلسون[38]. حيث خلقت بطولات «الفيلق التشيكوسلوفاكى فى

روسيا» (الذى سنكتب المزيد عنه لاحقًا) الإعجاب والمساندة لقضية مساريك بين الجمهور الغربى الواسع.

وفى معظم الجوانب، كان منبر مساريك وقت الحرب مبنيًا على الأسس الفكرية التى أرساها قبل 1914م، ولكن الذى تغير بسرعة كبيرة خلال سنوات الحرب تمثل فى مكانة وتأثير أفكاره، حيث كونت الثقافة السياسية المستقطبة للحرب الشاملة جمهورًا مستعدًا لآرائه المناهضة للنمسا بين النخب الغربية. ومع فشل محاولات جس النبض لإقرار سلام بين الحلفاء والهابسبرج فى ربيع 1918م، تمهد الطريق لاعتراف الحلفاء بجهود مساريك وسقوط "المجلس القومى التشيكوسلوفاكى"، وتبنى تقرير المصير القومى للتشيك والسلوفاك، بالإضافة إلى سلاف الجنوب[39]. وأدى النجاح الدبلوماسى الملحوظ "للمجلس القومى التشيكوسلوفاكى" فى الخارج، واستغلاله لاتصالات «مافى»، إلى تكوين تحالف بعيد المدى مع القوى المؤيدة للاستقلال فى بوهيميا، ومسارعة القادة الذين كانوا هامشيين سابقًا إلى حلبة الصراع السياسى فى 1918م. ومن جانبه كان الجناح السلافى الجديد من القومية التشيكية ملتزمًا بالتكيف مع إنجاز القوميين الليبراليين الغربيين. وتم طرد شخصية موالية للروس فى "المجلس القومى التشيكوسلوفاكى" من المنظمة بعد التدخل فى صراع قوى داخلية[40]. وخلا وجوده فى براغ فى 1918م، كان كاريل كرامر معجبا للغاية بما خلفه كل من مساريك وبينيس من أثر على مجالس الحلفاء، لدرجة أنه لم ينازعهما المطالبة بدور القيادة فى الدولة التشيكوسلوفاكية المقبلة. وعلى أى حال جعلت الثورة البلشفية التوجه الموالى للروس غير عملى فى الأجل القصير. وهكذا كان مساريك ورفاقه قادرين على استغلال موقفهم فى الخارج كسياسيين غرباء ومستقلين من أجل القيام بالأدوار الحاسمة فى تكوين وتشكيل تشيكوسلوفاكيا.

وبينما كان هناك عناصر تواصل قوية تربط بين مواقف مساريك قبل وبعد 1914م، فإن عملية اختراع دولة فى المجال الدبلوماسى للمنفى وقت الحرب ساعدت على تشكيل البرنامج السياسى لمساريك، وكان لها أثر بعيد المدى على المؤسسات والآليات السياسية لتشيكوسلوفاكيا فيما بين الحربين. إذ كان قرار مساريك بالهجوم العلنى على شرعية دولة الهابسبرج ناتجًا عن الحرب. والأكثر

طرافة هو الأسلوب الذى شكلت به ظروفه وقت الحرب مستقبل العلاقات بين التشيك والسلوفاك. فنظرًا لأن مساريك لم يكن مثقلاً بالمشاركة المباشرة فى الحياة السياسية لبلاده، كان يتمتع بحرية أخذ أفكاره عن العلاقة التشيكية - السلوفاكية إلى نتيجتها المنطقية بالدعوة إلى تكوين الدولة القومية التشيكوسلوفاكية.

وكان جمهور مساريك الفعال وقت الحرب يتكون من النخب الغربية ومجتمعات المهاجرين التشيك والسلوفاك، حيث أثبتت هاتان المجموعتان تقبلهما لأفكاره عن الروابط التشيكية السلوفاكية. وكان جمهوره الإنجليزى والفرنسى والأمريكى متعاطفًا معه بشأن الحاجة إلى تكوين هوية قومية مشتركة بين الشعبين السلافيين على أساس القيم الديمقراطية الليبرالية التشيكية، وأن تشيكوسلوفاكيا الجديدة ستصبح معقلاً للغرب فى أوربا الوسطى التى تسيطر عليها ألمانيا.

ومن جانبها، كانت المجتمعات التشيكية والسلوفاكية فى الولايات المتحدة أكثر وعيًا بما يجمعها مع روابط فى سياق مواجهتها المشتركة مع الحياة الحضرية الأمريكية، مقارنة بإخوانهم فى الوطن القديم. وقد التقى مساريك فى بتسبرج (الولايات المتحدة)، من بين كل الأماكن، مع قادة التشيك والسلوفاك الأمريكيين لإصدار إعلان مشترك ينادى بتكوين تشيكوسلوفاكيا المستقلة. وكان «إعلان بتسبرج» فى 1917م خطوة فاعلة منحت جهود مساريك شرعية الموافقة الشعبية من أكبر مجتمع للتشيك والسلوفاك ممن يعيشون خارج إمبراطورية النمسا المجر. وبالرغم من أن مساريك كان يعتبر ذلك تأكيدًا لتصوره للوحدة التشيكوسلوفاكية، احتوت الوثيقة تأكيدات على استقلال السلوفاك داخل إطار الدولة المقبلة، وهى التأكيدات التى لم تتحقق. وهكذا أصبحت هذه المسألة موضع نزاعات مريرة متزايدة خلال سنوات ما بين الحربين[40].

ولكن مشكلة برنامج مساريك تمثلت فى أنه يمكن فهمه على أنه مجرد واجهة للإمبريالية الثقافية التشيكية. فمن الواضح أن مساريك كان يعتبر الثقافة التشيكية وسيطًا نموذجيًا لنشر القيم التقدمية بين السلوفاك، وكان يبدو متشككا فى قبول حقيقة أن السلوفاك كانوا متميزين لغويًا عن التشيك. ففى دعايته أثناء

الحرب، كان يشير إلى السلوفاكية على أنها مجرد لهجة من التشيكية، بينما كان يعد باستخدام هذه اللهجة فى المدارس والإدارة السلوفاكية[42]. ولم يشر إلى استخدام السلوفاكية على مستوى التعليم العالى، وأصر على أن المسألة اللغوية لن تمثل عقبة كبيرة قائلاً: "لا يمكن أن تكون هناك قضية لغوية؛ لأن كل سلوفاكى، حتى غير المتعلم، يفهم التشيكية، وكل تشيكى يفهم السلوفاكية»[43]. وكانت الملاحظة الأخيرة صحيحة تمامًا، ولكنها كانت تعكس أيضًا غفلة ساذجة من جانب مساريك عن «فتنة الاختلاف الطفيف» الذى يمكن أن يلعب دورًا قويًا فى تكوين الهويات القومية، وفى توليد الصراعات العرقية[44]. ولا شك فى أن اتصالات مساريك مع «الهلاسيين ـ Hlasists» فى سلوفاكيا (راجع الفصل الثالث)، والدور القيادى النشط الذى لعبه الفلكى السلوفاكى «ميلان ستيفانيك ـ Milan Stefainik» لى جانب دور «بينيس» فى «المجلس القومى التشيكوسلوفاكى»، كل ذلك شجع مساريك على الاعتقاد بأن الاتحاد السياسى سيمهد الطريق للتكامل الثقافى للشعبين. ولكن الحقيقة كانت تتمثل فى أن الهلاسيين كانوا يمثلون دائرة فكرية صغيرة موالية للتشيك وكانت روابطها بالثقافة الشعبية السلوفاكية ضعيفة للغاية. وكان ستيفانيك نفسه قد تعلم فى براغ وقضى سنوات فى الخارج، وأصبح ضابطًا فى الجيش الفرنسى، وكانت روابطه الشخصية بسلوفاكيا لا تزيد على روابط مساريك نفسه بها[45].

وأدى نجاح «المجلس القومى التشيكوسلوفاكى» فى الحصول على الاعتراف الدبلوماسى من الحلفاء فى 1918م، بالإضافة إلى الفراغ الناتج عن انهيار الإمبراطورية النمساوية المجرية، إلى تكوين قوة دفاعية لم تستطع مقاومتها حتى النخبة القومية السلوفاكية المحافظة والحذرة بصفة عامة ـ خاصة أنه كان يبدو أن هذا المجلس يقدم أقرب فرصة مباشرة للهروب من الحكم المجرى. وقام "المجلس القومى الد لوفاكى" المعين ذاتيًا بالتجمع بسرعة فى أكتوبر 1918م، والتصويت لصالح الا حاد مع التشيك فى دولة مستقلة[46]. ولكن لم تكن هناك حركة سلوفاكية عريضة القاعدة تسند هذا القرار، إذ لم يكن هناك شىء يشبه النموذج التشيكى فى الاحتضان الشعبى لبرنامج القوميين المنفيين من خلال طيف واسع من الطبقات الاجتماعية والأحزاب السياسية فى 1918م (على نحو

ما عرضنا فى الفصل الرابع). وساعد تكوين تشيكوسلوفاكيا على رفع التوقعات السلوفاكية المتعلقة بتقرير المصير والتى لم تتحقق. وأدى شعور السلوفاك بأنهم خدعوا فى مساومة غير عادلة إلى مرارة شديدة أربكت سياسات الجمهورية فيما بين الحربين.

اللجنة اليوغسلافية

مرت القيادة السياسية السلافية الجنوبية أيضًا بتشعب المسارات خلال الحرب، ففى هذه الحالة، تعرضت أهداف النشطاء اليوغسلاف المنفيين للإحباط فى النهاية، بسبب الأحداث التى عصفت بوطنهم. ولكن حملتهم السياسية أثناء الحرب كانت مهمة فى المساعدة على بداية مرحلة تأسيس مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين فى 1918م، بالإضافة إلى تدعيم تصور يوغسلافيا الذى أدى الفشل فى تحقيقه إلى تزايد إحساس الكروات والسلوفينيين بأن حقوقهم فى وطنهم قد سلبت منهم.

وبعد احتلال صربيا فى 1915م، اقتصرت المعارضة العلنية للسياسات النمساوية المجرية على الخارج، وكانت الشخصيات البارزة فى هذا المجال تتمثل فى القادة الكروات من «التحالف الكرواتى الصربى ـ HSK» (راجع الفصل الثالث) الذين بدأوا تنظيم حملة مناهضة للهابسبرج عقب نشوب العداوات مباشرة. وهرب «فرانكو سوبيلو ـ Franco Supilo» من قمع الهابسبرج إلى المنفى فى إيطاليا فى 1910وانضم إليه فى 1914م «آنتى ترومبيتش ـ Ante Trumbi» وعدد من النشطاء الآخرين. خاصة النحات الكرواتى المشهور عالميًا «إيفان ميستروفيتش ـ Ivan Mestrovic» الذى إما تصادف وجوده خارج البلاد وقت نشوب الحرب، أو أنه استطاع الفرار خلال الأسابيع الأولى من الصراع. وفى ظل مناخ استقطاب الحرب النمساوية الصربية، والقمع الوحشى للسخط داخل مملكة الهابسبرج، كانت هذه الشخصيات مستعدة لإكمال الانفصال عن فيينا.

إذ إن حقيقة أنهم كانوا محرومين من الاتصال المنتظم بالآليات المعقدة للسياسة الكرواتية حررتهم من الحاجة إلى التفاوض والتوافق، وسهلت صياغتهم لبرنامج انفصالى واضح المعالم. وقد ثبت أن إدعاء هذه الشخصيات قدرتها

التحدث نيابة عن الجماهير الكرواتية والسلوفينية والصربية المقهورة فى أراضى الهابسبرج الجنوبية إدعاء غير قابل للتحقق، الأمر الذى خول هؤلاء المفكرين القوميين إصدار أية بيانات أو تصريحات دون التحقق من حقيقة أنها تعبر عن تطلعات شعوبهم. وبعد الاتصالات بين هؤلاء المهاجرين والحكومة الصربية، قدمت الحكومة الصربية دعمها المالى والمعنوى لتكوين هؤلاء المهاجرين «لجنة يوغسلافيا . Yugoslav Committee» التى ألزمت نفسها بتحرير كل سلاف الجنوب من نير الهابسبرج وتوحيدهم مع مملكة صربيا فى دولة يوغسلافية مستقلة. واعتبرت الحكومة الصربية هذه اللجنة بمثابة منظمة دعائية مفيدة فى بريطانيا وفرنسا، حيث تعارضت المحاولات البريطانية والفرنسية . الهادفة إلى إغراء إيطاليا بالدخول فى الحرب عبر تقديم مكاسب إقليمية متوقعة على ساحل الأدرياتى الشرقى . مع الأهداف الحربية الصربية[47].

وبحلول 1917م، أصبحت لندن المركز «الفعلى» لأنشطة «لجنة يوغسلافيا». وبينما كان قادة اللجنة يّدعون أنهم يمثلون الإرادة القومية لشعوبهم، كان تشكيلهم الحقيقى وقت الحرب قاصرًا على المجتمعات المهاجرة الكرواتية فى العالم الجديد، والقلة القليلة من الصحفيين والمثقفين والدبلوماسيين البريطانيين المتخصصين فى شئون شرق أوربا الوسطى، بالإضافة إلى الجمهور الغربى المتعلم. وساعدت عملية الحوار مع رجال مثل روبرت سيتون . واتسون، وهنرى ويكمان ستيد، على تشكيل الأسلوب الذى صاغ به سوبيلو وترومبيتش أطروحة يوغسلافيا المنتظرة. ومن الصعب تحديد أين انتهى عنصر الدعاية فى خطاب النشطاء اليوغسلاف، وأين بدأت آراؤهم الحقيقية؛ وذلك لأن بلورة منبرهم السياسى حدثت فى سياق هذه المشاركة المستمرة مع الصفوة المتعلمة من البريطانيين وقت الحرب. بل كان الخط الفاصل بين الدعاية والسياسة داخل الحكومة البريطانية مشوشًا أيضًا . ففى مارس 1918م، تحمل كل من سيتون . واتسون، وستيد مسئولية تشكيل القسم النمساوى المجرى من "قسم الدعاية فى الدول المعادية"، حيث استغلا موقعهما داخل الجهاز الحكومى للمساعدة على إقناع حكومة لويد جورج بالتخلى عن فكرة السلام التوافقى مع النمسا . المجر،

والتحرك نحو تبنى رسمى للاستقلال التام للشعوب المكونة للإمبراطورية النمساوية المجرية، وهكذا ساعدت الدعاية على تشكيل الدبلوماسية[48].

وتقول «لجنة يوغسلافيا» ومؤيدوها إن دولة سلاف الجنوب ستقدم أفضل إطار ممكن لتكوين شكل جماعى شامل ثقافيًا للقومية، بما يساعد على تغيير نمط التنافس بين كل من المجتمعات والشوفينية العرقية الضيقة التى سيطرت على سياسات البلقان منذ أواخر القرن التاسع عشر. وكان من المخطط فى هذه الدولة الجديدة أن تقدم صربيا القوة العسكرية المطلوبة للدفاع عن الدولة الوليدة، بينما يساهم الكروات والسلوفينيين بقيمهم الديمقراطية الليبرالية فى الحكم، ويعملون كرابط مع ثقافة وتجارة الغرب، ولن تأتى الروابط الأخوية بين الشعوب المكونة ليوغسلافيا على حساب تقاليدها وهوياتها الفردية. فبينما يرعى الصرب والسلوفينيين والكروات الثقافة السياسية العامة (التى تحددها نظرة النخبة الحضرية فى دالماشيا)، ستتمتع المكونات الإقليمية العرقية الفردية للدولة بالاستقلال الذاتى، وستحافظ على مؤسساتها المميزة. وأخيرًا، كان سوبيلو وترومبيتش يرغبان فى التوفيق بين نقاء ديمقراطيتهم الليبرالية ونهج تقرير المصير القومى بالرجوع إلى حجج حق الدولة التاريخى لتبرير المطالب الإقليمية القصوى للدولة المتوقعة (كانا مهتمين بالمطالب الإقليمية الإيطالية فى دالماشيا، والتى اعترفت بها بريطانيا وفرنسا سرًا، كثمن لدخول إيطاليا الحرب فى 1915م). وكانت النقطة المرجعية التاريخية لمطالبهم بحق الدولة تتمثل فى المملكة الكرواتية فى العصور الوسطى، والتى أسسها الملك «زفونمير ـ Zvonimir» فى القرن العاشر، حين كانت دالماشيا فى ظل تاجه متحدة مع كرواتيا ـ سلافونيا[49].

وخلال الشهور الأولى من الحرب، كانت الحكومة الصربية «المحاصرة منذ تراجعها إلى مدينة نس» تشجع وتساعد على تمويل تشكيل «لجنة يوغسلافيا»، وتبنت رسميًا نموذج الوحدة القومية اليوغسلافية. وحظى السعى إلى التعبير الثقافى عن الروابط الأخوية بين سلاف الجنوب على اعتراف رسمى ومساندة حقيقية فى شكل لجنة بحثية ترعاها الحكومة، وتتألف من مؤرخين ولغويين وجغرافيين، انطلقت فى جمع الأدلة «العلمية» على أن الصرب والكروات والسلوفينيين، كانوا فى الواقع «قبائل من شعب واحد». وأخيرًا، أصدر البرلمان

الصربى فى ديسمبر 1914م «إعلان نس»، الذى حدد الهدف الرئيس لحرب صربيا بتحرير وتوحيد كل الإخوة غير المحرَّرين: الصرب والكروات والسلوفينيين[50].

ولكن مع تقدم الحرب ظهرت انشقاقات واضحة فى واجهة التضامن اليوغسلافى، إذ إن تبنى «لجنة يوغسلافيا» علنًا للقضية الصربية كقضية خاصة بها لم يظهر أنها تعكس مبدئيًا المشاعر الفياضة لدى الشعب الكرواتى، بالرغم من أن هذا تغير مع تراجع الحرب (انظر الفصل الرابع). وكان الشىء الأكثر أهمية بالنسبة «للجنة يوغسلافيا» يتمثل فى السلوك غير المتوقع للحكومة الصربية. فالتراجع المزعج للحكومة والجيش الصربى عبر جبال ألبانيا إلى المنفى فى جزيرة «كورفو ـ Corfu» اليونانية فى خريف 1915م، لم يحطم روح القيادة الصربية، بل على العكس، خرجت السلطات الصربية من هذه المحنة أكثر تصميمًا على الحصول على جائزة مناسبة للشعب الصربى الذى عانى من الحرب التى انتهت بانتصار الحلفاء. وبالإضافة إلى ذلك ظلت لجنة يوغسلافيا نشطة فى المجهود الحربى للحلفاء بإلزام قواتها بجبهة سالونيك (اليونان) الجديدة التى فتحت فى صيف 1916م. ولكن المشكلة كانت فى أن فهمها للمكافأة المتوقعة من هذا الالتزام بالحرب كان يتمثل فى «صربيا العظمى» وليس يوغسلافيا الموحدة. وبينما كان يبدو الصرب متقبلين لفكرة التوافق مع إيطاليا حول الغنائم الإقليمية المتوقعة على ساحل البحر الأدرياتى، كانوا يبدون أقل اهتمامًا بضمان المكانة المتساوية مع الكروات والسلوفينيين فى أراضى سلاف الجنوب التى يمكن أن تقع تحت سيطرتهم. ثم اتضح بصورة مؤلمة أنهم كانوا يفكرون فى «ضم وإخضاع» أجزاء من أو كل البوسنة ودالماشيا وكرواتيا ـ سلافونيا، وفوفودينا وسلوفينيا، وليس تحقيق "وحدة قومية" مع سكان هذه الأقاليم. ويبدو أن سابقة السياسات غير المتسقة لصربيا فى مقدونيا عقب غزوها فى (1912، 1913) قد أثرت بدرجة أكبر على عقول «لجنة يوغسلافيا»: حيث خضع سكان هذه الإمارة «المحررة» حديثًا لكل التزامات المواطنة الصربية، مثل الضرائب والتجنيد، فى حين تم تأجيل تقديم الحقوق الدستورية الكاملة لهؤلاء السكان. ولم يكن ذلك

بالطبع سوى نذير سوء لمستقبل الأخوة والمساواة بين المجتمعات العرقية فى يوغسلافيا التى يسيطر عليها الصرب.

وتبدى أول المظاهر العلنية للتوتر بين أعضاء السلك الدبلوماسى الصربى و"لجنة يوغسلافيا" فى مناسبة معرض لندن لأعمال إيفان ميستروفيتش، حيث حظى النحات الدالماشى وعضو لجنة يوغسلافيا باهتمام عالمى قبل الحرب لمحاولته تقديم عمل فنى يعبر عن الأخوة اليوغسلافية. وكان يحيى أفكارًا من التاريخ الصربى، مركزًا على صور المقاومة البطولية فى مواجهة الغزو والسيطرة الأجنبية. وكان يأمل فى تحفيز الكروات بتقاليد الحرب مثل إخوانهم الصرب، وأن يظهر للصرب أن هويتهم التاريخية يمكن التعبير عنها فى شكل فنى تم تطويره على يد فنان كرواتى. ووصل الإحساس بالمشاركة فى كفاح ثقافى مشترك ضد السيطرة النمساوية المجرية لذروته فى 1911، فى معرض الفنون الدولى فى روما، فعندما رفضت سلطات الهابسبرج أن تسمح بإقامة جناح فرعى كرواتى مستقل تحت رعاية جناح الهابسبرج، قام عدد من الفنانين الكروات وفى مقدمتهم ميستروفيتش بحركة ردة ثقافية عارضين أعمالهم فى الجناح الصربى[51].

وأضفت شهرته الدولية بوصفه فنانا هالة من الشرعية والاحترام على القضية اليوغسلافية وقت الحرب فى أعين الجمهور الغربى المتعلم، وجذب معرض لأعماله فى لندن فى يونيو 1915م، جمهورًا كبيرًا، وحقق له مديحا كبيرا فى الصحافة[52]. ووصف سيتون ـ واتسون المعرض بأنه «عرض فنى استخدم فيه الحجر للتعبير عن فكرة سلافى الجنوب.. لإظهار أن لدى الكروات والصرب ثقافتهم المتميزة، وأن أفضل ممثليهم يعتبرون أنفسهم شعبًا واحدًا له اسمان»[53]. ومع هذا، واكب ذلك مفارقة ساخرة فى معرض الفنون فى روما قبل الحرب، وذلك عندما رفض السفير الصربى فى لندن حضور معرض 1915م، لأن ميستروفيتش رفض أن يسمى نفسه فنانًا صربيًا! ولكن السفير الصربى الأكثر تواضعًا فى فرنسا عبر القنال ليظهر فى المعرض مكان زميله[54].

وتعتبر هذه الحادثة المؤسفة عرضا سطحيا للخلاف العميق بشأن دور «لجنة يوغسلافيا». فالحكومة الصربية اعتبرت «اللجنة» أداة دعائية سطحية وساذجة،

وبالتالى ليس من شأنها صياغة أجندة سياسية مستقلة. ولم تفلح الجهود الصربية فى تدعيم دور النشطاء اليوغسلاف سوى فى إظهار مدى تعالى أولوياتهم الأساسية. فعندما عبرت سلطات كورفو عن نيتها التسامح مع حقوق الكاثوليك فى يوغسلافيا المنتظرة، أصر سوبيلو بغضب على أن التسامح ليس القضية، فالكاثوليك والأرثوذكس يحتاجون إلى التمتع بالمساواة الكاملة فى الحقوق، ويمكن أن يتحقق هذا بالفصل الكامل بين الكنيسة والدولة، وكانت المكانة الرسمية التى تتمتع بها الكنيسة الأرثوذكسية فى مملكة صربيا لا تتفق مع فكرة الوحدة اليوغسلافية، حيث اشتكى سوبيلو، فى خطاب إلى سيتون - واتسون، من أن الصرب لم يكونوا ناضجين بالقدر الكافى لفهم هذا الموضوع[55].

وبحلول 1916م، كان سوبيلو مستعدًا لقطع العلاقات مع صربيا والتقدم بخطط لإقامة دولة كرواتية مستقلة، ولكن الطبيعة متعددة العرقيات للجنة يوغسلافيا جعلت صدور مثل هذا القرار مستحيلاً، حيث شعر الأعضاء السلوفينيون فى اللجنة أن أمتهم الصغيرة ستكون فى وضع أفضل كواحدة من مجموعات عرقية عديدة فى دولة سلافية جنوبية، مقارنة بكونها أقلية معزولة فى دولة كرواتية كبيرة. وكان ذوو العرق الصربى فى اللجنة يكرهون بالطبع قطع العلاقات مع صربيا، وكذلك كان ترومبيتش غير راغب فى التخلى عن احتمال التوافق مع صربيا، ولكن سوبيلو استقال من اللجنة احتجاجًا، وسرعان ما رحل عن الدنيا[56].

وهكذا كانت السياسة الداخلية للحكومة الصربية فى المنفى معقدة ومتقلبة، ولكن علاقتها غير المستقرة مع «لجنة يوغسلافيا» مثلت قضية حيوية دارت حولها المواجهة بين مجلس رئيس الوزراء «باسيتش - Pasic» وقادة المعارضة البرلمانية. وطالما كانت «لجنة يوغسلافيا» تتمتع بتعاطف دوائر معينة داخل المؤسسة البريطانية، كان قادة المعارضة الصربية يأملون فى أن انفتاحهم النسبى على الحوار مع اليوغسلافيين سوف يكسب تأييد لندن فى مواجهتهم مع باسيتش. وتصاعدت الأمور فى ربيع وصيف 1917م، عقب المحاكمة الصورية وإعدام الضباط المستقلين على رأس منظمة «الاتحاد أو الموت - Union or Death»، «اليد السوداء - Black Hand»، الذين كانت للعديد منهم علاقات وثيقة

مع المعارضة البرلمانية[57]، وبعد تلفيق تهم الخيانة للتخلص من مركز المقاومة الطويلة لسلطة حكومته، وجد باسيتش مجلسه يفقد مزيدًا من التأييد فى البرلمان، ومع تحول تحالفه إلى أقلية، بدأ باسيتش تقديم اقتراحات جديدة إلى «اللجنة» كوسيلة لتحييد أقسام المعارضة الصربية التى استخدمت القضية اليوغسلافية كمنبر للهجوم على حكومته.

وكان هذا الانفتاح على الحوار مع اليوغسلافيين يهدف أيضًا لضم صربيا إلى صف تقرير المصير القومى الذى اعتنقته الحكومة الانتقالية الجديدة فى روسيا والولايات المتحدة التى أعلنت الحرب على ألمانيا فى أبريل. وأخيرًا، استجابت الأحزاب السياسية السلافية الجنوبية داخل إمبراطورية الهابسبرج فى مايو لعروض الإمبراطور الجديد، كارل الأول، بإصدار إعلان يطالب بتوحيدها داخل إطار مملكة الهابسبرج الإصلاحية. فكان ذلك ضربة دعائية ضد النمساويين وهو تحد كان على صربيا مواجهته[58].

وأدى انفتاح الحكومة الصربية المكتشف حديثًا على الفكرة اليوغسلافية إلى التفاوض الناجح على «إعلان كورفو. Corfu Declaration» فى يوليو 1917م، حيث حددت هذه الوثيقة. التى أصدرها قادة لجنة يوغسلافيا والحكومة الصربية بصورة مشتركة. الهدف المشترك المتمثل فى إقامة المملكة الديمقراطية الدستورية للصرب والكروات والسلوفينيين تحت أسرة حاكمة صربية. أما التفاصيل المؤسسية الدقيقة، مثل درجة الاستقلال الذاتى التى يجب أن تمنح للأقاليم العرقية، فقد تركت ليتولاها مجلس دستورى منتخب انتخابًا عامًا، بمجرد انتهاء الحرب. ولكن مع ضمان الحقوق الثقافية والدينية لكل الشعوب المكونة للمملكة[59].

وكان عقد «مؤتمر روما للقوميات المقهورة» فى أبريل 1918م، علامة بارزة فى حملة «لجنة يوغسلافيا» للحصول على الاعتراف الدولى. وكانت الحكومة الإيطالية متلهفة لاستغلال القيمة الدعائية لاستضافة هذا التجمع الذى استمر ليومين للقوميين المنفيين من إمبراطورية الهابسبرج. مما جعلها راغبة فى التسامح مع مشاركة اليوغسلاف طالما أنهم لا يستغلون الفرصة للإعلان عن مطالبتهم بالأراضى التى كان الإيطاليون مصممين على ضمها. وقد حقق

«المؤتمر» دعاية كبرى فى الصحافة الغربية، وحظى بتأييد من حكومات الحلفاء، وكانت خطبه تنادى بتفكيك عرى مملكة الهابسبرج لتحل محلها دول قومية ديموقراطية، وتم إرجاء القضايا الإقليمية الحساسة من أجل التركيز على وضع تصور للتضامن بين القوميات الخاضعة فى شرق أوربا الوسطى، وبين هذه القوميات والإيطاليين.

وبينما نجح «اتفاق كورفو» و«مؤتمر روما» كتجارب دعائية موجهة للرأى العام الغربى، لم يكن لهما تأثير طويل الأجل على العلاقات بين الحركات القومية ذاتها. إذ إن «اتفاق كورفو» أضفى الشرعية على التطلعات الإقليمية الصربية، بدون إلزامها فعلاً بأية ترتيبات مؤسسية محددة. واستخدم باسييتش الاتفاق لتقويض محاولات «لجنة يوغسلافيا» للحصول على الاعتراف الدولى، مدعيًا أن الأسرة الحاكمة الصربية تستطيع الآن شرعًا ادعاء التحدث نيابة عن كل سلاف الجنوب. وقامت الحكومة الإيطالية بدورها فى منع اعتراف الحلفاء «بلجنة يوغسلافيا»، تاركة ترومبيتش ورفاقه بدون مساعدة دبلوماسية أو سياسية فى تعاملهم مع صربيا.

ومع نهاية أكتوبر . نوفمبر 1918م، كانت «لجنة يوغسلافيا» مهمشة تمامًا، وجرد رئيس الوزراء الصربى باسييتش معارضته الداخلية بدعوة قادتها للانضمام إلى حكومة تحالف موسعة تستطيع تولى مهمة إعادة بناء صربيا المحررة، وتخلت المعارضة عن مطالبتها الانتهازية بالتوافق مع «لجنة يوغسلافيا»؛ لأنها تطلعت إلى آفاق اقتسام السلطة فى يوغسلافيا التى يسيطر عليها الصرب. والأهم من هذا كله أن النخب الاجتماعية والسياسية الكرواتية تطلعت إلى الجيش الصربى لحماية أراضيها ضد إيطاليا، وإلى النظام الاجتماعى ضد «الكوادر الخضراء . Green Cadres» (راجع الفصل الرابع). وأصبحت «لجنة يوغسلافيا» مهملة فى أول ديسمبر، عندما منحت بعثة حكومة زغرب اعترافًا كاملاً غير مشروط لولى العهد الصربى الأمير الكسندر، وقبلت به ملكا على مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين الجديدة.

وبعد أن قام قادة الحركة اليوغسلافية بأداء مهمتهم باعتبارهم دعاة لقضية سلاف الجنوب، وجدوا أنفسهم مستبعدين فى اللحظة الحاسمة. وكان يبدو أنهم

يتمتعون بأتباع أكثر إخلاصا فى بريطانيا، مقارنة بصربيا أو كرواتيا، وكان تطلع حكومة زغرب، قصيرة العمر، لاستعادة النظام فى الريف يطغى على كل الاعتبارات الأخرى. ولذلك قبلت صياغة للاتحاد مع صربيا يتضمن تكوين مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين اسمًا، والتى لم تكن سوى دولة صربية موسعة فى الواقع. وكان القرويون الكروات يتعرضون لقمع الجيش الصربى بلا مبرر، بينما فرض الإداريون الصرب سيطرتهم البيروقراطية على المدن (انظر الفصل السابع). ومع ذلك، لا يمكن استبعاد أهمية الشرعية التاريخية للجنة يوغسلافيا، إذ إن دعايتها وسط الجمهور الغربى، وإقامتها للعلاقات مع المؤسسة البريطانية، مهدت الطريق للاعتراف الدولى بدولة يوغسلافية تشمل كل الكروات والسلوفينيين، ولكن الفجوة بين تصور سوبيلو وتصور ترومبيتش لاتحاد سلاف الجنوب وحقيقة يوغسلافيا المركزية التى يسيطر عليها الصرب هى التى مثلت الشكوى الأساسية للقومية الكرواتية المنبعثة خلال فترة ما بين الحربين.

اللجنة القومية البولندية

أما فى حالة بولندا، فقد أدى الانقسام بين القوميين الذين حصلوا على الاعتراف الدبلوماسى فى العواصم الغربية، وأولئك الذين ظلوا فى البلاد، إلى تجديد الخلافات الموجودة سلفًا بين معسكرى دموفسكى وبلسودسكى (راجع الفصل الثالث). وأدى اندلاع الحرب إلى وضع مهارات الرجلين موضع اختبار. وكان الصراع المسلح الذى أثار القوى المقسمة ضد بعضها يحمل فى طياته أملاً واعدًا للقضية القومية البولندية. ولكن استغلال مثل هذا الوضع المتقلب كان يعتمد على البراعة الدبلوماسية والحدس اليقظ بالتوقيت المناسب سياسيًا. وأدت الظروف الاستثنائية لحالة الحرب الطويلة إلى تقسيم المجال بين بلسودسكى ودموفسكى؛ لأن سيطرة الثانى على منظمة جماهيرية لم تكن لها منفعة مباشرة وسط اضطرابات الحرب الشاملة. ومن المؤكد أن الجمهور الأهم الذى كان يحتاجه كل منهما فى ذلك الوقت لم يكن فى بولندا، بل فى عواصم «القوى العظمى»: ولكن أية «قوى عظمى»؟ هنا يكمن المحك. ففى حالة الرجلين، كانت تحالفات قبيل الحرب تحدد توجهاتهما الدبلوماسية المبدئية مع نشوب القتال. ولكن مع تقدم الصراع عدل كل منهما موقفه فى ضوء الظروف المتغيرة.

وفى النهاية (وبلا قصد) كمل كل منهما الآخر على الجبهة الدبلوماسية، حتى عندما تزايدت خلافاتهما السياسية والشخصية عمقًا. وسوف ندرس دور بلسودسكى لاحقًا، عند مناقشة فيالق المتطوعين، فى حين أن دموفسكى هو الذى قضى معظم سنوات الحرب فى العواصم الغربية للعمل لصالح القضية البولندية.

ولم يؤثر وعد القائد العام للقوات المسلحة الروسية فى نوفمبر 1914م بمنح الاستقلال الذاتى لبولندا على تبرير التزام دموفسكى طويلاً بالتوافق مع روسيا، خاصة فى ضوء تقدم ألمانيا فى الأراضى الروسية فى السنة التالية. ففى 1915م، نقل دموفسكى قاعدة عملياته إلى بريطانيا. وبعد "الثورة الروسية" فى مارس 1917م، أسس «اللجنة القومية البولندية ـ Polish National Committee» التى تطلعت إلى مساندة الحلفاء الغربيين، وحاولت إضفاء الشرعية على القضية البولندية بتكوين قوة متطوعين للجبهة الغربية من بين أسرى الحرب البولنديين والمبعدين. وكان انتقال دموفسكى إلى الغرب يعكس اعتقاده بأن بريطانيا وفرنسا يمكن أن تصبحا فى وضع أقوى من روسيا، بحيث تفرضان شروط السلام على "القوى المركزية" عند نهاية الحرب[60]. وكان يأمل أن تساعد باريس ولندن بالضغط على الحكومة الروسية للحصول على امتيازات حقيقية للبولنديين فى حالة سيطرة روسيا على الأراضى البولندية فى النهاية.

وبالرغم من مصداقيته كمفكر، وألفته بالمجتمعات والثقافات الأوربية، لم يكن دموفسكى مقبولاً لدى المؤسسة الغربية مثلما كان مساريك أو اليوغسلاف، إذ كان توجهه المعجب بروسيا، ومفهومه العرقى العنصرى الفاضح للقومية، يثيران الدهشة فى بريطانيا. وبالرغم من أنه حاول أن يخفف ويرشد عداءه للسامية، فإن عداوته العلنية ليهود بولندا وعدم رغبته فى اعتناق مفهوم التسامح تجاه الأقليات الثقافية العرقية فى بولندا المستقلة أفقده بعض جمهوره. وكانت صحيفة «أوربا الجديدة» تنتقد المنهج العلنى غير المتسامح من جانب «الديمقراطيين القوميين» تجاه العلاقات العرقية فى بولندا، وكان دموفسكى موضع شك لدى الصحافة البريطانية العامة، ولدى عدد من الشخصيات البارزة فى الخارجية[61].

ولكن ميزة دموفسكى الكبيرة تكمن فى حقيقة أن بلسودسكى كان يعتبر شخصية موالية للألمان، فى ظل رغبته فى التعاون لفترة مع قوى الاحتلال الألمانية والنمساوية فى بولندا، وقد استغل دموفسكى هذا الارتباط جيدًا فى تقويض تأثير ممثل بلسودسكى غير الرسمى فى لندن، «أوغوست زالسكى ـ August Zaleski»[62] وكذلك خفف دموفسكى الأثر السلبى لنمطه الشوفينى باستخدام شخصية أكثر لباقة كمتحدث باسم «اللجنة القومية البولندية». فقد وافق «إجناتسى بادرفسكى ـ Ignacy Paderewski» عازف البيانو العالمى الشهير، والمؤلف الموسيقى، ومحرر أعمال شوبان، الذى كان نشطًا فى القضايا الثقافية والإنسانية البولندية لعدة سنوات ـ على تمثيل «اللجنة القومية البولندية» فى تعاملها مع حكومات الحلفاء. وكانت سلوكياته المهذبة، وحضوره القوى، ولباقته الآسرة، فعالة جدًا فى كسب التعاطف للقضية البولندية. وكان الرئيس وودرو ويلسون من أشد المعجبين به، إذ كان إعجابه ببراعته الموسيقية يتغلب على عدم قبوله لدموفسكى. ومن ثم فقد وضع دعمه للحقوق القومية البولندية فى إطار المبادئ العامة الديمقراطية وحق تقرير المصير القومى. وبالرغم من أن حنين بادرفسكى إلى الكومنولث البولندى الليتوانى، وميوله الرومانسية، وإحساسه الكبير نوعًا ما بذاته، جعله شريكًا غير محتمل بالنسبة إلى دموفسكى، فإن القائد الديمقراطى القومى كان مستعدًا لتركه يسيطر على الساحة العامة خلال الحرب كثمن لإضفاء الشرعية على «اللجنة القومية البولندية». وكانت هذه الحيلة ناجحة جدًا؛ لأنه عند نهاية الحرب، حتى عندما استولى بلسودسكى على السلطة فى بولندا، كانت «اللجنة القومية البولندية» قد حظيت باعتراف القوى الغربية كممثلة للمصالح البولندية، واضطر بلسودسكى فى النهاية للإذعان لقيادة دموفسكى وبادرفسكى للبعثة البولندية إلى «مؤتمر سلام باريس» فى 1919م[63]. وبقى أن نرى ما إذا كان قد تم التوفيق بين هذين التيارين القوميين المتنافسين فى إطار دولة بولندا المستقلة.

. الصهيونية

سجلت «المنظمة الصهيونية العالمية ـ WZO» حضورا فعليا قبل الحرب كحركة منظمة لها فروع فى العواصم الكبرى فى أوربا الوسطى والغربية بالإضافة إلى

الولايات المتحدة، مع وجود سرى فى الإمبراطورية الروسية. وكان يصعب تحديد المستوى الحقيقى لتأييدها بين يهود الشتات. فبالرغم من وجود مقارها الرئيسة الدولية فى برلين، وبالرغم من أن مؤسسها - تيودور هرتزل (1860م - 1904م) - كان من يهود فيينا، حظيت «الصهيونية» بقبول كبير بين يهود أوربا الشرقية، مقارنة بأقرانهم الأكثر استيعابًا فى أوربا الوسطى والغربية، الذين كانوا يميلون إلى اعتبار أنفسهم مواطنين فى الدول المضيفة. فإن أنشطة الحركة الصهيونية فى المراكز السكانية اليهودية الكبرى فى «حظيرة الاستيطان الروسية» وبولندا الروسية، كانت محدودة بسبب القهر السياسى للحكومة القيصرية. بل إنها واجهت منافسة فى المراكز الحضرية فى أوربا الشرقية من حركات سياسية يهودية منافسة، مثل «الوحدة الماركسية». وقوبلت بالشك والمعارضة من جانب المجتمعات الأرثوذكسية التقليدية التى سيطرت على حياة المدن الصغيرة اليهودية. وفى الواقع، كان معظم الأحبار الأرثوذكس يعتبرون المنفى وضعًا مفروضًا إلهيًا، ولا يخلص الشعب اليهودى منه سوى المسيح، وليس منظمة سياسية علمانية تفرض نفسها بالقوة، على نحو ما حاولت الصهيونية أن تفعل[64].

وخلال السنوات التى مرت منذ تأسيسها رسميًا فى مؤتمر بازل فى 1897م، مرت الحركة الصهيونية بتقلبات داخلية هامة حول اختيار التكتيكات وطبيعة الأهداف الرئيسة. حيث ركزت ما تسمى الصهيونية السياسية لهرتزل ودائرته على استغلال الدبلوماسية الشخصية للحصول على صك مقبول عالميًا لتوطين اليهود الأوربيين فى مجتمع مستقل فى فلسطين. وعندما فشلت الجهود المتكررة لكسب التأييد الكامل لهذا المشروع من الحكومات الأوربية، والتغلب على شكوك الحكومة العثمانية، تحول قادة بارزون فى الحركة، ومنهم هرتزل، إلى الاستعداد لقبول خيار أرض بديلة - ربما فى إفريقيا الشرقية الواقعة تحت السيطرة البريطانية - للدولة اليهودية المقبلة. وكان الصخب الناتج عن ذلك، وتأكيد العلاقة التى لا تنفصم بين الشعب اليهودى و«أرض إسرائيل» فى «المؤتمر الصهيونى السادس» فى 1903م، يؤكد هزيمة الفكرة الإقليمية، بل ويمثل انتقالاً حاسمًا داخل الحركة من الصهيونية السياسية إلى أنصار «الصهيونية العملية». حيث

كانت هذه المجموعة تفضل تبنى منهج تصاعدى يركز على تطوير المستوطنات الزراعية اليهودية الموجودة فى فلسطين، عن طريق تجاوز قيود السلطات العثمانية المعادية والقابلة للرشوة، وتشجيع نمو ثقافة قومية عبرية يهودية متميزة فى «البيشوف ـ Yishuv» الوليد (المجتمع الصهيونى فى فلسطين). وكان يقال إن هذه الإستراتيجية ستعجِّل بالتطور التدريجى للبنية التحتية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمجتمع قومى أساسى فى أرض الأجداد، بما يخلق حقائق على الأرض، بدلاً من الانتظار إلى ما لا نهاية للصيغة الدبلوماسية للخلاص المسيحى.

وكان هذا المنهج أكبر من مجرد وسيلة بديلة لتحقيق هدف مشترك، إذ إن أنصاره ـ الذين كانوا غالبًا من المثقفين اليهود من الطبقة الوسطى فى الإمبراطورية الروسية ـ جمعتهم المعارضة المشتركة لما كانوا يعتبرونه تنازلاً وفراغًا أخلاقيًا وعمقًا سياسيًا للصهيونية السياسية. وكانت الدبلوماسية العقيمة للصهيونيين السياسيين تجرى نيابة عن الجماهير اليهودية، ولكن بدون مشاركتها. فنظرًا لتركيزهم الكامل على «الكأس المقدسة» للدولة اليهودية، وتنظيمها على الأسس والمبادئ الليبرالية والعقلية والتكنوقراطية، كان يبدو أنهم غير مهتمين بمسألة ما يجعل المجتمع اليهودى الجديد يهوديًا أصيلاً ومتميزًا. وكان يمكن اعتبار موقفهم صورة للاستيعاب الثقافى لصهيونية أوربا الوسطى. وفى الواقع، كانوا يفترضون أن الألمانية ستكون اللغة المشتركة ولغة الثقافة العليا فى المجتمع الجديد.

وعلى العكس، كان الصهيونيون البراجماتيون ـ ومن بينهم مجموعة أساسية تعرف بالصهاينة الثقافيين من ذوى النفوذ الكبير ـ يرون أن غرس المستوطنات الزراعية فى فلسطين بمثابة وضع الأساس لمجتمع عادل يرتبط مباشرة بأرض الأسلاف عبر العمل الزراعى. وكانت نوعية المشروع الصهيونى فى فلسطين فى أذهانهم أكثر أهمية من عدد اليهود الذين يمكن نقلهم إلى هناك. ونظرًا لتأثرهم بعقلية المفكرين الروس الثوريين وعداوتهم الشديدة جدًا لمؤسسات سلطة الدولة، ركز الصهاينة الثقافيون ـ مثل الكاتب اليهودى الروسى «آحاد هاعام ـ Ahad Ha'am»، «آشر جنزبرج ـ Asher Ginzbrg» (1856م ـ 1927م) على أن قيام

كومنولث يهودى فى فلسطين لن يستطيع استيعاب ملايين يهود أوربا الشرقية المحرومين والمقهورين، وبالتالى لن يقدم الحل المادى للمشكلة اليهودية كما تدعى الصهيونية السياسية. ولكن دوره يجب أن يتمثل فى كونه المركز الثقافى والوجدانى ليهود العالم، حيث يمكن تطوير ثقافة قومية حديثة تضرب بجذورها فى التاريخ والتقليد اليهودى، وتستخدم العبرية كلغة حياة، بعيدًا عن الأثر الشمولى والاستيعابى لأشكال الحداثة غير اليهودية. وسوف يشع أثر هذا المجتمع الرئيس إلى الشتات، وسيعمل كحافز ونموذج لإحياء الحياة اليهودية فى أوربا وحول العالم[65].

ولكن انتصار الصهيونية العملية داخل المنظمة الصهيونية العالمية لم يحقق نجاحًا فوريًا للحركة، إذ إن تطور المجتمعات اليهودية كان يبدو أنه أوشك على التوقف خلال السنوات الأخيرة قبل الحرب، حيث وصل عدد سكانها حوالى 35000 نسمة (بالإضافة إلى 50000) يهودى من المجتمع اليهودى قبل الصهيونية فى فلسطين) وفى ظل ذلك كان المجتمع اليهودى يواجه مشاكل اقتصادية طاحنة ونظام «تركيا الفتاة» الأكثر تشددا من سابقه تجاه توطين الرعايا الأجانب على أراضيه[66]. وكذلك فإن الجوانب النخبوية للصهيونية العملية، مع تركيزها على دور الطليعة الرائدة فى تكوين مجتمع نموذجى فى أرض إسرائيل وعلى إحياء العبرية واستبعاد اليديشية - اللغة اليومية ليهود أوربا الشرقية - ساعد على الحد من افتتان الجماهير بالحركة، والتى كانت قيادتها تبدو غير قادرة على تخطى الحوارات النظرية الحماسية لتكوين حقائق على الأرض.

وهكذا اندلعت الحرب العالمية الأولى وسط هذا الجو من الركود وفقدان بوصلة الاتجاه، فكانت الاستجابة المبدئية على المستويات العليا للمنظمة تتمثل فى تبنى موقف حذر يتصف بالانتظار والمراقبة، نظرًا لأنها حركة لها فروع وجمهور فى كل من البلاد المتحاربة، فضلا عن التزام المنظمة الصهيونية بسياسة الحياد الصارم تجاه الصراع. وظلت برلين كموقع للمقار الرئيسة للمنظمة، فى حين كانت كوبنهاجن موقع مكتب الاتصال الدولى والمؤتمرات الدورية التى تجمع قادة فروع البلاد.

ولسنا فى حاجة إلى القول: إن الحفاظ على الاتصال وقت الحرب كان عملاً خطرًا وارتجاليًا. ففى الواقع، كانت مكاتب الفروع تعمل مستقلة عن بعضها، ولذلك كانت رؤاها وتوجهاتها السياسية تتشكل حسب القيود والفرص السياسية المحلية، وكذلك فإن الارتباط الوثيق بقضايا الدول التى توجد فيها هذه المكاتب أدى إلى تلاشى الموقف الرسمى المحايد، خاصة فى ألمانيا وبريطانيا. وبدلاً من التوفيق بين آفاق الحركة، كان عدم التنسيق وانهيار الحياد لصالحها فى الأجل الطويل؛ لأن القادة الصهاينة الألمان والإنجليز كانوا قادرين على كسب تأييد قوى غير مسبوق من حكوماتهم فى سياق الصراعات القومية والإمبريالية وقت الحرب. وساعد النجاح الباهر للصهاينة فى بريطانيا بقيادة «حاييم فايتسمان Chaim Weizmann» (1874م - 1852م)، فى تكوين تحالف «فعلى» مع القوة الإمبريالية الأعظم فى العالم. وقد دفع ذلك فايتسمان وأنصاره إلى قيادة المنظمة الصهيونية العالمية بعد الحرب، والأهم من ذلك تكوين مركب جديد من الصهيونية السياسية والعملية فى سياق مجتمعات جديدة تم إحياؤها بصورة مفاجئة.

وكانت محاولة الصهاينة الألمان التأثير على السياسة الألمانية تجاه يهود بولندا وليتوانيا المحتلتين. كما وصفناها سلفًا فى هذا الفصل. غير ناجحة، بالرغم من أن الحركة الصهيونية فى المناطق المحتلة استفادت بطريقة غير مباشرة من الفرص التى وفرها الاحتلال الألمانى لتلك المناطق. وعلى العكس، أثمرت محاولات الصهيونية الألمانية التى تناور من أجل «مجتمع» صغير فى فلسطين الخاضعة للعثمانيين. فنظرًا للقلق من أن يكون طرد جمال باشا لليهود من يافا فى أبريل 1917م مقدمة للتفكيك الكامل للمجتمع اليهودى الصغير (للبيشوف)، لجأ الصهاينة إلى حكومة القيصر الروسى للتدخل. وكانت الحكومة الألمانية تخشى من أن تدمير هذا المجتمع على يد الحليف العثمانى يمكن أن يستعدى الرأى العام اليهودى فى روسيا (والذى كانت ألمانيا تأمل فى إخراجه من الحرب)، بالإضافة إلى الرأى العام فى أمريكا والدول المحايدة، مما يقوض الصورة والموقف التفاوضى "لقوى المركز" فى مؤتمر السلام المرتقب. وساعد تدخل الدبلوماسيين الألمان فى إسطنبول، وتدخل الجنرال «فون فالكنهاين - General

von Falkenhayn» فى فلسطين، على منع جمال باشا من الانتقام الشامل ضد البيشوف، وذلك عقب القبض على حلقة من الجواسيس اليهود فى أكتوبر 1917م، كانت تقدم تقاريرها للاستخبارات البريطانية. وهكذا أثبتت المساندة الألمانية أهميتها فى إنقاذ البيشوف المتضرر بشدة كمجتمع رئيس يمكن أن يتطور المشروع الصهيونى حوله بعد الحرب[67].

وساعد الخوف ـ الذى لم يكن فى محله ـ من أن يؤدى اهتمام ألمانيا بالصهيونية إلى تعبير واضح بعيد المدى عن مساندة القضية القومية اليهودية، فى إحداث تطورات جذرية فى السياسة البريطانية. وكان الشىء المهم فى هذا التحول للأحداث يتمثل فى المبادرة الشخصية لحاييم فايتسمان ومجموعة صغيرة من رفاقه. إذ كان شخصية غامضة نسبيًا، حتى وفرت له الحرب فرصة ذهبية لدخول الساحة السياسية؛ لأنه كان مواطنًا من «منطقة الاستيطان الروسية»، ودرس الكيمياء فى ألمانيا وسويسرا، وشغل وظيفة جامعية فى جامعة مانشستر فى 1904م، وطوال تلك الفترة كان مشاركًا نشطًا فى الحركة الصهيونية، وساعد تعيينه وقت الحرب فى وزارة التموين ـ حيث قدم إسهامات هامة لتطوير أسلوب جديدة لإنتاج الأسيتون (المكون المهم فى صناعة الكورديت المفجر لقذائف المدفعية) ـ على تكوين علاقات سياسية مفيدة وتحقيق شهرة شخصية فى الدوائر الحكومية. وكانت محبته الحماسية لإنجلترا ومهارته فى إظهار السلوك المهذب، بالإضافة إلى اعتزازه بنفسه كيهودى روسى، تتناسب تمامًا مع افتتان الطبقة العليا البريطانية بهذا الأجنبى الغريب[68].

ونظرًا لأن فايتسمان كان صهيونيًا وتلميذًا لآحاد هاعام، فقد رأى فى حرب بريطانيا ضد الإمبراطورية العثمانية فرصة كاملة لتكوين تحالف سياسى مستمر بين الصهيونية «وقوة عظمى» سيكون لها دور حاسم فى تشكيل التسوية السلمية وتوزيع غنائم الحرب فى الشرق الأوسط. وتمثل هدفه الرئيس فى الحصول على تأييد بريطانيا لحق اليهود فى تقرير المصير القومى فى فلسطين، وكما يقول «ديفيد فيتال ـ David Vital» كان هذا يمثل عودة إلى هوس الصهيونية السياسية بفكرة الصك. ولكن بينما فشل هرتزل وأتباعه فى ضمان تأييد أية قوة، كان

فايتسمان محقًا فى اقتناص الفرصة الفريدة لتحقيق ذلك مع بريطانيا وقت الحرب.

وتقاربت مجموعة من الاهتمامات والمصالح لتكوين جمهور متقّبل فى «هوايتهول - Whitehall» (الشارع الرئيسى فى لندن الذى يضم المقار الحكومية البريطانية) حيث كان ربط المصلحة الإمبريالية البريطانية بالحملة الصهيونية من أجل وطن قومى يهودى فى فلسطين (التى كانت تعتبر بالنسبة لمصر الخاضعة لسيطرة بريطانيا بمثابة حاجز حماية إستراتيجى مستقبلى). وقد أعطى ذلك قوة تفاوضية للحكومة البريطانية فى أية محادثات سلام محتملة مع ألمانيا، وأجهض أية تحركات مماثلة من جانب الحكومة الألمانية. وفى أعقاب اتفاقية سايكس - بيكو فى 1916م، التى اتفق فيها الدبلوماسيون البريطانيون والفرنسيون على تقسيم الشرق الأوسط إلى نطاقات نفوذ، بدأ الساسة البريطانيون التفكير فى جزء من الاتفاقية الذى يشترط فرض الرقابة الدولية على فلسطين. وهنا أيضًا كانت رعاية القضية القومية اليهودية تمثل أداة قوية لاستبعاد الفرنسيين، وفرض السيطرة الكاملة على فلسطين. وبعد اندلاع ثورة مارس 1917م، أدى اهتمام بريطانيا باستمرار التزام روسيا بالمجهود الحربى إلى زيادة اهتمامها بالصهيونية. فنظرًا لأن العديد من الشخصيات البارزة فى الأحزاب الشيوعية الروسية كانوا من اليهود، عمل الدبلوماسيون البريطانيون فى ظل سوء فهم - غذّاه فايتسمان - على أن إظهار بريطانيا تلميحا قويا مؤيدا للصهيونية سيضمن التأييد الصهيونى للمجهود الحربى المشترك. وأخيرًا، اجتمعت مفاهيم وتحيزات شخصية عديدة لإيقاظ التعاطف مع الصهيونية لدى بعض الأطراف المهمة فى المؤسسة البريطانية، مثل «مارك سايكس - Mark Sykes» المعادى للسامية الذى كان يعتبر البرنامج الصهيونى بديلاً جذابًا لآليات «التمويل اليهودى الدولى» و«الشيوعية اليهودية الملحدة» - والذى رأى أيضًا أن رعاية بريطانيا لهذا البرنامج تمثل مهربًا مناسبًا من بنود فلسطين فى اتفاقية سايكس - بيكو التى تحمل اسمه[69]. ومع غزو الجنرال ألنبى فلسطين، جاءت الصدمة من إعلان وزير الخارجية اللورد بلفور فى نوفمبر 1917م أن:

«حكومة جلالته تنظر بعطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، وسوف تستغل كل مساعيها لتسهيل تحقيق هذا الهدف، وليكن مفهومًا بوضوح أنه لن يحدث شيء يمكن أن يهدد الحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين، أو الحقوق والوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى أية دولة أخرى»[70].

وقد كانت هناك عناصر غامضة فى صياغة هذا النص الذى لم يحدد ما هو الوطن القومى، ولم يحدد ما إذا كان هذا الوطن القومى متطابقًا مع حدود فلسطين، ولم يحدد أين يمكن أن تكون هذه الحدود. ولكن بالرغم من أن "الإعلان" لم يحقق الرغبات السياسية الصهيونية القصوى، فإن قرار إصداره كان بمثابة حدث بارز أدى إلى تأسيس انتداب عصبة الأمم بقيادة بريطانيا، كإطار دولى معترف به للهجرة اليهودية وبناء قاعدة مؤسسية للحكم الذاتى اليهودى فى فلسطين.

وساعد النجاح الدبلوماسى فايتسمان على توليد نوع من التأييد اليهودى الجماهيرى لسياسته وهو الهدف الذى كان يسعى إليه فى المقام الأول. وبعبارة أخرى، كان ادعاؤه أنه يمثل رأى الجماهير بين يهود أوربا الشرقية يتمتع بمصداقية. فنظرًا لعدم الوصول ليهود أوربا الشرقية التى تحتلها ألمانيا، وفوضى أوضاع يهود روسيا وبعدهم الجغرافى، لم تكن هناك وسيلة محددة للتأكد من المشاعر الجماهيرية اليهودية أثناء الحرب. أما الرأى العام اليهودى فى الخارج فربما كان مقتنعًا بفايتسمان، على نحو ما ادعى متحدث يهودى فى لندن[71]. ومن جانبهم، رفض الزعماء الصهاينة الروس رسميًا التخلى عن حياد الصهيونية لصالح موقف فايتسمان المؤيد للبريطانيين علنًا. غير أن فشل فايتسمان فى السيطرة على زعماء الصهيونية الروسية لم يقلل كثيرًا من حجته القائلة بأن مبادرة جريئة من بريطانيا ستحقق تأييدًا يهوديًا دوليًا. وفى الواقع، كان هناك قدر كبير من الحقيقة فى هذه الحجة. باستثناء أن الرأى العام اليهودى لم يكن له تأثير على السياسات الثورية الروسية كما كانت تعتقد «حكومة جلالته»[72].

وكان على فايتسمان أيضًا التغلب على معارضة المؤسسة اليهودية البريطانية، التى شارك ممثلوها فى «اللجنة الموحدة للشئون الخارجية لليهود البريطانيين».

ونظرًا للاقتناع بأن المطالبة بفلسطين على أساس الهوية القومية اليهودية سيتوافق مع مطالب اليهود بالمساواة المدنية داخل الدول التى يعيشون فيها، أخذ القادة الذين سيطروا على «اللجنة الموحدة» خطوة مفاجئة بالهجوم على سياسة فايتسمان فى الصحف البريطانية الكبرى.

ولكن هذا صب فى مصلحة فايتسمان؛ لأنه لم يكن هناك من له وزن فى النيابة عن الصهاينة، باستثناء السير هنرى ويكمان ستيد، محرر «التايمز» وصديق القوميات المقهورة، والمؤمن بفكرة معاداة السامية التى تروجها المؤامرة اليهودية الدولية (ومن ثم فقد يكون فى سلطة يهود العالم مساعدة القضية البريطانية). وكذلك اشتعل الهجوم العلنى مبكرًا على الصهيونية داخل المجتمع اليهودى البريطانى، مما أدى إلى توجيه اللوم ضد «اللجنة الموحدة» من أحد عناصرها المكونة لها، وهو «مجلس نواب اليهود البريطانيين»[73].

وهنا أيضًا نجد أن مجموعة مختارة ذاتيًا من النشطاء الملتزمين استغلت بنجاح صلاتها مع المؤسسات الأكاديمية والصحفية والسياسية البريطانية، واستغلت أيضا ألفتها والتزامها الحقيقى بالخطاب والقيم السياسية الليبرالية فى القيام بدور ممثلى الأمة، والحصول على دعم كبير من قوة عظمى لتحقيق الأهداف القومية. فكان الانتصار السياسى لفايتسمان انتصارًا للقومية الليبرالية على خيار الاستيعاب الليبرالى الذى تبنته المؤسسات اليهودية الأوربية الغربية، وعلى التدرجية والحيادية الحذرة للمؤسسة الصهيونية قبل الحرب. وكان ذلك بمثابة تجميع الصهيونية السياسية (النظرية) مع الصهيونية العملية. وهو التجميع الذى سيصبح موضع تساؤل من حيث توجهه المعتدل أيديولوجيًا والمساند للبريطانيين تحديدًا، لدى قادة الصهاينة الاشتراكيين للمجتمع الصهيونى المتنامى فى فلسطين فى ثلاثينيات القرن العشرين. والذى عادت خطوطه العريضة للظهور فى شكل "اشتراكية الدولة" الاجتماعية الديمقراطية عند ديفيد بن جوريون، وتحالف إسرائيل لاحقًا مع الولايات المتحدة فى النصف الثانى من القرن العشرين.

وبالرغم من أن الصهيونية كانت مجرد أحد التيارات الأيديولوجية العديدة بين يهود أوربا خلال وبعد الحرب العظمى، فإن ادعاءها «التمثيل النيابى لليهود كان

فى بعض الجوانب أقل إشكالية من اللجان القومية فى شرق أوربا المذكورة سلفًا؛ لأنها لم تستطع ولم تبدأ فى فرض تصورها على يهود الشتات. وكانت الجهة المكونة لها منتخبة ذاتيًا، وتألفت من أولئك اليهود الذين اختاروا الهجرة إلى فلسطين أو مساندة هذه العملية. ولكن فى داخل فلسطين ذاتها، دخلت المبادئ الديمقراطية التى اعتنقها الصهاينة فى مشكلة أشد، لم تدرس بصورة منهجية مسبقًا، وهى وجود حوالى 600 ألف عربى لا يمكن أن تتفق هويتهم أو مصالحهم الجماعية مع تطلع اليهود إلى حق تقرير المصير القومى.

. مراجعة شاملة للأحداث

نلاحظ فى كل الحالات السابقة أن مجموعة صغيرة من النشطاء تقيم فى عواصم الحلفاء كانت تضع برنامجًا للاستقلال القومى يحظى بقبول عام واعتراف شعبى قوى فى الغرب. ونظرًا لتحررهم من القيود السياسية المفروضة على بلادهم، كانوا قادرين على تبنى أجندات تتوقع هزيمة ألمانيا وتطالب بتفكيك إمبراطورية الهابسبرج أو الإمبراطورية العثمانية. وتدعمت مواقعهم فى لندن وباريس من خلال النغمة الديمقراطية الليبرالية فى خطابهم.

وكان هذا يتأثر جزئيًا بالاختيار الذاتى، إذ إن الذين كانوا يميلون إلى تفضيل القيم السياسية الغربية (مثل النشطاء التشيكوسلوفاكيين واليوغسلافيين)، أو الذين لديهم صلات شخصية وثقافية قوية بالغرب (مساريك، ستيفانيك، بادرفسكى، ميستروفيتش، فايتسمان) كانوا أكثر ميلاً إلى التوجه إلى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة طلبًا للمساندة. وبحلول 1917م، كانت ميولهم الديمقراطية الليبرالية تتزايد قوة بسبب دورهم الدعائى فى مخاطبة الجمهور الغربى خلال الحرب التى كانت تصور فى الدول "الحليفة والمرتبطة" على أنها صراع بين الديمقراطية والاستبداد. وفى حالة دموفسكى، كان استخدام مثل هذه اللغة أمرًا محسوبًا، ولكن بالنسبة للشخصيات الأخرى التى تناولناها هنا، كان كل من الميول الأيديولوجية والضرورة السياسية يقوى بعضها بعضًا. ومع ذلك، نجد فى نفس الوقت أن برامجهم كانت مليئة بالحلول السطحية التى عادة ما تميز هذا النوع من الدعاية السياسية، حيث تم إدماج فكرة حق الدولة التاريخى فى منهج حق تقرير المصير الليبرالى، وذلك فى محاولة لتبرير المطالب الإقليمية

القصوى. وكانت موافقة قادة مجتمعات المهاجرين تعتبر مصدرًا صحيحًا للشرعية لمشروعات الاتحاد بين الأعراق (خاصة التشيكوسلوفاك) التى لم يكن لها بالضرورة إمكانية للتأييد الشعبى الكبير فى بلادها. ومع ذلك فإنه نظرًا لتمتعها بمساندة "الحلفاء" كان لهذه اللجان القومية والبرامج السياسية أثر كبير على مسار الأحداث فى تلك الدول بعد الحرب، إما بسبب انطلاقها مباشرة إلى موقع السلطة (كما فى حالة "المجلس القومى التشيكوسلوفاكى" الذى أصبح «الحكومة الانتقالية لتشيكوسلوفاكيا» و«اللجنة القومية البولندية» التى أصبحت المفوضية البولندية إلى مؤتمر سلام باريس، أو المنظمة الصهيونية التى شكلت إطار الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والحكم الذاتى فيها) أو - فى حالة «لجنة يوغسلافيا» - بتقديم سيناريو مضاد، والذى يؤدى عدم تحقيقه إلى تكوين أساس للتحديات لشرعية الدولة القائمة بعد الحرب.

. فيالق المتطوعين

تعتبر فيالق المتطوعين إحدى الفئات وثيقة الصلة بالنشاط القومى وقت الحرب، حيث كانت هذه الفيالق تقوم فى مناطق «قوى المركز» والأراضى التى يسيطر عليها الحلفاء، وكانت إسهاماتها فى المجهود الحربى للدول المضيفة تهدف إلى كسب التأييد لحق تقرير المصير للأمم التى تدعى أنها تمثل تطلعاتها. وكما فى حالة اللجان القومية المذكورة سلفًا، التى يرتبط العديد منها بتلك الفيالق، حقق عدد من هذه التشكيلات العسكرية أهمية كبيرة تفوق كثيرًا عدد الرجال المنضمين إلى صفوفها. إذ يأخذ تأثيرها عددًا من الأشكال، ففى بعض الحالات كانت بطولاتها وقت الحرب تمثل نواة للحقيقة التى تنسج حولها الأساطير القومية بواسطة الدول التى ظهرت بعد الحرب. وفى عدد من الأمثلة، كان محاربو هذه الفيالق يواصلون شخصيًا لعب أدوار قوية كنخبة قومية ذاتية الصنع تدعى السيادة السياسية فى الدول الجديدة.

وكان أسرى الحرب يمثلون وعاء تجنيد كبيرًا لفيالق المتطوعين فى جانبى الصراع. ففى جانب «قوى المركز» كانت منظمات المهاجرين - مثل «اتحاد تحرير أوكرانيا» المذكور سلفًا - تناور بنجاح لتأسيس معسكرات منفصلة لإخوانهم فى العرق من بين أسرى الحرب من الجيش الروسى، حيث كانت هذه التسهيلات

تقام فى النمسا ـ المجر وألمانيا لأسرى الحرب الأوكرانيين والبولنديين والفنلنديين والمسلمين، وكان الانتقال إلى هذه المعسكرات تطوعيًا، بالرغم من أنه كانت له مكافآت محتملة فى صورة المعاملة الأكثر رفقًا. ففى حالة الأسرى الأوكرانيين، اختار حوالى 80 ألف أسير الإقامة فى معسكرات مخصصة لهم فى ألمانيا والنمسا ـ المجر، ولا شك فى أن هذا العمل الذى يظهر تمييز الذات، والخبرة التالية للحياة فى معسكر متجانس عرقيًا، أدى إلى تقوية أى إحساس مسبق بالهوية القومية لدى هؤلاء الجنود. حيث خرج من معسكرات الأسرى العرقيين العديد من الرجال الذين انضموا إلى فيالق المتطوعين، مثل «كتيبة القناصة الفنلندية» والفيلق الجورجى، واللذين نظمهما الجيش الألمانى فى (1915م، 1916م)، على التوالى. إذ تم تدريب المتطوعين الأوكرانيين ونقلهم إلى القطاع الأوكرانى من الجبهة، وإن لم يسمح لهم أبدًا بالمشاركة فى القتال خشية الانقلاب ضد أنصار «قوى المركز»[74]. وكان أسرى حرب الهابسبرج فى روسيا يكوِّنون وعاء التجنيد الرئيس لكتائب المتطوعين المرتبطة بقوى الحلفاء، ومن أمثلتها "قوات المتطوعين الصرب" التى كان تاريخها القصير والمرير من الصراع بين الضباط الصرب وغيرهم من مجندى سلاف الجنوب يوضح الاحتمالات الكبيرة للانقسامات بين سلاف الجنوب، وليس تجسيد فكرة وحدة اليوغسلاف[75]. وعلى العكس، كانت الكتيبة التشيكوسلوفاكية مثالاً لقوات المتطوعين التى لعبت دورًا حيويًا فى تأسيس أسطورة دولة تشيكوسلوفاكيا.

. الكتيبة التشيكوسلوفاكية

بذل كل من مساريك وبينيس وستيفانيك قصارى جهودهم، منذ بداية نشاطهم السياسى فى الغرب، من أجل تكوين وحدات مستقلة للمتطوعين التشيك فى الجيوش الفرنسية والإيطالية. وكانت فرنسا أول دولة تستجيب لذلك بإيجابية، ثم تبعتها إيطاليا تدريجيًا. وكانت هذه الكتائب التشيكية تتكون من أسرى حرب الهابسبرج فى إيطاليا ومن مجتمعات المهاجرين التشيك والسلوفاك فى الولايات المتحدة وغيرها من الدول. وكانت القوة التشيكية فى الجيش الروسى تعرف باسم «دروشينا ـ Druzina». وارتبطت هذه القوة بمنظمة أكبر موالية للقيصر والوحدة السلافية. وكانت تلك المنظمة قد تكونت فى سبتمبر 1914م، من خلال

ممثلى المجتمعات التشيكية فى المراكز الحضرية الروسية الكبرى وأطلقت على نفسها اسم «جمعية المجتمعات التشيكوسلوفاكية فى روسيا»[76].

وبعد الإطاحة بالحكومة القيصرية فى ربيع 1917م، استطاع مساريك الحصول على اعتراف الحكومة الروسية المؤقتة بسلطته على هذه «الجمعية» ليحل محل تأثير الوحدة السلافية فى المنظمة. وأصبحت «دروشينا» مندمجة فى «الكتيبة التشيكوسلوفاكية المستقلة» الخاضعة لسلطة «اللجنة القومية» برئاسة مساريك. ثم بدأت حملة تجنيد نشطة بين أسرى الحرب التشيك والسلوفاك. وأخيرًا، تم الاتفاق على أن القوة التشيكوسلوفاكية الموسعة سيكون لها مطلق الحرية فى مغادرة روسيا إلى «الجبهة الغربية» فى أسرع وقت ممكن (عن طريق الخط الحديدى العابر لسيبيريا وميناء فلاديفوستوك فى الشرق الأقصى)[77]، وتطوع حوالى 10% من الأسرى التشيك فى هذه الكتيبة، وكان التشيك المتعلمون المنتمون إلى الطبقة الوسطى ممثلين فى القوة الموسعة بنسبة أكبر، ولكن معظم الجنود العاديين فى الكتيبة كانوا من الطبقة الدنيا، وكان هناك بعض السلوفاك بنفس الأعداد.

وعندما كانت الكتيبة مستعدة للانطلاق، كان البلاشفة قد وصلوا إلى السلطة ووقعوا معاهدة سلام بريست - ليتوفسك. ونظرًا لأن كل مظاهر النظام العام قد انهارت فى البلاد، وجد أسرى الحرب من كل القوميات أنفسهم متحررين من نظام المعسكر الرسمى، ولكن معظمهم كان غير قادر على العثور على طريقة للعودة لبلاده مباشرة، فانضم الكثير منهم إلى إحدى الميليشيات الروسية المتنافرة والمتعددة، والتى كانت تتنافس على استقطاب الأتباع أثناء استعدادها للحرب الأهلية، أو كوّنوا لجانهم السياسية ووحداتهم العسكرية الخاصة بهم (مع الارتباط بالمجموعات الأيديولوجية الروسية، التى تباينت بين الملكية والبلشفية).

وليس مدهشًا فى ظل هذه الظروف أن أصبح التزام البلاشفة المبدئى بتبنى الحكومة السابقة للكتيبة التشيكوسلوفاكية موضع شك متبادل، فقد خشى البلاشفة من أن الكتيبة ستمد خطوط اتصال مع أعدائهم، بينما كان المحاربون التشيك يشكون فى محاولات البلاشفة نزع سلاحهم. وأدت الجهود المتواصلة التى بذلها الأسرى السابقون (الدوليون) الموالون للبلاشفة - كان الكثير منهم من

المجريين والألمان والتشيك أيضًا - لكسب ولاء الجنود العاديين فى الكتيبة لصالح قضيتهم، إلى أحداث عنيفة وتوترات كبيرة[78]. وفى أعقاب صدام مسلح فى مدينة شيليبيانسك فى مايو 1918م، انهار التفاهم مع البلاشفة تمامًا. واجتمع ضباط الكتيبة التشيكوسلوفاكية فى مجلس وقرروا شق طريقهم إلى فلاديفوستوك فى وجه المعارضة البلشفية، وأثناء تحركهم فى العربات الحديدية المدرعة، كان التشيك المتحمسون جدًا يستولون على مدينة تلو الأخرى من السلطات البلشفية المحلية. وبهذه الطريقة أصبحوا مشاركين «فعليين» فى الحرب الأهلية الروسية، وربطوا أنفسهم «بالثوريين الاشتراكيين» والمناشفة، وغيرهم من العناصر الروسية، اليسارية غالبًا، والمعارضة للبلاشفة. وجذبت أنشطة الكتيبة اهتمامًا كبيرًا فى الغرب، حيث كان التشيك يعتبرونها نواة محتملة للجبهة الشرقية المكونة ضد ألمانيا، ثم كعنصر جوهرى فى التدخل العسكرى الغربى ضد البلاشفة بعد ذلك أيضًا. وفى النهاية، تحولت هذه الآمال الأنجلوفرنسية إلى سراب، وإن استمرت الكتيبة التشيكوسلوفاكية محافظة على شرفها وسمعتها فى أعين القوى المنتصرة[79].

ولم تتوفر سفن لإجلاء معظم المحاربين التشيك والسلوفاك من فلاديفوستوك (الميناء الروسى فى الشرق الأقصى على المحيط الهادئ) حتى 1920م، وذلك بعد صمت المدافع على الجبهة الغربية بفترة طويلة[80]. ولكن الرحلة البطولية الطويلة عبر سيبيريا حققت لها أهمية سياسية ودعائية تفوق كثيرًا أى إسهام مادى كان يمكن أن تقدمه للمجهود الحربى للحلفاء. ولعب قادة التشيك المنفيون بنجاح على استعراض الكتيبة للتضحية بالذات والبطولة فى مواجهة الألمان، فى كفاحهم للحصول على الاعتراف الغربى باستقلال بلادهم وبمطالبهم الإقليمية، وبعد ذلك حققت بسرعة مكانة الأسطورة القومية فى الدولة المكونة حديثًا.

لقد بدأ تحول خبرات الكتيبة إلى حقيقة قومية ثقافية خلال مسارها الحقيقى لرحلتها عبر سيبيريا، فباستخدام الأموال والمعدات التى قدمتها جمعيات المهاجرين التشيك، سجل أفراد الكتيبة تقدمهم نحو فلاديفوستوك بالصور الثابتة والمتحركة. وأصدروا صحفًا ومنشورات أخرى على إحدى عرباتهم الحديدية، واستمتعوا بمنتجات مسرحية، وصمموا تماثيل تكريمًا لرفاقهم

الشهداء. ودخل معظم هذه الأنشطة والأعمال المادية بعد ذلك فى الدعاية لقصة هذه الكتيبة فى تشيكوسلوفاكيا، فيما بين الحربين[81]. ولكن الصيغة القومية للتاريخ، والتى ظهرت نتيجة لذلك، تجاهلت الهدوء النسبى حتى 1917م، لمعظم الشعب والقيادة التشيكية، بينما صورت التجربة الاستثنائية لهذه الكتيبة على أنها تجسيد للتصميم والتضامن الذى يحفز أبناء هذه الأمة خلال الحرب العظمى[82].

. لواء بلسودسكى الأول

طور لواء بلسودسكى الأول صورة متميزة لقضية الأجنحة العسكرية للحركات القومية، إذ كان لواؤه أشهر التشكيلات العسكرية البولندية التى ظهرت إلى الوجود تحت حماية قوى المركز.

فمن بين التشكيلات العسكرية البولندية المختلفة، التى تكونت فى جزء أو آخر من أراضى تلك الدولة المقسمة خلال الحرب، نجد أن التشكيلات التى حافظت على الهوية المؤسسية المستمرة، وعلى أعلى مستوى من الالتزام بمعيار الاستقلالية، هى التى كانت تحت قيادة بلسودسكى. إذ إنه كان يتمتع مبدئيًا بميزة لم يتمتع بها أقرانه التشيك أو السلاف الجنوبيون، فقد تلقى المساندة والتشجيع من الحكومة النمساوية. فنظرًا لأن الهدف الرئيس لنشاطه كان يتمثل فى تقويض السلطة القيصرية فى بولندا الخاضعة لروسيا، سمحت له السلطات النمساوية باستخدام جاليتشيا كقاعدة لتنظيم ميليشيا قومية سرية تمثل تجمعا للقناصة. وكان معظم المتطوعين فى هذه القوة من الطلاب المنتمين إلى الطبقة الوسطى الحضرية، وممن لديهم إحساس قوى بالتاريخ والذين كانت تصوراتهم تلتهب بارتباط تكوينهم بتقليد كتائب «دابروفسكى - Dabrowski» التى حاربت إلى جانب نابليون منذ قرن[83].

ولكن الرعاية النمساوية أثبتت سريعًا أن لها ثمنها، فعند اندلاع الحرب العالمية الأولى، قامت قوة بلسودسكى بتوغل قصير غير ناجح فى بولندا الروسية، ولكنها وجدت نفسها بعد ذلك مضطرة. وتحت تهديد السلطات النمساوية بحلها - إلى الاندماج فى تشكيل أوسع يعرف «بالكتائب البولندية» والتى أصبحت تحت

الإشراف الاسمى لتحالف متوتر من الأحزاب السياسية الجاليتشية البولندية المتنافسة. وكانت الاستخبارات العسكرية النمساوية تعتبر هذه «الكتائب» أداة لدعم وإضفاء الشرعية على توسيع حكم الهابسبرج فى بولندا الروسية[84].

وحصل بلسودسكى على قيادة لواء واحد فقط (اللواء الأول) فى الكتائب البولندية، وكان التحدى الذى يواجهه يتمثل فى الحفاظ على دور متميز لهذه القوة تعويضا لحجمها الصغير، وفى مواجهة المحاولات النمساوية للتلاعب بالهوية المتميزة لهذه الكتائب، بث بلسودسكى فى رجاله البالغ عددهم خمسة آلاف رجل نَفَس المساواة ونفخ فيهم "روح الجماعة" فدعم نظامهم وحسن من أدائهم القتالى. وكان أعضاء القوة يخاطبون بعضهم بصفة «مواطن» بالإضافة إلى الرتبة العسكرية، ولم يكن هناك تدرج فى الرواتب بين الضباط. وبنفس الطريقة، لم يعرض اللواء نفسه على أنه تجمع أيديولوجى ضيق، حيث قطع بلسودسكى علاقته الرسمية بالحزب الاشتراكى البولندى، وأكد أن الانضمام إلى لوائه يتوقف على الالتزام الشخصى بقضية التحرر القومى، وليس الانتماء الحزبى. وساهمت الخلفية التعليمية لمعظم الأعضاء، وارتفاع درجة الدافع السياسى، والمناخ الديمقراطى الثورى الذى ساد اللواء الأول، فى تحقيق أدائه المميز فى القتال خلال الحملات الدموية فى (1915م، 1916م)[85].

وعندما وقعت بولندا الروسية تحت الاحتلال العسكرى الألمانى والنمساوى القمعى والاستغلالى بصورة متزايدة، حول بلسودسكى توجهه السياسى من التعاون مع فيينا وبرلين إلى المقاومة. إذ كان تحالفه مع النمسا تكتيكيًا دائما بطبيعته. وعندما أحكمت قوى المركز قبضتها على بولندا، اتخذ إجراءات لإبعاد نفسه ورجاله عن أية إشارة للتعاون. ومنذ 1915م فصاعدًا، بدأ بلسودسكى يوجه المتطوعين الجدد بعيدًا عن اللواء الأول، إلى «المنظمة العسكرية البولندية» («POW» حسب الأحرف الأولى بالبولندية)، وهى قوة سرية شكلها قبل اندلاع الحرب بأشهر، وظلت خارج إطار السلطات النمساوية.

ولكن قرار السلطات العسكرية الألمانية والنمساوية بوضع كل الكتائب البولندية تحت قيادتها المباشرة، دفع بلسودسكى إلى إصدار الأوامر إلى 2000 رجل فى «المنظمة العسكرية البولندية» للقيام بعمليات تخريب ضد قوات

الاحتلال الألمانية والنمساوية. وعند استقالته من «مجلس الدولة المؤقت» بعد ذلك بشهرين. فى يوليو 1917م. حاول تنظيم التحول الجماعى لرجاله إلى روسيا، عندما عبرت «الحكومة المؤقتة» الجديدة عن تأييدها الكامل لبولندا المستقلة. وبالرغم من أن هذه الخطط تعطلت بسبب اعتقاله فى قلعة ماجدبورج (قرب برلين)، فإن اشتهار بلسودسكى بالفضائل السياسية والبراعة العسكرية جعل أسره يدعم صورته كقائد تخطت أدواره الحدود الطبقية للسياسات الحزبية، ومع اقتراب نهاية الحرب فى نوفمبر 1918م، أطلق الألمان سراح بلسودسكى ونقلوه إلى وارسو، وهناك تسلم السلطة من مجلس الوصاية المعين من قبل الألمان[86].

وقد تكونت ميليشيات وجيوش أخرى متعددة فى مختلف أنحاء بولندا خلال تلك السنوات، وكانت هذه التشكيلات متعددة الانتماءات والأهداف تعكس الطبيعة المجزأة للسياسة البولندية، ولا تجسد إحساسًا بالوحدة القومية. ففى بداية الحرب، كون المنافس السياسى الرئيس لبلسودسكى، رومان دموفسكى، كتيبة «بولافسكى . Pulawski Legion» التى حاربت كجزء من الجيش الروسى[87]. وعندما اعترفت الحكومة المؤقتة الروسية بحق بولندا فى الاستقلال فى 1917م، طبقت الأعمال على الأقوال بفصل حوالى نصف مليون جندى بولندى من القوات المسلحة النظامية، ونظمتهم فى تشكيلات منفصلة. وعندما تفكك الجيش الروسى، انتهى بعض هذه الوحدات إلى الانضمام إلى الجيش الأحمر، فى حين حارب البعض الآخر البلاشفة. وقام القرويون الأوكرانيون المسلحون بتمزيق أحد هذه التشكيلات فى يونيو 1918م؛ لأنه كان يحارب لحماية ممتلكات أصحاب الأراضى البولندية ضد الثورة الاجتماعية[88].

ولكن عندما وقعت ألمانيا والهابسبرج اتفاقية سلام مع أوكرانيا فى فبراير 1918م، واعدين فيها بالتنازل عن أراض بولندية للدولة الأوكرانية الجديدة، بدأت أجزاء كبيرة من المجتمع البولندى تلتف حول موقف معارض لسياسة «قوى المركز»، تأكيدًا لموقف بلسودسكى السابق من سلطات الاحتلال[89] وأصدر مجلس الوصاية البولندى احتجاجًا ضد الاتفاقية الأوكرانية، وكان أعضاء «الدائرة البولندية» فى البرلمان النمساوى شديدى الانتقاد، واندلعت المظاهرات فى مدن

جاليتشيا، وحاولت الكتائب التى تساندها النمسا الهروب إلى روسيا. وكان اللواء الوحيد الذى نجح فعلاً فى عبور الحدود قد حارب على الجبهة الغربية تحت قيادة الجنرال «جوزيف هالر. General Jozef Haller» الذى ذهب لفرنسا بعد ذلك متوليا قيادة جيش من 100 ألف بولندى (من أسرى سابقين ومجندين من مجتمعات المهاجرين)[90].

وكان عدد الرجال المشاركين فى عمليات بلسودسكى صغيرًا، بالمقارنة بمئات آلاف البولنديين الذين عملوا كمجندين فى جيوش «القوى العظمى» (خاصة فى الجيش الروسى) وفى مختلف ميليشيات الأحزاب البولندية وقوات المتطوعين. وهكذا حقق إنجاز بلسودسكى أهمية فى مواجهة هذا السجل التاريخى المربك وغير المتماسك. فقبل انتهاء الحرب، كان بلسودسكى يعتبر القائد المنتظر من جانب وحدات خارج سيطرته المباشرة، ومنها القوات البولندية التى تكونت تحت رعاية الحكومة المؤقتة الروسية[91]. وعندما ظهرت بولندا المستقلة، متصدعة ومترنحة، من حطام ثلاث إمبراطوريات، طغى بلسودسكى على الساحة السياسية كشخصية يشعر مؤيدوها بأنه لم يتنازل عن مبادئه، ولم يتعاون مع القوى المحتلة خلف الحدود الضيقة للمصلحة القومية، وقاد واحدًا من أقوى وأنجح التشكيلات المسلحة البولندية. وكانت تجربة لوائه تمثل قصة معنوية عُدت بمثابة العمود الفقرى للأسطورة القومية الموحدة. ففى التاريخ الرسمى والكتب الدراسية والاحتفالات العامة، كانت الجمهورية البولندية فيما بين الحربين تصور مآثر اللواء الأول على أنها نواة التجربة القومية وتجسيد للكفاح الموحد لكل الشعب من أجل التحرر القومى[92]. وبعد ذلك بربع قرن، قامت قوات «الفرنسيين الأحرار - Free French» بدور مشابه تقريبًا فى إعادة بناء الصورة الذاتية القومية الفرنسية الإيجابية.

وكما كانت الحال مع «الفرنسيين الأحرار»، كانت هذه الأسطورة أحد أشكال التعويض المفرط عن حقائق المجتمع الذى أظهرت استجابته للحرب انقساماته الداخلية العميقة. وفى الواقع كانت معنويات «اللواء الأول» كسيف ذى حدين: حيث اعتنق أتباع بلسودسكى فكرة الأمة كقيمة عليا وكانوا يتطلعون إلى التضحية بأرواحهم من أجلها. وبنفس الطريقة، كانوا يعتبرون أنفسهم نخبة طبيعية يجسد

سلوكها المثل القومية التى فشلت الأمة ككل فى التمسك بها، حيث تبلورت هذه الصورة الذاتية كطليعة غير مسبوقة للأمة فى الأسابيع الأولى من الحرب فى أعقاب التحرك المبدئى للواء الأول من جاليتشيا إلى بولندا الروسية. حيث تم القيام بهذا الغزو على أمل تحفيز الانتفاضة العامة ضد الطغاة القياصرة. وتم تمويل حالة القلق لدى أعضاء الفيالق من حالة فتور عام إلى حالة غرس الفخر الساخر فى تفرد رسالتهم النبيلة، وذلك كما تقول الكلمات الأخيرة من نشيد اللواء:

«لم نعد فى حاجة إلى اعترافكم بنا،

ولا كلماتكم، ولا دموعكم،

ولّت ليالى البحث عن تعاطفكم،

ولتذهبوا إلى الجحيم!»[93].

وكما يقول «أندريه جارلتسكى . Andrzej Garlicki» فإن بلسودسكى كان يدعم ذلك الإحساس المعروف بـ «الأخوة فى الغربة» عن طريق تشجيع أتباعه على الاعتماد الجماعى على الذات، وخُلق الجماعة، وإطاعة القائد، باعتبارها أهم المبادئ التى تشكل نظرتهم العقلية وتوجه سلوكهم[94]. وفى سنوات ما بعد الحرب، استحالت هذه العقلية إلى رؤى لا تخدم سوى نفسها، الأمر الذى ساهم فى تلاشى المبادئ الديمقراطية فى الجمهورية البولندية.

. الثورة العربية

فى ظل الظروف الثقافية والجيوبوليتيكية الصعبة جدًا للعالم العربى، ظهر تشابه عربى مع نموذج بلسودسكى خاصة فى المسار السياسى والعسكرى لقادة الثورة العربية.

ويعتبر مصطلح الثورة العربية مضللاً إلى حد ما؛ لأنه يشير إلى حدوث انتفاضة عامة من الشعوب العربية ضد حكامهم الأتراك. لكن الحقيقة ليست على هذا النحو تماما، إذ لم يكن ذلك سوى تمرد محدود ضد الدولة العثمانية، قام به حسين شريف وأمير مكة، وحاكم الحجاز (الإمارة التى امتدت على طول

الساحل الغربى لشبه الجزيرة العربية والتى ضمت المدينتين الإسلاميتين المقدستين مكة والمدينة). ولا يمكن القول إن الدوافع الأصلية لحسين كانت قومية بطبيعتها، فنظرًا لكونه الحاكم المحلى لإمارة على هامش الإمبراطورية العثمانية، بدأ حسين الصدام مع إسطنبول فى السنوات الأخيرة قبل الحرب عندما حاول الحفاظ على الاستقلال الوظيفى للحجاز فى مواجهة إدارة «تركيا الفتاة» المركزية التى كانت تتعدى على إمارته. إذ كان السلطان العثمانى قد عين حسين شريفًا على مكة فى 1908م، وذلك ضد رغبة لجنة الاتحاد والترقى. وكذلك فإن اكتمال سكة حديد الحجاز وامتدادها إلى الجنوب من "المدينة المنورة" فى سنة تعيين حسين قد ساعد على فرض السيطرة الإدارية العثمانية المباشرة على المدينة والإمارة المحيطة بها. وأثارت مخططات مد الخط إلى مكة قلق حسين، وظهر مصدر إضافى للتوتر مع بداية الحرب، وذلك مع انخفاض عوائد الحج الإسلامى بسبب الحصار البحرى البريطانى. وبنفس الطريقة، زادت الحرب احتمال استجابة بريطانيا من قاعدتها فى مصر بصورة إيجابية لعروض حسين، وهو ما فعلوه فى الواقع. حيث أدت المراسلات فى 1915م - 1916م بين حسين والسير هنرى مكماهون (المندوب السامى البريطانى فى مصر) إلى مساندة بريطانيا العسكرية لثورة الشريف حسين ضد الحكم العثمانى، التى بدأت فى يونيه 1916م[95].

ولا يمكن القول: إن سكان الحجاز كان لديهم وعى قومى، إذ إن معظم السكان كانوا من البدو، ولم تظهر أول صحيفة محلية حتى بعد 1908م. وباستثناء بعض أعضاء الأسرة الحاكمة ذاتها (التى تبنى حسين لها اسم «الهاشمية» عند بداية ثورته فى 1916م)، كانت الإمارة بطرق عديدة بعيدة عن النبض السياسى والثقافى لمراكز السكان الكبرى فى العالم العربى[96]. وكان الجنود البسطاء فى القوات الهاشمية، يتكونون من رجال القبائل «البدوية» الذين كان ولاؤهم الشخصى لشيوخهم، وكان زعماء هذه القبائل بدورهم يلقون معاملة قائمة على مزيج من التملق والتهديد والرشوة من حسين وأبنائه الذين قادوا القوات المسلحة.

وبمجرد أن قرر حسين المخاطرة بالمواجهة العلنية، تخطت طموحاته حدود الحجاز. ومع ذلك نجد هنا أيضًا أن منهجه الفكرى لم يكن قوميًا من الناحية العملية، ففى دعايته الناطقة بالعربية، كان يهاجم نظام «تركيا الفتاة» على أنه علمانى وغير إسلامى، مشيرًا إلى أنه سيستعيد الحكم الإسلامى الحقيقى للأراضى التى ستقع تحت سيطرته[97].

ومع ذلك، ارتدت ثورة الحجاز العباءة السياسية للقومية العربية بفضل الارتباط الثلاثى الذى ربطها بالجمعيات القومية السرية فى سوريا والعراق (ما بين النهرين) فضلا عن العلاقة مع البريطانيين. وخلال الرحلتين اللتين قام بهما فيصل بن حسين إلى دمشق فى (1915م، 1916م)، أجرى اتصالات واستكشف إمكانية التعاون مع قادة جمعيتى «الفتاة» و«العهد» وانضم عضوا فى الجمعية الثانية. وواصل فيصل نشاطه ليصبح قائد «الجيش الشمالى» أهم ذراع عسكرى لثورة الحجاز، والذى دخل سوريا مع الجيش البريطانى بقيادة الجنرال ألنبى فى 1918م. وكانت الحكومة البريطانية ذاتها تنظر إلى تمرد حسين كشرارة يمكن أن تشعل لهيب القومية العربية فى المراكز السكانية فى سوريا والعراق. وكانت هذه الرؤية تلقى تشجيع العرب المنسحبين من القوات العثمانية والمنفيين السياسيين الذين كانوا ينتمون إلى «العهد» و«الفتاة» وقدموا دعاوى مبالغ فيها للمسئولين البريطانيين فى القاهرة عن أرقام العضوية ومدى مساندة الجمعيات بين الضباط العرب الذين يخدمون فى القوات المسلحة العثمانية. وتأثرت مراسلات حسين - مكماهون جزئيًا بهذه الاعتبارات، وأدت إلى تعهد بريطانيا بمساندة حسين لدعم استقلال العرب فى معظم الأردن الحالى والعراق وسوريا[98].

وهكذا تشكل تحالف حسين مع بريطانيا فى ضوء حق العرب فى تقرير المصير القومى[99] وارتبطت الثورة مباشرة بالقومية العربية من خلال شخص فيصل. ومن الناحية الخطابية والرمزية، أخذت ثورة الحجاز هالة "الثورة العربية" بالرغم من أن الانتفاضة الموعودة فى سوريا لم تتحقق (راجع الفصل الرابع).

ولم يقتصر الأمر على نمو الأهمية الرمزية للثورة فى أعقاب الحرب، حيث حظيت أسطورتها باهتمام النظم العربية التى نسبت لنفسها أصول هذه الثورة،

وكذلك كان لها أثر عملى قوى على السياسة القومية بعد الحرب، خاصة فى حالة العراق. وذلك لأن الثورة عملت كإطار لتكوين النخبة القومية المختارة ذاتيًا، والتى تتشابه فى تجربتها وصورتها الذاتية مع جيل المتطوعين البولنديين الذين صعدوا إلى مواقع السلطة فى بولندا فى فترة ما بين الحربين.

وكانت الشخصيات الهامة فى هذه الحالة تتمثل فى مجموعة صغيرة من العرب المنسحبين من الجيش العثمانى، فمن بين مئات الآلاف من الجنود العرب الذين فروا من مختلف الجبهات خلال الحرب، حاولت الأغلبية العظمى منهم أن تعود إلى ديارها، وليس السعى وراء قضية سياسية عسكرية جديدة. ولكن بضع مئات من الضباط من سوريا والعراق انتقلوا من مواقعهم العثمانية إلى خطوط الحلفاء على عدد من الجبهات، وشقوا طريقهم إلى الحجاز للانضمام إلى الحملة العسكرية بقيادة الشريف حسين وأبنائه، وانضم مجندون آخرون إلى الثورة من بين صفوف الأسرى العراقيين فى المعسكرات البريطانية فى الهند ومصر[100].

ومن الناحية العددية، كانت هذه القوات السورية والعراقية نزرا يسيرا؛ نظرًا لأن القوات الحجازية بلغت نحو 40 ألف رجل (منهم 30 ألفًا جنود غير نظاميين)[101]، بل إن أعدادهم كانت صغيرة أيضًا بالنسبة إلى السوريين والعراقيين الذين ظلوا موالين للسلطان حتى نهاية الحرب. ومن بين هؤلاء لم يكن هناك سوى 70 رجلاً فقط أعضاء فى «العهد» و «الفتاة» ولكنهم كانوا يمثلون مجموعات مترابطة ومتميزة بشدة من الضباط ذوى الخبرة المدربين على أيدى العثمانيين، والذين قاموا بأدوار مهمة فى هيكل قيادة القوات الحجازية. وكان أعضاء «العهد» و «الفتاة» مشاركين بنشاط فى سياسة القومية قبل ثورة الشريف، وبانضمامهم إلى أعداء العثمانيين، فقد ألزموا أنفسهم بلا رجعة بتحقيق وضع إقليمى جديد يقوم على فكرة استقلال العرب. ونظرًا لتماسكهم على أساس الأصل الإقليمى (كانت هناك توترات حادة بين الضباط العراقيين وزملائهم السوريين الأقل عددًا)[102]، أدت علاقاتهم بالجمعيات القومية فى سوريا والعراق، وارتباطهم المنفعى بقضية تمتعت بتأييد الجيش البريطانى المنتصر، إلى أن يصبحوا مرشحين متميزين لمواقع السلطة والنفوذ فى الأنظمة العربية

الجديدة التى تشكلت فى أعقاب هزيمة العثمانيين. وكما فى الحالات العديدة التى راجعناها سلفًا، كانت الطبيعة الاستثنائية لتجربة الحرب هى التى أضفت الشرعية على ادعائهم العمل نيابة عن شعوبهم الأسيرة والطامحة إلى الاستقلال، وذلك فى الظروف المتحولة فى فترة ما بعد الحرب.

وكاد تصورهم أن يتحقق عندما دخل الجيش الشمالى التابع لفيصل دمشق فى أكتوبر 1918م، كقوة مستقلة متحالفة مع القوات البريطانية المتقدمة[103]، ووصل الكثير منهم إلى تولى مواقع قيادية فى المملكة السورية قصيرة العمر التى أسسها فيصل فى 1918م (انظر الفصل السادس). وكان فرض فرنسا لحكمها على سوريا، وتأكيد بريطانيا سيطرتها الإمبريالية على العراق، بمثابة خيبة أمل مريرة للضباط الذين قادوا «الثورة العربية». ومع ذلك، وكما سنرى فى الفصل السابع، فقد كان إغراء الحصول على مناصب عليا، فى إطار الانتداب البريطانى فى العراق، عرضا تصعب مقاومته.

الخاتمة

بينما أدت ضغوط وقيود الحرب الشاملة داخل الإمبراطوريات متعددة العرقيات إلى اتساع الفجوات السياسية الاجتماعية على أسس العرقية والطبقية، نجد أن الحرب خارج الأطر الإمبريالية فتحت مجالات جديدة لتعبئة الجماهير، والتنظيم السياسى، والعمل المسلح، وتكوين أساطير بطولية. حيث قامت الجيوش الغازية الألمانية (والعثمانية لفترة أقصر) بإخراج مناطق شاسعة من سيطرة الإمبراطورية الروسية، وواصلت إدخال برامج التنظيم البيروقراطى، وواجهات حق تقرير المصير القومى، وسياسات فرق تسد، التى منحت أهمية مؤسسية وسياسية جديدة للهوية العرقية، والتى أبرزت خطوط التميز والانقسام بين القوميات. وأعدت اللجان القومية - المشكلة فى عواصم دول الحلفاء أو قوى المركز أو المحايدة - الأسس الدعائية والدبلوماسية لتحقيق البرامج الانفصالية. وكانت معسكرات أسرى الحرب تضم جمهورًا أسيرًا لدعاية اللجان القومية وحملات تجنيد الكتائب المحاربة، حيث حاولت هذه الكتائب بدورها أن تستخدم لغة الرصاص لتجسيد صورة رومانسية للأمم.

ومع تفكك الإمبراطوريات متعددة الأعراق إلى دول قومية فى (1917م - 1918م)، تحولت الصور الرومانسية إلى أساطير تأسيسية، وتحولت اللجان القومية إلى حكومات مؤقتة أو بعثات لمؤتمرات السلام، وأخذت الهويات الثقافية العرقية، التى شكلتها وأسستها سلطات الاحتلال لذرائع سياسية، شكلاً جديدًا لجهود حق تقرير المصير القومى. وخلال الحرب كانت هذه المجموعات القومية تحديدًا تعمل خارج حدود الإمبراطوريات الثلاث، ومستعدة جيدًا لتولى مقاليد الحكم بمجرد أن تنهار هذه الإمبراطوريات، والقيام بأدوار قيادية فى الدول اللاحقة، أو رؤية برامجها وقيمها السياسية - التى كانت ذات طبيعة ليبرالية أو ليبرالية ديمقراطية - تدخل فى الهياكل المؤسسية والأيديولوجية للدول الجديدة.

وتحوى قصص النجاح الباهر هذه بذور فنائه فى طياتها، إذ أن التقارب المفاجئ فى 1918م، بين الرؤى والتجارب المتباينة جدًّا - عن الجبهات الداخلية والجبهات الحربية والاحتلال والمنفى - فى إطار الدول القومية المكونة حديثًا يمكن أن يكون قد ولَّد صورًا عائمة مؤقتًا للانتصار والوحدة القومية. ولكنه أسهم كثيرا فى الخلاف الهائل الذى اكتنف تحديد حدود الهوية السياسية والقومية. وكذلك، وكما سنرى فى الفصل السابع، كان من المفارقات المريرة العديدة لعالم ما بعد الحرب أن نفس العناصر التى حاربت بشدة من أجل إعادة توزيع السلطة جذريًا، هى نفسها التى تحولت إلى طبقات حاكمة متحجرة احتكرت السلطة تمامًا فى وجه التغيرات الاجتماعية والتحديات الأيديولوجية المتصاعدة.

الهوامش

(1) Heinz Lemke, Allianz und Rivalität: Die Mittelmächte und Polen im Ersten Weltkrieg (East Berlin: Akademie-Verlag, 1977), pp. 18-19, 54-73, chaps 3, 6, and passim.

- David Stevenson, The First World War and The International Politics (Oxford: Oxford University Press, 1988), 91-95, 102-103.

- Fritz Fischer, Germany's Aims in the First orld War (New York: Norton, 1967;1961), 189-197, 244-246.

- Wiktor Sukiennicki, East Central Europe during World War I: From Foreign Domination to National Independence (2 vols, Boulder, CO: East European Monographs, 1984), vol. 1, chap. 14 a.

- Jan Molenda, "Social Changes in Poland during World War I," in Béla Kiráy and Nándor Dreisziger, eds, East Central European Society in World War I (Boulder, CO: Social Science Monograph, 1985).

(2) من الجدير بالذكر أيضا أن البحث الإثنوجرافى الألمانى فى أوربا الشرقية المحتلة كان بمثابة مصدر مهم لمعلومات لجنة التحقيق، وهى اللجنة الأمريكية شبه الرسمية المسئولة عن إعداد توصيات التسوية السلمية المستقبلية للحدود القومية.

- Lawrence E. Gelfand, The Inquiry: American Preparations for Peace, 1917-1919 (New Haven, CT: Yale University Press, 1963), 107-108.

(3) Lemke, Allianz, (18-19).

- للاطلاع على مناقشة معاصرة لصالح مزاوجة ألمانيا للمثالية بالواقعية واضطلاعها بدور محرر قوميات أوربا الشرقية، انظر:

- Wilhelm Feldman, Die Zukunft Polens und der Deutsch-polnische Ausgleich (Berlin: Verlag Karl Curtius, September, 1915).

(4) Vejas Gabrielius Liulevicius, "War Land: Peoples, Lands, and National Identity on the Eastern Front in World War I" (Ph.D. diss., University of Pennsylvania, 1994).

(5) Ibid., passim.

(6) من الجدير بالذكر هنا أن استغلال الإثنوجرافيا لتصنيف واختيار الشعوب المحلية كان سمة شائعة للثقافة الإدارية الإمبريالية فى القرنين التاسع عشر والعشرين. انظر المناقشة فى:

- Daniel R. Brower, "Islam and Ethnicity: Russian Colonial Policy in Turkestan," in Daniel R. Brower and Edward J. Lazzerini, eds, Russia's Orient: Imperial Borderlands and Peoples, 1700-1917 (Bloomington and Indianapolis, IN: Indiana University Press, 1997).

Liulevicius, "War Land," chap. 3. (7)

- وانظر أيضا القصة اليديشية التى كتبها:

- Oyzer Varshavski, Shmuglars (Smugglers) (Warsaw and New York: Weissenberg Ferlag, 1921;1920).

Liulevicius, "War Land," (224-234, 260-280). (8)

- Gerd Linde, Die Deutsche Politik in Litauen in Ersten Weltkrieg (Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1965), (89-170).

- Alfred Erich Senn, The Emergence of Modern Lithuania (New York: Colombia University Press, 1959), (25-46).

Aviel Roshwald, "Jewish Cultural Identity in Eastern and Central Europe during the Great war," in Aviel Roshwald and Richard Stites eds, European Culture during the Great War: The Arts, Entertainment, Propaganda, 1914-1918 (Cambridge: Cambridge University Press, 1999). (9)

Steven J. Zipperstein, "The Politics of Relief: The Transformation of Jewish Communal Life during the First World War," in Jonathan Frankel, ed., Jews and the Eastern Europe Crisis, 1914-21 (Oxford: Oxford University Press, 1988). (10)

- David G. Roskics, Against the Apocalypse: Response to Catastrophe in Modern Jewish Culture (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984), 92.

- S. An-sky (Shlomo-Zanvill Rappoport), Der yiddisher khurbn fun Poilen, Galitsye un Bukovina fun tag-buch 1914-1917 (The Jewish Catastrophe in Poland, Galicia, and Bukovin from 1914-1917 Diary), in Gezamelta Shriftn (Collected Writings), vols. 4-6 (Warsaw, Vilnius, New York: An-sky Publishing Company, 1927-1928), vol. 4, p. 11.

- Hans Rogger, Jewish Policies and Right-Wing Politics in Imperial Russia (London: Macmillan, 1986), 100-101.

- يقول «بيتر هولكويست Peter Holquist» إن سياسة روسيا أثناء الحرب تجاه اليهود والألمان العرقيين كانت تعكس أفكارا قديمة سائدة فى الجيش الروسى عن إمكانية استغلال التصنيف العرقى والهندسة الاجتماعية فى تكوين كيان سياسى أكثر تماسكا.

- Peter Holquist, "Total Mobilization and Population Politics: Russia's Deluge (1914-1921) and its European Context," paper presented at "Conference on Russia and the Great War," St. Petersburg, Russia, May 1998.

(11) Sammy Gronemann, Hawdoloh und Zopfenstreich (Berlin: Jüdischer Verlag, 1925), insert after p. 24.

- Zosa Szajkowski, "The German Appeal to the Jews pf Poland, August 1914," The Jewish Quarterly Review, New Series, vol. 59 (1969), 311-320.

(12) Hirsh Abramovich, Farshvundene-geshtalten (zikhroynes und silueten) (Disappeared Figures (Memories and Silhouettes)) (Buenous Aires: Tsentral Ferband fun Poylishe Yiden in Argentine, 1958), (297-299).

- إننى أشكر الراحلة «دينا أبراموفيتش ـ Dina Abramowicz» من معهد (YIVO) للأبحاث اليهودية فى نيويورك لإمدادها إياى بهذا المصدر المفيد.

(13) Ezra Mendelsohn, Zionism in Poland: The Formative years, 1915-1926 (New Haven, CT: Yale University Press, 1981), 77.

- Zosa Szajkowski, "The Struggle for Yiddish during World War I: The Attitude of German Jewry," Leo Baeck Institute Year Book IX (London, 1964), 131-158, 140;

- Abramowich, 'Di Vilner Gezelshaft "Hilf Durch Arbet" and "A yidishe landwirtshaft-shule in Poilen," in Farshvundene-geshtalten, 327-339 and 340-356,

- Ibid, footnote on p. 292.

- Gronemann, Hawdoloh, 84-85; 'Aus dem Arbeitsleben des Rabbiner Dr. Sali Levi" (pamphlet published in mmory of Rabbi Sali Levi by the board of directors of the Jewish community of Mainz, 21 April 1951), 4-6, YIVO Institute for Jewish Research, New York.

(14) Egmont Zechlin, Die deutsche Politik und die Juden im Ersten Weltkrieg (Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht, 1969), chap. 120.

(15) وكان هذا مصحوبا بحملة لتجميع الأموال نيابة عن مستوطنة يهودية محاصرة (ييشوف yishuv) فى فلسطين، والتى كان وجودها الاقتصادى وحتى المادى تحت تهديد السياسات العدائية لجمال باشا.

- Mendelsohn, Zionism, chap. 1.

- Zechlin, Die deutsche Politik und die Juden, 176-178.

- Der Moment (Warsaw-based Yiddish-language daily), 13 July 1917.

- هذا بالإضافة إلى عدة مقالات أخرى عن إغاثة فلسطين، صيف 1917.

- وقد لعب التدخل الدبلوماسى الألمانى، مدفوعا جزئيا بالاهتمام بالرأى العام الأمريكى قبل دخول الولايات المتحدة الحرب فى أبريل 1917، دورا حيويا فى إنقاذ المستوطنة من الترحيل الجماعى.

- Isaiah Friedman, Germany, Turkey, and Zionism, 1897-1918 (Oxford: Oxford University press, 1977), part III.

Szajkowski, "The Struggle for Yiddish", 147. (16)

- Steven E. Aschheim, Brothers and Strangers: The East European Jew in German and German Jewish Consciousness, 1800-1923 (Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1982), (165-168).

- Zechlin, Die deutsche Politik und die Juden, chaps 9-11.

- Gershon C. Bacon, "The Poznanski Affair of 1921: Kehillah Politics and the Internal Political Realignment of Jewish Jewry," in Frankel, ed. The Jews and the European Crisis.

- ...., "Agudat Israel in Interwar Poland," in Yisrael Gutman, Ezra Mendelsohn, Jehuda Reinbarz, and Chone Shmeruk, eds, The Jews of Poland between Two World wars (Hanover, NH: University Press of New England, 1989).

- Robert Moses Shapiro, "Aspects of Jewish Self-Government in Lodz, 1914-1939," in Antony Polonsky, ed., From Slitelt to Socialism: Studies from Polin (London and Washington, DC: Littman Library, 1993).

- Mark levene, War, Jews, and the New Europe: The Diplomacy of Lucien Wolf, 1914-1919 (Oxford: Oxford University Press, 1992, (175-176).

Linde, Die Deutsche Politik in Litauen, (71-79). (17)

- Lemle, Allianz und Realität, 288-290.

Aschheim, Brothers and Strangers, (157-160, 163). (18)

- Szajkowski, "The Struggle for Yiddish".

- ...., "The Komitee fuer den Osten und Zionism," in Raphael Patai, ed., Herzl Year Book, vol. 7 (New york, 1971), (199-240).

(19) فيلنا Vilnaعبارة عن الكتابة الإنجليزية للنطق اليدى لاسم مدينة فيلنوس.

Nahma Sandrow, Vagabond Stars: A World History of Yiddish Theater (New York: Harper & Row, 1977), chap. 8. (20)

- Gronemann, Hawdoloh, (195-198).

- Luba Kadison and Joseph Buloff, with Irving Genn, On Stage, Off Stage: Memories of a Lifetime in the Yiddish Theatre (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992), (6-10).
- Liulevicius, "War Land," (185-186).

(21) وحتى هذه الإشارة المقيدة لحكم القانون فى أوربا الشرقية التى تحتلها ألمانيا لا تزال فى حاجة إلى مزيد من التقييد. فليس لها معنى إلا فى الإطار المحدود للمقارنة مع الإدارة الروسية السابقة لهذه الأراضى. وقد صورت الفجوة الكبيرة جدا التى تفصل الممارسة القضائية السلطوية الجامدة للجيش الألمانى عن أى إحساس حقيقى بالعدالة بصورة مريرة فى القصة التالية:

- Arnold Zweig, The Case of Sergeant Grisha.

والتى نشرت بالألمانية فى 1927، وناقشها :

- Liulevicius, "War Land," (93-94).

حيث كان آرنولد تسفايج يعمل كضابط ملحق على القسم الصحفى فى إدارة «الشرق الأعلى».

(22) Gronemann, Hawdoloh, 169-173.

(23) Liulevicius, "War Land", 233.

- Linde, Die Deutsche Politik in Litauen, (37-39).

(24) Tim Judah, The Sevbs: History, Myth and the Destruction of Yugoslavia (New Haven, CT: Yale University Press, 1997), chaps, (3-4).

(25) The Other Balkan Wars: A 1913 Carnegie Endowment Inquiry in Retrospect with a New Introduction and Reflections on the Present Conflict by George F. Kennan (Washington, DC: Carnegie Foundation for International Peace, 1993), passim.

- Barbara Jelavich, History of the Balkans, vol., 2: Twentieth Century (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), (95-100).

(26) C.E.J. Fryer, The Destruction of Serbia in 1915 (New York: East European Monographs, 1997), chaps (2-6, 12, 14).

- Dragan Zivojinoviç, "Serbia and Montenegro: The Home Front, 1914-18".
- Dimitrije Djordjeviç, "Vojvoda Putnik, The Serbian High Command, and Strategy in 1914," in Király and Dreisziger, eds, East Central European Society, 239-245.
- Jelavich, History of the Balkans, vol., 2, 115.

- John Reed, The War in Eastern Europe (New York: Charles Scribner's Sons, 1916), (42-49, 57-74).
- John Clinton Adams, Flight in Winter (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1942), passim.
- Stilyan Noykov, "The Bulgarian Army in World War I, 1915-18," in Király and Dreisziger, eds, East Central European Society.
- John Lampe, Yugoslavia as History: Twice There Was a Country (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), (102, 107-108).
- Evelina Kelbetcheva, "Between Apology and Denial: Bulgarian Culture during World War I," in Roshwals and Stites, eds, European Culture.
- Andrew Wachtel, "Culture in the South Slavic LANDS, 1914-1918," IN IBID, 209.
- Zbynek Zeman, The Break-up of the Habsburg Empire, 1914-1918 (London: Oxford University Press, 1961), 60.
- Dragolioub Yovanovitch, Les Effets économiques et sociaux de la guerre en Serbie (Paris: Les Presses Universitaires de France, 1930), chap. 7.

Zivojinoviç, "Serbia and Montenegro," 252. (27)

Geoff Eley, "Remapping the Nation: War, Revolutionary Upheaval, and State Formation in Eastern Europe, 1914-1923," in Peter J. Potichnyj and Howard Aster, eds, Ukrainian-Jewish Relations in Historical Perspective (Edmonton: Canadian Institute of Ukrainian Studies, University of Alberta, 1988, 2nd edn 1990). (28)

Fischer, Germany's Aims, 120-138. (29)

Mark von Hagen, "The Great War and the Mobilization of Ethnicity in the Rus sian Empire," In Barnett R. Rubin and Jack Snyder, eds, Post-Soviet Political Order: Conflict and State Building (London: Routledge, 1988). (30)

- Oleh Fedyshyn, "The Germans and the Union for Liberation of the Ukraine, 1914-1917," in Taras Hunczak, ed., The Ukraine, 1917-1921: A Study in Revolution (Cambridge, MA: Harvard Ukrainian Research Institute, 1977).
- Oleh Fedyshyn, Germany's Drive to the East and the Ukrainian Revolution, 1917-1918 (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1971), 26, 30-41.

Tadeusz Swietochowski, Russian Azerbaijan, 1905-1920: The Shaping of National Identity in a Muslim Community (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), 77-81. (31)

(32) Juozas Gabrys, Ober-Ost: le plan annexionniste allemand en Lithuanie (Lausanne: Bureau d'information de Lithuanie, 1917).

- Auguste Henri Forel, Für ein freies Lettland im freien Russland! (Basel: Latvija-verlag, 1917).
- Mykhailo Lozymskyi, Les "droits" de la Pologne sur la Galicie: exposè... (Lausanne: Bureau ukrainien, 1917).

(33) Sukiennicki, East Central Europe, vol. (1, 217-239).

- Fedyshyn, " The Germans and the Union for Liberation of the Ukraine," 314.
- C.A. Macartney, National States and National Minorities (London: Oxford University Press, 1934), 183.

(34) وعلى سبيل المثال، اتهمت بعض منظمات المهاجرين الليتوانيين مجلس تاريبا Taryba بالتعاون مع الألمان. انظر:

- Liulevicius, "War Land," 266.
- Senn, Emergence of Modern Lithuania, (26-27, 38-39).

(35) Zbynek Zeman with Antonín Klimek, The Life of Edward Benes: 1884-1848. (Oxford: Clarendon Press, 1997), chap. 2.

(36) قدمت هذه الحجة إلى وزارة الخارجية البريطانية عن طريق روبرت سيتون . واطسون فى مايو 1915 انظر:

- Kenneth J. Calder, Britain and the Origins of the New Europe, 1914-1918 (Cambridge: Cambridge University Press, 1976), 810.

(37) Erik Goldstein, Winning the Peace: British Strategy, Peace Planning, and the Paris Peace Conference, 1916-1920 (Oxford: Clarendon Press, 1991), (3-4, 117-119, 123-140, 257-259).

(38) بالرغم من أن ويلسون لم يتبن التقسيم الكامل لإمبراطورية هابسبورج حتى سبتمبر 1918، فإنه عبر عن تعاطفه مع القضية التشيكية فى وقت مبكر حوالى 1889.

- Victor Mamatey, The United States and East Central Europe, 1914-1918: A Study in Wilsonian Diplomacy and Propaganda (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1957), (13-14).

(39) Calder, Britain, chap. 7 and passim.

(40) Josef Kalvoda, The Genesis of Czechoslovakia (Boulder, CO: East European Monographs, 1986), chap. 5.

(41) Roman Szporluk, The Political Thought of Thomas G. Masaryk (Boulder, CO: East European Monographs, 1981), 141.

- Jaroslav Krejci and Pavel Machonin, Czechoslovakia, 1918-92: A Laboratory for Social Change (London: Macmillan, 1996), (9-10).

- تقابل مساريك أيضا بعد سنة فى بيتسبرج مع قادة المجتمع الروتينى المجرى المهاجر، الذين وافقوا على إدماج إمارتهم المحلية المعروفة باسم إمارة «روس الكارابات الأدنى «Subcarpathian Rus» كإقليم مستقل ذاتيا فى الدولة التشيكوسلوفاكية المرتقبة.

- Paul Robert Magocsi, The Rusyns of Slovakia: An Historical Survey (New York: East European Monographs, 1993), 59.

- D. Perman, The Shaping of the Czechoslovak State: Diplomatic History of the Boundaries of Czechoslovakia, 1914-1920 (Leiden: Brill, 1962), (26-27).

- قدم مساريك تقريرا دفاعيا عن إعلان بيتسبرج سلم فيه بأن «الإعلان» تحدث عن الاستقلال الذاتى لسلوفاكيا، ولكنه أنكر التزامه بالتوقيع على الوثيقة، لمراجعة التقرير انظر:

- Thomas Garrigue Masaryk, The Making of a State: Memories and Observations, 1914-1918 (New York: Frederick A. Stokes, 1927), (220 ،221).

(42) Thomas G. Masaryk, The New Europe (The Slav Standpoint) (Lewisburg: Bucknell University Press, 1972, first edn, 1918), 138.

(43) Ibid.

- Szporluk, Political Thought, 139.

(44) Michael Ignatieff, Blood and Belonging: Journeys into the New Nationalism (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1993), (21-22).

- يبدو أن «إدوارد بينيس Edvard Benes» كان أقل حساسية لتمييز الهوية السلوفاكية.

- William V. Wallace, "Masaryk and Benes and the Creation of Czechoslovakia: a Study in Mentalities," in Harry Hanak, ed., T.G. Masaryk (1850-1937), vol. 3 (New York: St. Martin's Press, 1990), (77-78).

(45) Derek Sayer, The Coasts of Bohemia: A Czech History (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998), 171,

- Zeman, Life of Benes, (24-25).

(46) Stanislav J. Kirschbaum, A History of Slovakia: The Struggle for Survival (New York: St. Martin's Press, 1995), 150-152.

(47) Gale Stokes, "The Role of the Yugoslav Committee in the Formation of Yugoslavia".

- Milorad Ekmeciç, "Serbian War Aims," in Dimitrije Djordjeviç, ed., The Creation of Yugoslavia 1914-1918 (Santa Barbara, CA and Oxford: Clio Press, 1980).

(48) Ibid., "Introduction".

- Calder, Britain, 78 and chap. 5.
- Ivo J. Lederer, "Nationalism and the Yugoslav," in Peter F. Sugar and Ivo John Lederer, eds, Nationalism in Eastern Europe (Seattle, WA: University of Washington Press, 1994; 1969), (429, 430).

(49) Seton-Watson to Foreign Office (1 October 1914), in Hugh and Christopher Seton-Watson, Ljubo Boban, Mirjana Gross, Bogdan Krizman, and Dragovan ·epiç, eds, R.W. Seton-Watson and the Yugoslavs: Correspondence, 1906-1941. Vol. 1: 1906-1918 (London: British Academy, 1976), (180-1860).

- بمجرد أن اتخذ مساريك موقفا واضحا لصالح استقلال تشيكوسلوفاكيا، لجأ أيضا إلى حجة حق الدولة التاريخى لبوهيميا لتبرير مطالبته بأقاليم حيوية إستراتيجيًا، ولكنها مأهولة بالألمان.

(50) Ekmeciç, "Serbian War Aims," 20-32.

- Dragan Zivojinoviç, "Serbia and Montenegro: The Home Front, 1914-18," in Király and Dreisziger, eds, East Central European Society, 242.
- Lampe, Yugoslavia as History, (100-101).
- Stokes, "Role of the Yugoslav Committee".
- Ivo Banac, The National Question in Yugoslavia: Origins, History, Politics (Ithaca, NY and London: Cornell University Press, 1984), 202-209.

(51) Smodlaka to Seton-Watson (29 April 1911) in H. and C. Seton-Watson, Seton

- Watson and the Yugoslavs, (82-83).

(52) The Times (London), 24 and 26 June 1915.

- ليس كل من رأى التماثيل أحبها. وقد نشرت التايمز فى 30 يونيو 1915، خطابا من الشاعر «سيلفين إميدج - Selwyn Image» يهاجم عمل «ميستروفيتشو - Mestrovic » ويعتبره «متصلبا، وبدائيا، وغير متبلور، بل ومشوهًا ...»، ويعترض على الرعاية الرسمية للمعرض.

(53) Seton-Watson to Mabel Gruckic 15 March 1915), in H. and C. Seton-Watson, Seton-Watson and the Yugoslavs, (199-205).

(54) H. and C. Seton-Watson, "Introduction," in Seton-Watson and the Yugoslavs, 25.

(55) Supilo to Seton-Watson (31 December 1916) in ibid., (286, 287).

(56) Supilo to Seton-Watson (26 May 1917) in H. and C. Seton-Watson, Seton-Watson and the Yugoslavs, (294-295).

- Stokes, "Role of the Yugoslav Committee," (57, 58).

(57) David MacKenzie, APIS: The Congenial Conspirator: The Life of Colonel Dragutin T. Dimitrijeviç (boulder, CO: East European monographs, 1989), chap. 16-25.

(58) Stokes, "Role of the Yugoslav Committee," (58, 59).

- Seton-Watson to Intelligence Bureau (1 June 1917).

- Milorad Dra%okoviç (Serbian opposition deputy) to Seton-Watson (21 September 1918), and Seton-Watson to Foreign Office (4 October 1918), in H. and C. Seton-Watson, Seton-Watson and the Yugoslavs, 296-298, 336-339, and 350-355.

(59) Stokes, "Role of the Yugoslav Committee," 58.

- Lampe, Yugoslavia as History, (60-64, 102-104, 108-111).

- Mamatey, The United States and East Central Europe, chap. 4.

- Judah, The Serbs, (104-106).

(60) تمثل أحد أكثر أهداف دموفسكى اتساقا فى ضم مناطق شاسعة يحكمها الألمان إلى الدولة البولندية المرتقبة. وكانت هذه الأراضى تشمل «سيليزيا العليا . Upper Silesia» «وبوزنان . Poznan» وبروسيا الغربية وبروسيا الشرقية (والتى كانت المنطقة الشمالية منها التى يقطنها الألمان فقط ستحصل على قدر ما من الحكم الذاتى) وجزء من بوميرانيا Pomerania.

- Roman Dmowski, Problems of Central and Eastern Europe (London: privately printed, 1917), 66-75.

(61) Paul Latawski, "The Discrepancy Between State and Ethnographic Frontiers: Dmowski and Masaryk on Self-determination," in Hanak, ed., Masaryk.

- ...., "Roman Dmowski and Western Opinion," in Latawski, ed., The Reconstruction of Poland, 1914-23 (New York: St. Martin's Press, 1992).

- Alvin Marcus Fountain III, Roman Dmowski: Party, Tactics, Ideology 1895-1907 (Boulder, CO: East European Monographs, 1980), 110.

- تحالف عدد كبير من المنظمات والشخصيات اليهودية ضد الاعتراف الغربى باللجنة القومية البولندية التابعة لدموفسكى، وذلك لصالح تكوين إطار سياسى فى بولندا يستطيع حماية حقوق الأقليات بعد الحرب.

- Eugene Black, "Lucien Wolf and the Making of Poland: Paris, 1991," in Antony Polonsky, ed., From Shtetl to Socialism: Studies from Polin (London and Washington, DC: The Littman Library of Jewish Civilization, 1993), 274-275 and 291, nos. 24 and 25.

- Eugene Black, "Squaring a Minorities Triangle: Lucien Wolf, Jewish Nationalists and Polish Nationalists," in Latawski, ed., The Reconstruction of Poland, (1914, 23, 22-23).

- وقد حظيت اللجنة القومية البولندية ببعض التعاطف من عدد من كبار المسئولين الكاثوليك المحافظين فى الخارجية البريطانية.

- Levene, War, Jews, 190.

(62) Levene, War, Jews, (188-190).

(63) Adam Zamoyski, Paderewski (New York: Atheneum, 1982), chaps (10-12).

- Andrzej Garlicki, J?zef Pilsudski, 1867-1935, ed., abridged, and trans. from Polish by John Coutrouvidis (Aldershot: Scolar Press, 1995), (89, 90).

- Zeman, Break-up of the Habsburg Empire, (195-196).

- يعتمد هذا الجزء كثيرا على المجلدين الأخيرين من عمل ديفيد فيتال الكبير المكون من ثلاثة مجلدات عن تاريخ الصهيونية.

(64) David Vital, Zionism: The Formative Years (Oxford: Clarendon Press, 1982).

- ...., Zionism: The Crucial Phase (Oxford: Clarendon Press, 1987).

(65) Steven J. Zipperstein, Elusive Prophet: Ahad Ha'am and the Origins of Zionism (Berkeley, CA: University of California Press, 1993), chaps (3, 4).

- يشير زيبرشتاين إلى أن نمط «أحاد هاعام Ahad Ha'am» فى النخبوية الثقافية كان فى العديد من جوانبه، مثل تساؤله حول الديمقراطية البرلمانية، شاذا ويتعارض مع التيار الثقافى العام للصهيونية الثقافية، المرجع السابق، ص (153-150).

(66) Neville Mandel, The Arabs and Zionism before World War I (Berkeley, CA: University of California Press, 1976), xxiv.

- فى أثناء الحرب العالمية الأولى، كان إجمالى السكان اليهود فى فلسطين منخفضا عند حوالى 60 ألف نسمة، بينما كان السكان العرب فيما كانت ستصبح فلسطين تحت الانتداب حوالى 600 ألف نسمة فى 1914.

- Muhammad Muslih, The Origins of Palestinian Nationalism (New York: Colombia University Press, 1988), (13, 14).

(67) Isaiah Friedman, Germany, Turkey and Zionism, 1897-1918 (Oxford Clarendon Press, 1977), chaps 11-16, esp. chap. 16.

(68) Jehudah Reinharz, Chaim Weizmann: The Making of a Zionist Leader (New York and Oxford: Oxford University Press, 1985), chaps 3-4 and 10-11.

- ...., Chaim Weizmann: The Making of a Statesman (New York and Oxford: Oxford University Press,1993), chaps (1-6).

- Vital, Zionism: The Crucial Phase, (156-166).

Isaiah Friedman, The Question of Palestine, 1914-1918, British-Jewish-Arab (69) Relations (New York: Schocken Books, 1973), passim.

- Leonard Stein, The Balfour Declaration (New York: Simon & Schuster, 1961), chap. 17.

Friedman, Question of Palestine, 279. (70)

(71) ولكن لاحظ نجاح المطلب الصهيونى فى بولندا فى 1917 كما وصفناه سلفا فى هذا الفصل.

Vital, Zionism: The Crucial Phase, (251-252). (72)

Ibid., (271-280). (73)

- Levene, War, Jews, 2-7, chaps (5-7).

- David Stevenson, The First World War and International Politics (Oxford: Oxford University Press, 1988), 178.

- تم حل «اللجنة الموحدة Conjoint Committee» لمجرد أن يعاد تشكيلها فى ديسمبر 1917 باسم «اللجنة الخارجية المشتركة Joint Foreign Committee».

Von Hagen, "The Great War and the Mobilization of Ethnicity," 14. (74)

- Fedyshyn, "The Germans and the Union for the Liberation of the Ukraine," 315-319.

- Anthony A. Upton, The Finnish Revolution, 1917-1918 (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1980), (20-25).

(75) كانت «قوات المتطوعين الصرب» مسئولة أمام سلطات الحكومة الصربية فى المنفى. وعقب انتشارها ضد القوات البلغارية على جبهة دوبروديا Dobrudja الرومانية فى 1916، حيث عانت بشدة من خسائر جسيمة، تخلى معظم الضباط والجنود الكروات والسلوفينيين الباقين من هذه القوات عنها بسبب السخط على الشوفينية العرقية ومعاداة اليوغسلافية لدى قادتهم الصرب.

- Ivo Banac, "South Slav Prisoners of War in Revolutionary Russia," in Samuel R. Williamson and Peter Pastor, eds, Essays on World War I: Origin and Prisoners of War (New York: East European Monographs, 1983).

- Richard B. Spence, "Yugoslavs, the Austro-Hungarian Army, and the First World War" (Ph.D. diss., University of California at Santa Barbara, 1981), chap. 6.

John EN. Bradley, The Czechoslovak Legion in Russia, 1914-1920 (Boulder, (76) CO: East European Monographs, 1991), 14.

- Rowan A. Williams, " The Czech Legion Revisited," East Central Europe, vol. 6, pt. 1 (1979), (20-39).

Josef Kalvoda, "The Origins of the Czechoslovak Army, 1914-18," in Király (77) and Dreisziger, eds, East Central European Society, 423.

- Josef Kalvoda, "Czech and Slovak Prisoners of War in Russia during the War and Revolution," in Samuel R. Williamson, Jr. and Peter Pastor, eds, Essays on World War I: Origins and Prisoners of War (New York: East European Monographs, 1983).

Kalvoda, "Czech and Slovak Prisoners of War," (229-234). (78)

- كما يشير كلافودا، كانت الصدامات بين الفرقة التشيكوسلوفاكية والمجريين البلشفيين والألمان النمساويين تثير تصور أن حرب الهابسبرج الأهلية تدور على الأراضى الروسية. وكان التهديد الذى تمثله المنظمة البولندية المسلحة (POWs) ضد الألمان والمجريين يتزايد بسبب دعاية الفرنسيين والبيلاروس التى هدفت إلى ضمان مشاركة الأمريكيين فى التدخل ضد البلاشفة فى الحرب الأهلية الروسية.

- George F. Kennan, Soviet-American Relations, 1917-1920, vol. 2: The Decision to Intervene (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1958), (400-403).

- Betty Miller Unterberger, The United States, Revolutionary Russia, and the Rise of Czechoslovakia (Chapel Hill, NC: The University of North Carolina Press, 1989), chaps (12-15).

Zeman, Break-up of the Habsburg Empire, chap. 7. (79)

- Kennan, Soviet-American Relations, chaps (12-13 and 17).

Rowan A. Williams, "The Odyssey of the Czechs," East European Quarterly, (80) vol. 9, no. 1 (Spring 1975), (15-38).

Claire Notle, "Ambivalent Patriots: Czech Culture in the Great War," in Rosh (81) wald and Stites, eds, European Culture, 168.

Arne Novak, Czech I terature, trans. Peter Kussi (Ann Arbor, MI: Michigan (82) Slavic Publications, ›76), (288-291).

- ويجب أن نشير هنا إلى أن تجارب الفرقة فى سيبيريا أدت إلى ظهور أدب قصصى مناهض للحرب، المرجع السابق.

Leonard Ratajczky, "The Evolution of the Polish Army, 1914-22." (83)

- Leonard Ratajczky, "Development of the Polish Officer Corps in World War I".

- Leslaw Dudek, "Polish Military Formations in World War I," in Király and Dreisziger, eds, East Central European Society.

- Harold Segel, "Culture in Poland During World War I," in Roshwald and Stites, eds, European Culture.

Ratajczky, "The Evolution of the Polish Army," (40-441). (84)

- M. Kamil Dziewanowski, "Polish Society in World War I: Armed Forces and Military Operations," in Király and Dreisziger, eds, East Central European Society, 488.

- Garlicki Pilsudski, chap. 4.

Dziewanowski, "Polish Society," 489. (85)

- Norman Davies, God's Playground: A History of Poland, vol., 2 (New York: Colombia University Press, 1982), 381-385.

Dziewanowski, "Polish Society," (489-493). (86)

- Garlicki Pilsudski, chap. 4 and p. 88.

- R.F. Leslie, Antony Polonsky, Jan M. Ciechanowski, and Pelcznski, eds, The History of Poland since 1863 (Cambridge: Cambridge University Press, 1980), 116-127.

- M. Kamil Dziewanowski, Joseph Pilsudski: A European Federalist, 1918-1922 (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1969), 56-57.

- Sukiennicki, East Central Europe, vol. 1, chaps 14, 18, and 29 and pp. 333-342.

- Davies, God's Playground, (385-392).

Dziewanowski, "Polish Society," 488. (87)

- Ratajczky, "The Evolution of the Polish Army," 444.

Ibid, 445. (88)

Zeman, Break-up of the Habsburg Empire, (154-157). (89)

- Sukiennicki, East Central Europe, vol. (1, 540-565).

Ratajczky, "The Evolution of the Polish Army," (444-447). (90)

- Dziewanowski, "Polish Society," (494-496).

- Sukiennicki, East Central Europe, vol. 2, chap. 27.

Lew Shankowsky, "Disintegration of the Imperial Russian Army in 1917," The Ukrainian Quarterly, XIII, 4 (December 1957), 303. (91)

See Chapter 7. (92)

(93) Garlicki, Pilsudski, 73.

(94) Ibid. 74.

(95) William Ochsenwald, "Ironic Origins: Arab Nationalism in the Hejaz, 1882 1914," in Rashid Khalidi, Lisa Anderson, Muhammad Muslih, and Reeva S. Simon, eds, The Origin of Arab Nationalism (New York: Colombia University Press, 1991).

- Ernest Dawn, From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism (Urbana, IL: University of Illinois Press, 1973), chaps 1-4.

(96) Ibid.

(97) Ochsenwald, "Ironic Origins".

- Dawn, Ottomanism to Arabism, chap. 3.

- Zeine N. Zeine, The Struggle for Arab Independence (2nd edn, Delmar, NY: Caravan Books, 1977; 1960), chap. 1.

كانت إحدى محاسن الشريف حسين من وجهة نظر السلطات البريطانية فى مصر؛ أنه كان مضادا لدعاية الوحدة الإسلامية العثمانية. ومن ناحية أخرى، فإن حكومة الهند البريطانية (الراج . the Raj) التى تورطت فى التنافس مع القاهرة على النفوذ والسلطة فى الجزيرة العربية والعراق (حيث كان الراج مسئولا عن الحملة ضد العثمانيين) كانت تخشى من أن المساندة البريطانية للثورة ضد الخليفة العثمانى يمكن أن تثير اضطرابات بين مسلمى الهند.

- Briton Cooper Busch, Britain, India, and the Arabs, 1914-1921 (Berkeley, CA: University of California Press, 1971), chaps (2, 4, 5).

- Bruce Westrate, The Arab Bureau: British Policy in the Middle East, 1916-1920 (University Park, PA: Pennsylvania State University Press, 1992), chap. 4.

(98) Eliezer Tauber, The Arab Movements in World War I (London: Frank Cass, 1993), chap. 3.

- Zeine, Struggle for Arab Independence, 22.

واعترف البريطانيون أيضا بحسين كملك للحجاز. أما مسألة دخول فلسطين فى النطاق المرتقب للاستقلال العربى، فقد ظلت موضع جدال، بسبب التعبيرات الغامضة للوثائق. إذ إن اتفاقية سايكس-بيكو بين بريطانيا وفرنسا فى 1916، اتفقت على تقسيم المنطقة إلى مجالات نفوذ، والتزامها أمام الصهاينة بحسب بنود وعد بلفور، الأمر الذى ساهم فى

تكوين إطار دبلوماسى شديد التعقيد فاقم من التوترات بين المتصارعين على الأرض والسلطة فى الشرق الأوسط.

- Friedman, Question of Palestine, chap. 6.
- ...., "The McMahon-Hussein Correspondence and the Question of Palestine," Journal of Temporary History, vol. 5, no. 2 (1970), (83-122).
- Arnold Toynbee and Isaiah Friedman, " The McMahon-Hussein Correspondence: Comments and a Reply," Journal of Contemporary History, vol. 5, no. 4 (1970), (185-201).
- Elizabeth Monroe, Britain's Moment in the Middle East, 1914-1971 (2nd edn, London: Chatto & Windus, 1981; 1963), (26-37).

Mary Wilson, "The Hashemites, the Arab Revolt, and Arab Nationalism," in (99) Khalidi et al., eds, Origins of Arab Nationalism.

Tauber, The Arab Movements, chap. 5. (100)

أثبت العديد من أسرى الحرب الذين أرسلوا من معسكرات الاعتقال فى الهند إلى الحجاز عدم رغبتهم فى الانضمام لقوات الأشراف أو الفرقة العربية التى كانت السلطات البريطانية تحاول تنظيمها، مما دفع سلطات القاهرة إلى اتهام الراج، الذى عارض رعاية القاهرة للثورة، بالتخريب المتعمد لجهود التجنيد.

- Westrate, The Arab Bureau, (90, 91).

Tauber, The Arab Movements, chap. 5. (101)

Ibid., (134-144). (102)

Elie Kedourie, "The Capture of Damascus, 1 October 1918," in idem, The Chat (103) ham House Version and Other Middle Eastern Studies (Hanover, NH: University Press of New England, 1984 edn).

الفصل السادس

تعيين حدود الأمة

1918م- 1923م

كانت نهاية الحرب العظمى بمثابة نهاية بالمثل لثلاث إمبراطوريات متعددة القوميات، وظهر مكانها عدد من الكيانات الجديدة ذات حدود غير مؤكدة وهويات غير محددة بوضوح. وتعرض كثير من هذه الكيانات الجديدة للتخريب بسبب الصراعات الأهلية والحروب بين الدول لسنوات عدة تلت.

وفى المناطق التى كان يتوقف فيها القتال مبكرًا، فإن السلام لم يكن يستعيد الاستقرار تلقائيًا. كما أن الضغوط الاقتصادية - التى كبحت جماحها السيطرة الحكومية خلال الحرب - انفجرت بعنف فى أعقاب القتال. وكان التضخم مرتفعًا فى كل مكان، ووصل إلى نسب فلكية فى الكثير من أجزاء أوربا الشرقية. ولم تستطع الاقتصادات المتضررة إعادة استيعاب ملايين الجنود واللاجئين الذين عادوا إلى ديارهم. وكانت الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية التى أعقبت الحرب بنفس عنف الصراع العسكرى الذى اجتاح القارة وانتهى لتوه. وفى وسط هذا النوع من قوى التفسخ والانحلال كان لا بد من اتخاذ قرارات بعيدة المدى بشأن حدود الهوية فى الكيانات الجديدة.

وعلى الرغم من أن الحدود الجديدة كانت تبرر على أنها انعكاس لهويات أو معايير إثنوجرافية موضوعية موجودة سلفًا، فإن عملية رسمها فعليًا لعبت دورًا قويًا فى تشكيل الكيانات القومية، وفى تغيير أو تحديد شروط الجدل الدائر حول القومية. وكانت ثمة مشكلة تتمثل فى أن معظم المجموعات العرقية لم تكن متراصة فى تجمعات إقليمية متناسقة، إذ كانت اللغات والثقافات والأديان منتشرة ومتداخلة بصورة مربكة عبر الأقاليم التى تناولناها. وكانت التصورات

الجاهزة عن التوافق بين الأمة والدولة بعيدة جدًا عن الحقائق الإثنوجرافية التى واجهتها الدول الجديدة. ففى الواقع كان تعيين الحدود يمثل تحديًا متعدد الأبعاد، وكانت الخطوط الفاصلة بين الدول المتجاورة أبرز مجالات الخلاف. وهناك قضية أخرى تتعلق بممارسة وتقسيم السيادة داخل الدول، فهل يجب منح الأقليات العرقية مناطق مستقلة محددة إقليميًا، أم استقلالا ذاتيًا داخليًا، أو عدم الاعتراف الجماعى بها مطلقًا؟ وهل يجب منح المواطنة والمساواة القانونية الكاملة لكل الذين يقيمون داخل الإقليم الذى تدعيه الدولة، أم يجب رسم الحدود - المرئية أو غير المرئية - حول مجموعات معينة تبدو غريبة على الكيان؟ وبالعكس، فى الحالات التى يعتبر الناس فيها أنفسهم أمة واحدة منفصلة عن بعضها بحدود «مصطنعة» كيف يمكن تخطى مثل هذه الحواجز الحدودية؟

كانت الاستجابات السياسية والمؤسسية على هذه المعضلات مرتجلة ومتعجلة فى أعقاب الحرب مباشرة، وسط صدامات عنيفة بين المصالح المتصارعة وملابسات الاضطراب والفوضى. ومع ذلك، ظل العديد من الترتيبات الناتجة عن ذلك قائمًا لسنوات تالية، مع تداعيات بعيدة المدى للتطور اللاحق للكيانات السياسية العرقية والأيديولوجيات القومية فى شرق أوربا الوسطى، وروسيا، والشرق الأوسط.

. تعيين الحدود فى شرق أوربا الوسطى

كانت أحداث أكتوبر - نوفمبر 1918، فى شرق أوربا الوسطى خليطًا مثيرًا من الانهيار المفاجئ، والدراما الشديدة، والفوضى غير القابلة للسيطرة. ففى غضون أسابيع قليلة فقط، تحولت الخريطة السياسية للإقليم بصورة يصعب التعرف عليها. وقد قبل القيصر كارل الأول (فى27 أكتوبر) خروج التشيك والبولنديين والسلاف الجنوبيين من حظيرة الإمبريالية النمساوية المجرية، وسلم السلطة فى 1 انوفمبر إلى الجمهورية النمساوية المعلنة حديثًا، والتى تكونت فى الشق الألمانى من الإمبراطورية السابقة[1]، وذلك بعد الهروب الجماعى لقواته، واستيلاء اللجان القومية على السلطة فى عواصم المقاطعات، واستجابة القوى الحليفة والمشتركة لعروضه الدبلوماسية اليائسة بإحالته بصورة مهذبة إلى تلك اللجان القومية. وفى الشمال، جسدت هزيمة ألمانيا على أيدى القوى «الغربية» نهاية

إمبراطوريتها، قصيرة العمر، فى أوربا الشرقية، بالرغم من أن وحدات «القوات الحرة الألمانية» ظلت نشطة فى إقليم البلطيق حتى السنة التالية (ظاهريا كقوة متطوعين ضد البلاشفة)[2]. وفى الشرق، كانت الحرب الأهلية والعرقية قد استنزفت الكيان الروسى.

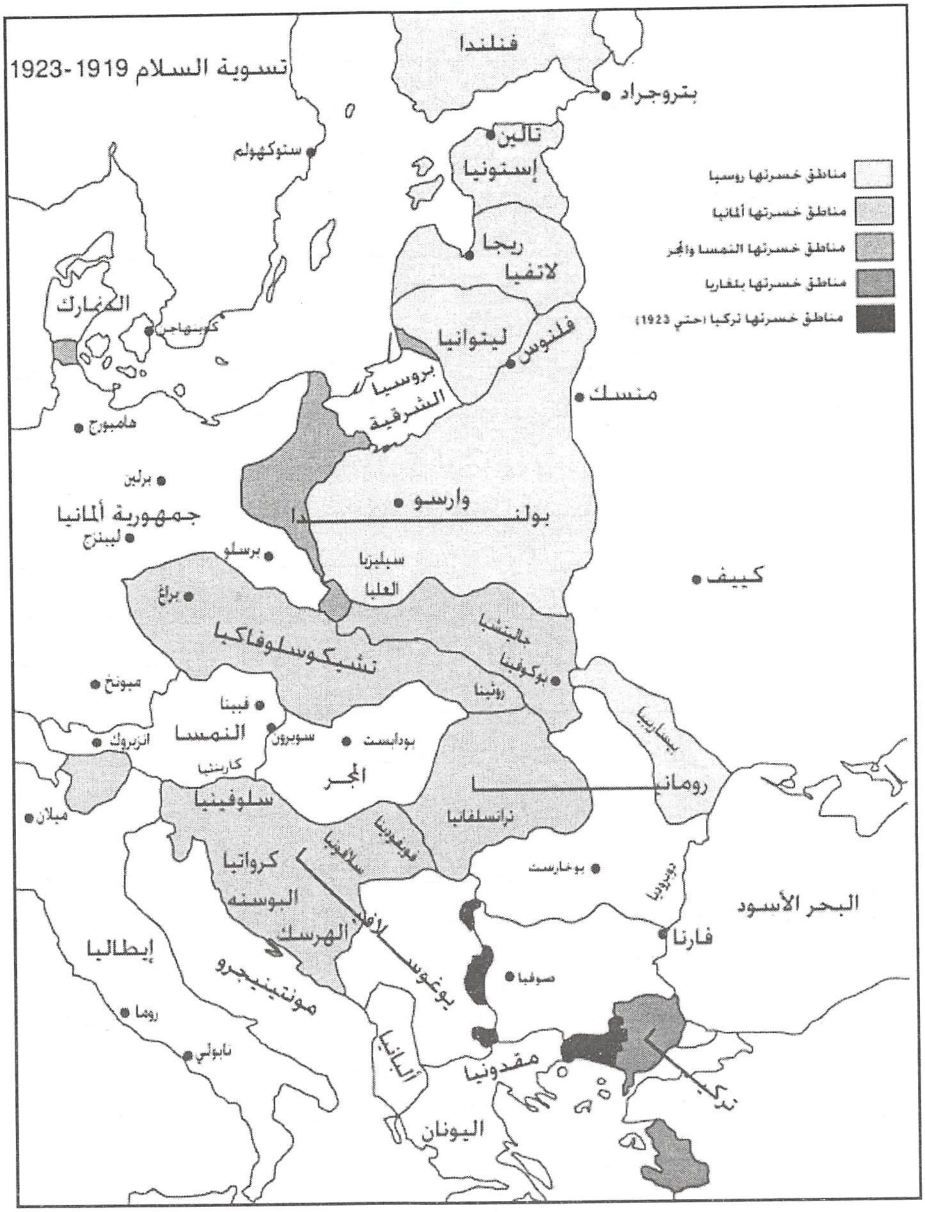
وفى ظل فجائية الانهيار النهائى «لقوى المركز» أصبح موقع السلطة السياسية داخل العديد من الدول المعلنة حديثًا موضع نزاع شديد، كما كان الحال بالنسبة لتعيين الحدود فيما بينها. وكان إرساء البنى الإدارية ورسم الحدود عبر الإقليم أمرًا يعتمد على الترتيبات المؤقتة والخطط المتعجلة، وكان كل ذلك موضع مواجهات عنيفة فى كثير من الأحيان.

وتراوحت الكيانات السياسية التى تورطت فى هذه الصراعات على الشرعية والسيطرة فى طبيعتها من الحكومات المؤقتة المشكلة ذاتيًا والتى يكوِّنها المهاجرون وقادة المقاومة وقت الحرب، إلى حكومات الدول القومية الموجودة سلفًا، والتى تحاول الآن أن تستفيد من الدعاوى التحررية طويلة الأجل فى الأقاليم الإمبريالية. ففى بولندا، أطلق الألمان بلسودسكى من السجن وقلدوه السلطة، فى حين مثلت «اللجنة القومية البولندية» التابعة لدموفسكى مصالح البلاد فى باريس، وعاد قادة «المجلس القومى التشيكوسلوفاكى» التابع لمساريك إلى براغ باعتبارهم الحكومة المؤقتة الجديدة للبلاد، والتى تعترف بها الأحزاب التشيكية الكبرى، وببيان أكثر عمومية لمساندة الوحدة التشيكية السلوفاكية من «المجلس القومى السلوفاكى» المعلن ذاتيًا، والذى كان يتوقع الاستقلال الذاتى الإقليمى بناء على "إعلان بتسبرج". وأعلن قادة المجتمع (الروتينى - Ruthenian) الأوكرانى فى إمارة «روس الكاربات الأدنى - Subcarpathian Rus» (الإمارة التى أصبحت تمثل الحد الشرقى لجمهورية تشيكوسلوفاكيا فيما بين الحربين) عن موقفهم المؤيد للانفصال عن المجر والانضمام إلى دولة مساريك الجديدة، بشرط الاستقلال الذاتى، وذلك اقتفاء لأثر مجتمعهم المهاجر فى الولايات المتحدة. (فى الواقع، كان سكان هذه الإمارة يتمتعون بقدر من السيطرة الإدارية المحلية، على عكس السلوفاك، كما سنرى فى الفصل السابع)[3]، وكذلك واجهت المجر انفصال كرواتيا، وفقدان المناطق الجنوبية والشرقية لصالح القوات الصربية والرومانية

على التوالى، وقامت حكومة تحالف يسار الوسط برئاسة الكونت «ميهالى كارولى Mihály Károli» المسئولة عن جمهورية المجر الشعبية المعلنة حديثًا بنشر قوات عسكرية لمقاومة انفصال هذه الأراضى، ولكنها رضخت فى النهاية لمطالب قوى الحلفاء بسحب القوات المجرية من مناطق شاسعة من الإقليم المتنازع عليه. وحاولت "الجمهورية السوفيتية المجرية"، القصيرة الأجل التى حلت محل حكومة كارولى المرفوضة فى مارس 1919، أن تعوض بعض الخسائر السابقة رافعة شعار الاشتراكية الدولية، ولكنها لم تستطع تنظيم المقاومة الفعالة لعدوان رومانيا المتجدد الذى انتهى بسقوط «الشيوعيين المجريين» واحتلال بودابست فى بداية أغسطس[4].

وفى ليتوانيا نجد أن مجلس «التاريبا» - الذى كانت يلعب لعبة القط والفأر طول شهور قبل هدنة نوفمبر 1918 مع السلطات الألمانية التى صنعته أساسا كواجهة للسيطرة الألمانية - أعلنت نفسها بمثابة «الحكومة المؤقتة لليتوانيا» فى نوفمبر 1918، وسرعان ما وجدت نفسها تدافع عن البلاد ضد البلاشفة من ناحية، وضد القوات البولندية التابعة لبلسودسكى من ناحية أخرى.

وفى إستونيا ولاتفيا، مكنت هزيمة الألمان على «الجبهة الغربية» الحكومات المؤقتة بقيادة القوميين المناهضين للاشتراكية من الوصول إلى السلطة، بينما ساهم استمرار وجود تشكيلات «القوات الحرة الألمانية» فى هزيمة «الجيش الأحمر» الغازى وقمع العناصر المؤيدة للبلاشفة بين سكان إستونيا وليتوانيا[5]. وأدى انتصار «البيض» المناهضين للاشتراكية بمساعدة ألمانيا فى الحرب الأهلية فى فنلندا فى 1918 إلى تهميش قادة اليسار ممن بقوا على قيد الحياة فى ذلك التاريخ، وانقسمت البلاد انقساما حادا لعقود تلت، بالرغم من أن الديمقراطية البرلمانية استمرت فى فنلندا طوال سنوات ما بين الحربين[6].



خريطة (3) التسوية السلمية (1919-1923)

المصدر: Richard and Ben Crampton, Atlas of Eastern Europe (London: Routledge, 1996)

وإذا كان لابد من تقديم رواية تفصيلية للصراعات الدبلوماسية والسياسية والعسكرية بعد 1918، فى شرق أوربا الوسطى، فإننى سأستخدم أمثلة مختارة - بالتركيز على الحالة البولندية تحديدًا - لتوضيح الفكرة الأساسية لهذا الفصل، ذلك أن عملية إرساء السلطة السياسية وتثبيت الحدود فى ظل هذه الأوضاع الفوضوية هى التى شكلت هيكل المؤسسات السياسية وتطور الهويات القومية.

ففى ظل الوضع الذى هيمنت فيه الديمقراطيات الغربية على "مؤتمر سلام باريس"، وقيام الولايات المتحدة بلعب الدور الرائد بينها، شكلت الويلسونية الإطار الخطابى الذى دارت فيه المعارك الدبلوماسية فى تلك الفترة. وكانت أكثر جوانب الويلسونية ارتباطا بمشاكل شرق أوربا الوسطى يتمل فى تأكيدها على حق تقرير المصير القومى كنتيجة منطقية، وكأسس للنظام السياسى الديمقراطى الليبرالى. وكما رأينا، فقد كان هناك أنصار للجمع بين الليبرالية والقومية بين المفكرين القوميين فى الإقليم قبل الحرب - خاصة بين اللجان القومية فى المنفى "الغربى" - وخلال الحرب ذاتها. ولكن إسداء النصح والموعظة شىء، والممارسة شىء آخر، وهو ما اتضح عندما تكشفت الجهود الدبلوماسية فى باريس، وتجلى كذلك فى التلاعب بالجهود التى بذلت والأحداث التى ترتبت فعليا على الأرض فى شرق أوربا الوسطى.

وكانت أفكار وودرو ويلسون عن حق تقرير المصير القومى غامضة جدًا فى مضامينها العملية، وتشير كتاباته قبل الحرب أنه كان يعتبر وجود هوية قومية مشتركة مطلبا أساسًا لنجاح المجتمع الديمقراطى. ويشير مثال الولايات المتحدة، الذى يحتل المقدمة فى ذهنه، إلى أن الهوية القومية لا تحتاج إلى القيام على العرقية - بل إنها يجب أن تقوم على تجربة تاريخية مشتركة، وعلى مجموعة من القيم التى تتخطى العرقية. ولأن الولايات المتحدة - كمجتمع مهاجرين - تمثل حالة استثنائية تميزها عن التجربة الأوربية، كان السؤال المطروح هو كيف يمكن إذن تطبيق مبدأ ويلسون على أوربا بعد الحرب[7]؟

وقد ألقى ويلسون خلال الحرب عدة خطابات عامة وبيانات سياسية يبدو أنها رفعت حق تقرير المصير القومى إلى مرتبة المبدأ الشامل للتسوية السلمية المقبلة، ولكن بدون توضيح ما الذى يُكوِّن الأمة، ولا ما الذى يتطلبه حق تقرير

المصير. وقد تطور التطبيق العملى لمبدأ ويلسون استجابة للظروف المباشرة وللحقائق السياسية التى تشكلت خلال الفترة (1918م، 1919م). وطالما ظهرت فرصة للتفاوض على سلام منفصل مع إمبراطورية الهابسبرج، مثلاً، سيكون من الحنكة السياسية المطالبة بالاستقلال الذاتى للشعوب المكونة لها، وليس الاستقلال السياسى الكامل. وقد أدى فشل الاتصالات الدبلوماسية السرية مع النمسا - المجر، وتزايد زخم الحركات القومية داخل الإمبراطورية خلال الأشهر الأخيرة من الحرب، إلى التأييد الرسمى من الأمريكيين والحلفاء لاستقلال تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا. أما فى حالة بولندا، فإن تاريخها السابق كدولة ذات سيادة حقق لها تأييد ويلسون المبكر (فى خطاب يناير 1918م، المكون من «أربع عشرة نقطة») الذى رشحها للاستقلال السياسى الكامل. وكان من المهم جداً بالنسبة لكل هذه الحالات الثلاث، كما كان الأمر بالنسبة للقضية الصهيونية، أن المتحدثين الرسميين باسمها فى العواصم الغربية، كانوا يتحدثون بلغة الديمقراطية الليبرالية، ورسموا صورا لدولهم القومية المقبلة كمجتمعات مترابطة معًا بالتجربة التاريخية والثقافية المشتركة، وتجمعها معا القيم السياسية لا النعرة العرقية الضيقة (راجع الفصل الخامس). وظهر كذلك أن ويلسون لم يكن لديه فهم كامل بمدى التعقيد الإثنوجرافى فى الإقليم ، وإحساس قليل بمدى اتساع الفجوة الفاصلة بين منظور سياسيين مثل «ميلان إستيفانيك .Milan Stefanik»، ومنظور القرويين السلوفاك، أو «اللجنة اليوغسلافية» وتصوراتهم المتباينة عن تصورات رجل الشارع الكرواتى[8]، وإذا كان ويلسون قد أبدى ندمه على قصور معرفته قائلا:

«عندما أطلقت تلك الكلمات «أن لكل الأمم حق فى تقرير المصير»، لم أكن أعرف حجم وجود القوميات، والتى تعلن عن نفسها يومًا بعد يوم... وأنت لا تعرف ولا تقدر القلق الذى مررت به نتيجة ارتفاع آمال ملايين البشر بسبب دعوة تقرير الصمير التى أطلقتها»[9].

وهكذا لم يكن ويلسون يدرك مبدئيًا مدى عمق التوتر بين فئات الهوية السياسة المدنية والعرقية بين الشعوب التى كانت على وشك التحرر فى شرق أوربا الوسطى. ومع ذلك، نجد أن عملية تحديد الموقف الأمريكى من الحدود

المقبلة بين الدول الجديدة أظهرت معيار الهوية العرقية بدرجة غير مسبوقة. حيث ركزت لجنة «التحقيق الأمريكية» (وهى لجنة خبراء لوضع أسس الموقف الأمريكى من التسويات السلمية الأوربية) جهودها على استكشاف توزيع المجموعات اللغوية العرقية فى الأقاليم المتنازع عليها، مع محاولة الموازنة بين المعيار العرقى والاعتبارات الاقتصادية والإستراتيجية. ولم يكن موقف خبراء الخارجية البريطانية مختلفًا، إذ كان العديد منهم ينتمون إلى دائرة الأكاديميين المرتبطين بالصحيفة الدعائية المؤيدة لتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا ، المعروفة باسم «أوربا الجديدة»[10].

وإذا كان البحث الإثنوجرافى يبدو أفضل طريقة موضوعية لحل النزاعات الإقليمية، فإن النتيجة تمثلت فى تعظيم أهمية الهوية العرقية كمصدر للشرعية السياسية، بدرجة أكبر مما كان يرمى إليه ويلسون أو لويد جورج. وكما يقول «ويليام كيلور . William Keylor» فإن طبيعة عملية رسم الحدود المبنية على معايير قابلة للقياس جذبت مهندسى «السلام» الأنجلوأمريكيين إلى التركيز على الأساس العرقى للأمة[11]. وتأكيدًا لذلك، فإن كبار أعضاء بعثة التفاوض الأمريكى إلى باريس، بما فيهم وزير الخارجية لانسنج، كانوا يثيرون شكوكًا خطيرة حول تطبيق نهج تقرير المصير القومى فى هذا الإقليم المتنوع ثقافيًا ولغويًا[12]، ولكن نظرًا لانهيار الإمبراطوريات متعددة الأعراق وفى غياب شخص قادر على لم شمل المتناقضات معا من جديد، لم تجد تلك الانتقادات أسلوبا منظما أو متسقا داخليًا لتقديم بديل للمنهج الإثنوجرافى.

وكانت الأطراف المعنية فى شرق أوربا الوسطى تتطلع من جانبها إلى تقديم معايير إضافية غير إثنوجرافية ، مهما كان نوعها، لصالح مزاياها الإقليمية. فكانت الحجج الإستراتيجية والاقتصادية تقدم لمساندة المطالبة بهذه الأقاليم «مثل سودتنلاند . Sudetenland» (المحيط الإقليمى المأهول بالألمان النمساويين فى بوهيميا، والذى تعتبر سلاسله الجبلية حيوية فى الدفاع عن تشيكوسلوفاكيا)، أو الممر البولندى (وهو امتداد الإقليم الألمانى السابق الذى يتيح لبولندا الوصول إلى البحر). وبينما كانت هذه الحجج مناسبة لإقناع القوى الغربية، كانت المطالب التاريخية أكثر إلزاما من وجهة نظر المشاعر القومية. وكما رأينا فى الفصل

السابق، قام القوميون الليبراليون أثناء الحرب فى «لجنة يوغسلافيا» و «المجلس القومى التشيكوسلوفاكى» بصياغة المطالب الإقليمية، بناء على مبدأ حق الدولة التاريخى، وذلك فى تحول جذرى عن موقفهم السابق المعارض لهذه الفكرة غير الديمقراطية. وفى بولندا، كما عرضنا فى الفصل الثالث، كانت المواقف المعارضة التى اتخذها يسار الوسط والأجنحة اليمينية التى انتقدت دوما حق الدولة التاريخى قد انقلبت منذ فترة طويلة، مع مطالبة بلسودسكى باستعادة بولندا فى حدود تقترب مما كانت عليه فى 1772، بينما كان دموفسكى يطالب فى المقابل بدولة أكثر تجانسا عرقيًا.

وهكذا أثارت المطالب التاريخية مشكلة جوهرية، لأن الحدود المشار إليها كانت حدود دول حديثة مبكرة لم تستمد شرعيتها من مبدأ حق تقرير المصير أو السيادة الشعبية. وكان تزاوج هذه المطالب مع مبدأ تقرير المصير القومى يتناقض مع نفسه حسب المعايير الديمقراطية الليبرالية البحتة، طالما أنه يمكن أن يؤدى إلى ضم الأراضى بغض النظر عن رغبات سكانها[13]. ومع ذلك، نجد أن ثبات التصورات الإقليمية بناء على لحظات متجمدة من التاريخ يعطيها قوة رمزية للأمة[14].

وعندما تتداخل المطالب التاريخية مع المطالب الإستراتيجية أو الاقتصادية المقنعة (كما فى حالة سودنلاند)، كانت القوى الغربية تميل إلى تبنيها، خاصة عندما تأتى هذه المطالب على حساب القوى المهزومة أو الدول الوريثة لها، مثل ألمانيا، النمسا، المجر، بلغاريا، وتركيا. وعندما كانت المطالب تعرض على الأسس التاريخية وحدها، كانت دول الحلفاء والدول المرتبطة بها تحاول أن تقيد الحماس القومى للتوسع الإقليمى. وفى جميع الحالات، كان الاستخدام الأحادى للقوة العسكرية يمثل أفضل وسيلة لتحقيق المطالب الإقليمية، أما اعتراف دول الغرب بهذه المطالب فكان يأتى بعد أن تكون الحقائق قد فرضت على الأرض.

وهكذا كان العمل المسلح والمناورات الدبلوماسية، وليس الوعى الجماهيرى التدريجى، هو الوسيلة المناسبة لتجميع الأقاليم والسكان المتنوعين فى «دول قومية فى أوربا الشرقى». وقد رأينا سلفا كيف أن القمع العسكرى الصربى «للكوادر الخضراء» أدى إلى إرساء قواعد مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين.

وتحققت مطالبة حكومة براغ بضم سلوفاكيا، ليس من خلال الانتفاضة الجماهيرية للشعب السلوفاكى ضد السادة المجريين، ولكن من خلال توليفة من العمليات العسكرية التشيكية والمساندة الدبلوماسية للحلفاء، مما أجبر القوات المجرية على الخروج من الإقليم. واصطدمت القوات التشيكية مع منافستها البولندية فى مواجهة على منطقة «تيشين ـ Teschen» الغنية بالفحم، والتى كانت مقسمة بين الدولتين (حيث حصلت تشيكوسلوفاكيا على السيادة على منجم الفحم الرئيسى والسكك الحديدية فيها) عن طريق محكمى الحلفاء فى 1920[15]وانتهت «الدولة القومية» التشيكوسلوفاكية داخل حدودها النهائية بهيكل سكانى موزع حسب بيانات تعداد1930 إلى 51% تشيك، 22% ألمان، 16%سلوفاك، 5% مجريين، 4% روتينيين[16]. وأدى الفشل فى تكوين إحساس مشترك بالهوية القومية بين المجموعتين السلافيتين الرئيسيتين (التشيك والسلوفاك) إلى ترك هذا الكيان معرضا للتفكك الكامل.

وفى بولندا، كان النزاع على تيشين المذكورة سلفا مجرد بند فى قائمة طويلة من النزاعات التى شملت عمليات عسكرية ضد قوات الاستقلال الأوكرانية فى جاليتشيا الشرقية، والقتال ضد الليتوانيين من أجل السيطرة على فيلنوس التى استولت عليها ميليشيا بولندية سرية فى 1920، والتى ضمها البرلمان البولندى رسميا بعد ذلك بسنتين. وفى 1920، تفاوض نظام بلسودسكى على تحالف مناهض للبلاشفة مع النظام الأوكرانى فى كييف برئاسة «سيمون بتليورا ـ Symon Petliura» بناء على التنازل عن جاليتشيا الشرقية لبولندا. ثم شن بلسودسكى حربا شاملة ضد السوفيت، وفى هذه الحرب كانت أقدار الجيشين المتحاربين وأوضاع خط الجبهة تتأرجح بشدة للأمام والخلف، من كييف فى ذروة النجاح البولندى، إلى مشارف وارسو فى قمة العدوان البلشفى. وتركت معاهدة ريجا البولندية السوفيتية (Treaty of Riga) التى أنهت الصراع فى مارس1921، بولندا مسيطرة على مساحة شاسعة من الأراضى شرق نهر «بوج ـ Bug» أى وراء الحدود الإثنوجرافية البولندية (ما يسمى خط كرزن ـ Curzon Line) كما حددته لجنة «مؤتمر سلام باريس». وإلى الغرب، ساعدت توليفة من الأعمال العسكرية، والانتفاضات الشعبية التى قام بها ذوو الأصول العرقية البولندية،

والشروط التى فرضتها القوى الغربية فى معاهدة سلام فرساى، على تحديد الحدود البولندية مع ألمانيا (مع تنازل ألمانيا عن «بوسن ـ Pose» و «بوميرانيا ـ Pomerania» الشرقية لبولندا)[17].

وفى حالة سيليزيا العليا، ذلك الإقليم الصناعى الغنى بالفحم والذى يقطنه خليط من الألمان والبولنديين، أدى استفتاء عام طالبت به القوى الغربية إلى التصويت بالأغلبية لصالح بقاء الإقليم فى ألمانيا. وعندما تمرد السكان البولنديون فى الإقليم فى أعقاب ذلك، وصدر إثر هذا التمرد قرار عصبة الأمم فى 1921، بتقسيم الإقليم، زاد إيمان كثير من الألمان بأن تطبيق مبدأ تقرير المصير القومى كان ضد مصالحهم[18].

ويستحق المثال البولندى مزيدا من الدراسة التفصيلية، كحالة توضح جيدا العلاقة الوثيقة بين عملية تشكيل الحدود وتطور الثقافة السياسية القومية. وتوضح أيضا الطبيعة غير المتسقة والمتناقضة ذاتيا لجهود القوى الغربية فى تشجيع القومية الليبرالية فى شرق أوربا الوسطى.

ويتعلق الموضوعان الأكثر حيوية فى المفاوضات بين البولنديين[19] و«مجلس الأربعة ـ Council of Four» [20]، بالحدود الشرقية البولندية، والوضع المستقبلى ومعاملة مجتمعات الأقليات فى الدولة البولندية. ففى النقطة الأولى، نجد أن المطالب البولندية والأوكرانية المتعارضة بجاليتشيا الشرقية كانت تمثل قضية بالغة الإثارة، ولكن تم حلها بالقوة فى النهاية، مثل العديد من الحالات الأخرى. حيث اعترف إجناتسى بادرفسكى صراحة فى محادثات باريس بأن أغلبية سكان جاليتشيا الشرقية يتحدثون الأوكرانية، ولكنه أصر على أن مدينة «لفوف ـ Lwów» ذات الأغلبية السكانية البولندية (وتعرف أيضا باسم «لفيف ـ Liviv» بالأوكرانية، وباسم «لفوف ـ Lvov» بالروسية، وباسم «ليمبرج ـ Lemberg» بالألمانية واليديشية) لا يمكن أن تترك شرق الحدود البولندية[21]. وأيقظ التقدم العسكرى فى جاليتشيا الشرقية ـ الذى حدث فى الوقت الذى كانت فيه القوات التشيكية والرومانية واليوغسلافية مشغولة بتحقيق نتائج على الأرض على حساب المجر ـ غضب واستياء «الأربعة الكبار ـ Big-Four» الذين وجدوا أوربا

الشرقية على شفا الخروج عن السيطرة، وتبدد كل الجهود الغربية لتحقيق تسوية مستقرة بعد الحرب. وكما قال رئيس وزراء بريطانيا ديفيد لويد جورج فى حديثه إلى بادرفسكى:

«لقد حررنا البولنديين والتشيكوسلوفاك واليوغسلاف، واليوم نواجه كل مشاكل العالم لمنعهم من قهر الأجناس الأخرى. وأنا شخصيًا أنتمى إلى أمة صغيرة (الويلزيين). ولدىّ تعاطف بالغ الدفء والعمق تجاه الأمم الصغيرة التى تحارب من أجل الاستقلال، ولكننى أشعر باليأس عندما أراهم أكثر إمبريالية من الأمم العظمى ذاتها».

وكان سخط لويد جورج أكثر عنفا بعد ذلك بأربعة أيام، مع شن الجيران التشيك والرومانيين هجماتهم على المجر فذهب إلى القول: «إنهم جميعا مجرد مجموعات صغيرة من اللصوص الذين لا يشغلهم سوى سرقة الأراضى»[22].

وبالتحديد، فإن القادة الغربيين كانوا قلقين مما اعتبروه نزاعات عرقية صغيرة تتذرع بحق تقرير المصير القومى، وتتطلع للتخلص من هذه الأمور المزعجة من أجنداتها بأسرع ما يمكن. ففى غياب أية مبادئ واضحة قادرة على حل مثل هذه النزاعات، وفى ضوء الحاجة إلى حل ما، تؤدى الترتيبات التى فرضت على أرض الواقع (De Facto) إلى تكوين أساس للحلول القانونية (De Jure). ولعبت المخاوف الغربية من البلشفية فى أروقة الأنظمة القومية فى تقديم نفسها كحواجز فعالة ضد التهديد الأحمر. وفى حالة جاليتشيا الشرقية، تمثلت النتيجة - بعد سيل من التهديدات غير الفعالة ضد البولنديين - فى الإقرار بشرعية التقدم العسكرى البولندى بأثر رجعى. ففى 6 يونيو 1919، أصدر «المجلس الأعلى - Supereme Council» [23]لمؤتمر السلام حكما يحمل بولندا مسئولية تكوين إدارة مدنية مؤقتة فى جاليتشيا الشرقية. وأدى هذا بدوره فى الواقع إلى الاعتراف بالسيادة البولندية على الإقليم[24].

وتوضح الحالة البولندية كيف أن كلا من استخدام القوة العسكرية لمساندة المطالب الإقليمية، وعملية التفاوض الدبلوماسى، ساعدا على تآكل الفروق بين الهوية القومية المدنية الليبرالية والشوفينية العرقية. وربما برر بلسودسكى

حملاته العسكرية فى الشرق كجزء من جهود تكوين إطار اتحادى لتقرير المصير القومى، بحيث يؤدى فى نفس الوقت إلى تكوين حصن قوى ضد التوسع الروسى. ولكنه كان فى الواقع يشارك فى عملية غزو واجهت مقاومة مريرة من الليتوانيين والأوكرانيين (باستثناء حالة الأوكرانيين الذين أدت هزيمة البلاشفة لهم إلى تركهم بدون أى سند غير بلسودسكى). وعلى أى حال، فإن إرهاق الحرب البولندية، وعدم مساندة كتلة دموفسكى، أجبرا بلسودسكى على التوافق مع السوفيت على اتفاقية "سلام ريجا" والتخلى عن برنامجه للاتحاد مع أوكرانيا وبيلاروسيا وليتوانيا ولاتفيا وإستونيا. وبحلول 1921، كانت النتيجة ظهور بولندا مؤلفة من ثلث سكانها من غير البولنديين، وكان الكثيرون منهم يشعرون بمرارة الاغتراب عن الدولة التى ضمتهم بالقوة إليها. وبنفس الطريقة، شعرت الحكومة البولندية بعدم وجود سبب وجيه للتفاوض على شروط الاستقلال الذاتى مع الأقليات التى أخضعتها لحكمها بنجاح. ففى الواقع، تركت تقلبات حالة الحرب بلسودسكى مسئولا عن دولة بولندية تتوافق صورتها الإقليمية، وإنكارها للمجال السياسى لغير البولنديين، مع مفهوم دموفسكى، أكثر من توافقها مع مفهومه السابق. كما ساعد الدور الجوهرى للجيش فى تشكيل وحماية حدود الدولة، على دعم دوره كرمز للشرف القومى، وصورته الذاتية كطليعة للأمة. وكان لهذا أثر كبير على الثقافة السياسية البولندية فى السنوات التالية، كما سنرى فى الفصل السابع.

وفى ضوء الطبيعة العشوائية لتعيين الحدود، وغموض الحدود الإثنوجرافية، وعدم رغبة أو عدم قدرة «الأربعة الكبار» على تقييد بعض هذه المبادرات التوسعية لهذه القوى الصغيرة، كان لابد من ترك أقليات كبيرة مهملة داخل ما يسمى بالدول القومية الجديدة. وفى ضوء الرغبة فى تنظيم معاملة هذه المجتمعات من خلال نظام للقانون الدولى، بدأ «الأربعة الكبار» صياغة ومناقشة اتفاقيات الأقليات[25].

وكان مصير يهود بولندا قد وضع مسألة الأقليات فى مقدمة الاهتمام الرسمى «لمؤتمر سلام باريس» تتعلق بمصير اليهود فى بولندا. فقد رأينا (فى الفصل السابق) كيف أن الاحتلال الألمانى لبولندا وليتوانيا كان يحتقر التكوين

المؤسسى للحياة الثقافية والسياسية اليهودية، كما أنه أثار الجدل حول الأشكال الممكنة التى يمكن أن يأخذها الاستقلال الذاتى القومى اليهودى فى الدولة البولندية المستقرة. وكذلك أدى مأزق يهود أوربا الشرقية وقت الحرب، خاصة تحت تأثير الانتهاكات العسكرية الروسية فى (1914-1915)، إلى توليد مزيد من الاهتمام من جانب الشعب اليهودى والمنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا. حيث ركز نشاط هذه المنظمات وقت الحرب على تقديم الدعم المادى لمجتمعات اللاجئين والمحرومين[26]. وحين وضعت الحرب أوزارها، تحول الاهتمام إلى حماية الحقوق الفردية والجماعية اليهودية فى إطار التصور الحدودى النهائى للدول القومية الجديدة، خاصة بولندا التى ضمت نحو3 ملايين يهودى (ما يعادل 10% من سكانها)، والتى أصبحت الدولة الأوربية الوحيدة التى جمعت أكبر عدد من السكان اليهود خارج روسيا. ولكن وجود العداء للسامية شعبيا وسياسيا على نطاق واسع، على نحو ما اتضح من المقاطعة المستمرة (التى بدأت فى 1912) للأعمال اليهودية من جانب الديمقراطيين القوميين أتباع دموفسكى، فضلا عن اندلاع العنف ضد السكان اليهود عند دخول القوات البولندية إلى لفوف وفيلنوس خلال (1918-1919) كل ذلك جعل مستقبل الحياة اليهودية فى البلاد موضع انشغال وقلق دائم لدى يهود العالم.

وانقسمت المنظمات والحركات السياسية اليهودية حول كيفية تحديد الحقوق الجماعية ليهود بولندا. فالصهاينة الذين سيطروا على اللجنة المشتركة لبعثات يهود شرق أوربا فى «مؤتمر السلام» والذين تمتعوا بمساندة «المؤتمر اليهودى الأمريكى»، طالبوا باعتراف بولندا ودول أوربا الشرقية الأخرى بالمقيمين اليهود فيها كأعضاء فى أمة مستقلة، مع حق التمثيل الجماعى على المستويات المحلية والدولية. وتطلب ذلك تكوين برلمان يهودى مستقل فى بولندا[27]، بالإضافة إلى برلمان الدولة الذى يمثل كل سكانها، وكان ذلك يعنى تخصيص مقعد يهودى فى عصبة الأمم[28].

وفى خضم المطالبة بوضع رسمى سياسى جماعى لأمة منتشرة إقليميا، بصورة متميزة عن الدولة، كان الصهاينة يمثلون تحديا للأفكار التقليدية عن عدم إمكانية تقسيم سيادة الدولة، ويقترحون صياغة جديدة تعد سابقة راديكالية

للعلاقة بين الهوية القومية والسلطة الحكومية. وبهذا فإنهم كانوا يؤكدون ويستجيبون للتناقض العميق بين الأبعاد الديمقراطية الليبرالية والثقافة العرقية لمبدأ تقرير المصير القومى[29]. ولكن الاستجابة التى أثارها هذا البرنامج، بين الحكومات الغربية والأوربية الشرقية على السواء، لم تكن تعتمد على أصالة إسهامها فى النظرية السياسية. وباعتبار هذا البرنامج نموذجا قابلا للمحاكاة من قبل الأقليات العرقية الأخرى، وخاصة ذوى العرق الألمانى، فإن ذلك النموذج كان قادرا على تفجير قوى طاردة غير قابلة للسيطرة فى إقليم يعانى أساسا من عدم الاستقرار. ولذلك لم تكن البعثات الأمريكية ولا البريطانية ولا الفرنسية المشاركة فى «مؤتمر سلام باريس» راغبة فى تبنى منهج لقضية الأقليات قد يتسبب فى ظهور شبح تكوين دول داخل الدول[30].

وكانت بعض المنظمات اليهودية غير الصهيونية ـ مثل «التحالف الإسرائيلى العام ـ Alliance Israélite Universelle» فى فرنسا، أو بعثة الاستيعاب اليهودى فى بولندا، تعارض تماما أية سياسة تؤدى إلى إضفاء الطابع الرسمى على وضع "يهود بولندا" ككيان جماعى منفصل. إذ كانوا يركزون على حماية الحقوق الفردية اليهودية فى المواطنة والمعاملة العادلة فى البلاد التى يقيمون فيها، وعلى حقهم فى ممارسة دينهم بحرية. وكانت هذه الجماعات تعارض إضفاء الطابع المؤسسى على اليديشية أو العبرية كلغات معترف بها رسميا، لأن ذلك سيمثل حاجزا غير مطلوب أمام اندماج اليهود فى الثقافات المحيطة بهم.

وحاول «لوسن وولف ـ Lucien Wolf» وزير خارجية بريطانيا وممثل اللجنة الخارجية المشتركة ليهود بريطانيا" فى «مؤتمر سلام باريس» ، والتى جاءت بعد «اللجنة المشتركة» (انظر الفصل الخامس) ـ أن يشق طريقا وسطا بين أنصار الصهيونية وأنصار الاندماج. حيث شكل وولف منبرا قدم فرصة معقولة لكسب تأييد وزارة الخارجية، مع منح قدر كبير من الحماية فى ظل القانون الدولى ليهود بولندا. وكان يدافع عن برنامج يتضمن إقرار الدولة البولندية تمويل المؤسسات الثقافية القومية اليهودية المستقلة، مثل شبكة مدارس باللغة اليديشية ترتبط بنظام التعليم العام. وكذلك كان يسعى بجدية من أجل الحصول على الاعتراف الغربى الكامل ببولندا بشرط خضوع البلاد لمراقبة الأمم المتحدة فيما

يتعلق بمعاملة اليهود والأقليات الأخرى، مع حصول مجموعات الأقليات على حق اللجوء المباشر إلى «مجلس العصبة» - ثم إلى «حكمة العدل الدولية الدائمة». بشأن الاعتداءات على حقوقها. وتشمل المعاملة العادلة الحقوق المدنية الكاملة لليهود كأفراد، بالإضافة إلى ضمانات حرية الممارسة الدينية وحرية تطوير مؤسسات ثقافية ومجتمعية بدون تدخل الدولة. وكان وولف يحاول أيضا استثناء اليهود من الحظر العام على التجارة يوم الأحد، نظرا لالتزامهم الخاص بيوم السبت كيوم عطلة[31].

وأدى النشاط المكثف للمنظمات اليهودية الأمريكية والبريطانية، والذى كان يجرى فى ظل مناخ الغضب العام من العنف ضد المجتمعات اليهودية من جانب القوات البولندية العاملة فى مناطق الحرب فى الدولة الوليدة، إلى قيام «مجلس الأربعة» بوضع قانون حقوق الأقليات فى بولندا بصفة خاصة، وفى أوربا الشرقية بصفة عامة، على جدول أعمالها. وكانت لجنة الدول الجديدة «المكونة» على عجل مسئولة عن صياغة «معاهدة الأقليات البولندية» التى ستكون بمثابة نموذج يطبق فى كل أنحاء الإقليم. وكانت فى صميم هذه المبادرة جهود مبذولة لجعل التزامات الدولة البولندية تجاه أقلياتها من أمور القانون الدولى فى ظل ضمان عصبة الأمم. وكان ذلك الإلتزام يشمل تعهد الدولة بمنح الأقليات بعض الضمانات المؤسسية للتعبير الذاتى الثقافى من خلال المنظمات المجتمعية فضلا عن اعتماد اللغة الأصلية[32].

وكانت المفاوضات مع البعثة البولندية حول هذا الموضوع عملا شاقا. إذ إن مجرد فكرة جعل الدولة البولندية مرتبطة بمعاهدة لمراقبة توجيهات مفروضة من الخارج، وتتعلق بأحد جوانب شئونها الداخلية، كانت تعتبر عملا عدائيا. فقد كان البولنديون يرون أنه إذا كان هذا الإطار الدولى لمثل هذا البرنامج لحقوق الأقليات سيؤثر على السيادة البولندية، فإن وجوده سيهدد الوحدة القومية البولندية. وبدلا من الاعتراف بالحاجة إلى تكوين نظام جديد للاستقلال الثقافى يمكن أن يساعد على تكييف التعددية الثقافية العرقية للأقاليم والتى تطالب بها «اللجنة القومية البولندية»، طرح بادرفسكى النموذج الأوربى الغربى للوحدة المدنية للاحتجاج ضد ما اعتبره محاولة لتقويض تماسك بولندا كدولة قومية. إذ

قال فى معرض إلقائه اللوم على عدم ولاء اليهود معتبرا إياه سببا فى تفشى معاداة السامية فى بولندا:

إن «القوى العظمى» ... تخلق مشكلة يهودية جديدة بسبب التمييز بتقديم مزايا خاصة للسكان اليهود، مقارنة ببقية المواطنين ... ونخشى أن تكون «الدول العظمى» تعد لنفسها مفاجآت غير مقبولة. لأنه مع الأخذ فى الحسبان أن السكان اليهود لديهم قدرات كبيرة فى الهجرة، حيث ينقلون أنفسهم من دولة إلى أخرى، فمن المؤكد أن اليهود سيطالبون بالمبادئ القومية التى سيتمتعون بها فى بولندا، فى أى مكان آخر، وذلك اعتمادا على السابقة التى يتم إرساؤها»[33].

وكانت «معاهدة الأقليات البولندية» التى وقعت فى 28 يونيه 1919، فى صورتها النهائية لا تلبى مقترح الاستقلال الثقافى الذى قدمه وولف. فضلا عن الاستقلال السياسى القومى الذى كان يطالب به الصهاينة. إذ كانت الحقوق الفردية فى المساواة أمام القانون والحرية الدينية مكفولة، ولكن الحقوق الجماعية للأقليات ظلت محدودة. وكانت الأقليات حرة فى تكوين مؤسساتها الثقافية والاجتماعية ومدارسها الخاصة، أما فى المدارس العامة، فكان استخدام لغات الأقليات قاصرا على التعليم فى المدارس الابتدائية فقط[34]. وكانت البنود المتعلقة باليهود تحديدا تعطيهم حق استخدام اللغة اليديشية كلغة للتدريس فى بعض المدارس الابتدائية العامة، وليس فى التعليم الثانوى. وبينما كان حق اليهود فى مراعاة عطلة يوم السبت مكفولا، لم يكن هناك نص يستثنى اليهود من الحظر العام على النشاط التجارى أيام الأحد. حيث وضع هذا الأمر اليهود الملتزمين فى وضع يلزمهم بمراعاة يوم عطلة إجبارية آخر، مما يجعلهم اقتصاديا فى وضع أقل من منافسيهم غير اليهود. وبينما اعتبر «مجلس عصبة الأمم» (اللجنة التنفيذية للقوى العظمى) ضامنا للاتفاقية، إلا أن الانتهاكات المزعومة لنصوصها لم تكن لتعرض على المجلس إلا عن طريق أحد أعضاء المجلس، أى أن المنظمات اليهودية ليس لها قناة مباشرة للجوء إلى عصبة الأمم[35].

وكانت «معاهدة الأقليات البولندية» بمثابة نموذج طبق فى أرجاء أوربا الشرقية والبلقان. حيث نسخت نصوصها مع تعديلات طفيفة فى معاهدات

الأقليات التى وقعتها 13دولة أوربية أخرى تبحث عن الاعتراف الدبلوماسى الغربى باستقلالها، أو بحدودها المعدلة، أو التفاوض على معاهدات سلام مع الغرب. ومع ذلك، فإنه من وجهة نظر الدول الغربية، يتمثل الهدف الأساسى لهذه المعاهدات فى تمهيد الطريق للاستيعاب السلمى للأقليات فى أطر الهوية القومية التى تدعمها الدولة. وفيما يتعلق بأنظمة شرق أوربا والبلقان، فقد كانت هذه المعاهدات إما إهانة لكرامة دولها كدول مستقلة، أو أدوات تستخدم بصورة انتهازية فى الصراعات السياسية والإقليمية. وفى الواقع، كان ضعف آليات فرض هذه المعاهدات يعنى أن الدول الجديدة والمتوسعة كانت حرة فى إخضاع أقلياتها لأنماط انتهاك منتظمة[36].

وفى بولندا، كما فى أى مكان آخر عبر أوربا الشرقية والوسطى، كانت الأحزاب اليمينية تثير وتستغل العداء الشعبى ضد الأقليات - خاصة اليهود - كوسيلة لزيادة التأييد الانتخابى لها بين سكان مجموعة الأغلبية، بينما كانت الأحزاب اليسارية تتوقع الحصول على أصوات الأقليات تلقائيًا، بدون طرح أنفسها علانية نيابة عن المصالح الخاصة للمجموعات العرقية[37].

ففى انتخابات 1922 ظهر تحالف انتخابى للأقليات بمبادرة يهودية «كتلة الأقليات القومية - BMN» يشمل الأحزاب اليهودية والألمانية والأوكرانية والبيلاروسية والليتوانية)، مع ما كان يبدو تغيرا قويا فى الأصوات فى المجلس الأدنى من البرلمان، هذا بالرغم من اتباع نظام متميز لتقسيم المناطق الانتخابية بهدف الحد من أصوات الأقليات. ولكن عداوة «اليمين البولندى»، بالإضافة إلى رفض الحزب الاشتراكى البولندى والتشكيلات اليسارية الأخرى المخاطرة بمصداقيتها القومية بالتعاون الصريح مع الأحزاب العرقية، أدى إلى الحد من تأثير كتلة الأقليات القومية. وفى فترة وجيزة من النجاح ساعدت كتلة الأقليات العرقية فى انتخاب «ناروتوفينش - Narutwicz» وهو أحد أتباع بلسودسكى من يسار الوسط، وأوصلته لمقعد رئاسة الجمهورية فى 1922، غير أن هذا الدور كان يصب فى مصلحة دعاية الديمقراطيين والقوميين الذين اعتبروا رئيس الجمهورية ألعوبة لدى اليهود والقوميات غير البولندية الأخرى. وعقب اغتيال الرئيس وحلول شخصية أكثر محافظة محله، انهارت كتلة الأقليات القومية

سياسيًا، ورأى بعض الأحزاب المكونة لها ميزة مباشرة أكبر فى محاولة إبرام صفقات ثنائية محدودة مع الحكومة البولندية، بدلا من استمرار التعاون مع بعضها، بينما تراجع البعض الآخر إلى المعارضة الشرسة.

وكانت هذه الآليات السياسية تعكس تعرض الأقليات للقمع والانتهاك وتساهم فيه. إذ كانت الأراضى الشرقية فى بولندا (التى تسمى كريسىKresy بالبولندية) تحكم كأقاليم استعمارية فى الواقع. وكان السكان البيلاروس ـ الذين كانوا يعتبرون أقل تميزا وتطورا من حيث الوعى القومى ـ عرضة للاستيعاب فى الثقافة البولندية. وتمت تجربة إستراتيجيات الاستيعاب الإجبارى وغيرها من أساليب «فرق تسد» بين الأوكرانيين، كما اتضح فى بعض السياسات مثل المحاولة الفاشلة ـ بل والاستفزازية ـ لزرع هوية عرقية روتينية منفصلة داخل أعضاء الكنيسة اليونيتية. وكانت المحاولات الفاترة غير الجادة للإصلاح الزراعى فى كريسى تؤدى باستمرار إلى بقاء معظم الممتلكات فى أيدى الملاك البولنديين ـ وهى النخبة الاقتصادية الاجتماعية الإقليمية التى كان المعسكران السياسيان التابعان لدموفسكى وبلسودسكى يسعيان لنيل تأييدها. على هذا النحو كان المستفيدون الكبار من أية عملية حقيقية لإعادة التوزيع هم المستوطنين البولنديين، وليس الأوكرانيون المحليون أو غيرهم من القرويين غير البولنديين. وهكذا استمر العنف لأن التكتيكات الإرهابية التى اتبعها القوميون الأوكرانيون اليمينيون أدت إلى رد فعل وحشى من سلطات الدولة.

لقد أثبتت فشلها تلك المحاولات المتقطعة للاسترضاء أو التوافق مع الأقليات الإقليمية، حتى بعد عودة بلسودسكى الدرامية من الاعتزال السياسى من خلال انقلاب فى 1926، (انظر الفصل السابع). فبالرغم من أن بلسودسكى كبح معاداة السامية الرسمية،فإن مصداقيته كبطل حقوق الأقليات تبددت سريعا، لأن الجمود الإدارى والمقاومة المحلية من القوميين البولنديين اليمينيين عرقلت تطبيق السياسات الليبرالية التى وضعت لتسهيل تساوى الفرص الاقتصادية والتعليمية وسلطة الإدارة المحلية للأقليات. وهكذا اتضح سريعا أن الامتيازات المحدودة كانت كل ما يستطيع البولنديون تقديمه فى مقابل المساندة البرلمانية من جانب أحزاب الأقليات العرقية. وبناء على ذلك، تدهورت العلاقات بين سلطات الدولة

ومجموعات الأقليات فى كريسى (خاصة جاليتشيا الشرقية) حتى عادت إلى العنف ثانية. ففى سبتمبر 1934، انسحبت بولندا من جانب واحد من نظام الرقابة الدولية على معاملة الأقليات والذى كان ثابتا فى اتفاقية الأقليات فى 1919.

وبينما نجحت السياسات القمعية للدولة البولندية فى الحفاظ على تكامل أراضى البلاد حتى 1939، إلا أنها كانت ذات أثر سلبى تماما من منظور الوحدة القومية. فكلما شعرت مجموعات الأقليات بالضعف والاستغلال، كلما زاد شعورها بأن العرقية كانت أهم عنصر فى تحديد مصيرها وفى تشكيل هويتها. وفى نفس الوقت، فإن حقيقة أن بولندا قد تسامحت وقت الحرب مع النشاط السياسى والأنشطة الثقافية والتعليمية الممولة تمويلا خاصا من جانب بعض الأقليات (خاصة اليهود والألمان) قد مكنتهم من تطوير تعبيرات مؤسسية عن وعيهم القومى العرقى[38]. ونلاحظ أن هذه الآلية - التى أدت المحاولات الإجبارية فيها لتأميم الثقافة والهوية من جانب الدولة إلى زيادة تماسك الهويات القومية العرقية المتميزة بين الأقليات - قد تكررت بدرجات متفاوتة فى كل الدول الأخرى فى شرق أوربا الوسطى وأوربا الشرقية[39].

وهكذا نجد فى رومانيا - التى تضاعفت أراضيها وسكانها (على حساب الأراضى النمساوية - المجرية والروسية السابقة) من خلال شروط التسوية السلمية - أن التجربة المبكرة للاستقلال الإدارى الإقليمى (بالرغم من أنها كانت تحابى ذوى العرق الرومانى) انتهت إلى هيكل تعليمى وحكومى مركزى جامد، تم تبريره على أنه أفضل طريقة لغرس الإحساس بالوحدة القومية بسرعة بين الشعب الرومانى المقسم آنذاك. وكان هذا المنهج المتعجل من أعلى لأسفل لتكوين أمة متماسكة يمثل جزئيا استجابة تعويضية مفرطة لحقيقة أن السكان المتعلمين الحضريين المنتمين للطبقة المتوسطة فى المناطق الجديدة كانوا مؤلفين أساسا من الألمان والمجريين واليهود، بينما كانت الغالبية من القرويين ذوى الأصول العرقية الرومانية[40] وعلى هذا النحو تزايدت العداوة تجاه غير الرومانيين - الذين أصبحوا يشكلون 30% من سكان البلاد فى مقابل 12% قبل الحرب - بسبب حقيقة أن الألمان والمجريين كانوا أعضاء القوميات المسيطرة فى إمبراطورية

الهابسبرج، بينما كان اليهود يميلون إلى الاندماج فى الثقافة المجرية والألمانية، أو الإبقاء على لغتهم اليديشية، بدلا من تبنى رومانية القرويين[41].

وهنا أيضا منيت بالفشل محاولات تكوين تحالفات سياسية بين الأعراق. حيث ساهمت أساليب «فرق تسد» التى اتبعتها السلطات فى بوخارست فى هذا. ولكن المفارقة هنا أن الإطار الجيوبوليتيكى العام للدولة القومية "رومانيا العظمى" شكل بيئة عكست الاتجاهات السابقة نحو الاستيعاب الثقافى بين المجموعات العرقية. ففى منطقة «بانات ـ Banat» التى كانت واقعة تحت الحكم المجرى سابقا، كان الألمان ـ الذين بدأ الكثير منهم تبنى لغة النخبة المجرية الإقليمية فى ظل النظام القديم ـ يعانون من تمييز أنفسهم عن هوية كانت ترتبط بتجميع الجمهورية المجرية المجزأة (ومن ثم ظهر أنهم يمثلون مشكلة سياسية). وكذلك كان اليهود الذين تبنوا الثقافة المجرية أكثر ميلا من ذى قبل للتأكيد على أن حبهم للثقافة المجرية لا يعنى اعتبار أنفسهم جزءاً من الأمة المجرية. وفى نفس الوقت، لم يكن هناك أى تقليد بين أى من هذه المجموعات يتبنى اللغة الرومانية الأكثر ارتباطا فى أذهانهم بالحياة القروية مقارنة بالثقافة العليا. وتضافر إحساس كل أقلية بالتعرض للخطر «فى مواجهة» الدولة القومية ـ مع اتساع الفجوات الثقافية والسياسية بين الأقليات العرقية ـ إلى تقوية الاتجاه نحو الخصوصية العرقية فى المناطق الجديدة من «رومانيا العظمى»[42]، وفى نفس الوقت فشلت الحكومة الرومانية فى تحقيق هدفها المعلن المتمثل فى تقوية الجماهير الريفية الرومانية عرقيا فى الأقاليم المضمومة حديثا للدولة. ففى «ترانسلفانيا ـ Transylvania» مثلا، تمت مصادرة الممتلكات الكبيرة من الملاك المجريين، وانتزاع معظم الدخل من الإنتاج الصناعى المحلى من خلال الضرائب، ولكن المستفيدين من هذه الضربات ضد النخب غير الرومانية كانوا الممولين والمستثمرين الرومانيين المقيمين فى بوخارست وليس القرويين الرومانيين المحليين[43]. ولذلك تضافرت هذه الأنماط المقوضة للتنمية مع سياسة التمييز التى اتبعتها الحكومة الرومانية ضد الأقليات وتغاضيها عن العنف ضد السامية،

فى تعزيز نمو حركة «الحرس الحديدى»، التى جمعت الطلاب والقرويين الرومانيين فى تحد منظم لشرعية الحكومة البرلمانية وأدت إلى قيام ديكتاتورية ملكية فى 1938[44].

وكان لإصرار الصرب على إدارة مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين على أساس سيطرة الصرب المركزية أثر مشابه، مثلما فعل إنكار الاستقلال الذاتى للسلوفاك فى تشيكوسلوفاكيا (انظر الفصل السابع). ففى حالة تلو الأخرى، كانت محاولات الدول القومية الجديدة أو الموسعة فى أوربا الشرقية استيعاب أو تهميش أو قهر أقليات، تؤدى فقط إلى تقوية الإحساس بالعرقية على أنه العنصر الحاسم الذى يحدد مكانة الفرد، وشبكة التضامن الاجتماعى، والهوية، وحتى التوجه الأيديولوجى. وكلما تراجعت رغبة الأنظمة القومية فى تكوين مجال سياسى أو منبر عام للتعبير عن الهوية الجماعية للأقليات، كلما زاد شعور هذه الأقليات بالاغتراب، وكلما تزايد إحساسها بأنها تكون أمما فى حد ذاتها. ولأن كثيرا من برامج التحرر القومى وقت الحرب كانت تقدم وعودا بهياكل اتحادية للتوافق مع التعددية الثقافية العرقية، كان إنكار مثل هذه الحقوق شيئا مثيرا للسخط. ففى حالات عديدة، أدى المناخ الناتج عن الاستقطاب والانقسام السياسى إلى تحولات أكثر درامية نحو أشكال القومية اليمينية غير المتسامحة، وساعد على زعزعة مصداقية المؤسسات والقيم الديمقراطية الليبرالية[45].

وأخيرا، كان انقسام الإمبراطوريات يعنى أيضا تشظى الوحدات الاقتصادية الكبيرة إلى وحدات أصغر. وبالتالى فإن التصميم على بناء اقتصاد قومى يعتمد على ذاته فى كل الدول الجديدة أو الموسعة أدى إلى زيادة الحواجز الجمركية، مما ساهم فى عرقلة تدفق السلع والخدمات وفصل المنتجين عن أسواقهم. وقد أدى هذا بدوره إلى جعل كل هذه الدول - التى كان معظمها متخلفا ومتأثرا بدمار البنية التحتية بسبب الحرب - أكثر عرضة لتأثير "الكساد العظيم" فى الثلاثينيات، والذى أدى إلى توقف بدايات الانتعاش الاقتصادى فى العشرينيات. وفى ظل ذلك زادت الصعوبات الناتجة عن الأزمات القروية المتلاحقة، وقصور

رأس المال، وتقييد الائتمان، والانخفاض فى الأرباح الصناعية وعوائد الدولة، والبطالة، وانخفاض مستوى المعيشة. وأدت الصعوبات السابقة إلى تعزيز موقف القوميين اليمينيين المتلهفين للتضحية بالأقليات أو الدول المجاورة من أجل مصالح شعوبهم[46].

. الجغرافيا السياسية للاتحاد العرقى السوفيتى

نلاحظ أنه من بين الكيانات الإمبراطورية الثلاثة التى تناولناها فى هذا الكتاب، كان الكيان الوحيد الذى أعيد تشكيله كدولة اتحادية عقب تفككها وقت الحرب يتمثل فى المنطقة التى عرفت سابقا بالإمبراطورية الروسية. ولكن التوجه الأيديولوجى والبنية المؤسسية للنظام الذى حدثت فى ظله عملية إعادة التشكيل، كان بالطبع يمثل اختلافا جذريًا عن القواعد السياسية السابقة. وبالنسبة للمسألة القومية، طبق الاتحاد السوفيتى مبدأ الاتحاد العرقى على نطاق غير مسبوق وبدرجة لم يكن لها مثيل فى التنظيم. ويهمنا هنا رسم الحدود القومية "داخل" هذه الدولة الجديدة المتجاوزة للقومية. فقد ولد هذا النظام من رحم تفاعل معقد واستثنائى جمع بين الأيديولوجية الشيوعية، والانتهازية، والخبرة السياسية المكتسبة من مسار «الحرب الأهلية الروسية».

. البعد العرقى للانهيار السياسى الروسى والحرب الأهلية

كانت القوميات غير الروسية خلال الحرب الأهلية الروسية (1917-1921) محصورة بين جيوش البلاشفة (الشيوعيين) والجيوش القيصرية البيضاء (المناهضة للشيوعية)، (ناهيك عن القوات الألمانية والعثمانية حتى أواخر 1918، وقوى تدخل الحلفاء من 1918 حتى 1920، والجيش البولندى المكتسح فى أوكرانيا وبيلاروسيا خلال 1920. بل كان العديد من المجموعات العرقية ذاتها منقسما داخليا بين الأجنحة المحافظة والثورية، والتى كانت تتحالف بصورة متقطعة مع العناصر المناظرة لها فى المشهد السياسى الروسى الفوضوى. وفى ضوء الأوضاع الفوضوية السائدة فى طول وعرض الإمبراطورية السابقة، كان من

الصعب التوصل إلى أية تعميمات ذات معنى بشأن تطور الوعى القومى أو المؤسسات القومية بين الشعوب غير الروسية خلال «الحرب الأهلية»[47].

أما فى الساحة البلطيقية، فقد تكون المشهد الجيوبوليتيكى من تدخل ألمانى فى الحرب الفنلندية من يناير إلى مايو 1918، واستمرار وجود وحدات «القوات الحرة الألمانية» فى لاتفيا وإستونيا بعد هدنة 1918، والمساندة البحرية وشحنات الأسلحة البريطانية إلى لاتفيا واستونيا فى أعقاب عرض «القوات الحرة» تولى السلطة فى 1919، وانسحاب البلاشفة بسبب التهديدات العسكرية من القوات «الروسية البيضاء» أولا، ثم القوات البولندية. وفى ظل هذا المشهد، سمحت الظروف الجيوبوليتيكية للقوميين من تيار الوسط والقوميين اليمينيين بتدعيم الاستقلال وقمع العناصر المؤيدة للبلشفية[48].

وفى القوقاز الجنوبى، عزز التقدم العثمانى والتفكك العسكرى الروسى من تكوين حكومة إقليمية جنوب قوقازية جاءت عبر تحالف عسر جمع القادة الجورجيين والأرمن والأذربيجان. وبحسب معاهدة برست ليتوفسك فى مارس 1918، تنازل البلاشفة عن أراضى القوقاز الجنوبى إلى العثمانيين (تحت قناع مبدأ حق تقرير المصير القومى الذى كان يفترض أن يرعاه العثمانيون فى الإقليم)، وتبع ذلك رفض القادة الجورجيين والأرمن الانفصال تماما عن روسيا، وهو ما أعطى إحساسا بأنهم مستقلون عمليا بشئونهم وبوسعهم الوصول إلى وضع تفاوضى أفضل فى إطار دولة مستقلة. أما الأذربيجان فكانوا موالين للعثمانيين من البداية، وكانوا يتطلعون إلى قطع العلاقات مع روسيا.

وبناء على هذه الدوافع المختلطة وغير المتوافقة، صوت المجلس التشريعى «سييم ـ Seim» فى 22 أبريل 1918، لصالح تكوين «اتحاد القوقاز الجنوبى» المستقل، والذى انقسم إلى ثلاث جمهوريات مستقلة بحلول نهاية مايو. فلم يكن هناك أساس لاتحاد حقيقى، بسبب فشل المقاومة العسكرية للقوات العثمانية المتقدمة، وبسبب تطوير القيادات الجورجية والأرمينية لمواقف دبلوماسية

وعسكرية مختلفة تجاه الألمان والعثمانيين. وهما الحليفان اللذان كانا يتنافسان على الهيمنة فى القوقاز الجنوبى الغنى بالموارد. وجاء إعلان جورجيا الاستقلال (26 مايو 1918) إيذانا بانهيار الاتحاد، وسمح هذا الاستقلال للحكومة الجورجية بتوقيع اتفاقيات مع الألمان أعطت لهم السيطرة على الموانى والسكك الحديدية وامتيازات المناجم فى جورجيا، مقابل المساندة الألمانية ضد اعتداءات العثمانيين. وبالتالى اقتصر العثمانيون على ضم قطعة صغيرة نسبيا من الأراضى الجورجية فى اتفاقية سلام يونيه 1918 (والتى وقعت فى نفس توقيت معاهدات السلام الأرمينية/العثمانية والأذرية/العثمانية). ولم ينجح الأرمن. الذين كانت أراضيهم ذات أهمية إستراتيجية أقل. فى شد اهتمام الألمان، ومن ثم اضطروا لقبول شروط أكثر صعوبة للسلام مع العثمانيين، وذلك خلال التفاوض بشأن احتلال الإقليم الذى كان يسكنه الأرمن سابقا فى شمال شرق تركيا بعد الهدنة التى وقعها الحلفاء والعثمانيون فى أكتوبر 1918. واستقبل الأذر العثمانيين بحرارة وترحاب، وحصلوا على مكافأة اسطنبول بالاعتراف باستقلالهم ووحدة أراضيهم، ولكنهم فقدوا الثقة بوعود العثمانيين بتضامن الوحدة التركية خلال أشهر الاحتلال العسكرى القمعى (غير الرسمى) الذى أعقب ذلك[49].

وظل معظم هذا الإقليم بعيدا عن متناول الجيوش العثمانية خلال ذروة الحرب الأهلية الروسية، وذلك بفضل التغطية الفعالة للقوات البريطانية التى احتلت القوقاز الجنوبى خلال 1918-1919، عقب هزيمة «القوى المركزية». وقد مكن هذا حكومات الجمهوريات الثلاث من ممارسة قدر من السيطرة الداخلية والحصول فى نوفمبر 1919، على اعتراف دبلوماسى «فعلى» من القوى الغربية (التى لم يكن لديها نوايا جدية لتجدد التدخل العسكرى نيابة عنها)[50].

وفى حالة جورجيا، كان الحصول على الاستقلال السياسى تطورا متناقضا ظاهريا، لأن قادتها المناشفة كانوا يعارضون القومية رسميا، وكانوا فى الواقع مشاركين بارزين فى السياسات الديمقراطية الاجتماعية بالإمبراطورية الروسية حتى نوفمبر 1917. ومع ذلك، أدى إعلان الاستقلال تحت قوة الظروف، إلى جعل

الحكومة الجورجية تجد نفسها حبيسة بوتقة القومية، أى الحرب على الحدود. فشاركت فى الحملات العسكرية ضد الجمهورية الأرمينية (التى كانت فى حروب متقطعة مع الأذر أيضا) على مناطق متنازع عليها، بينما كانت تقمع الأقليات الداخلية (الأبخاز والأوسيت) التى بحثت عن حق تقرير المصير. وأدت حقيقة أن قلب الأرض الروسية كان تحت سيطرة البلاشفة المنافسين، إلى منح الشرعية الأيديولوجية لالتزام المناشفة الجورجيين باستقلال بلادهم. ولم تستطع قوات البلاشفة تحقيق السيطرة على جورجيا قبل أوائل 1921، بعد أن أخضعت أرمينيا وأذربيجان سلفا فى 1920، من خلال توليفة من التخريب السياسى والعمليات العسكرية، وذلك فى إطار عملية ضم أراضٍ سهّلها تحالف موسكو مع قوات مصطفى كمال فى تركيا الشرقية[51].

وفى المناطق الأخرى، أدى تكرار اقتحام الجيوش المتنافسة الأجنبية والمحلية، إلى حدوث دمار اجتماعى وسياسى يفوق الوصف. وعلى سبيل المثال، فإن أوكرانيا حكمتها خلال الفترة 1917-1920 تسعة أنظمة مختلفة متعاقبة، ولم ينجح أى منها فى إرساء سلطته فى المناطق الريفية. ومر العديد من المناطق الإسلامية فى روسيا باضطرابات سياسية هائلة، حيث ربط بعض «المجددين» اليساريين أنفسهم بالبلاشفة، بينما قامت الميليشيات التى يساندها القرويون ونخبة رجال الدين بمقاومة مسلحة لغزو واحتلال البلاشفة فى التركستان[52] وهكذا يمكن القول: إن الأوضاع الفوضوية للثورة والحرب لم تكن تشجع على ازدهار المؤسسات الديمقراطية الليبرالية أو الديمقراطية الاجتماعية فى أى من هذه الأقاليم[53].

وكان أحد التكتيكات التى استخدمها البلاشفة فى صراعهم الحيوى فى «الحرب الأهلية» يتمثل فى الوعد بمنح الاستقلال الثقافى والسياسى للقوميات غير الروسية. وعلى العكس، فإن القادة القياصرة الذين قادوا الجيوش المختلفة المناهضة للبلاشفة لم يهتموا كثيرا بالعامل العرقى، وتمسكوا صراحة بالنهج الروسى الاستبدادى التقليدى للمسألة القومية. وعندما تقدمت قوات البلاشفة

فى المناطق غير الروسية عرقيًا، أقامت جمهوريات قومية وأقاليم مستقلة ذاتيًا، وأدمجت الأقاليم بصورة مباشرة فى الدولة الروسية التى تشكلت كجمهورية اتحادية (الجمهورية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية الروسية - RSFSR). وكانت الجمهوريات تتمتع مبدئيا بالاستقلال الاسمى، ولكنها كانت خاضعة فى المجالات السياسية الرئيسية لسلطة وزارات الجمهورية الاتحادية. وفى الواقع، كانت السلطات البلشفية المحلية تتكون غالبا من الروس (أو ممن تروّسنوا لغة وهوية) والذين أساءوا إلى مشاعر ومصالح السكان المحليين. وتزايد هذا التوتر العرقى بسبب عنصر الصراع الطبقى : حيث كان البلاشفة يأتون عادة من بين العمال الحضريين الروس والمتروّسنين، والذين ليست لديهم عوامل مشتركة مع القرويين غير الروس الذين يمثلون الغالبية فى الريف المحيط بهم.

وقد ساعد البعد العرقى للحرب الأهلية على صياغة نهج لينين من المسألة القومية. حيث قوى اقتناعه المتزايد بأن تجاوز الانقسام العرقى لصالح التضامن الطبقى يعتمد على كبح التعصب العرقى للعديد من البلاشفة الروس، وإظهار التقدير الذاتى للقوميات غير الروسية، مع الحفاظ على القوة السياسية فى أيدى الحزب. فكان هذا الاتجاه هو الذى شكل الهيكل الرسمى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (USSR).

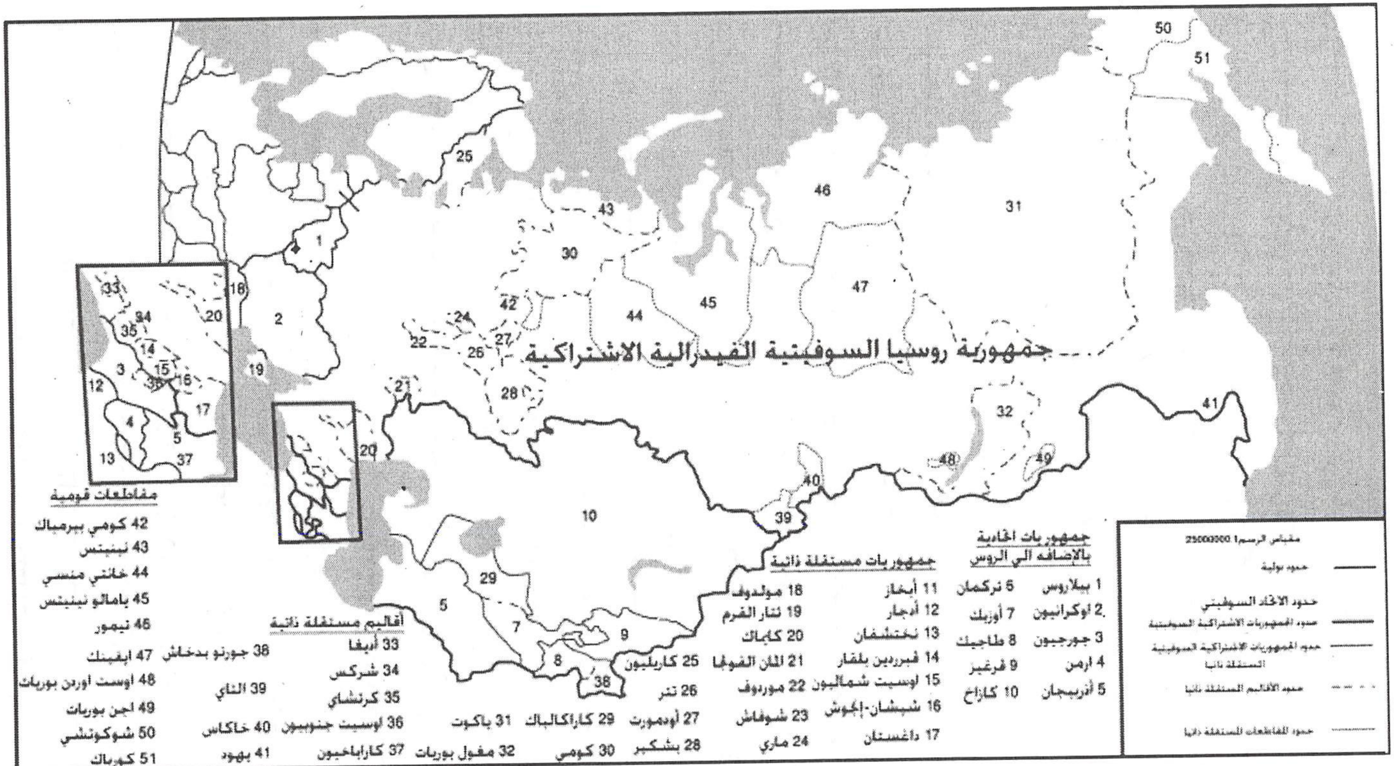
. التجربة الاتحادية العرقية السوفيتية

كما رأينا سلفا، لم تكن للقوى الغربية فى مؤتمر سلام باريس سيطرة كبيرة على الأحداث التى تقع فى أوربا الشرقية. بل إنها غالبا ما كانت تجد نفسها فى وضع إضفاء الشرعية بأثر رجعى على الحلول المفروضة على النزاعات الحدودية. وكانت مرتبكة بصفة عامة بسبب التحدى الذى يبدو غير قابل للتجاوز والمتمثل فى توفيق المثل الديمقراطية المدنية مع التصورات الإثنوجرافية للقومية. إذ كان البلاشفة فى موقف صعب جدا فى أعقاب الحرب الأهلية الروسية، وكانوا السادة بلا منازع على معظم الأراضى الروسية الإمبريالية السابقة، فضلا

عن تمتعهم بحرية نسبية فى فرض ما يروق لهم تجاه مسألة القوميات. وكان لديهم أيضا مُثل البطولة المدنية (المبنية على الطبقة، وليس الديمقراطية) التى يرغبون فى دعمها، ولكن لأنهم كانوا يواصلون تجربتهم فى دولة واحدة متعددة الأعراق، كانوا يتمتعون بميزة (أو هكذا كانوا يعتقدون) تطبيق المبدأ الإثنوجرافى بصورة منتظمة بدون النيل بأية طريقة من قوة وسلطة دولتهم فوق القومية. وفى صياغتهم الجدلية، كانوا يفصلون بين الهوية العرقية والهوية السياسية للدولة ككل، ثم يوفقون بينهما، ويحولونها فى النهاية إلى مسار يؤدى إليها.

وكان المنبر البلشفى[54] قبل 1917، يتبنى مبدأ حق تقرير المصير القومى، ويفسره بالمعنى الثورى المتمثل فى حق القوميات فى الانفصال عن الإمبراطورية الروسية لتكوين دول قومية مستقلة. وسمح لهم هذا الموقف بتمييز أنفسهم تماما عن القوميين الروس، وتكوين تحالفات تكتيكية مع الحركات الانفصالية، مع تقديم غطاء أيديولوجى لرفضهم للاتجاه الاتحادى الذى تتبناه الأحزاب الاشتراكية الأكثر اعتدالا فى ذلك الوقت. وبعبارة أخرى، فإن الحل الذى كانوا يقترحونه لم يكن يخرج عن خيارين؛ فالقوميات التى كانت طبقاتها الثورية ترغب فى الانفصال عن روسيا ستكون حرة فى ذلك من حيث المبدأ، بينما القوميات التى ستظل داخل الحظيرة الروسية لن تطالب بالاستقلال الإقليمى أو الثقافى. وهكذا فإن مبدأ الدولة الاشتراكية المركزية لن يكون قابلا للتوافق، وكان السؤال الوحيد يتمثل فيما إذا كان يجب أن تقوم دولة اشتراكية مركزية واحدة، أو عدد من هذه الدول، فى الأجل القصير مع الثورة العالمية المنتظرة.

وبعد ثورة نوفمبر 1917م، قام لينين بتغيير أيديولوجى مفاجئ، وأقنع رفاقه بتبنى مبدأ الاتحادية كوسيلة عملية لربط المناطق الحدودية للإمبراطورية الروسية المنهارة بالحظيرة السوفيتية، وكإشارة دعائية هدفت إلى إثارة الحماسة الثورية بين رعايا الإمبراطوريات الاستعمارية الأوربية فى آسيا، وذلك لإظهار مدى عدالة الدولة الاشتراكية فى معاملتها للشعوب غير الأوربية[55].



خريطة (4) اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، 1939.

المصدر: Robert S. Kaiser? The Geography of Nationalism in Russia and the USSR? copyright © 1994 by Princeton University Press. Reprinted by permission of Princeton University Press. -

وخلال الحرب الأهلية، تم تشكيل «مفوضية شئون القوميات» برئاسة جوزيف ستالين، لمراقبة العلاقات والسياسات المتعلقة بالأقليات القومية، ولكن الارتجال وعدم الاتساق كانا يميزان سياسة القوميات وقت الحرب ، كما أوضحنا سلفا. وبعد خوض حملة لإعادة غزو أكبر قدر ممكن من أراضى الإمبراطورية الروسية لإخضاع الدول القومية الوليدة التى ظهرت على أرضها، انتقل النظام "الشيوعى" فى أوائل العشرينيات نحو تكوين نظام يمهد الطريق لنشر الهوية السوفيتية الجديدة على مستوى الدولة، على أساس المبدأ الحاكم لتضامن الطبقة العاملة الدولية والالتزام العام بالمُثل الشيوعية(56).

وكان البعد العرقى لهذا المشروع للهندسة الاجتماعية يعالج من خلال محاولة منهجية استثنائية للاعتراف والتنظيم والتحديث والسيطرة على الهويات الإثنوجرافية، عن طريق هياكل مؤسسية رسمية. وكان لينين يؤمن تماما –بسبب نجاحات وفشل سياسة القوميات البلشفية خلال الحرب الأهلية –بأن المشاعر الانفصالية بين الجماهير غير الروسية ناتجة عن تلاعب النخب الأنانية، بل وعن التاريخ الطويل لشوفينية واستغلال القومية الروسية التى ترعاها الدولة. وكان يدعى أن المشاعر المريرة التى تولدت عن ذلك فيها يمكن التخفيف منها، وذلك بالتخلص من الدوافع الشوفينية فى المجتمع الروسى (وداخل الحزب البلشفى ذاته) وذلك بمنح القوميات غير الروسية الاعتراف بهويتها الثقافية اللغوية. ومن خلال المساواة بين المجموعات العرقية - بمن فيهم الروس - داخل إطار النظام السياسى الذى يحافظ على الوعى الطبقى والتوجه الأيديولوجى كمعايير للعضوية أو الاستيعاب، وهو ما سيؤدى لاحقا إلى إزالة مصادر التوتر بين الأعراق والمشاعر الانفصالية. واعتمدت سياسة القوميات السوفيتية فى العشرينيات على ثلاثة محاور للتشريع: إقليمية، وثقافية، واقتصادية اجتماعية.

وكانت طبيعة الاتحاد السوفيتى ككيان متعدد القوميات مضمونة كجزء لا يتجزأ من «اتفاقية الاتحاد» فى ديسمبر 1922، (والتى تم التصديق عليها كأساس «للدستور السوفيتى» فى 1923-1924) حيث أرسى هذا الهيكل الاتحادى للدولة جمهوريات قومية ذات سيادة - «اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية - USSR» ولم يقتصر الأمر على وجود كل مجموعة عرقية كبرى فى جمهورية

مستقلة، بل إن الأقليات داخل كل جمهورية كانت تمنح وحدات فرعية مستقلة ذاتيا. وكان هذا البناء الهرمى للوحدات الإقليمية المحددة يصل فى بعض الحالات إلى مستوى القرى التى كان يتم الاعتراف بارتباطها بقومية معينة[57].

ولكن السيادة السياسية للجمهوريات ووحداتها الفرعية كانت صورية بحتة. فبينما يمنح الدستور السوفيتى كل جمهورية الحق فى الانسحاب من الاتحاد، نجد أن أية إشارة للانفصال كانت تقمع بعنف باعتبارها علامة على مناهضة الشيوعية. بل كان هناك تناقض بين البناء الاتحادى للحكومة والسلطة المركزية الشديدة الحزب الشرعى الوحيد فى البلاد، الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى (التسمية الجديدة للحزب الشيوعى الروسى منذ 1925)[58].

ولكن الاتحاد السوفيتى كان له محتوى ثقافى. فكل وحدة إقليمية كانت تنشر لغتها الخاصة كلغة رسمية، تدرس فى المدارس، وتستخدم فى الصحف والمجلات، وتستخدم فى الأعمال الأدبية والمسرحية والسينمائية. ونظرا لأن المنهج الماركسى كان يعتبر الهوية القومية مجرد ظاهرة سريعة الزوال على الطريق إلى المجتمع غير الطبقى، فقد شعر لينين بأن التقاليد الفلكلورية واللغات المتعددة يمكن ويجب استخدامها لنقل رسالة أيديولوجية موحدة، رسالة «قومية الشكل، واجتماعية المضمون».

ومن الواضح أن البلاشفة تجاوزوا بشدة الاستبعاد السلس من جانب الماركسية التقليدية للهوية القومية كقوة سياسية اجتماعية. وفى الواقع، كانت أساليب مهندسى سياسة القوميات السوفيتية تقوم جزئيا على أساس النظام الذى طوره «نيقولاى الأول المنسكى. "Nikolai I. Il'minskii (1822م، 1891م) ذلك المنصر الذى حاول فى القرن التاسع عشر جذب الشعوب غير الروسية (من التتر والشوفاش وغيرهم) فى إقليم الفولجا الأوسط إلى صفوف الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، باستغلال شرعية وتشجيع استخدام لغتها القومية لأغراض ممارسة الطقوس الدينية. وأدى هذا بدوره إلى تأسيس المدارس ذات اللغات القومية. وفى حالة الشعوب التى لم يكن للغاتها شكل مكتوب، ابتكر المنسكى وتلاميذه صيغا أدبية عن طريق كتابتها بالأبجدية السيريلية، مع توحيد القواعد والصوتيات أثناء هذه العملية[59]. ولعب الإثنوجرافيون السوفيت دورا

نشطا مماثلا فى العشرينيات . بالرغم من أنه كان على إطار أوسع كثيرا . فى وضع نمط لغوى موحد لكل مجموعة عرقية. (أما الأبجدية العربية التى كان يستخدمها معظم الشعوب الإسلامية، فقد حلت محلها الأبجدية اللاتينية فى العشرينيات، ثم الأبجدية السيريلية فى الثلاثينيات). وكان ذلك جزءًا من مجهود أكثر شمولا لصياغة التركيب الإثنوجرافى لأنحاء البلاد، باستخدام المعايير اللغوية والأنثروبولوجية والثقافية والاقتصادية الاجتماعية فى التمييز بين فئات القوميات. وبعد تطبيق الاسم العرقى وحيد البعد على كل جزء من السكان، استطاعت الدولة السوفيتية تحديد الإقليم الخاص بهذا الجزء، وتنميط لغته وفولكلوره المعتمد رسميا وهويته كمسارات لغرس المثل الاشتراكية والولاء للدولة السوفيتية التى جعلت حق تقرير المصير القومى ممكنا.

وكان تقديم الاتحاد السوفيتى نفسه كمجتمع تطوعى متجانس مكون من قوميات مستقلة ذاتيا جزءًا مكملا للدعاية الخارجية السوفيتية، حيث كان ذلك يشير إلى احتمال انضمام أمم أخرى إلى الاتحاد(60)، وكان يعتبر نموذجا لكيفية إعادة تشكيل العلاقات بين الأمم الإمبريالية ورعاياها، وذلك فى مقابل استمرار خضوع أجزاء كبيرة من العالم للاستعمار الأوربى. وفى الواقع، كانت آفاق تحفيز الثورات القومية ضد السيطرة الإمبريالية الأوربية فى آسيا تبدو أكبر كثيرا من فرص إثارة الانتفاضة البروليتارية المباشرة فى شوارع لندن أو باريس. ومن ثم جاء انعقاد «مؤتمر شعوب الشرق» فى باكو فى سبتمبر 1920، بمثابة محاولة استباقية وساخرة أحيانا (كما حدث عندما نادى رئيس «الدولة الشيوعية» «بالجهاد» ضد الإمبريالية) من جانب البلاشفة لوضع إطار للتنسيق لتشكيلة مختلطة من القوميين والمتعاطفين مع الشيوعية من أنحاء القارة الآسيوية (بما فيها آسيا الوسطى السوفيتية)(61).

وأخيرا، كانت سياسة القوميات السوفيتية فى العشرينيات ترتبط فعلا بمشروعات التحديث لدى «الشيوعيين». حيث كان التحديث الثقافى . كما وصفناه سلفا . جزءًا من هذا البرنامج، حين تأخذ الدولة السوفيتية بيد كل أقلية عرقية وتقودها خلال عملية اكتساب الجهاز الثقافى الكامل للأمة الحديثة، صحافة باللغة القومية، وأدبًا (من خلال اتحاد كتَّاب محليين مسئول عن وضع

المعايير الأيديولوجية والفنية وتسهيل إنتاجه) ونظامًا تعليميًا (على الأقل فى المدارس الابتدائية أو الثانوية، فى حين ظلت اللغة الروسية لغة التعليم العالى)، إلخ. وكان تكوين هذه البنية الفوقية الثقافية، على عكس النموذج الماركسى التقليدى، يساعد على تمهيد الطريق لتطوير بنية تحتية وقاعدة اقتصادية اجتماعية حديثة بتمويل ورقابة الدولة. وكان يتم تسهيل وتسريع هذه العملية من خلال سياسة عرفت باسم «التأصيل الجذرى ـ Corenizatsiia». حيث كانت هذه العملية تهدف إلى غرس كل مجموعة عرقية كبرى فى الجمهورية فى البنية التحتية للتحديث، بمحاباة أعضائها بالترقية فى السلم الاقتصادى والإدارى للإقليم وللحزب الشيوعى. وكان من المنتظر مواجهة الأنماط الإمبريالية التى استمرت طويلا من حيث التنمية غير المتكافئة والتمييز والاستغلال، من خلال هذه الرسالة الحضارية عن طريق العمل الجدى، لأن التنمية الاقتصادية التى تمولها الدولة، ونشر التعليم باللغة القومية بمساندة الدولة، يوفران الوسائل للشعوب الريفية وحتى المجموعات البدوية للقفز سريعا إلى عصر الدولة الاشتراكية الحديثة.

لقد كانت هذه الفكرة تبدو مثالية من حيث المبدأ على الأقل. أما فى الواقع العملى، فلم يقتصر الأمر على أن سياسة القوميات السوفيتية أظهرت صورة أقل جمالا، بل إنها كانت تحوى عددا من الألغاز والتناقضات. وكان من أهم هذه الألغاز والتناقضات، الفجوة المتزايدة بين الاعتراف الرسمى بسيادة كل جمهورية وحقيقة قبضة موسكو الحديدية من حيث عمق وأحادية السيطرة المركزية التى فاقت كثيرا ما كان يمارسه النظام القديم. وكان ذلك ساريا حتى خلال العشرينيات، عصر «السياسة الاقتصادية الجديدة ـ NEP» عندما كان مسموحا بالمشروعات الخاصة صغيرة النطاق والملكية الخاصة للأراضى. وأصبحت وحشية الدولة الشمولية أكثر انتشارا عقب تخلى ستالين عن السياسة الاقتصادية الجديدة فى 1928.

وبغض النظر عن مقدار محاولة «الحزب» تصوير نفسه على أنه دولى الاتجاه والتركيب، لم يكن هناك شك فى أن ذوى العرق الروسى كانوا ممثلين بأكثر من نسبتهم فى الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى وفى الدوائر العليا من جهاز

الحزب، وفى مؤسسات الحكومة المركزية. وأنه كان هناك تشجيع مستمر لجعل اللغة الروسية هى اللغة المشتركة للتعليم العالى السوفيتى، والنخبة السياسية والتكنوقراطية للبلاد. وتزايد الاتجاه نحو التحول الروسى الثقافى واللغوى بمرور الزمن. وكان مصحوبا بمظاهر أكثر انتشارا من الاتجاهات الشوفينية تجاه المجموعات العرقية غير الروسية، وخاصة غير السلافية. واتضح هذا التغير مع تحول الحزب من مجموعة صغيرة من الثوريين الملتزمين، إلى الجهاز الحاكم للبلاد، والذى كانت صفوفه المتوسعة بسرعة يملأها أشخاص مهتمون بمستقبلهم فى المقام الأول. وكان ترديد الأفكار الدولية يمثل لهم شرطا مسبقا لصعودهم على السلم البيروقراطى، وليس التعبير عن القناعات العميقة بداخلهم. واعتمدت قوة جوزيف ستالين المتزايدة داخل أجهزة الحزب إلى حد بعيد على مساندة الأعضاء الجدد فى ذلك الجهاز، وبالرغم من خلفيته الجورجية العرقية، فإنه كان يميل نوعا ما إلى تشجيع إحساس الروس بالتفوق داخل الاتحاد السوفيتى.

وكان من بين مفارقات النظام الاتحادى السوفيتى العرقى أن الجمهورية الروسية كانت الأقل تميزا وتماسكا من بين الوحدات الاتحادية. فمن ناحية، كان التداخل الإدارى بين هيكلها الحاكم وبناء الحكومة المركزية السوفيتية شديدا جدا. ومن ناحية أخرى، كانت هى فى حد ذاتها جمهورية اتحادية، وذلك لتستوعب العدد الكبير من الأقاليم العرقية المستقلة ذاتيا والتى تغطى أراضيها. ومع ضعف الوعى العرقى الإقليمى الروسى، المتميز عن الهوية السوفيتية، كان هناك ميل متزايد من قبل الروس لاعتبار كل أنحاء الاتحاد السوفيتى وطنا لهم، وهو شكل من الهوية القومية قريب من عقلية الإمبريالية الجديدة. وزادت قوة هذا التطور أيضا بسبب الانتشار الواسع لذوى العرق الروسى عبر الجمهوريات غير الروسية[62].

وبالعكس، فإن الاتحاد العرقى «الشيوعى» لم يستطع تلقائيا تحييد الدوافع الاستقلالية بين القوميات غير الروسية. بل إن الفترة التى انتهت بإبرام معاهدة «الاتحاد» والتصديق عليها فى (1923، 1924) كانت تتصف بتوترات بين موسكو والقادة الجمهوريين الذين كانوا يعترضون على استمرار انتهاك مسئولى جمهورية روسيا السوفيتية المستمر للسلطة، وكانوا قلقين من أن الدستور المتوقع للاتحاد

السوفيتى يفتقر إلى ضمانات كافية ضد استمرار موسكو فى التغطرس والتدخل المفرط فى الشئون الداخلية للجمهوريات السوفيتية.

أما فى حالة الجمهورية السوفيتية الاشتراكية الأوكرانية (SSR) فقد اعترض «إسكرينيك ـ M. Skrypink» زعيم الحزب الشيوعى بشدة على الانتهاكات المنتظمة للسيادة الرسمية الأوكرانية. إذ إنه كان بلشفيا ملتزما منذ زمن طويل، وكان يرى أن هذه الظاهرة مجرد مظهر من مظاهر النمط القاتل للشوفينية الروسية المتجددة التى يمكن أن تبدد مساندة الثورة بين شعوب الاتحاد السوفيتى. وكذلك الحال فى جورجيا، التى أطاحت القوات البلشفية الغازية بالحكومة المنشفية المستقلة فيها فى 1921، حيث وجدت السلطات الشيوعية القائمة حديثا نفسها فى تناقض واضح مع «المفوض الروسى لشئون القوميات. جوزيف ستالين، الذى كان نفسه جورجيًا عرقيًا يشجع السياسات المركزية بلا تردد، وذلك بنغمة روسية قوية. وبالرغم من أن الشيوعيين الجورجيين كانوا ملتزمين بالمبادئ الدولية، فإنهم وجدوا أنفسهم يقومون بالدور الوظيفى للقوميين أثناء كفاحهم للحفاظ على جوانب السيادة المضمونة لهم فى اتفاقية 1921، مع جمهورية روسيا السوفيتية، والتى ألغتها المكائد التى دبرها ستالين وأتباعه. حيث كان هؤلاء يفكرون فى إجبار جورجيا وأذربيجان وأرمينيا على العودة إلى اتحاد القوقاز الجنوبى الذى كان من المنتظر دخوله الاتحاد السوفيتى كوحدة جمهورية، مما يقلل من شأن تساوى مكانة جورجيا مع الجمهوريات الأخرى المؤسسة للاتحاد السوفيتى. وكان لينين يكافح حتى آخر لحظة للتدخل نيابة عن قادة "الحزب الجورجى" فى محاولة يائسة للحفاظ على قدر من تقسيم السلطة المقبول بين المركز الشيوعى الذى يسيطر عليه الروس والهامش الشيوعى غير الروسى. ولكنه أصبح عاجزا بسبب الأزمة التى أصابته، ولم يستطع منع طرد القادة الجورجيين وتولى الموالين لستالين الذين أيدوا تكوين «الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الاتحادية للقوقاز الجنوبى». وفى الوقت الذى انحل فيه الاتحاد، واستعيدت السيادة الجمهورية الجورجية اسميا فى 1936 كان يتم تطهير الحزب المحلى بصورة منتظمة من كل العناصر المحتملة المؤيدة للاستقلال الذاتى، وكانت هناك حملة تطهير جديدة فى الطريق، كجزء من الإرهاب الستالينى الذى انتشر فى أرجاء الاتحاد السوفيتى[63].

وفى الحالتين - الأوكرانية والجورجية - كانت النخب الشيوعية المحلية تحاول الحفاظ على تساوى المكانة للجمهوريتين، وذلك بالعمل داخل النظام الأيديولوجى والدستورى الرسمى، وذلك بتوفيق روح السياسة السوفيتية مع نص القانون. ولكن كان هناك أيضا أحد أشكال التحدى الأكثر انتظاما وتميزا فكريا لمركزية النظام السوفيتى باسم التدويل. وكان هذا يتمثل فى «البلشفية القومية» لدى الميرزا سلطان غالييف، وهو أحد تتر الفولجا من قازان، وكان يعمل معلما للغة الروسية فى القوقاز، ووصل إلى العمل لصالح «مؤتمر كل المسلمين الروس» فى 1917 (انظر الفصل الرابع)، وانضم إلى «الحزب البلشفى» فى نفس توقيت ثورة نوفمبر تقريبا، وكان وريثا أيديولوجيًا يساريًا لحركة «المجددين» فى فترة ما قبل الحرب (راجع الفصل الثالث). وكما فى حالة «المجددين»، كان إطاره المرجعى يشمل كل مسلمى الإمبراطورية الروسية السابقة، بحيث يؤدى عملهم الموحد إلى زيادة قوتهم ومكانتهم، وذلك مقارنة بالخصوصية العرقية التى قسمت مسلمى روسيا فى (1917، 1918) والتى كان النظام السوفيتى يحاول إضفاء الطابع المؤسسى على هذا الانقسام من خلال نظامه الاتحادى العرقى.

وقد انطلق سلطان غالييف من افتراض (يشاركه فيه لينين) أن مسلمى الإمبراطورية الروسية - خاصة فى آسيا الوسطى - كانوا ضحايا الاستغلال الاقتصادى المنظم من جانب المستعمرين والتجار والصناع الروس، الذين تمتعوا بمساندة وتشجيع الحكومة الروسية. وتوصل إلى استنتاج أن الشعوب الإسلامية لهذا السبب تمثل أمة بروليتارية. حيث تبددت الفروق الطبقية الداخلية بين المسلمين بالمقارنة بالتناقض الشديد بين دورهم التاريخى كشعب تعرض للاستغلال، ودور الروس الذين قاموا بهذا الاستغلال. ومن ثم كان تحقيق تقرير المصير للمسلمين (فى شكل استقلال ذاتى فعلى واسع المدى «لجمهورية طورانية تركية العرق» موحدة تشمل كل الشعوب الإسلامية الكبرى فى الاتحاد السوفيتى) يمثل خطوة ثورية للأمام حسب اعتقاد سلطان غالييف. وفى الواقع، فإنه كان يستعير تبرير لينين لثورته الاشتراكية المتعجلة اقتصاديا واجتماعيا فى روسيا، ويقول: إن التحرر القومى لأقاليم الشعوب الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى سيمثل شرارة ثورية ستطلق ثورة عالمية للأمم البروليتارية المقهورة، بما يؤدى إلى

انهيار الإمبريالية، ومن ثم الرأسمالية. أى أن هذا كان بمثابة نهج لانتقائية أو استثنائية المسلمين السوفيت، وأيديولوجية قومية مطرزة بالقيم الاشتراكية العامة. فأدت هذه الهرطقة الأيديولوجية إلى طرد سلطان غالييف من الحزب فى 1923م، ثم القبض عليه بعد ذلك، واختفائه فى 1928، وأعقب ذلك تطهير منظم لكل الشيوعيين المسلمين الذين كان هناك شك فى وجود ميول "شيوعية قومية" لديهم(64).

وكان قمع حركة سلطان غالييف بمثابة نهاية لأى شكل منظم أيديولوجيًا للقومية الإسلامية الجديدة فى الاتحاد السوفيتى. واستمر غرس الخصوصية الثقافية العرقية الرسمية فى أرجاء الاتحاد السوفيتى كأداة لفرض النهج الشيوعى وكمظهر كاذب يرعى التسامح والتعددية التى لم تكن أكثر من ورقة توت حاولت ستر عورات كثيرة من الاضطرابات الاقتصادية الاجتماعية والسياسية الوحشية والإرهاب الجماهيرى الذى ساد السنوات التى أعقبت تخلى ستالين عن «السياسة الاقتصادية الجديدة» فى 1928. وفى الواقع، كان هناك قدر كبير من إستراتيجية فرق تسد، والكثير من الإمبريالية الثقافية الإثنوجرافية فى سياسة القوميات السوفيتية. وغالبا ما كان رسم الحدود السياسية واللغوية والمؤسسية بين المجموعات العرقية يبدو تحكميا ومصمما لجعل رعايا هذه السياسات معتمدين على الدولة السوفيتية فى الحفاظ على هويتهم. ويبدو أن الأمر كان على هذا النحو فى التركستان التى تم تقسيمها إلى خمس جمهوريات سوفيتية (تركمانستان، أوزبكستان، قيرغيزستان، كازاخستان، وطاجيكستان) وعدد من الأقاليم الفرعية ذات الحكم الذاتى طوال الفترة من (1936-1924).

وكانت هذه الجغرافيا السياسية الجديدة تعتمد على البحوث الإثنوجرافية التى يقوم بها الأكاديميون السوفييت الذين فرضوا الأسماء العرقية على الشعوب التى كان تراثها الثقافى والتاريخى شديد التنوع والتعقيد والتداخل والتشابك بما يستعصى على التصنيف البسيط حسب أى معيار موضوعى حقيقى. (وبنفس المنطق، فإن ضم كل هذه الشعوب فى التركستان الموحد كان بمثابة مشروع بناء أمة بصورة قسرية مثيرة للخلاف). إذ إن النظام التعليمى لكل جمهورية كان سيدور حول مهمة الترويج للغة "قومية" معيارية ومتجانسة، وحول أسطورة

تاريخية رسمية تربط الكيان المكون حديثا بمجموعة عرقية أو دولة قديمة. (وعلى هذا النحو تم الإعلان عن أن الطاجيك أحفاد السُوغديان Sogdians)[65].

وبينما كان هذا الاتجاه يعمل على منع اتحاد حركات المقاومة القومية أو العرقية، فإنه لم يؤد مباشرة إلى تكوين الهوية السوفيتية القائمة على الأيديولوجية أو الطبقة فقط. حيث استمرت الجغرافيا السياسية للاتحاد العرقى تعمل كإطار مرجعى للهوية الجماعية، لأنها كانت تزداد قوة بسبب الجوانب الأخرى لسياسة القوميات السوفيتية. وكانت سياسة «التأصيل الجذرى» فى العشرينيات تمنح أعضاء كل جماعة أغلبية فى الجمهورية دورا ملموسا وبالغ الدقة للحفاظ على هويتها، مما كان يعتبر نقطة انطلاق للحراك الاجتماعى لأعلى. ولأن الأغلبيات والأقليات العرقية كانت متميزة عن بعضها رسميا كانت هناك صفة أخرى محيرة لهذا النظام، والمتمثلة فى أن الهوية الإقليمية تعادلها «جنسية جواز السفر ـ Passport nationality»[66]. إذ كان هذا المصطلح الأخير يشير إلى حقيقة أن جوازات السفر الداخلية التى صدرت منذ 1932م، فصاعدا كانت تعتبر كل مواطن سوفيتى عضوا فى مجموعة عرقية معينة. وكانت الهوية العرقية الشخصية تتحدد حسب النظام الأبوى، وليس حسب محل الميلاد[67]. ومن خلال الجمع بين مبادئ الهوية الإقليمية والهوية الشخصية على هذا النحو، مع مواصلة سياسات العمل الايجابى لصالح الجماعة المسيطرة داخل كل جمهورية، ما عدا جمهورية روسيا السوفيتية، ومع منح المعاملة التفضيلية للروس العرقيين فى نفس الوقت، عندما يتعلق الأمر بشغل الوظائف الإدارية الرئيسة فى "الحزب الشيوعى" فى أرجاء الاتحاد السوفيتى، كان النظام يفرض مزيدا من الطابع المؤسسى على الحواجز ومشاعر الكراهية بين القوميات المتشابكة. واستمر تجسيد الخلافات بين المجموعات العرقية قائما من خلال أطر الهوية المزدوجة الإقليمية وغير الإقليمية، بالإضافة إلى استخدام ستالين من حين لآخر للعرقية كفئة للتصنيف ـ والعقاب الجماعى ـ لمجموعات كاملة من الشعوب على أنها أعداء النظام[68].

وأخيرا، كان افتراض السوفييت أنه يمكن استغلال الثقافة واللغة والفولكلور القومى لخدمة هدف التجانس الأيديولوجى موضع نقاش. وكانت الضربات الساحقة توجه لأى تعبير عن الهوية لا يتوافق مع النموذج المعد رسميا. ومع ذلك، فإنه حتى الثقافات الضيقة جدا للهوية الرسمية لم تكن بمثابة وسائل محايدة تماما لنقل الخط الرسمى. أى أن الوسيلة استبدت فعلا بالغاية.

وتعتبر حالة الثقافة اليهودية مثالا توضيحيا لذلك. إذ إن اعتبار اليهود قومية مثل القوميات الأخرى (على الرغم من افتقارهم إلى قاعدة إقليمية)(69)، جعل السوفيت يتخلصون من التعليم الدينى اليهودى، ويضيقون على ممارسة الشعائر الدينية، ويهاجمون العبرية كلغة للدين والصهيونية، ويشجعون اليديشية كلغة رسمية للجماهير الكادحة اليهودية. وكانت القطاعات اليهودية من «الحزب الشيوعى الروسى» (التى يشار إليها عادة بـ «الطائفة اليهودية - Yevsektsiia» وتألفت هذه القطاعات الحزبية من كوادر يهودية مسئولة عن مراقبة السياسة والدعاية الثقافية بين السكان اليهود المنتشرين مكانيا. وحظيت هذه الكوادر بسمعة سيئة فى العشرينيات لأنها كانت تفرض السياسات المناهضة للدين والعبرية بقوة شديدة(70).

وحتى فى سياق هذه الملاحقة الثقافية المفروضة بقسوة، والتى كانت تدمر المؤسسات المجتمعية والدينية والتعليمية، وتجرد الأشكال والرموز الدينية من مضمونها، وتحولها إلى أدوات لترويج الدعاية الشيوعية، استمرت عناصر من الهوية اليهودية تعلن عن نفسها(71). ولكنهم لم يستطيعوا تفريغ الأشكال التقليدية من مضمونها بالسهولة التى تصورها المنظرون الاجتماعيون السوفيت. وعلى سبيل المثال تظهر الأبحاث الحديثة التى أجراها «جيف فايدلنجر - Jeff Veidlinger» أن العديد من المسرحيات التى أنتجها المسرح اليديشية بموسكو من العشرينيات حتى الأربعينيات كانت تتخبط بين رسالتها اللينينية الماركسية الصريحة والأطروحات العاطفية التى كانت تزحف بين السطور. ومع ذلك، هاجمت بعض المسرحيات مجتمعات «الشتيتل - Shtetl» (البلدة اليهودية) بسبب التفاوت الاجتماعى والظلامية الدينية فيها، لكنها مع ذلك كانت تنقل إحساسا بالحنين إلى العالم المفقود الذى كانوا ينكرونه. وفى الواقع، كان عدد من هذه

الكتابات عبارة عن اقتباسات ماركسية من أعمال تقليدية مثل أعمال «شولوم الايشم ـ Sholom Aleichem» (Solomon Rabinovitz 1859-1916)، الكاتب اليديشي الذي أصبحت وصفاته الساخرة للحياة في «الشتيتل» بمثابة أساس للقصيدة الغنائية المتعلقة بالماضي اليهودي في برودواي وهوليوود، تلك القصيدة المعروفة باسم «عازف الكمان على السطح ـ Fiddler on the roof» ويمكن أن تحتوي الأعمال الأصلية على مثل هذا القدر من الغموض، كما في حالة إحدى المسرحيات التي حولت قصة ثورة «بار كوشبا ـ Bar Kochba» في القرن الثاني ضد الرومان إلى حكاية رمزية ذات معنى أخلاقي عن الصراع الطبقي، ومع ذلك نقلت إحساسا واضحا بالفخر القومي (ربما حتى بنغمة صهيونية) بالأعمال البطولية للمحاربين اليهود من أجل الحرية[72].

وكما في حالة تجربة الألمان المحدودة وقت الحرب للتلاعب بالهويات العرقية الثقافية في أوربا الشرقية (راجع الفصل الخامس) كانت محاولة السوفيت تحويل العرقية إلى أداة للسيطرة الإمبريالية أو فوق القومية غامضة النتائج. فالسلطات السوفيتية ذاتها كانت متأرجحة في توجهاتها، حيث تحولت إلى سياسات الحد من الروسنة العلنية خلال الثلاثينيات، ثم تخلت رسميا عن سياسة "التأصيل الجذري"، وضمت العديد من المناطق المستقلة الصغيرة إلى الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، ورحلت مجموعات عرقية كاملة من القوقاز إلى آسيا الوسطى بعد بتهمة الاشتباه في تعاطفها مع الألمان خلال الحرب العالمية الثانية ، وأغلقت المسارح اليديشية، وأعدمت الكتاب اليديشية البارزين في الاتحاد السوفيتي في 1952، ثم تحولت إلى صيغة مخففة من سياسة «التأصيل الجذري» كجزء من عملية التخلي عن الستالينية كلية في النصف الثاني من عقد الخمسينيات.

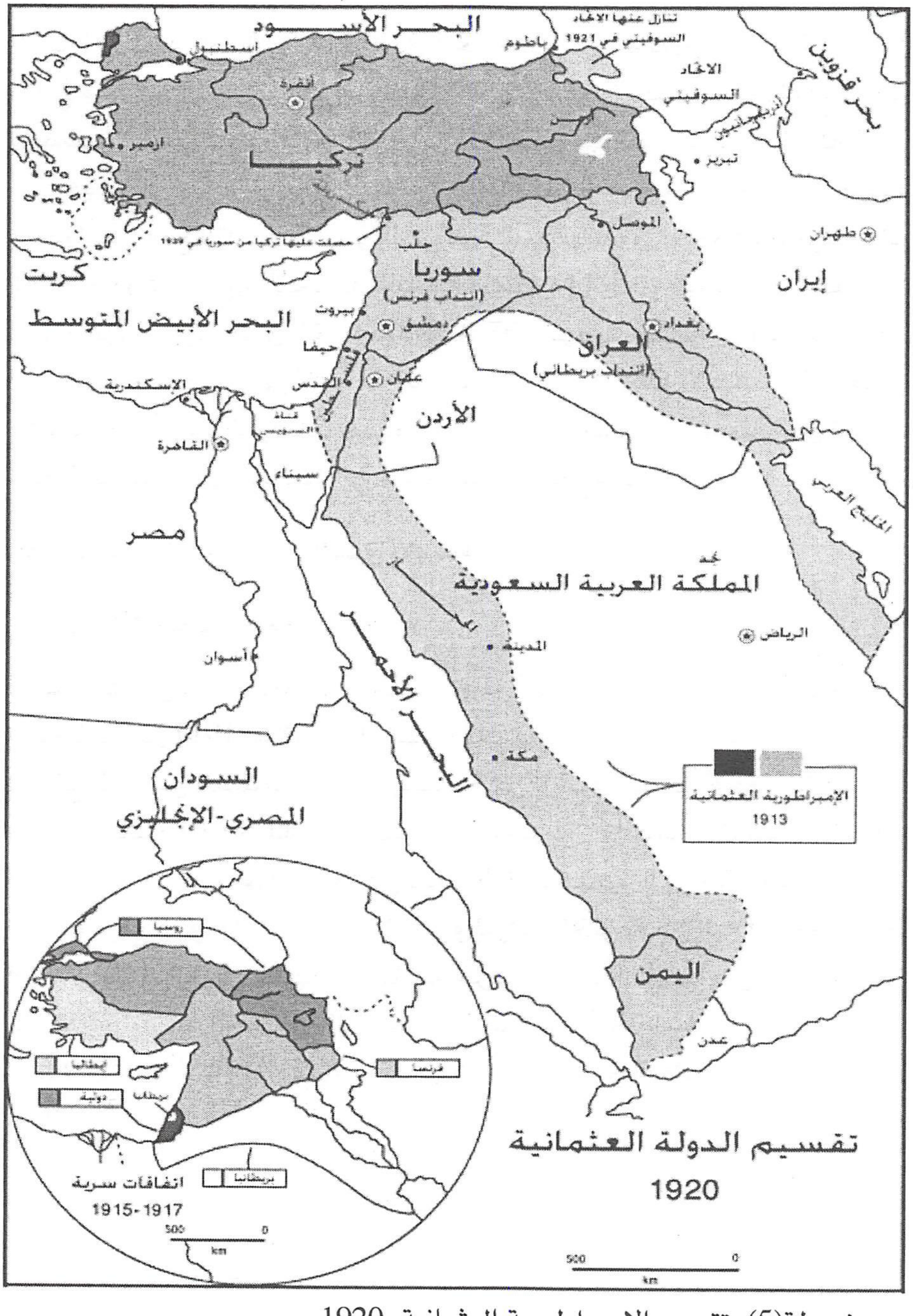
وعلى الرغم من كل هذا، ظلت الهياكل المؤسسية والتشريعية الرئيسة للاتحاد العرقي ـ مثل الجمهورية الإقليمية وتحديد القومية الشخصية في وثائق الهوية ـ سارية (بل ونقلت بدورها إلى يوغسلافيا الشيوعية وجمهورية الصين الشعبية، ربما بعد تعديلها). وحتى مع تصنيع الاقتصاد الروسي، والإدارة الجماعية للزراعة، وتوحيد المناهج التعليمية، والتي حققت قدرا كبيرا من التماثل في

الأوضاع المادية والهياكل الاقتصادية الاجتماعية لدى الشعوب المختلفة، نجد أن دوافع مقاومة التجانس الكامل وفقدان الهوية قد تزايدت بصورة أقوى لدى بعضها[73]. حيث أدى فتور الحماس الأيديولوجى للسنوات الأولى للاتحاد السوفيتى إلى زيادة جاذبية الثقافة القومية كإطار مرجعى للهوية الشخصية والجماعية. ومع التدهور النهائى للشيوعية السوفيتية من أواخر الثمانينات حتى 1991، ظهرت شرعية الاتحادية اللينينية باعتبارها البديل المؤسسى الوحيد لمبدأ الدولة البروليتارية الذى فقد مصداقيته. وقد انهارت جدلية سياسة القوميات اللينينية، وذلك لأن الهياكل التى صممت لتهدئة الدوافع الانفصالية وتخطى مشاعر العداء بين العرقيات أصبحت الآن تمثل الخطوط الفاصلة التى تفككت الدولة الروسية على أساسها إلى جمهوريات قومية مستقلة.

. إعادة بناء حدود الهوية فى الشرق الأوسط

. التسوية التركية والدولة الكمالية

على عكس إمبراطوريتى رومانوف والهابسبرج، لم يحدث انهيار الدولة العثمانية فى 1917 أو 1918. إذ إنها كانت تفقد تدريجيا المزيد من أراضيها لصالح الجيوش المتقدمة بقيادة بريطانية فى المشرق العربى. وجعل الاستسلام الوشيك لحلفائها الألمان والنمساويين المجريين، والتقدم المستمر للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط فى نهاية 1918، حتمية الهزيمة العثمانية أمرا واضحا. ومع هروب قيادة لجنة الاتحاد والترقى المخلوعة من البلاد لتجنب إلقاء قوات الحلفاء القبض عليها بسبب تهم جرائم الحرب الناجمة عن مذابح الأرمن فى 1915، وقعت الحكومة التى عيّنها السلطان حديثا «هدنة مودروس. Armistice of Mudros» فى 30 أكتوبر 1918، مما فتح البلاد أمام احتلال قوات الحلفاء[74].



خريطة(5): تقسيم الإمبراطورية العثمانية، 1920م.

وقد فرضت قوات الحلفاء المنتصرة التسوية السلمية التى أعقبت ذلك «معاهدة سيفر - Treaty of Sèvres» (10 أغسطس 1920)، حيث أقرت تقسيم المشرق العربى بين البريطانيين والفرنسيين، الذين كانوا سيديرون الأقاليم الموكلة إليهم فى ظل الانتداب من عصبة الأمم. وكان من المنتظر تقطيع الأناضول ذاتها إلى مناطق خاضعة لإدارة اليونان وفرنسا وإيطاليا وفرنسا وأرمينيا المستقلة سياسيًا، وكردستان المستقلة ذاتيًا أو سياسيًا، ودولة عثمانية متبقية ضعيفة تترك تحت سيطرة السلطان[75].

وكانت لجنة الاتحاد والترقى قد كونت قومية تركية وتشكيلات عسكرية سرية لحشد التأييد الشعبى للمجهود الحربى وضرب المجموعات العرقية المعادية (راجع الفصل الرابع). وقد قام العضو السابق فى تلك الجمعية وضابط الجيش «مصطفى كمال» باستدعاء تلك التنظيمات لاستمرار جهود المقاومة ضد القوى المحتلة والغازية وضد السلطان المتعاون مع تلك القوى. ورفضت حركة مصطفى كمال، التى كان مقرها وسط وشرق الأناضول، سلطة السلطان ، وأسست هيئة نيابية (الجمعية القومية الكبرى) فى أنقرة، ونجحت خلال الفترة من (1919-1922)، فى صد سلسلة من الهجمات العسكرية، وذلك بفضل المساعدات العسكرية والمالية التى قدمها الاتحاد السوفيتى الذى اعتبر كمال مناهضا مفيدا للإمبريالية الغربية. وانتصرت قواته على جيش يونانى حاول توسيع المنطقة التى احتلتها اليونان. وأجبر الفرنسيين على التفاوض على الانسحاب من «كليكيا - Cilicia» (على الحدود السورية). أما شمال شرق الأناضول - مسرح مذابح الأرمن فى 1915، فقد احتلتها جمهورية أرمينيا المستقلة فى أوائل 1919، وذلك بمباركة القوى الغربية. ثم استعادها كمال فى سبتمبر - أكتوبر 1920، فى نصر عسكرى دفع الحكومة الأرمينية إلى الأذرع الحامية للشيوعيين الروس. حيث سعت موسكو حينها إلى التنازل نيابة عنها عن الأقاليم المتنازع عليها مع تركيا[76]. وبعد فرض السيطرة على إسطنبول، وإلغاء السلطنة فى أواخر 1922، توجت حكومة كمال نصرها بإلغاء معاهدة سيفر المهينة ثم التفاوض على معاهدة لوزان (24 يوليو 1923) التى أرست السيادة الكاملة لتركيا، ووحدة أراضيها، وشرعيتها الدولية[77].

وهكذا فإن الدولة الوحيدة التى ظهرت مستقلة تمامًا على أنقاض الإمبراطورية العثمانية السابقة قامت على القاعدة التركية للإمبراطورية. وكان الملفت للنظر فى هذا التطور أن نخبة حاكمة جديدة ظهرت فى الإمبراطورية خلال السنوات الأخيرة من وجودها. وكان أعضاء "تركيا الفتاة" منقسمين بين جهود الحفاظ على تماسك الإمبراطورية متعددة العرقيات من ناحية، والتزامهم المتزايد بالقومية التركية من ناحية أخرى. ولكن هزيمة الإمبراطورية العثمانية حلت التوتر بين المصالح والأجندات المتناقضة التى شكلت سياسات لجنة الاتحاد والترقى. وأدى تدعيم السيطرة البلشفية على آسيا الوسطى إلى نهاية حلم الوحدة التركية، بينما حرر الاحتلال البريطانى الفرنسى للأراضى العربية القوميين الأتراك من الحاجة إلى تغطية أجنداتهم برداء الوحدة الإسلامية. وبالرغم من لجنة الاتحاد والترقى فقد مصداقيتها وتم حلها فى أعقاب الهزيمة العسكرية، فإن حركة مصطفى كمال القومية تعتبر الآن لدى المؤرخين [78]الوريث المباشر لتركيا الفتاة من عدة وجوه. فقد قام مصطفى كمال (الذى أصبح اسمه لاحقا كمال أتاتورك «أبو الأتراك») باستبقاء أو تعديل العديد من الرؤى الأيديولوجية وأساليب التعبئة للنظام السابق، وأصبح ضياء جوك آلب (راجع الفصل الخامس) الممثل الرئيسى للخط الرسمى.

وقد قدمت هزيمة اليونان فرصة لتدعيم القاعدة التركية العرقية للدولة القومية الجديدة، حيث فر 1.1 مليون يونانى من غرب آسيا الصغرى إلى اليونان، بينما انتقل 380 ألف تركى فى الاتجاه المعاكس، فى حركة انتقال سكانى فرضتها اتفاقية دولية وساندتها القوى الغربية. (وكان الانتماء الدينى يستخدم كعلامة للهوية العرقية فى هذا الانتقال السكانى، حيث وجد آلاف من أتباع الكنيسة «الأرثوذكسية الشرقية» الذين يتحدثون التركية أنفسهم مرحلين إلى اليونان، والعكس بالعكس). وكان عدد السكان الأرمن قد انخفض كثيراً بسبب المذابح والطرد فى 1915. بالإضافة إلى عشرات الآلاف من الأرمن الذين فروا من كليكيا إلى لبنان أو أماكن أخرى عقب الانسحاب الفرنسى من تلك الإمارة فى 1921. أما الأكراد - وهم سكان قرويون أساسا، وليست لهم علاقات دينية أو ثقافية أو تجارية بالغرب، ولم يتنافسوا اقتصاديا مع النخب التركية الحضرية الصاعدة.

فقد اعتبروا مشاكسين رافضين للاستيعاب فى الثقافة والهوية التركية. وكانت أية محاولة من جانبهم لمقاومة سلطة الدولة القومية التركية، أو تأكيد مصالحهم الذاتية الجماعية كقومية متميزة، تقمع بوحشية[79].

وكانت المجموعات العرقية التى تحولت تقليديا إلى القوى الغربية طلبا للحماية تعامل على أنها عناصر غريبة يجب التخلص منها من الكيان التركى. وكانت الهوية التركية تعرف نفسها فى ضوء مصطلحات غربية التوجه وعلمانية التكوين. وأعلنت تركيا جمهورية فى أكتوبر 1923، وألغيت السلطة الروحية المتبقية للخلافة فى 1924، واستخدمت دولة مصطفى كامل الاستبدادية سلطة صارمة لفرض تصورها للهوية القومية العلمانية الحديثة طوال العشرينيات بمنع ارتداء الطربوش (والذى كان أدخل فى أوائل القرن التاسع عشر كجزء من المظهر الجديد المرتبط بحركة إصلاح التنظيمات)، وتشجيع تبنى الملابس ذات النمط الغربى، وجعل قانون الأحوال الشخصية علمانيا تماما (وهو آخر مجال شرعى كان قد نجى من العلمانية الكاملة فى ظل النظم السابقة)، وتوسيع الحقوق القانونية للمرأة، وتبنى الأبجدية اللاتينية، ومحاولة "تنقية" اللغة التركية بتخليصها من الكثير من مفرداتها العربية والفارسية. ويمكن اعتبار هذا النهج محاولة لتكوين وعى مدنى شامل (نجحت الدعاية له بين الطبقات الوسطى الحضرية أكثر منها بين القرويين) بناء على الجمع بين الحضارة الغربية والثقافة التركية. ولكن المدنية القومية التركية قامت على شرعية الإبادة الجماعية والتطهير العرقى، وروج لها نظام استبدادى لا يتسامح مع التفاصيل الدقيقة لسياسة التعددية[80].

وكان يبدو أن الاستخدام المنظم لمؤسسات الدولة لتكوين وعى قومى تركى، وتحديث المؤسسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد، كان ناجحا فى ذلك الوقت، ويمثل نموذجا قويًا تحاول الدول القومية الحديثة فى الأقاليم العثمانية القديمة تقليده[81]. ومع ذلك، نجد أن العالم العربى - على عكس تركيا - ظل تحت القوى الإمبريالية الأوربية مقسما بسبب اختلافات داخلية واضحة حول معنى القومية العربية ومعالمها الجيوبوليتيكية.

قامت إنجلترا وفرنسا تدريجيا بتسوية الخلافات الناجمة عن رغبة بريطانيا فى مراجعة ما تم الاتفاق عليه سلفا بشأن مجالات النفوذ فى 1916، وذلك فى الأراضى الواقعة جنوب تركيا. ففى مؤتمر «سان ريمو - San Remo» فى 1920، اتفق الطرفان على سيطرة بريطانيا على بلاد ما بين النهرين (العراق) وفلسطين (مع اقتطاع بريطانيا فى (1921-1922)، للأراضى الواقعة شرق نهر الأردن لتكوين كيان مستقل يسمى «الأردن») وسيطرة فرنسية على سوريا ولبنان. وكانت انتدابات عصبة الأمم (التى تمت الموافقة عليها فى 1922) تمثل الإطار القانونى الدولى لهذه الترتيبات[82]. وكان مبرر الانتدابات يخلط بين مبدأ ويلسون والممارسة الإمبريالية بصورة محرجة. حيث اعتبروا سكان الأراضى العربية غير ناضجين سياسيا - أى أنهم لم يصبحوا قادرين على حكم أنفسهم. ولذلك كان يجب وضعهم تحت الوصاية «الكريمة» للبريطانيين والفرنسيين. الذين كانوا سيقومون بقيادتهم نحو الاستقرار الحقيقى. وبينما كان مطلوبا من السلطات المفروضة أن تقدم تقارير دورية إلى عصبة الأمم عن تقدمها فى القيام بواجباتها، لم يكن هناك تاريخ نهائى محدد لتسليم الحكم إلى السلطات المحلية. ففى الحقيقة، كانت الانتدابات وسيلة مناسبة للسياسات الإمبريالية للبريطانيين والفرنسيين، الذين اتفقوا على تقسيم الإقليم بعد الحرب إلى مناطق نفوذ فى اتفاقية سايكس - بيكو فى 1916 والذين أحكموا السيطرة على هذه الأقاليم من خلال الغزو العسكرى ثم قمع المقاومة المحلية فى العراق وسوريا.

ومع ذلك، فإن القول بأن السياسة الإنجليزية والفرنسية كانت تتشكل بالمصالح والقيم الإمبريالية لا يعنى القول إن الشكل المؤسسى للانتداب لم يكن له تأثير على نمطهم فى الحكم[83]، ولا يعنى القول إن هذه الفترة لم تمثل الحد الأدنى فى تطور قوميات الشرق الأوسط - لأنها كانت كذلك بالفعل. إذ إن شدة التحكم فى الحدود التى تفصل نظام انتداب عن الآخر كان لها أثر مهم على تطور الدول والهويات داخل الإقليم، على نحو ما فعلت التجارب الفرنسية والبريطانية بالأشكال المختلفة من ربط سيادتها الإمبريالية المطلقة بالقومية المحلية.

وفى حالة فلسطين، نجد أن مطالبة بريطانيا بهذا الإقليم كانت مرتبطة بتبنيها لتطلع الحركة الصهيونية إلى تأسيس «وطن قومى للشعب اليهودى» فى فلسطين، كما صاغه إعلان بلفور فى نوفمبر 1917م، بصورة حذرة[84]. فكان انتداب عصبة الأمم على فلسطين يمثل الإطار القانونى الدولى لمشروع بناء هذه الأمة. حيث تضمن محتوى لغة إعلان بلفور وألزم البريطانيين بتسهيل هجرة اليهود والتعاون مع الوكالة اليهودية فى تطوير الأرض، مع حماية حقوق السكان العرب فى الإقليم[85].

أما إلى الشمال، فقد فرض الفرنسيون أنفسهم على لبنان فى 1919، وبعد انسحاب قوات الاحتلال البريطانى من سوريا فى 1919، وإبرام معاهدة سان ريمو فى أبريل 1920، استخدموا القوة العسكرية فى 1920، لتأكيد مطالبتهم بسوريا، حيث كان فيصل بن الشريف حسين قد أعلن ملكا فى قرار نهائى بالعصيان القومى. ولكن فيصل هزم فى "معركة ميسلون" فى يوليو، وهرب الملك نفسه إلى المنفى، مما أفسح المجال أمام فرض حكم الانتداب الفرنسى. ومارس الفرنسيون سلطتهم فى لبنان وسوريا بأسلوب عنيف، وجربوا اختيار تحالفات مختلفة من الشخصيات المحلية فى حكومات صورية، مع بقاء السلطة النهاية فى أيدى المفوض السامى الفرنسى[86].

وعلى العكس، كان البريطانيون يميلون إلى التحرك بسرعة نحو منح المزيد من الحكم الذاتى الفعلى، أو حتى الاستقلال الرسمى فى أراضى المشرق العربى - ماعدا فلسطين - حيث أثار الصراع المتزايد بين اليهود والعرب من صعوبة تقرير من سيمارس السلطة فى حكومة مستقلة ذاتيا. وفى شرق الأردن (التى تقابل مملكة الأردن حاليا)، تم تنصيب عبد الله شقيق فيصل أميرا تحت إشراف المندوب السامى البريطانى. وفى العراق، وبعد قمع انتفاضة شعبية ضد الإنجليز بقيادة الزعامات التقليدية فى 1920، ثم تنصيب فيصل ملكا فى 1921، تعويضا له عن خسارته سوريا، وكطريقة لتكوين نظام وسيط بين السيادة البريطانية والسكان المحليين. وحصل العراق على الاستقلال الرسمى فى 1932 فى إطار معاهدة 1930، التى جعلت بريطانيا أكبر قوة عسكرية واقتصادية وسياسية فى

البلاد. وفى 1936، تم التفاوض على ترتيب مماثل فى مصر التى كانت تحت الحكم البريطانى منذ 1882.

ومن خلال تكوين واجهة للحكم الذاتى العربى تغطية سيادتها فى الأردن والعراق برداء الأسرة الهاشمية، كان البريطانيون يأملون فى استغلال القومية العربية وقت الحرب كوسيلة لطموحاتهم الامبريالية. وبالرغم من أن دوافعهم كانت استغلالية أنانية، وبالرغم من أن أساليبهم كانت تقوم على التلاعب، فإن تنفيذ هذه السياسات أدى إلى وضع بعض الهياكل الأساسية التى تشكلت داخلها الهوية السياسية العربية. حيث أدى أسلوبهم المفضل فى الحكم غير المباشر، وارتباطهم بالأسرة التى قادت الثورة العربية، إلى فرض ضغوط الإصلاح على الفرنسيين الذين ظهروا أكثر قمعا وأقل شرعية فى حكمهم لسوريا ولبنان بالمقارنة بهم. ففى ظل حكمة "الجبهة الشعبية" المنتمية ليسار الوسط فى 1936، حاولت فرنسا تقليد النموذج البريطانى بالتفاوض على ما تحول إلى اتفاقية قصيرة الأجل مع القوميين فى سوريا، والتى ظهرت على أنها تضع ذلك البلد على الطريق إلى شبه الاستقلال تحت الغطاء الإمبريالى الفرنسى.

وهكذا نجد أن العرب لم يحققوا الاستقلال السياسى الكامل فى أعقاب الحرب مباشرة، على عكس أقرانهم فى شرق أوربا الوسطى. ومع ذلك، وضعت أطر المفاهيم والمؤسسات للدول المستقلة تحت رعاية القوى الإمبريالية. إذ إن بريطانيا وفرنسا استخدمت أجهزة هذه الدول كأدوات للسيطرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية على المشرق العربى. وبنفس الطريقة فإن الدول المكونة حديثا أصبحت بمثابة الأوعية الأساسية التى نبتت فيها القومية العربية (واليهودية فى فلسطين أيضا) كأيديولوجيا سياسية مسيطرة، وأخذت فيها بعض ملامحها الشكلية المميزة أيضا. وفى نفس الوقت، فإن الوجود التطفلى لسلطات أوربية غير إسلامية كان يؤدى إلى إثارة نمو القومية بين الجماهير على نطاق لم يفعله الحكم العثمانى. فقد فتحت هذه السياسة الباب للتجارب الدعائية للمنظمات الشعبية الوليدة التى ربطت الصور والرموز الإسلامية المألوفة بكراهية الأجنبى فى مركب قومى أكثر وضوحا لدى الجماهير العريضة إذا ما قورن بالأيديولوجية العلمانية لدى النخب القومية العربية[87].

ويشير كل هذا إلى أن تراجع الإمبراطورية العثمانية بالإقليم كان بمثابة نقطة تحول فى تطور الدول القومية، وهو تحول يبدو أكثر أهمية من تفكك السيطرة الأوربية بعد الحرب العالمية الثانية. ولذلك فإن تطورات ما بعد الحرب العالمية الأولى تستحق أن نتناولها هنا بقدر من التفصيل، بالرغم من العامل الشاذ المتمثل فى الوجود الإمبريالى الفرنسى والبريطانى.

. الدولة مقابل الأمة فى العالم العربى

لقد شكل التحول الجيوبوليتيكى للشرق الأوسط تطور الهويات بطرق مختلفة وعلى عدد من المستويات. فبداية، كان اختفاء الإطار العثمانى الشامل برئاسة السلطان/الخليفة يعنى أن فكرة "الأمة" لم تعد تقابل أى هيكل سياسى قائم. وهكذا تركت النخب الاجتماعية والمثقفين العرب يبحثون عن إطارات مرجعية بديلة.

وكانت أكثر الأفكار جاذبية تتمثل فى فكرة القومية العربية، التى لم يعد معتنقوها يقصرون أنشطتهم على الجمعيات السرية بعد اختفاء الأتراك من الساحة[88]. حيث نجحت سياسات جمال باشا الوحشية خلال الحرب فى تفكيك البناء التنظيمى للجمعيات السرية، بينما منحت مصداقية لادعائها أن العرب كشعب كانوا يعانون من قمع الأتراك. واكتسب الانتصار الواضح للقوات العربية عند دخولها دمشق فى أكتوبر 1918، هالة أسطورية، والذى أصبح أكثر تأثيرا وإثارة للذكريات بسبب طرد الفرنسيين لفيصل بعد ذلك. وكان تولى الأخوين الهاشميين عرشى الأردن والعراق يضمن أن حلم توحيد العرب تحت أسرة واحدة سيستمر يحظى باحتمال كبير[89]، وذلك مع وصول القادة المحتملين لهذه الحركة إلى مواقع السلطة فى كيانات سياسية تتمتع بالحكم الذاتى. وبنفس المنطق، كان حلم الوحدة العربية يحظى بجاذبية خاصة كبديل علمانى حديث «للأمة» (وكبديل أيضا لفكرة العثمانية التى لا تحظى بمصداقية، والتى كانت فى حد ذاتها بديلا علمانيا متكاملا «للأمة»، راجع الفصل الثالث) وذلك لأنها كانت تتخطى خطوط التقسيم المفتعلة التى فرضتها القوى الغربية على الإقليم.

غير أن أنصار الوحدة السياسية العربية كانوا يميلون إلى التطلع إلى الحكام الهاشميين، أو على الأقل إلى أجهزة الدولة التى كانوا يرأسونها، باعتبارها أدوات لتحقيق أغراضهم. ولكن أى حاكم، وأية حكومة، وأى جيش، كان يجب أن يتولى هذا المشروع؟ إذ إن الحقيقة كانت تتمثل فى أن التقسيم الإنجليزى - الفرنسى للشرق الأوسط، على الرغم من كونه تقسيما مفتعلا، أدى إلى تكوين موقف متناقض شعر فيه العديد من النخب السياسية بالاضطرار إلى الدعوة (قولا لا فعلا) إلى بلوغ يوم تتقلص فيه الحدود المفتعلة التى قسّمتهم، بينما كانت هذه النخب تتنافس فيما بينها على الفوز بموقع متميز داخل هذه الحدود المجزأة.

وفى الواقع، كان تيار الخطابة السائد حول مصير الأمة العربية يناقض التبلور السريع للهويات السياسية التى تدور حول الدولة بين النخب فى سوريا والعراق وبين عرب فلسطين. وحتى خلال أوج الاستقلال القصير لسوريا فى (1918-1920)، نجد أن التوترات الواضحة بين دوافع القومية العربية والدوافع الإقليمية عبرت عن نفسها بوضوح. حيث وجد فيصل نفسه يجرى عملية توازن دقيقة بين الشخصيات المحلية، والتى لم يستطع تحولها الخطابى السريع من العثمانية إلى العربية إخفاء اهتمامها الثابت بضمان الاحتفاظ بمناصبها الإدارية، وشبكات رعايتها، ونفوذها السياسى تحت أى نظام يصل إلى السلطة، والطاقم المتنافر من الضباط الأشراف وأعضاء الجمعيات السرية القومية الذين كانوا يعتبرون نظام فيصل نقطة انطلاق لتحقيق تطلعات الوحدة العربية. وكانت هناك مجموعة ثانية - ممن فازوا بأغلبية المقاعد فى "المؤتمر السورى" فى انتخابات 1919 - منقسمة بين أعضاء جمعية «الفتاة» السوريين غالبا، والضباط العراقيين المنتمين لجمعية «للعهد» (و منهم أشراف سابقون ومنهم من استمروا فى العمل فى الجيش العثمانى حتى نهاية الحرب)، وفرقة صغيرة ولكنها نشطة من العرب الفلسطينيين الذين انضموا إلى المؤتمر (الذى أصبح اسمه المؤتمر السورى العام) فى مارس 1920، ولكن المجموعة الأخيرة شعرت بالإحباط لعدم قدرتها على جعل نظام فيصل يتبنى موقفا أكثر نشاطا فى مناهضة الصهيونية (وفى الواقع، كان فيصل قد أبرم " تسوية مؤقتة" مع حاييم فايتسمان فى يناير 1919، على أمل كسب التأييد الصهيونى والبريطانى ضد الفرنسيين)[90]، بينما

كانت المجموعات القومية العربية العراقية والسورية تتنافس مع بعضها على ممارسة النفوذ السياسى على النظام. وقد حازت جهود فيصل للتوصل إلى ترتيبات توافقية مع الفرنسيين على تأييد الشخصيات السورية، ولكنها أثارت حفيظة القوميين الملتزمين الذين كانوا يسيطرون على «المؤتمر السورى العام». واستنادا إلى الاضطراب العام (والذى ربما كان بمثابة أول إعلان واضح عن المشاعر القومية، وإن بدا شأنا سوريا أكثر منه شأنا عربيا)[91]، أجبر المؤتمر فيصل على قبول لقب ملك سوريا المستقلة فى 8 مارس 1920، كإشارة تمرد على فرنسا. ولكن مؤتمر سان ريمو فى أبريل 1920، والغزو العسكرى الفرنسى والانتصار فى معركة ميسلون فى يوليو، وفرار فيصل إلى المنفى، توالى وراء بعضه فى فترة قصيرة[92].

ومع سحق الاستقلال السورى، فقدت دمشق دورها كمحور للجهد المشترك والكفاح الجاد بين القوميين العرب من مختلف أنحاء الإقليم. وتبعت الفرقة العراقية فيصل إلى بغداد، واختفى القوميون العرب السوريون أو انسحبوا إلى مناطق الانتداب البريطانى، حيث استمروا فى تركيز اهتمامهم على التطورات التى تحدث فى بلادهم (حيث منح الفرنسيون معظمهم عفوا عاما آجلا أو عاجلا كجزء من جهود متفرقة للاستيعاب السياسى)، وعاد النشطاء الفلسطينيون إلى وطنهم. وظل الكثيرون منهم ملتزمين بحلم الوحدة العربية، ولذلك كان الطريق الوحيد للبقاء نشطين سياسيا يتمثل فى العمل داخل أطر نظم الانتداب فى بلادهم[93].

ويمثل القوميون العرب الفلسطينيون حالة خاصة. حيث كان الكثيرون منهم - مثل نظرائهم السوريين - ينتمون إلى الطبقة الحضرية التى سيطرت على السياسة وشبكات الرعاية المحلية طوال نصف القرن الأخير من الحكم العثمانى. ولكنهم كانوا يتميزون بصفات أخرى، فهم أكثر شبابا وتم استبعادهم (على يد تركيا الفتاة) من المناصب والمزايا التى اعتبروها حقا لهم بناء على السوابق التاريخية (راجع الفصل الثالث). وخلال الفترة (1918-1920) شارك العديد من هؤلاء النشطاء فى «المؤتمر السورى العام». بينما تطلع الذين بقوا فى فلسطين إلى دمشق طلبا للإلهام والقيادة. وكان العديد منهم ينتمى إلى منظمة مشابهة

«للفتاة» مقرها فلسطين، وكانت هذه العناصر تسيطر على أول «مؤتمر عربى فلسطينى» فى يناير - فبراير 1919، والذى أصدر قرارات لصالح تكوين «سوريا الكبرى» التى تشمل فلسطين. إذ كان اسم فلسطين يشير إلى وقت قريب إلى منطقة جغرافية غير محددة بوضوح، لها أهمية دينية وثقافية اجتماعية، ولكنها لا تمثل أية وحدة إدارية فى ظل الحكم العثمانى (و هو ما لم تفعله سوريا أيضا). وكانت حكومة فيصل فى دمشق تمثل المرشح الأوفر حظا لقيادة عرب الإقليم نحو الاستقلال.

ومع سقوط نظام فيصل، أصبحت النخبة القومية الشابة فى فلسطين بلا خيار سوى العمل داخل حدود فلسطين الواقعة تحت الانتداب، حيث كان الجيل الأقدم من الشخصيات البارزة قد بدأ فعلا فى غرس فكرة الوطنية الفلسطينية كوسيلة لتأكيد مصالحها المحلية فى مواجهة السلطات البريطانية وفى وجه التحدى الصهيونى. وقد انعكس تحول اهتمام الجيل الجديد إلى التركيز على منطقة الانتداب فى قرارات "المؤتمر العربى الفلسطينى الثالث" فى ديسمبر 1920، والتى تخلت عن الحديث عن "سوريا الكبرى" لصالح القرارات التى تنادى بالحكم الذاتى للعرب فى فلسطين[94].

ولعب التطور السريع للمشروع الصهيونى تحت رعاية الانتداب البريطانى دورا مهمًا فى سرعة تطور وعى قومى عربى فلسطينى متميز خلال فترة ما بين الحربين. إذ كانت معارضة الاستيطان الصهيونى المبكر واضحة جدا فى الصحافة المحلية، ومن خلال النواب البرلمانيين العرب خلال العقد الأخير من الحكم العثمانى. ولكن فيما بعد الحكم العثمانى، وبعد معركة ميسلون، بدأت هذه المعارضة تأخذ بوضوح شكل القومية العربية الفلسطينية المتميزة التى استجابت لمطالب الصهاينة بالأرض كوطن لليهود باعتبار نفس الأرض بمثابة حق جماعى لسكانها العرب بحكم المولد. ولكن البرنامج الصهيونى للحصول على الأراضى، الذى ركز على شراء العقارات العربية الفردية من ملاكها الغائبين، عجل بتطور الوعى القومى بين كل من النخب والقرويين العرب الفلسطينيين، خاصة المسارعين والمشاركين المستأجرين الذين كان احتمال طردهم من أراضيهم مرتبطا بالإحساس الأوسع بالإقليمية القومية. وكان الصهاينة يعتبرون الأراضى التى

يشترونها غير قابلة لنقل الملكية، ويملكها «الصندوق القومى اليهودى» باسم الشعب اليهودى، حيث كان يمكن تأجير هذه الأراضى للمستوطنات الزراعية اليهودية، ولكن لا يمكن بيعها أبدا. واستجاب القادة العرب الفلسطينيون على ذلك بالتأكيد على جوهرية حيازة الأراضى العربية فى الحفاظ على وحدة بلادهم. وكان بيع مزرعة واحدة للصهاينة يعتبر بمثابة التنازل عن قطعة من الوطن الأم للعدو. ففى داخل فلسطين، كان السبب فى اشتعال الصراع بين الحركات القومية الصهيونية والعربية يتمثل فى غياب حدود واضحة بين هذه الحركات. وكان كل احتكاك محلى (كالصراع بين المستوطنات اليهودية والقرى العربية المتجاورة، والتوترات حول المطالب العربية بحقوق الرعى فى الأراضى التى اشتراها «الصندوق القومى اليهودى») يتحول إلى حادث مشحون بالمضامين القومية[95].

وكما تشير الحالة الفلسطينية، فإنه بينما وضعت معركة ميسلون نهاية للإطار الدمشقى الهش لتعاون رابطة الوحدة العربية، نجد أنها أدت أيضا إلى اندماج النخب السياسية الأكثر تماسكا فى إطار دول الانتداب المختلفة. وكانت حدود الانتداب والاختلافات الطائفية تشكل مجتمعات متميزة ذات هوية سياسية، وكان الكثير منها يستخدم خطاب القومية العربية لتحقيق مصالحه المتنافسة[96].

. الطائفية والسياسة العرقية فى المشرق العربى

كانت القومية العربية أيديولوجية مرنة للغاية عرضت نفسها للعديد من التفسيرات والتطبيقات، وذلك لأن تطلعاتها كانت منفصلة عن الوضع القائم للحدود السياسية فى المشرق العربى بعد الحكم العثمانى، وكانت غير محددة جغرافيا وثقافيا. وحاصرها عدد كبير من المصالح الإقليمية والمجتمعات الطائفية، سواء كانت مصدرا لإضفاء الشرعية على مصالحها الخاصة، أو كأساس أيديولوجى لبناء التحالفات بين الجماعات ذات المصالح المشتركة، أو كتجسيد للخطر الوجودى لمجموعات الأقليات التى كانت تخشى من احتمالات العنف أو القهر التى كانت ترتكب باسمها، والتى كانت تستجيب بغرس إحساسها الخاص بالتميز القومى العرقى.

وكان التوجه الخاص لأية طائفة أو مجتمع إقليمى عرقى[97]، نحو القومية العربية . ونحو النخب الإسلامية السنية التى كانت تسيطر على النظم والمنظمات القومية- يتأثر بمجموعة من العوامل، ويخضع للتغير عبر الزمن. وفى الواقع، كان العديد من المجتمعات منقسما داخليا حول هذه المسألة. ولعبت السياسات التى مارستها سلطات الانتداب دورا مؤثرا فى تشكيل هذا الاصطفاف الطائفى. وكان ذلك واضحا جدا فى حالة الأقاليم الخاضعة لفرنسا .

وكانت فرنسا تحاول طوال عقود . إن لم يكن طوال قرون . قبل الحرب العالمية الأولى، أن تلعب دور حامية المجتمعات الكاثوليكية فى المشرق العربى. ولذلك أقامت علاقات سياسية وثقافية وثيقة جدا مع الموارنة فى جبل لبنان . وهم أعضاء الكنيسة النسطورية التى تعترف بالسلطة الروحية للبابا . ولعبت فرنسا دورا رائدا فى التدخل العسكرى والدبلوماسى الأوربى الذى أنهى مذابح الموارنة على أيدى جيرانهم الدروز[98] فى 1860 . ففى أعقاب هذه الأزمة، تأكد الاستقلال الذاتى الذى كان يتمتع به هذا الإقليم عادة، وأصبح رسميا فى معاهدة دولية أنشأت متصرفية (ضاحية) جبل لبنان كإقليم به أغلبية مارونية نسبتها 60 %، وتتمتع بامتيازات خاصة وبقدر من الحكم الذاتى تحت حاكم مسيحى يعيِّنه العثمانيون[99].

ومع تجربة القهر السياسى وقت الحرب فى ظل جمال باشا، والمجاعة المدمرة وقت الحرب والتى أودت بنحو خمس سكان جبل لبنان، وجد زعماء المجتمع ورجال الدين الموارنة أنفسهم شديدى النفور من قبول السيطرة السياسية الإسلامية، وشديدى التطلع إلى التحول إلى مساندة فرنسا لاستعادة وتوسيع المجال التشريعى والإقليمى لاستقلالهم الذاتى. وبالرغم من أن بعض القادة الموارنة حاولوا التوصل إلى تفاهم مع فيصل فى دمشق، فإن سلطات الكنيسة المؤثرة ظلت تعارض بشدة اندماج جبل لبنان فى دولة عربية. فبالنسبة لمعظم الموارنة، كانت القومية العربية تمثل آخر تجسيد للتهديد الإسلامى القديم. ولذلك كانوا يطالبون بدلا من ذلك بتكوين دولة مارونية مستقلة ذات حدود تمتد خارج جبل لبنان لتشمل أراضى يطالبون بها على أسس تاريخية واقتصادية. وقد ساعدت توليفة الضغوط المحلية من البطريرك المارونى، ونشاط المهاجرين فى

فرنسا، وانهيار العلاقات الفرنسية مع فيصل، على إقناع السلطات الفرنسية بتلبية مطالب الموارنة من خلال منحهم مناطق كانت تاريخيا جزءًا من إمارة دمشق العثمانية.

وكانت دولة «لبنان الكبرى» الناتجة عن ذلك (والتى أعلنت فى سبتمبر 1920) والتى ظلت تحت سلطة المفوض السامى الفرنسى لسوريا ولبنان، ولكنها منحت دستورا جمهوريا فى 1926، تشمل كل المعضلات والتناقضات المحتملة التى يمكن أن يسببها تكوين دولة قومية. إذ إن المناطق الجديدة التى ضمت إلى جبل لبنان كانت تحتوى أغلبية مسلمة، بالرغم من انقسامها إلى سنة وشيعة. وكان المسيحيون أغلبية طفيفة من سكان الدولة الجديدة، بل إن الموارنة أنفسهم كانوا لا يزيدون على 32% فقط. وهى النسبة التى كانت تتناقص باستمرار بمرور الوقت بسبب تفاوت معدلات المواليد. وكان أعضاء الكنائس اليونان الأرثوذكس واليونان الكاثوليك والأرمن وغيرهم من الكنائس المختلفة لا يقبلون بدور تابع فى دولة يسودها الأرمن. بل إن حقيقة أن القيادة السائدة للموارنة تعرفهم على أنهم ليسوا من العرب[100] كونت شعورا قويا لدى جيرانهم المسلمين الساخطين بإعادة الاتحاد مع سوريا باسم القومية العربية. ومنذ وقت مبكر (1919-1920) كان جبل لبنان وما حوله من مناطق حضرية خاضعة للاحتلال الفرنسى مسرحا لشن هجمات ضد الفرنسيين وحلفائهم الموارنة، قامت بها مجموعات مسلحة من التجمعات الدرزية والسنية والشيعية - وهى الهجمات التى كان يقودها أو يثيرها من داخل تلك التجمعات أنصار القومية العربية ممن لديهم روابط قوية بنظام فيصل. فلم يكن العنف بين التجمعات أمرا جديدا على هذا الإقليم، ولكن القومية العربية والقومية اللبنانية المارونية كونتا أطرا شرعية حديثة لاستمراره، بالإضافة إلى انتقاله من مجال المجتمعات الجبلية التقليدية إلى المراكز التجارية مثل بيروت، المتحررة ظاهريا من الأحقاد القومية.

وفى محاولة لرعاية مصالح المجتمعات المختلفة فى الدولة الجديدة، ساند الفرنسيون تشريع دستور يقرر وينشر مبدأ كان موجودا بصورة أولية فى المتصرفات العثمانية - أى توزيع كل مقاعد المجالس التشريعية على أعضاء المجتمعات الطائفية المختلفة حسب معادلة ثابتة بناء على أرقام تعدادات السكان.

وبينما كان كل المقيمين البالغين فى منطقة معينة، بغض النظر عن الانتماء الدينى، يشاركون فى انتخاب قائمة المرشحين متعددى الطوائف كممثلين فى «مجلس النواب»، كان هذا النظام يقوى فكرة أن القادة السياسيين للبلاد كانوا مسئولين أولا أمام مجتمعاتهم الدينية التى يمثلونها. وكان هذا النظام بمثابة أسلوب يهدف إلى الإصلاح بين المجموعات غير المارونية المختلفة مع دخولها فى لبنان الكبرى. حيث ساعد على تخفيف التوترات، ولكنه ساعد أيضا على تقوية وفرض المؤسسية على التقسيم الرأسى للوعى السياسى على أسس طائفية، مثلما فعل التفاهم غير الرسمى حول توزيع المناصب التنفيذية والوزارية بين المجتمعات الدينية المختلفة.

وقد استقرت الاختلافات البارزة بين المجتمعات المتباينة فى لبنان فى الميثاق القومى[101] الذى ساندته بريطانيا فى 1943، وهو اتفاق شفهى ملزم اتفق فيه الزعماء الموارنة والسنة معا على قطع علاقتهم بفرنسا وتأكيد الاستقلال التام. وكان الإطار الخطابى لهذا التحالف يتمثل فى بيان يصف لبنان «كوطن ذى واجهة عربية يأخذ من ثقافة الغرب ما ينفع العرب»[102]. ومع ذلك، كانت هذه الصياغة التى تشير إلى هوية مدنية جديدة ترتكز على الجمع بين الجذور العربية والقيم الغربية، ينفيها تأكيد الميثاق لنظام الحصص السياسية التقليدية، والذى يحدد توزيع المناصب العليا على زعماء الطوائف المختلفة. واتضحت هشاشة هذا النظام من حقيقة أن سنة 1932، كانت آخر سنة لتعداد السكان فى لبنان (وما زال العمل ساريا بهذا التعداد إلى اليوم)، وبالتالى فإن إعادة التفاوض على توزيع المقاعد التشريعية والمناصب السياسية طبقا للتغيرات السكانية يمثل سيناريو بوسعه تهديد بقاء لبنان كدولة.

أما فى سوريا، فقد ساهم عدم كفاءة وعدم اتساق السياسة الفرنسية فى صياغة تحالفات مجتمعية تعتمد على منبر سياسى قومى عربى. وكان هذا أكثر وضوحا فى حالة الدروز فى جنوب غرب سوريا (فى جبل الدروز). إذ كان هذا المجتمع القروى أساسا لا يزال يدور حول هيكل العشيرة، بالرغم من أن بعض أكثر قادته نفوذا كانوا قد تعلموا فى المراكز الحضرية فى الشرق الأوسط، وكانوا يشاركون فى السياسة القومية العربية منذ ما قبل 1914. ولكن سلطات الانتداب

كانت تأمل فى قطع علاقة الدروز بالقومية العربية، وذلك بمنح استقلال ذاتى محلى ووضع إدارى منفصل لجبل الدروز، وكذلك الأمر بالنسبة إلى إقليم العلويين[103] فى الشمال الغربى. ولكن عدم اتساق السياسات الفرنسية وعشوائية مسلكها ساعد على إثارة تمرد الدروز فى 1925، والذى انتشر كالنار فى الهشيم فى معظم أنحاء سوريا.

وكان قادة ذلك التمرد من بين الشخصيات الدرزية التى لها علاقات وثيقة بالمنظمات القومية العربية. ولذلك انضم إليهم بسرعة قادة قوميون عرب من دمشق ومراكز حضرية سورية أخرى، فيما أصبح ثورة سورية شاملة امتدت من جبل الدروز إلى قلب دمشق (بالإضافة إلى المجتمعات الدرزية فى لبنان) وحققت مستويات غير مسبوقة من التأييد والمشاركة الجماهيرية فى أقاليم عديدة، ريفية وحضرية[104]. وبينما نجح الفرنسيون فى سحق الثورة فى (1926-1927)، نجد أن بعضا من أكبر مراقبيهم دهاء خلصوا إلى نتيجة حتمية مؤداها؛ أن سياسات «فرق تسد» قد حققت آثارا عكسية، وأنه يجب على فرنسا التوصل إلى توافق مع القيادة القومية العربية السورية، حسب النموذج الذى اتبعته بريطانيا فى العراق. وقد أدى هذا إلى تقوية «الكتلة القومية» (بقيادة قادة بارزين للمقاومة السياسية للحكم الفرنسى) فى (1936-1939) ومحاولة فاشلة لإبرام معاهدة استقلال سوريا (التى وقع عليها الطرفان، ولكن البرلمان الفرنسى لم يصدق عليها)[105].

ولقد أبرزت الممارسات السياسية لنظام فيصل فى العراق كلا من إمكانات ومحددات استغلال القومية العربية كأساس أيديولوجى لبناء دولة. فبينما كانت القومية العربية جذابة لعدد متزايد من طلاب المدارس الثانوية والجامعات بالإضافة إلى ضباط الجيش، وكانت مقبولة بصورة متزايدة كإطار مرجعى خطابى لدى الشخصيات السنية التقليدية، نجد أنها كانت أقل جاذبية للقادة الشيعة الذين كان أتباعهم يمثلون أغلبية المسلمين العرب فى البلاد، ولكنهم كانوا يمثلون طبقة أدنى اقتصاديا وسياسيا. إذ كانت القومية العربية جذابة بالنسبة لهم بالقدر الذى يعطيهم الحق فى المطالبة بمكانة متساوية، ولكنها كانت مصدر تهديد، إذ كانت النخبة السنية تستخدمها فى إضفاء الشرعية على استمرار سيطرتهم على السلطة. وبالنسبة للأكراد فى شمال العراق، فإنهم كانوا يشتركون

فى العقيدة السنية مع نخبة البلاد، ولكن اللغة العربية ليست لسانهم الأم. وبالنسبة لهم فإن بناء الهوية السياسية العراقية على أساس القومية العربية كان سيؤدى حتما إلى اغترابهم، مما يعنى أنهم كانوا يواجهون الاختيار بين الاستيعاب الثقافى أو التهميش السياسى. وكانت ثوراتهم المتكررة ضد حكم بغداد تلقى قمعا قاسيا[106].

وتوضح هذه المجموعة من الأمثلة مدى تطرف التباين بين الجغرافيا السياسية، والتركيب العرقى والدينى، والأيديولوجيات القومية للشرق الأوسط بعد الحكم العثمانى. وبينما عملت القومية العربية كإطار مناسب لبناء تحالفات النخب الإسلامية السنية داخل حدود الدول الخاضعة للانتداب، فضلا عن دورها (خاصة لدى العشائر الدرزية فى سوريا) كمعبر أيديولوجى بين المجتمعات الطائفية، إلا أنها كانت مصدرا للخطر فى عديد من الجوانب أيضا : حيث كانت تهدد بتقويض شرعية النظم أو النخب السياسية التى كانت تعتنقها، طالما أن حدود دولها تتقاطع مع الوحدة المتخيلة مع العالم العربى. وكان صراع كل نظام لتقديم نفسه على أنه القائد الطبيعى لرابطة الوحدة العربية يهدد بإثارة كل دولة ضد الأخرى فى لعبة لا تنتهى من التنافس والتدمير المتبادل. وكان وضع مجموعات الأقليات غير العربية، أو التى كانت هويتها الطائفية مهددة باحتمال الاستيعاب فى القومية العربية التى يسودها السنة، أكثر عرضا للمخاطرة مقارنة بما كان عليه تحت النظام العثمانى، حيث كان السنة غير العرب (مثل الأكراد) يتمتعون بالمساواة كأعضاء فى "الأمة" الإسلامية، وحيث كان العديد من المجموعات الطائفية غير المسلمة يتمتعون بوضع "الملل" التابعة، المحددة والمعترف بها قانونا[107].

وكانت الفجوة الهائلة بين وعود وحقائق السياسة القومية العربية تثير الإحساس بالاغتراب والقلق بين الجيل الجديد من القوميين، الذين تربوا على البلاغة الخطابية للوحدة العربية، ولكنهم أحبطوا بسبب انقسام العالم العربى، واستمرار سيطرة القوى الغربية على الشرق الأوسط، وضعف الصلة بين النخب والجماهير. وفى الواقع، وكما سيوضح الفصل التالى، نجد أن الثقافة السياسية للنخبة فى كل من الشرق الأوسط بعد 1918، وشرق أوربا الوسطى اتسمت، فى

أشكال شتى، باستمرار حالتها التى كانت عليها قبل ذلك التاريخ، من حيث تناقضها العملى مع مناداة هذه النخب بالتغيير.

الخاتمة

كان رسم الحدود الجديدة فى أرجاء المساحات الشاسعة للإمبراطوريات الثلاث بعد الحرب بمثابة عملية سريعة نسبيا وارتجالية غالبا، مما ترك أثرا لا يزول على الثقافات السياسية للكيانات الجديدة. فبينما كان هناك عدد كبير من التصورات القومية سابقا - تتراوح من العرقية الضيقة إلى الوحدة القومية - والتى كانت تتنافس على الاهتمام والتأييد الشعبى، ظهرت إلى الوجود فجأة جغرافيا سياسية جديدة لما بعد الإمبريالية أغلقت العديد من المسارات المحتملة للتطور. فالأنظمة التى كانت قد ساعدت على تكوين - أو كانت مضطرة للعمل داخل حدود - الجغرافيا السياسية الجديدة، روجت بقوة لتصوراتها الخاصة للهوية القومية، مما اضطر كل المجتمعات - الإقليمية والدينية واللغوية - التى وجدت نفسها داخل حدود دول جديدة، على الاصطفاف مع أو ضد النموذج الرسمى السائد للهوية.

وفى شرق أوربا الوسطى، كان غموض الحدود الإثنوجرافية وعدم التوافق بين المطالب التاريخية والإثنوجرافية والحدود الجغرافية بمثابة وصفة جاهزة للصراع. وكان استخدام القوات المسلحة لتحديد الحدود لا يتوافق مع أية محاولة للتفاوض على الحلول الاتحادية، أو إدخال بُعد مدنى غير عرقى له مصداقية فى الهويات القومية. وقد أدى هذا إلى زيادة الميل إلى تعريف أساس شرعية الدولة من خلال مصطلحات عرقية ضيقة، واستقطاب العلاقات بين القوميات المرتبطة بالهوية الرسمية التى ترعاها الدولة، وتلك المجموعات العرقية التى تركت مهملة داخل الكيانات التى جعلتها تشعر بأنها غريبة ودخيلة.

وفى الإمبراطورية الروسية السابقة، وضع النظام السوفيتى إطارا ثقافيًا وإقليميًا وشخصيًا شديد التعقيد لتحديد الهويات العرقية، بهدف تشكيلها طبقا للنموذج الشيوعى السوفيتى العام. وبغض النظر عن مدى تلاعب النظام وقمعه فى استخدام الهوية العرقية كوسيلة للدعاية لما يمكن أن نسميه البطولة المدنية السوفيتية، فإن سياسات القومية لا يمكن أن تفشل فى أن تجد حياة خاصة بها فى نظام يتسم بهذا التعقيد المؤسسى.

أما في البلاد العربية، فقد كانت العلاقات بين شرعية الدولة والهوية القومية أكثر الظواهر توترا، وكانت من ثم أكثر مصادر النزاع إثارة للانقسام. إذ كانت فكرة الأمة العربية فضفاضة للغاية وغير محددة، بل وقابليتها للاستخدام كمبدأ يحقق الشرعية لعدد كبير من المجتمعات والمصالح التى كانت فى الحقيقة طائفية أو إقليمية بطبيعتها من ناحية، ومن ناحية أخرى، لم تكن هناك أية دولة عربية قادرة على تقديم هوية قومية على أسس جغرافية لدى أى مواطن عربى. بل إن مصداقية الأنظمة التى أرست مطالبتها بالسلطة على أساس التزامها بقضية القومية العربية ازدادت انهيارا بسبب الوجود الطاغى للمراقبين الإمبرياليين الأوربيين، وهم أول من فرض حدود كل دولة بشكل استعمارى منذ البداية.

ونلاحظ فى كل الأقاليم الثلاثة أن رسم الحدود الإقليمية والإثنوجرافية كان بمثابة عملية تحول كبير، وإن كان المرء قد يجد فى بعض الحالات أنها لم تعكس الوعى الإثنوجرافى الموجود سلفا، بقدر ما شكلت تطوره. ففى الدول ذات السيادة التى تستمد شرعيتها من مبدأ حق تقرير المصير القومى، ليس هناك هامش للهويات الغامضة أو متعددة الأبعاد. فكل فرد عليه أن يدخل فى إطار إثنوجرافى محدد، أو يقوم الآخرون بفرض ذلك عليه عند الضرورة. وسواء كان فى ظل النظام السوفيتى شديد الرسمية للخصوصية العرقية برعاية الدولة، أم فى إطار الجهود العنيفة والسلبية فى شرق أوربا الوسطى ودول البلقان لجعل الهويات الشعبية المختلفة تصطف مع القومية الرسمية (سواء من خلال الاستيعاب القهرى أو القهر أو الطرد)، أو فى سياق دعاية قادة الشرق الأوسط لهوية الوحدة العربية التى تتخطى حدود الدول المكونة لها، فإن سياسات الهوية القومية أصبحت لعبة شديدة الخطورة لا يستطيع أحد النجاة من مزالقها. إذ إن فرص التعليم والحراك الاجتماعى لأعلى، والوصول إلى السلطة الإدارية أو السياسية، وضمان المزايا فى مواجهة الأفراد أو المجتمعات المنافسة، بل وحتى توقعات الموت والحياة أحيانا، كل ذلك كان مشروطا بصورة غير مسبوقة بانتماء الفرد أو عدم انتمائه إلى الهوية القومية الرسمية للوحدة السياسية للمرء.

ومع ذلك، نجد أنه من المضلل أن ننهى هذا الفصل بالملحوظة المتعلقة بالتغير الجوهرى. ففى شرق أوربا الوسطى والشرق الأوسط، كانت عناصر الاستمرارية

القوية فى العقلية والتقاليد السياسية واضحة تماما، خاصة بين النخب القومية ذاتها. وقد أدى هذا إلى دخول عنصر عدم الاتساق والتناقض الذاتى الذى ساهم فى هشاشة الدول القومية الجديدة، كما سنرى فى الفصل التالى.

الهوامش

Robert Bideleux and Ian Jeffries, A History of Eastern Europe: Crisis and (1) Change (London: Routledge, 1998), 404.

Robert G.L. Waite, Vanguard of Nazism: the First Corps Movement in Postwar (2) Germany, 1918-1923 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1952), chap. 5.

- سمح الحلفاء والقوى المشتركة مبدئيا للقوات الحرة بالعمل فى البلطيق من أجل التصدى للبلاشفة.

Paul Robert Magocsi, The Rusyns of Slovakia: An Historical Survey (new York: (3) East European Monographs, 1993), chap. 7 and p. 71.

- Piotr S. Wandycz, France and Her Eastern Allies, 1919-1925 (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1962), 64-65, 68-69.

Peter F. Sugar, Péter Hanák and Tibor Frank, eds, A History of Hungary (Blooming (4) ton, IN: Indiana University Press, 1990), 303-309.

(5) فى انتخابات نوفمبر 1917 للجمعية التأسيسية الروسية (التى حلها لينين فى يناير 1918 بعد انعقادها ليوم واحد) حصل البالشفة على 40% من الأصوات الإستونية و72% من الأصوات فى أجزاء لاتفيا التى لم تكن قد احتلتها القوات الألمانية.

- Toivo Raun, Estonia and the Estonians (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1987), 103.

- Ronald Grigor Suny, The Revenge of the Past: Nationalism, Revolution, and the Collapse of the Soviet Union (Stanford. CA: Stanford University Press, 1993), 54-57.

John W. Wheeler-Bennett, Brest-Litovsk: The Forgotten Peace, March 1918 (6) (New York: Norton, 1971; 1938), chap. 4 and pp. 243-247.

- Alfred Eric Senn, The Emergence of Modern Lithuania (New York: Colombia University Press, 1956), chap. 3.

- Vejas Gabrielius Liulevicius, "War Land: Peoples, Lands, and National Identity on the Eastern Front in World War I" (Ph.D. diss., University of Pennsylvania, 1994), (271-272).

- Suny, The Revenge of the Past, 55-58, 64-72.

- Andrejs Plakans, The Latvians: A Short History (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1995), chap. 7.

- Raun, Estonia, chap, 8.
- Anthony F. Upton, The Finnish Revolution, (1917-1918) (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1980), chaps (12-17).

(7) Lloyd Ambrosius, "Dilemmas of National Self-Determination: Woodrow Wilson's Legacy," in Christian Baechler and Carole Fink, eds, The Establishment of European Frontiers after the Two World wars (Berlin: Peter Lang, 1996).

(8) Victor Mamatey, The United States and East Central Europe, 1914-1918: A Study in Wilsonian Diplomacy and Propaganda (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1957), chaps 2, 4, and 5.

(9) Sharp, Versailles, 156.

(10) William R. Kelor, "The Principle of National Self-Determination as a Factor in the Creation of Postwar Frontiers in Europe, 1919 and 1945," in Baechler and Fink, eds, The Establishment of European Frontiers.
- Lawrence E. Gelfand, The Inquiry: American Preparations for Peace, 1917-1919 (New Haven, CT: Yale University Press, 1963), chaps 3 and 7.
- Erik Goldstein, Winning the Peace: British Diplomatic Strategy, Peace Planning, and the Paris Peace Conference, 1916-1920 (Oxford: Clarendon Press, 1991), chap. 2 and pp. (123-140).
- Nelson, Land and Power, 367-370,
- Mamatey, The United States and East Central Europe, 174.

(11) Kelor, "The Principle of National Self-Determination."
- لم يتبع ويلسون ولويد جورج توصيات خبرائهما بالضرورة، ولم تتحدد الحدود النهائية حسب المعايير العرقية فقط، ولكن أيضا حسب اعتبارات إستراتيجية ومشاعر الكراهية تجاه القوى المركزية السابقة، وأحداث على الأرض فى شرق أوروبا الوسطى. وأنا أرى أن عملية استكشاف المطالب الإقليمية المتعارضة أظهرت دور العرقية كأساس للهوية القومية.

(12) Robert Lansing, The Peace Negotiations: A Personal Narrative (Boston, MA and New York: Houghton Mifflin, 1921), chap. 7.

(13) Antoni Czubinski, "Les frontiers de l'état polonaise, 1914-1990," in Baechler and Fink, eds, The Establishment of European Frontiers.

(14) Benedict Anderson, Imagined Communities (rev. edn, London and New York: Verso, 1991; 1983), (170-178).

(15) Wandycz, France and her Eastern Allies, chap. 3 and pp. (148-160).
- يعد المصدر التالى أكثر الأعمال المكتوبة الإنجليزية تفصيلا عن التسوية الحدودية التشيكوسلوفاكية:

- Perman, The Shaping of the Czechoslovak State: Diplomatic History of Czechoslovakia, 1914-1920 (Leiden: Brill, 19620.

(16) Jaroslav Krejcí and Pavel Machonin, Czechoslovakia, 1918-92: A Laboratory for Social Change (London: Macmillan, 1996). 12.

(17) Wandycz, France and her Eastern Allies, chaps 4-6.

- Kamil Dziewanowski, Joseph Pilsudski: A European Federalist, 1918-1922 (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1969), 315-319 and chap. 17.

(18) Wandycz, France and her Eastern Allies, 43-48, 225-237.

(19) قبيل افتتاح مؤتمر سلام باريس مباشرة فى يناير 1919، كان دموفسكى وبلسودسكى قادرين على تسوية خلافاتهما مؤقتا من أجل تكوين جبهة موحدة: حيث عين شريك دموفسكى السياسى بادرفسكى رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية، وتوسعت اللجنة القومية البولندية لتشمل حلفاء يساريين لبلسودسكى فى مقابل اعترافه باللجنة كممثلة للمصالح البولندية فى مؤتمر السلام، وتأكد دور بلسودسكى كرئيس بولندى للدولة.

- Robert Machray, The Poland of Pilsudski (London: George Allen & Unwin, 1936), chap. 3.

(20) غالبا ما يشار إليهم «بالأربعة الكبار»، وكان هذا يشمل قادة الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا، الذين أدت مباحثاتهم إلى صياغة نتائج مؤتمر سلام باريس إلى حد بعيد.

(21) لقد ادعى أنه نظرا لأن أوكرانيى جاليتشيا ظلوا طويلا تحت حكم الهابسبرج، فإنه لا يوجد لديهم شىء مشترك مع الجمهورية الأوكرانية فى الشرق فى الأراضى الروسية السابقة. مقابلة بادرفسكى مع الأربعة الكبار فى 5 يونيو، الساعة 11:00 قبل الظهر، فى:

- Arthur Link, ed., The Deliberations of the Council of Four (March 24- June 28, 1919): Notes of the Official Interpreter, Paul Mantoux (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992), 309.

(22) اقتباس لويد جورج الأول من المرجع السابق، ص 312-311، والاقتباس الثانى من المرجع السابق أيضا، اجتماع 9 يونيو، الساعة 11:00 قبل الظهر، ص 352. ويجب أن نلاحظ فى هذا السياق أن بريطانيا ذاتها كانت فى ذلك الوقت منهمكة فى ضم المناطق التى حصلت عليها من الإمبراطورية العثمانية وألمانيا إلى إمبراطوريتها المتضخمة أساسا عبر البحار.

(23) كانت هذه الهيئة مكونة من رؤساء حكومات ووزراء خارجية أهم عشر شخصيات فى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان، الذين كونوا اللجنة التنفيذية الرسمية لمؤتمر السلام.

(24) حاول «المجلس الأعلى» إنقاذ الموقف بالتوصية بأن تمنح جاليتشيا الشرقية الاستقلال الذاتى، وأن يتحدد مصيرها النهائى باستفتاء عام. وفى 1923، اعترفت إنجلترا وفرنسا

أخيرا بحدود بولندا الشرقية، بما فى ذلك سيطرتها على جاليتشيا الشرقية، بعد أن منح البرلمان البولندى هذا الإقليم الاستقلال الذاتى رسميا، ولكن هذا الاستقلال ظل اسميا فقط. انظر:

Michael Zurowski, "The British Foreign Office and Poland's Eastern Minorities, - 1918-1914," part 1, The Ukrainian Quarterly, vol. 46, no. 3 (Fall 1990), (262-281).

- Laurence J. Orzell, "A 'Hotly Disputed' Issue: Eastern Galicia at the Paris Peace Conference, 1919," Polish Review, vol. 25, no. 1 (1980), (49-68).

- Antony Polonsky, Politics in Independent Poland, 1921-1939: The Crisis of Constitutional Government (Oxford: Oxford University Press, 1972), (51-52).

- Kay Lundgreen-Nielsen, "The Mayer Thesis Reconsidered: The Poles and the Paris Peace Conference, 1919," The International History Review, vol. 7, no. 1 (February 1985), (68-102).

- Wandycz, France and her Eastern Allies, chaps (5, 6).

- H.J. Elcock, "Britain and the Russo-Polish Frontier, 1919-1921," Historical Journal, vol. 12, no. 1 (1969), (137-154).

(25) فشل ميثاق عصبة الأمم، الذى وضع فى فبراير 1919، فى إدخال أى ضمان عام لحقوق الأقليات فى الدول الأعضاء، وذلك بسبب المأزق الناتج عن عدم الرغبة الأمريكية فى مد هذه الحقوق إلى الأقليات العرقية والدينية أيضا. انظر:

- Mark Levene, "Britain, British Jews, and Jewish Relations with the New Poland: The Making of the Polish Minorities Treaty of 1919," Polin, vol. 8,

- Antony Polonsky, Ezra Mendelsohn, and Jerzy Tomaszewski, eds, Jews in Independent Poland, 1918-1939 (London and Washington, DC: Littman Library of Jewish Civilization, 1994), 14-41 (esp. 33),

- Carole Fink, "The League of Nations and the Minorities Question," World Affairs, vol. 157, no. 4 (Spring 1995), (197-205).

(26) استمرت منظمات الإغاثة اليهودية الأمريكية فى الوصول إلى بولندا التى تحتلها ألمانيا طالما ظلت الولايات المتحدة محايدة.

(27) يمكن اعتبار ذلك محاولة لوضع صيغة حديثة من «مجلس الأراضى الأربع» الذى مثل المصالح اليهودية فى الكومنولث البولندى الليتوانى.

(28) حظيت فكرة منح صورة أو أخرى من صور الاستقلال الذاتى الثقافى القومى لليهود بالتأييد بين الحركات السياسية اليهودية الأخرى فى بولندا، مثل الشعبيين (أنصار الثقافة اليدية) والاتحاديين.

- Mark Levene, War Jews, and the New Europe: The Diplomacy of Lucien Wolf, 1914-1919 (Oxford: Oxford University Press, 1992), (215-216).

وبالنسبة للسابقة التى لم تتحقق لاستقلال اليهود فى جمهورية أوكرانيا قصيرة الأجل، انظر:

- Paul Robert Magocsi, A history of Ukraine (Seattle, WA: University of Washington Press, 1996), 503-507.

(29) Gidon Gottlieb, Nation against State (New York: Council on Foreign Relations Press, 1993).

(30) تعتمد هذه المناقشة على منشورات مارك ليفنى المشار إليها فى أنحاء هذا الجزء:

(31) Levene, "Nationalism and its Alternatives in the International Arena: The Jewish Question at Paris 1919," The Journal of Contemporary History, vol. 29, no. 3 (July 1993), (511-531).

- Fink, "The League of Nations".

- كان برنامج وولف يمثل خطوة للوراء مقارنة بموقفه السابق المؤيد لمنح استقلال ذاتى ثقافى بعيد المدى ليهود بولندا. حيث تشكلت هذه الأفكار بقراءته لبعض كتابات كارل رينر عن المشكلة القومية فى إمبراطورية الهابسبرج.

- Levene, War, Jews, (179-180).

- ...., "Britain, A British Jew," 17.

- للاطلاع على مزيد من المعلومات الإضافية عن رينر والماركسيين النمساويين، انظر الفصل الثانى من الكتاب الحالى.

(32) من بين سوابق هذا المنهج هناك المادة 44 من الاتفاقية الدولية التى سوت «المسألة الشرقية»، والتى وضعت فى مؤتمر برلين 1878. حيث حاولت هذه المعاهدة حماية السكان اليهود الذين تعرضوا للانتهاك كثيرا فى رومانيا، بالنص على ضمان حياة طبيعية لهم وصيانة حقوقهم المدنية. ولكن البرلمان الرومانى تحايل على هذه النصوص فى السنة التالية بإصدار تعديل دستورى علق التزامات الاتفاقية، ووضع عقبات شديدة أمام التطبيع الفعلى ليهود البلاد، والذين كان معظمهم مهاجرين أو أبناء مهاجرين من الإمبراطورية الروسية وجاليتشيا.

- Fink, "The League of Nations".

- Fritz Stern, Gold and Iron: Bismarck, Bleichröder, and the Building of the German Empire (New York: Alfred Knopf, 1977), chap. 14.

- Keith Hitchins, Rumania, 1866-1947 (Oxford: Oxford University Press, 1994), (52-53).

- حاولت «معاهدة الأقليات البولندية» سد هذه الثغرة بتأكيد الحقوق المدنية لكل «سكان الأراضى» البولندية.

(33) مذكرة من بادرفسكى إلى «الأربعة الكبار»، نوقشت فى اجتماع 17 يونيه 1919 الساعة 4 بعد الظهر، فى:..

- Link, ed., The Deliberations of the Big Four, 492.

(34) بالنسبة للحقوق الثقافية الأوسع المضمونة للأقلية الألمانية فى الجزء البولندى من سيليزيا العليا Upper Silesia بعد تقسيمها، انظر:

- Janusz Zarnowski, "Les Système de protection des minorités et la Pologne," Acta Poloniae Historica, vol. 52 (1985), 105-124, esp. (113, 114).

Fink, "The League of Nations". (35)

- C.A. Macartney, National States and National Minorities (London: Oxford University Press, 1934), (220-240).

Patrick B. Finney, "An Evil for All Concerned': Great Britain and Minority Protection after 1919," Journal of Contemporary History, vol. 30, no. 3 (July 1995), 533-551. (36)

- Fink, "The League of Nations," note 2.
- Macartney, National States, chap. 7.
- D.R. Gadgil, "The Protection of Minorities," in William E. Mackey and Albert Verdoort, eds, The Multinational Society: Papers of the Ljubljana Seminar (Rowley, MA: Newbury House Publishers, 1975), (71-72).

Gabriele Simoncini, "The Polyethnic State: National Minorities in Interbellum Poland," Nationalities Papers, vol. 22, supplement no. 1 (1994), 5-28. (37)

- Pawel Korzec, "Der Block der Nationalen Minderheiten in Parlamintarismus Polens des Jahres 1922," Zeitschrift für Ostforschung, vol, 24, no. 2 (June 1975), (193-220).
- Yisrael Gutman, "Polish Antisemitism between the Wars: An Overview," in Yisrael Gutman, Ezra Mendelsohn, Jehuda Reinharz, and Chone Shmeruk, eds, The Jews of Poland between Two World Wars (Hanover, NH: University Press of New England, 1989).
- Polonsky, Politics in Independent Poland, pp. 65, 87, 92, chaps 3-4, pp. 213-218, (371-378).
- Ilya Prizel, National Identity and Foreign Policy: Nationalism and Leadership in Poland, Russia and Ukraine (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), 62-67.
- Andrzej Korbonski, "Poland: 1918-1990," in Joseph Held, ed. The Colombia History of Eastern Europe in the Twentieth Century (New York: Colombia University Press, 1992), (232-234).

- Zarnowski, "Le Système," (122-123).

- Norman Davies, God's Playground: A History of Poland, vol. 2 (New York: Colombia University Press, 1982), (404-410).

- وبالنسبة لميل الحزب القروى البولندى الرئيسى إلى استهداف الأقليات وتكوين التحالفات مع الديموقراطيين القوميين أتباع دموفسكى، انظر:

- Olga A. Narkiewicz, The Green Flag: Polish Populist Politics, 1867-1970 (London: Croom Helm, 1976), 185, 190, and 197-19.

- Dziewanowski, Piludski, 336.

(38) زادت نسبة اليهود البولنديين الذين يعتبرون اليدية أو العبرية، وليس البولندية، لغتهم الأصلية من 74.2 إلى 87% فيما بين 1921 و 1931، طبقا لأرقام التعداد الرسمى. وقد لا يكون ذلك مجرد انعكاس لنجاح المدارس الخاصة اليهودية، ولكنه يمكن أيضا أن يكون تعبيرا عن زيادة اغتراب يهود بولندا عن القومية الرسمية للدولة.

- Prizel, National Identity, 65.

(39) بالنسبة للعلاقة الديناميكية بين الدولة القومية والأقليات، انظر:

- Rogers Brubaker, Nationalism Reframed: Nationhood and the National Question in the New Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 63-66 and chap. 4.

(40) لم تكن هناك مجموعة عرقية واحدة فى بوكوفينا تكون أغلبية بسيطة، وكان معظم القرويين من الأوكرانيين.

(41) Irina Livezeanu, Cultural Politics in Greater Romania, Regionalism, Nation Building, and Ethnic Struggle, 1918-1930 (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1995).

- Hildrun Glass, Zerbrochene Nachbarschaft: Das deutsch-jüdische Verhältnis in Rumänien (1918-1938) (Munich: Oldenbourg, 1996),

- Hitchins, Rumania, 290.

(42) Glass, Zerbrochene Nachbarschaft, passim.

(4 3) Sam Beck and Marilyn McArthur, "Romania: Ethnicity, Nationalism and Development," in Sam Beck and John W. Cole, eds, Ethnicity and Nationalism in Southern Europe (Amsterdam: Antropologisch-Sociologisch Centrum, University of Amsterdam, 1981), (44-48).

(44) بالنسبة للفاشية الرومانية، انظر:

- Livezeanu, Cultural Politics in Greater Romania.

- Eugen Weber, "The Men of the Archangel," in George Mosse, ed., International Fascism: New Thoughts and New Approaches (London: Sage Publications, 1979), (317-343).

- وبالنسبة للتطورات المماثلة فى لاتفيا، انظر:

Andrejs Plakans, The Latvians: A Short History (Stanford, CA: Hoover Institution – Press, 1995), (118-123).

Geoff Eley, "Remapping the Nation: War, Revolutionary Upheaval, and State (45) Formation in Eastern Europe, 1914-1923," in Peter J. Potichnyj and Howard Aster, eds, Ukrainian-Jewish Relations in Historical Perspective (Edmonton, 1988).

- Karl J. Newman, European Democracy between the Wars (trans. Kenneth Morgan, London: George Allen & Unwin, 1970), (147-173).

- Zarnowski, "Le Système de protection," 109.

- ولا شك أن الخوف من الشيوعية أثار الفزع لدى القوميين الأوربيين فى أنحاء أوربا خلال سنوات ما بين الحربين. انظر:

- Eley, "Remapping."

- وبالنسبة لاجتماع معاداة السامية مع معاداة الشيوعية فى الخطاب السياسى البولندى فيما بين الحربين، انظر:

- Simoncini, "The Polyethnic State," (7-8).

Newman, European Democracy, (174-179). (46)

- Iván T. Bérend and György Ránki, "Die wirtschaftlichen Probleme des Donaubekens nach dem Zerfall der Österreichisch-Ungarischen Monarchie", in Richard George Plaschka and Karheinz Mack, eds, Die Auflösung des Habsburgerreiches: Zusammenbruch und Neuorientierung un Donauraum (Munich: Oldenbourg, 1970).

- Norman Davies, God's Playground, (410-417).

- Hitchins, Rumania, chap. 8 and p. 416.

Richard Pipes, The Formation of the Soviet Union: Communism and (47) Nationalism 1917-1923 (rev. edn, Cambridge, MA: Harvrd University Press, 1964; 1954), chaps (3-5).

Waite, Vanguard of Nazism, chap. 5. (48)

- Anthony F. Upton, The Finnish Revolution, 1917-1918 (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1980), chaps (12-17).

- Plakans. The Latvians, (113-115).

Tadeusz Swietochowski, Russian Azerbaijan, 1905-1920: The Shaping of National Identity in a Muslim Community (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), chaps (5، 6). (49)

- ...., "National Consciousness and Political Orientations in Azerbaijan, 1905-1920," in Ronald Grigor Suny, ed., Transcaucasia, Nationalism and Social Change: Essays in the History of Armenia, Azerbaijan, and Georgia (rev. edn., Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1996; 1983), (224-225).

- John W. Wheeler-Bennett, Brest-Litovsk: The Forgotten Peace, March 1918 (New York: Norton, 1971; 1938), 272.

- Friuz Kazemzadeh, The Struggle for Transcaucasia, 1917-1921 (New York: Philosophical Library, 1951), chaps 5-7 and pp. (272-275).

(50) اعترفت دول الحلفاء باستقلال جورجيا الشرعى قبيل غزوها من جانب الاتحاد السوفيتى فى أوائل 1921.

Pipes, Formation, 98-107 and chap. 5. (51)

- Ronald Grigor Sun, The Making of the Georgian Nation (2nd edn, Bloomington, IN: Indiana University Press, 1994; 1988), chap. 9.

(52) ارتد أنور باشا، الذى كان يغازل البلاشفة لفترة قصيرة على أمل كسب تأييدهم لعودته إلى السلطة فى تركيا، إلى الباسماتشيين فى نوفمبر 1921 بقصد تحويل ثورتهم إلى حملة عسكرية للوحدة التركية. ولكنه لم يمارس السيطرة المباشرة على أكثر من 3000 مقاتل، وقتل فى معركة مع قوات الجيش الأحمر فى 1922.

Pipes, Formation, chaps 3 and 4. (53)

- Taras Hunczak, "The Ukraine under Hetman Pavlo Skoropadskyi".

- Martha Bohachevsky-Chomiak, "The Directory of the Ukrainian National Republic," in Taras Hunczak, ed., The Ukraine, 1917-1921: A Study in Revolution (Cambridge, MA: Harvard Ukrainian Research Institute, 1977).

- Magocsi, Ukraine, (503-507).

- Arthur E. Adams, "The Great Ukrainian Jacquerie".

- Frank Sysyn, "Nestor Makhno and the Ukrianian Revolution," in Hunczak, ed., The Ukraine.

- Hélène Carrère d'Encausse, Islam and the Russian Empire: Reform and revolution in Central Asian (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1988; orig. French edn, 1966), chap. 9.

- Eley, "Remapping the Nation."

(54) غير البلاشفة اسمهم فى 1918، إلى «بلاشفة الحزب الشيوعى الروسى» وسوف أستخدم الصفتين. بلشفى وشيوعى. بصورة تبادلية هنا. انظر:

- Pipes, Formation, 110.

(55) Pipes, Formation, (107-113).

(56) Walker Connor, The National Question in Marxist-Leninist Theory and Strategy (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984), chaps (2 ، 3).

- Yuri Slezkine, "The USSR as a Communal Apartment, or How a Socialist State Promoted Ethnic Particularism," Slavic Review, vol. 53, no. 2 (Summer 1994), (414-452).

- Robert Kaiser, The Geography of Nationalism in Russia and the USSR (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), chap. 3 and passim,

- Brubaker, Nationalism Reformed, chap. 2.

- Pipes, Formation.

- Suny, Revenge, chap. 3.

- Hélène Carrère d'Encausse, The Great Challenge: Nationalities and the Bolshevik State, 1917-1930 (New York: Holmes & Meier, 1992).

- Andreas Kappeler, Rusland als Vielvölkerreich (Munich: C.H. Beck, 1993), Epilogue.

(57) Kaiser, Geography, (109-110).

(58) d'Encausse, The Great Challenge, chap. 8.

(59) Isabelle Kreindler, "A Neglected Source of Lenin's Nationality Policy," Slavic Review, vol. 36. no. 1 (March 1977), (86-100).

- Robert Geraci, "The Il'minskii System and the Controversy over Non-Russian Teachers and Priests in the Middle Volga," in Catherine Evtuhov, Boris Gasparov, Alexander Ospovat, and Mark von Hagen, eds, Kazan, Moscow, St. Petersburg: Multiple Faces of the Russian Empire (Moscow: OGI, 1997).

(60) كان هناك أيضا تحول تحررى وحدوى تجاه هذه الفكرة فى الدعاية الموجهة إلى البيلاروس والأوكرانيين الذين يعيشون فى «كريسى kresy» البولندية، وذلك عبر الحدود بين الجمهوريتين الاشتراكيتين السوفيتيين الأوكرانية والبيلاروسية المستقلتين اسميا.

(61) Adam B. Ulam, Expansion and Coexistence: Soviet Foreign Policy, 1917-1973 (2nd edn, New York: Roger, 1974;1968), (121-125).

- Richard Pipes, Russia under the Bolshevik Regime (New York: Vintage, 1994, 198-201).

(62) وصل التداخل الشديد بين مفهومى الهوية السوفيتية والروسية إلى ذروته فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. انظر:

- Prizel, National Identity, chap. 6.

وبالنسبة للأرقام المتعلقة بانتشار الروس عبر جمهوريات الاتحاد السوفيتى غير الروسية - خلال سنوات ما بين الحربين، انظر:

- Kaiser, Geography, 118.

(63) Pipes, Formation, (263 - 293).

- Prizel, National Identity, (329 ، 330).

- Suny, Making of the Georgian Nation, chap. 10 and pp. (272 ، 273).

(64) Alexandre A. Bennigsen and S. Enders Wimbush, Muslim National Communism in the Soviet Union: A Revolutionary Strategy for the Colonial world (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1979), chaps 3-4.

- Pipes, Formation, 168-170, (260-262).

- Hans Bräker, "Soviet Policy toward Islam," in Andreas Kappeler, Gerhard Simon, Georg Brunner, and Edward Allworth, eds, Muslim Communities Reemerge: Historical Perspective on Nationality, Politics, and Opposition in the Former Soviet Union and Yugoslavia (Durham, NC: Duke University Press, 1994), (162-1630).

(65) Kaiser, Geography, (110-112).

- d'Encausse, The Great Challenge, (117-179).

- Bert G. Fragner, "The Nationalization of the Uzbeks and Tajiks," in Kappeler et al., Muslim Communities.

(66) Brubaker, Nationalism Reframed, (30-32).

(67) فى البداية كان الناس أحرارا فى اختيار قومياتهم بغض النظر عن المولد، ولكن هذه السياسية لم تدم طويلا (المرجع السابق).

(68) Amir Weiner, "Nature, Nurture, and Memory in a Socialist Utopia: Delineating the Soviet Socio-Ethnic Body in the Age of Socialism," The American Historical Review, vol. 104, no. 4 (October 1999), (1114، 1155).

(69) تم إنشاء حى يهودى مستقل ذاتيا (أوبلاست oblast) فى إقليم «بيروبيدشان Birobidzhan» السيبيرى البعيد فى 1934. وكان عدد السكان اليهود فى هذا الكيان الغريب .والذى كانت به كل العلامات العامة باللغة البيدية، ومدارس بيدية، وصحيفة محلية بيدية، ومسرح بيدى. لا يزيدون على 30000 نسمة من إجمالى عدد السكان البالغ

100000 . واحتفظ هذا الإقليم بوضعه كحى يهودى مستقل ذاتيا فى روسيا بعد السوفيتية.

- Nora Levin, The Jews in the Soviet Union since 1917: Paradox of Survival (vol. 1, New York: New York University Press, 1988), chap. 13, pp. (488-492).

- Kaiser, Geography, (103, 353).

(70) Levin, The Jews in the Soviet Union, vol. 1, chaps 4-5, pp. (54-57).

- Zvi Y. Gitelman, Jewish Nationality and Soviet Politics: The Jewish Sections of the CPSU, 1917-1930 (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1972).

(71) بعد تدمير المؤسسات الثقافية اليهودية التقليدية، أصبحت يفسكستيا Yevsekstiia ذاتها منقسمة بين من أرادوا بناء شكل شيوعى جديد من الثقافة اليدية، ومن دافعوا عن الاستيعاب اليهودى الكامل.

- Gitelman, Jewish Nationality, chap. 6 and pp. (405-440, 497-498).

(72) Jeff Veidlinger, "Moscow's Yiddish Stage" (Ph.D. diss., Georgetown University, 1998).

(73) Anthony Smith, Nationalism in the Twentieth Century (New York: New York University Press, 1979), (180-182).

(74) Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey (2nd edn., London: Oxford University Press, 1968; 1961), chap. 8.

(75) وبالإضافة إلى ذلك، كان يجب تدويل المضايق. ولكن النص على منطقة إيطالية لم يكن جزءًا من معاهدة «سيفر . Sèvres » فنيا.

- David Stevenson, The First World War and International Politics (Oxford: Oxford University Press,1988), (301-305).

- Sharp, Versailles, 171.

(76) Pipes, Formation, (231-234).

- Manoug Joseph Somakian, Empires in Conflict: Armenia and the Great Powers, 1895-1920 (London and New York, I.B. Tauris, 1995), (204-242).

- Bülent Gökay, A Clash f Empires: Turkey between Russian Bolshevism and British Imperialism, 1918-1923 (London: Tauris, 1997), (101-112).

(77) Lewis, Emergence, chap. 8.

- Zürcher, Turkey: A Modern History (London: I. B. Tauris, 1993), chap. 9.

(78) Zürcher, Turkey, (180 ، 181).

- Selim Deringil, "The Ottoman Origins of Kemalist Nationalism: Namik Kemal to Mustafa Kemal," European History Quarterly, vol. 23, no. 2 (April 1993), (165-191).

(79) Finney, "An Evil" (542 ، 543).

- Brubaker, Nationalism Reframed, (152-156).
- Michael R. Marrus, The Unwanted: European Refugees in the Twentieth Century (New York: Oxford University Press,1985), (97-106).
- Zürcher, Turkey, (176-180).
- Stanford Shaw and Ezel Kural Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. 2: Reform, Revolution and Republic: The Rise of Modern Turkey, 1808-1975 (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), 381.

(80) Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey (Montreal McGill University Press, 1964), chap. 16.

- Lewis, Emergence, (101- 102, 264-279).
- Shaw and Shaw, History of the Ottoman Empire, vol. (2, 375-380, 384-395).
- Zürcher, Turkey, (180-181).

ـ وللاطلاع على دفاع طريف، وإن كان غير مقنع، عن الشرعية السياسية للكمالية، انظر:

- Ernest Gellner, Encounters with Nationalism (Oxford: Blackwell, 1994), chap. 7.

(81) بالنسبة لمشروعات التحديث الاقتصادى غير الناجحة نسبيا فى البلاد العربية ـ وهو المأزق الذى تفاقم بسبب سياسات قوى الانتداب ـ وبالنسبة لمشاكل اشتراكية الدولة فى تركيا (خاصة فى القطاع الزراعى)، انظر:

- Zvi Yehuda Hershlag, Introduction to the Modern Economic History of the Middle East (2nd edn., Leiden: Brill, 1980; 1964), 167-170, 236-243, and part 7.
- Gellner, Encounters with Nationalism, 83.

(82) كان منح الانتداب على سوريا لفرنسا صفعة لتوصيات لجنة «كنج ـ كرين King-Crane Commission» التى أرسلها وودرو ويلسون فى إطار مؤتمر سلام باريس فى 1919 لتقييم وضع الرأى العام فى سوريا وفلسطين.

- Stevenson, The First World War, (239-299).
- Howard M. Sachar, The Emergence of the Middle East, 1914-1924 (New York: Knopf, 1969), chap. 9.

(83) L. Carl Brown, International Politics in the Middle East: Old Rules, Dangerous Game (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984), 89.

(84) Isaiah Friedman, The Question of Palestine, 1914-1918: British, Jewish, Arab Relations (New York: Schocken Books, 1973), 279.

(85) Sachar, Emergence, 406.

(86) للإطلاع على مراجعات عامة لنظم الانتداب الفرنسى فى لبنان وسوريا، انظر:

- Stephen H. Longrigg, Syria and Lebanon Under French Mandate (London: Oxford University Press, 1958).
- Albert Hourani, Syria and Lebanon: A Political Essay (London: Oxford University Press, 1946).
- Philip Khoury, Syria and the French mandate: The Politics of Arab Nationalism 1920-1945 (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987).

(87) James Gelvin, "Popular Mobilization and the Foundation of Mass Politics in Syria, 1918-1920" (Ph.D. diss, Harvard University, 1992).

(88) ظلت «الفرات» منظمة سرية، ولكن قادتها أسسوا منظمة علنية - حزب الاستقلال العربى - ليكون واجهة علنية لهم.

- Philip S. Khoury, Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus, 1880-1920 (Cambridge: Cambridge University Press,1983), chap. 4.
- Muhammad Muslih, The Origins of Palestine Nationalism (New York: Columbia University Press, 1988), chap. 6.

(89) اقتصرت طموحات الوحدة العربية الهاشمية على ما يسمى «الهلال الخصيب» (العراق وسوريا وشرق الأردن وفلسطين وأجزاء من أو كل لبنان). وجدير بالذكر أن ميولا للوحدة العربية كانت تتطور أيضا فى مصر خلال سنوات ما بين الحربين.

- Yehoshua Porath, Be-mivchan ha-ma'aseh ha-pohti: Erets-yisrael, achdut arvit, u-mediniyut britaniyah (In the Trial of Political Action: The Land of Israel, Arab Unity, and British Policy) (Jerusalem: Yad Yitschaq Ben Tsvi, 1985), chap. 1, and pp. 163-174.

(90) Sachar, Emergence, (384-388).

- Bernard Wasserstein, The British in Palestine: The Mandatory Government and the Arab-Jewish Conflict, 1917-1929 (London Royal Historical Society, 1978), chap. 2.

(91) James L. Gelvin, "The Other Arab Nationalism: Syrian/Arab Populism in its Historical and International Contexts," in James Janowski and Israel Gershoni, eds, Rethinking Nationalism in the Arab Middle East (New York: Columbia University Press, 1997).

- James L. Gelvin, "Popular Mobilization."

(92) Sachar, Emergence, chap. 9.

(93) كان الأمير عبد الله فى شرق الأردن مضطرا فى 1924 بإيعاز من البريطانيين (بالإضافة إلى القادة القبليين) إلى التخلص من قوميى الوحدة العربية من سوريا وأماكن أخرى، والذين كان قد عينهم فى مجلسه.

- Kamal Salibi, The Modern History of Jordan (London: Tauris, 1993), chap. 5,

- Mary C. Wilson, King Abdullah; Britain and the Making of Jordan (Cambridge: Cambridge University Press, 1987), chap. 5.

(94) Muslih, Palestine Nationalism, chaps (8, 9).

- Yehoshua Porath, The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement, 1918-1929 (London: Frank Cass, 1974), Introduction and chap. 2.

- Rashid Khalidi, Palestinian identity: The Construction of Modern National Consciousness (New York: Columbia University Press, 1997), (162-175).

(95) Neville J. Mandel, The Arabs and Zionism before World War I (Berkeley, CA: University of California Press, 1976).

- Baruch Kimmerling, Zionism and Territory: The Socio-Territorial Dimensions of Zionist Politics (Berkeley, CA: University of California Press, 1983), chaps (1-2).

- Kenneth W. Stein, The Land Question in Palestine, 1917-1939 (Chapel Hill, NC: The University of North Carolina Press, 1984).

(96) Khoury, Syria and the French Mandate, chap, 4.

- Gelvin, "Popular Mobilization," (259-260).

- Muhammad Muslih, "The Rise of Local Nationalism in the Arab East," in Rashid Khalidi, Lisa Anderson, Muhammad Muslih, and Reeva S. Simon, eds, The Origins of Arab Nationalism (New York: Columbia University Press, 1991).

- بالنسبة لتطور الوعى السياسى بين سكان الحضر بصفة عامة، انظر:

- Gelvin, "The Other Arab Nationalism".

- Gelvin, "Popular Mobilization," parts II-III.

(97) لم يكن هناك غالبا وجود للتمييز بين الأشكال الدينية والعرقية للهوية بين غير المسلمين فى الشرق الأوسط. إذ إن نظام «الملل» العثمانى أضفى الطابع المؤسسى على الفصل الرأسى لمجتمع الشرق الأوسط على أسس دينية ودينية عرقية، وتزايد الطابع العرقى

للهوية الطائفية فى أواخر الحقبة العثمانية وما بعدها عندما أصبح مبدأ القومية الإطار المرجعى الشامل لتأكيد الحقوق السياسية الجماعية. انظر:

- Kemal Karpat, "The Ottoman Ethnic and Confessional Legacy in the Middle East," in Milton J. Esman and Itamar Rabinovich, eds, Ethnicity, Pluralism, and the State in the Middle East (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1988).

(98) الدروز أعضاء طائفة إسلامية مبتدعة.

(99) Meir Zamir, The Formation of Modern Lebanon (Ithaca, NY; and London, Cornell University Press, 1985), chap. 2, pp. 199-215, and passim.

- Kemal Salibi, A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1988), chaps 1-2, pp. (171-178).
- Edmond Rabbath, La Formation Historique du Liban Politique et Constitutionel (Beirut: Publications de l'Université Libanaise, 1973), (359-379, 420-422).
- Walid Khalidi, Conflict and Violence in Lebanon (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1979), note 27 to chap. 1.
- Elie Kedourie, Islam in the Modern World (New York, 1981), (90 ، 91).
- Bishara El-Khoury, Haqa'iq lubnaniyyah (Lebanese Realities), vol. 1 (Beirut, 1960), 264.

(100) على الرغم من أن الموارنة يتحدثون العربية، فإنهم يستخدمون أحد أشكال الآرامية كلغة دينية، وروّجوا لأسطورة الانحدار من شعب قديم.

(101) احتلت القوات البريطانية سوريا ولبنان خلال الحرب العالمية الثانية، وحولت السيطرة الإدارية عليهما من نظام فيتشى إلى الفرنسيين الأحرار، ولكنها استغلت سيطرتها العسكرية ونفوذها السياسى لتقويض السلطة الفرنسية. انظر:

- Aviel Roshwald, Estranged Bedfellows: Britain and France in the Middle East during the Second World War (New York: Oxford University Press, 1990).
- A. B. Gaunson, The Anglo-French Clash in Lebanon and Syria, 1940-1945 (London: Macmillan, 1987).
- Major-General Sir Edward Spears, Fulfilment of a Mission: Syria and Lebanon, 1941-1944 (London: Seeley, Service and Cooper/Hamden, CT: Archon Books, 1977).

(102) Walid Khalidi, Conflict and Violence in Lebanon: Confrontation in the Middle East (Cambridge, MA: Center for International Affairs, Harvard University, 1979), 162, no. 27.

(103) العلويون مجموعة طائفية إسلامية أخرى يتركزون فى اللاذقية شمال غرب سوريا.

(104) وفى نفس الوقت، يجب أن نؤكد على أن أنماط مساندة أو معارضة القوميين العرب السوريين بين الدروز كانت ترتبط بالصراعات العشائرية الداخلية، مما يشير إلى أنه هنا أيضا كانت القومية العربية تعمل كمظلة أيديولوجية لبناء التحالفات بين المصالح المجتمعية المختلفة، ولا تمثل هوية مجتمعية حقيقية متماسكة.

- Khoury, Syria and the French Mandate, chap. 20.

ـ وبالنسبة لآليات سياسات الأقليات فى سوريا فى ظل الانتداب ,انظر أيضا :

- Itamar, Rabinovich, "The Compact Minorities and the Syrian State, 1918-1945," Journal of Contemporary history, vol. 14, no. 4 (October 1979), (693-712).

(105) Khoury, Syria and the French Mandate, chaps (2, 6-7, 10, 17-22).

ـ وللاطلاع على تحليلات نقدية للسياسة الفرنسية من منظور مراقبين معاصرين، انظر:

- Robert Montagne, "French Policy in North Africa and in Syria," International Affairs, vol. 16. no. 2 (March-April 1937), (263-279).

- Pierre Rondot, "L'expérience du mandat Français en Syrie et au Liban (1918-45)," Revue des Droits Internationaux Publiques (1948), (387-409).

(106) Reeva Simon, "The Imposition of Nationalism: Iraq, 1921-1941," in Jankowski and Gershoni, eds, Rethinking Nationalism.

(107) Gabriel Ben-Dor, "Ethnopolitics and the Middle Eastern State," in Esman and Rabinovich, eds, Ethnicity, Pluralism and the State.

الفصل السابع

النخب القديمة والدول القومية الجديدة

1918م - 1939م

أثارت الحرب العالمية الأولى تصاعدا كبيرا فى توقعات التغيير بين المجموعات العرقية المختلفة فى الإمبراطوريات متعددة الأعراق. حيث كان خطاب التحرر القومى يمثل عملية مشتركة - ووسيطا أيديولوجيا للتغيير - بين الطبقات الاجتماعية والكيانات السياسية المختلفة داخل كل قومية. ولكن ثبت أن كل هذا كان مضللا، لأن الانقسامات الاجتماعية والأيديولوجية القوية أظهرت نفسها بسرعة مع التغيرات التى تطلبها حق تقرير المصير القومى على أرض الواقع، ومع ما استلزمه تحديد الحدود الإقليمية والسكانية والثقافية. ورغم هذا لم يكن الانفصال عن الإمبراطورية يتصف بتعدد مطالب التغيير فحسب، بل كان هناك أيضا عناصر استمرار قوية أعلنت عن نفسها سريعا فى الدول المكونة حديثا - أى الهياكل المؤسسية وأشكال الثقافة التقليدية الموجودة سلفا، والتى ضخت أفكار القوميين عن الاندماج والتحول. وكان هذا واضحا جدا فى شرق أوربا الوسطى وفى الشرق الأوسط (بالرغم من أنه لم يكن غائبا عن الساحة السياسية فى الاتحاد السوفيتى) وهى الأقاليم التى نوليها فى هذا الفصل عناية خاصة لاتجاهات فترة ما بين الحربين.

لقد ربط الراحل «إيرنست جيلنر - Ernest Gellner» نمو القومية بالتحول البيروقراطى للدولة والمجتمع. إذ قال - بناء على كتابات ماكس فيبر - إن الدولة لا تستطيع العمل بفعالية بدون خدمات جهة إدارية منظمة يكون ولاؤها الأول للدولة لا لأى بنية قبلية أو جماعية خارج إطار الكيان السياسى. وفى الواقع، نجد أن النظام الغربى الحديث حاول تحويل كل المواطنين إلى موظفين (أو مشاركين) فى الدولة. ويقول جيلنر: إن النظام التعليمى الذى تديره الدولة يعمل

على تنميط اللغة وغرس القيم والهوية المشتركة فى كل السكان، بحيث يستطيع الناس العمل كمكونات متكاملة فى الجهاز البيروقراطى الواسع، وكتروس منمطة فى الاقتصاد الصناعى المتكامل.

وهكذا تعتبر القومية فى هذه الصياغة منتجا ثانويا لنمو الدولة الحديثة والاقتصاد الصناعى الجديد. ومن ثم فإن ذلك الجزء من السكان الذى تسمح لهجته المحلية وفرص تعليمه بإجادة اللغة الرسمية، سيحقق تقدما اجتماعيا سريعا، وسيعتبر الدولة تعبيرا عن هويته القومية الخاصة به. أما المجموعة العرقية التى تعانى من كون لغاتها أو لهجاتها المحلية مختلفة كثيرا عن لغة الدولة الرسمية، والتى تجد صعوبة فى الحصول على فرص الحراك الاجتماعى لأعلى، فإنها تستطيع التفاعل بإحدى طريقتين: إما الاندفاع نحو تعلم اللغة السائدة والاستيعاب فى الأغلبية الثقافية العرقية، أو يمكنها الاستجابة بتطوير حركات انفصالية تهدف إلى تكوين دول قومية مستقلة تسيطر داخلها لغاتها وثقافتها الخاصة.

ويقول جيلنر أيضا: إن السيناريو الانفصالى هو السيناريو الاستثنائى. حيث يرتفع احتمال حدوثه خلال المراحل الأولى من التصنيع، عندما تكون الفجوات بين المتخمين والمعدمين أوسع ما يمكن، وعندما تكون التوترات الاجتماعية المصاحبة للتحديث أشد ما يمكن. واستنتج أنه إذا استطاعت الدولة أن تظل متماسكة بعد الحد الأدنى الحرج من التصنيع، فإن العملية المستمرة للتحديث الإدارى والتعليمى عادة ما تنجح فى إدماج واستيعاب الأقليات العرقية (التى ستدرك أنها ستكسب الكثير من تعلم اللغة السائدة وصعود السلم السياسى الاجتماعى القائم، مقارنة بتحمل مخاطر الانفصال لتكوين دول جديدة صغيرة ومعرضة للمخاطر. ويتمثل نموذج جيلنر الرئيس للسيناريو الانفصالى فى تجربة إمبراطورية الهابسبرج متعددة القوميات، إذ يقول: إن جهود التحديث الإدارى والاستيعاب الثقافى، بالإضافة إلى البداية المبكرة للتصنيع، ساعدت على زيادة التوترات وتصاعد التفاوت بين المجموعات العرقية مثل المجريين والسلوفاك. ويرى أن انهيار مملكة الهابسبرج يمثل الاستثناء الذى يؤكد القاعدة: فمعظم

الدول القومية المعاصرة يحوى العديد من الأقليات العرقية، ولكنه يميل فى النهاية إلى النجاح فى إدماجها سياسيا، واستيعاب الكثير منها[1].

ويوضح نموذج جيلنر بجلاء العديد من جوانب القومية الحديثة، ويفسر العديد من ملامح تطورها المبكر. ومع ذلك، نجد أن اقتراحه أن الدول القومية عبارة عن إعلان، ومشجع ناجح، للعمليات المزدوجة للتصنيع والتكامل الثقافى الاجتماعى، يجب موازنته باعتراف أكبر بعناصر ما قبل الحداثة التى تستمر فى لعب أدوار قوية فى معظم دول القرن العشرين[2]، خاصة فى حالة تلك الأغلبية من الكيانات المعاصرة التى خرجت من الأطر الامبريالية. فأثناء التحول المفاجئ إلى الاستقلال، حمل معظم ما يسمى بالدول القومية إلى إدارتها طرق التفكير وأساليب الحكم الموروثة من «النظام القديم». وفى الواقع، غالبا ما تنجح النخب القديمة فى الاحتفاظ بالسلطة بربط نفسها بشعارات القومية[3]. فمن خلال التوليفة المربكة من التطلعات التكاملية والممارسات الاستبعادية، تستطيع إدارة الدولة القومية أن تساهم فى تجزئة المجتمع وتفكك الأقليات العرقية. وهنا غالبا ما يتم اللجوء بسرعة إلى استعادة الإجراءات القمعية باعتبارها الوسيلة الوحيدة المضمونة للحفاظ على الوحدة الخارجية للدولة القومية، بل إن استخدام القوة له محدداته أيضا. وهكذا تشير الأحداث فى يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتى والعراق والصومال وليبيريا وسيراليون وأماكن أخرى منذ 1989، على أن التقييم المتفائل الحذر لدى جيلنر للإمكانات التكاملية للدول الحديثة قد يحتاج إلى مراجعة.

لقد وضح ماكس فيبر الطبيعة متعددة الأوجه لبيروقراطيات الدولة الحديثة. حيث لاحظ فيبر أن التحول الديمقراطى والتحول البيروقراطى يسيران جنبا إلى جنب، بالرغم من تعارضهما مع بعضهما أيضا. إذ إن جوهر التحول الديمقراطى - بمفهومه الواسع للمصطلح - يتمثل فى التخلص من الامتيازات الخاصة والاختلافات التشريعية بين الطبقات الاجتماعية المختلفة - وهذه نتيجة عادلة تترتب على مساواة جميع المواطنين أمام القانون (وتمثل صفة أساسية للدولة القومية عند جيلنر). ولا يمكن أن يتحقق مثل هذا التحول إلا إذا حلت محل السلطة الشخصية للمسئولين سلطة غير شخصية وبالتالى غير متحيزة. ومع

ذلك، نجد أن ظهور جيل جيد التنظيم من الإداريين المدربين الذين يعملون فى كل مستويات الحكم يمكن أن يتبلور فى نخبة اجتماعية سياسية جديدة ذات تعليم متخصص وقيم مصلحية شخصية ضيقة، وهى القيم التى تعرقل المبادرة الفردية وتقوض حيوية المؤسسات الديمقراطية. وهكذا نجد أن البيروقراطية الموضوعية الحديثة لا غنى عنها لأداء الديمقراطية الجماهيرية، ولا تتفق مع روحها فى نفس الوقت. وتوضح هذه العلاقة الجدلية الكثير من التاريخ السياسى لدى فيبر[4].

لقد فشل جيلنر فى إبداء الاهتمام المناسب بهذا اللغز. وبالتحديد، فإنه قلل من قدرة النخب القديمة على التكيف مع البيئة السياسية للدول القومية المشكلة حديثا، والتى تحاول التأثير أو السيطرة على أجهزتها الإدارية أو الدعائية، حتى وهى تستوعب الأيديولوجيات القومية التى تضفى الشرعية على السلطة فى الكيانات الجديدة. إذ إن الكثير من الدول التى حصلت على الاستقلال فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كان يضطر إلى الاستعانة بالكثير من الأفراد من بقايا النخب السياسية والبيروقراطية الإمبريالية. بل إن الكثير من قادة الدول القومية أنفسهم أصبحوا غير قادرين - بعد وصولهم إلى السلطة - على تغيير الاتجاهات والعقليات التى تتوافق بدرجة أكبر مع ثقافة وأخلاقيات النظم القديمة، مقارنة بتوافقها مع الأطر الأيديولوجية للدول القومية الجديدة. وكان وضع عناصر الثقافات السياسية للأنظمة القديمة إلى جوار الخطاب والتصور الشعبى الديمقراطى للقومية بمثابة تناقض صارخ، مما أدى إلى خلق توترات طويلة الأجل داخل الكيانات الجديدة تراوحت بين نهرى «فستولا - Vistula» فى شرق أوربا ودجلة فى المشرق العربى بعد الحرب العالمية الأولى[5].

ويتمثل أحد أسس التقسيم الرئيسة التى ساهمت فيها هذه الظاهرة فى تقسيم القوميات المكونة للدول الحديثة. وعند تناول هذه الظاهرة، سيستمر الجزء الأول من هذا الفصل فى معالجة موضوع الاستقطاب العرقى الذى تناولناه فى الفصل السادس، وذلك بالنظر إليه من منظور الاستمرارية السياسية والإدارية.

ولأن استمرار الأنماط القديمة من النخب قد خلق انشقاقات مريرة وعنيفة من القوميات، فإن الجزء الثانى من هذا الفصل يقارن بين هذه التطورات فى بولندا والشرق الأوسط، حيث تباينت المواقف بسبب دور النشطاء والأعضاء القوميين السريين فى تكوين الدوائر الحاكمة الجديدة التى كان اتجاهها وممارساتها تذكرنا غالبا بالفترات السابقة. وكذلك ساهم التناقض الصارخ فى الممارسة السياسية للآباء المؤسسين للدول القومية الحديثة فى ظهور جيل جديد غاضب من المتطرفين القوميين خلال سنوات ما بين الحربين.

. الاستمرارية المؤسسية والمجموعات العرقية

. حالتا تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا

. تشيكوسلوفاكيا

توضح حالة تشيكوسلوفاكيا بصورة دقيقة مشاكل التحول فى مرحلة ما بعد الإمبريالية، وذلك لأنها كانت الدولة الوحيدة فى شرق أوربا الوسطى التى احتفظت بمؤسساتها وممارساتها الديمقراطية طوال فترة ما بين الحربين. حيث كانت إدارة هذه الدولة تقترب من النمط النموذجى للبيروقراطية الرشيدة الحديثة لدى فيبر، بدرجة أكبر من أى من الأمثلة الأخرى، بالإضافة إلى أن قوتها تراجعت بسبب مؤسساتها الديمقراطية. ومع ذلك، فشلت حكومة براغ فى محاولتها تدعيم الهوية السياسية المشتركة بين التشيك والسلوفاك[6].

لقد ورثت تشيكوسلوفاكيا من النظام الإمبريالى عددا من البيروقراطيين والإداريين التشيك المتمرسين، الذين حققوا قدرا كبيرا من الاستمرارية والاستقرار فى إدارة الأمور فى الدولة الجديدة بعد انهيار إمبراطورية الهابسبرج. حيث استمر الموظفون المدنيون المحليون فى الإمارات التشيكية فى أماكنهم ببساطة فى ظل الجمهورية الجديدة، بل إن التشيك الذين عملوا فى الوزارات المركزية فى فيينا عادوا للمساعدة فى إقامة الوزارات الجديدة فى براغ. واحتفظت الخدمة المدنية التشيكية بقدر من الصورة الذاتية لإدارة الهابسبرج كمؤسسة شبه مستقلة تلعب دورا تكامليا وبناء فى المجتمع (وليس مجرد آلية لفرض القانون القائم).

وكانت الحياة السياسية التشيكية ثرية ومتنوعة، وتتمتع بأحزاب منظمة جيدا تجمع بين أرجاء الطيف الأيديولوجي، حققت خبرة فى تنظيم الجماهير، والسياسات الانتخابية، والتكتيكات البرلمانية، وذلك داخل إطار النظام الدستورى النمساوى القديم. وكان الانقسام العرقى سبب فى انهيار البرلمان النمساوى، ولكن المواجهات المستمرة بين التشيك والسكان الألمان زادت من الحاجة إلى التعاون بين الأحزاب التشيكية. وهكذا كان لدى التشيك جيل قيادى تطور معتادا على ما يمكن تسميته «المنافسة المحسوبة» فى السياسة. أى أنه يمكن القول إنهم كانوا مستعدين للمنافسة على السلطة داخل الدولة التشيكوسلوفاكية حسب القواعد الديمقراطية الليبرالية المستقرة، وذلك فى مناخ التسامح المتبادل، مع القدرة على تكوين تحالفات حاكمة فعالة جدا بمجرد انتهاء الانتخابات.

ولكن الوضع فى سلوفاكيا كان مختلفا بصورة ملحوظة. فعلى الرغم من أن سلوفاكيا كانت تحتوى على بعض المناطق الصناعية الكثيفة جدا الموروثة من المملكة المجرية، فإن اقتصادها ظل زراعيا بالأساس. وهكذا ظلت ملكية رأس المال بصورة مطلقة تقريبا فى أيدى السلاف (الألمان، المجريين، اليهود) مقارنة بالوضع الذى كان سائدا فى الأراضى التشيكية. وكان النظام الدستورى المجرى ينكر على السلوفاك التمثيل المناسب فى البرلمان، مما أدى إلى أن الأحزاب السياسية السلوفاكية التى ظهرت فى 1918، كانت غير متمرسة وغير واثقة من نفسها. ففى الحقيقة، كانت بودابست تمارس سياسة نشطة لاستيعاب النخبة السلوفاكية الصغيرة فى الثقافة المجرية، بينما كانت تنكر التقدم الاجتماعى على السكان الريفيين. ولم تكن هناك فرص للتعليم الجامعى باللغة السلوفاكية. أما السلوفاك الذين كانوا يرغبون فى مواصلة تعليمهم الجامعى بلغة سلافية، فقد كانوا مضطرين للدراسة فى براغ (و ذلك إذا استطاعوا التحايل على القيود المجرية المفروضة على هذا الخيار).

وكانت إدارة سلوفاكيا تدار مطلقا باللغة المجرية، وكان يسيطر عليها المجريون والسلوفاك المتأثرين ثقافيا بهم. وظلت هذه العناصر موالية للمجر تماما، كما اتضح فى 1919، عندما دخل موظفو السكك الحديدية والبريد فى إضراب فى محاولة لقطع الاتصالات والنقل التشيكوسلوفاكى خلال الغزو المجرى (الفاشل)

لسلوفاكيا. وعندما تم تطهير البيروقراطية فى حينها من المجريين، لم يكن هناك سوى عدد قليل من السلوفاك المؤهلين ليحلوا محلهم.

ولذلك فإن الانشقاق السياسى الذى حدث بين المجتمعين التشيكى والسلوفاكى بمجرد تكوين الإمبراطورية تقريبا لم يكن ببساطة نتيجة لاختلاف مفاهيم الهوية القومية. ففى هذا العالم الجديد الرائع للدولة القومية، كانت الاستمرارية المؤسسية مفروضة على التغير السياسى، مما أدى إلى زيادة صعوبة تحقيق المركب الثقافى الذى كان يكمن فى صلب تصور مساريك لتشيكوسلوفاكيا. فالفجوة العميقة بين مستويات التقدم السياسى والاكتفاء الذاتى البيروقراطى فى الإمارات التشيكية والسلوفاكية كانت تتعمق فى مكانها وتتسع بسبب دخول سلوفاكيا فى دولة تشيكوسلوفاكيا. حيث قام عدد كبير من القضاة والإداريين والمدرسين والموظفين والكتبة التشيك بشغل الفراغ الناتج عن التخلص من الإدارة المجرية.

ومن حيث المبدأ، كان تنظيم النظام الانتخابى التشيكوسلوفاكى مصمما للمساعدة والتغلب على هذه التباينات من خلال ضمان التمثيل التناسبى لكل إقليم ومجموعة سكانية. ومع ذلك، نجد أنه بينما كانت الأحزاب الانتخابية السياسية الخمسة (المعروفة مجتمعة باسم بيتكا Petka) التى سيطرت على الساحة السياسية وكانت تشارك باستمرار فى التحالفات الحاكمة، تعرف نفسها بأنها تشيكوسلوفاكية التوجه، إلا أنها كانت بمثابة الوريث المباشر لأحزاب تشيكية قبل الحرب، واستمر التشيك فى قيادتها والسيطرة عليها. وكانت الأصوات التى تكسبها أحزاب بيتكا فى الانتخابات العامة لا تزيد كثيرا على 50% من مجموع الأصوات. ومع ذلك، كان نمط التعاون الذى أرساه قادة هذه الأحزاب خلال وجودهم فى "النادى التشيكى" فى البرلمان النمساوى، بالإضافة على سهولة الوصول والاتصال المنتظم الذى تمتع به بعضهم مع الرئاسة القوية للجمهورية - وهو المنصب الذى شغله توماس مساريك حتى وفاته فى 1937 - ساعد على تسهيل سيطرتهم على النظام السياسى. وكانت الحكومات التشيكوسلوفاكية تتشكل وتنحل بتكرار مريك، ولكن اللاعبين الرئيسيين (من تحالف لآخر) ظلوا هم أنفسهم قادة هذه الأحزاب.

وكان توزيع السلطة على أعلى مستويات الحكم له نظيره فى بيروقراطية الدولة. حيث كان كل حزب يميل على الحفاظ على السيطرة على وزارات معينة، حتى عندما كان التحالف ينحل ويحل غيره محله. وكان هذا بالتحديد يمثل التفاهم غير المكتوب الذى سهل تقسيم السلطة بين الأحزاب البارزة التى يسيطر عليها التشيك، والذى أدى أيضا إلى تكوين نظام محسوبية يقوى قبضتهم على السلطة ويربطهم بمصالح الجماهير. وفى الواقع، كان الكثير من السلوفاك، الذين انضموا أو صوتوا لحزب أو آخر من هذه الأحزاب، يفعلون ذلك ليضمنوا الوصول إلى موارد الدولة من أجل مناطقهم أو مشروعاتهم، وليس نتيجة اقتناع أيديولوجى أو وعى طبقى. ومع ذلك، نجد فى معظم وزارات الحكومة أن السلوفاك لم يكونوا يمثلون أكثر من 1.6% من الهيئة البيروقراطية. أما السلوفاك الذين أدمجوا فى النظام فقد كان معظمهم من المنصّرين التشيك، ومن القلة البروتستانتية المتعلمة والمنظمة. ومن ثم تركت الأغلبية الكاثوليكية الريفية فى سلوفاكيا معرضة للشعور بالاغتراب عن النظام[7].

وساد موقف مماثل فى الجيش. حيث كانت صفوف الجنود تتكون من المجندين من كل الأقاليم والمجموعات العرقية. وكانت اللغة الرسمية الوحيدة بالجيش هى "التشيكوسلوفاكية" –والتى كانت تعنى فى الواقع التشيكية، وليس السلوفاكية[8]. وكان حوالى 80% من هيئة الضباط من التشيك. وقد قوض هذا مصداقية الجيش كأداة للتكامل القومى[9].

ولذلك فإنه لا غرابة فى أن نفس عناصر الاستمرارية المؤسسية التى خدمت مصالح التشيك وقادتهم إلى الارتباط الوثيق بالدولة هى ذاتها التى أدت إلى اغتراب العديد من السلوفاك (بالإضافة إلى الألمان العرقيين فى سودتنلاند، والمجريين فى سلوفاكيا الجنوبية، الذين كانت حقوقهم المدنية الفردية محترمة جدا، ولكن هوياتهم الجماعية لم تكن ممثلة فى الدولة لا رمزيا ولا مؤسسيا)[10]. فبدلا من تشجيع تكوين هوية تشيكوسلوفاكية جديدة، أدى فرض المؤسسة الاجتماعية السياسية التشيكية لمؤسساتها على السلوفاك إلى بلورة الهوية السلوفاكية التى كانت صفتها المميزة تتمثل فى الإحساس بخيانة الوعد. وكان الأب« آندريه هلينكا . Andrej Hlinka» من «الحزب الشعبى السلوفاكى» الدينى

المحافظ - الذى كان يحظى بأغلبية أصوات السلوفاك فى الانتخابات البرلمانية منذ منتصف العشرينات فصاعدا - يرى أن أفق حق تقرير المصير فى جمهورية مستقلة ذاتيا قد تحول إلى استعمار حقيقى من جانب التشيك. وبسبب الإحساس بالدونية[11] الاقتصادية الاجتماعية والعجز السياسى فى مواجهة الحكومة المركزية، غرس القوميون السلوفاك ما أسماه «لياه جرينفلد - Liah Greenfeld» (اقتباسا من نيتشه) حالة «الاستياء والشعور بالإهانة»، أى الإحساس بجرح الكرامة من جانب المجتمع التقليدى غير المتطور، والذى يعلن عن نفسه فى التأكيد التعويضى للتفوق الأخلاقى على الثقافة المادية المتساهلة «للآخر» (المتصف بصورة غير عادلة)[12]. وفى هذه الحالة، كانت براغ تلعب دور هذا الآخر، وكانت كل الآفات التى تعانى منها سلوفاكيا تلقى على عاتق النظام السياسى الذى يسيطر عليه التشيك. وكنت الثقافة والهوية السلوفاكية محاصرة من جانب النخبة والقيادة السياسية التشيكية المتعالية التى كانت ترفض الاعتراف بمساواة اللغة وطرق الحياة السلوفاكية. أى أن التشيكوسلوفاكية كانت تعتبر مجرد واجهة لفرض القيم التشيكية "الملحدة" على المجتمع السلوفاكى الذى يفتخر بتقاليده الكاثوليكية. وساعد نمو النظام التعليمى السلوفاكى - تحت رعاية الجمهورية فيما بين الحربين - على تكوين نخبة واضحة فى معالمها السياسية وتدرك بدقة مدى اتساع الفجوة التنموية بين الأراضى السلوفاكية والتشيكية، وكانت أكثر ميلا إلى الإشارة بأصابع الاتهام إلى براغ.

وهكذا فإنه حتى فى أكثر الدول ديمقراطية، من بين الدول التى ظهرت بين ركام الإمبراطوريات الثلاث، كانت أدوار الحكومة والبيروقراطية فى تكامل الأمة تنهار بسبب تركة النظام القديم[13]. وكان أثر الاستقطاب الناتج عن الاستمرارية المؤسسية، والواقع على العلاقات العرقية، أكثر ما يكون خطورة فى كيانات تأسست أو توسعت حديثا فى الإقليم، وخاصة يوغوسلافيا.

. يوغسلافيا

كانت مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين تدار منذ تأسيسها كامتداد لمملكة صربيا القديمة. وكانت مملكة صربيا تعرف نفسها بأنها دولة قومية، ولذلك تختلف هذه الحالة عن فكرة هذا الفصل المتعلقة بالتركة الإمبريالية التى

تثقل كاهل الثقافات السياسية للدول القومية. ولكن المشكلة الأساسية لاستمرارية النظام فى مواجهة الساحة المعاد تشكيلها إثنوجرافيا بصورة جذرية تعلن عن نفسها بصورة حادة هنا. ومن أجل التبسيط، سأركز على الحالة المثيرة للمشاكل للعلاقات الصربية الكرواتية، على الرغم من أن الخريطة الإثنوجرافية للبلاد تشمل العديد من القوميات الأخرى.

وخلال فترة الديمقراطية البرلمانية من (1929-1918)، استمر «الحزب الراديكالى الصربى» القديم - الذى قاد البلاد إلى الحرب فى 1914 - فى السلطة على رأس تحالفات هشة، على الرغم من معارضة "الحزب القروى الكرواتى" بقيادة ستيبان راديتش (انظر الفصل الثالث) لسياساته المركزية. حيث حصل الراديكاليون على الأغلبيات البرلمانية بالتلاعب بالمركب متعدد القوميات للناخبين. أما الأحزاب العرقية التى كانت تطالب بتجنب هذا النوع أو ذاك من الظلم المحلى، فكانوا يتفاوضون معها، وذلك بحيث يمكن تجنب التوافق مع الأحزاب الأخرى التى تطالب بتفويض السلطة إلى إماراتهم التاريخية أو بالمشاركة الفاعلة فى السلطة المركزية. وكان هذا التكتيك فعالا لعدد من السنوات، ولكنه كشف فى الأجل الطويل عن إظهار الطبيعة الهشة للنظام القائم فى البلاد. وفى 1929، توقفت السياسات البرلمانية مع وقوع البلاد تحت ديكتاتورية ملكية[14].

وتزايدت السيطرة السياسية للصرب بسبب تمثيلهم غير التناسبى على أعلى المستويات الحكومية، بالإضافة إلى الإدارة والجيش. وبالرغم من أنهم كانوا يمثلون حوالى 40% من سكان البلاد، فإنهم احتكروا فعلا المناصب الحكومية العليا طوال فترة ما بين الحربين، واستغلوا سيطرتهم على الخدمة المدنية لأغراض المحسوبية السياسية والمحاباة العرقية. وكان 97% من هيئة الضباط من الصرب، وكان الصرب يسيطرون على هيكل الخدمة الدبلوماسية، وكانت كل المصارف المملوكة للدولة - والتى تمثل عصب النظام المالى للبلاد - يرأسها الصرب.

وكانت هذه النخبة البيروقراطية السياسية متداخلة بعمق فى الدوائر التجارية والمالية الصربية المؤثرة، والمناصب الدينية العليا فى الكنيسة الأرثوذكسية

الصربية، والطبقة الغنية من القرويين الصرب. وكانت الحكومة تراعى هذه المجموعات من خلال شبكات المحسوبية، وتخدم مصالحها المالية من خلال قوانين الضرائب وسياسات الجمارك والقروض الرخيصة من مصارف الدولة. وتلاشى الفرق بين الخدمة العامة والمصالح الخاصة، لأن أعضاء النخبة الاقتصادية الاجتماعية كانوا يدخلون ويخرجون من المناصب العامة، ويستغلون سلطتهم لإثراء أنفسهم وأتباعهم، وعلى هذا النحو تفشى الفساد.

ولكن الذى جعل هذا الوضع مزعجا جدا بالنسبة للنخبة الكرواتية هو أن متوسط مستوى تعليمهم وتنميتهم الاقتصادية كان أعلى من مستوى الصرب. فبينما كان هناك قصور حقيقى فى الإداريين المهرة فى سلوفاكيا التى كان يسيطر عليها التشيك، كانت كرواتيا تتمتع بنخبة فكرية متقدمة شقت طريقها نحو الحراك لأعلى فى الخدمة المدنية التى كانت مغلقة بما كان يعتبر سياسة تمييز صارخ. وكان ترسيخ الطبقات الحاكمة الصربية يعتبر جزء من سياسة مقصودة للقومية الصربية العظمى التى لم تكن تقتصر على استبعاد الكروات من نصيبهم فى السلطة فى بلجراد، بل كانت تهمشهم داخل مقاطعاتهم أيضا.

ولم تقتصر نتيجة سياسات بلجراد على اغتراب النخب الكرواتية، ولكنها أثارت شكوك واستياء الريف الكرواتى أيضا. وقد يبدو هذا مدهشا للوهلة الأولى، لأن أحد الأعمال الأولى لمملكة الصرب والكروات والسلوفينيين كان يتمثل فى الوعد بتشريع الإصلاح الزراعى الذى سيلغى آخر آثار الإقطاع، ويعيد توزيع الأراضى بصورة أكثر عدالة بين قرويى المناطق الجديدة التى وقعت تحت سيطرة بلجراد[15]. إذ كان هذا البرنامج يستجيب لواحدة من أهم المظالم العميقة التى كان يشعر بها قرويو أراضى سلاف الجنوب، والذين كان زعمهم بملكيتهم للأرض التى يزرعونها يؤرخ لبداية تطور وعيهم القومى وإحساسهم بالإقليمية الجماعية الخاصة بهم.

ومع ذلك، كان الإصلاح الزراعى عملية معقدة لدرجة أنها لم تكتمل فى بعض الأقاليم حتى نهاية فترة ما بين الحربين. فبينما أدى هذا الإصلاح إلى توزيع الأراضى بصورة أكثر عدالة، إلا أن الكثير من المسارع الصغيرة التى ظهرت نتيجة لذلك لم تثبت حيويتها الاقتصادية، إذ تأثرت بمشاكل عدة مثل زيادة سكان

الريف واختلال الأسعار، وثقل العبء الضريبى، والائتمان المقيد. وكذلك فإن ميل المصارف المملوكة للدولة لاستخدام أشكال الائتمان الرخيصة نسبيا بصورة انتقائية وتمييزية لم يدعم مصداقية الدولة بين القرويين بصفة عامة[16].

وكان الاستياء من الدولة عميقا جدا فى المناطق غير الصربية المكتسبة حديثا، لأنه فى هذه المناطق كانت توقعات الخلاص السريع من الأنماط الاقتصادية الاجتماعية السابقة أعلى ما يمكن. وبالإضافة إلى ذلك، فقد ارتكبت حماقات اجتماعية، وظهر سوء فهم كان يمكن تجنبه لو كان قد تم بذل جهد أكبر لمنح أدوار إدارية وسياسية مستقلة للقيادات المحلية فى الأقاليم غير الصربية (بالرغم من أن الوضع كان معقدا بسبب وجود أقليات صربية كبيرة فى البوسنة وكرواتيا). ولنأخذ مثالا واحدا على ذلك، فقد كان لدى الجيش الصربى تقليد طويل فى وسم حيوانات الحقل القوية للتعرف عليها لاحتمال مصادرتها فى حالة الحرب. وعندما أدخلوا هذه العملية بصورة مفاجئة إلى كرواتيا، التى كانت تجهل هذه الممارسة، واجهها الفلاحون باستنكار وغضب لشعورهم بأن أفضل حيواناتهم كانت تشوه بلا مبرر. وساهمت هذه المشكلة كثيرا فى اندلاع عصيان القرويين الكروات فى 1920.

وهكذا فإن فرض النظام الإدارى السياسى الصربى الموجود سلفا على المملكة التى توسعت حديثا بعد 1918، أكد الانطباع لدى غير الصرب بأن أيديولوجية الاتحاد الأخوى اليوغسلافى والتكامل القومى كانت مجرد خدعة. ففى كرواتيا بصفة خاصة، أدت تكتيكات بلجراد القمعية إلى النمو المستمر فى تأييد «حزب الفلاحين الكروات» بين النخب المفكرة والطبقات الوسطى. وبعبارة أخرى، فإن دخول كرواتيا فى دولة يسيطر عليها الصرب تحول إلى محفز قوى لنمو الهوية القومية العرقية الكرواتية التى ضيقت الفجوة بين الطبقات الدنيا الريفية والنخب الحضرية، بينما أبعدها عن نموذج الوحدة اليوغسلافية الفاقد للمصداقية. وتصاعد الاغتراب المتزايد للقرويين والنخب الكرواتية على السواء فى رد فعلهم الصادم على إطلاق النار على ستيبان راديتش وقتل وجرح العديد من زملائه فى ساحة البرلمان القومى فى يونيو 1928، على يد نائب قومى

صربى. حيث أدت الأزمة السياسية التى ترتبت على ذلك إلى حل البرلمان وإعلان الديكتاتورية الملكية فى يناير 1929.

وخلال الثلاثينيات، عجلت الهشاشة السياسية للنظام الجديد وتأثير «الكساد» العالمى من عملية الاستقطاب والتمزق السياسى على أسس عرقية. حيث استمر حزب الفلاحين الكروات - الذى أصبح الآن تحت قيادة «فلادكو ماشيك - Fladko Macek» - فى توسيع قاعدة تأييده بالتحول إلى اليمين، وذلك بالتخلى عن المبادئ المناهضة للدين لدى مؤسسيه (الذين كانوا متأثرين بشدة بتعاليم توماس مساريك، كما ذكرنا) وصاغوا تحالفا مع الكنيسة الكاثوليكية. وفى نفس الوقت، أدى الفشل فى استمرار انفتاح حزب الفلاحين على الحوار مع الصرب واعتناق الأساليب الديمقراطية إلى إثارة عداوة وسخرية حركة «أوستاشا - Ustasa»، المنافس الصغير والنشط على أقصى يمين السياسة الكرواتية. حيث تأسست هذه الحركة فى أواخر العشرينات على أيدى أعضاء الحزب الفرانكى القديم، وقامت بإحياء القومية الكرواتية الشوفينية العنيفة للفرانكيين بإلباسها عباءة فاشية حيث تم تنظيم طقوس قيادة حول مؤسس الحركة، «آنتى بافيليتش - Ante Pavelic»، وأبرزت الأفكار العنصرية فى دعاية الحركة ضد الصرب، وأدخلت فى الحركة نظم إيطالية عسكرية وفاشية. واستطاعت الحركة التى تمتعت بمساندة إيطالية ومجرية أن تعوض تأييدها الشعبى المحدود باللجوء إلى الهجمات الإرهابية، بما فى ذلك اغتيال الملك الكسندر خلال زيارته لفرنسا فى 1934، وذلك فى إطار حملتها للإطاحة بسلطة بلجراد. ولكنها قفزت إلى السلطة فعلا فى كرواتيا من خلال قوات المحور التى اجتاحت يوغوسلافيا فى1941.

وكما حدث فى الحالة التشيكوسلوفاكية تماما، وإن كان بدرجة أكبر، فإن تعرض النخبة اليوغوسلافية لسيطرة أعضاء مجموعة عرقية واحدة تتمسك بقواعد ما قبل الحرب - فى حكم دولة متحولة إثنوجرافيا - قد ساعد على تقويض تماسك معنويات الأخوة السلافية بين الأعراق، والتى كانت الدولة تستمد شرعيتها منها. وفى الواقع، ساهمت سياسات بلجراد فى تماسك الهوية القومية الكرواتية بين قطاع عريض من السكان بصورة غير مسبوقة، وكان لها أثر مماثل على المجتمعات العرقية والدينية الأخرى فى البلاد، بينما قوضت وأفقدت

مصداقية المؤسسات الديمقراطية والتوافق بين الأعراق أو بناء التحالفات فى نفس الوقت.

النخب الثورية فى بولندا والمشرق العربى

لم يقتصر تأثير عناصر الاستمرارية بين النظام القديم والنظام الجديد على العلاقات بين الأعراق، ولكنه امتد أيضا إلى تطور الوعى القومى والسياسات القومية بين القوميات السائدة فى الدول الجديدة. وتوضح الحالة البولندية فى شرق أوربا الوسطى، والحالة العراقية - والسورية إلى حد ما - فى الشرق الوسط، متناقضات تحولات ما بعد الحرب بصورة جلية، وذلك لأنه فى كل الحالات كان الأعضاء القدامى فى المجموعات القومية وقت الحرب والمنظمات السرية يتولون أدوارا بارزة فى القيادة السياسية للدولة الجديدة. ومع ذلك، كانوا يرتدون إلى الممارسات القديمة أثناء سعيهم لتحقيق أهداف جديدة بمجرد وصولهم إلى السلطة.

وبعد القيام بأدوار الطليعة القومية المختارة ذاتيا أثناء الحرب، تعتقد هذه الشخصيات - مثل ضباط الفرقة الأولى التابعة لبلسودسكى أو جيش الأشراف - أنها الجوهر المصون للأمة، وأن تضامنها ونظامها هو الذى قدم للشعب ككل مثالا لما يجب تحقيقه بمجرد إطلاق كل إمكاناته. وبنفس المنطق، فإن هذه المجموعات ترى أن مآثرها أثناء الحرب تجعل من حقها شغل مواقع متميزة فى الدول القومية الجديدة. وكانوا يرون أيضا أنه بمرور الوقت يجب عليهم استغلال سلطتهم لتشكيل الجماهير بالصورة التى يرونها، والمساعدة على تحقيق مثل الحرية والوحدة التى كانت توجه أفعالهم وقت الحرب. ولكن أنماط الحكم والدرجات السياسية أخذت أشكالا تذكرنا بالثقافات السياسية القديمة، وذلك باسم المساواة السياسية والحرية الاجتماعية.

بولندا

كانت بولندا فيما بين الحربين ممزقة بسبب التوترات العرقية (كما جاء فى الفصل السادس)، وبسبب الانقسامات السياسية والأيديولوجية العميقة بين البولنديين أنفسهم. فهنا، كما فى أماكن أخرى، كانت التركة الإمبريالية تجسم

بثقلها على الدولة الجديدة، والتى كان أحد تحدياتها الكبرى يتمثل فى كيفية تحقيق الوحدة الإدارية والتشريعية للأجزاء الإمبريالية الثلاثة السابقة المكونة للبلاد[17]. وقد أصبحت هذه المهمة شديدة الصعوبة بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى، والنهب المنظم الذى قامت به القوات الألمانية المحتلة للبنية التحتية الصناعية للبلاد، والدمار الناتج عن الحرب البولندية الروسية فى 1920.

ولكن الذى جعل الأمور أكثر سوء، كان يتمثل فى التنافس المستمر بين معسكرى بلسودسكى ودموفسكى، خاصة تلك الانقسامات الأيديولوجية التى سادت قبل الحرب حول كيفية الاستجابة للقهر الإمبريالى الروسى. وانتشر هذا العداء الدموى والسياسى فى أرجاء المجتمع والسياسة البولندية على جميع المستويات، لأن كل فريق كان يكافح لاختراق أو تكوين تحالفات مع أوسع قطاع ممكن من المصالح الاقتصادية الاجتماعية والأحزاب السياسية. وكانت هيئة ضباط الجيش منقسمة بين رفاق بلسودسكى وأتباع التشكيلات المنافسة من المتطوعين وقت الحرب مثل القوات البولندية التابعة للجنرال «جوزيف هالر - General Józef Haller». وكان هناك أيضا العديد من الضباط البولنديين القادمين من جيوش الهابسبرج وروسيا وألمانيا القديمة، وكان أنصار بلسودسكى يرون فى الكثير من هؤلاء الضباط عناصر غير وطنية ليس لها مكان مناسب فى جيش بولندى قوى. ومن ناحية أخرى، كان الضباط الإمبرياليون السابقون (خاصة فرق الهابسبرج الكبيرة) يسخرون من المحاربين القدماء ويرونهم مبتدئين وهواة ليس لهم مكان فى قوات مسلحة محترفة[18].

وتفاقم تقلب واستقطاب السياسات البرلمانية فى أوائل العشرينات بسبب أحداث عنيفة - أشهرها اغتيال «جابريل ناروتوفيتش - Gabriel Narutowicz» فى 1922، وهو الرجل الذى كان بلسودسكى يجهزة ليخلفه كرئيس - بالإضافة إلى الفساد بين النواب البرلمانيين وارتفاع البطالة والاضطرابات العمالية، وعدم اتساق تشريع الإصلاح الزراعى المتواضع أساسا. ففى هذا السياق، نفذ بلسودسكى انقلابه فى 1926، بمساندة الموالين له داخل الجيش، والإضراب العام الذى دعا إليه الحزب الاشتراكى البولندى. وبعد أن استولى على وارسو بعد معركة استمرت ثلاثة أيام راح ضحيتها حوالى 400 فرد، لم يتسلم السيطرة

الشخصية على القيادة أو الرئاسة، ولكنه تأكد من أن هذه المناصب كان سيشغلها مرشحون من اختياره. وعلى هذا النحو تم تشريع الإصلاحات الدستورية بسرعة بما يمنح سلطات جديدة للرئاسة. وحصل بلسودسكى فى الحكومة الجدية على منصب وزير الحرب وضمن له سيطرة كبيرة على الجيش، وسمح له ذلك بفرض هيمنته على السلطة السياسية، وإن أعطاها بعض مظاهر شكلية للشرعية.

وقد قدم الانقلاب وعدا باحتواء قوى الشوفينية اليمينية والمحافظة الاجتماعية وإصلاح المؤسسات والثقافة السياسية البولندية على أسس تكاملية واسعة. وجاء إلى السلطة بالمحاربين القدماء من التشكيلات العسكرية التابعة لبلسودسكى وقت الحرب ممن كانوا يعتبرون أنفسهم نخبة وطنية ناكرة لذاتها وغير متعصبة وقادرة على الانفصال التام عن العقليات القديمة والقيم الفاسدة التى سادت لأكثر من قرن من العبودية.

ولكن إحساس هؤلاء المحاربين بالالتزام بالأمة البولندية كان مشوبا دائما بشك عميق فى الجماهير العقيمة التى فشلت فى الالتزام بمعاييرهم فى 1914 (انظر الفصل الخامس). وقد تعمقت صورتهم الذاتية كأبطال مجهولين، وتحولت إلى طقس حقيقى لإحساسهم بكونهم ضحايا الاضطراب السياسى فى أوائل العشرينيات. وكان بلسودسكى هو الذى زرع مثل هذه العقلية. إذ كانت خطبه عن تلك السنوات تتصف برؤية حزينة مريرة لنفسه ولزملائه السابقين فى الفرق العسكرية كأبطال حقيقيين محاطين بكذابين وأشرار مسمومين لا يستحقون العيش فى بولندا، ويجب إزالتهم من السلطة بطريقة أو بأخرى فى النهاية. ففى خطابه الذى ألقاه عقب استقالته مباشرة فى 1923، كقائد أركان الجيش، كان يصف تجربته كقائد لا يضارع بالتعبيرات التالية:

«لقد وصلت إلى مرتبة لم يصل إليها أحد من قبل، ولذلك فإننى ألقى بظلى على الجميع، عندما أقف وحدى فى الضوء. ومع ذلك، كان هناك ظل يحتوينى، قد ذهب قبلى، وقد استمر خلفى، وكان هناك الكثير من هذه الظلال. وكانت هذه الظلال تحيطنى دائما، غير منظورة، وتتبعنى خطوة بخطوة، وتلاحقنى وتقلدنى. وسواء كنت فى ميدان المعركة، أم فى العمل ... أم كنت أربت على طفلى، كان هذا الظل يلاحقنى ولا ينفصل عنى. إنه قزم حقير على أرجل

مثنية، يلفظ روحه القذرة، يبصق على من كل جانب، لم يترك شيئا كان يجب تركه، لا حياتى ولا أسرتى ولا أصدقائى، إنه يتبع خطواتى، ويقوم بحركات بغيضة، ويدمر كل تفكير ... وكان هذا القزم رفيقى الذى لا ينفصل عنى ... فى السراء والضراء، فى النصر أو الهزيمة. لا تظنوا أيها السادة أن هذا تشبيه أدبى أو استعارة مجازية».

وبعد مواصلة الحديث عن مصرع ناروتوفيتش، ختم قائلا:

«عندما نتذكر هذه الأشياء، وعندما نرسم تاريخ السنوات الخمس الماضية، فإننى لا أرغب فى إثارة انطباع المأساة. إننى أرغب فقط فى تأكيد أن هناك وقاحة، وأن ذلك يحظى بالشرف والسلطة فى بولندا ... فإذا كانت بولندا قد نجحت فى إصلاح الجمهورية فى الفترة الأولى، إلا أنها بدأت تتراجع إلى عاداتها القديمة لاحقا ... ولا بد من جهود كبيرة ... لاستعادة بولندا إلى الطريق الصحيح»[19].

ولكن نبرة الثقة بالنفس ورثاء الذات الشديد فى هذه الدعوة للإصلاح لم تكن تبشر بخير بالنسبة لتوقعات المحاربين القدماء كطليعة للتقدم السياسى فى بولندا.

وكان نظام بلسودسكى بعد الانقلاب يعرف باسم «ساناتسيا . Sanacja» (أى «التطهير» أو «الإصحاح»). وكان يتكون أساسا من موظفين مدنيين غير حزبيين، بهدف التخلص من الفساد والتحزب فى الحكومة البولندية، وتشجيع الانتعاش الاقتصادى والتكامل القومى للبلاد. ومن ثم فإن القدوة الشخصية والالتزام بالإصلاح، وليس العلاقات السياسية، كان يفترض أنها التى تحدد التعيينات والترقيات فى إدارة الدولة. ومع ذلك، نجد أن هذه الحكومة القومية التى يفترض أنها غير متعصبة تدهورت ووصلت إلى مستوى من الفساد وإساءة استغلال السلطة أفقدها مصداقيتها فى عيون الكثير من الجماهير، وساهمت فى الحراك السياسى للحركة الفاشية البولندية الوليدة. واتضح سريعا أن الخدمة السابقة فى فرق بلسودسكى كانت أهم معيار للجدارة فى النظام الجديد. وكان ذلك واضحا جدا فى صفوف هيئة ضباط الجيش، والتى تم تطهيرها بصورة منهجية من الشخصيات المعارضة لبلسودسكى، ليحل محلهم محاربون موالون من

الفرقة الأولى وأسرى الحرب (انظر الفصل الخامس). وبحلول 1939، كان حوالى 65% من كبار ضباط الجيش من المحاربين القدماء. وكان هذا الجيش المثقل بالمحاربين القدماء يرتفع فى أعين العامة إلى مرتبة الرمز المقدس وحامى الوحدة القومية. وكان انتقاده يعنى انعدام الوطنية. وقامت هيئة الضباط بدورها بوظيفة وعاء التوظيف للمناصب الإدارية والسياسية العليا[20].

وطوال أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات، كان بلسودسكى يخيب آمال حلفائه المرتقبين فى الحزب الاشتراكى البولندى بالتخلى عن كل مظاهر الإصلاح الاجتماعى، والبحث عن تأييد المصالح الصناعية والزراعية المحافظة والكنيسة. حيث كان يهدف إلى عزل الإندتسيا وبناء إجماع مركزى قوى «غير أيديولوجى» كأساس للسلطة. وكانت «الكتلة غير الحزبية لمساندة الحكومة» (BBWR) جناحا برلمانيا للساناتسيا، وتألف من محاربين قدماء وعدد من ملاك الأراضى النافذين. وأصبح تقديس الشخصية الذى تطور حول بلسودسكى وغرس شعار «الفرقة الأولى» بمثابة بدائل لأى برنامج سياسى متكامل[21]. وكلما ازدادت المقاومة لنمطه السلطوى، كلما كان حكمه يتزايد استبدادا. وتزايدت صعوبة الحفاظ على واجهة الشرعية فى مقابل المعارضة المتصاعدة من الوسط واليسار السياسى، والتى استجاب لها بلسودسكى بمزيد من الإجراءات القمعية. وكانت النتيجة الحتمية للحكم الاستبدادى للمارشال[22] تتمثل فى تزايد الاغتراب بين المجتمع البولندى والنخبة التى فرضت نفسها عليه وكانت تديره. وساهم الانخفاض المستمر فى الأسعار الزراعية والارتفاع فى البطالة خلال "كساد" الثلاثينات، والذى بدأ برنامج الإنعاش الحكومى فى مواجهته فى 1936، إلى أن أصبحت الأمور أكثر سوءًا[23].

وخلال الثلاثينيات، وبينما كانت الساناتسيا تحتكر السلطة باسم مبادئ «اشتراكية الدولة» سيئة التعريف، كانت الإندتسيا التابعة لدموفسكى تكتسب تأييدا شعبيا، خاصة بين طلاب الجامعات والنخب الشابة التى أدت فرص العمل القليلة فى فترة الأزمة الاقتصادية إلى زيادة سخطهم على المنافسة الأكاديمية اليهودية. وعلى عكس معارضة يسار الوسط، لم يدافع دموفسكى عن الديمقراطية البرلمانية. حيث بدأ منذ 1926، هجوما شاملا على النظام مفندا

مزاعم ذلك النظام فى الأحقية بالسلطة، ومهاجما إهمال النظام مصالح الشعب ومعاناة المجتمع من الانقسامات السياسية. وصور دموفسكى الساناتسيا كعصابة من اليهود والمتعاطفين معهم المصممين على استغلال الشعب البولندى لأغراضهم الخاصة. وكان يرفض علانية الواجهة الديمقراطية الليبرالية التى شارك بنفسه فى تكوينها للديمقراطيين القوميين، وشجع على تطور الفاشية بين شباب الحركة اليمينية الراديكالية.

وأصبحت الصورة الذاتية للمحاربين القدماء كطليعة للأمة البولندية بمثابة أسطورة تخدم ذاتها ولكنها تتلاشى. فخلال الفترة (1914-1918) تحول رجال الفرقة الأولى وأسرى الحرب إلى عصابة وقحة من المتمردين فى المسألة القومية، وكرسوا أنفسهم لاحتقار الضباط المحترفين الذين ظلوا موالين مطلقا لجيش الهابسبرج، والذين كانوا ثابتين فى اعتقادهم بأن قوة إرادتهم وروح تضامنهم وولائهم لقائدهم سيصمد فى وجه لامبالاة الجماهير وطغيان القوى المحتلة. وبينما كانوا يتحمسون للصورة الرومانسية للمتمردين الأرستقراطيين فى بولندا فى القرن التاسع عشر، كانوا يقومون بأعمالهم الخاصة بروح الرفاق المتساوين، ويقدرون الرجال حسب أفعالهم لا حسب نسبهم. وكانوا يعتبرون أنفسهم الرواد لجيل كامل من البولنديين، وهو الجيل الذى يجب أن يولد فى أجواء الحرية لا العبودية الإمبريالية. وفى نفس الوقت، كانوا يعتبرون أنفسهم نخبة طبيعية - نخبة الشجاعة والتضحية بالذات، وليس نخبة المصاهرة أو الثروة، وبالتالى فهم القادة المثاليون لدولة الجمهورية الواعدة.

وعندما مات بلسودسكى فى 1935، كان المحاربون القدماء قد أصبحوا فاسدين بسبب السلطة، وغارقين فى أساطيرهم الخاصة، وعاجزين عن تحقيق تناغم قوى بين أى من النخب الحاكمة أو الجماهير. وكانت مطالبهم بالسلطة تعتمد على افتراضات يبدو أنها تحاكى الفكرة القديمة القائلة بأن الطبقة العليا تكون الأمة سياسيا، وأن الجماهير مجرد رعايا تحت رعايتهم الكريمة. وفى الحقيقة فإنه بعد نزع مصداقية الديمقراطية البرلمانية، كان بلسودسكى وأتباعه غير قادرين على تكوين بديل حيوى لها. وانتقلت سمة قومية الإندتسيا الفاشية العنيفة المعادية للسامية إلى تكوين الرأى العام والمفاهيم الشعبية للهوية القومية.

وبعد سقوط المارشال، ظلت السااناتسيا فى السلطة، ولكن ممارساتها القمعية واستغلالها المتزايد لمعاداة السامية كانت بمثابة شهادة على إفلاس قيمها. وحدثت الفوضى المريرة والأخيرة لهذه «الفرق» فى 1939، عندما قاد المحاربون القدماء - الذين أصبحوا يشكلون معظم هيئة الضباط - المقاومة اليائسة للقوات الألمانية والروسية الغازية التى سحقتهم مع الدولة التى كونوها.

. سوريا والعراق

أما فى سوريا والعراق، فإن الطبيعة المغلقة للنخب السياسية واعتمادها على الأشكال التقليدية الموروثة لممارسة السلطة كانت تتعارض مباشرة مع أساطير وتصورات الوحدة القومية والمشاركة الجماهيرية التى نشروها بأنفسهم. وكما رأينا (فى الفصل الثالث)، كانت السلطة العثمانية فى سوريا والعراق ترتكز على مساندة وتعاون طبقة البيروقراطيين وملاك الأراضى المتغيبين عنها، والتى كان يطلق عليها تعبير وجهاء الحضر. وكان هؤلاء الموظفون العموميون ينتمون إلى طبقة اقتصادية اجتماعية متميزة جدا. وكانت ثرواتهم المستقلة ونفوذهم الشخصى فى أقاليم معينة، أو حتى فى أحياء كاملة، خاصة حصولهم على المناصب العامة، ثم القيام بواجباتهم بمجرد الوصول إلى هذه المناصب. وكان من المسلم به أيضا أنهم سيستغلون مناصبهم فى الإدارة لإثراء أنفسهم. وكانت الرشوة متفشية، بالرغم من عدم التغاضى عنها رسميا. وفى نفس الوقت، أدت إصلاحات القرن التاسع عشر إلى تكوين بنية إدارية أكثر مركزية، وخطوط اتصال أفضل بين اسطنبول والإمارات العربية مقارنة بذى قبل. وكان يتوقع بصورة متزايدة من المتطلعين إلى المناصب العليا تلقّى تدريب رسمى غالبا فى المدرسة الإدارية فى اسطنبول، المعروفة باسم «المُلكية - Mülkiye» وهكذا فإنه - كما فى حالة البيروقراطية الإمبريالية الروسية - كانت مكانة ووظائف وتعليم وعقلية هذه الطبقة تقع فيما بين نمطى ماكس فيبر فى خدمة الدولة: نمط الإدارة التراثية، ونمط البيروقراطية الموضوعية العقلانية الحديثة. وقد ظل النمط الأول سائدا مع دخول بعض عناصر من النمط الثانى[24].

وانتقل هذا النمط إلى الثقافة السياسية للنخب القومية فيما بعد الحرب العالمية الأولى فى سوريا والعراق. حيث انهمك أنصار القومية العربية فى فترة ما

قبل الحرب العالمية الأولى فى وظائفهم السياسية مفتونين بآفاق الخطاب الحر والحكومة البرلمانية على النمط الغربى، والتى فتحتها لهم ثورة «تركيا الفتاة» فى 1908 واعتنقوا القومية العربية جزئيا نتيجة لفشل «تركيا الفتاة» فى تحقيق تلك الآفاق. ومع ذلك، اتضح بحلول الثلاثينيات أن أساليب وعقليات الأحزاب السياسية القومية فى البلاد العربية كانت أكثر ميلا إلى الثقافة السياسية الفاسدة والاستبدادية التى اتبعتها الإمبراطورية العثمانية، منها على المثل الديمقراطية الليبرالية التى كان القوميون العرب يظهرون حماية لها.

وتوضح دراسة فيليب خورى «للكتلة القومية»، التى قادت معارضة الفرنسيين فى سوريا، أن قوتها المتزايدة كانت لا تعتمد على السياسات الانتخابية فى حد ذاتها، بل على قدرة الوجهاء الذين قادوها تهدئة الأوضاع وفض النزاعات وفرض إرادتهم فى مناطق معينة من مدنهم. وكانوا يستغلون التجار ورجال الدين المحليين، بالإضافة إلى أقوياء المنطقة (القبضايات) فى الوساطة والاتصالات اليومية مع الطبقات الأدنى. وتم استغلال هذا النمط من النفوذ بعد ذلك كورقة رابحة فى الانتخابات. ومن المؤكد أن القادة القوميين السوريين لم يظهروا أى اهتمام بالإصلاح الاقتصادى الاجتماعى: إذ إن استقلالهم المالى الشخصى اللازم لمشاركتهم فى السياسة كان يعتمد على التوزيع غير العادل للموارد . خاصة استحواذهم الصارخ على الأراضى الزراعية، وكانت شرعيتهم الأيديولوجية تعتمد على قدرتهم على ممارسة الضغوط للتأثير على السلطات الفرنسية، التى كانوا يضعون فى عنقها كل أسباب الأمراض الاجتماعية والاقتصادية[25].

وفى الوقت الذى بدأ فيه القوميون السوريون معارضة «العثمانية»، كانوا قد أصبحوا باحثين عن المناصب، ولكن «تركيا الفتاة» أنكرت عليهم فرصة شغل مناصب النفوذ والاحترام التى كانوا يعتبرونها حقا لهم. ونظرا لهذا الإحباط والاستياء، فقد أحسوا بأن الوقت قد حان للتغيرات الجذرية فى قواعد اللعبة السياسية. وبحلول الثلاثينيات، عندما ظهر أن فرصة «شغل» المناصب متاحة على الأقل فى إطار استمرار النفوذ الفرنسى، تحول الباحثون عن المناصب سابقا إلى طرق تفكير وأنماط سلوك آبائهم وأجدادهم، الذين شغلوا مناصب السلطة فى الإقليم خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وكما فعلت القيادة

السياسية الإيطالية بعد الوحدة (Risorgimento) فقد استمروا فى تعريف أنفسهم على أنهم الطليعة القومية البطولية، فى حين كانوا يتصرفون بصورة متزايدة مثل المسئولين الفاسدين الذين يخدمون مصالحهم. وبالإضافة إلى ذلك، تطورت مراتبهم لتشمل شخصيات عديدة كانت فى الواقع تشغل مناصب فى السلطة حتى الأيام الأخيرة من الإمبراطورية العثمانية، والذين كان تحولهم إلى القومية العربية مسألة انتهازية وليس اقتناعا. وكانت النظرة السياسية للقوميين السوريين البارزين محدودة بسبب العقلية الضيقة والتكبر الذى غطى أصولهم كنخبة ملاك أراض اشترت طريقها إلى الجهاز البيروقراطى العثمانى[26].

وأظهرت هذه الفجوة بين الشكل الأيديولوجى والمضمون الثقافى نفسها فى كل شىء، من الشكل الرسمى لوجهاء الحضر إلى تكتلاتهم السياسية. حيث جمعوا بين الطربوش والمعطف فى مركب مربك من الزى الشرق أوسطى والغربى[27]. واستخدم قادة الكتلة قاعدة سلطتهم التقليدية المجزأة لدعم تصور الأمة السورية كمجتمع سياسى متكامل، وهم الممثلون الشرعيون الوحيدون له[28]. واعتبروا سوريا المستقلة جمهورية علمانية، بينما شجعوا خطباء المساجد على حشد التأييد الشعبى بتصوير الفرنسيين على أنهم أعداء الإسلام. وهاجموا حكومة الانتداب لمنع تطور الديمقراطية البرلمانية فى سوريا، ولكنهم كانوا يديرون حزبهم كمنظمة مافيا. وحاولوا غرس فضائل النظام والتضحية بالذات بين أتباعهم، فى حين كانوا يتمسكون بلهفة بأسباب المناصب العامة.

وفى العراق، كانت النخبة السياسية بعد الحرب العالمية الأولى يسودها ضباط من «الجيش الشمالى» للثورة العربية، والذين وصلوا إلى السلطة تحت رعاية الملكية الهاشمية التى تأسست بمساندة سلطة الانتداب البريطانى. ونظرا لارتباطهم بسنوات الخبرة المشتركة فى الأكاديمية العسكرية باسطنبول (الحربية)، وبالجمعيات السرية مثل «العهد»، وجيش الأشراف، فقد كان هذا الجيل يعتبر نفسه القيادة الطبيعية للأمة العراقية وقضية الوحدة العربية. ومثل المحاربين القدماء فى نظام بلسودسكى بعد 1926، كانوا يعتبرون أنفسهم النخبة التى اختارها التاريخ لتشكيل الإحساس بالهوية المشتركة بين سكان البلاد المشتتين.

ومع ذلك، لم تكن أساليب حكمهم تخدم تطلعاتهم المعلنة بفعالية. إذ إن المجموعة الحاكمة الجديدة فى العراق سقطت سريعا فى عادات وعقليات أكثر ارتباطا بالطبقة الحاكمة القديمة، منها بالطليعة السياسية الراديكالية. وكان الاتفاق على اختيار هياكل السلطة القائمة يوفر الطريق الأقل مقاومة للنظام الجديد الذى يحاول فرض شرعيته وسلطته. ففى المناطق القبلية، كان "الشيوخ" مسئولين عن تحصيل الضرائب، وذلك فى مقابل كل أنواع الاستثناءات الشخصية وإقرار سلطاتهم التقليدية (و غير التقليدية). أما فى القرى الزراعية، فكانت أوامر الحكومة تنفذ من خلال تقديم العطايا «للمختار» (شيخ القرية) . الذى عادة ما يكون قرويا أغنى من المتوسط، ويحظى منصبه بكراهية متزايدة من جيرانه الفقراء بسبب تدهور حياتهم المستمر نتيجة التحول التجارى للزراعة. وفى أحياء المدن القديمة، كان الأقوياء ورجال الدين المحليون يمثلون الوسطاء اليوميين مع الجماهير. وكان الحكام الجدد يحاولون كسب قبول وتأييد البيروقراطيين ملاك الأراضى التقليديين، وذلك بتعيينهم فى مناصب عليا، والسماح لهم بتدعيم سيطرتهم الاقتصادية على القرويين الفقراء. وفى الواقع، كان أعضاء الطبقة الحاكمة القديمة والجديدة يتداخلون بصورة متزايدة من خلال الروابط الزوجية، وكانت روابط القرابة تقوى الهوية الطبقية والسياسية[29]. واستغل الأشراف سلطتهم السياسية وسيطرتهم على النظام القضائى لفرض مطالبهم بمساحات شاسعة من الأراضى الزراعية وإثراء أنفسهم بأسرع ما يمكن. ولكن قيام الشركات الغربية بتطوير صناعة النفط واقتسام أرباحها مباشرة مع الحكومة ساعد على تدعيم الاستقلال المالى للنظام، بالإضافة إلى زيادة فرص تحقيق الشخصيات الرئيسة فى هذا النظام لمكاسبها. وفيما يتعلق بمؤسسات الديمقراطية البرلمانية، فقد استخدمت لإضفاء الشرعية على قرارات الطبقة الحاكمة[30].

وكانت عبارة الديمقراطية الليبرالية منتشرة فى حركات الإصلاح السياسى فى الإمبراطورية السابقة، ولكن كما فعل قادة «تركيا الفتاة» قبلهم، كان القوميون العرب العراقيون مجرد مجموعة صغيرة وصلت إلى السلطة فجأة فى مجتمع غالبيته أميون، وغير متجانس للغاية، وطبقى بصورة واضحة. وكان فرض الأوامر

من أعلى يبدو بمثابة الوسيلة الوحيدة الممكنة لتحقيق التغير السياسى السريع. حيث ساعدت الخلفية العسكرية للأشراف، وتعلمهم فى الأكاديمية العسكرية العثمانية التى يديرها الألمان، والمثال القوى لثورة مصطفى كمال من أعلى فى تركيا، على تقوية توجههم السلطوى فى السياسة. إذ كانوا يرون أن الإحساس بالهوية القومية والهدف المشترك يجب أن ينتقل إلى الجماهير من أعلى، فليست هناك حاجة إلى محاولة إشراكهم فى العملية السياسية مباشرة[31].

وبالتالى استغلت نخبة الأشراف المؤسسات العسكرية والتعليمية العراقية كأدوات لتشكيل وعى عراقى وعربى متضامن وملتحم بالجماهير. وكانت هذه البرامج تستخدم بدلا من تكوين الجمعيات المدنية المستقلة، وتكوين الروابط المتينة بين المصالح المادية، وتشجيع أنماط التعاون السياسى وتقاسم السلطة بين مختلف مكونات المجتمع العراقى. ولعبت تكتيكات التكامل السلبى - التضحية بالأقليات والدعاية ضد الأعداء الخارجيين - أبرز دور فى جهود الدولة لإقناع نفسها وشعبها بأن شبح الوحدة القومية يمكن أن يتحول إلى حقيقة. حيث قوبلت محاولة المجتمع المسيحى الآشورى (النسطورى) للحصول على الاستقلال الذاتى الرسمى بسلسلة من المذابح ارتكبها الجيش العراقى فى 1933، وأودت بمئات الأرواح. وكان تدفق الحماس الشعبى الناتج عن رؤية ذلك الجيش كضامن لوحدة العراق ومدافع عن شرفه يمثل قمة مشروع التكامل القومى للنظام الهاشمى (كما يقال)[32].

وبالإضافة إلى الجيش، كان نظام التعليم العراقى يمثل آلية هامة لتكوين الإحساس بالهوية القومية. وكان ساطع الحصرى، أبو النظام التعليمى العراقى، من أنصار الوحدة العربية ومن أصل سورى. ومن الطريف أنه كان فى عمله المبكر باعتباره معلما عثمانيا ينادى بمناهج الفردية الليبرالية التى تنشر التسامح والتفاهم بين المجموعات العرقية والدينية المتنوعة فى المجتمع العثمانى، وكان ينتقد القوميين الأتراك على شوفينيتهم ذات العقلية الضيقة. وأسهم الاحتلال الفرنسى لسوريا فى 1920، فى ابتعاده عن المفهوم الأوربى الغربى الليبرالى للقومية، وعزز من إعجابه المتزايد بالسلطوية الشعبية الألمانية. وعندما أصبح المدير العام للتعليم فى العراق فى الفترة (1921-1927) بنى الحصرى نظام

التعليم العام على حساب المدارس الدينية، وذلك فى محاولة لاستغلال التربية كأداة للتوجيه الجماهيرى فى قومية الوحدة العربية العلمانية. وكانت المناهج المركزية الجامدة التى وضعها تكافئ الطلاب على حفظ الشعارات القومية[33].

وبعد ترك الحصرى منصبه، تزايدت الأفكار الشوفينية فى التعليم الابتدائى والثانوى كثيرا، وكان المشروع الصهيونى فى فلسطين، والوجود الفرنسى فى سوريا ولبنان، يصوران على أنهما العقبتان الرئيستان أمام الوحدة العربية -وهما العقبتان اللتان يجب التغلب عليهما بقوة السلاح. وكانت الغزوات العربية القديمة تحظى بالتمجيد كحافز على تحقيق الوحدة العربية فى المستقبل القريب، بحيث يقوم العراق بدور الموحد، على غرار إقليم «بيدمونت ـ Piedmont» فى الوحدة الإيطالية، أو بروسيا فى الوحدة الألمانية. وكان سامى شوكت، الذى خلف الحصرى، لا يخفى تحمسه الشديد للنازية، وقام بتوسيع برنامج التدريب شبه العسكرى بالنظام التعليمى حتى وصل إلى حركة شبابية كاملة عرفت باسم "الفتوة" تأسيا بحركة «شباب» التى أسسها هتلر. وطالب شوكت علانية طلاب المدارس الثانوية العراقية بتكريس أنفسهم «لمهنة الموت» من أجل قضية الوحدة العربية [34]. وفى تلك الأثناء، كونت "الكتلة القومية" فى سوريا منظمة شبه عسكرية تدعى «القمصان الحديدية»، كان من الواضح أنها تقوم على أسس فاشية، حتى التحية بالذراع المرفوع على الطريقة الهتلرية[35]. ولكن بينما كان الخطاب العام فى العالم العربى يسيطر عليه الحديث الجديد عن القومية، ظلت مظاهر السلطة مرتبطة بالإطار القديم لسياسة المحسوبية والمصالح الإقليمية والولاءات القبلية التى كانت سائدة فى ظل العثمانيين[36].

وكان هذا التناقض بين الأيديولوجية المعلنة والثقافة السياسية للقيادات القومية السورية والعراقية يغذى السخط المتزايد بين الجيل الجديد من طلاب الجامعات والمدارس الثانوية والمثقفين وضباط الجيش (فى الحالة العراقية)، الذين غرقوا فى دعاية القومية، ولكنهم لم يروا تحقيقا فعليا لأهدافها، وكانوا غاضبين بسبب ضيق آفاق التقدم المادى أو المهنى فى مواجهة التأثير المدمر لسياسات المحسوبية والصعوبات الاقتصادية المتزايدة فى سنوات ما بين الحربين. وكانت هذه العناصر المنتمية للطبقة الوسطى غالبا ما تتساءل عن رشد

ونزاهة المؤسسة السياسية، ويدأوا يكونون أحزابا جديدة تجمع ما بين الاعتناق العلنى للسلطوية والتصور الجمهورى لرابطة الوحدة العربية، مع المطالبة بالإصلاح الاجتماعى والاهتمام الصريح بالجماهير المعدمة. وحاولت منظمات مثل «عصبة العمل القومى» - التى جمعت الثوريين من قوميى الوحدة العربية من العراق والأردن وفلسطين ولبنان وسوريا فى مؤتمر فى بلدة «قرنايل» بلبنان فى 1933 - أن تستعير وتطور نمط الدعاية وأساليب التعبئة الفاشية التى كان النظام العراقى والكتلة القومية السورية نفسها تمارسها، وذلك بهدف استغلالها لتكوين أحزاب سياسية جماهيرية حديثة يمكن أن تتخطى شبكات المحسوبية الخاصة بالنخب القائمة، والتى يمكن أن تتغاضى عن الحدود «المصطنعة» بين الدول، والتى فرضتها القوى الإمبريالية على العالم العربى، ثم تزيلها فى النهاية.

ولكن هذه الحركات الوليدة فشلت فى الثلاثينيات فى إقامة قواعد تنظيمية بين الطبقات الدنيا فى بلادهم. وبالإضافة إلى ذلك، كان قادتها معرضين لسيطرة النخب على سياسات الاختيار للوظائف والتهميش. ولكن رواد هذه الحركات المبكرة استمروا فى القيام بأدوار هامة فى حركات الضباط والأحزاب السياسية (خاصة حزب البعث الذى أسس نظامين قوميين شموليين فى سوريا والعراق فى الستينيات) التى غيرت الحياة السياسية فى العالم العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين[37].

.الخاتمة

كان الانتقال من النظام الإمبريالى القديم إلى الدولة القومية يعنى شيئا أكبر من مجرد أزمة تكيف مؤقتة. فقد كان فى العديد من جوانبه بمثابة عملية تحول ميزت الثقافات والمؤسسات السياسية للدول الجديدة لعقود تالية. وكان من أبرز ملامح هذا التحول استمرار الطبقات الحاكمة وبقاء الأساليب الفكرية القديمة ومفاهيم السلطة بين النخب البيروقراطية والسياسية المسئولة عن دعم تكامل هذه المجتمعات والتفافها حول مُثل السيادة الشعبية والهوية القومية المشتركة. ولكن حقيقة أن الخبرة السياسية للعديد من الحركات القومية كانت قاصرة على مهاجمة قوة الدولة، بدلا من ممارستها، يمكن أن تكون قد جعلتها أكثر ميلا إلى العودة إلى الشخصيات وأساليب النظم القديمة أثناء محاولتها إحكام سلطتها

على الدول القومية الجديدة الهشة. أما السكان القرويون والنخب المحلية والأقليات العرقية، فقد وجدوا أنفسهم مهمشين سياسيا ويعاملون مثل الرعايا المستعمرين. وكان اغترابهم كبيرا بسبب حالة التشدق بأقوال عن الوحدة والحقوق المتساوية وتقرير المصير الذى كان يسيطر على الخطاب الرسمى، والذى كانت تدعو له الأنظمة التعليمية التى تديرها الدولة بنشاط.

وفى حالتى تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا، فإن سيطرة مجموعات عرقية كان لها خبرة سابقة على الحرب فى ممارسة السلطة الإدارية والسياسية على الأجهزة السياسية والعسكرية والبيروقراطية، كانت تدحض الأيديولوجيات الرسمية عن الوحدة القومية أو التعايش الأخوى، وتفسد تطبيق السياسات المصممة لتشجيع التكامل السياسى. وفى بولندا والعراق وسوريا، أصبح مؤسسو المجموعات القومية والحركات السرية، الذين اعتبروا أنفسهم فى طليعة التغيير، بمثابة عقبات أمام تحقيق الأهداف التى اعتنقوها، لأنهم ارتدوا إلى النمط السياسى لعصر سابق. وأدى تراجعهم إلى كونهم مجرد نخب فاسدة منغلقة إلى تقويض مصداقية المؤسسات الديمقراطية الليبرالية، وذلك مثلما فعل ميلهم المتزايد للجوء إلى سياسات التكامل السلبى من خلال التضحية بالأقليات. وأدت الصعوبات المادية الحادة فى سنوات ما بين الحربين إلى تفاقم السخط الشعبى بسبب الفجوة بين الوعود والواقع بالنسبة لحق تقرير المصير القومى، واتساع هوة الشك وانعدام الثقة بين الحكام والجماهير.

ولكن كل هذا لا يعنى القول إن الآباء المؤسسين للدول الجديدة لم يكونوا مخلصين فى مطالبتهم بحق تقرير المصير. فالقومية كانت أكثر من مجرد واجهة تستخدم لخداع الجماهير، كما فى حالة القيادة السياسية التشيكية، والمحاربين القدماء فى بولندا، والطبقة الحاكمة الصربية، وكذلك الأمر فى الشرق الأوسط. فقد وفرت القومية "سبب وجود" النخب القديمة - الجديدة التى كانت ضرورية لإحساسها بالهدف والأهمية الذاتية. وسواء كانوا ينتمون لعائلات عريقة، أو كانوا ممن تخرجوا فى الأكاديمية العسكرية فى اسطنبول، فقد كانوا مقتنعين بأن دورهم يتمثل فى السيطرة على الحياة السياسية والاجتماعية لبلادهم، والتمتع بامتيازات هذه المناصب المرموقة. ومع انهيار الحكم الإمبريالى، قدمت القومية

منطقا جديدا لاستمرار أو إحياء الطرق القديمة. ففى الشرق الأوسط، حيث حلت سيطرة إمبريالية جديدة محل الحكم العثمانى، أدى دور القوميين كوسطاء فى علاقات مجتمعاتهم بقوى الانتداب الأوربية إلى زيادة إحساسهم بأهميتهم كقادة للأمم. وفى نفس الوقت، كان يبدو أن الوجود البريطانى والفرنسى يحررهم من المسئولية المباشرة عن أية مصائب تحل بشعوبهم[38]. ولكن بمرور الوقت، كان يبدو أن السلوك السياسى للنخب القومية يزيد فى انخفاض استجابته لتوقعات الجماهير التى أفرزتها أيديولوجياتها.

وكان هذا الصدع المتسع بين الحكومات والشعوب يمثل عقبة شديدة أمام الاستقرار السياسى قبل الحرب وما بعدها، مما أدى إلى نمو الوعى السياسى وتوقعات إعادة توزيع السلطة بين مكونات سكان الريف والحضر على السواء. وأدى الدمار الاقتصادى الناتج عن الكساد العظيم فى الثلاثينيات إلى انتشار مشاعر الكراهية، وذلك لأن الأنظمة القومية فشلت فى تحقيق وعود الحركات القومية. وفى معظم أنحاء أوربا، كانت القيم الديمقراطية الليبرالية التى ظهرت منتصرة فى (1918، 1919) تستسلم لهجوم الفاشية[39]. وقد وفر هذا فرصا عديدة للحركات القومية اليمينية الراديكالية. والتى كانت جذور بعضها تعود إلى اليمين القومى قبل الحرب (مثل الفرانكيين فى كرواتيا، والإندتسيا فى بولندا). لتحدى السلطة والتساؤل حول تكامل الآباء المؤسسين للدولة القومية. وكان مجرد لجوء النظم القائمة بصورة انتهازية إلى اضطهاد الأقليات أو الإشارة إلى أعداء خارجيين يساعد فقط على إضفاء الشرعية والاحترام على أكثر أشكال رهاب الأجانب (الزينوفوبيا) تطرفا. وكان طلاب المدارس الثانوية والجامعات القلقون على فرص عملهم فى البيروقراطيات الحكومية المرهقة ماليا، أو فى القطاعات المهنية والتجارية المتقلصة، والمنشغلين أحيانا بالمنافسة بين الأقليات، ينضمون إلى الأحزاب السياسية التى تتهم الحكومات بالفساد وحكم النخبة، وتسخر من الديمقراطية البرلمانية (إذا كانت واجهتها لا تزال موجودة) باعتبارها خدعة، وتعرض نفسها على أنها مهتمة حقيقة بتقوية جماهير الأمة، وتحقيق الوحدة القومية غير المشروطة فى مواجهة كل «الأعداء» الداخليين والخارجيين[40]. وكانت الحركة الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية بمثابة نماذج مؤثرة للشباب

المتحمسين الذين انضموا إلى الإندتسيا التى كونها دموفسكى فى الثلاثينيات، وكانت كذلك بالنسبة للطلاب والمثقفين السوريين والعراقيين وصغار الضباط العراقيين الذين انضموا إلى أحزاب الوحدة العربية الوليدة، والتى أعلنت التزامها بالجماهير العربية غير المرتبطة بشبكات المحسوبية والنخب القومية القديمة. وحدثت ظاهرة مماثلة فى رومانيا، إذ إن سخط الطلاب على المنافسة الأكاديمية من اليهود، وسخط القرويين على الدور البارز لليهود والقوميات غير الرومانية الأخرى كوسطاء تجاريين، اجتمعا فى إطار حركة "الحرس الحديدى" الفاشية التابعة لكودريانو (Codreanu) وفى إستونيا، لعبت "عصبة المحاربين القدماء" دورا مماثلا[41].

وحتى إذا كانت هذه الحركات لم تنجح فى الإمساك بزمام السلطة خلال سنوات ما بين الحربين، إلا أنها ساهمت فى انهيار المؤسسات البرلمانية، وساعدت على انتقال مراكز ثقل دولها نحو اليمين، وساهمت فى تدهور أوضاع الأقليات. وفى تلك الأثناء، كان السخط على المعايير المزدوجة العرقية والعقليات شبه الإمبريالية للحكام الجدد، هو الذى ساهم فى نمو أشكال قومية رجعية أو فاشية بين الأقليات الضعيفة فى تشيكوسلوفاكيا أو يوغسلافيا. ومع نهاية فترة ما بين الحربين، لم تعد القومية الليبرالية تبدو حيوية كإطار للاستقرار فى الدول القومية بعد الإمبريالية، بينما كانت البدائل تهدد بما هو أسوأ.

الهوامش

(1) Ernest Gellner, Nations and Nationalism (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1983), 480.

(2) تشير كتابات جلنر عن الشرق الأوسط إلى هذا الاتجاه. انظر مثلا:

- Ernest Gellner, "Tribalism and the State in the Middle East," in Philip S. Khoury and Joseph Kostiner, eds, Tribes and State Formation in the Middle East (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1990).

(3) يستخدم آرنو ماير مفهوم استمرار النظام القديم لتفسير الديناميكية السياسية التى أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى فى أوربا.

- Arno Mayer, The Persistence of the Old Regime (New York: Random House, 1981).

وليس لدى اقتناع كامل بمحاولة ماير اعتبار المصالح الاقتصادية الاجتماعية المتعارضة بمثابة المحددات الرئيسة للدبلوماسية قصيرة الأجل واتخاذ القرار فى أزمة يوليو 1914. ومع ذلك، فإننى أقدر فكرته عن أن الأنماط طويلة الأجل للتطور السياسى والمؤسسى يمكن أن تتشكل بكفاح النخب القديمة للحفاظ على سيطرتها من خلال التلاعب بعمليات التحديث. انظر:

- Joseph Schumpeter, Imperialism and Social Classes (New York: Meridian, 1955).

(4) Max Weber, Economy and Society, vol. 3 (New York: Bedminster, 1968), chap. 11.

(5) للاطلاع على استكشاف مقارن دقيق لدور التقاليد الإمبريالية فى تشكيل السياسات القومية، انظر أيضا:

Karen Barkey and Mark von Hagen, eds, After Empire – Multiethnic Societies and Nation-Building: The Soviet Union and the Russian, Ottoman, and Habsburg Empires (Boulder, CO: Westview Press, 1997).

(6) يعتمد هذا الجزء كثيرا على التحليل الدقيق فى:

- Carol Skalnik Leff, National Conflict in Czechoslovakia : The Making and Remaking of a State, 1918-1987 (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988).

- Helmut Slapnicka, "Die neue Staat und die bürokratische Kontinuität. Die Entwicklung der Verwaltung 1918-1938," in Karl Bosl, ed., Die demokratisch-paramentarische Struktur der ersten Tschechoslowakischen Republik (Munich and Vienna: Oldenbourg, 1975).

- R.W. Seton-Watson, The New Slovakia (Prague: Fr. Borovy, 1924).
- Owen V. Johnson, Slovakia, 1918-1938: Education and the Making of a Nation (Boulder, CO: East European Monographs, 1985).
- Derek Sayer, The Coasts of Bohemia: A Czech History (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998), (170-176).
- Peter Burian, "Demokratie und Parlamentarismus in der Ersten Tschechoslowakischen Republik," in Hans-Erich Volkmann, ed., Die Krise des Parlamentarismus in Ostmitteleuropa zwischen den beiden Weltkriegen (Marburg: J.G. Herder-Institut, 1967).

(7) Leff, Czechoslovakia, 192-193.

- كانت القيادة التشيكية مقتنعة بأنه بمرور الزمن ستؤدى عملية التنمية الاقتصادية والتكامل السياسى فى قيادة الجماهير السلوفاكية إلى اعتناق المركزية الثقافية والإدارية لطليعتها المناصرة للتشيك. انظر:

- Victor Mamatey, "The Development of Czechoslovak Democracy, 1920-1938," in Victor Mamatey and Radomir Luza, eds, A History of the Czechoslovak Republic, 1918-1948 (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1973), 120-126.

(8) István Deák, Beyond Nationalism: A Social and Political History of the Habsburg Officer Corps, 1848-1918 (New York: Oxford University Press, 1990), (208 ، 209).

(9) Jonathan Zorach, "The Nationality Problem in the Czechoslovak Army between the Two World Wars," East Central Europe, 5, Pt. 2 (1978), (169-185).

(10) Fred Hahn, "Masaryk and the Germans," in Harry Hanak, ed., T.G. Masaryk (1850-1837), vol. 3: Statesman and Cultural Force (New York: St. Martin's Press, 1989).

(11) كان سيتون ـ واطسون فى تقييمه الدقيق للعلاقات التشيكية السلوفاكية، الذى نشر فى 1924 ينتقد عدم رغبة التشيك فى تبنى مبادئ الكفاءة الاقتصادية من أجل استمرار نمو القاعدة الصناعية السلوفاكية المحلية. على الرغم من أنه ركز بنفس المنطق على أن:

«القول بأن «براغ» تعتبر سلوفاكيا مستعمرة يجب استغلالها، وتهدف عمدا إلى تدمير استقلالها الاقتصادى والمالى ... يمثل افتراء سخيفا، ولكنه مع ذلك يجد من يصدقونه بسذاجة بين الجماهير السلوفاكية البسيطة، بل وبين بعض أعضاء طبقة المفكرين».

- (Seton-Watson, The New Slovakia, p. 96).

(12) Liah Greenfeld, Nationalism: Five Roads to Modernity (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992), (15-16).

(13) للاطلاع على حوار حول أهمية تشيكوسلوفاكيا فيما بين الحربين كنموذج معبر عن المشاكل العامة للدولة القومية فى شرق أوربا، انظر:

- F. Gregory Campbell, Gale Stokes, and Roman Szporluk, "Discussion," Slavic Review, vol. 44, no. 1 (1985), (1-29).

(14) Ivo Banac, The National Question in Yugoslavia: Origins, History, Politics (Ithaca, NY and London: Cornell University Press, 1984), (375-378).

- Lenard Cohen, "The Social Background und Recruitment of Yugoslav Political Elites, 1918-48," in Allen H. Barton, Bogdan Denitch, and Charles Kadushin, eds, Opinion-Making Elites in Yugoslavia (New York: Praeger, 1973), (59-62).

- Jozo Tomasevich, Peasants, Politics, and Economic Change in Yugoslavia (Stanford, CA: Stanford University Press, 1955), (241-260).

- Deák, Beyond Nationalism, 209.

- John Lampe, Yugoslavia as History: Twice There Was a Country (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 156-159, 171-173, 189-194, and chap. 7.

- وللاطلاع على محاولة لإلقاء الضوء على قرارات وسياسات القيادة الصربية، انظر:

- Alex N. Dragnich, The First Yugoslavia: Search for a Viable Political System (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1983).

- ...., "The Anatomy of the Myth: Serbian Hegemony," Slavic Review, vol. 50, no, 3 (Fall 1991), (659-662).

(15) كان القرويون الموجودون داخل حدود صربيا والجبل الأسود قبل الحرب العالمية الأولى يتمتعون بكامل حقوقهم على أراضيهم، ولذلك لم يكونوا يتوقعون أى تغيير كبير فى قانون الملكية.

(16) Tomasevich, Peasants, Politics, chap. 18.

- على الرغم من أن تكوين الجمعيات التعاونية والارتفاع العام فى أسعار الحبوب أدى إلى تقوية الاقتصادات الريفية الكرواتية والسلوفينية فى أواخر عشرينيات القرن العشرين، فإن الكساد العظيم أطاح بكل هذه المكاسب فى العقد التالى.

- Lampe, Yugoslavia, 146-148 and (168-170).

(17) Norman Davies, God's Playground: A History of Poland, vol. 2, (New York: Colombia University Press, 1982), (410-411).

- Andrzej Korbonski, "Poland: 1918-1990," in Joseph Held, ed., The Colombia History of Eastern Europe in the Twentieth Century (New York: Colombia University Press, 1992), (235-237).

- نظرا لتاريخ جاليتشيا فى الاستقلال الذاتى الفعلى فى ظل حكم أسرة الهابسبرج، فإنها كانت قادرة على المساهمة بدرجة كبيرة فى الإطار العملى والتشريعى والمؤسسى لجمهورية بولندا. انظر:

- Józef Buszko, "Das sociale und politische Erbe der österreichisch-ungarischen Monarchie im unabhängigen Polen," Österreichische Osthefte, vol. 36 (1994), no. 4, (741-751).

Antony Polonsky, Politics in Independent Poland, 1921-1939: The Crisis of Constitutional Government (Oxford: Clarendon Press, 1972), chaps 2-4, 6, and pp. (128-136, 358-371). (18)

- Joseph Rothschild, Pilsudski's Coup D'Etat (New York and London: Colombia University Press, 1966), chaps 3, 10, 13, 15, 18, and passim.

- Andrzej Garlicki, Józef Pilsudski, 1867-1935 (ed., abridged, and trans. from the Polish by John Coutrouvidis, Aldershot: Scolar Press, 1995), chaps 7-9.

- Davies, God's Playground, (421-426).

Józef Pilsudski, Joseph Pilsudski: The Memories of a Polish Revolutionary and Soldier (trans. and ed. D.R. Gillie, London: Faber & Faber, 1931), (369-371). (19)

(20) إن الخلفية التقليدية للمحاربين القدماء كمتطوعين ممن لم يسبق لهم التعليم فى أكاديمية عسكرية حالت دون قدرتهم على التخطيط طويل الأجل والتحديث العسكرى.

- Polonsky, Politics, 202.

(21) وحتى الإعجاب بالفيلق Legion كان مؤسسيا، حيث أنشئ «معهد الدراسات الفيلقية Institute of Legionary Studies,» فى 1934.

- Polonsky, Politics, 202.

(22) فى 1920 أطلق على بلسودسكى اسم قائد بولندا الأول.

(23) شهدت السنوات الأولى للساناتسيا Sanacja تحسنا فى الأوضاع الاقتصادية، ولكن بداية الكساد أطاحت بكل هذه المكاسب.

- Rothschild, Pilsudski's Coup D'Etat, chap. 15.

Philip Khoury, Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 1880-1920 (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), chaps 1-2. (24)

- Hanna Batatu, The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978), chap.8,

- Weber, Economy and Society, chap. 11.

(25) Philip Khoury, Syria and the French Mandate: The Politics of Arab N ationalism 1920-1945 (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987), chap. 11.

(26) Ibid, chap. 10.

- Ernest Dawn, From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism (Urbana, IL: University of Illinois Press, 1973), (160-174).

- Hisham Sharabi, Arab Intellectuals and the West: The Formative Years, 1875-1914 (Baltimore, MD and London: The Johns Hopkins Press, 1970), 127.

(27) Khoury, Syria, 564 and 603.

(28) Dhuqan Qarqut, Tatawwur al-harakah al-wataniyah fi Suriya, 1920-1939 (The Development of the national movement in Syria, 1920-1939) (Beirut: Dar al-Tali'ah lil-Tiba'ah wa-al-Nashr, 1975), (104، 105).

(29) كان الأشراف، فيما يتعلق بسياسات حيازة الأرض وتحصيل الضرائب، يسيرون على خطى السلطات الإمبريالية البريطانية خلال فترة الحرب وما بعدها فى حكمها المباشر للعراق. وكان البريطانيون بدورهم يعتبرون محاولاتهم لاختيار النخب التقليدية بمثابة تنظيم للممارسات العثمانية.

- Peter Sluglett, Britain in Iraq, 1914-1932 (London: Ithaca Press, 19760, chap. 6.

- Charles Issawi, The Middle East Economy: Decline and Recovery (Princeton, NJ: Marcus Wiener Publishers, 1995), 154.

(30) Batatu, Social Classes, chaps 8 and 10.

(31) Ibid., chap. 10.

- Phebe Maarr, The Modern History of Iraq (Boulder, CO: Westvie/London: Longman, 1985), (69 ، 70).

(32) Reeva S. Simon, Iraq between the Tow World Wars: The Creation and Implementation of a National Ideology (New York: Colombia University Press, 1986), (119-123).

- Daniel Silverfarb, Britain's Informal Empire in the Middle east: A Case Study of Iraq, 1929-1941 (New York: Oxford University Press, 1986), chap. 4.

- قام البريطانيون بإعادة توطين الآشوريين الذين تم إجلاؤهم، مما أصبح إقليما تركيا فى أعقاب ثورتهم غير الناجحة المؤيدة للحلفاء ضد العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى.

(33) Simon, Iraq between the Wars, chap. 4.

- William Cleveland, The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati' al-Husri (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1971), (38-41, 62-63).
- Bassam Tibi, Arab Nationalism: Between Islam and the Nation-State (3rd edn, New York: St. Martin's Press, 1997), (119, 142-154).
- يؤكد الحصرى على أن الخدمة العسكرية الإجبارية كان لها دور حيوى فى استكمال المهمة التعليمية للنظام المدرسى، وذلك بتربية الشباب من كل الأقاليم على الالتزام بالأمة كهدف للولاء الأسمى.
- Sati' al-Husri, "Al-Khidmah al-'askariyyah wa al-tarbiyah al-'amah (Military service and general education), in Al-a'mal al-qawmiyyah li-Sati' al-Husri (The Nationalist Works of Sati' al-Husri), vol. 2: Ahadith fi-al-tarbiyah wa-al-ijtima' (Discussions in Education and Society) (Beirut: Markaz Dirasat al-Wahdah al-Arabiyyah, 1985).

(34) Simon, Iraq between the Wars, chap. 4.
- Sami Shawkat, "Profession of Death' (a speech delivered in 1933) in Sylvia Haim, Arab Nationalism, (97-99).

(35) Khoury, Syria, (471-476).

(36) للاطلاع على مناقشة إمكانية التوفيق بين التحديث والبنى والتقاليد الاجتماعية التقليدية فى الشرق الأوسط، انظر:
- Samir Khalaf, "On Loyalties and Social Change," in George Sabagh, ed., The Modern Economic and Social History of the Middle East in its World Context (Cambridge: Cambridge University Press, 1989).

(37) Philip Khoury, "The Paradoxical in Arab Nationalism: Interwar Syria Revisited"
- Reeva S. Simon, "The Imposition of Nationalism on a Non-Nation State: The Case of Iraq during the Interwar Period, 1921-1941," in James Jankowski and Israel Gershoni, eds, Rethinking Nationalism in the Arab Middle East (New York: Colombia University Press, 1997).

(38) Albert Hourani, "A Note on Revolutions in the Arab World," in Albert Hourani, The Emergence of the Modern Middle East (Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 1981), 71.

(39) Mark Mazower, Dark Continent: Europe's Twentieth Century (New York: Knopf, 1999), chap. 1.

(40) إننى أعرب عن شكرى لجيرى مولر (Jerry Muller) لجذب انتباهى لهذه النقطة.

(41) بالنسبة لرومانيا راجع ما ورد عنها فى الفصل الخامس من هذا الكتاب.

ـ وبالنسبة لإستونيا انظر:

- Toivo U. Raun, Estonia and the Estonians (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1987), chap. 8.

ـ وبالنسبة لتحول لاتفيا إلى السلطوية الشوفينية العرقية فى ثلاثينيات القرن العشرين، انظر:

- Andrejs Plakans, The Latvians: A Short History (Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1995), (132-138).

الفصل الثامن

الخاتمة

تشير المراجعة المقارنة لبعض الدول القومية التى تكونت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى إلى أن تحقيق الاستقلال القومى كان يمثل انتقالا محفوفا بالمخاطر نحو مشهد سياسى غير مألوف، ومجال جديد مثير وخادع يومض بأشكال مثالية بينما تموج الرمال المتحركة تحته. وانقسمت المجتمعات التى غامرت بالدخول إلى "الأرض الموعودة" من أجل حق تقرير المصير القومى حسب اختلاف توقعاتها المتعلقة بحدودها، وكيفية تحديدها، ومن الذى تحق له المشاركة فى جنى ثمارها. وكان الإحساس بخيبة الأمل من واقع الدولة القومية عميقا بسبب عظمة الأحلام التى شحنت حركات التحرير فى البداية. وكانت المفارقة التى وجدنا أنفسنا فيها تتمثل فى أن الحرب العالمية الأولى قادت مباشرة إلى تتويج مبدأ حق تقرير المصير القومى باعتباره مبدأ السيادة فى النظام الدولى، فى حين أنها بذرت بذور الفشل للنظم السياسية الجديدة المؤسسة على هذا المبدأ فى نفس الوقت.

وبحلول السنتين - الثالثة والرابعة - كانت الحرب العظمى تقود إلى تصاعد سريع فى المشاعر والأنشطة والتوقعات القومية عبر عدد كبير من الطبقات الاجتماعية، والمنظمات السياسية، والتشكيلات العسكرية فى شرق أوربا الوسطى والإمبراطورية الروسية والشرق الأوسط. وتجمع عدد كبير من العوامل التى أدت إلى ظهور وتزايد قوة هذا الاتجاه. ففى معظم الدول المشاركة فى الحرب كان الدمار الكبير الناتج عن الحرب الشاملة والقهر السياسى والعوز الاقتصادى المرتبط بها، يساعد على تضخيم الفوارق بين الذين يملكون والذين لا يملكون: أى بين الذين كانوا يحصلون على ضرورات الحياة، والذين كانوا يشعرون بأنهم

يسلبون مقومات حياتهم، وبين الذين كانوا يصلون إلى السلطة السياسية، والذين كانوا يخضعون لنزوات النخب الحاكمة، وبين الذين كان لديهم دور وجدانى مباشر فى انتصار قضية دولتهم، والذين كانوا يشعرون بالاغتراب عنها. وفى الإمبراطوريات متعددة الأعراق، كانت هذه الفوارق جد شاسعة، فى ظل فشل تلك الدول فى الحفاظ على مستويات الإنتاج وإدارة الموارد التى حققتها ألمانيا وفرنسا وبريطانيا. وكانت تميل أيضا إلى التوافق مع التقسيمات الثقافية العرقية، حيث ساهم هذا العامل فى تعميق هذه الفوارق. وبالتحديد فإن الحرب أثارت التوترات بين المجموعات العرقية التى كانت مرتبطة بالنظم الإمبريالية أو التى كانت تمارس السيطرة الإقليمية داخل هذه الإمبراطوريات (الألمان والمجريين فى إمبراطورية الهابسبرج، والمستوطنين الروس فى آسيا الوسطى، والأتراك فى الإمبراطورية العثمانية) وأولئك الذين كانوا يشعرون بأنهم يقومون بدور القوميات الخاضعة أو الأقليات المقهورة. وفى بعض الأقاليم، كانت الفوارق الطبقية والعرقية تتوافق مع بعضها ويقوى بعضها بعضا (القرويون السلوفاك مقابل ملاك الأراضى المجريين والنخب السياسية المجرية، والمستوطنون الروس والرعاة الكازاخ، والطبقات التجارية اليونانية والأرمينية فى مقابل منافسيهم الأتراك الأقل نجاحا اقتصاديا والأكثر نفوذا سياسيا). ولكن المجموعات العرقية التى عانت ارتفاع مستوى التباين الطبقى الداخلى كانت تشعر أيضا بالاستغلال من جانب القوميات الأخرى (مثل شعور التشيك تجاه الألمان). وحتى فى الحالات التى كانت فيها الفوارق الاقتصادية الاجتماعية تؤدى إلى انقسامات سياسية عميقة داخل الأمة (مثل الطبقات الحضرية الكرواتية مقابل القرويين الكروات)، كان الاختلاف العرقى (بين القرويين الكروات والصرب مثلا) يؤدى إلى عرقلة بناء حركات دولية طبقية حقيقية.

وفى نفس الوقت، وفرت ظروف الحرب فرصا لمجموعات صغيرة ذات دوافع قوية من الشخصيات القومية لتكوين منظمات بالمنفى وفرق متطوعين لعبت على الصراع بين القوى العظمى للدفاع عن قضاياها. حيث قدمت الدول العظمى ذاتها الملجأ والمساندة لمختلف هذه الحركات، وذلك كوسيلة لتدمير منافسيها، أو كستار لإضفاء الشرعية على احتلالها لأراضى العدو وخطط ضمها إليها. وقد

سيطر تعبير «حق تقرير المصير القومى» على مفردات الدعاية وإضفاء الشرعية بين حركات التحرير والقوى الإمبريالية على السواء.

وفيما بين فرق المتطوعين ومنظمات المنفى التى ساعدت على تشكيل التصور المنتصر لقوى الحلفاء وشركائهم لتسوية ما بعد الحرب، أو استطاعت الوصول إلى السلطة فى بلادها فى 1918 نجد أن مفاهيم القومية التى صعدت إلى السطة استطاعت غرس الهوية السياسية التى تدور حول الدولة فى الإحساس بالمجتمع الثقافى العرقى، وذلك بتوسيع تعريف هذا المجتمع إلى أقصى حدوده. وكان كل من المشروعات التشيكوسلوفاكية واليوغسلافية وتصور بلسودسكى لاتحاد متعدد الأعراق بقيادة بولندا، بمثابة مشروعات لبناء أمم كانت تهدف إلى استكمال تطلعات إقليمية «سابقة» تقوم على اعتبارات إستراتيجية أو سوابق تاريخية. ونقل القوميون العرب الروح التوسعية للأمة الإسلامية أو العثمانية إلى تصورهم للأمة. وكان غرس هويات شعبية تتوافق بصورة أو بأخرى مع هذه التوسعات الإقليمية للدول يتحقق بالاعتماد على العوامل المشتركة بين المجتمعات اللغوية أو الدينية أو الإقليمية الكبرى لهذه الكيانات، أو من خلال التطهير العرقى والاستيعاب الإجبارى. (وكان فرض القوى الغربية لاتفاقيات الأقليات مدفوعا بالأساس بالرغبة فى دعم التكامل السياسى والثقافى طويل الأجل للدول الجديدة أو التوسعية، وكذلك كان رفضها لفرض تلك الاتفاقيات بمجرد اتضاح الطبيعة المعقدة لمشاكل الأقليات)[1]. وانطلق الاتحاد السوفيتى فى اتجاه مغاير هادفا إخضاع الهويات العرقية لهوية سوفيتية مشتركة عابرة للقوميات. وكان كل من هذه التصورات مجرد برنامج لتشكيل الوعى الجماهيرى، وليس استجابة لمطلب جماهيرى. وكانت هذه البرامج تدل على التلهف على الاستقلال السياسى الذى كانت تتطلع إليه قطاعات عريضة من السكان. ولكن التصورات الشعبية حول من الذى يكون الأمة، وما الدور الذى يجب أن تقوم به الدولة فى إعادة توزيع الأراضى أو الإصلاح الاجتماعى، وكيف سيحول الاستقلال ممارسة السلطة السياسية والعلاقات بين الطبقات، فعادة ما كانت تختلف تماما عن تلك التى كانت تتمتع بها النخب القومية التى وصلت للسلطة حديثا.

ولذلك فإنه منذ لحظة تأسيس الدولة الجديدة، كانت هناك فجوة متزايدة بين مشروعات التركيب القومى الرسمية التى تمثلت فى دور الأيديولوجيات السلطوية، والوعى القومى العرقى المجزأ الذى ساد بين الجماهير والذى زاد قوة بسبب الحرب. حيث اتجه الفلاحون الكروات إلى فكرة جمهورية قروية كرواتية، بدلا من التصميم اليوغوسلافى الكبير. ولم تكن لدى الجماهير السلوفاكية معرفة كبيرة، فضلا عن الاهتمام، بالنموذج التشيكوسلوفاكى الذين كانت حفنة من المثقفين السلوفاك الليبراليين تضع آمالها عليه. وظلت المجتمعات الرئيسة ذات الاهتمام والعمل الجماعى فى مناطق عديدة من الشرق الأوسط طائفية أو عشائرية أو دينية عرقية (كالموارنة والدروز) بطبيعتها. وبالنسبة للعديد من هذه المجموعات، كان اعتناق قومية الوحدة العربية -أو معارضتها -يمثل وسيلة لحماية أو تدعيم مكانتها فى مواجهة المجتمعات المنافسة، ولتكوين تحالفات مع النخب الحضرية أو سلطات الانتداب.

لقد أدت عملية تكوين الدول وبسط سلطتها وتثبيت حدودها إلى اضطراب المياه العكرة الآسنة. ولم توفر حالة الحرب الطاحنة بين الدول المتنازعة على الحدود أجواء مناسبة لإشاعة التسامح أو التجميع الثقافى بين العرقيات. وساهم استمرار النخب أو العناصر القديمة بثقافتها السياسية فى مواقع السلطة داخل النظام الجديد فى صراع بين الخطاب الشعبى الديمقراطى والممارسات السلطوية من جانب الدوائر الحاكمة فى شرق أوربا الوسطى والشرق الأوسط. وأدى كفاح هذه الأنظمة للحفاظ على السيطرة السياسية، وتحصيل قدر من التأييد الشعبى فى مواجهة هذه التوترات والمتناقضات، وفى وسط الصعوبات الاقتصادية الشديدة لسنوات ما بين الحربين، إلى زيادة الميل نحو إهانة الأقليات والتضحية بها. وكان الفرق بين الأشكال الليبرالية واليمينية من القومية، والذى اتضح بجلاء بين أعضاء النخب القومية قبل الحرب، يتلاشى بصورة مستمرة مع لجوء النخب الديمقراطية الليبرالية ظاهريا إلى سياسات تعادل فعليا السياسات الشوفينية العرقية التى يعتنقها نقادهم. وقد ساعد هذا على تكوين مناخ يشجع على ظهور جيل جديد من القوميين اليمينيين الراديكاليين أو شبه الفاشيين، الذين أشاروا إلى عدم الاتساق والتناقض الذاتى للجيل الأول من النخب القومية،

ووعدوا بتغيير نمط سياساتهم الضعيفة ليحل محلها شوفينية عرقية نقية غير توافقية وغير متسامحة، تتخطى الصراعات الطبقية المريرة لحقبة الكساد، وتقوى الجماهير، وتقودهم بسهولة ضد أعداء الأمة فى الداخل والخارج.

وظهرت أنماط عديدة من هذا الكم الهائل من المعلومات. حيث يتمثل أحدها فى أن الهويات القومية لم تكن معدة سلفا من جانب النخب الثقافية أو السياسية الاجتماعية، ثم نقلت إلى "الجماهير" بصورة مباشرة فى عملية سلسة لتكوين الدولة القومية. ووسط انهيار الصروح الإمبريالية فى 1918، اجتمعت فجأة أطر عديدة متنوعة من العمل والهوية الجماعية تألفت من اللجان القومية المشكلة فى لندن واتفقت معا على شن عصيان ريفى ولصوصية اجتماعية. وفى ظل المسار الجديد لفترة ما بعد الإمبريالية، تشكلت سياسات القوميات بالسعى من أجل وضع الأشكال والمفاهيم المتنوعة للهوية فى توليفة أحادية البعد تسمى الدول القومية (أو الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية). وكان على النظم القائمة حديثا أن تجد طرقا إما لاختيار أو لقمع الهويات العرقية والإقليمية والاجتماعية السائدة فى الأقاليم التى تدعى السيطرة عليها. وتشكلت القوميات الرسمية حتما بالهويات القومية العرقية التى تقوم عليها، بينما كانت هذه القوميات العرقية تشكلها بدورها أيضا القوميات الرسمية. وفى حالة الأقليات المهمشة أو المقهورة، كان يسود تفاعل سلبى بين الهويات الشعبية وتلك التى تدعمها الدولة. وأدت فجائية التحول إلى الاستقلال إلى زيادة حدة هذه المعضلات وتفاقم الصراعات الناتجة عنها.

وقد يبدو أن الظروف المحيطة بأحداث هذه السنوات كانت غير عادية، وأن الفترة الزمنية التى تناولها هذا الكتاب قصيرة جدا، لدرجة أن هذه القصة قد لا تكون لها مضامين نظرية أوسع. ولكننا نجد أنه خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة من التغير المتفجر، تبلورت الأنماط الأيديولوجية والثقافية والمؤسسية طويلة الأجل، بالإضافة إلى الصراعات والتناقضات الكامنة فيها. حيث وضعت أحداث الفترة من (1914-1923) معظم أجندات سياسات القومية فى هذه الأقاليم لبقية القرن العشرين وما بعده. وكذلك، فإن هذا النمط من التطور -أى المرحلة الطويلة نسبيا من التكون القومى والعداء السياسى المتقطع والاضطرابات

الشعبية التى أتبعها تحول مفاجئ وغير متوقع إلى الاستقلال فى سياق انهيار إمبريالى عام -يشبه نوعا ما طريقة ظهور الدول القومية إلى الوجود، وذلك كما تشير تصفية الاستعمار فى آسيا وأفريقيا بعد 1945، وأحداث أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى بعد 1989[2]. ولذلك فإنه فى حالات عديدة قد تكون دراسة التحول من القومية كحركة إلى القومية كنظام[3]، ضرورية لفهم الأنماط طويلة الأجل لسياسات الهوية فى الدول القومية بعد الإمبريالية. حيث تميل دراسات نظرية عديدة للقومية إلى التغاضى عن، أو التقليل من أهمية، هذه النقطة الحيوية، وبالتالى تركز على الأثر التراكمى للتغير الاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى العالم الحديث.

ويبدو أيضا أن هذه الدراسة تشير إلى أن الشوفينية العرقية كانت تعتبر نتيجة حتمية للتطور القومى فى الغالبية العظمى من الحالات. إذ إن المحاولات الليبرالية والديمقراطية للتوفيق بين الهوية العرقية والوعى المدنى الأوسع والأكثر شمولا مثل تشيكوسلوفاكية مساريك كانت تنتهى إلى سياسات تحمل الإمبريالية الثقافية وتستبعد الأقليات. وكانت هذه واحدة من أنجح تجارب صياغة وعى مدنى جديد - كالقومية التركية لدى كمال أتاتورك - معتمدة على الممارسات السلطوية القاسية، وعلى المساواة المطلقة للهوية المدنية بالاستيعاب فى الثقافة التركية كما حددتها الدولة. وفى الواقع، فإن مسألة اعتبار هذا الجهد بمثابة نجاح طويل الأجل من حيث أولوياته التكاملية اجتماعيا تعتبر مثار جدل، وذلك فى ضوء ما ترتب عليها من اغتراب نسبة كبيرة من السكان الأكراد.

ولكن استنتاج أن العرقية عبارة عن ظاهرة رجعية لا يجب أن يكون لها دور فى تشكيل الهوية القومية الليبرالية الجديدة، أو أنه كان يمكن ببساطة ألا يوجد شىء مثل القومية الليبرالية تحت أية ظروف، فيعتبر أمرا سابقا لأوانه. حيث أن مشكلة العديد من المشروعات السياسية التى ناقشناها فى هذا الكتاب كانت تتمثل فى أنها اندفعت بشدة إلى الوصول إلى تناسب كامل بين الهويات العرقيات والمدنية. وكان بعض من المفكرين الليبراليين والقادة القوميين - ممن تناولناهم فى هذا الكتاب - مقتنعين بأن الهوية القومية يجب أن تتشكل بحيث تتوافق تماما مع فكرة متصورة سلفا للدولة المركزية الحديثة، التى تتصف بالتوزيع الموحد

لسلطتها على أنحاء أراضيها، والتى تحكم باسم السيادة الشعبية التى لا تتجزأ[4]. وبعد إجراء جميع التعديلات الضرورية، كانت سياسة القومية اللينينية تهدف إلى المساهمة فى التلاشى الحقيقى للمشاعر القومية وظهور هوية متجانسة تعتمد على الطبقة وتدور حول الدولة.

و لذلك فإننى أرى أن القومية تكونت واتخذت ملامحها من خلال "تفاعل" التحديث السياسى والاقتصادى (أى ظهور الدولة المركزية وفكرة السيادة الشعبية وانتشار التعليم وبداية التصنيع أو التطلع للتصنيع) مع الحاجة النفسية والوجدانية الإنسانية المستمرة إلى إطار مجتمعى للهوية. ومع الاستثناء الممكن للمجتمعات المتجانسة ثقافيا نسبيا (مثل اليابان)، فإن القومية لا تتوافق تماما مع منطق الدولة الحديثة السوية، ومن المؤكد أنها ستعرض نفسها لانتهاكات مرعبة، ولكن الدولة لا تستطيع أن تعمل بدونها تماما أيضا. وقد طورت «يائيل تامير ـ Yael Tamir» حجة رائعة تثبت أن الشكل الديمقراطى الليبرالى للدولة الحديثة ليس أقل اعتمادا على الإحساس بالهوية القومية فى أدائه، مقارنة بنظيره الاستبدادى أو غير المتسامح. فالمصلحة الذاتية "للطرف الرشيد" الفردى لا تكفى لاستمرار التماسك السياسى والالتزام بالقيم المشتركة فى المجتمع الليبرالى، ولابد من وجود قدر من الإحساس المشترك بالهوية. وبنفس الأسلوب، فإن مجرد وجود الحدود بين الدول الديمقراطية الليبرالية يشير إلى أن هوياتها السياسية لا تتسع لكل الإنسانية، ولكنها محدودة بحدود قوميتها. وبالعكس، تقول تامير: إن هوية الفرد تتشكل بالانتماء إلى مجتمع ثقافى، ومن خلال التعبير السياسى العام عن الهوية الجماعية كحق فردى، بما يساوى بين القومية وتركيز الليبرالية على حقوق الفرد[5].

ولكن كيف يمكن أن نوفق بين التنوع الثقافى والتماسك السياسى؟ إن تصور تامير النهائى للإطار فوق القومى المحايد ثقافيا وعرقيا للسيادة السياسية، والذى يمكن أن تتعايش بداخله مجموعة متناقضة من الهويات القومية بسلام (بروح الاتحاد الأوربى) يتناقض مع حجتها السابقة لإثبات أن التماسك السياسى للدولة الليبرالية يعتمد على إحساس مجتمعها بالهوية القومية المشتركة. أى أنها وقعت فى نفس الفخ الذى وقع فيه القوميون الليبراليون فى حقبة الحرب العالمية

الأولى. وهو الاعتقاد بأن بنية الدولة الحديثة ومؤسسات الديمقراطية الانتخابية، وملامح الهوية القومية يمكن جعلها كلها متوافقة مع بعضها تماما، مثل أجزاء متفرقة من صورة لابد من تجميعها معا لرؤية مشهد مكتمل.

ولكن «إيساياه برلين ـ Isaiah Berlin» (أستاذ تامير، وأحد أنصار القومية الليبرالية) هو الذى أوضح أن العديد من القيم التى نعتز بها بشدة ـ مثل الحرية والمساواة، أو الحرية الفردية والسيادة الجماعية ـ فى حالة توتر دائم مع بعضها. ويعنى توافر المزيد من إحداها حتمية توافر القليل من الأخرى، ولا يستطيع أى شخص أن يثبت أين يقع التوازن التام بصورة قاطعة[6]. فالقومية الليبرالية بمثابة تناقض فى المصطلحات، ولكن هذا لا يبطلها. إذ إن المجتمع الليبرالى المتسق تماما، والخالى من أى إحساس بالهوية القومية، لن يكون متماسكا سياسيا، وبالتالى لن تكون له حدود سياسية. وللأسف فإن هناك تزايداً فى عدد الدول التى يمثل فيها طقس الهوية المصدر الوحيد للشرعية السياسية. فالجمع بين الليبرالية والقومية داخل حدود كيان واحد يتطلب استعدادا للاعتراف بوجود توتر بين المبدأين، والرغبة فى قبول قدر معين من الخلط وعدم الاتساق المؤسسى والمفاهيمى نتيجة لذلك. ولا يمكن تجميع الهويات العرقية الموجودة سلفا وتحويلها سريعا إلى أنماط قومية تتفق تماما مع التصور الإقليمى للدولة. وكذلك فإن الهويات العرقية أو الإقليمية التى تفشل فى التوافق مع الاتجاهات التكاملية للدولة، يجب ألا تستبعد ولا أن تقهر، باعتبارها غير متوافقة مع تصور "مسبق" للقومية المدنية الحديثة القائمة على الدولة. ولكن التوافقات الإبداعية والسلوكيات السياسية الحرجة ـ سواء فى شكل تعديلات حدودية، أو اتفاقيات لتقاسم السلطة، أو استقلال ذاتى إقليمى، أو استقلال داخلى، أو اشتراك فى سيادة على مناطق متنازع عليها ـ يمكن أن تقدم أفضل الوسائل لحل هذه المعضلة. إذ إن معظم النظم التى وصلت إلى السلطة وسط إراقة الدماء والدمار فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، كانت تفتقر إلى الرغبة أو الفرصة لتناول المشكلة بهذه الروح. وبهذا المعنى فإن الاتحاد الأوربى يقدم فعلا تجربة خلاقة لأفكار مرنة جديدة للسيادة، بوسعها تخفيف التوتر بين حاجة البشر إلى التعاون ورغبتهم فى تعريف أنفسهم بما يميزهم[7]. ولكن إمكانية أن تلقى هذه الأفكار قبولا، سواء فى أوربا أو فى بقية العالم، تبقى مطروحة للنقاش.

الهوامش

(1) Patrick B. Finney, "An Evil for All Concerned": Great Britain and Minority Protection after 1919," Journal of Contemporary History, vol. 30, no. 3 (July 1995), (533-551).

(2) Richard L. Rudolph and David F. Good, eds, Nationalism and Empire: The Habsburg Monarchy and the Soviet Union (New York: St. Martin's Press, 1992).

(3) يقدم التمييز التحليلى الذى قام به رينزو دى فيليس بين الحركة الفاشية والنظام الفاشى نقطة مثيرة للمقارنة هنا.

- Renzo de Felice and Michael A. Ledeen, Sascism: An Informal Introduction to its Theory and Practice (English version of Intervista sul fascismo) (New Brunswick, NL: Transaction, 1976), chap. 3.

(4) تظهر هذه الفكرة نفسها أيضا فى أعمال المنظرين المعاصرين للقومية مثل «إيرنست جيلنر Ernest Gellner».

(5) Yael Yamir, Liberal Nationalism (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993).

(6) Isaiah Berlin, "Two Concepts of Liberty," in idem, The Proper Study of Mankind (London: Chatto & Windus, 1997),

- Michael Ignatieff, Isaiah Berlin: A Life (New York: Henry Holt, 1998), (225-228).

(7) للاطلاع على بعض المقاربات التخيلية للصراع بين سلطة الدولة والهوية القومية، انظر:

- Gidon Gottlieb, Nation against State (New York: Council on Foreign Relations Press, 1993).

مسرد شارح بالأعلام والمصطلحات

- الأبخاز: Abkhazians، مجموعة عرقية مهمة فى القوقاز الشمالى تعيش عل مقربة من ساحل البحر الأسود فيما بين روسيا فى الشمال وجورجيا فى الجنوب. يعرف الأبخاز فى العالم العربى باسم «الأباظة» ولهم مجموعات مهاجرة فى كل من تركيا وروسيا وأوكرانيا.
- الاتحاد الأصولى الإسرائيلى :Orthodox Agudat Israel، حزب يهودى بولندى تأسس فى فترة ما بين الحربين ولعب دورا نشطا خلال سنوات الاحتلال الألمانى لبولندا.
- أدريانبول (أدرنة) (Adrianople (Edirne ، إقليم فى أقصى غرب تركيا فى قطاعها الأوربى، يقع فى منطقة تراقيا الشرقية على طول الحد البلغارى اليونانى مع تركيا. وتعد «أدرنة» أهم مدينة فى هذا الإقليم، وقد سميت على اسم الإمبراطور الرومانى هدريان Hadrian .
- إرادة الشعب : Narodnaya Volya، منظمة سرية شعوبية روسية تكونت فى الربع الأخير من القرن العشرين.
- الأرواحية: Animism، مذهب فلسفى ومعتقد دينى يرى أن الأرواح لا توجد فقط فى بنى البشر بل فى الحيوان والنبات والصخور والظواهر الطبيعية مثل الرعد وغيرها من الظواهر الجغرافية كالجبال والأنهار.
- إستريا: Istria، شبه جزيرة على البحر الأدرياتى تقع فى جنوب سلوفينيا وغرب كرواتيا.

- أسرة رومانوف: Romanov، آخر أسرة ملكية حكمت القيصرية الروسية امتد عرشها من 1613 وحتى 1917 حين أسقطتها الثورة الشيوعية.

- إسماعيل كسبرالى (جسبرنسكى) : Gasprinsky, Ismail-bey، مفكر وسياسى تترى ((1914 -1851من جزيرة القرم. كان أبرز المفكرين التتر الذين سعوا إلى نهضة مسلمى القيصرية الروسية من خلال تحديث التعليم . كان من أبرز إنجازاته الفكرية مجلة "الترجمان". اشتق اسمه من بلدة "كسبرة" التى نشأ فيها فى شبه جزيرة القرم (فى أوكرانيا حاليا).

- آلاش أوردا: Alash Orda، مجلس حكم كازاخى مستقل أعلن فى 1917محاولا صياغة استقلال للكازاخ عن القيصرية الروسية.

- الألزاس واللورين: Alsace-Lorain، إقليم استولت عليه الإمبراطورية الألمانية فى 1871فى أعقاب الحرب الفرنسية ـ البروسية، غير أن فرنسا عادت واستولت عليه فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وخضع لها بموجب معاهدة فرساى.

- ألنبى : Allenby، إدموند هنرى هاينمان ألنبى ـ Edmund H. Hynma) (1861-1936) مارشال فى الجيش البريطانى. حظى بشهرته العسكرية خلال الحرب العالمية الأولى حين قاد القوة الاستكشافية التى خرجت من مصر الخاضعة آنذاك لبريطانيا فى حملة لغزو فلسطين وسوريا وذلك بين عامى 1917 و 1918.

- إليريان :Illyrian، مجموعة من القبائل استقرت فى غرب البلقان منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد. ورغم أن هذه القبائل تعرضت للتأثير الثقافى والاستيعاب العرقى من قبل سلاف الجنوب فإنه يمكن القول إن الألبان يمثلون اليوم أحفاد هذه القبائل.

- الإمام شامل : Imam Shamil، شيخ إحدى الطرق الصوفية فى داغستان (1797-1871) قاد حركة الجهاد الإسلامى ضد الغزو القيصرى الروسى لإقليم القوقاز الشمالى.

- الإنتليجنسيا: Intelligentsia، طبقة اجتماعية تتألف من أرقى نخبة من المثقفين أصحاب الرسالة الوطنية. وعادة ما تقوم هذه الطبقة بإرشاد المفكرين والمجموعات الاجتماعية القريبة من تفكيرها (كالفنانين والأدباء ومعلمى المدارس) باتجاه المشروعات المستقبلية للدولة. وقد شاع هذا المصطلح فى روسيا القيصرية والاتحاد السوفيتى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.
- بيتش شف . (١٨٦٤م - ١٩٣٨) سياسى ومفكر قومى من منطقة دالماشيا فى البلقان كون مع آخرين التحالف الصربى الكرواتى فى1905 لصياغة كيان سياسى مستقل عن سلطة الهابسبرج.
- آنتى ستراكيفيتش : Ante Starcevic، سياسى كرواتى (1823م - 1896م) أسس «حزب الحق» لإقامة دولة ك رواتية مستقلة عن مطامع "صربيا الكبرى".
- إنديتسيا : Endecja، حركة سياسية أسسها السياسى الليتوانى رومان دموفسكى (1864م - 1939م) وكان اسمها يعنى حرفيا «الديمقراطية القومية».
- أنور باشا : Enver Pasha إسماعيل أنور (1922-1881) أحد أبرز السياسين الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى وقائد القوات العسكرية خلال القتال على جبهات البلقان. عمل وزيرا للحربية خلال الفترة 1918- 1914، وكان أحد الزعماء المؤسسين لحركة تركيا الفتاة. نقل قوات تركية إلى جبهة القوقاز ليضغط على روسيا من الجبهة الجنوبية ولقى حتفه فى عام 1922 خلال دعمه لثورة شعبية فى التركستان الإسلامى المناهض لروسيا أملا فى تكوين اتحاد جامعة الشعوب التركية.
- أوربا الجديدة : The New Europe ، صحيفة أسبوعية تأسست فى لندن فى 1916م، على يد روبرت واتسون وهنرى ستيد، لعرض آراء النخبة البريطانية والباحثين الأكاديميين بشأن التغيرات التى شهدتها القارة فى خضم الحرب العالمية الأولى.
- الأوسيت : Osseitians ، مجموعة بشرية فى شمال القوقاز تعيش فى إقليم يحمل اسمهم مقسم بين روسيا فى الشمال (حيث جمهورية أوسيتيا الجنوبية) وجورجيا فى الجنوب (حيث جمهورية اوسيتيا الجنوبية.

- إيفان الرهيب : Ivan the Terribl، إيفان الرابع فاسيليفتش (1584 – 1530) بدأ تاريخه السياسى زعيما لإمارة موسكو ثم وسع حدودها شرق وجنوبا وجعل منها إمبراطورية شاسعة الأرجاء ضمتم عشرات الأعراق والأديان، واعتلى عرشها ليبدأ الحكم القيصرى الروسى.
- بتروجراد : Petrograd، العاصمة الثقافية لروسيا، وميناؤها الرئيس على بحر البلطيق. وقد تبدلت أسماء هذه المدينة منذ إنشائها فى عام 1703على يد بطرس الأكبر. وكانت عاصمة الإمبراطورية الروسية مرتين (1728 - 1713) .(1918 - 1732) سميت «سان بطرسبرج» من تاريخ الإنشاء حتى 1914 ثم «بتروجراد» بين عامى 1924-1914، ثم منحها الشيوعيون اسم لينين فصارت «لينينجراد» بين عامى 1924 و 1991، قبل أن تستعيد اسمها الأول «سان بطرسبرج» منذ 1991 وحتى اليوم.
- برست ـ ليتوفسك :Brest-Litovs ، معاهدة سلام وقعت فى مارس 1918، وأنهت حالة الحرب بين الدول المشاركة فى الحرب العالمية الأولى. ويعود اسم برست ليتوفسك إلى مدينة "برست" فى بيلاروسيا على الحدود القريبة من بولندا وهو موقع جعل منها دوما نقطة محورية على الطريق الواصل بين موسكو وبرلين.
- بروسيلوف : Brusilov ، هجوم عسكرى شامل شنته القوات الروسية بقيادة الجنرال بروسيلوف فى صيف 1916م على الجيش النمساوى المجرى أفضى إلى قتل 57 ألف رجل (كان أكثر من نصفهم أسرى حرب) قبل أن يجبر تدخل الجيش الألمانى الروس على التقهقر فى حالة فوضى.
- البسماتشى : Basmachis، جماعات وطنية مسلحة قاومت السيطرة البلشفية على أوطانها فى التركستان (آسيا الوسطى).
- بسمارك: أوتو ليوبولد فون بسمارك Otto Eduard Leopold Von Bismark (1815-1898) رجل دولة فى العهدين البروسى والألمانى ، عمل رئيسا للوزراء. كان مهندسا لتوحيد الأراضى الألمانية المجزأة فى جنوب ووسط القارة وذلك خلال الفترة من 1862 وحتى 1890، اشتهر باتباع دبلوماسية عرفت باسم «السياسة الواقعية» Realpolitik .

- بطرس الأكبر : Peter The Great، بطرس أليكسيفتس رومانوف (1672-1725) إمبراطور روسيا وقيصرها وصاحب مدرسة التحديث والتصنيع وتوسعة الحدود والانفتاح على القارة الأوربية. أسس فى 1703 مدينة «سان بطرسبرج» واتخذها عاصمة لروسيا.
- البلاشفة Bolsheviks والمناشفة : Mensheviks، فصيلان من الحركة الثورية الروسية ظهرا بعد انشطار حزب العمل الديمقراطى الاشتراكى الروسى فى نزاع ضرب المؤتمر الثانى للحزب فى 1903 ووقع الانقسام حين اختلفت آراء أعضاء الحزب بين أنصار فلاديمير لينين Lenin ويوليوس مارتوف Julius Martov، على قضايا صغيرة تعلقت بتنظيم الحزب. وكان أتباع مارتوف قد شكلوا أقلية الأصوات حول القضية المثارة ومن هنا عرفوا باسم «الأقلية» والتى تعنى باللغة الروسية «منشيفيك» وجاءت منها الترجمة العربية «مناشفة» بينما كان أتباع لينين يشكلون «الأغلبية» وهى الكلمة التى تعنى فى الروسية «منشفيك» ومنها جاءت الترجمة العربية «مناشفة».
- البلطيق : Baltic، إقليم فى شمال شرق أوربا ينحصر بين بولندا من الغرب وروسيا من الشرق، ويطل على بحر البلطيق، كان طوال التاريخ الوسيط والحديث لأوربا مسرحا لتكسر القوى الإقليمية. بعد انهيار الاتحاد السوفيتى فى 1991 ترسخ استقلال الدول القومية بتكوين إستونيا ولاتفيا وليتوانيا كدول مستقلة سرعان ما انضمت للاتحاد الأوربى وحلف الناتو.
- البلقان : Balkan، اسم يطلق على كل من شبه جزيرة وسلسلة جبلية فى جنوب شرق أوربا على الساحل الشرقى للبحر الأدرياتى. وأتت كلمة بلقان من أصل تركى يعنى «الجبال المغطاة بالأشجار».
- بوريات : Buryates، شعوب وجماعات سكانية فى الشرق الأقصى الروسى تشكل أكبر أقلية فى سيبيريا (نحو نصف مليون نسمة) وينتمون إلى أصول وثقافات مغولية. يتركزون اليوم حول مدينة أولان أودى Ulan-Ude التى تمثل عاصمة الجمهورية التى تحمل اسمهم فى المركب الفدرالى الروسى.

- بوريس شتورمر : Boris Stürmer ، سياسى روسى شغل منصب رئيس مجلس الوزراء فى منتصف الحرب العالمية الأولى.
- بوكوفينا : Bukovina ، منطقة متنوعة الأعراق فى إمبراطورية الهابسبرج، امتدت إلى الجنوب الشرقى من جاليسيا.
- بوهيميا: Bohemia ، مملكة سابقة على نشأة إمبراطورية الهابسبرج، شغلت الأراضى التى تمثلها اليوم قلب جمهورية تشيكيا.
- بيدمونت Piedmont، إقليم فى شمال غرب إيطاليا عند أقدام جبال الألب. كان إقليم القلب الذى تجمعت حوله بقية الأقاليم وشكلت الوحدة الإيطالية الحديثة فى القرن العشرين.
- اليشوف : Yishuv، المجتمع اليهودى فى فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل.
- تاراس شيفتشينكو : Taras Chevchenko ، شاعر ورسام وأديب أوكرانى (1814-1861 يعتبر مؤسس الأدب الأوكرانى الحديث.
- التاريبا : Taryba ، مجلس نيابى تشكل فى فيلنوس (ليتوانيا) فى سبتمبر 1917م، تم فيه انتخاب عشرين عضواً ممثلين عن كافة المجتمع الليتوانى لإدارة شؤون البلاد فى سعيها نحو الاستقلال عن كل من روسيا وألمانيا.
- التأصيل الجذرى : Corenizatsiia، سياسة تبنتها السلطات الروسية القيصرية لغرس كل مجموعة عرقية كبرى فى البنية التحتية للتحديث، بمحاباة أعضائها بالترقية فى السلم الاقتصادى والإدارى للإقليم وفى مناصب الحزب الشيوعى.
- التجديدية : Jadidism ، حركة إحياء دينى بين مسلمى الإمبراطورية الروسية خلال القرن التاسع عشر هدفت إلى إصلاح التعليم.
- التركستان : Turkistan ، إقليم يمتد من غرب الصين شرقا إلى بحر قزوين غربا. وعبر القرون الثلاث الماضية اقتسمت الإقليم روسيا والصين. وعادة ما سمى الجزء الخاضع للصين باسم "التركستان الشرقية" بينما عرف القسم الخاضع لروسيا القيصرية والاتحاد السوفيتى من بعدها باسم «التركستان

الغربية». وإذا كان إقليم التركستان الغربية قد استقلت جمهورياته الخمس منذ 1991 بعد تفكك الاتحاد السوفيتى (دول: طاجيكستان، وأوزبكستان وقرغيزيا وتركمانستان وكازاخستان) فإن التركستان الشرقية ما تزال تحت السيادة الصينية وتعرف باسم مقاطعة «شينغيانغ».

- تشوفاش : Chuvash، مجموعة سكانية ذات أصل طورانى (تركى) فى إقليم الفولجا بوسط روسيا.

- التنظيمات الخيرية : Tanzimati- Hayriye ، سلسلة من الإصلاحات شهدتها الإمبراطورية العثمانية بدءا من عام 1839 لتحديث الجيش والإدارة والاقتصاد الزراعى فى المقاطعات والإمارات الخاضعة للإمبراطورية.

- توماس مساريك : Tomas Masaryk ، سياسى تشيكوسلوفاكى وفيلسوف وعالم اجتماع (1850-1937) سعى إلى استقلال بلاده عن إمبراطورية الهابسبرج خلال الحرب العالمية الأولى. أصبح مؤسسا وأول رئيس لتشيكوسلفاكيا بمساعدة من قوات الحلفاء المعادية للهابسبرج خلال تلك الحرب.

- تيرول الجنوبية : South Tyrol، مقاطعة ذات حكم ذاتى فى شمال إيطاليا اليوم يتحدث سكانها لغة نمساوية - بافارية ويعتبرون أنفسهم مميزين لغويا عن ثلث السكان الذين يتحدثون الإيطالية.

- تيشين : Teschen، منطقة غنية بالفحم كات محط صراع وصدام بين القوات التشيكوسلوفاكية والبولندية فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الأولى.

- تيكين آلب (موشى كوهين) : Tekin Alp (Moise Kohen) ، سياسى بارز وأحد الرعايا اليهود فى الإمبراطورية العثمانية. كان من النشطاء المؤيدين فى حركة الجامعة التركية والمؤيدين لحركة مصطفى كمال أتاتورك.

- الثورة العربية : Arab Revolt، حركة تمرد (1916-1918) ضد السيادة العثمانية قادها أمير مكة الشريف حسين بن على، تلقت دعما من بريطانيا التى كانت القوة البارزة فى قوى الحلفاء المناهضة للدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى. هدفت تلك الثورة (التى أسماها العثمانيون عصيانا عربيا) إلى إقامة دولة عربية تضم جميع الأراضى الممتدة من سوريا فى الشمال إلى اليمن فى الجنوب.

- الجامعة التركية : Pan-Turkism فكر قومى يسعى إلى ممارسة الوسائل والسياسيات التى يمكنها ضم كل الأعراق ذات الأصل الطورانى (التركى) تحت سماء واحدة بحيث تمتد من غرب الصين إلى حدود البلقان، ومن وسط روسيا وجنوبها إلى سوريا والعراق.
- الجامعة الجرمانية : Pan-Germanism ، فكر قومى يسعى ضم كل الأعراق الأوربية ذات الأصل الجرمانى تحت سماء واحدة.
- الجامعة السلافية : Pan-Slavism ، فكر قومى يسعى إلى ممارسة الوسائل والسياسيات التى يمكنها ضم كل الأعراق ذات الأصل السلافى تحت سماء واحدة وتشمل روسيا وأجزءا من آسيا الوسطى والقوقاز ومعظم أوربا الشرقية والبلقان.
- الجامعة العربية : Pan-Arabism، فكر قومى يسعى إلى ممارسة الوسائل والسياسيات التى يمكنها ضم كل الأعراق ذات الأصل العربى تحت سماء واحدة وتشمل الأراضى التى يسكنها العربى من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى.
- جمال باشا : Jemal Pasha ، أحمد جمال (1872-1922) أحد الأعضاء البارزين فى جمعية الاتحاد والترقى وأحد الثلاثة الكبار (مع طلعت باشا وأنور باشا) الذين قادوا الدولة العثمانية خلال الفترات العصيبة للحرب العالمية الأولى. ولعب دورا قياديا فى حروب البلقان وشغل منصب وزير البحرية عام 1914.
- جوزيف بلسودسكى . Joseph Bilsodesky سياسى يسارى ليتوانى (1867م - 1935م) ينحدر من أصل أرستقراطى ليتوانى من جهة الأب ومن أصل بولندى من جهة الأم. كافح لاستقلال بلاده عن السيطرة القيصرية الروسية خلال الربع الأول من القرن العشرين.
- جوزيف شتروسماى : Joseph Strossmayen، أسقف كرواتى سلافونى (1815م - 1905م) أسس الأكاديمية اليوغسلافية للآداب والعلوم" فى زغرب فى 1867م، وحاول تشجيع التعاون السياسى بين الصرب والكروات داخل مملكة الهابسبرج.

- الحرب النمساوية البروسية : Austro-Prussian War، حرب نشبت عام 1866 بين الاتحاد الكونفدرالى الالمانى تحت قيادة الإمبراطورية النمساوية وحلفائها الألمان من ناحية ومملكة بروسيا وحلفائها الألمان وإيطاليا من ناحية أخرى، ونتج عن الحرب هيمنة بروسيا على الولايات الألمانية وتوحيد ولايات الشمال.

- حركة تركيا الفتاة : Young Turks، تحالف من جماعات من النشطاء السياسيين هدف إلى إصلاح الهيكل الإدارى للدولة العثمانية، اتخذت موقفا معاديا للسلطان العثمانى وجهزت لما عرف لاحقا باسم ثورة تركيا الفتاة. تألفت الحركة من أعضاء تقدمين حداثيين، وتركت تأثيرا ثقافيا وسياسيا واسعا على تركيا خلال السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية. ولم يكن جميع نشطاء الحركة من السياسيين فحسب بل ضمت فنانين وإداريين وأكاديميين وعلماء.

- الحزب الاشتراكى البولندى :Polish Socialist Party، أحد حزبين اشتراكيين بولنديين ظهرا إلى الوجود فى نهاية القرن التاسع عشر خلال فترة الاحتلال القيصرى الروسى، وكان منافسه الأساسى الحزب الديمقراطى الاجتماعى لملكة بولندا وليتوانيا .

- حزب الحق الخالص : Pure Right، حزب صربى قومى متطرف (يشار إلى أعضائه عادة بالفرانكيين Frankists، أى أتباع يوسيب فرانك Josip Frank (1844م - 1911م) نشأ فى نهاية القرن التاسع عشر فى الجزء الخاضع لإمبراطورية الهابسبرج من البلقان، وتبنى ذلك الحزب موقفا غير متسامح وعدوانى تجاه الأقلية الصربية فى كرواتيا.

- حزب المساواة : Musavat Party ، حزب سياسى تشكل فى أذربيجان خلال الفترة 1917م - 1920م، وحظى بتأييد واسع بين المسلمين الأذر.

- خط كرزن : Curzon Line ، خط حدودى فصل بين الجمهورية البولندية الثانية وروسيا البلشفية، وتم إقراره على يد المجلس الأعلى لقوات الحلفاء بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. واشتق الاسم من «جورج كرزن» وزير الخارجية البريطانى آنذاك. ويناظر هذا الخط اليوم الحدود الدولية التى تفصل بين بيلاروسيا وأوكرانيا وبولندا.

- داغستان: إقليم إسلامى فى القوقاز الشمالى يطل على الساحل الشمالى الغربى لبحر قزوين كان مسرحا لغزوات روسيا متصلة منذ القرن الثامن عشر. تمثل داغستان اليوم إحدى جمهوريات الاتحاد الفدرالى الروسى.
- دالماشيا (دالماتشيا/دالماتسيا): الساحل الغربى من البلقان المطل على البحر الأدرياتى الواقع اليوم فى غرب كرواتيا وسلوفينيا.
- دروشينا: Druina، كتيبة تشيكية تألفت من جنود وضباط ممن وقعوا أسرى حرب على الجبهة الروسية أثناء قتالهم فى الحرب العالمية الأولى فى صفوف جيش الهابسبرج. انضمت الكتيبة إلى صفوف الجيش الروسى أملا فى النهاية فى الحصول على دعم من موسكو لتحرير بلادهم من القبضة النمساوية المجرية.
- دوبروفنيك : Dubrovnik، مدينة وميناء ساحلى فى البلقان يقع اليوم فى أقصى جنوب شرق كرواتيا على ساحل البحر الأدرياتى.
- دوقية ليتوانيا الكبرى : Grand Duchy of Lithuania، دولة أوربية شاسعة الأرجاء فى شرق أوربا، امتدت بين القرنين 12و 16 الميلاديين. بدأت كإمارة صغيرة على بحر البلطيق ثم توسعت بالتدريج عل حساب أراضى من روسيا وبولندا وأوكرانيا. تناظر أراضيها اليوم الأقاليم التى تشغلها دول لاتفيا وإستونيا وليتوانيا وبيلاروسيا وأوكرانيا وأجزاء من روسيا، وعدت فى زمنها أكبر دولة فى القارة الأوربية.
- الدوما: Duma، المجلس التشريعى الروسى فى روسيا القيصرية.
- الرابطة (بند) : BUND، التحالف العام للعمال اليهود (تأسس فى 1897م) حركة سياسية يهودية تعنى "الاتحاد" ظهرت فى شرق أوربا الخاضعة لسيطرة روسيا القيصرية ونادت بأن مصير الشعب اليهودى يعتمد على الكفاح الثورى فى كل أرجاء الإمبراطورية الروسية.
- الرادا : Rada ، المجلس القومى الأوكرانى (البرلمان).
- الروتيغيون : Ruthenians، مجموعة عرقية من الأوكرانيين القاطنين لمنطقة جاليسيا.

- روس الكاربات الأدنى : Subcarpathian Rus، إقليم فيما بين أوكرانيا وتشيكوسلوفاكيا أصبح فيما بين الحربين يمثل الحد الشرقى لجمهورية تشيكوسلوفاكيا.

- روساوى : Rossiiskii، تسمية تطلق على سكان الإمبراطورية الروسية ككل.

- الروسنة : Russification، إضفاء قسرى للثقافة الروسية على الشعوب الخاضعة لسلطة موسكو.

- روسى: Russkii، تسمية تستخدم للإشارة تحديدًا إلى الشعب، أو الثقافة، أو اللغة الروسية.

- رومان دموفسكى: Dmowski ، سياسى بولندى (1864م - 1939م) صاحب مشروع قومى لاستقلال بلاده عن كل من القيصرية الروسية والسلطة النمساوية المجرية والهيمنة الألمانية التى تصارعت لإخضاع بلاده. وطوال سنوات الحرب العالمية الأولى اتخذ دموفسكى من عواصم الدول الغربية مسرحا للعمل لصالح قضية الاستقلال البولندى.

- زلاتشتا : Szlachta ، طبقة أهل الفكر «الإنتليغنتسيا» فى بولندا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

- ساطع الحُصرى: كاتب ومفكر سورى (1968-1882) ، وأحد رواد القومية العربية فى القرن العشرين. ولد فى صنعاء باليمن. تأثر بأفكار القومية الأوربية والتركية بل وصار عضوا فى جمعية الاتحاد والترقى قبل أن يجد فى العربية مشروعه الفكرى للمناداة بوحدة الجامعة العربية. شغل مناصب بارزة فى كل من سوريا والعراق ومقر الجامعة العربية فى القاهرة خلال السنوات الطويلة الممتدة من 1919 وحتى 1965.

- سالونيك : Salonika ، ثانى أكبر مدن اليونان بعد أثينا، تمثل عاصمة إقليم مقدونيا الواقع فى شمال شرق اليونان على حدود بلغاريا ومقدونيا. كانت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وصارت مقرًا لحركة تركيا الفتاة (1908) وأعيدت إلى اليونان فى 1913، وكانت قاعدة مهمة لقوات الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى.

ـ ساناتسيا : Sanacja، حركة سياسية بولندية ذات توجه يهودى تعنى «التطهير» أو «الإصحاح».

ـ ستيريا : Styria ، مقاطعة فى إمبراطورية الهابسبرج تناظر اليوم ولاية فى جنوب شرق النمسا، على حدودها مع سلوفينيا.

ـ سلافونيا : Slavonia، إقليم فى البلقان يقع اليوم فى شرق كرواتيا. ويمثل أرضا زراعية خصبة وتحيط به ثلاثة أنهار دائمة الجريان هى : سافا من الشمال ودرافا من الجنوب والدانوب من الشرق.

ـ سلطان غالييف : Galiev Mirza Sultan، أحد قادة المسلمين التتر فى روسيا. انضم للبلاشفة وصعد إلى مكانة متميزة فى الحزب الشيوعى منذ عام 1920 ونظرا لدوره البارز كقائد للمسلمين التتر اتهمه الشيوعيون بتزعم حركة قومية مناهضة للشيوعية وفى 1940 أصدر ستالين حكما باعدامه.

ـ سودتنلاند : Sudetenland ، منطقة جبلية إستراتيجية تمثل المحيط الإقليمى المأهول بالألمان النمساويين فى بوهيميا (تشيكيا)، والذى تعتبر سلاسله الجبلية بالغة الأهمية فى الدفاع عن تشيكوسلوفاكيا.

ـ السُوغديان : Sogdians، شعب ذو حضارة قديمة فى الأراضى التى تمثلها اليوم دول أوزبكستان وطاجيكستان (آسيا الوسطى) وازدهرت خلال فترة الإمبراطورية الأخمينية الفارسية. وكانت مدينة سمرقند (فى أوزبكستان اليوم) مركز النفوذ السياسى لهذا الشعب.

ـ سوكول (الصقر) : Sokol ، حركة قومية تأسست فى ستينيات القرن التاسع عشر على أيدى القوميين التشيك، وقامت بمحاكاتها مؤسسات مشابهة بين الشعوب السلافية فى إمبراطورية الهابسبرج.

ـ سيليزيا العليا :Upper Silesia، إقليم صناعى غنى بالفحم بين بولندا وألمانيا كان يقطنه خليط من الألمان والبولنديين ودار عليه صراع بين الطرفين وتم تقسيمه بنار على قرار من عصبة الأمم فى 1921 بين بولندا وألمانيا.

ـ شتيتل : Shtetl، اسم يطلق على البلدة التى تسكنها أغلبية يهودية فى شرق ووسط أوربا وروسيا. ويحمل الاسم دلالة ثقافية تشير إلى تقاليد يهودية

محافظة رغم تغير الأجواء خارج البلدة. وبعد الحرب العالمية الثانية والهجرة اليهودية التى رافقت حركة الاستعمار الصهيونى لفلسطين تلاشت هذه البلدات وتراجع استخدام هذا المصطلح.

- الشرق الأعلى : Ober Ost / Upper East، تسمية أطلقها الاحتلال الألمانى خلال الحرب العالمية الأولى على الأراضى المقتطعة من نفوذ القيصرية الروسية. ويقع هذا الإقليم فى شمال أوربا الشرقية، واتفقت حدوده تقريبا مع حدود دوقية ليتوانيا العظمى خلال العصور الوسطى، وضم مراكز حضرية مثل كوناس Kaunas وفيلنوس Vilnius.

- الشركس Circassians، أحد اكثر الجماعات البشرية عراقة فى شمال القوقاز، وخلال فترة الحكم القيصرى تعرضوا لمرات متعددة من الصدام مع السلطة المركزية فى روسيا مما اضطر عشرات الآلاف منهم إلى الهجرة الإجبارية إلى الدولة العثمانية.

- الشعوبية Populism : معتقد فكرى ومذهب فلسفى سياسى اجتماعى يضع "الشعب" أمام "النخبة" ويطالب بتغيير النظام الاجتماعى السياسى. يقف هذا المذهب إلى جانب حقوق الفقراء والبسطاء من الشعب ويسعى إلى تلبيتتها. ويمكن أن ينطبق هذا المصطلح على أى خطاب سياسى أو اجتماعى أو إعلامى يغازل الجماهير ويتعاطف مع احتياجتها.

- شلاتشتا (النبلاء) : Szlachta ، طبقة ملاك الأراضى البولندية فى جاليشيا، زمن إمبراطورية الهابسبرج.

- ضياء جوك ألب : Zia Gökalp ، أحد المفكرين البارزين فى حركة تركيا الفتاة. لعب دورا بارزا خلال نظام مصطفى كمال أتاتورك فى الربع الأول من القرن العشرين.

- الطاشناك : Dashnaks، حزب سياسى فى أرمينيا الخاضعة للقيصرية الروسية يعنى أسمه "الاتحاد الثورى الأرمينى".

- غاليبولى : Gallipoli، شبه جزيرة فى إقليم تراقيا فى تركيا، تمثل الجانب الأوربى من تركيا المعروف جغرافيا باسم "تراقيا الشرقية" احتلتها القوات

البريطانية قبل أن يتمكن الجيش التركى من هزيمتهم فى واحدة من المعارك الحاسمة فى نهاية الحرب العالمية الأولى.

- الفرسان التيتون : Teutonic Knights، طائفة دينية كاثوليكية ألمانية تشكلت لحماية الحجاج المسيحيين على طول طريقهم إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين. وإلى جانب حماية الحجيج وإقامة المستشفيات المتنقلة ومداواة الجرحى والمرضى شاركوا فى القتال خلال الحملات الصليبية على المشرق الإسلامى.
- فويفودينا : Vojvodina، إقليم ذو حكم ذاتى فى صربيا اليوم يقع فى شمال البلاد على الحدود مع المجر ورومانيا وهو إقليم متنوع الأعراق والأقليات يمثل الصرب من سكانه 27%.
- قازان : مدينة تاريخية عريقة فى وسط روسيا اليوم، كانت عاصمة مملكة التتر الإسلامية قبل الغزو الروسى لها فى منتصف القرن السادس عشر. وهى اليوم عاصمة جمهورية تترستان الواقعة ضمن الاتحاد الفدرالى لروسيا.
- قضية دريفوس : Dreyfus Affair، فضيحة سياسية شغلت الرأى العام والمجتمع السياسى فى فرنسا فى تسعينيات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حين وجهت الحكومة الفرنسية تهمة الخيانة العظمى للضابط الفرنسى ذى الأصل اليهودى "ألفرد دريفوس" بالتجسس لصالح ألمانيا وما تبع تلك الأزمة من تداعيات.
- القوزاق : Cossacks، شعوب سلافية شرقية، كانت دوما تتألف من محاربين أشداء يسكنون المنطقة الممتدة فى أوربا الشرقية وغرب روسيا فيما بين نهرى الدون والدنيبر. ومنذ العصور الوسطى دخل القوزاق فى تحالف عسكرى واستراتيجى مع الروس وشكلت أراضيهم فى بعض الفترات نطاقا عازلا بين روسيا وأعدائها.
- القوزاك الحمر : Rouge Cossack، ميليشيا من الفلاحين الكروات كانت تهاجم الطبقة الحاكمة وتستولى على الأراضى خلال فوضى الحزب فى عام 1917.
- القوقاز الجنوبى : Transcaucasus، إقليم من القوقاز يمتد بين بحر قزوين فى الشرق والبحر الأسود فى الغرب ويضم حاليا ثلاث دول: أذربيجان، أرمينيا،

وجورجيا. ويناظره إقليم القوقاز الشمالى الذى يضم الجمهورات الإسلامية الواقعة تحت السيادة الروسية مثل الشيشان وداغستان وكارتشاى شيركيسيا وغيرها.

- كاديتس : Kadets، حزب ديموقراطى دستورى من يسار الوسط ظهر فى الإمبراطورية الروسية فى النصف الثانى من القرن العشرين.
- كتلة الأقليات القومية : BMN ، تحالف انتخابى ظهر فى بولندا عام 1922 بمبادرة يهودية يشمل الأحزاب اليهودية والألمانية والأوكرانية والبيلاروسية والليتوانية لمواجهة اليمين البولندى آنذاك.
- الكوادر الخضراء : Green Cadres، ميليشيا مؤلفة من الهاربين من جيش الهابسبرج من الفلاحين الكروات قامت بأعمال تمردية وحملة من اللصوصية الاجتماعية ووصلت أعدادها إلى عشرات الآلاف فى خريف 1918م.
- كورفو : Corfu، جزيرة يونانية فى البحر الأيونى لجأت إليها حكومة المنفى الصربية فى خريف .1915ومن هذه الجزيرة اطلقت حكومة المنفى ما عرف باسم «إعلان كورفو Corfu Declaration فى يوليو 1917م، لإقامة المملكة الديمقراطية الدستورية للصرب والكروات والسلوفينيين تحت أسرة حاكمة صربية.
- كيليكيا : Cilicia، إقليم تركى ساحلى يقع فى هضبة الأناضول بجنوب تركيا.
- لجنة الاتحاد والترقى : Committee of Union and Progress جمعية سرية تأسست فى 1889 على يد مجموعة طلابية تحولت إلى تنظيم سياسى بين النخب الإدارية والعسكرية. وقد تحالف هذا التنظيم مع حركة تركيا الفتاة فى 1906ولم يعد هناك فرق بين اللجنة وتركيا الفتاة منذ ذلك التاريخ.
- لوسن وولف : Lucien Wolf ، وزير خارجية بريطانيا وممثل اللجنة الخارجية المشتركة ليهود بريطانيا فى مؤتمر سلام باريس.
- مؤتمر برنو : Brno (Brunn)، مؤتمر عقده فى 1899 الديمقراطيون الاشتركيون فى الإمبراطورية النمساوية المجرية، فى مدينة برنو فى تشيكيا.

- مؤتمر سان ريمو : San Remo، مؤتمر دولى عقد فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فى سان ريمو بإيطاليا فى أبريل 1920 بتنظيم من المجلس الاعلى للحلفاء. وحضره الأربعة الكبار من قوات الحلفاء (رؤساء وزراء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والسفير اليابانى فى إيطاليا) وكانت مهمة هذا المؤتمر فرض الانتداب على الأراضى التى كانت تمتلكها الدولة العثمانية فى الشرق الأوسط.

- مؤتمر سلام باريس : Paris Peace Conference، لقاء جمع دول الحلفاء المنتصرين فى الحرب العالمية الأولى من أجل إقرار السلام وفرضه على ألمانيا وبقية الدول المهزومة فى "قوى المركز". كما انشغل المؤتمر بتقرير مصير الإمبراطوريات المتفككة عن الحرب. وقد عقد المؤتمر فى باريس عام 1919. وقد تغيرت خريطة أوربا والعالم نتيجة الاتفاقات التى أقرها هذا المؤتمر الذى تمخض عنه تكوين «عصبة الأمم».

- مافى : Maffie ، لجنة سرية من القوميين الراديكاليين التشيك ظهرت فى الربع الأول من القرن العشرين.

- مبدأ المساواة : Ausgleich، مكاسب سياسية حصل عليها المجريون فى 1867 فى صورة حكم ذاتى مقابل استمرار ولائهم لأسرة الهابسبرج.

- مذابح الأرمن: عملية واسعة من الاستهداف المنظم لعمليات من القتل الجماعى والتهجير الإجبارى المميت للسكان الأرمن فى الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها. ويؤكد الأرمن من جانبهم أن عدد من قتلوا خلال هذه العمليات التى ارتكبتها أو صمتت عنها الدولة العثمانية يبلغ نحو مليون نسمة وهو ما تقول تركيا إنه رقم مبالغ فيه وترفض وصف تلك الأحداث بـ «المذابح الجماعية».

- المسألة الشرقية : Eastern Crisis، مصطلح يشير إلى مشكلات سياسية ودبلوماسية نتجت عن بوادر انهيار الإمبراطورية العثمانية ومراحل تفككها خلال القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين خاصة ما يتعلق منها بحالة عدم الاستقرار فى الأقاليم التى انفصلت أو استقلت أو اقتطعت من نفوذ هذه

الإمبراطورية فى أراضى القارة الأوربية، تلك الأقاليم التى كانت محط أطماع القوى الأوربية المنافسة وفى مقدمتها روسيا والهابسبرج (النمسا - المجر) وبريطانيا.

- معاهدة ريجا : Treaty of Riga ، تم توقيعها فى مارس 1921 بين بولندا وجمهوريتى روسيا وأوكرانيا السوفييتين لإنهاء الحرب البولندية السوفيتية التى اشتعلت على المناطق الحدودية.

- معاهدة سيفر : Treaty of Sèvres ، معاهدة سلام وقعت فى نهاية الحرب العالمية الاولى فى 10 أغسطس 1920 بين الحلفاء والدولة العثمانية.

- معاهدة فرساى : Treaty of Versailles، واحدة من المعاهدات التى تم توقيعها فى نهاية الحرب العالمية الأولى فى 28 يونيه 1919. وقد أنهت المعاهدة حالة الحرب بين ألمانيا (قوى المركز) وقوات الحلفاء. وتقع بلدة فرساى على مشارف العاصمة الفرنسية باريس. وكانت أهم بنود هذه التفاقية تحميل ألمانيا مسئولية الحرب وإلزامها بعدم التسلح وتعويضات مالية فلكية والتنازل عن أراضى ومقاطعات لدول الجوار.

- معاهدة لوزان : Treaty of Lausanne ، معاهدة سلام وقعت بمدينة لوزان فى سويسرا في يوليو 1923 بشأن إقرار تقسيم أجزاء تراقيا الشرقية عن الأناضول في الإمبراطورية العثمانية المنهارة. وصدقت على هذه المعاهدة حكومات اليونان وتركيا والمملكة المتحدة اليابان وعصبة الأمم. وأبطلت معاهدة لوزان معاهدة سيفر التى كانت قد وقعتها الإمبراطورية العثمانية سلفا فى 1920 وكانت المعاهدة بمثابة ميلاد للدوة التركية كوريث للإمبراطورية العثمانية.

- معركة كابوريتو : Battle of Caporetto، موقعة حربية اشتعلت فى سبتمبر 1917م والتقى فيها الجيش الإيطالى بالجيش النمساوى المجرى، وكان انتصار الجيش النمساوى المجرى على الإيطاليين فى هذه المعركة آخر إنجاز حققته إمبراطورية الهابسبرج، وبعدها كان انهيارها سريعًا. ويعود اسم كابوريتو إلى بلدة كوباريد Kobarid، فى شمال غرب سلوفينيا حاليا).

ـ معركة ميْسَلون: ميلسون بلدة سورية تقع إلى الغرب من العاصمة دمشق بنحو 20 كم فى منطقة جبلية يزيد ارتفاعها على 1000 متر. شهدت هذه البلدة المعركة الشهيرة التى تصدى فيها يوسف العظمة وزير الحربية السورى خلال الحرب العالمية الأولى للقوات الفرنسية الزاحفة من لبنان لغزو البلاد رافضا الاستسلام الذى أقره الملك فيصل. وكان النصر الكاسح للقوات الفرنسية على قوات يوسف العظمة إيذانا ببدء استعمار سوريا تحت الاحتلال الفرنسى، وفى هذا المعركة استشهد العظمة وعدد كبير من قواته.

ـ معركة وايت ماونتين (الجبل الأبيض) : Battle of White Mountain، إحدى المعارك المبكرة فى حرب الثلاثين عاما (1618-1648) فى أوربا الوسطى والتى بدأت كنزاع جرمانى داخلى بين البروتستانت والكاثوليك ثم امتدت نيرانه لتشمل قوى أوربية أخرى أهمها السويد والدنمارك. وانتهت الحرب بمعاهدة ويستفاليا 1648.

ـ الملاذ التركى: (Türk Ocai (Turkish Hearth: مؤسسة قومية تركية شكلتها لجنة الاتحاد والترقى فى 1912م ـ 1913م، وتأسست لها فروع فى مدن عديدة، حيث نظمت أنشطة اقتصادية لتشجيع نمو هوية وحدة تركية بين الطبقات المتعلمة.

ـ مناصرة السلافية : Slavophiles ، مذهب فكرى نشأ فى القرن 19سعى إلى تنمية الإمبراطورية الروسية بناء على القيم والمؤسسات المستمدة من تاريخها المجيد، بام واومناهضة التأثير الثقافى الغربى على روسيا.

ـ مورافيا : Moravia ، إقليم ذو أهمية تاريخية فى وسط أوربا. يقع إلى الشرق من جمهورية التشيك حاليا. كان الإقليم يشكل ـ مع بوهيميا وسيليزيا العليا ـ الأراضى التاريخية للتشيك.

ـ الميلامديم : Melamdim، تسمية يهودية أطلقت على معلمى التوراة فى المدارس اليهودية التقليدية فى شمال شرق أوربا.

ـ ناجودبا: Nagodba، اتفاق داخلى فى أسرة الهابسبرج وقع فى 1868 وقضى بانضمام إقليم كرواتيا ـ سلافونيا بصفة دائمة إلى التاج المجرى.

- ناجورنو ـ كاراباخ : Nagorno Karabakh، منطقة جبلية حبيسة فى القوقاز الجنوبى. تقع داخل داخل حدود دولة أذربيجان رغم أغلبيتها السكانية الأرمنية، صارت مصدر نزاع وحروب بين الأرمن والأذر منذ تفكك الاتحاد السوفيتى فى 1991 ومنذ حرب عام 1994 يسيطر الجيش الأرمنى على المنطقة وتطالب أذربيجان باسترجاعها.

- نارودنيكى (الشعوبيون) : Narodniki ، مصطلح روسى يشير إلى مجموعة من مفكرى روسيا القيصرية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر نادوا بالرجوع إلى الحياة الريفية كمستودع للقيم القومية الحقيقية.

- نيقولاى المنسكى : Nikolai I. Il'minskii ، منصر روسى (1822م ـ 1891م) حاول فى القرن التاسع عشر جذب الشعوب غير الروسية (من مسلمى التتر والشوفاش وغيرهم) فى إقليم الفولجا الأوسط إلى اعتناق الأرثوذوكسية الروسية.

- هالكا دوغرو (نحو الشعب) Halka Dugro: شعار رفعه المفكر التركى ضياء جوك آلب تعبيرا عن الحركة الشعوبية التركية.

- هدنة مودروس : Armistice of Mudros ، وقف لإطلاق النار تم توقيعه فى 30 أكتوبر 1918 لإنهاء القتال بين الإمبراطورية العثمانية والحلفاء فى الحرب العالمية الاولى. وكان مقر التوقيع فى مرفأ مودروس بجزيرة ليمنوس باليونان. وبموجبها تنازل العثمانيون للحلفاء عن المواقع الاستراتيجية حول مضيقى البسفور والدردنديل.

- الهلاسيون : Hlasists، مجموعة من النشطاء السياسيين القوميين السلوفاك من أتباع توماس مساريك (1850م ـ 1937م). وتعنى كلمة هلاس "الصوت" وهو الاسم الذى حملته الصحيفة التى أصدروها.

- هوايتهول : Whitehall، الشارع الرئيسى فى لندن الذى يضم المقار الحكومية البريطانية.

- الهيتمانية القوزاقية : Coassack Hetmanate، كيان سياسى مستقل ذاتيا كونته شعوب القوزاق الروتينيين وذلك فى وسط وشمال شرق أوكرانيا الحالية

خلال الفترة من 1649 و 1709بعد ثورة تمردى ضد الغزو البولندى للإقليم. اخضعته روسيا لاحقا ووصلت عبره إلى سواحل البحر الأسود.

- اليديشية : Yiddish، لغة استخدمها يهود أوربا الشرقية والوسطى فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وهى لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكتب بأحرف عبرية وتكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية.

- يكاترينا (كاترين) العظمى : Catherine The Great، قيصرة روسيا، اعتلت العرش فى 9يوليو 1762بعيد اغتيال زوجها القيصر بطرس الثالث وبقيت فى الحكم حتى وفاتها فى 17 نوفمبر عام 1796 تركت آثارا ملموسة فى تحديث روسيا وانفتاحها على أوربا.

المؤلف فى سطور

. افيل روشفالد (Aviel Roshwald)

أستاذ التاريخ فى جامعة جورج تاون بالعاصمة الأمريكية واشنطن. من مواليد عام 1962. له العديد من المؤلفات، فى مقدمتها كتاب «بريطانيا وفرنسا والشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الثانية» (من مطبوعات جامعة أوكسفورد)، الذى صدر عام 1990. كما شارك فى تأليف كتاب «الثقافة الأوربية فى الحرب العظمى: الفن والترفيه والدعاية» 1914-1918 (من مطبوعات جامعة كمبريدج).

المترجمان فى سطور:

. عاطف معتمد عبد الحميد

أستاذ الجغرافيا المساعد، كلية الآداب، جامعة القاهرة. حاصل على الدكتوراه من جامعة سان بطرسبرج، روسيا، عام 2001. وحائز على جائزة الدولة التشجيعية فى العلوم الاجتماعية عام 2009، باحث ومترجم فى قضايا الجغرافيا السياسية. بريد إلكترونى: atefoov@gmail.com

. عزت نمر زيان

أستاذ مساعد بمعهد التخطيط القومى. حاصل على دكتوراه فى جغرافية السكان من ألمانيا. يعمل خبيرا فى معهد التخطيط القومى بالقاهرة. باحث ومترجم فى قضايا التنمية والتخطيط القومى والإقليمى. بريد إلكترونى:
ezzatzayyan678@hotmail.com

التصحيح اللغوى: وجيه فاروق
الإشراف الفنى: حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب